الميسر في التفسير المختصر من

تفسير النسفي

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

للشيخ أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي
المتوفى سنة ٧٠١ هـ

وبعض غيره

المجلد الأول

اختصار
أ.د. محمد البكري

شركة دار المشاريع

الطبعــة الأولى

١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٥ م

شركة دار المشاريع

بيــروت - لبنـــان

العنوان: المزرعة، بربور، شارع ابن خلدون، بناية الإخلاص

تلفون وفاكس: ٣١١ ٣٠٤(١ ٩٦١)٠٠

صندوق بريد: ٥٢٨٣ - ١٤ بيروت - لبنان



ISBN 978-9953-20-921-0



email: dar.nashr@gmail.com

www.dmcpublisher.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، تبصرة لأولي الألباب، وأودعه من فنون العلم والحكم العَجب العجاب، وجعله أجلَّ الكتب قدرًا، وأغزرَها علمًا، وأعذَبها نظمًا، وأبلغها في الخطاب: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الزمر] ولا شبهةَ فيه ولا ارتياب.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له الذي عنت لقيُّومِيَّته الوجوه وخضعت لعظمته الرقاب.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله إلى خير أُمة بأفضل كتاب، وصلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه الأنجاب، صلاة وسلامًا دائمين إلى يوم المآب.

توطئة:

إن القرءان يَنبوعُ العلوم ومَنشؤها، ومبنى قواعد الشرع وأَساسُه، وأصلُ كل علم ورأسُه، والاستشراف على معانيه لا يتحقق إلا بفهم مَبانيه، فاهتم به العلماء الأجلاء، أهلُ الشرف الباذخ، والمجد الراسخ، لهم المناقب والمحاسن، كيف لا وقد رفع قَدرَهم الرفيعَ ربُّ العباد، حيث قال في محكم الآيات: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴿٣٢﴾﴾ [سورة فاطر].

فالفقيه يستنبط منه الأحكام، ويستخرج حُكْمَ الحلال والحرام، والنحوي يبني منه قواعدَ إعرابه، ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه. والبيانيُّ يهتدي به إلى حسن النظام، ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام.

وفي القرءان من القَصص والأخبار ما يُذَكِّر أُولي الأبصار، ومن المواعظ والأمثال ما يزدجِرُ به أولو الفكر والاعتبار، إلى غير ذلك من علوم لا يُقَدِّر قدرها إلا مَن علمَ حصرها.

ثم إن علم التفسير من أَجلّ هذه العلوم وأهمها حيث يتوصل به إلى فهم معاني القرءان الكريم، ويُستفاد منه استنباطُ الأحكام الشرعية والاتعاظ بما فيه من

القَصَص والعِبَر إلى غير ذلك من الفوائد، إضافةً إلى ما يعرف به من أسباب نزول الآيات، مع معرفة مَكّيّها ومَدَنيّها ومُحكمِها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصّها وعامّها ووعدها ووعيدها وغير ذلك.

قال عزّ من قائل في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الزمر].

وقد أنزل الله تعالى القرءان الكريم نورًا مبينًا، وحبلًا متينًا، وميزانًا عدلًا قويمًا، ليسعَدَ من شاء الله له السعادة دنيا وأخرى، قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة النحل].

فالقرءان بَحْرُ جواهِرَ، يَنالُ أغلاها الغوَّاصون، وَنهر عَذْب، ينهَل منه الناس الحقَّ والقِيَم، والنظامَ والحِكَم، والعِلم ومكارمَ الأخلاق، وهو محفوظ حتى أَبَد الآبدين، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحجر].

فمن أراد الفلاح في الأُولى والثانية لا يهجُرُ كتابَ الله تبارك وتعالى، قال الله سبحانه وتعالى في كتابه المكنون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة فاطر]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة البقرة].

فكتابُ الله فيه الشفاء، حَقُّ الشفاء، قال جلّ شأنه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الإسراء].

إنَّ الله تبارك وتعالى أرسلَ محمدًا ﷺ بالهُدى ودينِ الحق، وختمَ به الأنبياء والمرسلين، وأنزل عليه القرءان الكريم، فأعجزَ خليقَته عن معارضته، وعن الإتيان بسورة مِن مِثله في مقابلته، أمرَ فيه وزَجر، وبشَّر وأنذر، وقَصَّ عن أحوال الماضين ليُعتبر، وضربَ فيه الأمثال ليُتدبر، ولا حصول لهذه المقاصد إلا بدرايةِ تفسيره، ومعرفة أسباب نزوله وأحكامه، والوقوف على ناسخه ومنسوخه، ومعرفة خَاصِّهِ وعَامِّهِ.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**خيركم مَن تعلَّم القرآنَ وعلَّمَه**»، وقال: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوتِ الله، يتلون كتابَ اللهِ ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينةُ، وغَشيَتْهُم الرحمةُ، وحَفَّتهم الملائكةُ، وذكَرهمُ اللهُ فيمَن عندَه**».

وكتاب تفسير الإمام أبي البركات النسفي، من أهم كتب التفسير المعتمدة وأَوجزها، وقد يَسّرَ اللهُ لي قراءَتَهُ بتمامه سوى تفسير سورة الأَعراف على مولانا الإمام العلامة الحافظ عبد الله الهرري العبدري رحمه الله تعالى، أما سورةُ الأعراف فقد قرأَها على شيخنا الهرري صديقنا الشيخُ الدكتور عبد الرزاق الشريف رحمه الله تعالى وأنا أسمع، وقد لفتني أَثناء قراءتي على شيخنا رحمه الله تعليقاته التي كانت جواهرَ ثمينة في تقويةِ بعض الأقوال وتضعيفِ أخرى - وذلك حيث ذكر النسفي عِدةَ أقوال في تفسير الآية الواحدة - وشَرحٍ نفيس لبعض العبارات، وتصحيحٍ لبعض الأحاديث الواردة في التفسير وتضعيفٍ لأُخرى، وقد يذكر تفسيرًا لبعضٍ الآيات غيرَ ما ذَكَرَهُ المؤلف في تفسيرها وذلك في مواضعَ قليلة. فأَحببت أن أَعملَ على اختصاره، والاقتصارِ على التفسير الأقوى إن أمكن، حيث ذكر المؤلف أقوالًا عديدة في تفسير بعض الآيات، وعلى الاقتصار على تفسير واحد أو اثنين حيث كان ذلك كافيًا في إيضاح المعنى مع حذف كل ما فيه تطويلٌ في الشروحات اللغوية والنحوية والبلاغية وتعدد القراءات القرءانية، بما لا يؤدي إلى خلل في وضوح المعنى، وليس ذلك الحذف لعدم فائدة القدر المحذوف في الغالب، بل ليسهُلَ أَمره على العامة، ويكونَ مرجعًا قريبًا للخاصَّة، كذلك عَمَدتُ إلى حذف كل ما فيه من نقل صريح عن الزمخشري والجاحظ[(١)] لكونهما من المعتزلة، فلا يستحقان النقل عنهما، على أن الإمام النسفي رحمه الله يردُّ على الزمخشري في كثير من المواضع وينصر عقيدة أهل السنة والجماعة ويَرُدُّ على عقيدة المعتزلة التي حاول الزمخشري بثها في تفسيره المسمَّى الكشاف، والذي كان أحيانًا يُزَوِّر فيه الحقائق، ويدعي أقوالًا نحوية وبلاغية غير مُسَلَّمٍ بها، أو غير موجودة أصلًا زورًا لنصرة مذهبه.

---

(١) نقل النسفي عن الجاحظ - وهو فاسدٌ عقيدةً وعملًا، عقيدتُه نجسةٌ، وكان يشربُ الخمرَ - هذا القولَ الباطل: «إن الجن والملائكة جنسٌ واحد، فمن طَهُرَ منهم فهو مَلَك، ومن خَبُث فهو شيطان، ومن كان بينَ بينَ فهو جن»، وذلك عند تفسيره ءاية **٣٤** من سورة البقرة.

ترجمة الإمام النسفي

هو الإمام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، أبو البركات، حافظ الدين. فقيه حنفي، مفسر من أهل إيذَج (من كور أصبهان) ووفاته فيها. نسبته إلى «نسف» مدينة في ما وراء النهر «بأوزبكستان حاليًّا» بين نهر جيحون وسمرقند. وهو مجهول سنة الولادة، وتوفي سنة إحدى وسبعمائة من الهجرة، ٧٠١هـ، هذا الذي اعتمده الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة وعدد من المؤلفين في التراجم.

ذكر ذلك صاحب «الجواهر المضيَّة في طبقات الحنفيَّة» محمد بن محمد بن نصر الله القرشيُّ الحنفيُّ المتوفَّى سنة ٧٧٥هـ. وهو أوَّل من صنَّف في طبقات الحنفيَّة وقال: إنه نقل ذلك عن بعض الفضلاء وهو المؤرِّخ تقيُّ الدين المقريزيُّ.

وصاحب «المنهل الصافي والمستوفَى بعد الوافي» أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الحنفي المتوفَّى سنة ٨٧٤هـ. ومُلَّا عليّ القاريّ المتوفَّى سنة ١٠١٤هـ. في طبقات القاريّ «الأثمار الجنيَّة في أسماء الحنفيَّة». وحاجي خليفة المتوفَّى سنة ١٠٦٧هـ. في «سُلَّم الوصول إلى طبقات الفحول» فقال: إنه توفّي سنة إحدى وسبعمائة، وقيل: عشرة وسبعمائة.

وقال غيرُ واحد من المترجمين إنه توفي سنة ٧١٠هـ.

كان أحد الزُّهاد المتأخرين، والأئمة المعتبرين، رأسًا في الفقه والأصول، بصيرًا بكتاب الله تعالى، وهو صاحب التصانيف المفيدة المعتبرة في الفقه والأصول وغيرهما.

كان فقيهًا وأصوليًا ومفسرًا ولغويًّا وعالمًا من علماء القراءات، ويبدو ذلك واضحًا في تصانيفه، وينتصر في مذهبه الكلامي للعقيدة الماتريدية - وهي عقيدة أهل السنة والجماعة مع العقيدة الأشعرية - ويرد على الفِرَق المخالفة.

أهم مصنفاتِهِ:

للإمام النسفي مصنفات كثيرة، منها:

- «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، ثلاثة مجلدات في تفسير القرءان، وهو الكتاب الذي عملنا اختصاره.

- «كنز الدقائق» في الفقه.
- «المنار» في أصول الفقه.
- «كشف الأسرار» شرح المنار.
- «الوافي» في الفروع.
- «الكافي» في شرح الوافي.
- «المستصفى» في شرح منظومة أبي حفص النسفي، في الخلاف.
- «عمدة العقائد».

أهمية تفسيره:

شرفُ العلم بشرف المعلوم، وكتاب الله هو المعجزة المستمرة، الذي يُلتمس من تفسيره وعلومه الهداية.

وكتاب الإمام النسفي «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» كتب الله له البروز وعميمَ النفع، وعُرف بـ«تفسير النسفي»، وهناك اختلاف يسير بين نُسخ تفسير النسفي المخطوطة، ولقد اعتمدت في اختصاره على نسخة مصورة عن مخطوطة الأحمدية، وهي موجودة في مكتبة دمشق، وعلى نسخة «دار المعرفة» المطبوعة ونسخة دار النفائس المطبوعة، ولا شك أن الكتاب للإمام النسفي، إذ أشار إليه كلُّ من ترجم له.

وهو كتاب سهل المأخذ، جامع لوجوه الإعراب والقراءات. ويُصَنَّف ضمن التفسير بالرأي أي بالاجتهاد، ورغم ذلك هو حافل بجوانبَ من التفسير بالمأثور، فكثيرًا ما يفسر القرءان بالقرءان أو بالسنة أو بأقوال الصحابة أو التابعين، ويهتم بذكر أسباب النزول.

وقد التزم الإمام النسفي هذا المنهج في تفسيره، وكان ينتصر للمذهب الحنفي بعد عرض بعض أقوال أهل المذاهب الأخرى، فيقول: «وهو عندنا»، و«هذا دليل عندنا»، يريد المذهب الحنفي.

ومع أنه قد اعتمد في كثير من مواضعه على تفسيرين:

الأول: تفسير «الكشاف» للزمخشري.

الثاني: تفسير البيضاوي، المختصر بدوره عن: «الكشاف»، و«التفسير الكبير» للفخر الرازي.

إلا أنه ترك ما في «الكشاف» من الاعتزالات، وجرى فيه على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، وليس كما قيل عنه إنه مختصر لتفسير الكشاف للزمخشري، أو لتفسير البيضاوي، أو لهما فقط، بل هو جامع لنقول عن كثير من المفسرين والعلماء غيرهما، أحيانًا مع الإحالة إلى أصحابها، وأحيانًا من غير إشارة إلى ذلك، كـ«شرح التأويلات للماتريدي»، و«الكشف والبيان للثعلبي»، و«جامع البيان للطبري»، وغيرهم، وهو تفسير وسط بين الطول والقصر، جمع فيه صاحبه بين وجوه الإعراب والقراءات، والنكت البلاغية والبديعية، والكشف عن المعاني الدقيقة الخفية، ولم يكثر في تفسيره من طريقة الأسئلة والأجوبة: «فإن قيل... قلت»، على طريقة الزمخشري بل جعله في الغالب كلامًا مدرجًا ضمن شرحه للآية، كما أنه لم يقع في ما وقع فيه صاحب «الكشاف» من الإكثار من ذكر الأَحاديث الموضوعة في فضائل السور.

أما من ناحية القراءات فهو ملتزم للقراءات السبع المتواترة مع نسبة كل قراءة إلى قارئها في بعض الأحيان، وقد يتعرض في بعض الأحيان عند تفسيره لآية من ءايات الأحكام للمذاهب الفقهية التي لها تعلق وارتباط بالآية، ويُوجِّه الأقوال فيها ولكن من دون توسع.

كما أنه مُقِل جدًّا في ذكره للإسرائيليات، وما يذكره من ذلك يتعقبه بالرد ولا يرتضيه، ولكنه أحيانًا يمر عليه من دون أن يتعقبه.

وكان يتصدى للتنبيه والرد على القصص المكذوبة التي تتنافى مع عصمة الأنبياء، ولا يتساهل في ذلك، ولعله يرى أن كل ما يمس العقيدة من هذه القصص يجب التنبيه على عدم صحته، وما لا يمس العقيدة فلا مانع من روايته من دون تعقيب عليه، ما دام يحتمل الصدق والكذب في ذاته، ولا يتنافى مع العقل أو يتصادم مع الشرع.

الجِدَّة في العمل:

لم أعثر على أحد سبقني إلى اختصار تفسير النسفي غير مخطوط تحت عنوان:

مختصر تفسير النسفي، لأبي بكر بن أحمد العمادي الزرعي، في المكتبة العمومية في إستانبول، تحت رقم ٢٩، (٥٧١/ ٢٩١). ولم أستطع الوصول إليه.

وعمدتُ إلى وضع الزيادة من قِبَلي على أصل المتن بين عضادتين [ ]، وذلك عند الضرورة، لأجل الربط بين جملتين بعد الاختصار، وهذا نادر، ولكن أكثر ما يكون عند عدم وجود شرح للآية من قِبَل النسفي، إما بسبب تكرارها، أو بسبب ظنّ النسفي أنها واضحة، أو بسبب سهو، أو بسبب التعليق عليها من ناحية أخرى؛ وذلك من شروحات أخرى، كـ«البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي، و«الجامع لأحكام القرءان» للقرطبي و«تفسير الطبري» و«التيسير في التفسير» لأبي حفص النسفي صاحب العقيدة النسفية وهو متقدم على النسفي أبي البركات صاحب التفسير الذي نعمل عليه.

ثمرة العمل:

إن الهدف الأساس لهذا العمل هو إخراج أحد أهم شروح القرءان الكريم وأشهرها، بطريقة مختصرة، قريبة من متناول كل المسلمين، على اختلاف مستوياتهم الثقافية، ومعلوماتهم الدينية، للتعرف على شرح مباشر لمعاني الآيات الكريمات، بتلقِّيه من أهل العلم والمعرفة.

عملي في التفسير:

إن عملي في هذا التفسير ينحصر في إنجاز كتاب مختصر لتفسير الإمام النسفي، بطريقة الحذف من غير زيادات إنشائية، أو تغيير في أصل العبارات، وذلك بحذف التعليلات اللغوية والنحوية، وتعدد الأقوال، والروايات الضعيفة، والأحاديث الضعيفة، مع جلب تفسيرات أخرى من غير تفسير النسفي حيث دعت الحاجة لذلك في حالات قليلة، ووضعتها بين معقوفتين [ ] هكذا.

ويمكن الاختصار بالآتي:

- عمل مقدمة لطيفة عن تفسير القرءان، وحياة المؤلف، ومنهجي في الاختصار.
- اختصار الشرح ليصير في مجلدين.

- رسم الآيات القرءانية بالخط العثماني، مع عزو الآيات التي استدل بها خلال شرحه إلى سورها.
- وضع شكل على الأحاديث والشعر، وبعض الكلمات حيث ينبغي.
- شرح الكلمات المبهمة.
- وضع بعض التعليقات اللطيفة.

وإن هذا التفسير - بإذن الله - لن يكون مجرد رقيم يُضاف إلى ورق كثير مطبوع في مستودعات الجامعات والمكتبات، بل هو محاولة جادَّة لإفادة الناس، في زمن السرعة والتسرُّع.

ومع أن بضاعتي مزجاة، ولكن حسبي المحاولة، والله هو الموفق والمستعان.

وصلى الله على النبي محمّد وءاله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين، أوَّلًا وءاخرًا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

قال المؤلف أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي رحمه الله:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، هو حسبي لا إلٰه إلا هو عليه توكلت، وصلَّى الله على سيدنا محمد وسلَّم.

الحمد لله المنَزَّهِ بذاته عن إشارة الأوهام، المقدَّسِ بصفاته عن إدراك العقول والأفهام[١]، المتصف بالألوهيّة قبل كل موجود[٢]، الباقي بالنعوت السرمديَّة[٣] بعد كل محدود[٤]، المتكبرِ[٥] الذي أزاحت سَطَوات كبريائه الأفكار[٦]، القديمِ الذي تعالى عن مماثلة الحَدَثان[٧]، العظيمِ الذي تنزه عن مماسة المكان، المتعالي عن مضاهاة الأجسام ومشابهة الأَنام[٨]، القادرِ الذي لا يشار إليه بالتكييف، القاهرِ الذي لا يُسأل عن التحميل والتكليف[٩]، العليمِ الذي خلق الإنسان وعلَّمه البيان، الحكيمِ الذي نزَّل القرءان شفاءً للأرواح والأبدان،

(١) معناه ذاته لا يشار إليه، وصفاته لا تدركها العقول والأوهام، أي لا تحيط بها.
(٢) المعنى أن ألوهيّة الله أزلية، ليست حدثت فيه بحدوث المخلوقات.
(٣) السرمد: الدائم الذي لا ينقطع.
(٤) المحدود: الشيء الذي له كمية.
(٥) المتكبر بمعنى الكبير، لكن أبلغ من الكبير، وذلك للزيادة في الحروف، ومعناه المنزه عن كل ما لا يليق به.
(٦) معنى أزاحت سطوات كبريائه الأفكار: منعتها من أن تصل إلى معرفة حقيقته.
(٧) أي: مشابهتها، والحَدَثان الحوادث.
(٨) الأنام: ما ظهر على وجه الأرض من جميع الخلق، وقيل الإنس والجن. وهذا تخصيص بعد تعميم.
(٩) التحميل والتكليف بمعنى واحد.

والصلاةُ والسلام على المُسْتَلِّ من أُرومَةِ[1] البلاغة والبراعة، المُحْتَلِّ[2] في بُحبوحة النَّصاحة والفَصاحة، محمدٍ المبعوث إلى خليقته، الداعي إلى الحق وطريقته، صلى الله وسلم عليه وعلى ءاله وشيعته[3].

قد سألني من تتعين إجابته كتابًا وسطًا في التأويلات، جامعًا لوجوه الإعراب والقراءات، متضمنًا لدقائق علمَي البديع والإشارات، حالِيًا[4] بأقاويل أهل السنة والجماعة، خاليًا عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل المُمِلّ، ولا بالقصير المُخِلّ، وكنت أقدّم فيه رِجْلًا وأؤخّر أخرى استقصارًا لقوة البشر، عن درك هذا الوَطَر[5]، وأخذًا لسبيل الحذر، عن ركوب متن[6] الخطر، حتى شرعت فيه بتوفيق الله والعوائقُ كثيرة، وأتممته في مدة يسيرة، وسميته «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، وهو الميسِّر لكل عسير، وهو على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

---

(١) أي: أصل.

(٢) أي: النازِلِ والثابت.

(٣) أي: أتباعه وأنصاره.

(٤) حاليًا: متزيّنًا.

(٥) الوَطَر: كلّ حاجة يكون لك فيها همَّة، فإذا بلغها البالغ قيل قَضَى وَطَرَه وأَرَبَه.

(٦) المتن: الظهر.

فاتحة الكتاب
مكية وقيل مدنية والأصحُّ أنها مكية ومدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نزلت بمكة حين فُرضت الصلاة ثم نزلت بالمدينة حين حُوّلت القِبلة إلى الكعبة وتُسمى أمَّ القرءان للحديث قال عليه الصلاة والسلام: «**لا صلاةَ لمنْ لمْ يَقرأْ بأمّ القرءانِ**». ولاشتمالها على المعاني التي في القرءان، وسورةَ الوافيةِ والكافية لذلك، والشفاءَ والشافيةَ، والمثانيَ لأنها تُثنَّى[(١)] في كل صلاةٍ، وسورةَ الصلاة لما يُروى[(٢)] ولأنها تكون واجبة[(٣)] أو فريضة[(٤)]، وسورةَ الحَمْدِ والأَساس فإنها أساسُ القرءان، قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «إذا اعتَلَلْتَ أو اشتَكَيْتَ فعليك بالأساسِ»، وءايُها سَبعٌ بالاتفاق.

١- ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾ قُرَّاءُ المدينةِ والبَصرة والشام وفقهاؤها على أنّ التسميةَ ليست بآيةٍ من الفاتحة ولا من غيرها من السُّور – [ولكنها بعضُ ءاية في سورة النمل في قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ

---

(١) أي: تُكَرَّر.

(٢) أرادَ الحديث القدسيَّ: «**قسمتُ الصلاة**».

(٣) الفاتحة ليست من أركان الصلاة عند أبي حنيفة، لكن قراءتها واجبة، ومَن تركها عمدًا أَثِم، ويجب عليه إعادة الصلاة في الوقت، فإن ترك الإعادة أَثِم. وإن تركها سهوًا وجبَ عليه سجودُ السهو.

(٤) يعني بقوله: «أو فريضة» عند غير الحنفية لأن الفريضة عندهم ما كان ركنًا.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾] -، وإنما كُتبت للفَصْلِ والتبرك بالابتداء بها، وهو مذهبُ أبي حنيفة ومن تابعَهُ رحمهم الله، ولذا لا يُجهَرُ بها عندهم في الصلاة؛ وقُراءُ مكةَ والكوفةِ على أَنها ءاية من الفاتحة ومن كل سورةٍ [سوى براءة (التوبة) فإنها لا تبدأ بالبسملة]، وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله، ولذا يَجهرون بها في الصلاة، وقالوا: قد أَثبتها السلفُ في المصحف مع الأَمر بتجريدِ القرءان عما ليس منه. ولنا[1] حديثُ أبي هريرة قال سمعتُ النبي عليه السلام يقول: «**قال اللهُ تعالى قَسَمْتُ الصلاةَ** - أي الفاتحةَ - **بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل فإذا قالَ العبدُ** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ **قال اللهُ تعالى: حَمِدني عَبْدي، وإذا قالَ:** ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللهُ تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، **قال: مَجَّدني عبْدي، وإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، **قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سألَ، فإذا قال:** ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾، **قال: هذا لعبدي ولِعَبدي ما سأل**».

[فمذهب الشافعي رضي الله عنه أن البسملة ءاية من الفاتحة ومن كل سورة سوى براءة، ومذهب أبي حنيفة وأحمد أنها ءايةٌ مستقلة بين كل سورتين سوى بين الأنفال والتوبة (براءة) فيكره ابتداؤها بها، ومذهب مالك أنها ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها في أوائل السُّوَر، وإنما كُتبت للتَّيَمُّن والتَّبرك بها مع إجماعهم على أنها بعضُ ءاية من سورة النَّمل، وأن بعضَها ءايةٌ من الفاتحة]. وتعلّقت الباء [في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾] بمحذوف تقديره «باسم الله أقرأ أو أتلو»، لأن الذي يتلو التسميةَ مقروءٌ، وكذا الذابحُ وكل فاعل يَبدأ في فعله باسم الله كان مضمرًا[2] ما جَعَلَ التسميةَ مَبدأً له، وإنما قدّر المحذوف متأخرًا لأن الأهم من الفعل

(١) أي: الحنفية.

(٢) مضمرًا: مقدرًا.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

والمتعلِّقِ به هو المتعلِّقُ به[١]، وكانوا يبدأون بأسماء ءالهتهم [المزعومة] فيقولون: باسم اللاتِ وباسم العُزَّى، فوجَبَ أن يَقصِدَ الموحِّدُ معنى اختصاص اسم الله عز وجل بالابتداءِ، وذا بتقديمِهِ وتأخير الفعل[٢]، وإنما قُدّم الفعلَ في ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ۝١﴾ [سورة العلق] لأنها أول سورةٍ نزلت في قولٍ، وكان الأمر بالقراءةِ أهمَّ فكان تقديمُ الفعلِ أوقعَ[٣].

﴿ٱللَّهِ﴾ مُختَصٌّ بالمعبود بالحقّ لم يُطلق على غيره، وهو اسمٌ غيرُ صفة لأنك تصِفُه ولا تصِفُ به، تقول: اللهُ واحِدٌ صمدٌ. و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو الذي وَسِعَت رحمته كل شيء، وفي الرحمٰن من المبالغة ما ليس في الرحيم، ولذا جاء في الدعاء «يا رحمٰنَ الدنيا» لأنه يعمُّ المؤمن والكافر، و«رحيمَ الآخرة» لأنه يَخُصُّ المؤمنَ، وقالوا: الرحمٰن خاصٌّ تسميةً لأنه لا يوصَفُ به غيره، وعامٌّ معنًى[٤] لما بيَّنَّا، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بعكسه لأنه يوصَفُ به غيره، ويَخُصُّ المؤمنين، ولذا قَدَّمَ الرحمٰنَ وإن كان أبلغَ، والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى[٥]. ورحمة الله إنعامه على عباده.

٢- ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هو الوصف بالجميل على جهة التفضيل[٦] ﴿لِلَّهِ﴾ أي واجب أو ثابت، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الربُّ المالك، ولم يُطلقوا الربَّ

---

(١) أي: أن الأهم بين الفعل المقدَّر الذي هو أقرأ أو أتلو، وبين المتعلِّقِ به الذي هو بسم الله، هو المتعلِّقُ به وهو بسم الله.
(٢) أي: بتقديم اسم الله على الفعل المقدر يُفهم اختصاصُ الله تعالى بقصد التبرك بذكره دون غيره.
(٣) أي: أكثر تأثيرًا في النفوس.
(٤) أي: لا يسمى به غير الله، لكن معناه بحسب اللغة كثير الرحمة.
(٥) هذا جاء على خلاف الغالب، إذ الغالب أن يُذكر الأدنى ثم الأعلى.
(٦) أي: ليس على جهة التحقير، لأنه قد يوصف الشيء بالجميل لا على وجه التبجيل، بل على وجه الإهانة والتهكم، كما يقال لأبي جهل يوم القيامة: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [سورة الدخان].

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾

إلا في الله وَحْده[١]، وهو في العبيد مع التقييد ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ٢٣﴾[٢] [سورة يوسف] ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ ٥٠﴾ [سورة يوسف][٣]، وهو اسم الله الأعظم[٤]، والعالَم كل ما عُلِمَ به الخالق من الأجسام والجواهر والأعراض[٥]، أو كل موجود سوى الله تعالى، سُمي به لأنه عَلَمٌ على وجوده[٦].

٣- ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ذكرهما قد مرّ.

٤- ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجَزاءِ، ويقال: كما تَدِيْنُ تُدان، أي كما تَفعَل تُجازى، أي مالكِ الأَمرِ كُلِّه في يوم الدين، والتخصيصُ بيومِ الدين لأن الأمر فيه للهِ وحدَه. وهذه الأوصافُ التي أُجريت على الله سبحانه وتعالى مِنْ كونهِ ربًّا أي مالكًا للعالمين ومُنعمًا بالنِّعَم كلها ومالكًا للأَمر كلِّه يومَ الثوابِ والعقاب بعدَ الدلالة على اختصاص الحمدِ به في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، دليلٌ على أَنَّ مَنْ كانت هذه صفاته لم يكن أَحدٌ أَحقَّ منه بالحمد والثناء عليه.

٥- ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ نَخُصُّكَ بالعبادة، وهي أَقصَى غايةِ الخُضوعِ والتذلل، ونخصُّكَ بطلب المَعونَةِ؛ وعُدل عن الغَيْبَة[٧] إلى

---

(١) الربُّ: بالألف واللام لا يُطلق إلا على الله.
(٢) هذه الآية وردت في حق يوسف عليه السلام وفيها قولان أحدهما أنه أراد أن الله تعالى أحسن مثواه، والثاني أن العزيز الذي هو في صورة السيد أحسن مثواه.
(٣) معناه أنه في الآيتين في القرءان أطلق على غير الله، لأنه غير مقرون بالألف واللام.
(٤) أي: هو الاسم الأعظم في الأسماء المفردة.
(٥) الأجسام ما كان مركبًا من جوهرين فأكثر، وأما الجواهر فهو جمع جوهر، وهو ما كان له كمٌّ. والأعراض: جمع عَرَض، وهو ما يقوم بالأجسام والجواهر.
(٦) أي: دليل على وجود الله.
(٧) هذه الألفاظ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، من أَلفاظ الغَيبة، وأما ﴿إِيَّاكَ﴾ فهو من أَلفاظ الخِطاب، هذا يقال له عند علماء البيان الالتفات.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٧﴾

الخِطابِ للالتفات، وهو قد يكون منَ الغَيبَةِ إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغَيْبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم[1] بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ۝٢٢﴾ [سورة يونس]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ ۝٩﴾[2] [سورة فاطر]، والعرب يَستكثرون منه، وَيَرون الكلام إذا انتقل من أُسلوب إلى أسلوب أَدخلَ في القَبول عندَ السامع، وأحسنَ تطريةً[3] لنشاطه، وأملأ لاستلذاذ إصغائه، وقد تَختَصُّ مواقعه بفوائدَ ولطائفَ قلَّما تتَّضح إلا للحُذَّاق المَهرَة والعلماءِ النحارير، وقليلٌ ما هم؛ ومما اختصَّ به هذا المَوضِعُ أنه لما ذُكِرَ الحَقيقُ بالحمد والثناء وأُجريَ عليه تلك الصفاتُ العظام، تعلَّقَ العِلمُ بمعلوم عظيم الشأن حقيقٍ بالثناء وغايةِ الخُضوع والاستعانة في المهمات، فخُوطِبَ ذلك المعلومُ المتميزُ بتلك الصفات، فقيل: إيَّاكَ يا مَن هذه صفاتُه نعبدُ ونستعين لا غيرَك، وقُدِّمَتِ العبادةُ على الاستعانة لأن تقديمَ الوَسيلة قبلَ طلبِ الحاجة أَقربُ إلى الإجابة، أو لنظمِ الآي كما قُدِّمَ الرحمٰن، وأُطلقت الاستعانة لتتناول كُلَّ مستعانٍ[4] فيه، ويجوز أن يُرادَ الاستعانةُ به وبتوفيقه على أَداء العبادات.

٦- ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ ثَبِّتْنا على المِنهاج الواضح، أو اهدنا في الاستقبالِ كما هَدَيتنا في الحال[5].

٧- ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فائدتُه التأكيدُ والإشعار بأن الصراطَ المستقيمَ تفسيرُهُ: صراطُ المسلمين، ليكون ذلك شهادةً لصِراطِ

---

(١) وقوله تعالى ﴿بِهِم﴾ نُزِّل مكانَ (بكم)، مكانَ الخطاب.
(٢) و﴿أَرْسَلَ﴾ هذا من ألفاظ الغَيبة، و(سُقناه) من ألفاظ التكلم.
(٣) أي: تجديدًا.
(٤) معناه أنه ما قال: إياك نستعين في كذا، بل أطلق.
(٥) اهدنا في المستقبل كما هديتنا في الحال.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

المسلمينَ بالاستقامة على أَبلغ وَجْهٍ وءاكَدِه، وهم المؤمنون أو الأنبياءُ عليهم السلام، أو قومُ موسى قبل أن يغيّروا[١] ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ بدلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، يعني أن المُنْعَمَ عليهم هم الذين سَلِموا من غَضَبِ الله والضلال، أو جَمَعوا بين النعمةِ المُطلقة وهي نعمةُ الإيمان وبينَ السلامةِ من غَضَبِ الله والضلال، وغَضَبُ الله إرادةُ الانتقام من المكذبين وإنزالُ العقوبةِ بهم، وقيل: المغضوبُ عليهم هم اليهودُ، لقوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ۝٦٠﴾ [سورة المائدة]، والضالون هم النصارى[٢] لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ ۝٧٧﴾ [سورة المائدة]، و«لا» زائدة عند البصريين للتوكيد[٣]، وعند الكوفيين هي بمعنى غير.

ءامين[٤] صوتٌ سُمِّيَ به الفعلُ الذي هو «اسْتَجِبْ» كما أن رويدًا اسمٌ لأَمْهِل، وليس من القرءان، بدليل أنه لم يُثْبَت في المصاحف[٥].

---

(١) أي: صراطَ قوم موسى المسلمين.
(٢) هذا التفسير الأخير هو الذي يترجَّح بحديث الترمذي في سننه أن النبي ﷺ فسّرها أي ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ باليهود و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ بالنصارى.
(٣) لا التي في ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ للتأكيد، لو لم يؤتَ بها لفُهم المعنى، لو قيل: غير المغضوب عليهم والضالين لفهم المعنى، لكن إدخال لا على الضالين فيه تأكيد.
(٤) ءامين عربية ليست أعجمية.
(٥) أي: المصاحف العثمانية. لكن يُسَنُّ خَتم السورة به.

سورة البقرة
مدنية وهي مائتان وست أو سبع وثمانون ءاية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ①﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١- ﴿الٓمٓ ①﴾[١] ونظائرها أسماءٌ[٢]، مُسَمَّياتُها الحروفُ المبسوطة التي منها ركّبت الكَلِمُ، ثم الجمهورُ على أَنها أسماءُ السُّوَر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَقسَمَ اللهُ بهذه الحروف، وقيل: إنها من المتشابه الذي لا يعلَمُ تأويلَه إلا الله. وقيل: ورودُ هذه الأسماءِ على نَمَطِ التعديد كالإيقاظ لمن تُحُدِّيَ بالقرءان، وكالتحريكِ للنَّظرِ في أن هذا المَتْلُوَّ عليهم - وقد عجزوا عنه عن ءاخرهم - كلامٌ منظوم من عين ما يَنظِمونَ منه كلامَهم، ليؤدِّيَهم النظرُ إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقَطْ مَقدرتهم دونه ولم يظهر عجزُهم عن أن يأتوا بمثله بعدَ المراجعات المتطاوِلَةِ - وهم أُمراءُ الكلام - إلا لأنه ليس من كلام البشر، وأنه كلامُ خالق القُوَى والقُدَر. فكأَنَّ اللهَ تعالى عَدَّدَ على العَرب الألفاظَ التي منها تراكيب كلامهم إشارةً إلى ما مرَّ من التبكيت[٣] لهم وإلزامِ الحجة إياهم. وإنما جاءت مفرقة على السور، لأن إعادةَ التنبيهِ على المُتَحَدَّى به مؤلَّفًا منها لا غير أَوصَلُ إلى

---

(١) ﴿الٓمٓ ①﴾ خبر لمبتدإ محذوف: أي هذه ﴿الٓمٓ﴾، هذه اسم الإشارة مبتدأ، و﴿الٓمٓ﴾ خبر.
(٢) معناه أنها ليست حروفًا بل هي أسماء.
(٣) التبكيت: الإسكاتُ والإلزام.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾

الغرض، وكذا كل تكريرٍ ورد في القرءان فالمطلوب منه تمكينُ المُكَرَّرِ في النفوس وتقريرُه، ولم تجئ على وتيرةٍ[1] واحدةٍ، بل اختلفت أعداد حروفها مثل: ﴿صٓ ۝١﴾ [سورة ص] و﴿قٓ ۝١﴾ [سورة ق] و﴿نٓ ۝١﴾ [سورة القلم] و﴿طه ۝١﴾ [سورة طه] و﴿طسٓ ۝١﴾ [سورة النمل] و﴿يسٓ ۝١﴾ [سورة يس] و﴿حمٓ ۝١﴾ [سورة غافر] و﴿الٓمٓ ۝١﴾ [سورة البقرة] و﴿الٓر ۝١﴾ [سورة يونس] و﴿طسٓمٓ ۝١﴾ [سورة الشعراء] و﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ [سورة الأعراف] و﴿الٓمٓر ۝١﴾ [سورة الرعد] و﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [سورة مريم] و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [سورة الشورى]، فوردت على حرفٍ وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة كعادة افتنانهم[2] في الكلام.

٢- ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي ذلك الكتاب الذي وَعَدَ به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام، أو ذلك الكتاب المُنزل هو الكتابُ الكامل ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شَكَّ، وحقيقة الرِّيبة قَلَقُ النفس واضطرابها، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «**دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ؛ فإن الشك رِيبة، وإنّ الصدق طُمأنينة**»، أي فإنَّ كون الأَمرِ مشكوكًا فيه مما تقلق له النفس ولا تستقرُّ، وكونَه صحيحًا صادقًا مما تطمَئِنُّ له وتسكن، وإنما نَفَى الرَّيب على سبيلِ الاستغراقِ - وقد ارتابَ فيه كثير[3] - لأن المنفيَّ كونُه متعلّقًا للرَّيب ومَظِنَّةً له، لأنه من وضوح الدلالة وسُطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتابٍ أن يقع فيه، لا أنّ أحدًا لا يرتاب. وإنما قيل ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ والمتقون مهتدون، لأنه كقولك للعزيز

(١) أي: طريقة.
(٢) أي: تنوُّعهم.
(٣) ليس المعنى لا أحد يرتاب في القرءان لأنّ كثيرًا من الكفار ارتابوا فيه، وإنما المعنى أنه في ذاته لا ريبَ فيه وإن وقع ريبٌ للكفار بسبب عنادهم وسوء أفهامهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾

المُكْرَم: أَعزَّكَ اللهُ وأَكرمك، تريد طلب الزيادة على ما هو ثابتٌ فيه واستدامَتَه، ولم يقل: هدًى للضالين لأنهم فريقان: فريق عُلِمَ بقاؤهم على الضلالة، وفريق عُلم أن مصيرهم إلى الهدى، وهو هدًى لهؤلاء فحسبُ، فاختُصِرَ الكلام بإجرائه على الطريقة التي ذكرنا فقيل: هدًى للمتقين مع أنّ فيه تصديرًا للسورة التي هي أُوْلَى الزّهراوين(١) وسَنَامُ(٢) القرءان بذكر أولياء الله، والمتقي من يقي نفسه تعاطيَ ما يستحق به العقوبة من فِعلٍ أو ترك، والذي هو أَرسَخُ عِرقًا في البلاغة أن يقال إن قوله ﴿الٓمٓ﴾ جملةٌ برأسها أو طائفةٌ من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ جملةٌ ثانية و﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾ ثالثةٌ و﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ رابعة. وقد أُصيب بترتيبها مَفْصِلُ البلاغة، حيث جيء بها متناسِقةً هكذا من غير حرف عطف، وذلك لمجيئها متآخية ءاخذًا بعضُها بعُنُقِ بعض، فالثانية مُتَّحِدةٌ بالأولى معتنقة لها، وهَلُمَّ جرًّا إلى الثالثة والرابعة؛ بيانُ ذلك أنه نَبَّه أولًا على أنه الكلامُ المُتَحَدَّى به، ثم أُشيرَ إليه بأنه الكتابُ المنعوت بغايةِ الكمال، فكان تقريرًا لجهة التَّحدي، ثم نَفَى عنه أن يتشَبَّثَ(٣) به طَرَفٌ من الرَّيب، فكان شهادةً وتسجيلًا بكماله، لأنه لا كمالَ أكملُ مما للحَقِّ واليقين، ولا نقصَ أَنقصُ مما للباطل والشُّبهة. ثم أخبر عنه بأنه هدًى للمتقين، فقرر بذلك كونَه يقينًا لا يَحُومُ الشكُّ حولَه، وحقًّا لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلفه.

٣- ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي هم الذين ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ بما غابَ عنهم مما أَنبأهم به النبي عليه الصلاة والسلام من أمرِ البَعث والنُّشور والحساب وغير ذلك، والإيمانُ الصحيح أن يُقِرَّ باللسان ويُصَدِّق

(١) سورتَي البقرة وءال عمران.
(٢) سَنَام البعير والناقة: أعلى ظهرهما، وهو خِيار ما في البعير.
(٣) أي: يتعلَّقَ.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾

بالجَنان، والعملُ ليسَ بداخلٍ[١] في الإيمان ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يؤدُّونَها، فعبَّر عن الأداء بالإقامة، لأن القيام بعضُ أركانها أو أريد بإقامة الصلاة الدوامُ عليها والمحافظة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أعطيناهم و«ما» بمعنى الذي ﴿يُنفِقُونَ ۝٣﴾ يتصدقون، والمراد به الزكاةُ لاقترانه بالصلاة التي هي أُختها، أو هي وغيرُها من النفقات في سبل الخير لمجيئه مطلقًا[٢].

٤- ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ هم مؤمنو أَهلِ الكتاب كعَبدِ الله بنِ سلام وأَضرابه من الذين ءامنوا بكل وحي أُنزِلَ من عند الله، وأَيقنوا بالآخرة إيقانًا زال[٣] معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخلُ الجنةَ إلا مَن كان هودًا أو نصارى، وأن النار لَنْ تَمسَّهم إلا أيامًا معدودات.

والمعنى أنهم الجامعونَ بينَ تلك الصفات وهذه. ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني القرءانَ والمرادُ جميعُ القرءانِ لا القدرُ الذي سَبَقَ إنزالُه وقتَ إيمانهم لأن الإيمانَ بالجميع واجبٌ ولأنه إذا كان بعضُه نازلا وبعضُه منتظَرُ النُّزولِ جُعِلَ كأن كُلَّه قد نزل ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني سائرَ الكتب المنزلة على النبيين ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ﴾ هي صِفةٌ والموصوفُ محذوف وهو الدارُ بدليل قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ ۝٨٣﴾ [سورة القصص] ﴿هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ الإيقان إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه.

٥- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ يجوز أن يُجعَلَ اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضًا بأهل الكتاب الذين لا يؤمنون بنبوة رسول الله ﷺ وهم ظانُّونَ

---

(١) العمل لا يدخل في أصل الإيمان، لكن يطلق على العمل الإيمان.
(٢) اللفظ مطلق، يصح أن يكون المراد جميع النفقات في الخير، ليس الزكاة فقط.
(٣) جملة زال نعت للإيقان.

﴿مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ
تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ﴾

أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله. ﴿مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾ أوتوه من عنده ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ الظافرون بما طلبوا الناجون عمَّا هربوا، فالفلاح دَرَكُ البُغية، والمُفلِحُ الفائز بالبغية.

لَمّا قدّم ذكرَ أَوليائهِ بصفاتهم المُقَرِّبَة إليه [قُربًا معنويًا]، وبيَّن أن الكتاب هُدًى لهم قَفَّى على أَثَرِه[1] بذِكرِ أَضدادهم، وهم العُتاة المَرَدَةُ الذين لا ينفع فيهم الهدى بقوله:

٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الكفرُ سَتْرُ الحَق بالجُحود، والمراد بالذين كفروا أُناسٌ بأعيانهم عَلِمَ الله أنهم لا يؤمنون كأبي جَهل وأبي لَهَب وأضرابهما ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ كأنه قيل: إن الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه، والإنذار التخويفُ من عقاب الله بالزجر عن المعاصي ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾[2] جملة مؤكدة للجُملة قبلَها، والحِكمةُ في الإنذار مع العِلمِ بالإصرار إقامةُ الحُجة، وليكون الإرسالُ عامًّا وليُثابَ الرسول ﷺ.

٧- ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الخَتْمُ التغطية، وقال ابن عباس: طَبَعَ الله على قلوبهم فلا يعقِلون الخيرَ، وحاصلُ الختم والطَّبْعِ خَلقُ الظلمة والضيق في صَدْر العبد فلا يؤمنُ ما دامت تلك الظلمةُ في قلبه ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ﴾ أي على مواضع سمعهم ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ﴾ البَصَرُ نورُ العين وهو ما يُبصِرُ به الرائي، كما أن البَصيرة نورُ القلب وهي ما به يَستَبْصِرُ ويتأَمَّل فهما ءالتان للإبصار والاستبصار. والغِشاوَةُ الغِطاءُ، قال الشيخ الإمام أبو منصور رحمه الله: الكافر لَمَّا لم يسمَعْ قولَ الحق ولم ينظُر في نفسه وغيرِهِ من المخلوقات ليرى ءاثارَ الحدوث فيعلمَ أن

---

(١) أي: أَتبعَه.
(٢) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يجوز أن يكون خبرًا بعد خبر.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

لا بد له من صانع جُعِلَ كأَنَّ على بصَره وسَمعه غِشاوةً وإن لم يكن ذلك حقيقةً، وهذا دليل على أن الأَسماء عنده داخلة في حكم التغشية. والآية حجة لنا على المعتزلة في الأصلح، فإنه أخبر أنه ختم على قلوبهم، ولا شك أنَّ ترك الختم أصلح لهم[1]، ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعًا من التغطية غيرَ ما يتعارفهُ الناس وهو غِطاءُ التَّعامي عن ءايات الله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ الفرق بين العظيم والكبير أن العظيم يقابل الحقير، والكبيرَ يقابل الصغير، فكان العظيمُ فوق الكبير كما أن الحقير دون الصغير. و[المعنى]: لهم من بين الآلام العظام نوعٌ عظيم من العذاب لا يعلم كُنْهَه[2] إلا الله تعالى.

٨- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ افتتحَ سبحانَه وتعالى بذكر الذين أَخلَصوا دينَهم لله وواطأَت فيه قلوبُهم ألسِنَتَهم، ثم ثنّى بالكافرين قلوبًا وألسنةً، ثم ثلَّث بالمنافقين الذين ءامنوا بأَفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم أَخبَثُ الكفرة، لأنهم خلطوا بالكفر استهزاءً وخداعًا، ولذا نزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٤٥﴾﴾ [سورة النساء] ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ المراد إنكار ما ادّعَوه ونفيُه على أَبلغِ وجهٍ وءاكَدِه، وهو إخراجُ ذواتِهم من أن تكون طائفةً من المؤمنين. ونحوُهُ قولُه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ﴿٣٧﴾﴾ [سورة المائدة]، فهو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها. والآية تنفي قول الكَرَّامية: إن الإيمان هو الإقرار باللسان لا غير، لأنه نفى عنهم اسم الإيمان مع وجود الإقرار منهم.

---

(١) هذا رد لقول المعتزلة بأنه يجب على الله فعل الأصلح للعباد، لأنه معلوم أنه لو لم يختم على قلوبهم كان خيرًا لهم.

(٢) الكُنْه: الحقيقة.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠﴾

٩- ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي رسولَ الله، فَحُذِفَ المضافُ كقوله ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ۝٨٢﴾(١) [سورة يوسف]، أي يُظهرونَ غيرَ ما في أنفسهم، فالخداع إظهار غيرِ ما في النفس، وقد رفع الله منزلةَ النبي ﷺ حيث جعَلَ خِداعَهُ خِدَاعَه، وهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ ۝١٠﴾ [سورة الفتح] وقيل معناه يخادعون الله في زَعمهم، لأنهم يظنون أن الله ممن يَصِحُّ خِداعُه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يخادعونَ رسولَ الله والمؤمنين بإظهار الإيمان وإضمار الكفر ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي وما يعامِلون تلك المعاملة المشَبَّهَةَ بمعاملة المخادعين إلا أَنفُسَهم؛ لأن ضررها يلحقُهم، وحاصلُ خداعهم - وهو العذاب في الآخرة - يرجع إليهم، فكأنهم خدعوا أنفسهم ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾ أن حاصلَ خِداعهم يرجع إليهم، والشعورُ عِلمُ الشيء عِلْمَ حِسّ، ومشاعِرُ الإنسان حَواسُّه، لأنها ءالاتُ الشعور، والمعنى أن لُحُوقَ ضرر ذلك بهم كالمَحْسُوس، وهم لتمادي غَفلتهم كالذي لا حِسَّ له.

١٠- ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ شَكٌّ ونفاق، لأن الشك تردد بين الأمرين، والمنافق متردد، والنفاق فساد في القلب ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ المراد به خَلْقُ النفاق في حالة البقاء بخلقِ أمثاله(٢)، كما عُرِف في زيادة الإيمان. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ مؤلمٌ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠﴾ بكذبهم في قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، والكذبُ الإخبارُ عن الشيء على خلاف ما هو عليه.

---

(١) أي: واسأل أهل القرية.

(٢) أي: أن الكفار يتجدد فيهم النفاق ويزيد كما يتجدد الإيمان ويزداد عند المؤمنين، أو المعنى بما أنزله من القرءان لكفرهم به ومن زيادة التكاليف لنفاقهم في أدائها صورةً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾

١١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الفسادُ خروجُ الشيء عن حال استقامَته وكونِهِ منتَفَعًا به، وضدُّهُ الصَّلاح، وهو الحصول على الحال المستقيمة النافعة، وكان فساد المنافقين في الأرض أنهم كانوا يمايلون الكفار ويمالئونهم[1] على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم عليهم ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ بين المؤمنين والكافرين بالمداراة.

١٢- ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ أَنهم مفسدون، وقد ردّ الله تعالى ما ادَّعَوْه منَ الانتظامِ في جملة المصلحين أَبلَغَ رَدٍّ وأَدَلَّهُ على سَخَطٍ عظيم.

١٣- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ نَصَحُوهم من وجهين، أحدُهما تقبيحُ ما كانوا عليه لبُعده عن الصواب وجَرِّهِ إلى الفساد، وثانيهما تبصيرُهم الطريقَ الأَسَدَّ من اتباع ذوي الأحلام[2]، فكان من جوابهم أن سَفَّهوهم لتمادي جَهْلِهم، وفيه تسلية للعالِم مما يلقى من الجهلة[3]، واللام في الناس للعهد أي كما ءامنَ الرسولُ ومن معه، وهم ناسٌ معهودون، أو عبدُ اللهِ بنُ سلام وأَشياعُه أي كما ءامن أَصحابكم وإخوانكم[4]، والاستفهام في ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ للإنكار، واللام في ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ مُشارٌ بها إلى الناس، وإنما سفَّهوهم - وهم العقلاءُ

---

(١) أي: يعاونونهم ويساعدونهم.
(٢) الأحلام: العقول.
(٣) أي: حملٌ للعالم على الصبر على ما يلقى من الجاهلين.
(٤) أي: اليهود لأن هؤلاء كانوا منهم ثم أسلموا.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾

المراجيح - لأنهم لِجَهْلِهم[1] اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحقُّ، وأن ما عداه باطلٌ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ أَنهم هم السفهاءُ.

١٤- ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ الآيةُ الأُولى في بيانِ مَذهَبِ المنافقين والترجَمَةِ عن نِفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون مع المؤمنين من الاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصادِقين وإيهامهم أنهم معهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم وهم اليهود ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ مُصاحِبُوكم وموافِقوكم على دينكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ تأكيد لقوله ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، لأن معناه الثباتُ على اليهودية، وقوله ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ ردٌّ للإسلام ودفعٌ له منهم، لأن المستهزئ بالشيء المستخفَّ به منكرٌ له ودافع لكونه معتدًّا به.

١٥- ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يجازيهم على استهزائهم، فَسَمَّى جزاءَ الاستهزاء باسمه، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الشورى] ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ ﴿١٩٤﴾﴾ [سورة البقرة] فسمَّى جزاءَ السيئة سيئةً، وجزاءَ الاعتداء اعتداءً، وإن لم يكن الجزاء سيئةً واعتداءً[2]، وهذا لأن الاستهزاء لا يجوز على الله تعالى من حيث الحقيقة، لأنه من باب العبث، وتعالى عنه، واستئناف قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ بغير عطف في غاية الجزالة[3] والفخامة، وفيه أن الله تعالى هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأَبلَغ[4] الذي ليس استهزاؤهم

---

(١) أي: السُّفهاءِ.
(٢) هذا للتوفيق في اللفظ والمطابقة، والمعنى مختلف.
(٣) أي: حُسنِ تناسُق الكلمات.
(٤) أي: يُجازيهم على استهزائهم.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾

إليه باستهزاء لِمَا يُنزِلُ بهم من النكال[1] والذُّلّ والهوان. ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يُمْهِلُهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ في غُلُوِّهم في كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ يَتحيَّرون ويترددون، وهذه الآية حجة على المعتزلة في مسئلة الأَصْلَح.

١٦- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ استبدلوها به واختاروها عليه، وإنما قال ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ ولم يكونوا على هدى لأنها في قوم ءامنوا ثم كفروا، أو في اليهود الذين كانوا مؤمنين بمحمد[2] ﷺ فلما جاءهم كفروا به، والضلالة الجَوْرُ عن القصد وفَقْدُ الاهتداء ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ الربح الفضل على رأس المال، والتجارة صناعة التاجر، وهو الذي يبيع ويشتري للربح، وإسناد الربح إلى التجارة من الإسناد المجازي، ومعناه فما ربحوا في تجارتهم؛ إذ التجارة لا تَربَحُ ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ لطرق التجارة كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يُربَحُ فيه ويُخسر. والمعنى أن مطلوب التجار سلامةُ رأس المال والربحُ، وهؤلاء قد أضاعوهما، فرأس مالهم الهدى، ولم يبقَ لهم مع الضلالة، وإذا لم يبقَ لهم إلا الضلالةُ لم يوصفوا بإصابة الربح وإن ظفِروا بالأغراض الدنيوية، لأن الضَّالَّ خاسر، ولأنه لا يقال لمن لم يَسلَمْ له رأسُ ماله: قد رَبِحَ.

١٧- ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لَمَّا جاء بحقيقة صفتهم عقَّبها بضرب المَثَل زيادةً في الكشف وتتميمًا للبيان؛ ولضَرْبِ الأمثال في

---

(١) أي: العذاب.

(٢) قبل أن يظهر الرسول ﷺ كانت اليهود تعتقد أنه سيأتي نبي ءاخر الزمان، وكانوا يمدحونه يظنون أنه سيكون منهم من ذرية داود عليه السلام، فلما ظهر ولم يكن من ذرية داود حسدوه ولم يؤمنوا به.

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ١٧﴾

إبراز خَفِيَّات المعاني ورفعِ الأستار عن الحقائق تأثيرٌ ظاهرٌ، ولقد كثر ذلك في الكتب السماوية، ومن سُوَرِ الإنجيل[١] سورةُ الأمثال. والمَثَلُ في أصل كلامهم هو المِثْلُ والنظيرُ، ثم قيل للقول السائر المُمَثَّلِ مَضْرِبُهُ بمَورِدِهِ: مَثَلٌ، ولم يضربوا مَثَلًا إلا قولًا فيه غَرابةٌ، ولذا حُوفظ عليه فلا يُغيّر، وقد استعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل: حالهم العجيبةُ الشأنِ كحال الذي استوقَدَ نارًا، ومعنى استوقد أوقد. وَوُقُودُ النار سطوعُها. والنار جوهر لطيف مُضيء حارٌّ مُحرق ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ الإضاءة فرطُ الإنارة، ومِصداقُهُ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ٥﴾ [سورة يونس] ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أَذهَبَه وأَزاله وجعلَه ذاهبًا، ولم يقل ذَهَبَ الله بضوئهم لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾ لأن ذكر النور أبلغ، لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة، والمراد إزالةُ النور عنهم رأسًا، ولو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهابَ بالزيادة وبقاءَ ما يُسَمَّى نورًا، ألا ترى كيف ذكر عقيبَهُ ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ والظلمة عَرَضٌ[٢] ينافي النورَ، وكيف جمَعَها وكيف نكّرها وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة لا يتراءى فيها شَبَحان[٣] وهو قوله ﴿لَّا يُبْصِرُونَ ١٧﴾ وإنما شُبهت حالهم بحال المستوقِد لأنهم غِبَّ[٤] الإضاءة وقعوا في ظلمةٍ وحيرة، نَعَم المنافق خابط في ظلمات الكفر أبدًا، ولكن المراد ما استضاؤوا به قليلًا بالكلمة المُجراة على ألسنتهم، ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمةُ النفاق المفضيةُ بهم إلى ظلمة العقاب السَّرْمَدي.

(١) يعني الإنجيل الأصلي.
(٢) ويقابِلُ ذلك عَدُّها جسمًا لطيفًا، وقيل غير ذلك.
(٣) أي: شخصان، والمراد أنَّ الرائيَ والمرئيَّ لا يُرَيان في الظلمة.
(٤) أي: في إثْرِ.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾

وللآية تفسير ءاخر، وهو أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، عقَّبَ ذلك بهذا التمثيل، لِيُمَثِّلَ هداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقِد، والضلالةَ التي اشتروها بذهاب الله بنورهم وتركِهِ إياهم في الظلمات.

١٨- ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ أي هم صمٌّ، كانت حواسُّهم سليمةً، ولكن لما سَدُّوا عن الإصاخَةِ[١] إلى الحَق مسامِعَهم، وأبوا أن يُنْطِقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم، جُعِلوا كأنما إيْفَتْ[٢] مشاعِرُهم ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها.

١٩- ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ ثنّى الله سبحانه وتعالى في شأنهم بتمثيلٍ ءاخرَ لزيادة الكَشف والإيضاح، شبَّه دين الإسلام بالصَّيِّب، لأن القلوبَ تحيا به حياةَ الأرض بالمطر، وما يُتعلَّقُ به من شُبَه الكفار بالظُّلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيبهم من الأفزاع والبلايا من جهة أهل الإسلام بالصَّواعق. شُبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يُكابدُ مَن طَفِئَت نارُه بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك مَن أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق، والتمثيل الثاني أبلغُ لأنه أدلُّ على فرط الحَيرة وشدة الأمر ولذا أُخِّرَ. والصَّيِّب: المطر الذي يَصُوْبُ أي ينزل ويقع، وتنكير صَيِّب لأنه نوعٌ من المطر شديدٌ هائل. والسماءُ: هذه المُظِلَّة. والرعدُ: الصَّوتُ الذي يُسمع من السحاب

---

(١) الإصاخة: الاستماع والإنصاتُ.

(٢) أصابت مشاعرهم الآفة أي فسدت، والمشاعر ءالات الشعور، أي الحواس.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾

لاصطكاك أجرامه، أو مَلَكٌ يَسوقُ السحاب[١]، والبرق: الذي يلمع من السحاب. وأما ظُلُمات المطر فظلمَةٌ متكاثفةٌ بتتابع القَطْرِ وظلمةِ إظلالِ غَمَامه مع ظلمةِ الليل ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ كأن قائلًا قال: فكيف حالهم مع مِثلِ ذلك الرعد؟ فقيل: يجعلون أصابعهم في ءاذانهم، ثم قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقال: يكاد البَرقُ يَخْطَف أبصارهم، ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ مِن أَجل الصواعق يجعلون أصابعهم في ءاذانهم، والصاعقة قَصْفَةُ رَعْدٍ تَنقَضُّ معها شِقَّةٌ[٢] من نار تَنقدِحُ مِنَ السحاب إذا اصطكَّت أجرامُه، وهي نارٌ لطيفة حديدةٌ لا تَمُرُّ بشىء إلا أتت عليه، إلا أنها مع حِدَّتها سريعةُ الخُمود، ويقال: صَعَقته الصاعقة إذا أهلكته فصَعِقَ، أي مات، إما بشدة الصوت أو بالإحراق ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ الموت فساد بِنْيَةِ الحيوان أو عَرَضٌ لا يصح معه إحساس، معاقِبٌ[٣] للحياة ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ يعني أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاطُ به المحيطَ، فهو مجاز.

٢٠- ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ الخَطفُ الأَخذُ بسرعة، وكادَ يُستعمل لتقريب الفعل جدًّا ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ أي كلَّ وقت أَضاء لهم فيه ﴿مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ أي في ضَوئِه، كأنه جوابٌ لمن يقول: كيف يَصنعون في تَارَتَي خُفوقِ البَرق وخُفْيته؟ وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصَّيِّب، وما هم فيه من غاية التحيُّر والجهل بما يأتون وما

---

(١) هذا الثاني هو المعتمد، ففي الحديث: «**الرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله**». رواه الترمذي وغيره. والمخراق شىء من نار كالرداء الملفوف لكنه من نار.

(٢) أي: قطعةٌ.

(٣) الموت ضد الحياة، فإذا ذهبت الحياة جاء الموت، وإذا جاءت الحياة ذهب الموت.

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾

يَذَرون إذا صادفوا من البرق خَفْقَةً[1] مع خَوفِ أن يَخطَفَ أبصارهم، انتهزوا تلك الخَفقةَ فُرصةً فخَطَوا خطواتٍ يسيرةً فإذا خفي وفتَرَ لَمَعانُه بَقُوا واقفين ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ ﴿٢٠﴾﴾ وقفوا وثبتوا في مكانهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بقَصِيفِ[2] الرعد ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْۚ﴾ بِوَمِيضِ[3] البرق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ إن الله قادر على كل شيء.

لمَّا عدَّدَ الله فِرَقَ المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين وذكَرَ صفاتِهم وأحوالَهم وما اختصَّت به كل فرقة مما يُسعِدُها ويشقيها، ويُحظيها عند الله ويُرديها، أَقبَلَ عليهم بالخطاب وهو من الالتفات فقال:

٢١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا خطاب لمشركي مكة، وكلمةُ التنبيهِ المقحَمةُ بين الصفة وموصوفها لتأكيد معنى النداء، وكثر النداء في القرءان على هذه الطريقة، لأن ما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده أمورٌ عظام، وخُطوبٌ[4] جِسَام، يجب عليهم أن يتيقَّظوا لها، ويَمِيلوا بقلوبهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن يُنادَوا بالآكد الأبلغ ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ وَحِّدُوهُ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل عبادةٍ في القرءان فهي توحيد ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة موضحة مُمَيِّزة. والخَلْقُ إيجادُ المعدوم على تقديرٍ واستواءٍ ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ احتجَّ عليهم بأنه خالقُهم وخالقُ مَن قَبلَهم، لأنهم كانوا مُقِرّين بذلك، فقيل لهم: إن كنتم مُقرّين بأنه خالقكم فاعبدوه ولا تعبدوا الأصنام

---

(١) أي: لَمَعانًا.

(٢) يقال رَعدٌ قاصف أي شديد مهلك لصوته، وإذا بلغ الرعد الغاية في الشدة فهو قاصف وقصيف.

(٣) الوميضُ: لمعان البرق وكلِّ شيء صافي اللون، وقد يكون الوميض للنار.

(٤) الخَطْبُ: الأمرُ الشديد ينزل.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي اعبدوا على رجاءِ أن تتقوا فتنجوا بسببه من العذاب، ولعل للترجي والإطماع، ولكنه إطماعٌ من كريم فيجري مَجْرَى وَعدِهِ المحتوم وفاؤُه.

٢٢- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي صيَّر ﴿فِرَٰشًا﴾ بساطًا تقعُدون عليها وتنامون وتتقلَّبون ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سَقْفًا كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الأنبياء] ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطرًا ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ بالماء، نَعَمْ خروجُ الثَّمَرات بقدرته ومشيئته وإيجاده، ولكنْ جَعَلَ الماء سببًا في خروجها، كماء الفحل(١) في خلق الولد، وهو قادر على إنشاء الكل بلا سبب، كما أنشأ نفوس الأسباب(٢) والموادَّ، ولكنَّ له في إنشاء الأشياء مُدَرِّجًا لها من حالٍ إلى حال، وناقلًا من مرتبة إلى مرتبة، حِكَمًا وعِبَرًا للنُّظَّار بعيون الاستبصار ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ﴾ قيل الثمرات دون الثمر والثمار وإن كان الثمر المُخرَجُ بماء السماء كثيرًا، لأن المراد جماعة الثَّمَرةِ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ﴾ الذي حَفَّكم بهذه الآيات العظيمة والدلائل النيِّرة الشاهدة بالوحدانية ﴿أَندَادًا﴾ أي فلا تتخذوا له شركاء. والنِّدُّ المِثْلُ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أنها لا تخلق شيئًا ولا ترزق، والله الخالق الرازق، وجَعلُ الأصنام لله أندادًا غايةُ الجهل.

ولَمّا احتج عليهم بما يُثبت الوحدانيةَ ويُبطل الإشراك عطفَ على

---

(١) مَنيُّ الرجلِ سبب لخلق الله الولد، ليس المَنِيُّ يخلق الولد، ولو شاء الله لخلق الوَلَد بلا مَنيّ كما خلق عيسى من دون مَنِيّ، وخلق ءادم من دون مني، ءادم لا يقال له وَلَد لأنه لم يولد، إنما خُلق من غير أب وأم، أما عيسى فيقال له ولد لأنه ولد من أم ولو لم يكن له أب.

(٢) الله تعالى هو خلق الأسباب، المنيَّ وغيره.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾

ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ وما يُقَرِّرُ إعجازَ القرءان فقال:

٢٣- ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، وقيل ﴿نَزَّلْنَا﴾ دون أنزلنا، لأن المرادَ به النزولُ على سبيل التدريج والتنجيم(١)، وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله لم ينزل هكذا نجومًا سورةً بعد سورة، وءاياتٍ غِبَّ ءاياتٍ على حسب النوازل، وعلى سَنَنِ ما نرى عليه أهلَ الخَطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مُفرَّقًا حِينًا فحينًا، شيئًا فشيئًا، لا يُلقي الناظم ديوان شعره دَفْعة، ولا يرمي الناثر بخُطبه ضَرْبَةً، فلو أَنزله الله لأَنزلَه جُملة(٢)، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الفرقان]، فقيل: إن ارتَبْتُم في هذا الذي وقعَ إنزاله هكذا على تدريج ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ أي فهاتوا أنتم نَوْبَةً واحدةً من نُوَبِهِ، وهَلُمُّوا نَجْمًا فردًا من نُجومه سورةً من [أقصر] السُّوَر، والسورةُ الطائفةُ(٣) من القرءان المترجَمَةُ(٤) التي أقلُّها ثلاثُ ءايات [والسورة] هي الرُّتبة(٥) لأن السُّوَر بمنزلة المنازل والمراتب يترقّى فيها القارئُ، وهي أيضًا في نفسها مُرَتَّبَةٌ(٦) طوالٌ وأَوساط وقِصار، وأما الفائدة في تفصيل القرءان وتقطيعه سُوَرًا فهي كثيرة، ولذا أنزل الله تعالى التوراةَ والإنجيلَ والزبور

---

(١) التنجيم هو تعديد الوقت.
(٢) هذا كلام الكفار.
(٣) أي: القطعة.
(٤) أي: المُلَقَّبَةُ والمُسمَّاةُ باسمٍ مخصوص.
(٥) أي: المنزلة والمَكانَة.
(٦) أي: ذواتُ رُتَبٍ.

﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾

وسائر ما أَوحاهُ إلى أنبيائه مُسَوَّرةً مُتَرْجَمَةَ السورة[1]، وبَوَّب المصنفون في كل فن كتبهم أبوابًا موشَّحةَ الصدور بالتراجم، [ومن هذه الفوائد] أن القارئ إذا ختم سورة أو بابًا من الكتاب، ثم أخذ في ءاخر كان أنشطَ له وأبعثَ على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومنها أن الحافظ إذا حَذِقَ السورة[2] اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة فيعظُمُ عنده ما حفظه ويجِلُّ في نفسه [فيعمل على الاستزادة منه] ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ المعنى: إن ارتبتم في أنّ القرءان مُنزل من عند الله، فهاتوا أنتم نُبَذًا مما يماثله ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ادعوا الذين اتخذتموهم ءالهة من دون الله وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق، أو من يشهد لكم بأنه مِثلُ القرءان ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أنّ ذلك مُخْتَلَق[3] وأنه من كلام محمد عليه الصلاة والسلام.

٢٤- ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ لمَّا أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرفون صدق النبي عليه الصلاة والسلام، قال لهم فإذا لم تعارضوه[4] وبانَ عجزُكم ووجبَ تصديقُه فآمِنوا وخافوا العذابَ المُعَدَّ لمن كذَّبَ وعاند. وفيه دليلان على إثبات النبوة: صِحَّةُ كونِ المتحَدَّى به معجِزًا، والإخبارُ بأنهم لن يفعلوا، وهو غَيبٌ لا يعلمه إلا الله. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾

---

(١) الكتب السماوية كلها هكذا، في خلالها تراجم، كما أن في القرءان سورًا.
(٢) أي: أتمَّها ومَهَرَ فيها.
(٣) أي: مكذوب.
(٤) أي: بالمثل وإلا فهم عارضوا.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

أنها نار ممتازة عن غيرها من النيران بأنها تَتَّقِدُ بالناس والحجارة، وهي حجارةُ الكِبريت، فهي أشَدُّ توقدًا، وأبطأ خمودًا، وأنتن رائحة، وألصق بالبدن، أو الأصنامُ المعبودة، فهي أشد تحسيرًا. وإنما قرن الناس بالحجارة، لأنهم قَرَنوا بها أنفسَهم في الدنيا حيث عبدوها[١] وجعلوها لله أندادًا. ونحوهُ قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ۝٩٨﴾ [سورة الأنبياء]، أي حطبها، فقَرَنهم بها مُحْماةً في نار جهنم إبلاغًا في إيلامهم[٢] ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾ هُيِّئتْ لهم، وفيه دليل على أنّ النار مخلوقة، خلافًا لما يقوله جهم[٣].

سُنّةُ الله في كتابه أن يَذكرَ الترغيبَ مع الترهيب تنشيطًا لاكتساب ما يُزلِفُ، وتثبيطًا[٤] عن اقتراف ما يُتلِف[٥]، فلَمّا ذَكَرَ الكفارَ وأعمالَهم وأوعدهم بالعقاب، قفَّاهُ بذكر المؤمنين وأعمالِهم وتبشيرِهم بقوله:

٢٥- ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والمأمورُ بقوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾ الرسولُ عليه الصلاة والسلام، أو كلُّ أَحَد، وهذا أحسن لأنه يُؤذِنُ بأن الأمر لعِظَمه وفخامة شأنه محقوق[٦] بأن يُبشّرَ به كلُّ من قَدَر

---

(١) في الجاهلية العرب كان عبادة الحجارة كثيرًا فيهم، حتى إن الرجل إذا كان يعبد حجرًا ثم لقي أحسن منه منظرًا يترك الذي كان معه ويأخذ هذا الذي استحلاه فيعبده ولذلك أنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ۝٢٣﴾ [سورة الجاثية].

(٢) أي تشديدًا في إيلامهم.

(٣) جهم بن صفوان رئيس الجهمية، قُتِل في أيام الأمويين لكفره، سئل مرة: ما تعبد أو ما معبودك أو صف لنا معبودك؟ فاختلى أيامًا ثم خرج إلى الناس فقال: هو هذا الهواء مع كل شيء وفي كل شيء وعلى كل شيء. وله مقالات أخرى في الضلال.

(٤) أي: مَنْعًا.

(٥) أي: يُهلِك.

(٦) أي: جديرٌ.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

على البِشارة به. والصالحاتُ كلُّ ما استقام من الأعمال بدليل العقل[١] والكتابِ والسنة. والآية حجة على من جعل الأعمال إيمانًا، لأنه عطف الأعمال الصالحة على الإيمان، والمعطوفُ غيرُ المعطوف عليه[٢]. ولا يقال: إنكم تقولون يجوز أن يدخلُ المؤمن الجنة بدون الأعمال الصالحة، والله تعالى بشّر بالجنة لمن ءامن وعمل صالحًا، لأن البشارة المطلقة بالجنة شرطها اقترانُ الأعمال الصالحة بالإيمان، ولا نجعلُ لصاحب الكبيرة البشارةَ المطلقة بل نثبت بشارةً مقيدةً بمشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم يُدخله الجنة ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي بأنَّ لهم جنات. والجنة البستان من النخل والشجر المتكاثف، وسُميت دارُ الثواب جنَّةً لما فيها من الجنان. والجنّة مخلوقة لقوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة البقرة]. ومعنى جمع الجنة وتنكيرِها أن الجنة اسمٌ لدار الثواب كُلِّها، وهي مشتَمِلَة على جنانٍ كثيرة مُرَتبَّةٍ مراتبَ بحسب أعمال العاملين، لكل طبقةٍ منهم جَنَّاتٌ من تلك الجِنان ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ المرادُ من تحتِ أشجارها كما تَرَى الأشجارَ النابتة على شواطئ الأنهار الجارية. وأنهارُ الجنة تجري في غير أخدود. وأَنْزَهُ البساتين ما كانت أشجارها مُظَلِّلَةً، والأَنهارُ في خلالها مُطَّردة[٣]. والماء الجاري من النعمة

(١) عندما يذكر العلماء العقلَ في موضع الاحتجاج لا يريدون به الرأيَ إنما قصدهم النظرُ الصحيح.

(٢) يَرُدُّ أن تكون الأعمالُ إيمانًا، أي أصل الإيمان، أما أن يطلق الإيمان على الأعمال فهو شيء ثابت، ليس محلًّا للتردد، ومن هنا قول العلماء الإيمان يزيد وينقص، أي بالنسبة للوصف، أما بالنسبة للأصل فالإيمان لا يزيد ولا ينقص، لأنه إن نقص عن حقيقة مسمى الإيمان فهو شك وارتياب، وإن زاد فإنما زاد في الوصف.

(٣) أي: جارية.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾

العظمى واللذة الكبرى، ولذا قَرنَ الله تعالى الجناتِ بذكر الأنهار الجارية، وقدّمه على سائر نعوتها ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟﴾ جملة مستأنفة لأنه لما قيل: إن لهم جنات، لم يخل خَلَد[1] السامع أن يقع فيه: أَثِمارُ تلك الجنات أَشباهُ ثمار جنات الدنيا أم أجناسٌ أُخرُ لا تشابه هذه الأجناس؟ فقيل: إن ثمارَها أشباهُ ثمار جنات الدنيا أي أجناسُها أجناسُها وإن تفاوتت إلى غايةٍ لا يعلَمُها إلا الله[2] ﴿مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ أي كلما رُزقوا من الجنات من أَيّ ثمرة كانت من تفاحها أو رمانها أو غير ذلك ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا﴾ أي رُزقناه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلِ هذا، والمعنى هذا مِثل الذي رُزقنا من قبلُ وشبهُهُ بدليل قوله ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا﴾. وإنما كان ثمار الجنة مثلَ ثمار الدنيا ولم تكن أجناسًا أخر، لأن الإنسان بالمألوف ءانَسُ، وإلى المعهود أميَلُ، وإذا رأى ما لم يألَفْهُ نفر عنه طَبعُه، وعافَتْه نفسه، ولأنه إذا شاهد ما سلف له به عهدٌ ورأى فيه مزيةً ظاهرة، وتفاوتًا بيّنًا، كان استعجابه به أكثرَ، واستغرابه أَوفَرَ، وتكريرُهم هذا القولَ عندَ كل ثمرة يُرْزَقُونها دليلٌ على تناهي الأمر، وتمادي الحال في ظهور المزية[3]، وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستملي تعجُّبَهم في كل أوان، ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من مساوئ الأخلاق أو مما يختص بالنساء من الحيض

---

(١) الخَلَد: البَال والقَلب والنّفْس.

(٢) أي: من حيث حسنُ المنظر وحلاوة الطعم وطيبُ الرائحة في ذلك لا مناسبة بين هذه وهذه، فرقٌ بعيد، لكن الأجناس متحدة.

(٣) من شدة ما يرون من الفرق العظيم بين ثمار الدنيا وثمار تلك الدار، كلما رأوها يقولون هذا الكلام.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾

والاستحاضة وما لا يختص بهن من البول والغائط وسائر الأقذار والأدناس، [أو من كل ما يَشين] ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ الخُلْد والخلود البقاء الدائم الذي لا ينقطع، وأنَّى يقع التشابه في [بقاء الله تعالى جل جلاله وبقاء غيره، فالله] تعالى باقٍ لذاته، وبقاؤه واجب الوجود، وبقاءُ الخلق به[1] وهو [أي الخلق] جائز الوجود[2].

لمَّا ذَكَر الله تعالى الذبابَ والعنكبوت في كتابه وضرَبَ به مثلًا ضحكت اليهودُ وقالوا: ما يُشبه هذا كلامَ الله، فنزل:

٢٦- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ أي لا يترك ضَرْبَ المَثَل بالبعوضة تَرْكَ من يستحي أن يتمثّل بها لحقارتها[3]، وأصل الحياء تَغَيُّرٌ وانكسارٌ يعتري الإنسان مِن تَخوُّف ما يعاب به ويذم، ولا يجوز على القديم التغير وخوفُ الذمّ ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فما تجاوَزَها، وزاد عليها في المعنى الذي ضُربت فيه مثلًا وهو القِلَّة والحقارة، أو فما زاد عليها في الحجم كأنه أراد بذلك رَدَّ ما استنكروه من ضربِ المَثل بالذباب والعنكبوت لأنهما أكبرُ من البعوضة، ولا يُقالُ: «كيف يُضربُ المَثل بما دون البعوضة وهي النهاية في الصغر»

---

(١) أي: بالله، أي بمشيئته لهم البقاء.

(٢) بقاء الجنة والنار من حيث ذاتهما جائز الوجود ليس واجب الوجود، أما بقاء الله فواجب الوجود فليس هناك تشابه، بعض الذين كانوا ينتسبون إلى الشيخ أحمد الحارون رحمه الله كانوا يطالعون في «الفتوحات المكية» الذي دُسَّ فيه على الشيخ محي الدين ابن عربي رحمه الله فعَلِقَ بأذهانهم شيء ينافي الشرع في أمر الجنة والنار، فيه أن الكفار ينقطع عنهم الألم في النار وتعود لذةً عليهم، وهذا ليس من كلام الشيخ محي الدين، بل هو مدسوس عليه.

(٣) العباد تركوا ضرب المثل بها نظرًا لحقارتها، الله لا يستحي كاستحياء هؤلاء.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ﴾

لأنَّ جناح البعوضة أقلُّ منها وأصغر بدرجات، وقد ضربه رسول الله ﷺ مَثَلًا للدنيا[١] ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ الضمير للمَثَل، أو لأَنْ يَضرِبَ، والحقُّ الثابت الذي لا يَسُوغ إنكاره ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ﴾ وفي قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ﴾ استحقارٌ، والتقدير أيَّ شيء أرادَ اللهُ، والإرادة عند المتكلمين معنًى يقتضي تخصيص المفعولات بوجه دون وجه[٢]، والله تعالى موصوف بالإرادة على الحقيقة عند أهل السنة ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ﴾ [معناه] أن فريق العالِمين بأنه الحق وفريقَ الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بالكثرة، وأن العلمَ بكونه حقًّا من باب الهُدى، وأن الجهل بحُسن مَوْرِده من باب الضلالة. وأهل الهدى كثير في أنفسهم، وإنما يوصفون بالقِلَّة بالقياس إلى أهل الضلال[٣]، ولأن القليل من المهتدين كثير في الحقيقة وإن قلُّوا في الصورة. والإضلالُ خلق فعل الضلال في العبد[٤]، والهداية خلق فعل الاهتداء[٥].

---

(١) كأنه يشير إلى حديث سهل بن سعد، مرفوعًا: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**» أخرجه الترمذي في سننه.

(٢) هذا العالم وُجد بعد أن كان معدومًا وكان يجوز في العقل أن لا يوجد، فلما وُجد وجب إضافة وجوده إلى تخصيص الله تعالى له بالوجود، فلولا ذلك التخصيص لما وُجد، هذا معنى الإرادة والمشيئة، لكن أراد تأتي أحيانًا بمعنى أحبّ، وهذا يقع كثيرًا في كلام العامة، يقولون: الله لا يريد هذا، بمعنى لا يحبّه.

(٣) أي: من البشر، البشر والجن أغلبهم كفار، الله تعالى ما شاء لهم أن يهتدوا بخلاف الملائكة وهم أكثر من البشر والجن، فإن الله شاء أن يكون كل فرد منهم مؤمنًا تقيًّا طائعًا.

(٤) معنى أضل الله من شاء من عباده: خَلَقَ الضلالة في أنفسهم، خلق فيهم عمل الضلال.

(٥) معنى هدى الله عبده: خلق فيه العمل الذي هو هدى، الإيمان والطاعة.

وسياق الآية لبيان أنَّ ما استنكره الجَهلة من الكفار واستغربوه من أن تكون المُحَقَّرات من الأشياء مضروبًا بها المثل ليس بموضعِ الاستنكار والاستغراب، لأن التمثيل إنما يصار إليه لِما فيه من كشف المعنى وإدناءِ المُتَوهَّم منَ المُشاهَدِ فإن كان المتمثَّلُ له عظيمًا كان المتمثَّلُ به كذلك، وإن كان حقيرًا كان المُتَمَثَّلُ به كذلك؛ ألا ترى أن الحق لمَّا كان واضحًا جليًّا تُمُثِّلَ له بالضياء والنور، وأن الباطل لما كان بضد صِفته تُمُثِّلَ له بالظلمة، ولما كانت حال [المعبودات بغير حق] التي جعلها الكفار أندادًا لله لا حالَ أحقرُ منها وأقلُّ - ولذلك جُعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوَهَن وجُعلت أقلَّ من الذباب وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلًا - لم يُستنكر ولم يُستبدع ولم يُقل للمتمثل: استحيِ من تمثيلها بالبعوضة لأنه مصيب في تمثيله مُحِقٌّ في قوله، سائق للمثل على قضية مَضرِبِهِ، ولبيان أن المؤمنين الذين عادتُهم الإنصافُ والنظر في الأمور بناظِرِ العقل إذا سمعوا بهذا التمثيل علموا أنه الحقُّ، وأن الكفار الذين غلبَ الجهل على عقولهم إذا سمعوه كابروا وعاندوا وقَضَوا عليه بالبطلان وقابلوه بالإنكار، وأن ذلك سببُ هدى المؤمنين وضلالِ الفاسقين(١) والعجب منهم كيف أنكروا ذلك(٢)، وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وخَشَاش الأرض(٣)

---

(١) يؤخذ من هذه الآيات أن الآيات البينات لا يهتدي بها إلا من شاء الله أن يهتدي بها، المعجزاتُ التي أظهرها الأنبياء اهتدى بها أناس من الكفار فانتقلوا من كفرهم إلى الإيمان وصاروا سعداء، وقسم لم يهتدوا بها بل بقوا على ضلالهم فشقوا وهلكوا، وذلك يرجع إلى المشيئة، فمن شاء الله له أن يهتدي بالآيات اهتدى، ومن لم يشأ له أن يهتدي بمعجزات الأنبياء لا يهتدي. مشركو مكة رأوا للرسول معجزات، فمنهم من ءامن ومنهم من لم يؤمن، والمرجع في ذلك إلى مشيئة الله، الله تعالى هو الذي يخلق الاهتداء في قلوب من شاء لهم الاهتداء، وفي هذا المعنى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة القصص]. ومعنى ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أحببت له أن يهتديَ.

(٢) أي: إنكارهم أن يضرب الله المثل بالبعوضة فما فوقها.

(٣) أي: حشراتها.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ﴾

فقالوا: أجرأ من الذباب وأضعف من فراشة وآكَلُ من السوس وأضعف من البعوضة وأعزُّ من مخ البعوض، ولكن ديدن المحجوج[1] والمبهوت[2] أن يرضى لفرط الحيرة بدفع الواضح وإنكار اللائح ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ الفسقُ الخروج عن القصد. والفاسق في الشريعة الخارجُ عن الأمر بارتكاب الكبيرة.

٢٧- ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ النقضُ: الفَسخُ وفَكُّ التركيب. والعهد: المَوثِقُ. والمراد بهؤلاء الناقضين لعهد الله أَحبارُ اليهود المتعنِّتون، أو منافقوهم، أو الكفار جميعًا، وعهدُ الله ما رُكِزَ في عقولهم من الحُجة على التوحيد، كأنه أمر وَصَّاهم به ووثَّقه عليهم، أو أخذَ الميثاق عليهم بأنهم إذا بُعث إليهم رسولٌ يصَدّقه اللهُ بمعجزاته صَدَّقوه واتَّبَعوه ولم يكتموا ذِكره، أو أخذَ اللهُ العهد عليهم أَلَّا يَسفِكوا دماءهم ولا يبغيَ بعضُهم على بعض ولا يقطعوا أرحامهم، وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود: العهدُ الأول الذي أخذه على جميع ذريةِ ءادمَ عليه السلام بأن يُقِروا بربوبيته وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ ١٧٢﴾ [سورة الأعراف] الآية، وعهدٌ خَصَّ به النبيين أن يُبَلِّغوا الرسالة ويقيموا الدين وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ ٧﴾ [سورة الأحزاب]، وعهدٌ خَصَّ به العلماءَ وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ١٨٧﴾ [سورة ءال عمران] ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أصله منَ الوَثاقة وهي إحكام الشيء، وهو ما وَثَّقوا به عهدَ الله من قبوله وإلزامه أنفسَهم ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ

---

(١) أي: عادتُه.

(٢) أي: المتحيِّر.

﴿أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾

﴿أَن يُوصَلَ﴾ هو قطعُهم الأَرحامَ وموالاةَ المؤمنين، أو قطعُهم ما بين الأنبياء من الوُصلة والاجتماع على الحق في إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض[1] ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بقطع السَّبيل والتعويق عن الإيمان ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ المغبونون حيث استبدلوا النقضَ بالوفاء، والقَطْعَ بالوصل، والفسادَ بالصلاح، والعقابَ بالثواب.

٢٨- ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أتكفرون بالله ومعكم ما يَصْرِف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ نُطَفًا في أَصلاب ءابائكم، ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ في الأرحام ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء ءاجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تَصِيرون إلى الجزاء، أو ثم يُحييكم في قبوركم، ثم إليه ترجعون للنشور.

٢٩- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لأَجْلكم ولانتفاعكم به في دنياكم ودينكم، أما الأول فظاهر، وأما الثاني فالنظر فيه وما فيه من العجائب الدالة على صانع قادر حكيم عليم، وما فيه من التذكير بالآخرة، لأن ملاذَّها تُذكِّرُ ثوابَها، ومكارهَها تُذَكِّر عقابَها[2]. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ الاستواء [لغةً]: الاعتدال والاستقامة [والقهر

---

(١) كما فعلت اليهود، تعترف بموسى أنه نبي وتكذّب عيسى ومحمدًا صلى الله وسلم عليهم جميعًا.

(٢) هذه الدنيا دلائل على وجود خالقها وعلى وجود الآخرة، لأننا نرى الدنيا تتبدل أحوالها، النبات بعدما كان غضًّا طريًا خَضِرًا يعود يابسًا فيتكسّر، هذا فيه دلالة على الآخرة. يعني في الجملة الأخيرة أن الدنيا فيها ملاذّ خلقها الله فيها، وخلق فيها مكاره، ليكون ذلك دلالة على أن بَعْدَ هذه الدنيا أشياء ملاذّ وأشياء مكاره، الجنة فيها ملاذّ، وجهنم فيها مكاره.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾

والحفظ والاستيلاء وغير ذلك من معان كثيرة، وقد ورد في القرءان الكريم بعدة معانٍ: لبلوغ الإنسان غايته ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ١٤﴾ [سورة القصص]، وللتساوي: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ١٠٠﴾ [سورة المائدة]، وللجلوس: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ ٢٨﴾ [سورة المؤمنون]، وللركوب: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ١٣﴾ [سورة الزخرف]، وللقيام: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ٢٩﴾ [سورة الفتح]، وللاستقرار: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ٤٤﴾ [سورة هود]، وله معان أخرى في لغة العرب]، يقال: استوى العودُ أي قام واعتدل، ثم قيل: استوى إليه كالسهم المُرسَل أي قَصَدَه قَصدًا مستويًا من غير أن يَلْوِيَ على شيء[1]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أَقبَلَ وعَمَدَ إلى خلق السماوات بعدما خلق ما في الأرض[2]، من غير أن يريد فيما بين ذلك خلقَ شيء ءاخر، والمراد بالسماء جهاتُ العلو، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ﴾ ومعنى تسويتهن تعديلُ خلقهن وتقويمُه وإخلاؤه من العَوَجِ والفُطور[3]، ولا يناقض هذا قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [سورة النازعات] لأن جِرْمَ الأرض تقدم خلقه خلقَ السماء، وأما دَحْوُها فمتأخر ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾ فمن ثَمَّ خلقهن خَلقًا مستويًا محكمًا من غير تفاوتٍ مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم.

ولما خلق الله تعالى الأرض أسكن فيها الجنَّ، وأسكن في السماء الملائكة، فأفسدت الجنُّ في الأرض، فبعَثَ إليهم طائفةً من الملائكة

---

(١) أي: يميل إليه.

(٢) معناه: ثم أتبعَ ذلك بخلق السماء.

(٣) الفطور معناه التشقق، السماء ليست متشققة لكن لها أبواب، والله تعالى أحكم صنعها.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾

فطردتهم إلى جزائر البحار ورءوس الجبال، وأقاموا مكانهم[١]، فأمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يذكر قصتهم فقال:

٣٠- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ﴾ مُصَيِّرٌ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وهو من يَخلُفُ غيره، والمعنى خليفةً منكم، لأنهم كانوا سُكَّانَ الأرض، فخَلَفَهم فيها ءادمُ وذريته، ولم يقل خلائفَ أو خلفاءَ، لأنه أريد بالخليفة ءادمُ، واستُغنِيَ بذكره عن ذكر بنيه، أو خليفةً مني لأن ءادم[٢] كان خليفة الله في أرضه[٣]، وكذلك كل نبي، قال الله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة ص]، وإنما أخبرهم بذلك ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حِكمته في استخلافهم قبل كونهم[٤] ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ تَعَجُّبٌ من أن يَستخلفَ مكانَ أهلِ الطاعة أهلَ المعصية، وهو الحكيم الذي لا يَجهلُ، وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى، أو من جهةِ اللوح، أو قاسوا أَحدَ الثَّقلين على الآخر[٥] ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي [يريقها بالقتل

---

(١) يعني أن الملائكة أقاموا مكان أولئك الجن الذين طُرِدوا إلى جزائر البحار ورؤوس الجبال، الملائكة حلّوا محلهم.

(٢) في لفظ اسم ءادم وجهان ذكرهما العلماء قال بعض: عربي مشتق من الأدْمة أو من أديم الأرض، وقال بعض: ليس مشتقًّا، هو لفظ غير عربي.

(٣) الخليفة هنا ليس معناه الوكيل، إنما معناه من يُقيم أوامره في الأرض.

(٤) أي: قبل وجود البشر، حتى يعرفوا قبل وجود البشر أنهم يُستخلفون في الأرض، أراد الله تعالى أن يُعَلّمهم الحكمة في ذلك، أراد أن يسألوا ليعرفوا الحكمة فيجابوا، ليس للاعتراض على الله، لأن الاعتراض على الله كفر، والملائكة منزهون عن ذلك.

(٥) أو أعلمهم بواسطة جبريل أو غيره أو قاسوا الإنسَ على الجن لأنهم جَرَّبوا الجن وشاهدوا ما فعلوا في الأرض من الفساد فيها وظلمِ بعضِهم بعضًا، هذا لم يرد في=

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

أي كما كان يفعل الجن] ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي نسبح حامدين لك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ونُطَهِّرُ أنفسَنا لك، ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي أعلَمُ منَ الحِكَم في ذلك ما هو خَفيٌّ عليكم يعني يكون فيهم الأنبياءُ والأولياء والعلماء [العاملون].

٣١- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي أسماءَ المُسَمَّياتِ، ومعنى تعليمِه أَسماءَ المسَمَّيات أنه تعالى أَراه الأجناس التي خلقها، وعلّمه أن هذا اسمه فرسٌ، وهذا اسمه بعيرٌ، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي عَرَضَ المسَمَّيات، وإنما ذكَّرَ لأن في المسَمَّياتِ العقلاءَ فغلَّبهم، وإنما استنبأهم وقد علم عجزَهم عن الإنباء على سبيل التبكيت[1] ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى﴾ أخبروني ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ في زعمكم أني أَستخلِفُ في الأرض مفسدين سفَّاكين للدماء، وفيه ردٌّ عليهم وبيانُ أن فيمن يستخلفه مِن الفوائد العِلمية التي هي أصولُ الفوائد كلِّها ما يستأهِلون لأَجله أن يُستخلفوا.

٣٢- ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك أن يخفى عليك شيء، أو عن الاعتراض عليك في تدبيرك ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وليس فيه عِلمُ الأسماء ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ غير المُعَلَّم[2] ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ فيما قضيت وقدَّرت.

= حديث ثابت وإنما هو حكاية، أي أنه كان على الأرض جن أفسدوا فيها، ثم قيل إنهم أحرقتهم الملائكة، وهو غير ثابت من حيث الدليل.

(١) أي: ليظهر عجزهم عما علمه ءادم.

(٢) أي: لم يتلقَّ العلم عن غيره، بل عِلْمُه تعالى ذاتي أزلي أبدي أَحاط به كلَّ شيء.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾

٣٣- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ سَمَّى كُلَّ شيء باسمه ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أعلم ما غاب فيهما عنكم مما كان ومما يكون ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ تُظهرون ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ تُسِرُّون.

٣٤- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ أي اخضَعوا له وأَقِروا بالفضل له، والجمهورُ على أنّ المأمور به وضعُ الوجه على الأرض[1]، وكان السجود تحيةً لآدم عليه السلام في الصحيح، إذ لو كان لله تعالى لما امتنع عنه إبليس. وكان سجودُ التحية جائزًا فيما مَضَى ثم نُسِخَ ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ الاستثناءُ منقطع، لأنه لم يكن من الملائكة، بل كان من الجن بالنص، وهو قول الحسن وقتادة، ولأنه خُلق من نار، والملائكة خلقوا من النور، ولأنه أبى وعصى واستكبر، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ولا يستكبرون عن عبادته، ولأنه قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي ٥٠﴾ [سورة الكهف] ولا نسل للملائكة[2]، ﴿أَبَىٰ﴾ امتنع مما أُمر به ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ تكبَّر عنه ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ وصار من الكافرين بإبائه واستكباره وَرَدِّهِ الأمرَ، لا بترك العمل بالأمر، لأن ترك السجود لا يُخرج من الإيمان، ولا يكون كفرًا عند أهل السنة.

٣٥- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ هي جنةُ الخُلد التي وُعِدَت

---

(١) أي: السجود الحقيقي، على هذا أكثر المفسرين.
(٢) الملائكة لا يتوالدون، الله أخبر عن إبليس بأن له ذرية، فالقول بأن إبليس من الملائكة حقيقةً بعيدٌ من الصواب.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾

للمتقين للنقل المشهور[١]، ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ من ثمارها ﴿رَغَدًا﴾ أكلًا رَغدًا واسعًا ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أيَّ مكانٍ من الجنة شئتما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي الحِنطة أو الكرمة أو التينة[٢] ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ من الذين ظلموا أنفسَهم أو منَ الضارين أَنفُسَهم.

٣٦- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أي فحَمَلهما الشيطان على الزَّلة بسببها، أو فأزلَّهما عن الجنة بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ﴾ من النعيم والكرامة، وقد توصَّل إلى إزلالهما بعدما قيل له: اخرج منها فإنك رجيم، روي أنه أراد الدخول فمنعته الخَزَنَةُ [فقام] عند الباب فنادى[٣] ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ الهبوط النزول إلى الأرض. والخطاب لآدم وحواء، والمراد هما وذريتهما لأنهما لمّا كانا أصلَ الإنس ومتشعَّبَهم جُعلا كأنهما الإنسُ كلُّهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ ﴿١٢٣﴾﴾ [سورة طه]، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾ المراد به ما عليه الناس من التباغي والتعادي وتضليلِ بعضِهم لبعض ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضعُ استقرار، أو استقرارٌ ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ وتمتُّع بالعيش ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ إلى يوم القيامة، أو إلى الموت.

٣٧- ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ استقبلَها بالأَخذِ والقَبولِ والعمل بها، وهُنّ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

---

(١) أي: للدليل السمعي المشهور.
(٢) الله أعلم بحقيقة الشجرة، لم يرد شيء ثابت بحقيقتها.
(٣) أي: وهو على الباب وسوس، أو يقال: إنه لما قيل له: اخرج منها فإنك رجيم لم يخرج فورًا، بل وسوس لهما بذلك ثم أُخرج منها ولم يعد إليها.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾

﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأعراف]. وفيه موعظةٌ لذريتهما حيث عرفوا كيفيةَ السبيل إلى التنصُّلِ مِن الذنوب[١]. وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أن أَحبَّ الكلام[٢] إلى الله تعالى ما قاله أبونا ءادم حين اقترف الخطيئة: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمُك وتعالى جَدُّك[٣] ولا إلٰه إلا أنت ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ فرجَعَ عليه بالرَّحمة والقَبول، واكتفى بذكر توبة ءادم لأن حواء كانت تبعًا له، وقد طُوِيَ[٤] ذِكرُ النساء في أكثرِ القرءان والسنةِ لذلك[٥] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الكثير القبول للتوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ على عباده.

٣٨- ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ مجتمعين، وكرر الأمر بالهبوط للتأكيد، أو لأن الهبوط الأول من الجنة إلى السماء، والثاني من السماء إلى الأرض ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ رسولٌ أبعثُه إليكم، أو كتابٌ أُنزله عليكم، ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ بالقَبول والإيمان به ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ على ما خلَّفوا[٦].

٣٩- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ أهلُها ومستحقُّوها الذين ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) أي: التبرؤ منها والخروج عنها.
(٢) معناه: مِن أحب الكلام.
(٣) وتعالى جدُّك أي عَظَمَتُك، معناه أن عظمتك ما فيها نقص.
(٤) أي: تُرِكَ.
(٥) لأن النساء تبع للرجال.
(٦) معناه: الله تعالى يُذهب عنهم الحزن على ما تركوا من الأهل وغيرهم.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾

٤٠- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هو يعقوبُ عليه السلام، وهو لَقَبٌ له ومعناه في لسانهم صفوةُ اللهِ أو عبدُ الله. فَإِسْرَا هو العبدُ أو الصفوةُ، وإيلُ هو اللهُ بالعِبرية ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ ذِكْرهم النعمةَ أَلَّا يُخلُّوا بشكرها ويُطيعوا مانِحَها. وأراد بها ما أنعم به على ءابائهم مما عدَّد عليهم من الإنجاء من فرعونَ وعذابهِ ومن الغَرق ومن العفو عن اتخاذ العجلِ والتوبة عليهم(١)، وما أَنعم به عليهم من إدراك زمن محمد ﷺ المُبَشَّر به في التوراة والإنجيل(٢) ﴿وَأَوۡفُواْ﴾ أدُّوا وافيًا تامًّا ﴿بِعَهۡدِيٓ﴾ بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي والطاعةِ لي، أو من الإيمان بنبي الرحمةِ والكتابِ المُعْجِز ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ بما عاهدتكم عليه من حُسن الثواب على حسناتكم ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ فلا تَنقُضُوا عهدي.

٤١- ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ يعني القرءانَ ﴿مُصَدِّقٗا﴾ كأنه قيل: أَنزلتُه مُصَدّقًا ﴿لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ من التوراة، يعني في العبادةِ والتوحيد والنبوةِ وأَمر محمدٍ عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ أي أَوَّلَ مَن كَفرَ به، أو أولَ حزبٍ أو فوج كافر به. وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أولَ من يؤمن به لمعرفتهم به وبصِفَته. والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود

---

(١) عندما عبدَ العجلَ قسمٌ منهم ثم عفا الله عنهم برجوعهم عن عبادة العجل وتوبتهم بالدخول في دين الإسلام من جديد.

(٢) معناه أن اليهود الذين كانوا في زمن نزول القرءان، أمرهم الله تعالى بأن يذكروا نعمته التي أنعمها عليهم، وهي أن أجدادهم الذين كانوا مع موسى أنجاهم الله تعالى من عذاب فرعون ومن الغَرَق وعفا عمّن عبد العجل منهم فتاب عليه بعد رجوعه للإسلام بالشهادتين، ثم هؤلاء موجودون في زمن النبي محمد عليه الصلاة والسلام أدركوا بعثة محمد ﷺ، معناه اشكروا أنتم ربكم بالإيمان بمحمد ﷺ، اشكروا نعمة الله بالإيمان بمحمد ﷺ.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

إلى القرءان ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ بتغييرها وتحريفها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال الحسن: هو الدنيا بحذافيرها[١]. وقيل: هو الرئاسة التي كانت لهم في قومهم خافوا عليها الفوات لو اتّبعوا رسول الله[٢]، ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾[٣] [فخافوني في ذلك دون غيري].

٤٢- ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ لَبسَ الحقَّ بالباطل خلَطَه. والمعنى ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها فيختلطَ الحقُّ المنَزَّلُ بالباطل الذي كتبتم حتى لا يميَّز بين حقِّها وباطلكم. ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ هو مجزومٌ داخل تحت حُكْمِ النَّهي بمعنى ولا تكتموا، أو منصوب بإضمار أن، أي ولا تَجمعوا بين لَبس الحق بالباطل وكِتمان الحق. وكتمانُهم الحقَّ أن يقولوا: لا نَجِدُ في التوراة صفة محمد، أو حكمَ كذا ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ في حال علمكم أنكم لابِسون وكاتِمون وهو أقبح لهم.

٤٣- ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي صلاةَ المسلمين وزكاتَهم ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أَسلِموا واعمَلوا عملَ أهلِ الإسلام. وجاز أن يراد بالركوع الصلاةُ كما يُعَبَّرُ عنها بالسجود، وأن يكون أمرًا بالصلاة مع المصلّين يعني في الجماعة، أي صَلُّوها مع المصلِّين لا منفردين. والهمزة في:

---

(١) أي: بأسرها.

(٢) بعض الرؤساء من هذه الأمة أيضًا يعاندون الحق لئلا تفوتهم وتذهب عنهم الرئاسة، البخاري رحمه الله عكّر عليه شيخ مشهور في بلدة جاء البخاري إليها فاستقبله الناس قبل وصول المدينة بمسافة بعيدة، فغار من البخاري وعمل عليه تشويشًا فنفي من تلك البلدة، الحاكمُ صَدَّق ما يقوله هذا الشيخ لأنه كان عالمًا مشهورًا من المحدثين، فنفى البخاري رحمه الله.

(٣) هذه الكسرة تدل على أن الياء مقدرة.

﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾

٤٤- ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ للتقرير مع التوبيخ ﴿بِٱلْبِرِّ﴾ أي سَعَةِ الخير والمعروف، وكان الأحبارُ يأمرون مَن نَصَحُوه في السِّر من أقاربهم وغيرهم باتّباع محمدٍ عليه السلام ولا يتَّبعونه[1]. وقيل كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون، وإذا أُتوا بالصدقات ليفرقوها خانوا فيها ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وتتركونها من البِرِّ كالمَنْسِيّات[2] ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تبكيتٌ أي تتلونَ التوراة وفيها نَعْتُ محمد عليه الصلاة والسلام، أو فيها الوعيدُ على الخيانة وترك البِرِّ ومخالفةِ القولِ العملَ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أفلا تَفطُنون لقُبح ما أقدمتم عليه حتى يصُدَّكم استقباحُه عن ارتكابه، وهو توبيخ عظيم.

٤٥- ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾ على حوائجكم إلى الله ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي بالجمع بينهما، وأن تُصلُّوا صابرينَ على تكاليفِ الصلاة، محتَمِلين لمشَاقِّها، وما يجب فيها من إخلاص القلب، ودفع الوَساوس الشيطانية، والهواجس النفسانية، ومُراعاة الآداب والخُشوع، أو استعينوا على البلايا والنوائب[3] بالصبر عليها، والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها، وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه[4] أَمرٌ فَزِعَ إلى الصلاة[5] ﴿وَإِنَّهَا﴾ الضمير للصلاة أو للاستعانة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لَشَاقَّةٌ ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ لأنهم يتوقعون ما ادُّخر للصابرين على متاعبها فتَهُون عليهم.

---

(١) الأحبار لا يتَّبعون محمدًا ﷺ حتى لا تذهب عليهم الرئاسة، لكن أحيانًا يقولون لأتباعهم: هذا محمد صادق اتَّبعوه.
(٢) النسيان هنا معناه الترك، كالشيء الذي نسي.
(٣) أي: المصائب الشديدة.
(٤) أي: أهمَّهُ أمرٌ.
(٥) أي: قام إليها.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

٤٦- ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي يتوقعون لِقاءَ ثوابهِ ونيلَ ما عنده ويطمعون فيه، وفُسِّرَ ﴿يَظُنُّونَ﴾ بيتيقنون(١)، وأما من لم يوقن بالجزاء ولم يرجُ الثواب كانت عليه مَشقَّةً خالصة(٢)، وفُسِّرَ اللقاء بالرؤية، و﴿مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ بمُعايِنُوه بلا كيف(٣) ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ لا يملك أمرَهم في الآخرة أحد سواه.

٤٧- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ التكرير للتأكيد ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ أي اذكروا نعمتيَ وتفضيلي ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ على الجَمّ الغفير من الناس(٤)، يقال: رأيت عالَمًا من الناس والمراد الكثرة.

---

(١) هنا ﴿يَظُنُّونَ﴾ معناه يتيقنون، الظن يستعمل في الغالب لغير المتيقن وقد يستعمل للمتيقن كهذا الموضع.

(٢) أكثر الناس عندما يصلُّون لا يكونون فرحين بصلاتهم، إنما يكونون كأنهم يضعون عن رقابهم ما يُثقلهم، أما الأتقياء يرتاحون في الصلاة.

(٣) بعض المفسرين فسَّرَ قوله تعالى: ﴿مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي يرونه بلا كيف، أي من غير أن يُرى كما يُرى المخلوق من الجهة والحيّز والمسافة، إنما يرونه من غير أن يكون في جهة ومن غير أن يكون في مسافة بينه وبينهم، لا مسافة قريبة ولا مسافة بعيدة، لأن ذلك لا يجوز على الله، لأن الذي يكون على مسافة منك فهو محدود، والمحدود يحتاج إلى من يَحُدُّه، والإلٰه لا يحتاج إلى غيره.

(٤) معناه فضلناكم على خلق كثير، أي أجدادكم الذين كانوا مسلمين، اذكروا ذلك وكونوا مثلهم بالإيمان بمحمد ﷺ، إن ءامنتم بمحمد ﷺ صرتم مثل أجدادكم المؤمنين، أما هؤلاء الموجودون اليومَ والذين كانوا في زمن النبي ﷺ ثم عاندوا فكذبوا، أولئك ليس لهم فضل بالمرة، إنما الفضل لأجدادهم الذين كانوا على اتّباع الأنبياء، أيامَ موسى عليه السلام الذين كانوا متَّبعين شريعةَ موسى ومن بعدَه، الذين كانوا متَّبعين للأنبياء الذين جاءوا بعد موسى، أولئك لهم فضل لإيمانهم بالله وأنبيائه، ما كانوا يكذبون، أولئك كانوا مثلنا يؤمنون بأن كل نبي من الأنبياء صادق جاء بالحق، بعضُ الناس يتوهمون من هذه=

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

٤٨- ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾ أي يومَ القيامة وهو مفعول به لا ظرف ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ﴾ مؤمنة ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ كافرة ﴿شَيْـًٔا﴾ أي لا تَقضِي عنها شيئًا من الحقوق التي لَزِمَتها ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي لا [يُقبل من النفس المؤمنة] شفاعة للكافرة [بمعنى أن الكفار لا يُشفع لهم أصلًا، لا أن بعض الشفعاء يَشفع لهم لكن لا يُقبل منهم، لأن الله تعالى لم يأذن بالشفاعة للكفار لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الأنبياء]] ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فديةٌ ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ يُعاوَنون.

٤٩- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وفرعونُ عَلَمٌ لِمَن مَلَك العمالقة كقيصَرَ لِمَلِك الروم وكسرى لِمَلك الفُرس ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يُوَلُّونكم [ويُذيقونكم] ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ومعنى سُوء العذاب أَشَدُّهُ وأَفظَعُه ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ بيان لقوله يسومونكم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يتركون بناتِكم أحياءً للخدمة، وإنما فَعَلوا بهم ذلك لأن الكَهَنة أنذروا فرعونَ بأنه يولَدُ مولودٌ يزولُ مُلكه بسببه كما أَنذروا نُمرودَ، فلم يُغْنِ عنهما اجتهادُهما في التَّحفظ وكان ما شاء الله ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ مِحْنةٌ إن أُشير بذلكم إلى صنع فرعون، ونعمة[1] إن أُشير به إلى الإنجاء ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ صفة لبلاء.

= الآية أن اليهودَ الذين هم كفار، الذين هم على وجه الأرض اليومَ هم خير الناس والعياذ بالله؛ القرءان ذو وجوه، الله ابتلى عبادَه بأن يكون بعضُ عباده يعرفون مواقعَ الحق في الآيات على مواضعها، ومن لم يوفقهم يَحمِلون القرءان على غير مواضعه فيهلكون ويخسرون.

(١) بلاء تأتي بمعنى النعمة، بلاء عظيم أي نعمة عظيمة، وتأتي بمعنى المصيبة.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

٥٠- ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ فَصَلْنا بين بعضه وبعضٍ حتى صارت فيه مسالكُ لكم، لأن المَسالكَ كانت اثنَي عشَرَ على عدد الأسباط ﴿بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ كانوا يسلُكُونَه ويتفرَّق الماءُ عند سلوكهم فكأنما فُرِقَ بهم، أو فرقناه بسببكم ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ إلى ذلك وتشاهدونه ولا تَشُكُّون فيه.

٥١- ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ لأن الله تعالى وَعَدَهُ الوَحْيَ، ووَعَده هو المَجيءَ للميقات إلى الطور، لَمَّا دخل بنو إسرائيل مِصرَ بعدَ هلاك فرعونَ ولم يكن لهم كتاب ينتهونَ إليه وَعَدَ اللهُ تعالى موسى أن ينزِّلَ عليه التوراةَ، وضَرَبَ له[1] ميقاتًا ذا القِعدَة وعَشْرَ ذي الحجة، وقال: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لأن الشهورَ غُرَرُها[2] بالليالي ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلـٰهًا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ مِن بعدِ ذَهابه إلى الطُّورِ ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ بوضعِكم العبادةَ غيرَ موضعها.

٥٢- ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ مَحَوْنا ذنوبكم عنكم[3] ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعدِ اتخاذِكم العِجْلَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ لكي تشكروا النعمةَ في العفو عنكم.

٥٣- ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني: الجامعَ بين كونه كتابًا مُنَزَّلًا، وفُرقانًا يَفْرُق بين الحق والباطل، وهو التوراةُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ لكي تهتدوا.

---

(١) أي: لإنزال التوراة.
(٢) أي: أوَّلُها.
(٣) بعد رجوعكم للإسلام.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ
فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ
يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾

٥٤- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ للذين عبدوا العجل ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ معبودًا ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ هو الذي خلَقَ الخلقَ بريئًا من التفاوت[١]، وفيه تقريع لهم لِما كان منهم من ترك عبادة العالِم الحكيم الذي برأهم أبرياءَ من التفاوت إلى عبادة البقر الذي هو مَثَلٌ في الغباوة والبلادة ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ قيل: هو على الظاهر، وهو البَخْعُ[٢]، وقيل: أَمَرَ من لم يَعبد العجلَ أن يقتلوا العبدة، فقُتل سبعون ألفًا ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ التوبةُ والقتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ منَ الإصرارِ على المعصية ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ المِفْضَال بقَبول التوبة وإن كثُرت ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ يعفو الحُوبَةَ[٣] وإن كَبُرت.

٥٥- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عِيانًا ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي الموتُ. روي أن السبعين الذين كانوا مع موسى عليه السلام عند الانطلاق إلى الجَبَل قالوا له: نحن لم نعبد العجلَ كما عبدَهُ هؤلاء فأَرِنا اللهَ جهرةً. فقال موسى: سأَلتُه ذلك فأباه عليَّ، فقالوا: إنك رأيتَ اللهَ تعالى فلن نؤمِنَ لك حتى نَرى الله جَهرةً، فبعثَ الله عليهم صاعقةً فأحرقتهم. وإنما عوقبوا بكفرهم لأن قولَهم: إنك رأيتَ الله فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً كفرٌ منهم. ولأنهم امتنعوا عن الإيمان بموسى بعدَ ظهور مُعجزته حتى يروا ربهم جهرة، والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم ولا يجوز اقتراح الآيات

---

(١) التفاوت عدم التناسب والملاءمة أي بريئًا من الخلو عن الحكمة.
(٢) أي: قتل الشخص نفسَه.
(٣) الحُوبة: بفتح الحاء وضَمِّها المعصية والإثم.

﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ
ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾

عليهم[١]. ولأنهم لم يسألوا سؤال استرشاد بل سؤالَ تَعنت وعناد ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥﴾ إليها حين نزلت.

٥٦- ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم﴾ أحييناكم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦﴾ نِعمةَ البَعث بعدَ الموت.

٥٧- ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ﴾ جعلنا الغمامَ يُظِلُّكم وذلك في التِّيْهِ، سخَّر الله لهم السَّحاب يَسيرُ بِسَيرهم يُظلهم من الشمس، وينزل بالليل عَمودٌ من نارٍ يسيرون في ضوئه، وثيابُهم لا تَتَّسخُ ولا تَبلَى ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ﴾ التَّرَنْجَبين[٢]، [وقيل فيه عدة أقوال أخرى] وكان ينزلُ عليهم مِثلَ الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسانٍ صاع[٣] ﴿وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ وهي السُّمَانى[٤] فيذبَحُ الرجلُ منها ما يكفيه. وقلنا لهم ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ لذيذاتِ أو حلالاتِ ﴿مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ يعني فظلموا [أنفسهم، أي ضَرُّوها] بأن كفروا هذه النِّعَمَ [لأنَّ وَبالَ فِعلِهم عائد عليهم].

٥٨- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾ لهم بعدما خرجوا من التيه ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ أي

---

(١) أي: بعد ثبوت المعجزة، معناه المعجزة الأولى تكفي، أما لزيادةِ اليقين فيجوز، كما طَلَبَ أَصحابُ سيدنا عيسى منه نزولَ المائدة، ليس على وجه عدم الاكتفاء بالأُولى، بعد أن يُثبت النبيُّ للناس معجزة ليس لهم أن يطلبوا منه غيرها لإثبات صدقه.

(٢) التَّرَنْجُبين بفتح الجيم وضمّها: شيءٌ كالصِّمْغ شبيهٌ بالعسل.

(٣) وهو ما مَنَّ الله تعالى به على عبادِه من غير تعب ولا زرع، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري ومسلم: «**الكمأة من المنّ، وماؤها شفاء للعين**» أي هو ما مَنّ الله تعالى به على خلقه من غير حرث ولا سقي.

(٤) هو الفِرّي.

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْۚ
وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾

بيت المقدس أو أَرِيْحاء، ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ من طعام القرية وثمارها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واسِعًا ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ﴾ بابَ القرية أو بابَ القُبَّة التي كانوا يصلُّون إليها، وهم لم يدخلوا بيتَ المقدس في حياة موسى عليه السلام، وإنما دخلوا الباب في حياته، ودخلوا بيت المقدس بعدَه ﴿سُجَّدًا﴾ أُمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكرًا لله تعالى وتواضعًا له ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ بمعنى حُطَّ عنا ذنوبنا حِطَّةً ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْۚ﴾ جمع خطيئةٍ وهي الذنب ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ مَن كان محسنًا منكم كانت تلك الكلمةُ سببًا في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئًا كانت له توبةً ومغفرةً.

٥٩- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ تقديره: فبدّل الذين ظلموا بالذي قيل لهم قولًا غير الذي قيل لهم، يعني وضعوا مكان حِطَّةٍ قولًا غيرها أي أُمروا بقولٍ معناه التوبة والاستغفار، فخالفوه إلى قولٍ ليس معناه معنى ما أمروا به، ولم يَمتَثِلوا أَمرَ الله، وقيل: قالوا مكان حِطَّةٍ حِنْطَة، [وقيل غير ذلك من الأقوال] ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا﴾ عذابًا. وفي تكرير ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ زيادةٌ في تقبيح أمرهم، وإيذانٌ بإنزال الرِّجْزِ عليهم لظلمهم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [إشارة إلى الجهة التي نزل منها العذاب] ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ بسبب فِسقهم.

٦٠- ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي استدعى[١] أن يُسقى قومُه ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ عَطِشوا في التِّيْهِ، فدعا لهم موسى

---

(١) بمعنى دعا وطلبَ.

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾

بالسُّقيا، فقيل له. اضربْ بعصَاك الحَجَرَ. واللام للعهد، والإشارة إلى حجر معلوم، روي أنه حَجَرٌ طُوْرِيّ حَمَلَه معه، وكان مربعًا له أربعة أَوجُه، كانت تنبُعُ من كل وجه ثلاثُ أعينٍ، لكل سبطٍ عينٌ، وكانوا ستَّمائة ألفٍ، وَسَعَةُ المُعَسكر اثنا عشر ميلًا، أو للجنس، أي اضرب الشيءَ الذي يقال له الحجرُ، وهذا أظهرُ في الحجة وأَبينُ في القدرة ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ أي فضرب فانفجرت، أي سالت بكثرة ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ على عدد الأسباط ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبطٍ ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ عينَهم التي يشربون منها. وقلنا لهم: ﴿كُلُوا۟﴾ مِنَ المَنّ والسَّلوى ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ مِن ماء العيون ﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي الكل مما رزقكُم الله ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا تُفسدوا فيها. والعَيث أشدُّ الفساد ﴿مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾ لا تتمادَوا في الفساد في حال فسادكم، لأنهم كانوا متمادين فيه.

٦١- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ هو ما رُزقوا في التِّيه من المَنّ والسَّلوى. وإنما قالوا: ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، وهما طعامان، لأنهم أرادوا بالواحد ما لا يتبدَّلُ. ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدَّة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها، يقال: لا يأكل فلان إلا طعامًا واحدًا، ويُراد بالوحدة نفي التبدل والاختلاف، وكانوا من أهل الزراعات، فأرادوا ما ألِفوه من البقول والحبوبِ وغير ذلك ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ سَلْه وقل له: أَخْرِجْ لنا، ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ يُظهِرْ لنا ويُوجِدْ ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾ هو ما أَنبتته الأرضُ من الخُضَرِ، والمراد به أَطايبُ البُقول كالنَّعناع والكَرَفْس والكُرَّاث ونحوها مما يأكل الناس ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ يعني الخِيارَ ﴿وَفُومِهَا﴾ هو الحِنْطَةُ أو الثومُ ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا
سَأَلْتُمْۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ
يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ
يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أقربُ مَنزلةً وأَدْوَنُ مقدارًا ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ﴾ أرفَعُ وأَجَلُّ ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ من الأَمصار، أي انحدروا إليه من التِّيْهِ. وبلادُ التيه ما بين بيتِ المَقدس إلى قِنَّسْرِين وهي اثنا عشر فرسخًا في ثمانية فراسخ ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فيها ﴿مَّا سَأَلْتُمْۗ﴾ فإنّ الذي سألتم يكون في الأمصار لا في التيه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي الهَوَانُ والفقر، يعني جُعلت الذِّلة محيطةً بهم مشتملةً عليهم ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ صَاروا أَحِقَّاءَ بغضبه ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدَّم مِن ضَرْبِ الذلة والمسكنة والخَلاقَة بالغضب ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي ذلك بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء. وقد قتلت اليهود شَعياءَ وزكريا ويَحيَى صلوات الله عليهم، ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ﴾ عندهم أيضًا فإنهم لو أنصفوا لم يذكروا شيئًا يستحقون به القتل عندهم في التوراة ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ بسبب ارتكابهم أنواعَ المعاصي واعتدائهم حدودَ الله في كل شيء مع كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء.

٦٢- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بأَلسنتهم من غير مواطأة القلوب، وهم المنافقون [ولذلك قَرَنَهم باليهود والنصارى والصابئين] ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ تهوَّدوا، [أي صاروا يهودًا، وهم اليهود] ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ الخارجين من دينٍ مشهورٍ إلى غيره من صَبَأَ إذا خرج من الدين، وهم قوم عَدَلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة. وقيل هم يقرأون الزَّبُورَ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ من هؤلاء الكفرة إيمانًا خالصًا ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثوابُهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [ولا خوف عليهم عند مَقْدَمِهم على الله[١] وفراقِهم الدنيا ولا في أهوال القيامة أن ينالَهم من مكارِهها، أو يُصيبَهم فيها من عقاب الله، ولا هم يحزنون على ما خَلَّفوا وراءَهم في الدنيا].

٦٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ بقَبولِ ما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي الجَبَلَ حتى قَبِلْتُم وأَعطَيتم المِيثاق. وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح فرأَوا ما فيها منَ الآصَارِ[٢] والتكاليف الشاقة فكبُرَت عليهم وأَبَوا قبولَها. فأَمَرَ الله تعالى جبريلَ عليه السلام فقلَعَ الطورَ مِن أصله ورفعه فظلَّلَه فوقَهم وقال لهم موسى: إن قَبلتُم وإلا أُلقي عليكم حتى قبلوا، وقلنا لكم ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ منَ الكتاب أي التوراةِ ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجِدٍّ وعزيمةٍ ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ واحفظوا ما في الكتاب وادرُسُوه ولا تنسَوْه ولا تغفُلُوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [لكي تصيروا مُتَّقين][٣].

٦٤- ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ ثم أَعرضْتُم عن الميثاق والوَفاء به ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعدِ القَبول ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتأخير العذاب عنكم أو بتوفيقكم للتوبة ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ الهالكين في العذاب.

---

(١) أي: إلى حسابه وجزائه.
(٢) الآصار: جمع إِصْرٍ وهو العهد الثقيل.
(٣) في الأصل قال «رجاءً منكم أن تكونوا متَّقين» وهو خلاف الصواب، بل لو قال لكي أو لأجل أو لتصيروا كان صوابًا.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ﴾

٦٥- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ عَرَفْتُم ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ جاوزوا ما حُدَّ لهم فيه من التَّجَرُّد للعبادة وتعظيمِه واشتَغَلوا بالصيد؛ وذلك أن الله تعالى نهاهم أن يَصِيدوا في السَّبْت ثم ابتلاهم فما كان يبقَى حُوتٌ[1] في البحر إلا أَخرَجَ خُرْطومَه[2] يوم السبت فإذا مضى تفرَّقت فحفروا حياضًا عند البحر وشرعوا إليها الجَدَاول، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت لأَمنِها منَ الصيد، فكانوا يَسُدُّون مشارِعَها من البحر فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحَبْسُ في الحِياض هو اعتداؤهم ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟﴾[3] بتكويننا إياكم ﴿قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ كونوا جامعين بينَ القِردية والخُسوءِ، وهو الصَّغارُ والطرد.

٦٦- ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا﴾ يعني المسخةَ ﴿نَكَـٰلًا﴾ عبرةً تُنَكِّلُ من اعتبر بها أي تمنَعُه، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ لما قَبْلَها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ وما بعدَها من الأمم والقرون، لأن مَسخَتَهم ذُكرت في كتب الأولين، فاعتبَروا بها واعتبر بها من بلغَتْهم من الآخرين ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ الذين نَهَوْهُم عن الاعتداء مِن صالِحي قومِهم أو لكل مُتَّقٍ سمعها.

٦٧- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي واذكروا إذ قال موسى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(١) الحوت: السمك، وهو يطلق على السمك الصغير وعلى الكبير، وعلى الحوت المعروف.
(٢) المرادُ رأسُه وأنفُه.
(٣) على مذهب المشبهة قال الله تعالى هذا الحرف كونوا بالكاف والنون. وليس المعنى ذلك، إنما المعنى أنه كوَّنهم قردة بسرعة، وبعدما صاروا قردةً كانوا يعرفون أهليهم، والأهل عرفوا أن هؤلاء أقرباؤهم، لكن ليس كل واحد يعرف قريبه بالتعيين، ذاك الذي مُسِخَ يعرف قريبه، هذا يُقبل إلى قريبه، وهذا يُقبل إلى قريبه، ولا ينطقون كما كانوا ينطقون، بل كانوا يُخرجون أصواتًا كالقردة العاديين، وبعد ثلاثة أيام فَنَوا ما توالدوا.

﴿يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ
الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ
وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا
مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ
ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾

﴿يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ قال المفسرون: أَولُ القصة مؤخَّرٌ في التلاوة وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة البقرة]. وذلك أن رجلًا موسرًا اسمُه عاميلُ قَتَلَه بنو عَمِّه ليَرثوه وطرحوه على باب مدينةٍ، ثم جاؤوا يطالبون بديته، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرةً ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرَهم بقاتله ﴿قَالُوٓاْ﴾ [مخاطبين لموسى] ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أتجعلُنا أهلَ هزءٍ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ لأن الهُزْءَ في مِثل هذا من باب الجَهْلِ والسَّفَه، وفيه تعريضٌ بهم، أي أنتم جاهلون حيث نَسَبْتُموني إلى الاستهزاء.

٦٨- ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ سؤالٌ عن حالها وصفتها لأنهم كانوا عالمين بماهِيَّتها، وذلك أنهم تعجَّبوا من بقرة ميتةٍ يُضْرَب ببعضِها ميتٌ فيحيا، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ مُسِنَّةٌ ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ فَتِيَّةٌ ﴿عَوَانٌ﴾ نَصَفٌ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بينَ الفَارضِ والبكر ﴿فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ به.

٦٩- ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ ادعُ لنا رَبَّكَ يُبيّن لنا أَيُّ شيءٍ لونها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ الفُقوعُ أَشدُّ ما يكون من الصُّفرة وأَنْصَعُه فكأنه قيل شديدة الصفرة ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ لحسنها.

٧٠- ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ تكرير للسؤال عن حالها وصِفَتها واستكشاف زائد ليزدادوا بيانًا لوصفها، وعن النبي عليه السلام:

﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾

«لو اعترضوا[١] أدنى بقرة فذَبحوها لكفَتْهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم»، والاستقصاء شؤم[٢]، ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ إن البقر الموصوف بالتعوين[٣] والصفرة كثير فاشتبه علينا ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ إلى البقرة المراد ذبحها أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل.

٧١- ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ لَمْ تُذلَّل للكِراب[٤] وإثارة الأرض ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ ولا هي من النَّواضِح التي يُسْنَى عليها[٥] لسقي الحروث ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ عن العيوب وءاثار العمل ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾ لا لُمْعَةَ في نُقْبَتِها[٦] من لونٍ ءاخَرَ سوى الصُّفرةِ فهي صفراءُ كلُّها حتى قَرنها وظِلفها ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ بحقيقة وَصْف البَقَرة وما بقيَ إشكالٌ في أمرها ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ فحَصَّلوا البقرةَ الجامعةَ لهذه الأوصافِ كلِّها فذبَحوها ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ لغَلاءِ ثَمَنِها أو خوفِ الفضيحَة في ظهورِ القاتل.

٧٢- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ بتقدير: واذكروا، خوطِبَتِ الجماعةُ لوجود القتل فيهم ﴿فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ﴾ فاختلفتم واختصَمتم في شأنها ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ مُظهِرٌ لا محالة ما كتمتم من أَمر القتلِ لا يتركه مكتومًا.

---

(١) أي: أخذوا.
(٢) هذا إذا كان لغير حاجةٍ، أما إذا كان لحاجة فليس شؤمًا، هؤلاء لغير حاجة تشدَّدوا.
(٣) أي: التوسُّط في السِّنّ.
(٤) الكراب: قلب الأرض للحرث.
(٥) يُسْنَى عليها: يُستقى من البئر عليها.
(٦) النُّقْبَةُ: اللون.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ﴾

٧٣- ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ﴾ [أي اضربوا القتيل] ببعض البقرة وهو لسانُها أو فَخِذُها اليُمنى أو عَجْبُها[١]، والمعنى فضربوه فَحَيِيَ فَحُذِف لدلالةِ ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ روي أنهم لما ضربوه قام بإذن الله تعالى وقال: قتلني فلان وفلان لابنَي عَمِّه ثم سَقَطَ مَيْتًا فأُخذا وقُتلا، ولم يُوَرَّث قاتلٌ بعد ذلك، وقوله ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إما أن يكون خطابًا للمنكرين[٢] في زمن النبي عليه الصلاة والسلام، وإما أن يكون خطابًا للذين حضروا حياة القتيل ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائله على أنه قادر على كل شيء ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ تعملون على قَضِية عقُولِكم، وهي أنَّ مَن قَدَرَ على إحياء نفسٍ واحدةٍ قَدَرَ على إحياء جميعِها، والحِكمَةُ في ذبح البقرة وضربهِ ببعضِها وإن قدرَ على إحيائه بلا واسطةِ التقربِ بِهِ الإشعارُ بحُسن تقديم القُربَة على الطلب، والتعليمُ لعبادهِ تركَ التشديد في الأمور، والمسارعَةَ إلى امتثال أوامر الله من غير تفتيشٍ وتكثير سؤالٍ وغير ذلك.

٧٤- ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ [أيها اليهود عن قبول الحقِّ فلم ينفذ إليها الخير] من بعد ما ذُكر مما يوجب لِينَ القلوب ورِقَّتها. وصفةُ القلوب بالقسوة مَثَلٌ لِنُبُوِّها[٣] عن الاعتبار والاتعاظ ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إحياء القتيل أو إلى جميع ما تقدّم من الآيات المعدودة ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ فهي في قَسْوتها مثلُ الحجارة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ﴾ منها ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ﴾ بيانٌ لزيادة قَسْوَة قلوبهم على الحجارة ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ

---

(١) عجبها: أصلُ ذَنَبها.
(٢) أي: لمنكري البعث والحساب.
(٣) أي: بُعدِها.

﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤ ۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم﴾

﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ والتَّفَجُّر التَّفَتُّح بالسَّعَة والكَثْرَة ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ﴾ منَ الحجارة ما فيه خُروقٌ واسعة يتدفّق منها الماء الكثير ومنها ما ينشقُّ انشقاقًا بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضًا، وقلوبهم لا تندى[1] ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ﴾ يَتَرَدَّى من أعلى الجبل ﴿مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ مَجازٌ عن انقيادها لأمر الله، وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تَنقادُ ولا تفعل ما أُمرت به [وذلك بتقدير الله تعالى أيضًا]. وقيل: المراد به حقيقةُ الخَشية على معنى أنه يَخلُق فيها الحياة والتمييز ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾ وَعِيد.

٧٥- ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ أن يؤمنوا لأجل دعوتكم ويستجيبوا لكم، يعني اليهودَ ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ﴾ طائفةٌ فيمن سَلَفَ منهم ﴿يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي التوراةَ ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ كما حَرَّفوا صفةَ رسول الله ﷺ وءايةَ الرَّجم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ مِن بعد ما فَهموه وضَبَطوه بعقولهم ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ أنهم كاذبون مفترون. والمعنى: إنْ كَفَرَ هؤلاء وحَرَّفوا فلهم سابقةٌ في ذلك.

٧٦- ﴿وَإِذَا لَقُواْ﴾ أي [منافقو اليهود] ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي المخلصينَ مِن أصحاب محمدٍ ﷺ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي المنافقونَ ﴿ءَامَنَّا﴾ بأنكم على الحقّ وأن محمدًا ﷺ هو الرسول المبشَّرُ به ﴿وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ﴾ الذين لم يُنافقوا [منهم] ﴿إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ إلى الذين نافقوا ﴿قَالُوٓاْ﴾ عاتبينَ عليهم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ أَتُخبرونَ أصحابَ محمدٍ عليه

---

(١) لا تندى: لا تخشع.

﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ
مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ
ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

الصلاة والسلام ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما بيّنَ اللهُ لكم في التوراة من صفة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ ليُجادلوكم ويخاصموكم به بما قلتم لهم عند ربكم في الآخرة، يقولون: كفرتم به بعد أن وقفتم على صدقه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أنَّ هذه حجةٌ عليكم حيث تعترفون به ثم لا تتابعونه.

٧٧- ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ جميعَ ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ ومن ذلك إسرارُهمُ الكفرَ وإعلانُهمُ الإيمانَ.

٧٨- ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يُحسنونَ الكَتْبَ فيطالعوا التوراةَ ويتحقَّقوا ما فيها ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراةَ ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ إلا ما هم عليه من أَمانِيّهم وأنَّ الله يعفو عنهم ويرحَمُهم ولا تَمَسُّهُم النار إلا أيّامًا معدودةً، أو إلا أكاذيب مختلقةً سمعوها من علمائهم فتقبَّلوها على التقليد ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ وما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ لا يدرون ما فيه فيجْحَدون نبوَّتَك بالظن.

٧٩- ﴿فَوَيْلٌ﴾ في الحديث «**ويل وادٍ في جهنم [قعره أربعون خريفًا]**»(١) ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المحرَّف ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون منزَّلًا، وذكر الأيدي للتأكيد ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ﴾ عِوَضًا يسيرًا ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ من الرِّشا.

---

(١) خريفًا: سنةً.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ
عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ
خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ
إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

٨٠- ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أربعينَ يومًا عدد أيام عِبادةِ العِجل ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي عَهِدَ إليكم أنه لا يُعذبكم إلا هذا المقدارَ ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ إن اتخذتُم عند الله عهدًا فلن يُخلف اللهُ عَهدَه ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أتقولون على الله ما تعلمون أم تقولون عليه ما لا تعلمون.

٨١- ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما بعد النفي، وهو لن تمسَّنا النار، أي بلى تمسُّكُم أبدًا ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ شِرْكًا ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ وسُدَّت عليه مسالكُ النجاة بأن مات على شركه، فأما إذا مات مؤمنًا فأعظم الطاعات - وهو الإيمان - معه فلا يكون الذنب محيطًا به فلا يتناوله النصُّ، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

٨٢-٨٣- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الميثاق العهد المؤكد غاية التأكيد ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إخبار في معنى النهي، وهو أبلغ من صريح النهي، ومعناه: ألّا تعبدوا، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأحسِنوا [إلى الوالدين إحسانًا، والإحسان إليهما بِرُّهما وإكرامهما] ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ القَرابةِ ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمعُ يتيمٍ وهو الذي فقد أباه قبلَ الحُلُم[1] إلى الحُلُم ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ جمعُ مسكين وهو الذي أَسْكَنَتْهُ الحاجةُ ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ قولًا هو حُسْنٌ في نفسه لإفراطِ حُسْنه

(١) أي: البلوغ.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم
مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن
دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ
فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ
تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الميثاق ورفضتموه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ قيل: هم الذين أسلموا منهم ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ وأنتم قوم عادتكم الإعراضُ والتولية عن المواثيق.

٨٤- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ لا يفعلُ ذلك بعضُكم ببعض ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ عليها كما تقول فلان مُقِرٌّ على نفسه بكذا شاهدٌ عليها.

٨٥- ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [فيه وجهان، أحدُهما أن يكون أريد به ثم أنتم يا هؤلاء، والوجه الآخر أن يكون معناه ثم أنتم قوم] ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [أي بعضكم بعضًا، أو أهلَ مِلَّتكم] ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ﴾ غيرَ مراقِبين ميثاقَ الله ﴿تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ تتعاونونَ ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ بالمَعصية والظلم ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ بفِداءِ الأَسرى ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ﴾ بالقِتال والإجلاء. قال السُّدي: أَخذ اللهُ عليهم أربعةَ عهود: تركَ القَتل، وتركَ الإخراج، وتركَ المُظاهرة، وفداءَ الأسير، فأعرضوا عن كلِّ ما أُمروا به إلا الفِداءَ ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾ هو إشارة إلى الإيمان ببعض والكفر ببعض ﴿مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ﴾ فَضيحة وهَوَان ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ وهو الذي لا

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ
عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَـٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ
وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدۡنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ
أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ
بِكُفۡرِهِمۡ﴾

رَوْحَ فيه ولا فَرَحَ، أو إلى أَشدَّ من عذاب الدنيا ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

٨٦- ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ اختاروها على الآخرة اختيارَ المشتري ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ ولا ينصُرُهم أَحدٌ بالدفع عنهم.

٨٧- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَـٰبَ﴾ التوراةَ، ءاتاهُ [إياه] جملةً ﴿وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ﴾ وأرسلنا على إِثره الكثيرَ من الرُّسُل، وهم: يوشَعُ وأَشْمَوِيلُ وشَمعونُ وداودُ وسُليمان وشَعياءُ وأَرْمياء وعُزيرٌ(١) وحِزْقِيلُ وإلياسُ واليَسَعُ ويونسُ وزكريا ويحيى وغيرهم صلوات الله عليهم ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَـٰتِ﴾ المعجزاتِ الواضحات، كإحياء الموتى، وإبراءِ الأَكْمَهِ والأبرص، والإخبار بالمُغَيَّبات ﴿وَأَيَّدۡنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ بجبريلَ عليه السلام، لأنه يأتي بما فيه حياةُ القلوب، وذلك - [أي التأييدُ] - لأنه رَفَعَه إلى السماء حين قصَدَ اليهودُ قتلَه ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ﴾ تُحبُّ ﴿أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ تَعظَّمتم عن قَبوله ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ﴾ كعيسى ومحمدٍ عليهما السلام ﴿وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام.

٨٨- ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾ مُغَشَّاةٌ بأغطيةٍ لا يَتَوصَّل إليها ما جاء به محمدٌ عليه الصلاة والسلام ولا تَفقهُه ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ فَردَّ اللهُ

---

(١) الصواب أنه وليٌّ، ليس نبيًّا.

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ
يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا﴾

أن تكون قلوبُهم مخلوقةً كذلك، لأنها خُلِقَت على الفِطرة والتمكن من قَبول الحَقّ، وإنما طَرَدَهم بكفرهم وزَيغِهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ فإيمانًا قليلًا يؤمنون، و﴿مَّا﴾ مزيدة، وهو إيمانهم ببعض الكتاب، وقيل: القِلَّة[1] بمعنى العدم.

٨٩- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي اليهودَ ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي القرءانُ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من كتابهم لا يخالفُه ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ يعني القرءانَ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يَستنصِرون على المشركين إذا قاتلوهم قالوا: اللهم انصُرنا بالنبي المبعوث في ءاخر الزمان الذي نَجِدُ نَعتَهُ في التوراة، ويقولون لأَعدائهم المشركين: قد أظلَّ[2] زمانُ نَبي يَخرجُ بتصديق ما قلنا فنقتلُكم معه قَتْلَ عادٍ وإرَمَ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ [أي الأمرُ الذي عرفوه حقًّا في كتابهم] ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [جحدوه وكذَّبوه] بغيًا وحسدًا وحِرصًا على الرِّياسة ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي عليهم، [ودَلَّ] على أن اللعنةَ لحقتهم لكفرهم.

٩٠- ﴿بِئْسَمَا﴾ بئس شيئًا ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي باعوا[3] والمخصوص بالذم ﴿أَن يَكْفُرُوا۟﴾ [أي بئس العِوَضُ الذي أخذوه عن أنفسهم كفرُهُم] ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني القرءانَ ﴿بَغْيًا﴾ أي حَسَدًا وطلبًا

---

(١) يعبر بالقِلَّة عن العدم في بعض المواضع لكنها نادرة. الأمر الغالب أن تستعمل بمعنى القليل الذي هو يقابل الكثير.
(٢) أَظَلَّ أي: قَرُبَ.
(٣) اشترى يأتي بمعنى البيع وبمعنى الشراء، وهنا بمعنى باع.

﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا
وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

لما ليس لهم ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾ حَسدوه على أن يُنزل الله ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ الذي هو الوَحْيُ ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ﴾ وهو محمدٌ عليه الصلاة والسلام [وكانوا يعتقدون بظهور نبي ءاخر الزمان وينتظرون خروجه وهم يظنون أنه من ولد اسحاق، فلما ظهر أنه مِن ولد إسماعيل حسدوه وكرهوا أن يخرجَ الأمرُ من بني إسرائيل فيكون لغيرهم] ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ﴾ فصاروا أَحقّاءَ بغضبٍ مترادِفٍ، لأنهم كفروا بنبيّ الحقِّ وبغَوا عليه، أو كفروا بمحمدٍ بعد عيسى عليهما السلام، أو بعد قولهم: عزيرٌ ابنُ الله، وقولِهم: يَدُ الله مغلولةٌ، وغير ذلك ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ مُذِلٌّ.

٩١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لهؤلاء اليهود ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني القرءان ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي التوراةِ ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي قالوا ذلك والحالُ أنهم يكفرون بما وراءَ التوراة ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ﴾ غيرَ مُخالفٍ له، وفيه ردٌّ لمَقَالَتهم، لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراةَ فقد كفروا بها ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي فَلِمَ قَتلتُم، فوضع المستقبَلُ موضِعَ الماضي، ويدلُّ عليه قوله: ﴿مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي من قبلِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، اعتِراضٌ عليهم بقتلهم الأنبياءَ مع ادعائهم الإيمانَ بالتوراة، والتوراة لا تُسَوّغُ قتلَ الأنبياء، قيل: قَتَلوا في يوم واحد ثلاثمائةِ نبي في بيتِ المقدس(١).

---

(١) ليس ثابتًا، إنما هو كلام المؤرخين.

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ
وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا
يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ
ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾

٩٢- ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات التسع ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلٰهًا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد خروج موسى عليه السلام إلى الطور ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غيرَ موضعها.

٩٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ كرَّر ذِكرَ رَفعِ الطُّورِ لما نِيْطَ[1] به من زيادةٍ ليست مع الأولى[2] ﴿وَٱسْمَعُوا۟ ۖ﴾ ما أُمرتم به في التوراة ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ قولَك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أَمركَ ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ تداخَلَهُم حُبُّه والحِرصُ على عبادته كما يتداخل الصِّبغُ الثوبَ ﴿بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾ بسبب كفرهم واعتقادهم التشبيه ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ بالتوراةِ لأنه ليس في التوراة عبادةُ العجل، وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكُّم، وكذا إضافة الإيمان إليهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ تشكيكٌ في إيمانهم وقَدْحٌ في صحة دعواهم له.

٩٤- ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي الجنةُ ﴿عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾ سالمةً لكم، ليس لأحدٍ سواكم فيها حقٌّ، يعني إن صحَّ قولُكم: لن يدخلَ الجنةَ إلا من كان هودًا ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ هو للجنس ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ فيما تقولونَ، لأن مَن أَيقنَ أنه من أهل

---

(١) أي: عُلِّق.
(٢) والزيادةُ التي ليست في الآية الأولى هي قولُه تعالى ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى
حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن
يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾

الجنة اشتاقَ إليها تَخَلُّصًا منَ الدار ذاتِ الشوائب، كما نُقِلَ عن العَشَرة المبشرين بالجنة أن كلَّ واحدٍ منهم كان يُحبُّ الموت ويَحِنُّ إليه.

٩٥- ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ لن يتمنَّوه ما عاشوا ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بما أَسلَفوا من الكفر بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام، وتحريفِ كتاب الله، وغير ذلك، وهو من المعجزات لأنه إخبارٌ بالغيب، وكان كما أخبَرَ به ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ تهديدٌ لهم.

٩٦- ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ﴾ التنكير يدل على أنَّ المرادَ حياةٌ مخصوصة وهي الحياة المتطاولَةُ ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وأحرصَ من الذين أشركوا، وفيه توبيخ عظيم، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يُستبعد لأنها جنَّتُهم، فإذا زاد في الحرص من له كتابٌ وهو مُقِرٌّ بالجزاء كان حقيقًا بأعظم التوبيخ، وإنما زاد حرصهم على الذين أشركوا لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لعِلمهم بحالهم، والمشركون لا يعلمون ذلك ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ بيانٌ لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ وما أحدهم بِمَن يُزحزحُه من النار تعميرُه ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي بعمل هؤلاء الكفار فيجازيهم عليه.

٩٧- ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ معناه عبدُ الله لأن جَبْرَ هو العبدُ بالسُّريانية وإِيْلُ اسمُ الله، روي أن ابن صُوْرِيَا من أحبار اليهود حاجَّ النبي ﷺ وسأله عمن يَهبِطُ عليه بالوحي، فقال: «**جبريلُ**»، فقال: ذاك عدوُّنا ولو كان غيرَهُ لآمنَّا بك، وقد عادانا مرارًا، وأشدُّها أنه أُنزل على نبينا أنّ بيت المقدس سَيُخَرِّبه بُخْتَنَصَّر، فبعثنا مَن يقتُلُه فَلَقِيَه ببابلَ

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ
لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾

غلامًا مسكينًا فدفعَ عنه جبريلُ، وقال: إن كان رَبكم أَمره بهلاككم فإنه لا يُسَلِّطكم عليه، وإن لم يكن إياه فعَلَى أيّ ذنب تقتلونه؟! ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ فإن جبريلَ نَزّلَ القراٰن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ حَفَّظَه إياك ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ ردٌّ على اليهود حين قالوا: إنّ جبريل ينزلُ بالحَرب والشدة، فقيل: فإنه ينزل بالهدى والبُشرى أيضًا.

٩٨- ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ عَداوةُ الملائكة كُفرٌ كعداوة الأنبياء، ومن عاداهم عاداهُ الله.

٩٩- ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ المتمردون من الكفرة.

١٠٠- ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ﴾ نقضه ورفضه، وقال ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ﴾ لأن منهم من لم ينقض ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ بالتوراة، وليسوا منَ الدين في شيء، فلا يَعُدّون نقضَ المواثيق ذنبًا ولا يبالون به.

١٠١- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ محمدٌ ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراةَ، والذين أوتوا الكتاب اليهودُ ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يعني التوراةَ، لأنهم بكفرهم برسول الله ﷺ المُصدّقِ لما معهم كافرون بها نابذون لها، أو ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾

﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ﴾

القرءان، نبذوه بعدما لزمهم تَلقِّيه بالقَبول ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مَثَلٌ لتركِهم وإعراضهم عنه ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أنه كتابُ الله.

١٠٢- ﴿وَاتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ نبذَ اليهودُ كتابَ الله، واتّبعوا كُتُبَ السِّحر والشَّعوذةِ التي كانت تقرؤها [الشياطين] ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ على عَهدِ مُلْكِهِ وفي زمانه، وذلك أنَّ الشياطين كانوا يَستَرِقُون السَّمعَ، ثم يَضُمُّون إلى ما سَمِعوا أكاذيبَ يُلَفِّقونها ويُلقونها إلى الكهنة، وقد دَوَّنوها في كتبٍ يقرؤونها ويُعلِّمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام، حتى قالوا: إنّ الجن تَعْلَم الغيبَ، وكانوا يقولون: هذا عِلمُ سليمان وما تمَّ لسليمان مُلكُه إلا بهذا العلم، وبه سَخَّر الجِنَّ والإنسَ والريحَ ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ تكذيبٌ للشياطين ودفعٌ لما بَهَتَت به سليمانَ[١] من اعتقادِ السحر والعمل به ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ هم الذين ﴿كَفَرُوا۟﴾ باستعمال السّحر وتدوينِه [وادعائهم أنه عِلمُ سليمان] ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ قاصدين به إغواءَهم وإضلالَهم ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ ويُعلِّمونهم ما أُنزل على الملكين ﴿بِبَابِلَ﴾ [المشهور أنه بلدٌ من سواد الكوفة[٢]] ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ عَلَمان للمَلَكَين، والذي أنزل عليهما هو عِلمُ السحر ابتلاءً من الله للناس، مَن تَعلَّمه منهم وعَمِل به كان كافرًا إن [عمل به على وجهٍ] فيه رَدُّ ما لزم في شرط الإيمان، ومن تجنَّبه أو تَعلَّمه لا ليعمَلَ به ولكن ليتوقَّاه ولئلّا يَغترَّ به كان مؤمنًا، قال الشيخ أبو منصورٍ الماتريدي رحمه الله: القولُ بأن السحر على الإطلاق

---

(١) أي: افترت عليه كذبًا.

(٢) سوادُ الكوفة: قُراها، سُميَ بذلك لخُضرة أشجارها وزروعها.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾

كفرٌ خطأٌ، بل يجب البحث عن حقيقته، فإن كان في ذلك رَدُّ ما لَزِمَ في شرط الإيمان فهو كفر، وإلا فلا، وقيل: ﴿أُنزِلَ﴾ أي قُذف في قلوبهما مع النهي عن العمل[(١)] ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ وما يُعلِّم الملَكان أحدًا ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾ حتى يُنبِّهاه وينصحاه ويقولا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاءٌ واختبار من الله ﴿فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾ بتعلُّمِه والعملِ به على وجهٍ يكون كفرًا ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ فيتعلّم الناس من الملَكين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ﴾ أي عِلمَ السحر الذي يكون سببًا في التفريق بين الزوجين بأن يُحْدِثَ الله عنده النشوزَ والخلافَ ابتلاءً منه. وللسحر حقيقةٌ عند أهل السنة، كَثَّرهم اللهُ، وعند المعتزلة هو تخييل وتمويه ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾ بالسحر ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ بعلمه ومشيئته[(٢)] ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾ في الآخرة، وفيه دليل على أنه

---

(١) أَوردَ الإمام النسفي في هذا الموضع قصةً باطلة بصيغة التضعيف ولكنه لم يحذر منها فَلِذا حذفناها من الأصل ونذكرها في الحاشية للتحذير منها وهي قوله: إنهما ملكان اختارتهما الملائكة لتركَّب فيهما الشهوة حين عيَّرت بني ءادم، فكانا يحكمان في الأرض ويصعدان بالليل فهويا زُهرةَ فحملتهما على شُرب الخمر فزنيا فرءاهما إنسان فقتلاه، فاختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة، فهما يعذبان منكوسين في جبٍّ ببابل. وهذه القصة ليس لها صحة، وهي من الإسرائيليات، لأن الملائكة يستحيل عليهم فعل المعصية لأن الله تعالى جعلهم مجبولين على الطاعة، لا يختارون إلا الطاعة بمشيئة الله، قال تعالى إخبارًا عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [سورة التحريم] فلا يجوز اعتقاد صحة هذه القصة لأنها مخالفة لصريح القرءان.

(٢) الإذن هنا المشيئة لا الأمرُ والرِّضا، وفي هذا إبطال مذهب المعتزلة لأنهم يقولون: المعاصي ليست بمشيئة الله تحصل، إنما هي بمشيئة العباد، فالآية صريحة في إبطال دعواهم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾

واجبُ الاجتناب كتعلم الفَلسَفة التي تجرُّ إلى الغَواية[١] ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ أي اليهود ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ استبدَلَ ما تتلو الشياطين من كتاب الله ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ من نصيب ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ باعوها، وإنما نَفَى العلمَ عنهم بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ مع إثباته لهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ على سبيل التوكيد القَسَمِيّ[٢]، لأن معناه: لو كانوا يعملون بعِلمهم، جَعَلَهم حين لم يعملوا به كأنهم لا يعلمون.

١٠٣- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ برسول الله ﷺ والقرءان ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ الله، فتركوا ما هم عليه مِن نَبْذِ كتاب الله واتباع كتب الشياطين ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أنّ ثوابَ الله خيرٌ مما هم فيه، وقد علموا، لكنه جَهَّلَهم لمَّا تركوا العملَ بالعلم، والمعنى لأُثيبوا مِن عند الله ما هو خير.

١٠٤- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا ألقى عليهم شيئًا من العلم: راعِنا يا رسول الله، أي راقِبنا وانتظِرنا حتى نفهَمَه ونحفَظَه، وكانت لليهود كلمة يتسابُّون بها عِبرانيةٌ أو سُريانية، وهي راعينا، فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعِنا، افتَرَصُوهُ[٣] وخاطبوا به الرسولَ ﷺ وهم يَعنونَ به تلكَ المَسَبّة، فنُهي المؤمنونَ عنها وأُمروا بما هو في معناها، وهو

---

(١) الغَواية: الضلالة.
(٢) لأن اللام وقد للتأكيد بمنزلة القَسَم.
(٣) أي: عَدَّ اليهودُ ذلك فُرصةً.

﴿وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن
يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ
مِّنْهَآ﴾

انْظُرْنا مِنْ نَظَرَه إذا انتظَرَه ﴿وَٱسْمَعُواْۗ﴾ وأَحسِنوا سماعَ ما يُكلِّمكم به رسولُ الله ﷺ ويُلقي عليكم من المسائل بآذانٍ واعيةٍ[1] وأذهانٍ حاضرةٍ، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة وطلبِ المراعاة، ولا يَكُنْ سَماعكم كسَماع اليهود حيث قالوا: سَمِعنا وعَصَينا ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ ولليهود الذين سَبُّوا رسولَ الله ﷺ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ مؤلم.

١٠٥- ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ﴾ لأنَّ الذينَ كفروا جنسٌ تحته نوعان، أَهلُ الكتابِ والمشركونَ، ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ يعني أنهم يَرونَ أنفُسَهم أَحقَّ بأن يوحَى إليهم فيحسُدُونكم وما يُحبُّون أن ينزل عليكم شيء من الوحي، والله يختصُّ بالنبوة من يشاء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ فيه إشعار بأنّ إيتاء النبوة من الفضل العظيم.

ولما طعنوا في النَّسْخ فقالوا: ألا تَرونَ إلى محمدٍ يأمرُ أصحابه بأمر، ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخِلافِه، ويقول اليومَ قولًا ويرجع عنه غدًا، نزل:

١٠٦- ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ تفسيرُ النسخ لغةً التبديلُ. وشريعةً بيانُ انتهاءِ الحُكم الشرعي المطلَق الذي تقرَّر في أوهامنا استمرارُه بطريقِ التراخي، فكان تبديلًا في حَقّنا، بيانًا مَحضًا في حقّ صاحب الشَّرع، والإنساء أن يُذهَبَ بحفظها عن القلوب ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ نأت بآيةٍ خيرٍ

---

(١) أي: حافظةٍ لما تسمع.

﴿أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟
رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا
حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾

منها للعباد، أي بآيةٍ العملُ بها أكثرُ للثواب ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ في ذلك إذ لا فضيلة لبعض الآيات على البعض[(١)] ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ فهو يَقْدِرُ على الخير وعلى مِثْلِهِ.

١٠٧- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يملك أموركم ويُدَبِّرها وهو أعلم بما يتعبَّدُكم به من ناسخ أو منسوخ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يلي أمركم ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ ناصرٍ يمنعكم من العذاب.

١٠٨- ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ تقديره بل أتريدون ﴿أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ رُوي أن قريشًا قالوا: يا محمدُ، اجعَلْ لنا الصَّفا ذهبًا، وَوَسِّعْ لنا أرضَ مكة، فنُهوا أن يقترحوا عليه الآيات، كما اقترح قوم موسى عليه حين قالوا: اجعل لنا إلٰهًا ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ومن ترك الثقة بالآيات المنزَّلة وشكَّ فيها واقترح غيرها ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ قَصْدَهُ وَوَسَطَه.

١٠٩- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ أن يردُّوكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ يَرُدُّونكم عن دينكم كافرين، نزلت حين قالت اليهود للمسلمين بعد واقعة أُحد: ألم تروا إلى ما أصابكم، ولو كنتم على الحقِّ لَمَا هُزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم ﴿حَسَدًا﴾ لأجل الحسد، وهو الأسف على الخير عند الغير ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ لا من

(١) إن نظرنا إلى كلام الله الذاتي أنه كلام واحد لا يقال منه أفضل ومنه مفضول، لكن اللفظ المنزل بعضه فيه تخفيف وبعضه فيه تثقيل، في هذا أفضل ومفضول.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ
إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ
تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ
وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾

قِبَل التديُّن والميل مع الحَقِّ، لأنهم ودُّوا ذلك ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي من بعد عِلمِهم بأنكم على الحَقِّ ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ فاسلكوا معهم سبيلَ العفو والصَّفْح عما يكون منهم من الجهل والعداوة ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ بالقتال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم.

١١٠- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ من حسنةٍ صَلاةٍ أو صدقةٍ أو غيرهما ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ تجدوا ثوابَه عنده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾ فلا يَضِيع عنده عملُ عاملٍ.

١١١- ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ وقالت اليهود: لن يدخلَ الجنةَ إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخلَ الجنةَ إلا من كان نَصارَى ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾ أشير بها إلى الأماني المذكورة، وهي أُمنيتُهم ألَّا يَنزلَ على المؤمنين خير من ربهم، وأمنيتهم أن يَردُّوهم كفارًا، وأمنيتهم ألَّا يدخل الجنةَ غيرُهم، أي تلك الأَمانيُّ الباطلة أمانِيُّهم ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ هَلُمُّوا حجتَكم على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ في دعواكم.

١١٢- ﴿بَلَىٰۚ﴾ [رَدٌّ لقولهم و]إثباتٌ لما نَفَوْه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ مَن أَخلَص نفسه له لا يُشرك به غيرَهُ ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ مُصَدِّقٌ بالقرءان ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [ثوابُ عمله في الجنة] ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [فيما يستقبلونه من أمرِ الآخرة] ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ [على ما فاتهم من أمور الدنيا].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ﴾

١١٣- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي على شيء يصح ويُعتدُّ به ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ﴾ أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكُتب. وحَقُّ من حَمَل التوراةَ والإنجيل وءامن به ألَّا يكفر بالباقي، لأن كل واحدٍ من الكتابين مُصَدِّق للآخر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثلَ ذلك القول الذي سمعتَ به ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ﴾ أي الجَهَلةُ الذين لا علمَ عندهم ولا كتابَ كعَبَدة الأصنام والمُعَطلة، قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء، وهذا توبيخ عظيم لهم[١]، حيث نَظَمُوا أَنفُسهم مع عِلمهم في سِلْكِ من لا يَعلَمُ ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي بينَ اليهود والنصارى بما يَقْسِمُ لكل فريقٍ منهم من العقاب اللائق به.

١١٤- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام، والمعنى أيُّ أحدٍ أظلَمُ ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ مانِعُها من ذكر الله مُفرط في الظلم، والسبب فيه طرحُ النصارى في بيت المقدس الأذى[٢]، ومنعُهم الناسَ أن يصلُّوا فيه، أو مَنعُ المشركين رسولَ الله ﷺ أن يدخلَ المسجد الحرام عام الحُدَيبية، ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ﴾ بانقطاع الذِّكر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ﴾ ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله ﴿إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ﴾ على حال التهيُّب[٣] وارتعاد الفرائص[٤] من المؤمنين أن

---

(١) أي: لليهود والنصارى.

(٢) ألقوا فيه الجِيَف وجعلوا فيه مَزْبَلَة.

(٣) أي: المخافة.

(٤) اِرتعادُ الفرائص: اضطرابُها، والفَريصةُ لحمةٌ بين الجنْب والكتف.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا
فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

يبطشوا بهم ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قَتْلٌ وسَبْيٌ للحَربي، وذِلّة بضربِ الجِزيةِ للذمي ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ النار.

١١٥- ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ بلادُ المشرق والمغرب كلُّها له وهو مالكها ومتولّيها ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ أيّ ففي أي مكانٍ فَعَلْتُم تَولية وجوهِكم شَطْرَ القِبلة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة البقرة] ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي جِهَتُه التي أمر بها ورضيها، والمعنى أنكم إذا مُنعتم أن تُصلُّوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس فقد جُعلت لكم الأرضُ مسجدًا فَصَلُّوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها فإنّ التولية ممكنة في كل مكانٍ، [وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «نزلتْ في المسافر يتنفَّلُ حيثما توجهتْ به راحلتُه»، وقال مجاهد: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي قِبلةُ الله] ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ هو واسع الرحمة، يريد التوسِعَةَ على عباده، وهو عليم بمصالحهم، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت.

١١٦- ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ يريد الذين قالوا: المسيحُ ابنُ الله وعُزَيرٌ ابن الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ له تعالى عن ذلك ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو خالقُه ومالكُه، ومن جُملته المسيحُ وعزيرٌ، والوِلادةُ تنافي المِلكَ ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ منقادون لا يمتنع شيء منهم على تكوينه وتقديره، أي كلُّ ما في السموات والأرض.

١١٧- ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُختَرِعُهما ومُبدعهما لا على مثالٍ سَبَقَ ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ حَكَمَ أو قدَّر ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ هو

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ
بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

مِنْ كانَ التامَّة، أي احدُثْ فيَحْدُثُ، وهذا مَجازٌ عن سُرعة التكوين، ولا قَوْلَ ثَمَّ. وإنما المعنى أنَّ ما قضاه من الأمور وأراد كونَهُ فإنما يتكوَّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناعٍ ولا توقُّفٍ، كما أن المأمورَ المُطيعَ الذي يؤمَرُ فيمتثلُ لا يتوقَّفُ ولا يمتنع ولا يكون منه إباءٌ. وأكد استبعادَ الولادة لأنَّ مَنْ كان بهذه الصفة من القدرة كانت صفاته مُباينةً(١) لصفاتِ الأجسام فأنّى يُتَصوَّر التوالد ثَمَّ. [وقلنا إنَّ (كُنْ) ليس بأمر حقيقةً، لأنه لو كان أمرًا فإما أن يخاطِبَ به الموجودَ والموجودُ لا يُخاطَبُ بـ(كُنْ)، أو المعدومَ والمعدومُ لا يُخاطبُ].

١١٨- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِنَ المشركين أو مِنْ أهل الكتاب، ونفَى عنهم العلمَ، لأنهم لم يعملوا به ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ هلَّا يكلِّمنا كما يكلِّمُ الملائكةَ وكلَّم موسى استكبارًا منهم وعتوًّا ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ﴾ جُحُودًا لأَنْ يكونَ ما ءاتاهم من ءايات الله ءاياتٍ واستهانةً بها ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ﴾ قلوبُ هؤلاء ومَن قَبلَهم في العمى ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ لقوم يُنصِفون فيوقنون أنها ءاياتٌ يجب الاعترافُ بها والإذعان لها والاكتفاءُ بها عن غيرها.

١١٩- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا﴾ للمؤمنينَ بالثواب ﴿وَنَذِيرًاۖ﴾ للكافرين بالعقاب ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ ولا نَسألُكَ عنهم: ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلَّغت وبلَغْتَ جُهدَكَ في دعوتهم.

---

(١) أي: غيرَ مشابهة.

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ
ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي
نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

١٢٠- ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ كأنهم قالوا: لن نرضى عنك وإن أبلَغتَ في طلب رضانا حتى تتّبعَ مِلَّتنا، إقناطًا منهم لرسول الله ﷺ عن دُخولهم في الإسلام، فذكر الله عزَّ وجلَّ كلامَهم ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي رَضِيَ لعباده ﴿هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾ أي الإسلامُ، وهو الهدى كلُّه ليس وراءَه هدًى، والذي تدعون إلى اتّباعه ما هو هُدًى إنما هو هوًى ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ أقوالَهم التي هي أهواء وبِدَع ﴿بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بأنَّ دين الله هو الإسلام ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ ناصر.

١٢١- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهم أصحابُ النبي عليه الصلاة والسلام، والكتابُ القرءان ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ يقرءونَهُ حَقَّ قراءتهِ في الترتيل وأداءِ الحروف والتدبُّرِ والتفكر، أو يعمَلون به ويؤمنون بما في مضمونه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ [أي بالكتاب المؤتَى وذلك بالتحريف والكفر بما يُصَدِّقه] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [لمصيرهم إلى النار المؤبَّدة عليهم] حيث اشتَرَوا الضلالةَ بالهدى.

١٢٢- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي أنعمتُها عليكم ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ وتفضيلي إياكم على عالَمِيْ زَمانِكم.

١٢٣- ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ تكرير هاتين الآيتين لتكرار المعاصي منهم وختم قصة بني إسرائيل بما بدأ به.

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾

١٢٤- ﴿وَإِذِ﴾ واذكر إذ ﴿ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ اختبرَهُ بأوامرَ وَنَوَاهٍ، والاختبار مِنَّا لظهور ما لم نَعْلَمْ، ومنَ الله لإظهار ما قَدْ عَلِمَ ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قامَ بهنَّ حقَّ القيام وأدَّاهن أحسنَ التأدية من غير تفريطٍ وتَوَانٍ، ونحوه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة النجم]. والكلماتُ خمسٌ في الرأس الفَرْقُ[1] وقَصُّ الشارب والسّواكُ والمضمضةُ والاستنشاق، وخمسٌ في الجَسد الختانُ وتقليمُ الأظفار ونَتْفُ الإبط وحلقُ العَانَة والاستنجاءُ ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يأتمُّون بك في دينهم[2] ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ واجعل من ذريتي إمامًا يُقتدى به ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ لا تُصِيبُ الإمامةُ أهلَ الظلم من وَلَدِك، أي أهلَ الكفر. أخبر أن إمامة المسلمين لا تَثبتُ لأهل الكفر، وأنّ مِنْ أولاده المسلمينَ والكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [سورة الصافات]. والمُحسن المؤمن، والظالم الكافر.

١٢٥- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي الكعبة ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مَبَاءَةً ومرجعًا للحُجَّاج والعُمَّار يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه ﴿وَأَمْنًا﴾ وموضع أمنٍ ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ موضعَ صلاةٍ تصلُّون فيه، وقيل: مُصلًّى مَدْعًى[3]. ومقامُ إبراهيمَ الحجرُ الذي فيه أثر قدميه. وقيل الحرمُ كله مقام إبراهيم ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أمرناهما ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾

---

(١) فَرْقُ شعر الرأس.
(٢) يتَّبعونك في الإسلام وتعاليمِهِ.
(٣) مَدْعًى: أي مكان يُدْعَى فيه.

﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ
أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ
عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا
مَنَاسِكَنَا﴾

من الأوثان والخبائث والأنجاس كلِّها [وأضاف البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم، وهي إضافة مخلوق إلى خالق] ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ للدائرين حولَه ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾ المجاورين الذين عَكَفوا عنده أي أقاموا لا يبرَحون، أو المعتكفين ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ والمصلين، جَمْعَا راكعٍ وساجدٍ.

١٢٦- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا﴾ اجعل هذا البلد أو هذا المكان ﴿بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ ذا أمنٍ ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لأنه لم يكن لهم ثَمرةٌ ﴿مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ وارزقِ المؤمنين من أَهله خاصةً. قال الله تعالى جوابًا له: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ وأَرزُقُ مَن كَفرَ ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا﴾ تمتيعًا قليلًا أو زمانًا قليلًا إلى حين أَجله ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ﴾ أُلجِئُه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ المرجعُ الذي يصير إليه النارُ.

١٢٧- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ﴾ هي جمع قاعدةٍ، وهي الأساسُ والأَصلُ لما فوقه ﴿مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ وهو الكعبةُ ﴿وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ كان إبراهيم يبني وإسماعيلُ يناوله الحِجارةَ ﴿رَبَّنَا﴾ يقولان: رَبَّنا ﴿تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾ تقرُّبَنا إليك ببناءِ هذا البيت ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ بضمائرنا ونيَّاتنا.

١٢٨- ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ [أي ثابتَين على الإسلام، كما في قوله تعالى ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [سورة الفاتحة] أي ثبِّتْنا عليه، فهو دعاء استدامة وثبات، أو] مُخلِصَين لك أوجُهَنا، والمعنى زِدنا إخلاصًا لك ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ واجعل من ذريتنا ﴿أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ خَصّا بالدعاء ذريتَهما لأنهم أَوْلَى بالشفقة ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ وبَصِّرنا

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ
إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ
قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

متعبداتِنا في الحج، أو عَرِّفناها ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ ما فَرَطَ منا من التقصير ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾.

١٢٩- ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأُمة المسلمة ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ من أنفسهم، فبعثَ اللهُ فيهم محمدًا عليه الصلاة والسلام، قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا دعوةُ أبي إبراهيمَ وبُشرى عيسى ورؤيا أمي**»[(١)] رواه أحمد ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ يقرأ عليهم ويبلّغهم ما توحِي إليه من دلائل وَحدانيَّتك وصِدقِ أنبيائك ورسلك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرءان ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السنة وفَهْمَ القرءان ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهِّرهم من الشرك وسائر الأَرجاس ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ الذي لا يُغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ فيما أَوْلَيتَ.

١٣٠- ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ استفهام بمعنى الجَحْدِ، وإنكارُ أن يكون في العقلاء من يَرغب عن الحق الواضح الذي هو مِلَّةُ إبراهيم. والمِلّة: السُّنةُ والطريقة ﴿إِلَّا مَن﴾ وما يرغَبُ عن ملة إبراهيم إلا من ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ جَهِلَ نفسَه أي لم يُفكِّر في نفسه ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ بيانٌ لخطأ رَأي من يرغَبُ عن مِلّته، لأنَّ من جَمعَ كرامةَ الدارين لم يكن أحد أَوْلَى بالرغبة في طريقته منه.

١٣١- ﴿إِذْ قَالَ﴾ اذكر ذلك الوقت لتعلمَ أنه المصطفى الصالحُ الذي لا يُرْغَبُ عن مِلةِ مِثْلِه ﴿لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أَذْعِنْ وأَطِعْ، أو أَخْلِصْ دينك لله ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ أخلَصتُ أو انقَدْتُّ.

---

(١) أي: أن ءامنة رأت أنه خرج منها نور ملأ مكة.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم
مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي
قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ
مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾

١٣٢- ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ بالمِلَّة ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ ووصَّى بها يعقوبُ بَنيه أيضًا ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أعطاكم الدّينَ الذي هو صَفوةُ الأديان، وهو دينُ الإسلام، ووفقكم للأخذ به ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ فلا يَكُنْ موتُكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام.

١٣٣- ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي ما كنتم حاضرين يعقوبَ عليه السلام حين احْتُضِرَ، والخطابُ للمؤمنين بمعنى ما شَهدتُّم ذلك، وإنما حَصَل لكم العلم به من طريق الوحي[1]، أو الخطاب لليهود لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبيٌّ إلا على اليهودية، كأنه قيل: أتدّعون على الأنبياء اليهوديةَ أم كنتم شهداءَ إذ حضَرَ يعقوبَ الموتُ ﴿إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ أيَّ شيء تعبدون ﴿مِنۢ بَعۡدِي﴾ من بعدِ موتي ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ وجُعِلَ إسماعيلُ من جملة ءابائه وهو عَمُّهُ لأن العم أبٌ، قال عليه السلام في العباس: «**هذا بقية آبائي**»، ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ نريد بإلٰه ءابائك إلٰهًا واحدًا ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

١٣٤- ﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إلى الأُمَّة المذكورة التي هي إبراهيمُ ويعقوب وبنوهما المُوَحِّدون ﴿أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ﴾ مَضَت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾ أي أنَّ أحدًا لا ينفعه كَسْبُ غيرِهِ متقدمًا كان أو متأخرًا، فكما أنَّ أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما

---

(١) أي: على النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ
حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا
نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن
تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

اكتسبتم، وذلك لافتخارهم بآبائهم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ ولا تؤاخَذون بسيئاتهم.

١٣٥- ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ قالت اليهودُ: كونوا هودًا، وقالت النصارى: كونوا نصارى ﴿تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ بل نَتَّبعُ مِلَّةَ إبراهيمَ ﴿حَنِيفًاۖ﴾ والحنيفُ المائل عن كل دينٍ باطل إلى دين الحقّ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ تعريضٌ بأهل الكتاب وغيرِهم، لأن كلًّا منهم يَدَّعِي اتّباعَ ملّةِ إبراهيم، [وهم] على الشرك.

١٣٦- ﴿قُولُوٓاْ﴾ هذا خطاب للمؤمنين ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي القرءانِ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ السِّبْطُ الحافِدُ، وكان الحَسنُ والحسين سِبطَي رسولِ الله ﷺ، والأسباطُ حَفَدَةُ يعقوبَ ذراريُّ أَبنائهِ الاثني عَشَرَ ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي لا نؤمنُ ببعضٍ ونكفر ببعض، كما فعلت اليهودُ والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ لله مخلِصون.

١٣٧- ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ فإن ءامنوا إيمانًا مِثلَ إيمانكم ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ﴾ [فقد أصابوا الصراط المستقيم] ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عمَّا تقولون لهم ولم يُنصِفوا ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ﴾ في خلافٍ وعداوةٍ، وليسوا من طلب الحقِّ في شيء ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ ضمانٌ من الله لإظهار رسوله ﷺ عليهم، وقد أَنجزَ وعدَهُ بقتل بعضهم وإجلاءِ بعضهم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِمَا ينطِقون به ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ بما يُضمرون من الحَسد والغِلِّ، وهو

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾

مُعاقِبُهم عليه، فهو وعيدٌ لهم أو وعدٌ لرسول الله ﷺ، أي يَسمَعُ ما تدعو به ويعلم نيّتك وما تريده من إظهار دين الحقِّ، وهو مستجيب لك وموصِلُك إلى مرادك.

١٣٨- ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ دِيْنَ الله والأصلُ فيه أنَّ النصارى كانوا يَغمِسُون أولادَهم في ماءٍ أصفرَ يُسمُّونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، فإذا فَعلَ الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانيًّا حقًّا، فأُمِرَ المسلمون بأن يقولوا لهم: ءامنّا بالله وصَبَغَنا اللهُ بالإيمانِ صِبْغَته ولم نُصْبَغْ صِبغتكم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ لا صِبْغَةَ أحسَنُ من صِبْغَتِهِ، يريد الدّينَ أو التطهير ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ أي قولوا هذا وهذا.

١٣٩- ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ أتجادلوننا في شأن الله واصطِفائه النبيَّ من العرب دونكم، وتقولون: لو أنزلَ اللهُ على أحدٍ لأنزل علينا، وترونَكم أَحقَّ بالنبوة مِنّا ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ نشتركُ جميعًا في أننا عبادُهُ، وهو ربنا، وهو يصيبُ برحمته وكرامته من يشاء من عباده ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ يعني أن العملَ هو أساس الأمر، وكما أنّ لكم أعمالًا فَلَنَا كذلك ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ نحن له مُوحِّدون نَخُصُّه بالإيمان، وأنتم به مشركون، والمخلِصُ أحرى بالكرامة وأَوْلَى بالنبوة من غيره.

١٤٠- ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ يعني أَيَّ الأمرين تأتون: المُحاجَّةَ في حكم الله أم ادّعاءَ اليهودية والنصرانية على الأنبياء ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ ثم أَمرَ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يقول مستفهمًا [استفهامًا إنكاريًّا] رادًّا عليهم بقوله: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ يعني أنَّ الله شهد لهم بملّة الإسلام في قوله: ﴿مَا كَانَ

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ
قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن
يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴿٦٧﴾﴾ [سورة ءال عمران] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾ كتَمَ شهادةَ الله التي عنده أنه شَهِدَ بها، وهي شهادةُ اللهِ لإبراهيمَ بالحنيفية. والمعنى أنَّ أهل الكتاب لا أحد أظلمُ منهم[1]، لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالِمون بها، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام بالنبوة في كتبهم وسائرَ شهاداته ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ من تكذيب الرسل وكتمان الشهادة.

١٤١- ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ كررت للتأكيد.

١٤٢- ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الخِفَافُ الأَحلام[2]، فأَصلُ السَّفَهِ الخِفَّةُ، وهم اليهودُ لكراهتهم التوجُّهَ إلى الكعبة وأنهم لا يَرونَ النَّسْخَ، أو المنافقون لحِرصِهم على الطعن والاستهزاء، أو المشركون لقولهم: رَغِبَ عن قِبلةِ ءابائه ثم رجع إليها، واللهِ ليرجِعَنَّ إلى دينهم ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ ما صَرَفَهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ﴾ يَعنون بيتَ المقدس. والقبلةُ الجهة التي يستقبلها الإنسان في الصلاة، لأن المُصلّيَ يقابلها ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾ بلاد المشرق والمغرب، والأرضُ كلُّها له ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من أهلها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ طريقٍ مُستو، أي يُرشِدُ من يشاء إلى قِبلةِ الحقِّ وهي الكعبةُ التي أُمرنا بالتوجه إليها، أو الأماكنُ

---

(١) أي: من هذه الحيثية.
(٢) الأحلامُ: العقول.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾

كلها لله فيأمُرُ بالتوجه إلى حيث شاء فتارةً إلى الكعبة وطَورًا إلى بيت المقدس، لا اعتراضَ عليه لأنه المالك وحدَه.

١٤٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ خِيارًا. وقيل للخِيار وَسَطٌ لأن الأطراف يتسارَعُ إليها الخَلَلُ والأَوساطُ مَحميَّةٌ. أي كما جعلنا قبلَتكم متوسطةً بينَ المشرق والمغرب، جعلناكم أُمةً وسطًا بينَ الغُلوِّ والتقصير، فإنكم لم تَغلُوا غُلُوَّ النصارى حيث وَصَفوا المسيحَ بالأُلوهية، ولم تقَصّروا تقصيرَ اليهود حيث وصفوا مريم بالزنا وعيسى بأنه ولدُ الزنا، ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ رُويَ أن الأمم(١) يومَ القيامة يَجحَدون تبليغَ الأنبياء، فيطالِبُ اللهُ الأنبياءَ بالبيّنةِ على أنهم قد بَلَّغوا، وهو أعلَمُ، فيؤتَى بأُمَّةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام فيشهدون، فتقولُ الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: عَلِمنا ذلك بإخبارِ الله تعالى في كتابه الناطِقِ على لسان نبيه الصادِقِ، فيؤتَى بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام فيُسأَلُ عن حال أُمَّته، فيزكِّيهم ويشهَدُ بعدالتهم، والشهادة قد تكون بلا مشاهدة كالتسامع في الأشياء المعروفة(٢)، واستدلَّ الشيخ أبو منصور رحمه الله بالآية على أنَّ الإجماعَ حُجةٌ، لأن الله تعالى وصَفَ هذه الأُمَّةَ بالعدالة، والعدل هو المستَحِقُّ للشهادة وقبولها، فإذا اجتمعوا على شيء وشهدوا به لَزِمَ قَبولُه ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وما جعلنا القِبلة الجهةَ التي كنت عليها وهي الكعبة، رويَ أنَّ رسول الله ﷺ كان يصلي بمكة إلى الكعبة ثم أُمر بالصلاة إلى صَخرةِ بيتِ المقدس بعد الهجرة تأليفًا لليهود ثم حُوّلَ إلى

---

(١) أي: التي كانت كافرةً في الدنيا.

(٢) كالشهادة بالنكاح والنسب والموت، له أن يتحمَّلَ الشهادة فيها بالتسامع من الناس ولو لم يُعاين بنفسه.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾

الكعبة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ وما جعلنا القِبلة التي تُحِبُّ أن تستقبلَها الجهةَ التي كنت عليها أولًا بمكةَ إلا امتحانًا للناس وابتلاءً، لنعلَمَ الثابتَ على الإسلام الصادقَ فيه ممن هو على حَرْفٍ يَنكُصُ[1] على عَقِبيه لقَلَقِهِ فيرتد عن الإسلام عند تحويل القِبلة.

قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: معنى قوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي لنعلم كائنًا وموجودًا ما قد علمناه أنه يكون ويوجد، فالله تعالى عالم في الأزل بكل ما أراد وجوده أنه يوجد في الوقت الذي شاء وجوده فيه، ولا يوصف بأنه عالم في الأزل بأنه موجود كائن، لأنه ليس بموجودٍ في الأزل فكيف يعلمه موجودًا، فإذا صار موجودًا يدخل تحت عِلمِه الأزلي فيصير معلومًا له موجودًا كائنًا[2]، والتغير على المعلوم لا على العلم، أو لِنَمِيْزَ[3] التابعَ من الناكص، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ٣٧﴾ [سورة الأنفال]. فوُضِعُ العِلمُ موضعَ التمييز لأن العلمَ به يقع التمييز، أو ليعلم رسول الله عليه الصلاة والسلام والمؤمنون ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ أي التحويلة ﴿لَكَبِيرَةً﴾ ثقيلةً شاقةً ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ أي هداهُمُ اللهُ، أي الثابتين الصادقين في اتِّباع الرسول ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ صلاتكم إلى بيت المقدس، سَمَّى الصلاةَ إيمانًا لأنَّ وجوبَها على أهل الإيمان وقبولَها من أهل الإيمان، وأداؤها في الجماعة دليلُ الإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾ لا يُضِيعُ

---

(١) أي: يرجع ويرتدُّ.

(٢) الله تعالى عالم بعلمه الأزلي أنَّ ذلك الشيء يكون معدومًا إلى وقت كذا ثم يصير موجودًا، فالتغيُّر هو على ذلك الشيء ولم يحدث لله تعالى بوجوده عِلمٌ لم يكن له قبل ذلك.

(٣) أي: لنُظهِرَ ذلك للخلق.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟
قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾

أُجورَهم، والرأفة أشدُّ من الرحمة وجَمَعَ بينهما كما في الرحمـٰن الرحيم.

١٤٤- ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تردُّدَ وجهك وتصرُّفَ نظرك في جهة السماء، وكان رسول الله ﷺ يتوقَّع من رَبِّهِ أن يُحَوِّله إلى الكعبة موافقةً لإبراهيم ومخالفةً لليهود، ولأَنها أَدْعَى للعرب إلى الإيمان، لأنها مَفخَرَتُهم ومَزارُهم ومَطافُهم ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ فلنعطينَّك ولنمكّننك من استقبالها ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ تُحبها وتَميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أَضمَرتها ووافَقَت مشيئةَ الله وحِكمَتَه ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ نحوَهُ، اجعَل توليةَ الوجهِ تِلقاءَ المسجد أي في جهته وسَمْتِه، روي أنه عليه السلام قَدِمَ المدينة فصلَّى نحوَ بيتِ المقدس ستةَ عشر شهرًا ثم وُجِّهَ إلى الكعبة ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من الأرض وأردتم الصلاة ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي التحويلَ إلى الكعبة هو الحقُّ، لأنه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله ﷺ أنه يُصلّي إلى القبلتين ﴿مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ فالأولُ: وعيد للكافرين بالعقاب على الجحود والإباء، والثاني: وعد للمؤمنين بالثواب على القبول والأداء.

١٤٥- ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أرادَ ذَوي العِناد منهم ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ برهانٍ قاطع أن التوجُّهَ إلى الكعبة هو الحقُّ ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ لأنَّ تركَهم اتِّباعَك ليس عن شُبهةٍ تزيلها بإيرادِ الحُجة، إنما هو عن مكابرةٍ وعنادٍ مع علمهم بما في كتبهم من نعتِك أنك على الحق ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ حَسْمٌ لأَطماعهم إذ كانوا اضطربوا في ذلك وقالوا:

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ
ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ
فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

لو ثَبتَ على قِبلتنا لَكُنّا نرجو أن يكون صاحِبَنا الذي ننتظره، وطمعوا في رُجوعه إلى قبلتِهم، وَوُحِّدت القِبلة - وإن كان لهم قبلتان، فلليهود قِبلةٌ، وللنصارى قِبلة - لاتحادِهم في البُطلان ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ﴾ يعني أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون في شأن القِبلة، لا يُرجى اتفاقهم كما لا تُرجى موافقتهم لك، فاليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى مَطلِعَ الشمس ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ﴾ من بعدِ وضوحِ البُرهان والإحاطة بأن القِبلة هي الكعبةُ وأن دينَ الله هو الإسلام ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ لمن المرتكبين الظلمَ الفاحش[1]، وفي ذلك لطف للسامعين، وتهييج للثبات على الحق، وتحذيرٌ لمن يترك الدليلَ بعد إنارته ويتَّبعُ الهوى. وقيل: الخطاب في الظاهر للنبي عليه الصلاة والسلام والمراد أُمته.

١٤٦- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ صفة للظالمين ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي محمدًا عليه الصلاة والسلام ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ قال عبدُ الله بن سلام: أنا أَعلَمُ به مني بابني، فقال له عمر: ولِمَ؟ قال: لأني لستُ أَشكُّ في محمدٍ أنه نبي، فأما ولدي فلعلَّ والدته خانت، فقبَّلَ عمرُ رأسه ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ أي الذين لم يُسلموا ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ حَسدًا وعِنادًا ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ أن الله تعالى بيّنه في كتابهم.

---

(١) الظالمون ورد في القرءان في أكثر المواضع بمعنى الكافرين، وورد في بعض المواضع بمعنى ما هو كبيرة، وفي بعض المواضع بمعنى ما هو معصية صغيرة، كما في قول يونس عليه السلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هنا المراد الصغيرة، التي لا خسّة فيها ولا دناءة.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِۚ أَيْنَ مَا
تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ
خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾

١٤٧- ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ﴾ الحقُّ من الله لا من غيره، يعني أن الحقَّ ما ثَبَتَ أنه من الله كالذي أنت عليه، وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهلُ الكتاب فهو الباطل ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ الشاكِّين في أنه من ربِّك.

١٤٨- ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أهل الأديان المختلفة ﴿وِجْهَةٌ﴾ قِبلة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ المعنى: ولكل أُمَّةٍ قبلة يتوجَّه إليها منكم ومن غيركم ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟﴾ أنتم ﴿ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾ فاستبِقوا إليها غيركم من أمر القِبلة وغيره ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟﴾ أنتم وأعداؤكم ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ﴾ يومَ القيامة فيفصِلُ بين المُحِقِّ والمُبْطِل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

١٤٩- ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ ومن أيّ بلدٍ خَرجتَ للسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ﴾ إذا صلَّيتَ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإن هذا المأمور به ﴿لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾.

١٥٠- ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ وهذا التكرير لتأكيد أَمرِ القِبلة وتشديده، لأن النَّسْخَ مِن مَظانِّ الفتنة والشُّبهة، فكُرِّرَ عليهم ليثبتوا على أنه نِيْطَ[1] بكل واحد ما لم يُنَطْ بالآخر، فاختلفت فوائدها ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي قد عرَّفكم الله جلَّ ذكره أَمرَ الاحتجاج في القِبلة بما قد بيّن في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ لئلّا يكونَ للناس [أي] لليهود عليكم

---

(١) نِيطَ: عُلِّق.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ
تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾

حُجةٌ في خلاف ما في التوراة من تحويل القِبلة. وأطلَقَ اسمَ الحُجةِ على قول المعاندين لأنهم يَسوقونه سياق الحُجة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي لئلا يكون حجةٌ لأحدٍ من اليهود إلا المعاندينَ منهم القائلين: ما ترك قِبلتنا إلى الكعبة إلا مَيْلًا إلى دين قومه وَحُبًّا لبلده، ولو كان على الحقّ للزم قِبلة الأنبياء[١] عليهم السلام، ثم استأنف منبِّهًا بقوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ فلا تخافوا مطاعِنَهم في قبلتكم، فإنهم لا يضرُّونكم ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ فلا تُخالفوا أمري ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ أي عَرّفتكم لئلا يكون عليكم حجة، ولأتم نعمتي عليكم بهدايتي إياكم إلى الكعبة ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ ولكي تهتدوا إلى قبلة إبراهيم.

١٥١- ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ﴾ ولأُتمَّ نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول ﴿رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ من العرب ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ يقرأ عليكم القرءان ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرءان ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ السُّنة والفِقه ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ ما لا سبيل إلى معرفته إلا بالوحي.

١٥٢- ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ بالمعذرة[٢] ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ بالمغفرة، أو بالثناء والعطاء، أَو بالسؤال والنوال[٣]، أو بالتوبة وعفو الحوبة[٤]، أو بالإخلاص والخلاص، أو بالمناجاة والنجاة. ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ ما

---

(١) هذا على زعمهم، وإلا فالكعبة قبلةُ ءادم وإبراهيم ومن بينهما وبعض غيرهم.
(٢) أي: بالاعتذار والاستغفار.
(٣) النَّوال: العطيَّة.
(٤) الحَوْبَة: الإثم.

﴿وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا
تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ
ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

أنعمت به عليكم ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ ولا تجحدوا نَعمائي.

١٥٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ فَبِهِ تُنال كلُّ فضيلةٍ ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾ فإنها تَنهى عن كل رذيلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ بالنصر والمعونة.

١٥٤- ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عَشَرَ رجلًا ﴿أَمْوَٰتٌۢ ۚ﴾ هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ أي هم أحياء ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ لا تعلمون ذلك، لأن حياة الشهيد لا تُعلَمُ حِسًّا.

١٥٥- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ وَلَنُصِيْبَنَّكُم بذلك إصابةً تُشبه فِعلَ المختَبِرِ لأحوالكم، هل تصبرون على ما أنتم عليه من الطاعة أم لا؟ ﴿بِشَىْءٍ﴾ بقليلٍ من كل واحدةٍ من هذه البلايا وطرف منه، وقَلَّلَ ليؤذِنَ أن كل بلاءٍ أصاب الإنسان وإن جلَّ ففوقَه ما يَقِلُّ إليه، ويريَهم أن رحمته معهم في كل حال. وأعلمهم بوقوع البلواء قبل وقوعها ليوطِّنوا نفوسهم عليها ﴿مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ خوف الله أو العدو ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ القحط ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بموتِ المواشي ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ بالقتل والموت ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ﴾ ثَمَرات الحَرْث ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ على هذه البلايا أو المسترجِعِينَ عند البلايا(١)، لأن الاسترجاعَ تسليمٌ وإذعان. وفي الحديث: «**من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عُقباه وجعل له خلفًا صالحًا يرضاه**»، [وروي أنه] طَفِئَ سراج رسول الله ﷺ فقال: «**إنا لله وإنا إليه راجعون**»، فقيل: أَمصيبةٌ هي؟ قال: نعم، «**كل شيء يؤذي المؤمن فهو مصيبة**». والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يتأتَّى منه البِشارة.

---

(١) أي: القائلين: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ
وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ
ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا﴾

١٥٦- ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ مكروهٌ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرارٌ له بالمُلْك ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ إقرار على نفوسنا بالهُلْك.

١٥٧- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ عليهم رأفةٌ بعد رأفةٍ ورحمةٌ بعد رحمةٍ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ لطريق الصواب حيث استرجعوا وأَذعَنوا لأمر الله. قال عمر رضي الله عنه: نِعم العِدلان ونعم العِلاوة، أي الصلاة والرحمة والاهتداء[(١)].

١٥٨- ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾ هما عَلَمان للجبلين ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ من أَعلامِ مناسكه ومُتَعَبَّداته، جمع شَعيرة وهي العلامة ﴿فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ﴾ قصد الكعبة ﴿أَوِ ٱعۡتَمَرَ﴾ زار الكعبة، فالحجُّ: القَصْدُ، والاعتمار: الزيارة، ثم غُلِّبا على قصد البيت وزيارته للنُّسُكَين المعروفين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ﴾ فلا إثم عليه ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ أي: يَتَطوّف وأَصلُ الطَّوْفِ المشيُ حول الشيء، والمراد هنا السعي بينهما ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ دليل على أنه ليس بركن[(٢)] كما قال مالك والشافعي رحمهما الله تعالى. وكذا قوله ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا﴾ أي بالطواف بهما مُشعِرٌ بأنه ليس بركن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ مُجازٍ على القليل كثيرًا ﴿عَلِيمٌ ١٥٨﴾ بالأشياء صغيرًا أو كبيرًا.

١٥٩- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾ من أَحبار اليهود ﴿مَآ أَنزَلۡنَا﴾ في التوراة

---

(١) شَبَّهه بما يكون من هذا الجانب وذاك الجانب من حِمل البعير فالعِدْلان الصلاة والرحمة، والاهتداء العِلاوة، كما يقال أعطاه ألف دينار وديناراً عِلاوة. ومعناه كلٌّ مفيدٌ.
(٢) هذا عند الحنفية، فالسَّعيُ عندهم واجبٌ وليس ركنًا كما ذهب إليه مالك والشافعي.

﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من الآيات الشاهِدةِ على أمر محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ الهدايةِ إلى الإسلام بوَصْفه عليه الصلاة والسلام ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾ أوضحناه ﴿لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ﴾ في التوراة لم نَدَع فيه موضعَ إشكالٍ، فعَمَدوا إلى ذلك المُبَيَّن فكتَمُوه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ الذين يتأتَّى منهم اللعنُ، وهم الملائكة والمؤمنون من الثَّقَلين.

١٦٠- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ عن الكِتمان وتَركِ الإيمان ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أَفسدوا من أحوالهم وتداركوا ما فَرَطَ منهم ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾ وأظهروا ما كتموا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ أَقبلُ توبتَهم ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

١٦١- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يعني الذين ماتوا من هؤلاء الكاتمين ولم يتوبوا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ ذُكِرَ لعنتُهم أحياءً ثم لَعنتُهم أمواتًا، والمراد بالناس المؤمنون.

١٦٢- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ﴾ في اللعنة أو في النار، إلا أنها أُضمرت تفخيمًا لشأنها وتهويلًا ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ لا يُنتَظَرون ليعتذروا.

١٦٣- ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ فَرْد في ألوهيته لا شريك له فيها، ولا يصح أن يُسمَّى غيرُه إلـٰهًا ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية بنفي غيرِه وإثباتِهِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ المُوْلِي[1] لجميع النعم أُصولِها وفروعها،

---

(١) أي: المُعطي.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾

ولا شيء سواه بهذه الصفة.

ولما عَجِبَ المشركون من إلٰهٍ واحد وطلبوا ءايةً على ذلك نزل:

١٦٤- ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ في اللون والطول والقِصَر وتعاقُبِهما في الذهاب والمجيء ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ بالذي ينفعهم مما يُحمَلُ فيها ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ مطرٍ ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ بالماء ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُبسها ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ وفرَّق في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ هي كلُّ ما يَدِبُّ ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ تقليبها في مَهابِّها قَبُولًا ودَبُورًا وجنوبًا وشَمَالًا[1]، وفي أحوالها حارةً وباردةً وعاصفةً وليّنةً وعُقْمًا[2] ولواقحَ. وقيل: تارةً بالرحمة وطَورًا بالعذاب ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾ المُذلَّل المُنقاد لمشيئة الله تعالى فيُمطر حيث شاء ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في الهواء ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ ينظرون بعيون عُقولِهم ويعتبرون فيستدلُّون بهذه الأشياء على قدرة مُوجِدها وحِكمةِ مُبدِعِها ووحدانيةِ منشِئها.

١٦٥- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ومع هذا البرهان النيّر، من الناس ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [أي غيرَ الله] ﴿أَندَادًا﴾ أمثالًا من الأصنام [في التسمية - بأن يُسمُّوها ءالهةً - أو في العبادة بأن يجعلوها شركاءَ لله تعالى في

---

(١) ريح القَبولِ ويقال لها ريح الصَّبا هي الريح التي تهب من جهة باب الكعبة من المشرق، والدَّبور هي الريح الغربية التي تهب من دُبُرِ الكعبة من المغرب، وريح الجنوب تهب من الجنوب وتكون عادة دافئة، والشَّمال تهب من جهة الشام من ناحية القطب وتكون عادة باردة.

(٢) الريح العقيم هي التي لا تُلْقِحُ شجرًا ولا تحمل مطرًا.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

استحقاق العبادة] ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يُعظمونهم ويَخضعون لهم ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ كتعظيم الله والخضوع له ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من المشركين لآلهتهم، لأنهم لا يَعدِلون عنه إلى غيره بحال، والمشركون يَعدِلون عن أَندادِهم إلى الله عندَ الشدائد فيفزَعون إليه ويخضعون له ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ إشارة إلى مُتَّخِذي الأنداد ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ لو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أنَّ القدرة كلها لله تعالى على كل شيء من الثواب والعقاب دون أندادهم، ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة، لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة.

١٦٦- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟﴾ وهم الرؤساءُ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ من الأَتباع ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي تَبرَّءوا في حال رؤيتهم العذاب ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ الوُصَلُ[1] التي كانت بينهم من الاتفاق على دينٍ واحدٍ ومن الأَنساب والمَحابّ.

١٦٧- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ أي الأَتباعُ ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعةً إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ﴾ والمعنى: ليت لنا كرّةً فنتبرَّأَ ﴿مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ الآنَ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الإراءِ الفظيع ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ عبادَتَهم الأوثانَ ﴿حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ نَدَامات، معناه أنّ أعمالهم تنقلب عليهم حَسَراتٍ فلا يَرَون إلا حسراتٍ مكانَ أعمالهم ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ بل هم فيها دائمون.

---

(١) الوُصَلُ: جمع وُصلةٍ بمعنى الارتباط.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا
دُعَآءً وَنِدَآءًۚ﴾

١٦٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ﴾ أَمْرُ إباحةٍ ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن للتبعيض، لأَنَّ كُلَّ ما في الأرض ليس بمأكول ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ طاهرًا من كل شُبهةٍ ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ طُرقه التي يدعوكم إليها ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ ظاهر العداوة لا خفاءَ به.

١٦٩- ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ بيان لوجوب الانتهاء عن اتّباعه وظهور عَداوته، أي لا يأمركم بخير قط إنما يأمركم ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالقبيح ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ وما يتجاوز الحَدَّ في القُبح من العظائم ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ هو قولُكم: هذا حلالٌ وهذا حرام بغير علم، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز عليه.

١٧٠- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ للناس ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا﴾ وَجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ﴾ فإنهم كانوا خيرًا منا وأعلَمَ، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أيتَّبعونهم ولو كان ءاباؤهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ من الدين ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ للصواب.

ثم ضرب لهم مثلًا فقال:

١٧١- ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ومَثَلُ داعي الذين كفروا(١) ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ يَصِيحُ، والمراد ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ﴾ البهائمُ، والمعنى: ومَثَلُ داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من

---

(١) أي: الذي يدعوهم إلى الإيمان.

﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾

الدعاء إلا جَرْسَ[1] النَّغمة ودَويَّ الصوت من غير إلقاء أذهان ولا استبصار، كَمَثَل الناعِق بالبهائم التي لا تسمَعُ إلا دُعاءَ الناعِق ونداءَه الذي هو تصويت بها وزَجْر لها، ولا تَفْقَهُ شيئًا ءاخر كما يَفهَمُ العقلاء ﴿صُمُّۢ﴾ أي هم صُمٌّ ﴿بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ عن الحقّ ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ الموعظة، ثم بَيَّنَ أن ما حَرَّمه المشركون حلالٌ فقال:

١٧٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ من مُسْتَلَذّاته أو من حلالاته ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ الذي رَزَقَكُموها ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ إن صَحَّ أنكم تختَصُّونه بالعبادة وتُقِرُّون أنه مُعطي النِّعَم.

ثم بيَّن المُحَرَّم فقال:

١٧٣- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ وهي كل ما فارقَهُ الروحُ من غير ذَكاة مما يُذبح ﴿وَٱلدَّمَ﴾ يعني السائلَ لقوله في موضع ءاخر: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا ١٤٥﴾ [سورة الأنعام]. وقد حَلَّت الميتتان والدَّمان بالحديث[2]، ﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ يعني الخنزيرَ بجميع أجزائه، وخُصَّ اللحمُ لأنه المقصود بالأكل ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ ذُبح للأصنام فذُكِر عليه غير اسم الله، وأصل الإهلال رفعُ الصوت، أي رُفع به الصوت للصنم، وذلك قول أهل الجاهلية: باسم اللات والعزَّى، ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ أي أُلْجِئ ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ للذَّةٍ وشهوةٍ ﴿وَلَا عَادٖ﴾ متعدٍّ مقدارَ الحاجة. والمضطر يباح له قدرُ ما يقع به القِوامُ وتبقى معه الحياة

---

(١) الجِرْسُ بفتح الجيم وكسرها: الصوت، يقال سمعت جَرْسَ الطير إذا سمعت مناقيرها على شيء تأكله.

(٢) «**أُحِلَّت لنا مَيتَتانِ ودمانِ: السَّمكُ والجرادُ، والكَبِدُ والطّحالُ**» رواه أحمد.

﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ
وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ
وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾﴾

دون ما فيه حصول الشِّبع، لأن الإباحة للاضطرار فتُقدَّر بقدر ما تندفع الضرورة ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ في الأكل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ للذنوب الكبائر، فأنّى يؤاخِذُ بتناول المَيتة عند الاضطرار ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ حيث رَخَّصَ.

ونزل في رؤساء اليهود وتغييرهم نعت النبي عليه الصلاة والسلام وأخذهم على ذلك الرشا.

١٧٤- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في صفة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ أي عِوَضًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ لأنه إذا أكل ما يَتلبَّس بالنار لكونها عقوبةً عليه فكأنه أكلَ النار ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كلامًا يَسُرُّهم، ولكن بنحو قوله: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة المؤمنون] ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ ولا يُطَهِّرهم من دَنَس ذنوبهم ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ مؤلم.

١٧٥- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ بكِتمان نعتِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ فأَيُّ شيء أَصبَرَهم على عملٍ يؤدي إلى النار، وهذا استفهام معناه التوبيخ.

١٧٦- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أن الله نزّل ما نزّل من الكتب بالحقّ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ﴾ أي أهلَ الكتاب ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هو للجنس، أي في كُتُبِ الله فقالوا في بعضِها حَقٌّ وفي بعضها باطل ﴿لَفِي شِقَاقِۭ﴾ خلافٍ ﴿بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾﴾ عن الحقِّ.

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ
ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ
وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

١٧٧- ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟﴾ ليس البرَّ توليتُكم ﴿وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ والخطابُ لأهل الكتاب، لأنّ قِبلةَ النصارى مَشرقُ بيتِ المقدس، وقِبلةَ اليهودِ مغربُه، وكلُّ واحدٍ من الفريقين يزعم أنّ البرَّ التوجُّه إلى قِبلته، فردَّ عليهم بأنّ البرَّ ليس فيما أنتم عليه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ ولكن البرَّ برُّ من ءامن بالله، والبرُّ اسمٌ للخير ولكل فعل مَرْضِيّ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يومِ البعث ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ﴾ أي جنسِ كُتُبِ الله، أو القرءانِ ﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ على حُبِّ الله، أو حُبِّ المال، أو حُبِّ الإيتاء، يريد أن يُعطِيَه وهو طَيِّبُ النفس بإعطائه ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي القرابة، قال عليه الصلاة والسلام: «**صَدَقَتُكَ على المسكينِ صدقةٌ، وعلى ذوي رحمِكَ صدقةٌ وصِلَةٌ**» ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ والمراد الفقراءُ من ذوي القربى واليتامى ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ المسكينُ الدائمُ السكون إلى الناس لأنه لا شيء له ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافرَ المنقطعَ ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ المستطعِمينَ ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وفي معاونة المكاتَبين حتى يَفُكُّوا رقابهم ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ﴾ اللهَ والناسَ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لفضل الصبر في الشدائد ومَواطن القتال على سائر الأعمال ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ الفقرِ والشدةِ ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ المرضِ والزَّمَانَةِ[1] ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ﴾ وقتَ القتال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ﴾ أي أهلُ هذه الصفة هم الذين صدقوا في الدين ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

رُوي أنه كان بين حَيَّينِ من أحياء العرب دماءٌ في الجاهلية، وكان

(١) هو المرض الذي يدوم زمانًا طويلًا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

لأَحدهما طَوْلٌ[(١)] على الآخر، فأقسموا لنقتلنَّ الحرَّ منكم بالعبد، والذَّكَرَ بالأنثى، والاثنين بالواحد، فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ حين جاء الله بالإسلام فنزل:

١٧٨- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ﴾ أي فُرِض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ وهو عبارة عن المُساواة ﴿فِى ٱلْقَتْلَى ۖ﴾ المعنى: فُرِض عليكم اعتبار المماثلة والمساواة بين القتلى ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ أي الحرُّ مأخوذ أو مقتولٌ بالحُرِّ ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ﴾ العَفو ضد العقوبة. يقال: عفوتَ عن فلانٍ إذا صفحتَ عنه وأعرضتَ عن أن تُعاقِبَه، ومعنى الآية عند الجمهور فمن عُفي له من جهةِ أخيه شيءٌ من العفو، والأخ وليُّ المقتولِ، وذُكِرَ بلفظ الأُخوةِ بعثًا له على العَطف، لِما بينهما من الجِنسيةِ والإسلام، المعنى فليتَّبع الطالبُ القاتلَ بالمعروف بأن يطالبَه مطالبة جميلة، وليؤدِّ إليه المطلوبُ أي القاتلُ بَدَلَ الدم أداءً بإحسان، بأَلَّا يماطِلَه ولا يَبخَسَه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحُكمُ المذكور من العفو وأخذِ الدية ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ﴾ فإنه كان في التوراة القتلُ لا غيرُ، وفي الإنجيل العفوُ بغير بَدَلٍ لا غيرُ، وأُبيحَ لنا القِصاص والعفوُ وأَخذُ المال بطريق الصلح توسعةً وتيسيرًا. والآية تدل على أن صاحب الكبيرة مؤمِنٌ للوصف بالإيمان بعد وجود القتل، ولبَقاء الأُخوةِ الثابتة بالإيمان، ولاستحقاق التخفيف والرحمة ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التخفيفِ فتجاوَزَ ما شُرع له من قَتْلِ غيرِ القاتل أو القتلِ بعدَ أَخذِ الدية ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ نوعٌ من العذاب شديدُ الألم في الآخرة.

---

(١) أي: قُوَّةٌ ومَنٌّ.

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾

١٧٩- ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ كلامٌ فصيح لما فيه من الغرابة إذ القِصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جُعل ظرفًا للحياة، وفي تعريف القصاص وتنكير الحياة بلاغة بيّنة، لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياةٌ عظيمة لمنعه عما كانوا عليه من قتل الجماعة بواحدٍ متى اقتدروا، فكان القِصاص حياةً وأيَّ حياة، أو لأنه إذا هَمَّ بالقتل فتذكَّر الاقتصاص ارتدع فسَلِمَ صاحبُه من القتل، وهو من القَوَد، فكان شرع القصاص سبب حياةِ نفسين ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ يا ذوي العقول ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ القتل حذرًا من القصاص.

١٨٠- ﴿كُتِبَ﴾ فُرِضَ ﴿عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي إذا دنا منه فظهرت أماراته ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ مالًا كثيرًا ﴿ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ وكانت الوصيةُ للوارث في بَدءِ الإسلام فنُسِخَت بآيةِ المواريث ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ بالعدل، وهو أَلَّا يوصِيَ للغني ويدعَ الفقير، ولا يتجاوزَ الثلث ﴿حَقًّا﴾ حقَّ ذلك حقًّا ﴿عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾ الذين يتقون الشرك.

١٨١- ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ فمن غيَّر الإيصاءَ عن وجهه إن كان موافقًا للشرع من الأَوصياء والشهود ﴿بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ أي الإيصاءَ ﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ﴾ فما إثمُ التبديل إلا على مُبَدِّلِيه دون غيرهم من الموصِي والموصَى له لأنهما بريئان من الحَيْف(١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقول الموصِي ﴿عَلِيمٞ ١٨١﴾ بجَوْر المُبَدِّل.

---

(١) أي: الظُّلم.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ
أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

١٨٢- ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ عَلِمَ، وهذا شائعٌ في كلامهم، يقولون: أخاف أن ترسِلَ السماءُ، ويريدون الظَّنَّ الغالب الجاريَ مَجرى العلم ﴿مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ مَيلًا عن الحَقِّ بالخطأ في الوصية ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تعمُّدًا للحَيفِ ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بينَ الموصى لهم، وهم الوالدان والأقربونَ، بإجرائهم على طريق الشرع ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ حينئذ لأن تبديلَه تبديلُ باطلٍ إلى حقّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

١٨٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ﴾ فُرِض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ صيامُ شهرِ رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ مِثلَ ما كُتِبَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ على الأنبياء والأمم من لَدُنْ ءادم عليه السلام إلى عهدكم، فهو عبادة قديمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ المعاصيَ بالصيام، فالصائم أظلَفُ لنفسه[1] وأردعُ لها من مُواقعة السوء، ولعلكم تنتظمون في زمرة المتقين.

١٨٤- ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ مؤقَّتات بعددٍ معلوم، أي قلائلَ ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ يَخافُ من الصوم زيادةَ المرض ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أو راكِبَ سفرٍ ﴿فَعِدَّةٌ﴾ أي فأفطر فعليه صيام عددِ أيام فِطره ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ سوى أيامِ مرضه وسفره ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ وعلى المُطيقين للصيام الذين لا عذر لهم إن أفطروا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ نِصفُ صاعٍ من بُرّ أو صاعٌ من غيره، وكان ذلك في بَدْءِ الإسلام فُرِض عليهم الصوم ولم يَتعوَّدُوه، فاشتدَّ عليهم، فَرُخِّصَ لهم في الإفطار والفديةِ ثم نُسِخَ التخييرُ بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴿١٨٥﴾﴾ [سورة البقرة]

---

(١) أي: أشدُّ كفًّا لها.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا﴾ فزادَ على مِقدار الفِدية ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ﴾ فالتطوُّعُ خَيرٌ له ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ أيها المُطيقون ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ من الفدية وتَطوُّعِ الخير، وهذا في الابتداء، وقيل: وأن تصوموا في السفر والمرض خير لكم لأنه أشقُّ عليكم ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾.

١٨٥- ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ ابتُدِئَ فيه إنزالُه، وكان في ليلة القدر، أو أُنزِلَ في شأنهِ القرءانُ، وهو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ١٨٣﴾ [سورة البقرة]. والرَّمضانُ مصدر رَمِضَ إذا احترَقَ من الرَّمْضاءِ(١) فأُضيفَ إليه الشهر وجُعِلَ عَلَمًا وسمَّوه بذلك لارتماضِهم(٢) فيه من حَرِّ الجُوع ومقاساة شِدَّته ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ أُنزلَ وهو هدايةٌ للناس إلى الحقِّ، وهو ءاياتٌ واضحات مكشوفات مما يهدي إلى الحقِّ، ويَفرُق بين الحقّ والباطل، ذُكِرَ أولًا أنه هُدًى ثم ذُكِر أنه بيّناتٌ من جُملة ما هَدَى به اللهُ، وفرَق بين الحقّ والباطل من وَحيهِ وكُتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ فمن كان شاهدًا أي حاضرًا مُقيمًا غيرَ مسافر في الشهر فليصُم فيه ولا يُفطِرْ ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾ فعليه صومُ عدَّةٍ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾(٣) حيث أباحَ الفِطر بالسفر والمرض

---

(١) الرَّمْضاءُ: شدَّة الحَرّ.
(٢) أي: لالتهابهم.
(٣) أي: يحِبُّ لكم اليسر.

﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ عِدَّةَ ما أفطرتم بالقضاء إذا زال المرض والسفر ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ كأنه قيل: لتُكَبِّروا الله أي لتُعظِّموه حامدين على ما هداكم إليه.

ولما قال أعرابي لرسول الله ﷺ: أقريبٌ ربُّنا فنناجِيَهُ أم بعيدٌ فنناديَهُ[1]؟ نزل:

١٨٦- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ عِلْمًا وإجابةً لتعاليه عن القرب مكانًا[2] ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ إجابةُ الدعاءِ وَعْدُ صِدقٍ من الله لا خُلْفَ فيه ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ إذا دعوتُهم للإيمان والطاعة كما أني أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ اللام فيهما للأمر ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ ليكونوا على رجاءٍ من إصابة الرُّشد وهو ضدُّ الغَيّ.

كان الرجل إذا أَمسى حَلَّ له الأكلُ والشُّرب والجِماعُ إلى أن يصلّي العشاء الآخِرة أو يرقُدَ فإذا صلاها أو رَقَدَ ولم يُفطر حَرُمَ عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة، ثم إنَّ عمر رضي الله عنه واقعَ أَهلَه بعد صلاة العشاء الآخرة، فلَمّا اغتسلَ أَخذَ يبكي ويلومُ نفسَه فأتى النبيَّ عليه السلام وأَخبرَهُ بما فَعلَ فقال عليه الصلاة والسلام «**ما كنتَ جديرًا بذلك**[3]» فنزلَ:

---

(١) سؤال هذا الأعرابي ليس عن شك في استحالة القرب الحسيّ والبعد الحسيّ على الله، إنما يريد زيادة اليقين في أنه ليس قريبًا بالمسافة ولا بعيدًا بالمسافة، لأن الذي يعتقد أن الله قريب بالمسافة أو بعيد بالمسافة فقد شبَّهه بخلقه.

(٢) لا يقال عن الله: بعيد ولا حاضرٌ، أما قريبٌ فيقال لا بمعنى القُرب المسافيّ.

(٣) أي: لا يَليقُ بك.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾

١٨٧- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾ أي الجماع ﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾ ولمَّا كان الرجلُ والمرأة يعتنقان ويشتمِلُ كل واحدٍ منهما على صاحبه في عِناقِه شُبّه باللّباس المُشتَمَلِ عليه[1] بقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ وقيل: لِباسٌ أي سِتْرٌ عن الحرام، و﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ استئناف كالبيان لسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثلُ هذه المخالطة والملابسة قَلَّ صبركم عنهن وصعُبَ عليكم اجتنابهن، فلذا رُخّص لكم في مباشرتهن ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ تظلِمونَها بالجماع وتَنْقُصونها حظَّها من الخير. والاختيان من الخيانة فيه زيادةٌ وشِدَّةٌ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ حين تُبْتُم مما ارتكبتُم من المحظور ﴿وَعَفَا عَنكُمْۖ﴾ ما فعلتم قبلَ الرخصة ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾[2] جامعوهنَّ في ليالي الصوم، وهو أمر إباحةٍ، وسمّيت المجامعة مباشرةً لالتصاق بَشَرَتيهما ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾ واطلبوا ما قَسَمَ الله لكم وأثبتَ في اللوح من الولد بالمباشرة، لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدَها، ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل، أو وابتغوا المحَلَّ الذي كتبه الله لكم وحلَّله دون المَحَلِّ المحرَّم ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾ هو أول ما يبدو من الفجر المعترِض في الأُفق كالخيط الممدود ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ وهو ما يمتدُّ من سواد الليل، شُبّها بخيطين أبيضَ وأسودَ لامتدادهما ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ بيانُ أن الخيطَ

---

(١) الثوب ألَا يُشتمل عليه، ألَا يُلصقه بصدره وعنقه وبطنه، هذا المراد.

(٢) المباشرة تأتي بمعنى الجماع، وتأتي بمعنى التّضام.

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾

الأبيض من الفجر لا مِن غيره، وعن عَدِيّ بنِ حاتم قال: عَمَدتُ إلى عِقالين[١] أبيضَ وأسودَ فجعلتهما تحت وسادتي، فنظرتُ إليهما فلم يتبيَّن لي الأبيضُ من الأسود، فأخبرت النبيَّ عليه السلام بذلك، فقال: «**إنك لَعَريضُ القفا**»، أي سليمُ القلب، «**إنما ذلك بياض النهار وسوادُ الليل**». ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾ [إلى دخوله بغروب الشمس] ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ﴾ معتكفون فيها. بيَّن أن الجماع يحلُّ في ليالي رمضان، لكن لغير المعتكف، وفيه دليل على أن الاعتكاف لا يكون إلا في المسجد، وأنه لا يختصُّ به مسجدٌ دون مسجد ﴿تِلْكَ﴾ الأحكامُ التي ذُكِرَت ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أحكامُه المحدودة ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ﴾ بالمخالفة والتغيير ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ شرائِعَهُ ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ المَحَارِمَ.

١٨٨- ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾ لا يأكُلْ بعضُكم مالَ بعضٍ ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالوجه الذي لم يُبِحْهُ اللهُ ولم يَشْرَعْهُ ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ ولا تُدلوا بها فهو مجزوم داخل في حكم النهي، يعني ولا تلقوا أمرها والحُكومَةَ فيها إلى الحكام ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ بالتحاكُم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفةً ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ بشهادةِ الزُّور أو بالأَيمان الكاذبة، أو بالصُّلحِ مع العلم بأنّ المَقضِيَّ له ظالم، وقال عليه الصلاة والسلام للخَصْمَين: «**إنما أنا بشرٌ، وأنتم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أَلْحَنُ بحُجتِهِ[٢] من بعضٍ فأقضِيَ له على نحو ما أَسمَعُ منه، فمن قَضيتُ له**

---

(١) أي: حَبْلَين.
(٢) أي: أقدرُ عليها.

﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾

بشيء من حَقِّ أخيه فلا يأخذنَّ منه شيئًا، فإنَّما أقضي له قطعةً من نارٍ». فبكيا وقال كل واحدٍ منهما: «حَقِّي لصاحبي» ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ أنكم على الباطل، وارتكابُ المعصية مع العلم بقُبحها أَقبحُ، وصاحِبُه بالتوبيخ أَحقُّ.

قال معاذ بن جبل: يا رسول الله، ما بالُ الهلال يبدو دقيقًا مثلَ الخيط ثم يزيد حتى يمتلئَ ويستوي، ثم لا يزال ينقُصُ حتى يعودَ كما بدا، لا يكون على حالةٍ واحدة كالشمس؟ فنزل:

١٨٩- ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾ جمعُ هلال، سُمِّي به لرفعِ الناسِ أصواتَهم عندَ رؤيته ﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ معالمُ يُوقِّتُ بها الناسُ مزارِعَهم ومتاجرهم ومحالَّ ديونِهم وصومِهم وفِطرهم وعِدَّةَ نسائِهم وأيامَ حيضِهنّ ومدةَ حملهنَّ وغيرَ ذلك، ومعالِمُ للحجّ يُعرَفُ بها وَقتُه. كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخُلْ أحدٌ منهم حائطًا[(١)] ولا دارًا ولا فُسطاطًا[(٢)] من بابٍ، فإن كان من أهل المَدَرِ[(٣)] نَقَبَ نقبًا في ظهر بيته منه يدخلُ ويخرج، وإن كان من أهل الوَبَرِ[(٤)] خرجَ من خلف الخِباءِ[(٥)]، فنزل: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ أي ليس البِرُّ بتحَرُّجِكم من دخول الباب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ برُّ ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ ما

---

(١) أي: بستانًا.
(٢) الفُسطاط: بيت من شعر، والفُسطاط ضرب من الأبنية.
(٣) أهلُ المَدَر: أهل الحَضَر والمدن والأبنية.
(٤) أهلُ الوَبَر: أهل البادية والأَخبية لأن مساكنهم من الوَبَر وهو صوف الإبل والأرانب ونحوها.
(٥) الخِبَاءُ: أحدُ بيوت العرب من وَبَر أو صوف.

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ﴾

حَرَّمَ الله. وكأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأَهِلَّة وعن الحِكمة في نُقصانها وتمامها: معلومٌ أن كل ما يفعله الله تعالى لا يكون إلا حكمةً، فدعُوا السؤال عنه وانظروا في خَصلة واحدةٍ تفعلونها مما ليس من البِرّ في شيء وأنتم تحسَبونها بِرًّا ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشَرَ عليها ولا تعكِسوا ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما أَمَرَكم به ونهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ لتفوزوا بالنعيم السرمد(١).

١٩٠- ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المقاتَلَةُ في سبيل الله الجهادُ لإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين ﴿ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ يناجِزُونكم القتالَ دون المحاجزين، وعلى هذا يكون منسوخًا بقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴿٣٦﴾﴾ [سورة التوبة]، أو الكفرة كلَّهم لأَنَّهم قاصدون لمقاتَلة المسلمين فهم في حكم المقاتِلة ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ﴾ بقتال من نُهيتم عنه من النساء والشيوخ ونحوهما، أو بالمُثْلَة(٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [المتجاوزين ما حَدَّ الله تعالى لهم في القتال وغيره].

١٩١- ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وجدتموهم، والثَّقْفُ الوجود على وجه الأَخذ والغَلَبة ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ﴾ من مكةَ، وَعَدَهم الله تعالى فتحَ مكةَ بهذه الآية، وقد فعل رسول الله ﷺ [ذلك] بمن لم يُسلم منهم يوم الفتح ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ﴾ شِركُهم بالله أعظمُ من القتل

---

(١) السرمد: الدائم الذي لا ينقطع.
(٢) أي: التنكيل بنحو قطع الأطراف وفَقْأ العيون.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾

الذي يَحُلُّ بهم منكم، وقيل: الفتنة عذاب الآخرة(١) ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ﴾ ولا تبدؤوا بقتالهم في الحرم حتى يبدؤوا ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾ [فيه] ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ [فيه] ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [يُفعل بهم مثل ما فعلوا].

١٩٢- ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن الشرك والقتال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لِمَا سلف من طغيانهم ﴿رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾﴾ بقبول توبتهم وإيمانهم.

١٩٣- ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ شِركٌ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ خالصًا ليس للشيطان فيه نصيب، أي لا يُعبَدَ دونه شيءٌ ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ فإن امتنعوا عن الكفر فلا تقاتلوهم، فإنه لا عدوان إلا على الظالمين، ولم يبقَوا ظالمين. قاتلهم المشركونَ عامَ الحديبية(٢) في الشهرِ الحرام، وهو ذو القَعْدَةِ، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء وكراهتهم القتالَ، وذلك في ذي القعدة:

١٩٤- ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ هذا الشهرُ بذلك الشهر، وهَتْكُهُ بِهَتْكِه، يعني تهتِكون حُرمَتَه عليهم كما هَتَكوا حرمته عليكم ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ وكلُّ حُرمة يجري فيها القصاص. مَن هَتَكَ حُرمةً أيَّ حُرمة

---

(١) وليس معنى الآية أن مجرد الإفساد بين اثنين أشد من قتل المسلم ظلمًا كما يدعي ذلك بعض الجهلة، بل في ذلك تكذيب للشريعة، لأنه معلوم من الدين بالضرورة عند الخاصة والعامة أنه لا شيءَ أكبر ذنبًا عند الله من قتل المسلم ظلمًا إلا الكفر. قال رسول الله ﷺ: «**لَزَوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم**» رواه النسائي في سننه.

(٢) الحُديبية: قرية متوسطة سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة حيث وادع النبي ﷺ المشركين عام ٥هـ.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾

كانت اقتُصَّ منه بأن تُهتَكَ له حرمةٌ، فحين هَتكوا حُرمةَ شهركم، فافعلوا بهم نحوَ ذلك ولا تُبالوا، وأكَّد ذلك بقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾ بعقوبةٍ مماثلةٍ لعُدوانهم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في حال كونكم منتصرينَ ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدوا إلى ما لا يَحِلُّ لكم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ بالنصر[(١)].

١٩٥- ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تَصدَّقوا في رضا الله، وهو عامٌّ في الجهاد وغيره ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ ولا تقتُلوا أنفُسَكم بأيديكم، والمعنى النهيُ عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنه سببُ الهلاك، أو عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدوِّ[(٢)] ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ﴾ الظنَّ بالله في الإخلاف[(٣)] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ إلى المحتاجين.

١٩٦- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾ وأدُّوهما تامَّين بشرائطهما وفرائضهما لوجه الله تعالى بلا تَوَانٍ ولا نقصان، وقيل: الإتمام يكون بعد الشروع، فهو دليل على أنَّ مَن شرع فيهما لزمه إتمامُهما ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ الإحصار

---

(١) النصر إما حِسّي وإما معنوي، المؤمنون هم المنتصرون إما انتصارًا حسيًّا وإما انتصارًا معنويًّا، إذا قاتلوا الكفار فكسروهم هذا انتصار حسي ومعنوي، أما إذا كسر الكفار المسلمين واستولوا عليهم فالمؤمنون في هذا الحال منتصرون معنى وحكمًا، لأن لهم أجرًا بقتالهم، ومن قُتل منهم يكون له أجر الشهادة، هم على الحق، فهم المنتصرون حكمًا، ليس الانتصارُ الانتصارَ الحسيَّ فقط، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أيضًا على هذا الوجه.

(٢) الصواب في معنى هذه الآية أنها الانشغال في أمور المال عن الجهاد، لأن بعض الأنصار انشغلوا بإصلاح أموالهم وكانوا أهل نخيل، فنزلت.

(٣) ظُنّوا بالله تعالى بأنه يُخلِفُ عليكم مثلَ ما أنفقتموه في سبيله وزيادة.

﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾

يثبت بكلِّ مَنْع من عدوٍّ أو مرضٍ أو غيرهما ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ فما تيسَّر منه، والهَدْي [ما أُهدي من النَّعَم إلى مكة]، يعني فإن مُنعتم من المُضيّ إلى البيت وأنتم مُحرمون بحج أو عمرةٍ فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدي من بعير أو بقرةٍ أو شاة ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ الخطاب للمُحْصَرين، أي لا تَحِلُّوا بحَلق الرأس حتى تعلموا أن الهديَ الذي بعثتموه إلى الحرم بلغ مَحِلَّه أي مكانه الذي يجب نحره فيه وهو الحرم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ فمن كان منكم به مرض يُحوجه إلى الحلق ﴿أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾ وهو القَمْلُ أو الجراحة ﴿فَفِدۡيَةٞ﴾ فعليه إذا حَلَقَ فديةٌ ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثةَ أيام ﴿أَوۡ صَدَقَةٍ﴾ على ستة مساكينَ لكل مسكينٍ نصفُ صاع من بُرّ ﴿أَوۡ نُسُكٖۚ﴾ شاةٍ ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ الإحصارَ وكنتم في حال أمنٍ وَسَعةٍ ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ استمتع ﴿بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ﴾ واستمتاعُه بالعمرة إلى وقت الحج انتفاعُه بالتقرب بها إلى الله قبلَ انتفاعه بالتقرب بالحج، وقيل: إذا حلَّ من عمرته انتفع باستباحة ما كان محرَّمًا عليه إلى أن يُحرِمَ بالحج ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾ هو هدي المُتْعَةِ، وهو نُسُكٌ يؤكل منه ويذبَحُ يومَ النَّحر ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ الهديَ ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ فعليه صيام ثلاثة أيام في وقت الحج، وهو أشهُرُهُ ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج ﴿وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ﴾ إذا نَفَرْتُم وفَرَغتم من أفعالِ الحج ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ في وقوعها بدلًا عن الهدي ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التمتع ﴿لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ هم أهلُ المواقيت(١) [فما] دونَها إلى مكة [أي: ذلك التمتُّع

---

(١) جمع ميقات، كالجُحفة وذي الحُلَيفة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

للذي لا يسكن مكة وما حوالَيها إلى المواقيت، وإنما ذكرَ الأهلَ لأنَّ الغالبَ أن الإنسان يسكن حيث يسكن أهلُه، فعبَّر بسكون الأهل عن سكون نفسه(١)] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه في الحج وغيره ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ لِمَنْ لم يَتَّقه.

١٩٧- ﴿ٱلْحَجُّ﴾ أي وقت الحج ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾(٢) معروفات عند الناس لا يُشكِلْن عليهم وهي: شَوَّالٌ وذو القَعدة وعَشْرُ ذي الحِجَّةِ. وفائدة توقيت الحج بهذه الأشهر أن شيئًا من أفعال الحج لا يصح إلا فيها ﴿فَمَن فَرَضَ﴾ ألزَمَ نفسَه بالإحرام ﴿فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ في هذه الأشهر ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ هو الجِماعُ ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ هو المعاصي ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ ولا مِراءَ مع الرُّفَقاء والخدم والمُكارِينَ(٣) ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أَعْلَمَ بأنه عالِمٌ به يجازيكم عليه، وَرَدَّ قولَ من نفَى علمَه بالجزئيات(٤). كان أهل اليمن لا يتزوّدون ويقولون: نحن متوكلون، فيكونون كَلًّا(٥) على الناس، فنزل فيهم: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ أي واتقوا الاستطعام وإبرام الناس(٦) والتثقيل عليهم ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ الاتقاءُ عن الإبرام والتثقيل، أو تزَّودوا للمعاد باتِّقاء المحظورات، فإن خير الزاد اتُّقاؤها ﴿وَٱتَّقُونِ﴾ وخافوا عقابي ﴿يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ يا

---

(١) وفي تحديد هذه المسافة خلاف بين المذاهب.
(٢) ليس المراد الأشهر الكاملة.
(٣) المرادُ: مُكرو الدَّوابِّ، أي: مؤجِروها.
(٤) كالفلاسفة، الفلسفة من العلوم المحرمة.
(٥) أي: ثِقلًا.
(٦) أي: إضجار الناس، أي جعلهم يتضجرون.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ
فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾

ذوي العقول، يعني أن قضيةَ اللُّبِّ تقوى الله، ومن لم يتّقِه من الأَلِبَّاءِ فكأنه لا لُبَّ له.

ونزل في قوم زعموا أنَّ لا حجَّ لجَمَّالٍ وتاجر، وقالوا: هؤلاء الداجُّ(١) وليسوا بالحاجّ.

١٩٨- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟﴾ في أن تبتغوا في مواسم الحج ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عطاءً وتفضلًا، وهو النفعُ والربح بالتجارة والكِراء ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾ دَفعتم بكثرةٍ من إفاضَةِ الماء وهو صَبُّه بكثرة ﴿مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ هي عَلَمٌ للموقف، وسُمِّيت بذلك لأنها وُصِفَت لإبراهيم عليه السلام فلمَّا رءاها عَرَفَها. وقيل: التَقَى فيها ءادمُ وحواءُ فتعارفا، وفيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة لأن الإفاضة لا تكون إلا بَعدَهُ ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات، أو بصلاة المغرب والعشاء ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ هو الجبلُ الذي يقف عليه الإمام وعليه المِيقدة(٢). والمَشْعَرُ: المَعلَم لأنه مَعلَمُ العبادة. وَوُصِفَ بالحرام لحُرمته. وقيل: المَشْعَر الحرام مزدلفة، وسُمِّيت المزدلفة جَمْعًا لأنه يُجمع فيها بين الصلاتين، أو لأن الناس يَزدلفون إلى الله تعالى أي يتقربون بالوقوف فيها ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ اذكروه ذكرًا حسنًا كما هداكم هدايةً حسنةً ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ مِن قبل الهُدَى ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ الجاهلين، لا تَعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه.

---

(١) الدَّاجُّ: الأُجَراءُ والمُكارون والأعوان ونحوُهم الذين مع الحاجّ لأنهم يَدِجُّونَ على الأرض أي يَدِبُّون في السير.

(٢) الميقدة: مكان في الجبل الذي يقف عليه الإمام بالمشعر الحرام، كان أهل الجاهلية يوقدون عليه النار.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾

١٩٩- ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ ثم لتَكُنْ إفاضتكم من حيث أفاض الناس ولا تكن من المزدلفة. قالوا: هذا أمر لقريشٍ بالإفاضة من عرفاتٍ إلى جَمْعٍ، وكانوا يقفون بجَمْعٍ، وسائرُ الناس بعرفاتٍ، ويقولون: نحن قُطّانُ حَرَمِهِ[1] فلا نخرجُ منه ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ من مخالفتكم في الموقف ونحو ذلك من جاهليتكم من تقصيركم في أعمال الحج ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ بكم.

٢٠٠- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ﴾ فإذا فرغتم من عباداتكم التي أُمِرتم بها في الحج ونَفَرْتُم ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي فاذكروا الله ذكرًا مثلَ ذِكركم ءاباءَكم. والمعنى فأكثروا من ذكر الله وبالغوا فيه كما تفعلون في ذكر ءابائكم ومفاخرهم وأيامهم. وكانوا إذا قضَوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنًى وبين الجبل فيُعَدِّدون فضائلَ ءابائهم ويذكرون محاسن أيامهم ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾ أي أكثر ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ فمن الذين يشهدون الحج من يسألُ اللهَ حظوظَ الدنيا فيقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا - أي إعطاءنا - في الدنيا خاصةً، يعني الجاهَ والغِنَى ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ نصيبٍ، لأن هَمَّهُ مقصورٌ على الدنيا لكُفره بالآخرة، والمعنى أكثروا ذكرَ الله ودعاءَه، لأن الناس مِن بين مُقِلّ لا يطلب بذكر الله إلا أغراض الدنيا، ومكثرٍ يطلب خير الدارين، فكونوا من المكثرين أي من الذين قيل فيهم:

---

(١) أي: المقيمونَ فيه.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ
ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ
مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

٢٠١- ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن الذين يشهدون الحج ﴿مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نعمةً وعافيةً، أو علمًا وعبادةً ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ عفوًا ومغفرةً، أو العيشَ على سعادة والبعثَ من القبر على بشارة ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ احفظنا من عذاب جهنم

٢٠٢- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الداعون بالحَسَنَتَيْنِ ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ يوشِك أن يُقيم القيامةَ ويحاسبَ العباد، فبادِروا إكثارَ الذكر وطلبَ الآخرة، أو وصَفَ نفسَه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدُلَّ على كمال قدرته ووجوب الحذر من نِقمته. وروي أنه يحاسِبُ الخلقَ في قدرِ حَلْب شاةٍ، وروي في مقدار لَمْحَة.

٢٠٣- ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ هي أيام التشريق، وذِكرُ الله فيها التكبيرُ في أدبار الصلوات وعند الجِمَارِ ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ فمن عجّل في النَّفْرِ ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ من هذه الأيام الثلاثة فلم يمكث حتى يرميَ في اليوم الثالث واكتفى برمي الجمار في يومين من هذه الأيام الثلاثة ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فلا يأثم بهذا التعجُّل ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ حتى رمى في اليوم الثالث ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الصيدَ أو الرَّفَثَ والفسوق، أو هو مخيَّر في التعجل والتأخر، وإن كان التأخر أفضلَ فقد يقع التخيير بين الفاضل والأفضل، كما خيّر المسافر بين الصوم والإفطار وإن كان الصوم أفضل ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في جميع الأمور ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ حين يبعثكم من القبور.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦﴾

كان الأخنس بن شَريق حُلوَ المنطق، إذا لَقِيَ رسولَ الله ﷺ ألَانَ له القول وادَّعى أنه يحبه وأنه مسلم، وقال: يعلم الله أني صادق، فنزل فيه:

٢٠٤- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ يَرُوقك ويَعظُمُ في قلبك، ومنه الشيء العجيب الذي يعظم في النفس ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا، لأنه يَطلبُ بادِّعاء المحبة حظَّ الدنيا ولا يريد به الآخرة ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ يحلف ويقول: الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾ شديدُ الجدال والعداوة للمسلمين.

٢٠٥- ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ عنك وذهبَ بعد إلانَةِ القولِ وإحلاءِ المنطقِ ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ﴾ كما فَعَلَ بثَقيفٍ، فإنه كان بينه وبينهم خصومة فبيّتهم ليلًا وأهلك مواشيهم وأحرق زروعهم ﴿فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ الزرع والحيوان ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾.

٢٠٦- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ للأخنس ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في الإفساد والإهلاك ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ حَمَلَتْهُ النخوةُ وحَمِيَّةُ الجاهلية على الإثم الذي يُنهَى عنه وألْزَمَتْهُ ارتكابَه ﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ﴾ أي كافِيْه ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦﴾ الفِراشُ جهنم.

ونزل في صهيبٍ[1] حين أراده المشركون على ترك الإسلام، وقتلوا نفرًا كانوا معه، فاشترى نفسه بماله منهم وأتى المدينة:

---

(١) صهيب: هو صهيب بن سنان بن مالك، صحابي وأحد السابقين إلى الإسلام، ويُعرف بصهيب الرومي.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ
ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن
يُبَدِّلْ﴾

٢٠٧- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ يبيعُها ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ لابتغاء ﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ حيث أثابهم على ذلك.

٢٠٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ الاستسلامِ والطاعةِ، أي استَسلِمُوا لله وأطيعوه ﴿كَآفَّةً﴾ لا يُخرِجْ أحد منكم يدَه عن طاعته ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ وَساوِسَه ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ ظاهر العداوة.

٢٠٩- ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ مِلتُم عن الدخول في السِّلْم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي الحجج الواضحة والشواهد اللائحة على أنَّ ما دُعيتم إلى الدخول فيه هو الحق ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يمنعه شيء من عذابكم ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ لا يعذب إلا بحق.

٢١٠- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظرون ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أَمرُ اللهِ وبأسُه ﴿فِى ظُلَلٍ﴾ جمعُ ظُلَّة وهي ما أظلَّك ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ السَّحاب. وهو للتهويل إذ الغمام مَظِنَّة الرحمة، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظعَ وأهولَ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وتأتيَ الملائكة الذين وُكِّلوا بتعذيبهم، أو المراد حضورهم يوم القيامة ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ﴾ وتمّ أمر إهلاكهم وفُرغَ منه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ أي أنه مَلَّكَ العباد بعضَ الأمور فترجع إليه الأمور يومَ النشور.

٢١١- ﴿سَلْ﴾ اسأَلْ وهو أمر للرسول وهو سؤالُ تقريعٍ ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ﴾ على أيدي أنبيائهم وهي معجزاتهم ﴿وَمَن يُبَدِّلْ

﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾

﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ هي ءاياته[1] وهي أَجلُّ نعمةٍ من الله، لأنها أسباب الهُدَى والنجاةِ من الضلالة، وتبديلهم إيَّاها أنَّ الله أظهرها لتكون أسباب هداهم فجعلوها أسباب ضلالتهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ من بعد ما عرفها وصحّت عنده لأنه إذا لم يعرفها فكأنها غائبةٌ عنه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ لِمَن استحقَّه.

٢١٢- ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ المُزَيِّنُ هو الشيطان، زَيَّنَ لهم الدنيا وحسَّنها في أعينهم بوَسَاوسه وحبَّبها إليهم فلا يريدون غيرها، أو الله تعالى بِخَلْقِ الشهوات فيهم ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كانوا يسخرون من فقراء المؤمنين كابن مسعود وعمار وصُهَيب ونحوِهم، أي لا يريدون غير الدنيا، وهم يسخرون ممن لا حظ له فيها أو ممن يطلب غيرها ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ عن الشرك، وهم هؤلاء الفقراء ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ لأنهم في جنةٍ عالية، وهم في نارٍ هاوية ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ بغير تقتير[2]، يعني أنه يوسّع على من أراد التوسعة عليه كما وسَّع على قارون وغيره، وهذه التوسعة عليكم من الله لحكمةٍ، وهي استدراجكم بالنعمة، ولو كانت كرامة لكان المؤمنون أحقَّ بها منكم.

٢١٣- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُتَّفقين على دين الإسلام من ءادم إلى نوحٍ عليهما السلام فاختَلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ﴾ بالثواب للمؤمنين ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعقاب للكافرين ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾

---

(١) أي: معجزاته.
(٢) التقتير: التضييق.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾

بتبيان الحق ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الله، أو الكتاب، أو النبي المنزل عليه ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ في دين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ في الحق ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي الكتابَ المُنَزَّل لإزالة الاختلاف، أي ازدادوا في الاختلاف لمَّا أنزل عليهم الكتاب ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ على صِدْقهِ ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ حسدًا بينهم وظلمًا، لحرصهم على الدنيا وقِلةِ إنصافٍ منهم ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي هدى الله الذين ءامنوا للحق الذي اختلَفَ فيه من اختلف ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه ﴿بِإِذْنِهِۦ ۗ﴾ بعلمه[1] ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

٢١٤- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ بل أحسبتم. لمَّا ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيّين بعد مجيء البيِّنات تشجيعًا لرسول الله ﷺ والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهلِ الكتاب وإنكارِهم لآياته وعداوتِهم له، قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ ولم يأتكم ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ مضوا، أي حالهم التي هي مَثَلٌ في الشدة ﴿مِن قَبْلِكُم ۖ﴾ من النبيين والمؤمنين ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾ بيانٌ للمَثَلِ، كأنَّ قائلًا قال: كيف كان ذلك المَثَلُ؟ فقيل: مَسَّتهم ﴿ٱلْبَأْسَآءُ﴾ البؤس[2] ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾

---

(١) تفسير الإذن هنا بالعلم غير سديد، والصواب أن معناه المشيئة، أي بإرادته، وقيل بتمكينه وتوفيقه.

(٢) البؤس: الضُّرُّ، أو شدَّةُ الفقر.

﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ
قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ
لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾

المرض والجوع ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ وحُرِّكوا بأنواع البلايا وأُزعجوا إزعاجًا شديدًا شبيهًا بالزلزلة ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه من المؤمنين فيها ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾ بلغ بهم الضجر ولم يبقَ لهم صبر حتى قالوا ذلك، ومعناه طلب النصر وتمنِّيه واستطالةُ زمان الشدة، فقيل لهم: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ إجابةً لهم إلى طلبهم من عاجل النصر.

ولما قال عمرو بن الجَمُوحِ[1] - وهو شيخ كبير وله مال عظيم -: ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها؟ نزل:

٢١٥- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ﴾ فقد تضمَّنَ قولُه: ﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ بيانَ ما ينفقونه وهو كلُّ خير، وبنى الكلام على ما هو أَهمُّ وهو بيان المَصرِف لأن النفقة لا يُعتدُّ بها إلا أَن تقع موقعها ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ فَيَجْزِي عليه.

٢١٦- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ فُرِضَ عليكم جهادُ الكفار ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ﴾ وهو مكروه لكم[2] ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ فأنتم تكرهون الغزو، وفيه إحدى الحُسنيين، إما الظَّفَر والغنيمة، وإما

---

(١) هو عمرو بنُ الجَمُوح بن زيد الخزرجيُّ الأنصاريُّ رضي الله عنه، صحابيٌّ جليل من سادات بني سَلِمة.
(٢) أي: وإن كانت نفوسكم تكرهُ فُرض عليكم أن تقاتلوا لأجل إنقاذ الناس من الكفر، ومعنى تكره هنا تستثقل.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ
ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ
وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ
يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ﴾

الشهادة والجنة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا﴾ وهو القعود عن الغزو ﴿وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ لِما فيه من الذُّلِ والفقر وحِرمان الغنيمة والأَجر ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ ما هو خير لكم ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ ذلك، فبادِروا إلى ما يأمركم به وإن شقَّ عليكم.

ونزل في سَرِيَّة بعثها رسول الله ﷺ فقاتلوا المشركين وقد أُهِلَّ هلال رجبٍ وهم لا يعلمون ذلك، فقالت قريش: قد استحلَّ محمد عليه الصلاة والسلام الشهر الحرام شهرًا يأمن فيه الخائفُ:

٢١٧- ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ﴾ يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام ﴿قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ﴾ إثم كبير، وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة[1] بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ٥﴾ [سورة التوبة] ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ منعُ المشركين رسولَ الله ﷺ وأصحابَهُ عن البيت عام الحديبية ﴿وَكُفۡرُۢ بِهِۦ﴾ بالله ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي وصدٌّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ﴾ أهلِ المسجد الحرام، وهم رسولُ الله ﷺ والمؤمنون ﴿مِنۡهُ﴾ من المسجد الحرام ﴿أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ مما فَعَلَتْهُ السَّرِيَّةُ من القتال في الشهر الحرام على سبيل الخطإ والبناء على الظن[2] ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾ الشرك ﴿أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ في الشهر الحرام ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار

---

(١) تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ، كان حرامًا ثم نُسخ.
(٢) ما علموا أن الشهر الحرام دخل.

﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ﴾

للمسلمين، وأنهم لا يَنفكُّون عنها حتى يَردُّوهم عن دينهم ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ﴾ استبعاد لاستطاعتهم ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ ومن يرجع عن دينه إلى دينهم ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ يَمُت على الردة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ﴾ لِمَا يفوتهم بالردة مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام، وفي الآخرة من الثواب وحسن المآب ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

٢١٨- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ تركوا مكةَ وعشائرَهم ﴿وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المشركينَ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ قيل: مَن رجا طلب، ومَن خاف هرب[١] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

نزل في الخمر أربع ءايات، نزل بمكة: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴿٦٧﴾﴾ [سورة النحل] فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال[٢]، ثم إنَّ عمر ونفرًا من الصحابة قالوا: يا رسول الله، أَفْتِنا في الخمر، فإنها مَذْهَبَةٌ للعقل مَسْلَبَةٌ للمال؟ فنزل:

٢١٩- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ﴾ فشربها قوم وتركها ءاخرون، ثم دعا عبدُ الرحمٰن بنُ عَوْفٍ جماعةً فشربوا وسكِروا، فأمَّ بعضهم فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، فنزل: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة النساء] فقلَّ من يَشرَبُها، ثم دعا عِتْبانُ بنُ مالكٍ[٣]

---

(١) أي: مَن رَجا طَلَبَ الرحمةَ بالعمل، ومن خافَ هربَ من الذنوب.
(٢) بمعنى أنه لم يكن نزل تحريمُها بعدُ.
(٣) عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري، صحابي من البدريين، مات نحو ٥٠هـ.

﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾

جماعةً فلما سكروا منها تخاصموا وتضاربوا، فقال عمر: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزل: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ ٩٠﴾ [سورة المائدة] إلى قوله ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، فقال عمر: انتهينا يا رَبِّ. والخمرُ: ما غلى واشتدَّ وقذف بالزَّبَد من عصير العنب[1]، والمَيْسِرُ: القمارُ ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ بسبب التخاصم والتشاتم وقولِ الفحش والزور ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ بالتجارة في الخمر والتلذذ بشربها، وفي المَيْسِر نيلُ المال بلا كَدٍّ ﴿وَإِثۡمُهُمَآ﴾ وعِقابُ الإثم في تعاطيهما ﴿أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ لأن أصحاب الشرب والقمار يقترفون فيهما الآثام من وجوه كثيرة ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ أي الفَضْلَ، أي أنفِقوا ما فَضَلَ عن قدر الحاجة، وكان التصدُّق بالفضل في أوّل الإسلام فرضًا فإذا كان الرجل صاحبَ زرع أمسك قوتَ سنةٍ وتصدّق بالفضل، وإذا كان صانعًا أمسك قوت يومه وتصدّق بالفضل، فنسخت بآية الزكاة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي تبيينًا مثل هذا التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾.

٢٢٠- ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ في أمر الدنيا ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ أي تتفكرون فيما يتعلّق بالدارين فتأخذون بما هو أصلح لكم.

ولما نزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا ١٠﴾ [سورة النساء] اعتزَلوا اليتامى وتركوا مخالطتهم والقيام بأموالهم وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزل: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾ أي مُدَاخَلَتُهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خير من مُجانَبتهم

---

(١) وفي حكمه كل ما أسكر من غير عصير العنب.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ
أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ
أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ وتُعاشروهم ولم تُجانبوهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْۚ﴾ فهم إخوانكم في الدّين، ومِن حقِّ الأخ أن يُخالِطَ أخاه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ﴾ لأموالهم ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ لها فيجازيه على حسب مداخلته، فاحذروه ولا تتحرَّوا غير الإصلاح ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إعْناتَكُم ﴿لَأَعْنَتَكُمْۚ﴾ لحَمَلَكم على العَنَت وهو المشقة وأحرجَكم فلم يُطلق لكم مداخَلَتَهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب يَقدرُ على أن يُعنِتَ عباده ويُحرِجَهم ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ لا يُكَلِّفُ إلا وُسْعَهم وطاقتهم.

ولما سأل مَرْثَد[1] النبيَّ ﷺ على أن يتزوج عَناقَ[2]، وكانت مشركةً نزل:

٢٢١- ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ﴾ لا تتزوجوهن ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ﴾ ولو كان الحال أن المشركة تُعجبكم وتحبونها ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تُزوّجوهم بمسلمةٍ ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ﴾ ثم بيَّن عِلةَ ذلك فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المشركات والمشركين ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ إلى الكفر الذي هو عَمَلُ أهل النار، فحَقُّهم ألّا يوالَوا ولا يُصاهَروا ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ﴾ بأمره [أو بإرادته وتيسيره] ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ يتعظون.

---

(١) هو مَرْثَدُ بن أبي مَرْثدٍ، كَنَّاز الغنويّ، هو وأبوه بدريَّان.

(٢) عَناق: امرأة مشركة من العرب، كانت ذات حظ وجمال.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾

كانت العرب لم يؤاكِلوا الحائضَ ولم يُشاربوها ولم يُساكنوها كفعل اليهود والمجوس، فسأل أبو الدَّحْدَاحِ[1] رسولَ الله ﷺ عن ذلك، وقال: يا رسول الله، كيف نصنع بالنساء إذا حِضْنَ؟ فنزل:

٢٢٢- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ المَحِيضُ شيءٌ يُستقذَرُ ويُؤذي من يَقْرُبُه ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ﴾ فاجتنِبوا مجامعتهن، وقيل: إن النصارى كانوا يجامعونهنَّ ولا يُبالون بالحيض، واليهود كانوا يعتزلونهنَّ في كل شيءٍ، فأَمَرَ الله بالاقتصاد بين الأمرين ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ لا تقربوا مجامعتهن ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ﴾ [بتشديد الطاء والهاء والفتح أي: يَطَّهَّرْن] كوفي غيرَ حفص، أي يغتَسِلْنَ، غيرُهم ﴿يَطْهُرْنَۖ﴾ أي: ينقطع دمُهن ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فجامِعوهن ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من المَأْتَى الذي أمركم الله به وحلّله لكم وهو القُبُل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من ارتكاب ما نُهوا عنه ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ بالماء، أو المتنزِّهين من أَدبارِ النساء، أو من الجماع في الحيض، أو من الفواحش.

كان اليهود يقولون: إذا أتى الرجل أَهلَهُ باركةً أَتى الولدُ أَحْوَلَ، فنزل:

٢٢٣- ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مواضع حرثٍ لكم، وهذا مجاز شُبِّهن بالمحارث تشبيهًا لما يُلْقَى في أرحامهنَّ من النُّطَفِ التي منها النَّسْل بالبذور والولدُ بالنبات، ووقع قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ بيانًا وتوضيحًا لقوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ ﴿٢٢٢﴾﴾ [سورة البقرة]. أي إنَّ المَأتَى

---

(١) أبو الدَّحداح: ثابت بن الدَّحداح الأنصاري وهو من الصحابة.

﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾

الذي أَمرَكم الله به هو مكانُ الحرث لا مكانُ الفَرْث[1]، تنبيهًا على أنّ المطلوب الأصلي في الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة، فلا تأتوهنَّ إلا من المأتَى الذي نِيطَ[2] به هذا المطلوب ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ جامِعوهن متى شئتم أو كيف شئتم، باركةً أو مستلقيةً أو مضطجعةً، بعد أن يكون المأتَى واحدًا وهو موضع الحرث، وهو تمثيل، أي فأتوهنّ كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أيّ جهةٍ شئتم ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة، أو هو التسمية على الوطء ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فلا تجترئوا على المناهي ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ صائرون إليه فاستعِدُّوا للقائه ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ بالثواب يا محمد.

٢٢٤- ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ كان الرجلُ يَحلِفُ على بعض الخيرات من صلة رَحِم أو إصلاحِ ذات بينٍ أو إحسانٍ إلى أحدٍ أو عبادةٍ، ثم يقول: أخافُ اللهَ أن أَحنَثَ في يميني فيتركُ البرَّ إرادةَ البِرِّ في يمينه، فقيل له: ولا تجعلوا الله [أي: الحَلِفَ به] حاجزًا لِمَا حلفتم عليه، وسُمِّي المحلوف عليه يمينًا لتلبُّسه باليمين كقوله عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ حَلَفَ على يمينٍ فرأى غيرَها خيرًا منها فلْيُكفِّرْ عنْ يمينِهِ**» ﴿أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ للأمور المحلوف عليها التي هي البرُّ والتقوى والإصلاح بين الناس ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ بنيَّاتكم.

---

(١) الفَرْثُ: الغائط.

(٢) نِيطَ: عُلِّقَ.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ﴾

٢٢٥- ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ اللغو: الساقط الذي لا يُعتدُّ به من كلامٍ وغيره، ولغو اليمين: الساقط الذي لا يُعتدُّ به في الأيمان، وهو أن يحلف على شيء يظنُّه على ما حلف عليه، والأمر بخلافه، والمعنى لا يعاقبكم بلغو اليمين الذي يحلفه أحدكم، وعند الشافعي رحمه الله هو ما يجري على لسانه من غير قصد للحلف نحو: لا والله وبَلَى والله ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ ولكن يعاقبكم ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ﴾ بما اقترفته من إثم القَصْد إلى الكذب في اليمين، وهو أن يحلف على ما يَعلم أنه خلافُ ما يقوله، وهو اليمين الغَمُوس ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ حيث لم يؤاخِذْكم باللغو في أيمانكم.

٢٢٦- ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ يُقْسِمون [ألَّا يجامعوهن] ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ﴾ ترقُّب أربعة أشهر ﴿فَإِن فَآءُو﴾ رجعوا إلى الوطء عن الإصرار بتركه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ حيث شرع الكفارة.

٢٢٧- ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ بترك الفَيء فتربَّصُوا إلى مُضِيّ المدة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لإيلائه ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ بنيّته، وهو وعيد على إصرارهم وتركهم الفَيئة.

٢٢٨- ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ أراد المدخولَ بهن من ذوات الأَقراء ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أُمِرنَ أن يَقمَعْن أنفسَهن ويغلِبْنَها على الطُّموح ويُجبرنها على التربُّص ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ﴾ جمعُ قُرْءٍ وهو الحيض(١). فأقام الأشهرَ مُقامَ الحيض دون الأطهار، ولأن المطلوب من العدة استبراء الرحم،

---

(١) هذا عند الحنفية، ولفظ القرء بفتح القاف وضمها مشترك بين الحيض والطهر، ولكن المراد به هنا عند الشافعية الطهرُ لقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴿١﴾﴾ [سورة الطلاق]، أي في زمنها وهو زمن الطهر.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾

والحيض هو الذي يُستبرأ به الأرحام دون الطهر ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد، أو من دم الحيض، أو منهما، وذلك إذا أرادت المرأة فِراقَ زوجها فكتمت حَمْلَها لئلَّا يَنتظِرَ بطلاقها أن تضعَ، ولئلا يُشفِقَ على الولد فيترك تسريحها، أو كتمت حيضَها وقالت وهي حائض: قد طَهُرتُ، استعجالًا للطلاق؛ ثم عظّم فعلهنَّ فقال: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ﴾ لأنَّ من ءامنَ بالله وبعقابه لا يجترئ على مثله من العظائم ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أي أزواجهن أَوْلَى برجعتهن، وفيه دليل على أن الطلاق الرجعي لا يُحرِّم الوطءَ[1] حيث سمَّاه زوجًا بعد الطلاق ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ في مدة ذلك التربُّص، والمعنى أن الرجل إن أراد الرجعة وأَبَتْها المرأةُ وجب إيثارُ قوله على قولها، وكان هو أحقَّ منها لا أنَّ لها حقًّا في الرجعة ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ﴾ بالرجعة ﴿إِصْلَٰحًاۚ﴾ لِمَا بينهم وبينهنَّ وإحسانًا إليهن ولم يريدوا مُضَارَّتَهن ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ ويجب لهُنَّ مِنَ الحقّ على الرجال من المهر والنفقة وحُسن العِشرة وتركِ المُضارَّة مثلُ الذي يجب لهم عليهن من الأمر والنهي ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ بالوجه الذي لا يُنْكَر في الشرع وعاداتِ الناس، فلا يُكلِّف أحدُ الزوجين صاحبَه ما ليس له، والمراد بالمماثلةِ مماثلةُ الواجبِ الواجبَ في كونهِ حَسَنةً لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعلَ نحوَ ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾ زيادةٌ في الحقّ وفضيلةٌ بالقيام بأمرها، وإن اشتركا في اللذة والاستمتاع، أو بالإنفاق ومِلكِ النكاح ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾

---

(١) وذلك يكون بنية إرجاعها، وهو مذهب الحنفية.

﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾

لا يُعتَرَضُ عليه في أموره ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ لا يَأمرُ إلا بما هو صواب وحسن.

٢٢٩- ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ الطلاق الرجعي مَرَّتان لأنه لا رجعة بعد الثلاث ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾ برجعة، والمعنى فالواجب عليكم إمساك بمعروف ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ بأَلَّا يراجعها حتى تَبِيْن بالعدة ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ﴾ أيها الأزواج أو الحكام لأنهم الآمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم فكأنهم الآخذون والمؤتُون ﴿أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾ مما أعطيتموهنَّ من المهور ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾ إلا أن يعلمَ الزوجان تركَ إقامة حدود الله فيما يلزمهما من مَواجب الزوجية لِمَا يَحدُث من نشوز المرأة وسُوءِ خُلُقها ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ أيها الوُلاةُ، وجاز أن يكون أولُ الخطاب للأزواج وءاخِره للحُكام ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا﴾ فلا جُناحَ على الرجل فيما أخذَ ولا عليها فيما أعطت ﴿فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ نفسَها واختلَعَت به مِن بَذل ما أُوتِيَتْ من المهر ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي ما حُدَّ من النكاح واليمين والإيلاء والطلاق والخلع وغير ذلك ﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ فلا تجاوزوها بالمخالفة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ الضارُّونَ أنفسَهم.

٢٣٠- ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ مرةً ثالثةً بعد المرَّتين ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ﴾ من بعدِ التطليقةِ الثالثة ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ حتى تتزوج غيره، والنكاح يُسنَدُ إلى المرأة كما يُسند إلى الرجل كالتزوج، وفيه دليل على أن النكاح ينعقد بعبارتها، والإصابةُ شُرطت بحديث العُسَيلة، كما عرف في أصول الفقه، والفقه فيه أنه لَمَّا أَقدَم على فراقٍ لم يُبقِ للندم مَخلصًا لم

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا
تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟
نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

تَحِلَّ له إلا بدخولِ فَحْلٍ عليها ليمتنعَ عن ارتكابه ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوجُ الثاني بعدَ الوطء ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ على الزوج الأول وعليها ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أن يرجعَ كل واحدٍ منهما إلى صاحبه بالزواج ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يُقيمان حقوق الزوجية، ولم يَقُل إنْ عَلِمَا أنهما يُقيمان، لأن اليقين مُغَيَّب عنهما لا يَعلمه إلا الله ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ يَفهمون ما بُيِّنَ لهم.

٢٣١ - ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ ءاخرَ عِدَّتهن وشارَفْن منتهاها ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فإما أن يراجِعَها من غير طلب ضِرارٍ بالمُراجعة، وإما أن يُخَلِّيها حتى تنقضيَ عِدتُها وتَبِيْن من غير ضِرَار ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ مُضارّين، وكان الرجل يُطلّقُ المرأةَ ويتركُها حتى يقرُبَ انقضاءُ عدتها ثم يراجعُها لا عن حاجةٍ، ولكن ليُطوّلَ العدةَ عليها، فهو الإمساك ضرارًا ﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾ لتظلمُوهن أو لتُلجئوهن إلى الافتداء ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يعني الإمساكَ للضِّرار ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بتعريضها لعقاب الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ جِدُّوا بالأخذ بها والعمل بما فيها وارعَوْها حَقَّ رعايتها، وإلا فقد اتخذتموها هزوًا ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ من القرءان والسنة، وذِكرُها مقابلَتُها بالشكر والقيامُ بحقّها ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ بما أنزل عليكم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما امتحنكم به ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ من الذكر والاتّقاء والاتّعاظ وغير ذلك، وهو أبلغ وعدٍ ووعيد.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ
ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ
لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾

٢٣٢- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انقضَتْ عِدَّتُهن، فدلَّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين، لأن النكاح يَعقُبُهُ هنا، وذا يكون بعد العِدَّة وفي الأولى الرجعة، وذا يكون في العدة ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فلا تمنعوهن، العَضْلُ: المنع والتضييق ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ الذين يَرغَبْنَ فيهم، والخطابُ للأزواج الذين يعضُلون نساءَهم بعد انقضاء العدة ظلمًا، ولا يتركونَهن يتزوجن ﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم﴾ إذا تراضى الخُطّاب والنساء ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ﴾ بما يَحْسُنُ في الدّين والمُروءَة من الشرائط، أو بمهر المِثل والكُفء. والخِطابُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ للنبي ﷺ أو لكل أَحَدٍ ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ﴾ فالموعظة إنما تَنْجَعُ[1] فيهم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي تركُ العَضْل والضِّرار ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ﴾ لكم من أدناس الآثام، أو أزكى وأطهر أفضل وأطيب ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في ذلك من الزكاة والطُّهر ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ ذلك.

٢٣٣- ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ خبرٌ في معنى الأمر المؤكَّد، وهذا الأمر على وجه الندب ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ﴾ تامَّين ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ لمن أراد إتمام الرضاعة، والحاصل أنَّ الأب يجب عليه إرضاع ولده دون الأم، وعليه أن يتَّخذ له ظِئرًا[2] إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك ولا تُجبَرُ عليه ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ وعلى الذي يولد له وهو الوالد ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ بلا إسرافٍ ولا تقتير، وتفسيره

---

(١) أي: تنفع.
(٢) الظِّئر: المرضعة لولد غيرها.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾

ما يَعقُبه وهو أَلّا يُكلَّفَ واحد منهما ما ليس في وُسْعِه ولا يتضارَّا ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ وُجْدَها أو قَدْرَ إمكانها ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ لا تُضَارَّ والدةٌ زوجَها بسبب ولدها، وهو أن تُعَنِّفَ به وتطلبَ منه ما ليس بعدلٍ من الرزق والكِسوة، وأن تشغلَ قلبه بالتفريط في شأن الولد، وأن تقول بعدما أَلِفَها الصبي: اطلُبْ له ظِئرًا، وما أشبه ذلك ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ ولا يُضَارَّ مولودٌ له امرأتَهُ بسبب ولده بأن يمنَعَها شيئًا مما وجب عليه من رزقها وكسوتها، أو يأخُذَهُ منها، وهي تريد إرضاعَه ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾ وعلى وارث الصبي عندَ عدمِ الأب ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَۗ﴾ مثلُ الذي كان على أبيه في حياته من الرزق والكسوة ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ يعني الأبوين ﴿فِصَالًا﴾ فطامًا صادرًا ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ بينهما ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ﴾ في ذلك زادا على الحَولَين أو نَقَصَا، وهذه توسعةٌ بعد التحديد، ليكون التراضِي عن تفكر فلا يُضَرُّ الرضيع، فسبحان الذي أَدَّبَ الكبير ولم يُهمل الصغير، واعتُبِرَ اتفاقهما لأن للأب النِّسْبَةَ والوِلايةَ وللأُم الشفقةَ والعناية ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أن تسترضعوا المَرَاضِعَ أولادَكم يعني غيرَ الأُم عند إبائها أو عجزها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى المَراضع ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ ما أَردتم إيتاءَهُ من الأجرة، والتسليم ندبٌ لا شرطٌ للجواز ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ أي سلَّمتم الأجرة إلى المَراضع بطِيب نفس وسرور ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ لا تخفى عليه أعمالكم فهو يجازيكم عليها.

٢٣٤- ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ تقول توفَّيتُ الشيء واستوفيته إذا أَخذْتَهُ

﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ﴾

وافيًا تامًّا، أي تُستوفى أرواحهم ﴿وَيَذَرُونَ﴾ ويتركون ﴿أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي وزوجاتُ الذين يُتوفَّون منكم يتربَّصْنَ أي يَعْتَدِدْنَ، أو معناه يَتربَّصْن بعدَهم بأنفسهن ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ﴾ أي وعشرَ ليالٍ والأيامُ داخلةٌ معها ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فإذا انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأَئمةُ والحُكَّامُ ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ من التعرُّضِ للخُطّاب ﴿بِالْمَعْرُوفِ ۗ﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)﴾ عالم بالبواطن.

٢٣٥- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ الخِطْبَةُ الاستنكاحُ، والتعريضُ أن يقول لها: إنك لجميلةٌ أو صالحةٌ، ومن غَرَضِي أن أتزوجَ، ونحوَ ذلك من الكلام المُوهِم أنه يريد نكاحَها حتى تحبسَ نفسَها عليه إن رغبت فيه، ولا يُصَرِّحُ بالنكاح فلا يقول: إني أريد أن أتزوجك، والفرق بين الكناية والتعريض أنَّ الكِنايةَ أنْ تذكرَ الشيء بغير لفظه الموضوع له، والتعريضَ أن تذكر شيئًا تدلُّ به على شيء لم تذكره ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ﴾ أو سَتَرتُم وأَضمَرتم في قلوبكم فلم تذكروه بألسنتكم لا مُعَرِّضين ولا مُصَرِّحين ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ لا محالةَ ولا تَنفكّون عن النطق برغبتكم فيهنَّ، فاذكروهنَّ ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ جِماعًا، لأنه مما يُسَرُّ، أي لا تقولوا في العِدَّةِ: إني قادر على هذا العمل ﴿إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ﴾ وهو أن تُعَرِّضوا ولا تُصرِّحوا أي لا تُواعدوهنَّ مواعدةً قطُّ إلا مواعَدَةً معروفةً غيرَ مُنكَرة ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أي ولا تعزموا على عُقدة النكاح ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ﴾ حتى تنقضي عدتُها، وسُمِّيت العدة

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾

كتابًا لأنها فرضت بالكتاب، يعني حتى يبلغ التربُّص المكتوب عليها أَجلَه أي غايتَه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ من العزم على ما لا يجوز ﴿فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ ولا تَعزموا عليه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة.

ونزل فيمن طلّق امرأته ولم يكن سَمَّى لها مهرًا ولا جامعها:

٢٣٦- ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ لا تَبِعَةَ عليكم من إيجاب مهرٍ ﴿إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ والتقدير: إن طلَّقتم النساء فلا جُناح عليكم ﴿مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ﴾ ما لم تُجامعوهنَّ ﴿أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ﴾ إلا أن تَفرضوا لهن فريضةً، أو حتى تَفرضوا، وفَرْضُ الفريضة تسميةُ المهر، وذلك أن المطلّقةَ غيرَ الموطوءة لها نصفُ المُسَمَّى إن سُمِّيَ لها مَهرٌ، وإن لم يُسَمَّ لها مهر فليس لها نصفُ مهرِ المِثل بل تَجبُ المُتْعَةُ ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ فطلِّقُوهن وَمَتِّعُوهنَّ، والمُتعةُ دِرْعٌ ومِلْحَفَةٌ وخِمار ﴿عَلَى ٱلۡمُوسِعِ﴾ الذي له سَعَةٌ ﴿قَدَرُهُۥ﴾ مِقداره الذي يُطيقه ﴿وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ﴾ الضَّيّقِ الحال ﴿قَدَرُهُۥ﴾ ولا تجبُ المتعة عندنا إلا لهذه وتُستحَبُّ لسائر المُطلَّقات ﴿مَتَٰعَۢا﴾ تمتيعًا ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ بالوجه الذي يَحْسُن في الشرع والمروءة ﴿حَقًّا﴾ متاعًا واجبًا عليهم أو حَقَّ ذلك حقًّا ﴿عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦﴾ على المسلمين، أو على الذين يُحسنون إلى المُطلَّقات بالتمتيع، وسمَّاهم قبل الفعل مُحسنين كقوله عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ قتلَ قتيلًا فله سَلَبُه**» متفق عليه. وليس هذا الإحسان هو التبرعَ بما ليس عليه إذ هذه المتعةُ واجبة.

ثم بيَّن حكم التي سَمَّى لها مهرًا في الطلاق قبل المسّ فقال:

٢٣٧- ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ من قَبلِ مسّكم إياهنّ

﴿وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ
ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ
بَصِيرٌ ٢٣٧ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا
أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ﴾

﴿وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ مهرًا ﴿فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ فعليكم نصف ما فرضتم في جميع الأوقات إلا وقتَ عفوهنّ عنكم من المهر ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ هو الزوج، وهذا لأنَّ الطلاق بيده فكان بقاء العقد بيده، والمعنى أن الواجب شرعًا هو النصف إلا أن تُسقِطَ هي الكلَّ أو يُعطيَ هو الكُلَّ تفضُّلًا ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ الخطاب للأزواج والزوجات على سبيل التغليب، أي عفوُ الزَّوج بإعطاء كل المهر خيرٌ له، وعفو المرأة بإسقاط كُلِّهِ خيرٌ لها أو للأزواج ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ﴾ التفضُّل ﴿بَيۡنَكُمۡۚ﴾ ولا تنسَوا أن يتفضَّل بعضكم على بعضٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾ فيجازيكم على تفضُّلكم.

٢٣٨- ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ داوِموا عليها بمواقيتها وأركانها وشرائطها ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ أي الفُضْلَى وهي صلاةُ العصر لقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم نارًا**»، ولأنها بين صلاتي الليل وصلاتي النهار، وفضلُها لِمَا في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم ومعايشهم ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ مطيعين خاشعين.

٢٣٩- ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ فإن كان بكم خوف من عدوٍّ أو غيره ﴿فَرِجَالًا﴾ فصلُّوا راجلين، وهو جمع راجلٍ[١] ﴿أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ﴾ [وهو جمع راكب،

---

(١) وهو القائم على الرِّجْلِ، ويجوز لهم أداؤها جماعة.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾

أي على الخيل والإبل ونحوها] وُحْدانًا بإيماءٍ[1]، ويسقط عنهم التوجه إلى القبلة ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ فإذا زال خوفكم ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ فصلُّوا صلاة الأمن ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ أي ذِكرًا مثلَ ما عَلَّمكم ﴿مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ من صلاة الأمن.

٢٤٠- ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم﴾ فليوصوا وصيةً ﴿مَّتَٰعًا﴾ مَتِّعُوهن متاعًا ﴿إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ﴾ المعنى أن حقَّ الذين يُتوفَّون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يُحتَضَروا بأن تُمَتَّع أزواجُهم بعدَهم حولًا كاملًا، أي يُنْفَقَ عليهن من تَرِكَتِه ولا يُخْرَجن من مساكنهنَّ، وكان ذلك مشروعًا في أول الإسلام ثم نُسِخ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا﴾ إلى قوله: ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ ﴿٢٣٤﴾﴾ [سورة البقرة]. والناسخ مُتقدِّم عليه تلاوةً ومتأخر نزولًا ﴿فَإِنۡ خَرَجۡنَ﴾ بعدَ الحول ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من التزيُّن والتعرُّض للخُطّاب ﴿مِن مَّعۡرُوفٖۗ﴾ مما ليس بمنكر شرعًا ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾﴾ فيما حكم.

٢٤١- ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ﴾ [للمُطَلّقات اللاتي سُمِّي لهن المهرُ متعةٌ أيضًا بطريق الاستحباب، وقيل: هي] نفقة العدة ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [أي حَقَّ هذا على المتّقين حقًّا ولو لم يكن واجبًا، لكن من التقوى التبرع به تطييبًا لقلبها].

---

(١) وُحْدَانا أي: فُرادى لا في جماعة، وإيماءً أي للركوع والسجود ولكن للسجود أخفضَ من الركوع.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

٢٤٢- ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [كما بيَّن لكم ما يلزمكم لأزواجكم ويلزم أزواجكم لكم، كذلك يبيّن لكم سائر الأحكام في هذا الكتاب لتَعقِلوا حدوده وتعرفوا ما فيه صلاح دينكم ودنياكم وتعملوا به].

٢٤٣- ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تقرير لِمَن سمع بقصَّتهم من أهل الكتاب وأَخبارِ الأوَّلين وتعجيبٌ من شأنهم، ويجوز أن يخاطَبَ به من لم يَرَ ولم يسمَعْ، لأن هذا الكلام جَرَى مَجرى المَثَل في معنى التعجيب ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ من قريةٍ قِبَلَ واسطٍ[(١)] وقع فيهم الطاعون فخرجوا هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم بدعاء حِزْقِيلَ عليه السلام، وقيل: هم قوم من بني إسرائيل دعاهم مَلِكُهم إلى الجهاد فهربوا حذرًا من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم ﴿وَهُمۡ أُلُوفٌ﴾ فيه دليل على الأُلوف الكثيرة لأنها جمع كثرة ﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ ماتوا مِيتَةَ رجل واحد بأمر الله ومشيئته، وتلك مِيتةٌ خارجة عن العادة، وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد وأن الموت إذا لم يكن منه بُدٌّ ولم ينفع منه مَفَرٌّ فأولى أن يكون في سبيل الله ﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ ليعتبروا ويعلموا أنه لا مَفَرَّ من حكم الله وقضائه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث يُبَصِّرُهم ما يَعتبرون به كما بصَّر أولئك وكما بَصَّركم باقتِصَاص خَبَرِهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ ذلك.

---

(١) واسطٌ: اسم لعدة مواضع منها: في نواحي بلخ، وحلب، وقرب بغداد، وغربي الفرات، ومن منازل بني قشير، وفي الأندلس، وبنواحي الموصل، وفي اليمن وواسط الحجاج، والله أعلم أيّ واسط هي المقصودة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، (ج٥، ص٣٤٧).

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا
حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى
ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾

والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثًا على الجهاد ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله وهو قوله:

٢٤٤- ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فَحَرَّض على الجهاد بعد الإعلام، لأن الفِرار من الموت لا يُغني، وهذا الخطاب لأُمَّة محمدٍ عليه الصلاة والسلام أو لِمَن أحياهم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يَسمع ما يقوله المتخلِّفون والسابقون ﴿عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾﴾ بما يُضمرونه.

٢٤٥- ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ سَمَّى ما يُنفَقُ في سبيل الله قرضًا لأن القرض ما يُقبض ببدل مِثلِهِ مِن بَعدُ، فنبَّههم بذلك على أنه لا يضيع عنده وأنه يَجزيهم عليه لا محالة ﴿قَرْضًا حَسَنٗا﴾ بطِيبة النفس من المال الطيّب، والمراد النفقةُ في الجهاد، لأنه لمَّا أَمرَ بالقتال في سبيل الله - ويُحتاج فيه إلى المال - حثَّ على الصدقة ليتهيأَ أسبابُ الجهاد ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ فهو يضاعفه ﴿أَضْعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ لا يَعْلَم كُنْهَها إلا اللهُ ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ يُقتِّرُ الرزقَ على عباده ويوسِّعُه عليهم، فلا تَبْخلوا عليه بما وسَّع عليكم، لا يُبَدِّلْكم الضيقَ بالسَّعة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ فيجازيكم على ما قدَّمتم.

٢٤٦- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ الأَشراف، لأنهم يملؤونَ القلوبَ جلالةً والعيون مَهابةً ﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ مِنْ بعدِ موتهِ ﴿إِذْ قَالُواْ﴾ حين قالوا ﴿لِنَبِيّٖ لَّهُمُ﴾ هو شَمْعُونُ أو يوشَعُ أو إشمويل ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكٗا﴾ أَنهِضْ للقتال معنا أميرًا نَصْدُرُ في تدبير الحرب عن رأيه ونَنْتَهِي إلى أمره ﴿نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ﴾ النبي ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾ هل قاربتم أَلَّا تقاتلوا، يعني هل

﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾

الأمر كما أتوقَّعه أنكم لا تقاتلون وتَجْبُنون ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأَيُّ داعٍ لنا إلى ترك القتال وأيُّ غرضٍ لنا فيه ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ وذلك أنَّ قوم جالوت كانوا يسكنون بين مِصرَ وفلسطينَ فأَسَروا من أبناء ملوكهم أربعمائةٍ وأربعين، يعنون إذا بلغ الأمر مِنَّا هذا المبلغ فلا بد من الجهاد ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ أي أُجيبوا إلى مُلْتَمَسهم ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ أَعرَضوا عنه ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ وهم كانوا ثلاثمائةٍ وثلاثةَ عَشَرَ، على عدد أهل بدر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد.

٢٤٧- ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا﴾ كيفَ ومِنْ أَينَ؟! وهو إنكار لتَملُّكه عليهم واستبعادٌ له ﴿وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ كيف يتملَّك علينا والحال أنه لا يستحقُّ التملُّك لوجود من هو أحقُّ بالمُلك، وأنه فقير، ولا بد للمَلِكِ من مالٍ يعتَضِدُ به، وإنما قالوا ذلك لأن النبوةَ كانت في سِبْطِ لاوَى بنِ يعقوبَ عليه السلام، والمُلْكَ في سِبط يَهُوذا، وهو كان من سِبطِ بِنيامين، وكان رجلًا سَقَّاءً أو دَبَّاغًا فقيرًا ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ اختارَهُ عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، ولا اعتراضَ على حُكمه، ثم ذكر مَصلحتين أَنفعَ مما ذكَروا من النَّسَب والمال، وهما العِلمُ المبسوط والجَسَامَةُ، فقال: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ قالوا: كان أعلمَ بني إسرائيل بالحرب والديانات في وقته، وأطولَ مِن كل إنسانٍ برأسه ومَنكبه، والبَسْطَةُ: السَّعة

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾

والامتداد، والمَلِكُ لا بد أن يكون من أهل العلم، فإنَّ الجاهل ذليلٌ مُزْدَرًى غيرُ منتفَع به، وأن يكون جسيمًا لأنه أعظم في النفوس وأَهيبُ في القلوب ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي المُلكُ له غيرُ مُنازَعٍ فيه، وهو يؤتيه من يشاء إيتاءَه، وليس ذلك بالوراثة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ واسع الفضل والعَطاءِ، يُوسِّعُ على من ليس له سَعة من المال، ويغنيه بعد الفقر ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ بمن يصطفيه للمُلْكِ، فَثَمَّةَ طلبوا من نبيهم ءايةً على اصطفاءِ اللهِ طالوتَ.

٢٤٨- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ أي صندوقُ التوراة، وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قَدَّمَه فكانت تَسكنُ نفوسُ بني إسرائيل ولا يَفِرُّون ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سكونٌ وطُمَأنينة ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ هي رُضَاضُ الألواح(١) وعصا موسى وثيابُه وشيءٌ من التوراة ونعلا موسى وعِمامةُ هارون عليهما السلام ﴿مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ أي مما تركه موسى وهارون والآل مُقْحَمٌ لتفخيم شأنهما ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ يعني التابوت، وكان رَفَعَهُ الله بعد موسى، فنزلت به الملائكة تَحمِلُه وهم ينظرون إليه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ إنَّ في رجوع التابوت إليكم علامةً أنَّ الله قد مَلَّكَ طالوتَ عليكم إن كنتم مُصدقين.

٢٤٩- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ﴾ خَرَجَ ﴿بِٱلْجُنُودِ﴾ عن بَلَدِهِ إلى جهاد العدو، مختلطًا بالجنود، وهم ثمانون ألفًا، وكان الوقت

---

(١) رُضاض الألواح: فُتاتها.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا
مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ
قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم
مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

قَيظًا[١]، وسألوا أن يُجري اللهُ لهم نهرًا ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ مختبرُكم أي يعامِلُكم معاملةَ المختبِر ﴿بِنَهَرٍ﴾ وهو نهر فلسطينَ ليتميز المُحَقِّقُ في الجهاد من المُعَذِّر[٢] ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ كَرْعًا[٣] ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فليس من أتباعي وأشياعي ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ ومن لم يَذُقْهُ، مِنْ: طَعِمَ الشيءَ إذا ذاقه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ واستُثْنِيَ ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ﴾ مِنْ قوله ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ ﴿غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ﴾ ومعناه الرُّخْصَة في اغتراف الغُرفة باليد دون الكرع، والدليل عليه ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ﴾ أي فكَرَعوا، وروي أن الغُرفَةَ كانت تكفي الرجلَ لشُربه وإدَاوَتِهِ[٤]، والذين شربوا منه اسودَّت شِفاههم وغلبَهم العطشُ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ﴾ وهم ثلاثمائةٍ وثلاثةَ عشر رجلًا ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾ [فلمَّا جاوز طالوتُ] النهرَ ﴿هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أي القليل ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ﴾ لا قوة لنا ﴿بِجَالُوتَ﴾ هو جبَّارٌ من العَمالقة من أولاد عِمليقِ بنِ عادٍ، وكان في بيضته[٥] ثلاثمائةِ رَطلٍ من الحديد ﴿وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [أي الذين] يُوقنون بالشهادة وهم القليل الذين ثبتوا معه للكثير الذينَ انخَزَلوا[٦] ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بنصره ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ بالنصر.

---

(١) أي: شديد الحَرّ.
(٢) المعذِّرُ: المعتذر بغير عذر.
(٣) كَرَعَ في الماء كَرْعًا شرب بفِيْه من موضعه، فإن شرب بكفيه أو بشيء ءاخر فليس بكرع.
(٤) الإداوة بالكسر: إناءٌ صغير من جلد يُتخذ للماء.
(٥) بيضته: سلاحه.
(٦) أي: انقطعوا عنه.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾

٢٥٠- ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ خرجوا لقتالهم ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ﴾ اصبُبْ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ على القتال ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بتقوية قلوبنا وإلقاءِ الرُّعب في صدور عدوّنا ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ أعِنّا عليهم.

٢٥١- ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي طالوتُ والمؤمنونَ جالوتَ وجنودَه ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بقضائه ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ كان إيْشا أبو داودَ في عسكر طالوتَ مع ستةٍ من بَنِيهِ، وكان داودُ سابعَهم، وهو صغير يرعى الغنم، فأوحى الله إلى نبيّهم أن داودَ هو الذي يَقتلُ جالوت، فطلبَهُ من أبيه فجاء وقد مرَّ في طريقه بثلاثة أحجارٍ دعاهُ كلُّ واحدٍ منها أن يحمِلَه، وقالت له: إنك تقتل بنا جالوتَ، فحَمَلها في مِخْلاتِهِ[١]، ورمى بها جالوتَ فقتله، وزوَّجه طالوتُ بنتَه ثم حَسَدَه[٢] وأراد قتلَه ثم مات تائبًا ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ في مشارق الأرض المقدسة ومَغاربها، وما اجتمعت بنو إسرائيل على مَلِكٍ قَطُّ قبلَ داود ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والنبوةَ ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ من صَنْعَةِ الدروع وكلام الطيور والدوابِّ وغير ذلك ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ ولولا أنَّ الله تعالى يَدفعُ بعضَ الناس ببعضٍ ويَكُفُّ بهم فسادَهم، لغلبَ المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها من الحرث والنسل ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ بإزالة الفساد عنهم.

---

(١) المِخْلاة: ما يوضع فيه الخَلَى، وهو الرَّطْبُ من الحشيش.
(٢) أي: حَسَدَ طالوتُ داودَ.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾

٢٥٢- ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني القَصَصَ التي اقتصَّها من حديث الألوف وإماتتهم وإحيائهم، وتمليكِ طالوتَ وإظهارِهِ على الجبابرة على يد صبي ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين الذي لا يَشُكُّ فيه أهلُ الكتاب لأنه في كتبهم كذلك ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ حيث تُخبِرُ بها من غير أن تُعرَفَ بقراءة كتابٍ أو سماعٍ من أهله.

٢٥٣- ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ إشارةٌ إلى جماعةِ الرسل التي ذُكرت قِصَصُها في هذه السورة من ءادم إلى داود، أو التي ثبتَ علمُها عند رسول الله عليه الصلاة والسلام ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالخصائص وراءَ الرسالة لاستوائهم فيها كالمؤمنين يستوون في صفة الإيمان[(١)] ويتفاوتون في الطاعات بعد الإيمان، ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ منهم مَن فضّله الله بأن كلَّمَه من غير سَفيرٍ وهو موسى عليه السلام ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ يعني ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضلَ منهم بدرجاتٍ كثيرةٍ، وهو محمد ﷺ، لأنه هو المفضَّل عليهم بإرساله إلى الكافَّة، وبأنه أُوتِيَ ما لم يؤتَهُ أَحدٌ من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألفٍ أو أكثر، وأكبرُها القرءانُ لأنه المعجزةُ الباقية على وَجْهِ الدهر، وقيل أُريد به محمد وإبراهيم وغيرهما مِن أولي العزم من الرسل ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ كإحياء الموتى وإبراء الأكمهِ والأبرص وغير ذلك ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾

---

(١) يعني أَصلَ الإيمان، ليس مراده أنه لا يزيد أَحدٌ على أحدٍ في الإيمان. الحنفية يقولون: أصلُ الإيمان لا يزيد ولا ينقص، أي أقل ما يَصْدُق عليه أصلُ الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾

قوَّيناهُ بجبريلَ، أو بالإنجيل ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ مِن بَعدِ الرسل [أي أُمَمُهم] ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ المعجزات الظاهرات ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ بمشيئتي، ثم بيَّن الاختلاف فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ بمشيئتي، يقول الله: أَجريْتُ أمورَ رُسُلي على هذا، أي لم يَجتمع لأحدٍ منهم طاعةُ جميعِ أُمته في حياته ولا بعدَ وفاته، بل اختلفوا عليه، فمنهم من ءامن ومنهم من كفر ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ كَرَّرَهُ للتأكيد، أي لو شئتُ أَلَّا يقتتلوا لم يقتتلوا، إذ لا يجري في مُلكي إلا ما يوافق مشيئتي، وهذا يُبطل قول المعتزلة لأنه أخبر أنه لو شاء أَلَّا يقتتلوا لم يقتتلوا، وهم يقولون شاء أَلَّا يقتتلوا فاقتتلوا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ أثبتَ الإرادةَ لنفسه كما هو مذهب أهل السنة.

٢٥٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ في الجهاد في سبيل الله، أو هو عامٌّ في كل صدقةٍ واجبةٍ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ من قبل أن يأتي يومٌ لا تقدرون فيه على تدارُك ما فاتكم من الإنفاق، لأنه لا بيعٌ فيه حتى تبتاعوا ما تنفقونه ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ حتى يُسامِحَكم أَخِلَّاؤُكُم به ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ للكافرين، فأما المؤمنون فلهم شفاعة، أو إلا بإذنه(١) ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ أنفُسَهم بتركهم التقديمَ ليوم حاجاتهم.

٢٥٥- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ الباقي الذي لا سبيلَ عليه للفناء ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الدائمُ القيامِ بتدبير الخلق وحِفْظِهِ ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ نُعاسٌ

---

(١) أي: أو يكون المعنى أنه لا شفاعةَ إلا بإذن الله، ولا إذنَ مِنَ الله تعالى بالشفاعة إلا للمؤمنين.

﴿وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ﴾

وهو ما يتقدَّمُ النومَ من الفُتور ﴿وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ مِلْكًا ومُلكًا ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ ليس لأحد أن يشفع عنده إلا بإذنه، وهو بيان لمَلَكُوتهِ وكبريائه، وأنَّ أحدًا لا يَتمالَكُ أن يتكلمَ يومَ القيامة إلا إذا أَذِنَ له في الكلام، وفيه ردٌّ لزعم الكفار أنّ الأصنام تشفع لهم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ﴾ ما كان قَبْلَهم وما يكون بعدَهم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ من مَعْلُومِهِ ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [أن يُعلِمهم به من المعلومات] ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ﴾ [الكرسي] سريرٌ[1] دون العرش. في الحديث: «**ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاةٍ بفلاةٍ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة**»[2] ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ ولا يُثقِلُه ولا يَشُقُّ عليه ﴿حِفْظُهُمَاۚ﴾ حِفظُ السمٰوات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ في مُلكِه وسُلطانه ﴿ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ في عِزِّهِ وجلاله، أو العليُّ المتعالي عن الصفات التي لا تليق به، العظيمُ المتصف بالصفات التي تليق به، فهما جامعان لكمال التوحيد، روي عن النبي ﷺ: «**من قرأ آيةَ الكرسي في دُبُرِ كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت**».

٢٥٦- ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ﴾ [قيل: هذا نفيٌ، ومعناه أن الإيمان لا

---

(١) كرسيه هو هذا الذي يوضع تحت السرير.

(٢) هذا الحديث بيانُ كمالِ قدرة الله تعالى في خلق الأشياء العظيمة من غير حاجة إلى شيء من ذلك، وسريرُ الخلق للجلوس عليه، والكرسي لوضع القدمين عليه، تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا، كما أن بيت الخلق للسُّكنى فيه، والله تعالى جعل الكعبةَ بيتَه، والمساجدَ بيوتَه، ويتعالى عن أن يسكنها عُلوًّا كبيرًا.

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ
ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى
ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾

يكون عن الإكراه، بل الإيمانُ الحقيقيُّ هو التصديق بالقلب مع الاعتراف باللسان والتصديق بالقلب لا يكون بالإكراه]، وقيل هو إخبار في معنى النهي، وكان هذا في الابتداء ثم نسخ بالأمر بالقتال[1] ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ قد تميّز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ بالشيطان أو الأصنام ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ تَمسَّك ﴿بِٱلْعُرْوَةِ﴾ المُعْتصَم والمُتَعَلَّقِ ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾ تأنيث الأَوثقِ أي الأَشدِّ، منَ الحبل الوثيق المُحْكَم المأمون ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع للعروة، وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر، والاستدلال بالمُشاهَد المَحسوس حتى يتصوَّرَه السامعُ كأنه ينظر إليه بعينه فَيُحكِمَ اعتقادَه، والمعنى فقد عَقَدَ لنفسه من الدين عَقدًا وثيقًا لا تَحُلُّه شبهة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لإقراره ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ باعتقاده.

٢٥٧- ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أرادوا أن يؤمنوا، أي ناصِرُهم ومتولّي أُمورِهم ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ من ظلمات الكفر والضلالة ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الإيمان والهداية ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ والذين صَمَّموا على الكفر أَمْرُهم على عكس ذلك، أو اللهُ وليُّ المؤمنين يُخرجهم من الشُّبهة في الدين إن وقعت لهم بما يَهديْهم ويوفِّقُهم له من حَلّها حتى يخرجوا منها إلى نور

---

(١) بقوله عليه الصلاة والسلام: «**أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إلٰه إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابهم على الله تعالى**». وقال بعضهم في تفسير الآية: أي أنت يا محمد لا تستطيع أن تكره القلوب على الإيمان، وقال بعضهم: أي ليس لك أن تكره الذين يدفعون الجزية ما داموا يدفعونها ويخضعون لسُلطة الإسلام، أي يلتزمون الشروط.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾

اليقين، والذين كفروا أولياؤهم الشياطين يُخرجونهم من نور البينات الذي يظهر لهم إلى ظلمات الشك والشُّبهة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾.

ثم عجَّب نبيه عليه الصلاة والسلام وسلَّاه[1] بمجادلة إبراهيم عليه السلام نُمرودَ الذي كان يدَّعي الربوبية بقوله:

٢٥٨- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ في معارضته ربوبيةَ ربِّه ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ يعني أن إيتاءَ المُلك أَبطَرَه وأورثه الكِبْرَ، فحاجَّ لذلك، وهو دليل على المعتزلة في الأصلح ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ كأنه قال له: مَنْ ربُّك؟ قال: ربي الذي يُحيي ويُميت ﴿قَالَ﴾ نمرودُ ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ يريد أعفو عن القتل وأَقْتُل، فزاد إبراهيمُ عليه السلام ما لا يتأتَّى فيه التلبيسُ على الضَّعَفة حيث ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ وهذا ليس بانتقالٍ من حُجة إلى حجة كما زعم البعض، لأن الحجة الأُولى كانت لازمةً تامة، ولكن لمَّا عانَدَ اللعينُ حُجة الإحياء بتَخْليةِ واحدٍ وقتلِ ءاخر، كلَّمه من وجهٍ لا يُعانَدُ. [قيل: إنما لم يَدَّعِ أنه هو الذي يأتي بها من المشرق لظهور كذبه لأهل مملكته، إذ يعلمون أنه مُحدَثٌ، والشمس كانت تطلُع من المشرق قبل حدوثه، ولم يقل أنا ءاتي بها من المغرب لعِلمِه بعجزه] ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ تَحَيَّرَ ودَهِشَ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ لا يُوفِّقهم، وقالوا: إنما لم يَقُل

---

(١) أي: خَفَّفَ عنه.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾

نُمرودُ: فليأتِ ربُّكَ بالشمس من المغرب، لأن الله تعالى صرفَه عنه، وقيل: إنه كان يدَّعي الربوبية لنفسه وما كان يعترف بالربوبية لغيره، والآية تدل على إباحة التكلم في علم الكلام والمناظرةِ فيه، لأنه قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾، والمُحاجَّةُ تكون بين اثنين، فدل على أنَّ إبراهيم حاجَّه أيضًا، ولو لم يكن مباحًا لَمَا باشرها إبراهيمُ عليه السلام، ولأنَّا أُمرنا بدعاء الكفرة إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإذا دعوناهم إلى ذلك لا بد أن يطلبوا مِنَّا الدليل على ذلك وذا لا يكون إلا بعد المناظرة.

٢٥٩- ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ﴾ معناه: أو أرأيت مثلَ الذي مرَّ، تقديره: أرأيت كالذي حاجَّ إبراهيمَ أو كالذي مَرَّ، والأكثر أنه عُزيرٌ أراد أن يُعاين إحياء الموتى ليزداد بَصيرة كما طلبَه إبراهيمُ عليه السلام، ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ هي بيتُ المقدس حين خَرَّبَه بُخْتَنَصَّرُ ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقطت السقوفُ ثم سقطت عليها الحيطان، وكل مرتَفِعٍ عرشٌ ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [أي كيف يُحيي اللهُ أهلَ هذه القرية بعد موتهم، ولم يَشُكَّ في البعث ولكنه أحب أن يرى كيف يُحيي الله الموتى] ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أي أَحياهُ ﴿قَالَ﴾ له مَلَكٌ ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناءً على الظنّ، روي أنه مات ضحًى وبُعِثَ بعد مائة سنةٍ قبل غيبوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس: يومًا، ثم التفتَ فرأى بقيةً من الشمس فقال: أو بعضَ يوم ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ روي أن طعامَه كان تينًا وعنبًا، وشرابَه عصيرًا ولبنًا، فوجد التين والعنب والشرابَ على حاله ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير، لم تُغيّره السِّنون ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾

﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾

كيف تفرَّقت عظامه ونَخِرَت، وكان له حمار قد ربطه فمات وتفتَّتت عظامه، أو وانظر إليه سالمًا في مكانه كما ربطته، وذلك من أعظم الآيات أن يعيش مائة عام من غير عَلَفٍ ولا ماءٍ كما حُفظ طعامه وشرابه من التغيُّر ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ﴾ فعلنا ذلك، يريد إحياءَه بعد الموت وحِفظَ ما معه. قيل: أَتى قومَه راكبًا حمارًا وقال: أنا عُزيرٌ، فكذَّبوه، فقال: هاتوا التوراةَ، فأَخذَ يقرؤها عن ظَهرِ قلبهِ، لم يقرأ التوراة ظاهرًا أَحدٌ قبلَ عُزيرٍ، فذلك كونُه ءايةً، وقيل: رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخًا وهو شابٌّ ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ عظامِ الحمار، أو عظامِ الموتى الذين تَعَجَّب من إحيائهم ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ نُحَرِّكُها ونرفَعُ بعضَها إلى بعضٍ للتركيب ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾ أي العظامَ ﴿لَحْمًاۚ﴾ جُعل اللحمُ كاللباس مجازًا ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ فلما تبيّن له أن الله على كل شيء قدير[1]، [أي فلمَّا ظهر له إحياء الميت عِيانًا] ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [من إحياء الموتى وغيره].

٢٦٠- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي﴾ بَصِّرني ﴿كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ﴾ وإنما قال له: أَوَلَم تؤمن، وقد علِمَ أنه أثبتُ الناس إيمانًا، ليجيبَ بما أَجابَ به لِمَا فيه من الفائدة الجليلة للسامعين، و﴿بَلَىٰ﴾ إيجابٌ لِمَا بعد النفي معناه بلى ءامنتُ ولكن لأزيد سكونًا وطُمأنينة بمُضَامَّةِ عِلْمِ الضرورة عِلْمَ الاستدلال، وتظاهُرُ الأدلة أَسكنُ للقلوب وأزيدُ للبصيرة، تقديره: ولكن سألت ذلك إرادة طُمأنينة القلب ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ طاووسًا وديكًا وغُرابًا

---

(١) ليس معناه أنه ما كان موقنًا بقدرة الله على كل شيء، إنما معناه التَّبيُّن بطريق الحِسّ.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ
ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ
سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾

وحَمَامةً ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ اضمُمْهُنَّ إليك ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ثم جَزِّئْهُنَّ وفرّق أجزاءَهن على الجبال التي بحضرتك وفي أرضك وكانت أربعةَ أجبُلٍ أو سبعةً ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ قل لهن: تعالَيْنَ بإذن الله ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ﴾ ساعياتٍ مسرعاتٍ في طيرانِهن أو في مَشيهنّ على أَرجلهن، وإنما أَمره بضَمِّها إلى نفسه بعدَ أخذِها ليتأمَّلَها ويعرفَ أشكالَها وهيئاتِها وحِلاها[1]، لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء ولا يتوهَّمَ أنها غيرُ تلك، ورُوي أنه أُمر بأن يذبحها وينتفَ ريشها ويُقطِّعها ويُفرّق أجزاءَها ويخلِطَ ريشَها ودماءَها ولحومَها وأن يُمسك رؤوسها، ثم أُمِرَ أن يجعلَ أجزاءها على الجبال، على كل جبل ربعًا من كل طائر ثم يصيحَ بها: تعالَين بإذن الله تعالى، فجعَلَ كلُّ جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جُثثًا، ثم أقبلْنَ فانضمَمْنَ إلى رؤوسهن كلُّ جثةٍ إلى رأسها ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يمتنع عليه ما يريده ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ فيما يُدَبِّر لا يفعل إلا ما فيه الحكمةُ.

ولمَّا برهن على قدرته على الإحياء حثَّ على الإنفاق في سبيل الله، وأعلم أنّ من أنفق في سبيله فله في نفقته أجر عظيم وهو قادر عليه، فقال:

٢٦١ - ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي مَثَلُ نفقتهم ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ المُنبِتُ هو الله، ولكنَّ الحبةَ لمَّا كانت سببًا أُسند إليها الإنبات كما يُسنَد إلى الأرض وإلى الماء، ومعنى إنباتها سبعَ سنابلَ أن تُخرج ساقًا يتشعَّبُ منه سبعُ

---

(١) حِلاها: صفاتها.

﴿وَاللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا
يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًىۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

شُعَب، لكل واحدٍ سُنبلة، وهذا التمثيل تصوير للأَضعاف كأنها ماثلةٌ بين عيني الناظر، والمُمَثَّلُ به موجود في الدُّخن[١] والذرة، وربما فرَّخت ساق البُرَّة في الأرض القوية المُغِلَّةِ[٢] فيبلُغ حَبُّها هذا المبلغَ، على أنّ التمثيل يصحُّ وإن لم يوجد على سبيل الفرض والتقدير ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ يضاعف تلك المضاعفةَ لمن يشاء، لا لكل مُنفقٍ لتفاوت أحوال المنفِقين، أو يزيد على سبعمائةٍ لمن يشاء ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ واسع الفضل والجود ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ بِنيّات المنفقين.

٢٦٢- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا﴾ هو أن يَعْتَدَّ على من أحسنَ إليه بإحسانه ويُرِيَهُ أنه اصطنعهُ وأوجبَ عليه حقًّا له، وكانوا يقولون: إذا صَنعتُم صَنيعةً فانسَوْها ﴿وَلَآ أَذًىۙ﴾ هو أن يتطاول عليه بسبب ما أعطاه ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثوابُ إنفاقهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِن بَخْسِ الأجرِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ مِن فَوْتِهِ، أو لا خوفٌ من العذاب ولَا حُزْنٌ بِفَوْتِ الثواب.

٢٦٣- ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ ردٌّ جَميلٌ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وعَفْوٌ عن السائل إذا وَجَدَ منه ما يُثقِلُ على المسؤول، أو ونَيلُ مغفرةٍ من الله بسبب الردِّ الجميل ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ﴾ [أي الرد الجميل بالمعروف خير من أن تتصدق وتَمُنَّ وتؤذِيَ] ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ لا حاجَةَ له إلى مُنفقٍ يَمُنُّ ويؤذي ﴿حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ عن معاجَلته بالعقوبة، وهذا وعيد له، ثم أكَّد ذلك بقوله:

---

(١) الدُّخن: حَبٌّ أملس يابس حابس للطبع، وقيل: هو نوع من الذرة.
(٢) المُغِلَّةُ: الكثيرةُ الرَّيع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ﴾

٢٦٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي﴾ مِثْلَ إبطالِ الذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ لا تُبطلوا ثواب صدقاتكم بالمَنِّ والأذى كإبطال المنافق الذي يُنفق ماله رئاءَ الناس، ولا يريد بإنفاقه رضا الله ولا ثوابَ الآخرة ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾ مَثَلَهُ ونفقَتَهُ التي لا يَنتفعُ بها ألبتَّةَ بحجرٍ أَملسَ عليه تراب ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾ مَطرٌ عظيمُ القَطْرِ ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾ أجرَدَ نقيًّا من التراب الذي كان عليه ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ لا يجدونَ ثوابَ شَيءٍ مما أنفقوا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ ما داموا مختارينَ الكفر.

٢٦٥- ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ وتصديقًا للإسلام وتحقيقًا للجزاء مِن أَصلِ أنفسهم، لأنه إذا أنفَقَ المسلم مالَهُ في سبيل الله عُلِمَ أنّ تصديقَه وإيمانَه بالثواب من أَصلِ نفسِه ومن إخلاصِ قلبِه، والمعنى: ومَثَلُ نفقةِ هؤلاء في زَكاتها عند الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ﴾ بستانٍ ﴿بِرَبۡوَةٍ﴾ مكانٍ مرتفع، وخصَّها لأن الشجر فيها أزكى وأَحسَنُ ثَمرًا ﴿أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ ثَمرَتَها ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ مِثْلَيْ ما كانت تُثمِرُ قبلُ بسبب الوابل ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ﴾ فمطرٌ صغيرُ القَطْرِ يكفيها لكَرَمِ منبتِها، وكما أنّ كلَّ واحد من المَطَرين يُضعّف أُكُلَ الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرةً كانت أو قليلةً بعد أن يُطلَبَ بها رضا الله تعالى زاكيةٌ

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾

عند الله زائدةٌ في زُلفاهم[1] وحُسنِ حالهم عنده ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾[2] يرى أعمالَكم على إكثارٍ وإقلال، ويعلم نِيَّاتِكم فيهما من رياءٍ وإخلاصٍ.

٢٦٦- الهمزة في ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ﴾ للإنكار ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ﴾ بستانٌ ﴿مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ﴾ لصاحِبِ البستان ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يريد بالثمراتِ المنافعَ التي كانت تحصلُ له فيها، أو أنّ النخيل والأعناب لمَّا كانا أكرمَ الشجر وأكثرَها منافعَ خَصَّهما بالذِّكر وجعلَ الجنةَ منهما وإن كانت محتويةً على سائر الأشجار تغليبًا لهما على غيرهما، ثم أردفَهما ذكرَ كلِّ الثمرات ﴿وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ﴾ معناه أن تكون له جنةٌ وقد أصابَهُ الكِبَرُ ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ﴾ أولادٌ صغارٌ ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ﴾ ريحٌ تستديرُ في الأرض ثم تَسْطِعُ[3] نحوَ السماء كالعمود ﴿فِيهِ نَارٞ﴾ [في الإعصار نار] ﴿فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾ الجنةُ [أي: البستان]، وهذا مَثَلٌ لمن يعملُ الأعمالَ الحسنة رياءً، فإذا كان يومُ القيامة وَجَدَها مُحْبَطَةً، فيتحسَّرُ عند ذلك حسرةَ مَنْ كانت له جنةٌ جامعة للثمار فبلغ الكِبَرَ وله أولاد ضعاف، والجنة معاشُهم، فهَلَكت بالصاعقة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كهذا البيان الذي بُيِّن فيما تقدم ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ في التوحيد والدين ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾ فتنتبهوا.

---

(١) الزلفى: القرب.
(٢) هذه الجملة دليل على أن الله تعالى يرى الأجسامَ والمعانيَ، وهو مذهب الأشاعرة، أي أن الله يرى كل موجود.
(٣) تَسْطِعْ: ترتفع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾

٢٦٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ من جيادِ مكسوباتِكم، وفيه دليل وجوبِ الزكاة في أموال التجارة ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ منَ الحَبّ والثمَر والمعادن وغيرِها ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾ ولا تقصِدوا المالَ الرديء ﴿مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ تخصُّونه بالإنفاق، ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ وحالُكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم[1] ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ إلا بأن تتسامَحوا في أَخذه وتترخَّصوا فيه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يتصدقون بحَشَفِ التمر[2] وشِراره فنُهوا عنه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم ﴿حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ مُستحِقٌّ للحَمْدِ أو محمودٌ.

٢٦٨- ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ﴾ في الإنفاق ﴿ٱلۡفَقۡرَ﴾ ويقول لكم: إنَّ عاقبةَ إنفاقِكُم أن تفتَقِروا، والوعدُ يُستعملُ في الخير والشر ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ ويُغريكم على البُخلِ ومنع الصدقات إغراء الآمر للمأمور، والفاحش عند العرب البخيل ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ في الإنفاق ﴿مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ﴾ لذنوبكم وكفارةً لها ﴿وَفَضۡلٗاۗ﴾ وأن يُخلِفَ عليكم أفضلَ مما أَنفقتم، أو وثوابًا عليه في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ يُوسِّعُ على من يشاء ﴿عَلِيمٞ ٢٦٨﴾ بأفعالكم ونيَّاتكم.

٢٦٩- ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ عِلْمَ القرءانِ والسُّنةِ، أو العلمَ النافعَ المُوصِلَ إلى رضا الله والعملِ به، والحكيمُ عند الله هو العالمُ

---

(١) أي: إن كان لكم حقٌّ على أحد في جنسه لا تأخذونه بما لكم عليه.
(٢) حَشَفُ التمر: اليابسُ الفاسدُ منه الذي لا طعم ولا حلاوة له.

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ
أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ
هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾

العامل ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ومن يؤتِهِ اللهُ الحِكمَةَ ﴿فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ وما يتَّعظُ بمواعظِ الله إلا ذَوُو العقول السليمة، أو العلماءُ العُمَّال، والمراد به الحَثُّ على العمل بما تَضمَّنت الآيُ في معنى الإنفاق.

٢٧٠- ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ في طاعة الله أو في معصيته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ لا يَخفَى عليه، وهو مُجازيكم عليه ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يمنعون الصدقاتِ، أو يُنفقون أموالَهم في المعاصي، أو يَنْذُرون في المعاصي، أو لا يَفُونَ بالنذور ﴿مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ مِمَّن ينصُرهم من الله ويمنَعُهم من عقابه.

٢٧١- ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ فَنِعْمَ شيئًا إبداؤها ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ وتُصيبوا بها مَصارفَها مع الإخفاء ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فالإخفاءُ خير لكم، والمراد صدقاتُ التطوع، والجهرُ في الفرائض أفضلُ لنفي التُّهَمَة، حتى إذا كان المُزَكّي ممن لا يُعرف باليَسَار كان إخفاؤهُ أفضلَ، والمتطوع إن أراد أن يُقتدى به كان إظهارُهُ أفضلَ ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ يُكفّرُ اللهُ ﴿عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإبداءِ والإخفاءِ ﴿خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ عالِم.

٢٧٢- ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ ليس عليك التوفيق على الهدى، أو خَلْقُ الهدى إلى الانتهاء عمَّا نُهوا عنه من المَنّ والأذى والإنفاق من الخبيث وغير ذلك، وما عليك إلا أن تُبَلّغَهم النواهيَ فَحَسْبُ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٖ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ
وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٖ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ
ٱلتَّعَفُّفِ﴾

يَهْدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ وإنما ذلك إلى الله ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٖ﴾ من مالٍ ﴿فَلِأَنفُسِكُمْۚ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم، فلا تَمُنُّوا به على الناس ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ﴾ وليست نفقتكم إلا ابتغاءَ وجهِ الله أي رضا اللهِ، ولطلبِ ما عِندَهُ، فما بالُكم تمنُّون بها وتنفقون الخبيث الذي لا يُوجَّهُ مِثلُهُ إلى الله، أو هذا نفيٌ معناه النهيُ أي ولا تُنفقوا إلا ابتغاءَ وجهِ الله ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٖ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابُهُ أضعافًا مضاعفةً، فلا عذرَ لكم في أن ترغَبوا عن إنفاقه وأن يكون على أحسنِ الوجوه وأجملِها ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ ولا تُنْقَصُون.

٢٧٣- ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ اعمِدُوا للفقراء، أو هذه الصدقاتُ للفقراء ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم الذين أَحصَرَهم الجهاد فمنَعَهم من التصرف ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به ﴿ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للكَسْب، وقيل: هم أصحابُ الصُّفَّةِ، وهم نحوٌ من أربعمائة رجل من مهاجري قريشٍ، لم تكن لهم مساكنُ في المدينة ولا عشائر، فكانوا في صُفّة المسجد - وهي سَقيفته - يتعلّمون القرءان بالليل ويَرْضَخُونَ النَّوى[1] بالنهار، وكانوا يخرجون في كل سَرِيَّة بعثها رسول الله ﷺ فمن كان عنده فضلٌ[2] أتاهم به إذا أَمسى ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ مستغنينَ من أجل تَعَفُّفهم

---

(١) أي: يكسرونها ويأخذون أجرةً على ذلك.
(٢) أي: من طعام أو شراب.

﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ
عَلِيمٌ ٢٧٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ
أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ
ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾

عن المسألة ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ من صُفْرَةِ الوجوه وَرَثاثَةِ الحال ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ إلحاحًا، إن سألوا سألوا بتلطُّف ولم يُلِحّوا ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾ لا يَضيع عنده.

٢٧٤- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ مُسِرِّين ومُعلِنين، يعني يَعُمُّون الأوقات والأحوال بالصدقة لحِرصِهم على الخير، فكلَّما نزلت بهم حاجةُ محتاجٍ عَجَّلوا قضاءَها ولم يؤخِّروه، ولم يتعلّلوا بوقتٍ ولا حالٍ، وقيل: نزلت في أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه حين تصدّق بأربعينَ ألفَ دينار، عشرةٍ بالليل وعشرةٍ بالنهار، وعشرةٍ في السِّرّ وعشرةٍ في العلانية، أو في عليّ رضي الله عنه لم يَملِكْ إلا أربعةَ دراهم تصدّق بدرهم ليلًا وبدرهم نهارًا، وبدرهم سرًّا وبدرهم علانية ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾.

٢٧٥- ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ هو فَضْلُ مالٍ خالٍ عن العوض في معاوضة مالٍ بمالٍ ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بُعثوا من قبورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي المصروعُ، لأنه تَخبَّطَ في المعاملة فجُوزِيَ على المقابلة، والخَبْطُ: الضرب على غير استواءٍ كخبط العشواء[1] ﴿مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ من الجنون، والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة مُخَبَّلين كالمصروعين، تلك سيماهم يُعرَفون بها عند أهل الموقف، وقيل:

---

(١) العشواء في المَثَل: هي الناقة الضعيفة البصر التي لا تبصر أمامها فتضرب بيديها إذا مشت لا تتوقّى شيئًا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

الذين يخرجون من الأجداث يُوفِضون[١] إلا أكلة الربا، فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين لأنهم أكلوا الربا فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرون على الإيفاض ﴿ذَٰلِكَ﴾ العقاب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ قد بلغ من اعتقادهم في حِلّ الربا أنهم جعلوه أصلًا وقانونًا في الحِلّ حتى شَبَّهوا به البيع ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ إنكار لتسويتهم بينهما، إذ الحِلُّ مع الحُرمة ضِدّان، فأنّى يتماثلان ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فمن بَلَغَه وَعْظٌ من الله، وزَجْرٌ بالنهي عن الربا ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ فتبع النهيَ وامتنع ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ فلا يؤاخَذُ بما مضى منه، لأنه أخذ قبل نزول التحريم ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَحكُم في شأنه يومَ القيامة، وليس من أَمرِهِ إليكم شيءٌ[٢]، فلا تطالبوه به ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى الربا مستحِلًّا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ لأنهم بالاستحلال صاروا كافرين، لأنَّ مَن أحلَّ ما حرَّم الله عزَّ وجلَّ فهو كافر، فلذا استحقَّ الخلود.

٢٧٦- ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ يَذهَبُ ببركته ويُهلك المالَ الذي يَدخُل فيه ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يُنَمّيها ويزيدُها أي يزيدُ المال الذي أُخرجت منه الصدقةُ ويباركُ فيه ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ عظيم الكفرِ باستحلال الربا ﴿أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ مُتَمادٍ في الإثم بأكله.

٢٧٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

---

(١) يوفضون: مِن وَفَضَ، عدا وأسرع، والأجداثُ: القبور.
(٢) فإن توبته لا يَعلَمُ حقيقتها إلا هو، فيغفر له أو يُعذِّبه على حسب ذلك.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ
وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ
فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ
فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ قيل: المراد به الذين ءامنوا بتحريم الربا.

٢٧٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ أَخذوا ما شَرَطوا على الناس من الربا وبقيت لهم بقايا، فأُمروا أن يتركوها ولا يطالِبوا بها. روي أنها نزلت في ثقيفٍ، وكان لهم على قوم من قريشٍ مالٌ فطالبوهم عندَ المَحِلِّ[1] بالمال والربا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ كاملي الإيمان، فإن دليلَ كماله امتثالُ المأمور به.

٢٧٩- ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فاعلموا بها، مِنْ أَذِنَ بالشيء إذا علم به، أي فأْذَنوا بنوع من الحرب عظيمٍ من عندِ اللهِ ورسوله، وروي أنها لما نزلت قالت ثقيفٌ: لا طاقةَ لنا بحربِ الله ورسوله ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الارتباء[2] ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ المَديونينَ بطلبِ الزيادة عليها ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ بالنقصان منها.

٢٨٠- ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ وإن وقَعَ غريمٌ من غُرَمائكم ذو إعسار ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ أي إنظار ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ يسارٍ ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾ تتصدقوا برؤوس أموالكم أو ببعضها على مَن أَعسَرَ مِن غرمائكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في القيامة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ أنه خير لكم فتعملوا به.

٢٨١- ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قيل: هي ءاخرُ ءايةٍ نزلَ

---

(١) أي: وقتَ حُلول الأجل.
(٢) أي: مِن فِعلِ الرِّبا.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ
كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ
شَيْـًٔاۚ﴾

بها جبريلُ عليه السلام، وقال: ضَعْها في رأسِ المائتين والثمانين من البقرة، وعاش رسول الله ﷺ بعدها أحدًا وعشرين يومًا أو أحدًا وثمانين أو سبعة أيام أو ثلاث ساعاتٍ ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاءَ ما كسبت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ بنُقصانِ الحسنات وزيادةِ السيئات.

٢٨٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ إذا داينَ بعضُكم بعضًا مُعطيًا أو ءاخذًا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مدةٍ معلومةٍ ﴿فَٱكْتُبُوهُۚ﴾ وإنما أمرَ بكتابة الدَّين لأنَّ ذلك أوثَقُ وءامَنُ من النسيان وأبعدُ من الجُحود، والمعنى إذا تعاملتم بدَين مؤجَّل فاكتبوه، والأمر للندب، وعن ابن عباس أن المراد به السَّلَمُ ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ﴾ بين المُتداينَين ﴿كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ كاتبٌ مأمون على ما يَكتب، يكتب بالاحتياط لا يزيدُ على ما يجبُ أن يُكتَبَ ولا يَنقُصُ، وفيه دليل [على] أن يكون الكاتب فقيهًا عالمًا بالشروط حتى يجيءَ مكتوبُه مُعَدَّلًا بالشرع، وهو أمر للمتداينَين بتخيُّر الكاتب وألَّا يَستكتبوا إلا فقيهًا دَيِّنًا حتى يكتب ما هو متفق عليه ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ ولا يمتنعْ واحدٌ من الكُتّاب ﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ مثلَ ما علَّمَه الله كِتابَةَ الوثائق، لا يُبدِّلْ ولا يُغيّرْ ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة لا يَعدلْ عنها ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ ولا يكنِ المُمْلِي إلا مَن وَجَبَ عليه الحقُّ، لأنه هو المشهود على ثباته في ذِمَّته وإقراره به فيكونُ ذلك إقرارًا على نفسه بلسانه، والإملالُ والإملاءُ لغتان ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ وليتقّ الذي عليه الدَّينُ رَبَّهُ فلا يمتنعْ عن الإملاء فيكونَ جَحودًا لكل حقه ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ﴾ ولا يَنْقُص من الحق

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ﴾

الذي عليه شيئًا في الإملاء فيكونَ جَحودًا لبعض حقه ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا﴾ مجنونًا لأنَّ السَّفَهَ خِفَّةٌ في العقل، أو محجورًا عليه لتبذيره وجَهْلِه بالتصرف ﴿أَوۡ ضَعِيفًا﴾ صبيًّا ﴿أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لِعِيٍّ به أو خَرَسٍ أو جهلٍ باللغة ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ﴾ الذي يلي أَمْرَه ويقومُ به ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ بالصدق والحق ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾ واطلبوا أن يَشهدَ لكم شهيدان على الدَّين ﴿مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ من رجال المؤمنين. والحريةُ والبلوغُ شرطٌ مع الإسلام، وشهادة الكفار بعضِهم على بعضٍ مقبولة عندنا ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا﴾ فإن لم يكن الشهيدان ﴿رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾ فليشهَدْ رجلٌ وامرأتان ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ ممّن تَعرفون عدالتَهم ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ لأجل أن [إحداهُما إن ضلَّت الشهادةَ بأن نسيَتها ذكَّرتها الأخرى] ﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ لأَداءِ الشهادة أو للتحمُّل، فالأول للفرضِ والثاني للنَّدْب ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ﴾ ولا تَملُّوا ﴿أَن تَكۡتُبُوهُ﴾ للدَّين أو الحق ﴿صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا﴾ على أي حالٍ كان الحق من صِغَرٍ أو كِبَر ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ﴾ إلى وقته الذي اتفقَ الغَريمان على تسميته ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ ذلك الكَتْبُ ﴿أَقۡسَطُ﴾ أعدَلُ ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ وأَعونُ على إقامة الشهادة ﴿وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ﴾ وأقربُ من انتفاء الرَّيْبِ للشاهد والحاكم وصاحبِ الحق، فإنه قد يقعُ الشك في المقدار والصفات وإذا رجعوا إلى المكتوب زالَ ذلك ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ﴾ إلا أن تكون المعاملةُ تجارةً حاضرةً ﴿تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ﴾ ومعنى إدارتِها بينَهم تَعاطيها يدًا بيد ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ﴾

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ۞وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقْبُوضَةٞۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضٗا﴾

يعني إلا أن تتبايعوا بيعًا ناجزًا[1] يدًا بيدٍ، فلا بأس ألَّا تكتبوها، لأنه لا يُتوهَّم فيه ما يُتوهم في التداين ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ﴾ أمرٌ بالإشهاد على التبايع مطلقًا، ناجزًا أو كالِئًا[2]، لأنه أحوطُ وأبعدُ من وقوع الاختلاف، أو أُريد به وأَشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايعَ، يعني التجارةَ الحاضرة، على أنّ الإشهاد كافٍ فيه دون الكتابة، والأَمرُ للندب ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ والمعنى نَهيُ الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يُطلَبُ منهما وعن التحريف والزيادة والنقصان، أو النهي عن الضِّرار بهما بأن يُعْجَلا عن مُهِمّ[3] ويُلَزَّا[4]، أو لا يُعطَى الكاتب حقَّه من الجُعْلِ، أو يُحَمَّلَ الشهيد مؤنة مجيئه ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ وإن تُضارُّوا ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ فإن الضرار ﴿فُسُوقُۢ بِكُمْۗ﴾ مَأثَمٌ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ في مخالفة أَوامِره ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ شرائعَ دِينهِ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾﴾ لا يلحقه سَهْوٌ ولا قُصور.

٢٨٣- ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المتداينون ﴿عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ﴾ ولمَّا كان السفر مَظِنةً لإعوازِ[5] الكَتْبِ والإشهاد أُمِرَ على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال مَنْ كان على سفر بأن يُقيم التوثُّقَ بالارتهان مُقامَ التوثُّق بالكَتْب والإشهاد، لا أنَّ السفرَ شرطُ تجويز الارتهان ﴿مَّقْبُوضَةٞۖ﴾ يدلُّ على اشتراط القبض ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضٗا﴾

---

(١) أي: حاضرًا.
(٢) أي: مُؤجَّلًا.
(٣) أي: بأن يُلْجَئا إلى تركه قبل إتمامه.
(٤) أي: يُشدَّا ويُلصقا.
(٥) الإِعوازُ: الاحتياج.

﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

فإن أَمِنَ بعضُ الدائنين بعضَ المديونين بحُسْنِ ظنّه به فلم يَتَوَثَّق بالكتابة والشهود والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ دَينَه، وهو حثٌّ للمديون على أن يكون عندَ ظنّ الدائن، وسَمَّى الدّينَ أمانةً وهو مضمونٌ لائتمانه عليه بترك الارتهان منه ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في إنكار حَقّه ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ هذا خطابٌ للشهود ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ فإنه يأثَمُ قَلبُه، وإنما أُسنِدَ إلى القلب وحده والجملة هي الآثمة لأن كتمان الشهادة أن يُضمرَها في القلب ولا يتكلمَ بها ولأن القلب رئيس الأعضاء والمُضغةُ التي إن صَلَحت صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإن فسدت فسدَ الجسدُ كلّه؛ فكأنه قيل: فقد تمكَّن الإثم في أصل نفسه، ومَلَكَ أشرف مكانٍ منه، ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح، ألا ترى أنَّ أصلَ الحسناتِ والسيئات الإيمانُ والكفر، وهما من أفعال القلوب، وإذا جُعِلَ كتمان الشهادة من ءاثام القلوب، فقد شُهد له بأنه من مَعَاظِم الذنوب ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من كِتمان الشهادة وإظهارها ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ لا يخفى عليه شيء.

٢٨٤- ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَلقًا ومُلكًا ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ من السُّوءِ ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ يكافئكم ويجازِكم، ولا تدخل الوَساوسُ وحديثُ النفس فيما يُخفيه الإنسان، لأن ذلك مما ليس في وُسْعِه الخُلُوُّ منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه، والحاصلُ أنَّ عَزْمَ الكفرِ كفرٌ، وخَطْرَةَ الذنوب من غير عَزْمٍ مَعفُوَّةٌ، وعزمَ الذنوب إذا ندم عليه ورجعَ عنه واستغفر منه مغفور ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من المغفرة والتعذيب وغيرهما ﴿قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ قادر.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾

٢٨٥- ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [أي بوحي القرءان إليه، ولم يُرِد به حدوثَ الإيمان فيه بعد أن لم يكن؛ لأنه كان مؤمنًا بالله وبوحدانيته قبل الرسالة، ولا يجوز أن يوصف بغير ذلك، لكن أراد به الإيمان بالقرءان، فإنه ءامن به عندما نزل عليه] ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ كلُّ واحدٍ منهم ءامن، [وإيمان المؤمنين بكل هذه الأشياء كان بعد أن دُعوا إليها] ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ يقولون: لا نفرق بل نؤمن بالكل ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ أجبنا قولَكَ ﴿وَأَطَعْنَاۖ﴾ أَمرَك ﴿غُفْرَانَكَ﴾ اغفر لنا غفرانك ﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ المرجعُ، وفيه إقرار بالبعث والجزاء، والآية تدل على بطلان الاستثناء[(١)] في الإيمان، وعلى بقاء الإيمان لمرتكب الكبائر.

٢٨٦- ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ إلا طاقتَها وقُدرتَها، لأن التكليف لا يَرِد إلا بفعلٍ يَقدِرُ عليه المُكلَّف ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ ينفعُها ما كَسَبَت من خير، ويَضرُّها ما اكتسبت من شر، وخُصَّ الخير بالكَسْب والشرُّ بالاكتساب لأن الافتعال للانكماش[(٢)]، والنفس تنكمش في الشر وتتكلّف للخير ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾ تَركنا أمرًا من أَوامِركَ سهوًا ﴿أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ ودل هذا على جواز[(٣)]

(١) الحنفية يمنعون قول: «أنا مؤمن إن شاء الله»، أما الشافعية والجمهور فيجيزون ذلك على وجه التفويض.

(٢) الانكماش: الإسراع.

(٣) أي: عقلًا، ولكنَّ الله تعالى خفف عن هذه الأمة ورفع عنهم المؤاخذة بذلك، قال ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾

المؤاخذة في النسيان والخطإ خلافًا للمعتزلة، لإمكان التحرُّز عنهما في الجملة، ولولا جواز المؤاخذة بهما لم يكن للسؤال معنًى ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ عِبْأً يأصِرُ حامِلَه أي يحبسُه مكانَه لثِقَله [وهو العبادات الشاقَّة، والعقوبات العظيمة، والأحكام الشديدة] ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ كاليهود ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ من العقوبات النازلة بمن قبلنا ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ امْحُ سيئاتِنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ واستر ذنوبَنا، وليس بتكرارٍ، فالأول للكبائر والثاني للصغائر ﴿وَٱرْحَمْنَآۚ﴾ بتثقيل ميزاننا مع إفلاسنا، أو الأول من المَسْخِ، والثاني من الخَسْف، والثالثُ من الغَرَق ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ سيّدنا ونحن عبيدُك، أو ناصِرُنا، أو مُتولّي أُمورِنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ فَمِن [شأن] المولَى أن ينصر عبيده.

في الحديث: «**مَنْ قَرَأَ ءامَنَ الرسولُ إلى ءاخرِهِ في ليلةٍ كَفَتاهُ**» رواه البخاري ومسلم.

سورة ءال عمران
نزلت بالمدينة وهي مائتا ءاية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١-٢- ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۝٢﴾ [لفظ الجلالة] ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبره، والتقدير لا إلهَ في الوُجود إلا هو ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ هو القائم بالقِسطِ[١] والقائمُ على كلِّ نفس بما كسبَت.

٣- ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرءانَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ نزّلَه حقًّا ثابتًا ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لِمَا قبلَهُ ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ وإنما قيل نزّل الكتابَ وأنزل التوراةَ والإنجيلَ لأنّ القرءانَ نزل مُنَجَّمًا[٢] ونزلَ الكتابان جُملَةً.

٤- ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قَبلِ القرءان ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ لقوم مُوسى وعيسى أو لجميع الناسِ ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي جِنسَ الكُتُبِ لأنَّ الكل يَفرُقُ بين الحقّ والباطِل، أو كُرِّر ذِكر القرءان بما هو نعتٌ له تفخيمًا لشأنه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِن كُتبه المنزّلة وغيرِها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ ذو عُقوبة شديدةٍ لا يَقدِرُ على مثلها منتقِمٌ.

---

(١) القيوم تفسيرُه الدائم الذي لا يزول، هذا التفسير المناسب.
(٢) مُنَجَّمًا: مُتفرّقًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾

٥- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ أي في العالَم فعُبّر عنه بالسماءِ والأرضِ، أي هو مُطّلع على كفرِ من كفرَ، وإيمانِ من ءامنَ، وهو مجازِيهم عليه.

٦- ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من الصُّوَر المختلفةِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في سُلطانهِ ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ في تدبيرهِ. رويَ أنه لمَّا قَدِمَ وفدُ بني نجران[1]، وهم سِتون راكبًا، أميرُهُم العاقبُ[2]، وعمدَتُهُم السيدُ[3]، وأُسقُفُّهم وحَبْرُهم أبو حارِثة[4]، خاصَموا في أنَّ عيسى إن لم يكن ولدًا لله فمَن أبوه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ألستُم تعلمون أنه لا يكونُ ولدٌ إلا وهو يُشبهُ أباه؟**» قالوا: بلَى، قال: «**ألم تعلَموا أنَّ الله تعالى حيٌّ لا يموتُ، وعيسَى يموتُ، وأنَّ ربَّنا قيّم على العباد يحفظُهم ويرزُقهم، وعيسى لا يقدِرُ على ذلك، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرضِ ولا في السماء، وعيسى لا يعلم إلا ما عُلّم، وأنه صَوَّر عيسى في الرحم كيف شاء، فحملته أمه ووضعته وأرضعته، وكان يأكُلُ ويُحدِثُ، وربُّنا منزَّه عن ذلك كله**»، فانقَطَعوا، فنزل فيهم صدرُ سورةِ ءالِ عمرانَ إلى بِضع وثمانين ءايةً.

---

(١) هؤلاء عرب، لكن تبعوا الرّومَ الإفرنج، الروم كانوا يساعدونهم ويهتمون بهم لأنهم ليسوا من الروم بل عربٌ فرحوا بدخولهم في دينهم، فُتِنوا لأن الروم صارت تساعدهم وتعظمهم، ثم عقيدة النصارى دخلت فيهم؛ بعض أصحاب السّيرة يقولون إنهم صلَّوا في مسجد الرسول ﷺ مستقبلين الشرق فَهَمَّ بعض الصحابة بهم فقال لهم الرسول: دعوهم، وهذا كذبٌ، لم يحصل.

(٢) العاقب: اسمه عبد المسيح.

(٣) السيد: اسمه الأيهم.

(٤) أبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾

٧- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرءانَ ﴿مِنۡهُ﴾ من الكتاب ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ أُحكِمَت عبارتُها بأن حُفِظَت من الاحتمالِ والاشتباهِ ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أصل الكتاب تُحمل المتشابهات عليها وتُردُّ إليها ﴿وَأُخَرُ﴾ وءايات أُخَرُ ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ مشتبهاتٌ محتمِلات، مثالُ ذلك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [سورة طه] فالاستواءُ يكون بمعنى الجلوس وبمعنى القدرة والاستيلاءِ، ولا يجوز الأوّلُ على الله تعالى بدليل المحكَم وهو قولُه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ۝١١﴾ [سورة الشورى]، أو المحكَم ما أمَرَ الله به في كلّ كتاب أنزلَه نحوُ قولِه: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ ۝١٥١﴾ [سورة الأنعام] الآيات، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۝٢٣﴾ [سورة الإسراء] الآياتِ، والمتشابه ما وراءَه، أو ما لا يحتملُ إلا وجهًا واحدًا وما احتملَ أوجُهًا، أو ما يُعلمُ تأويلُه وما لا يُعلمُ تأويلُه، أو الناسخُ الذي يُعملُ به والمنسوخُ الذي لا يُعمَل به، وإنما لم يكن كل القرءان محكَمًا لِمَا في المتشابه من الابتلاء به، والتمييزِ بين الثابتِ على الحق والمتزلزِلِ فيه؛ ولِمَا في تقادُح العلماءِ وإتعابِهم القرائحَ في استخراج معانيه وَرَدِّه إلى المُحكَم من الفوائدِ الجليلة والعلُوم الجمّة ونَيْل الدرجاتِ عند الله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ مَيلٌ عن الحق، وهم أهلُ البِدَع[1] ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ﴾ فيتعلّقون بالمُتشابِهِ الذي يَحتملُ ما يَذهبُ إليه المبتَدِعُ مما لا يُطابِق المُحكَم، ويَحتَمِلُ ما يُطابقُه منْ قولِ أهلِ الحق ﴿مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ طلبَ أنْ يَفتِنوا الناسَ عن دينهم ويُضِلُّوهم ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ وطلبَ أن يُؤوّلوه التأويلَ الذي يشتَهُونه ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾

---

(١) البدع الاعتقادية.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا
تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾

لا [يَعلم][(١)] تأويله الحقَّ الذي يجبُ أن يُحمَل عليه إلا الله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ والذين رَسَخُوا أي ثَبتُوا فيه وتمَكّنوا وعَضُّوا فيه بضِرْسٍ قاطع، مستأنفٌ عند الجمهور، والوقفُ عندَهم على قوله ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾، وفسّروا المتشابهَ بما استأثرَ الله بعلمِهِ، وهو مبتدأ عندهم، والخبرُ ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وهو ثناءٌ منه تعالى عليهم بالإيمانِ على التّسليم واعتقادِ الحَقِّيَّة بلا تكييف، وفائدةُ إنزالِ المتشَابهِ الإيمانُ به، واعتقادُ حقيّة ما أرادَ الله به، ومعرفةُ قُصورِ أفهامِ البشرِ عن الوقوفِ على ما لم يَجعلْ لهم إليه سَبيلًا، ومنهم مَنْ لا يَقِفُ عليه ويقولُ بأنّ الراسخِينَ في العِلْم يعلَمونَ المتشابه و﴿يَقُولُونَ﴾ كلام مستأنف مُوضِحٌ لحال الراسخين، بمعنى: هؤلاء العالِمون بالتأويل يقولون ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بالمتشابه أو بالكتاب ﴿كُلّٞ﴾ منْ متشَابهِهِ ومُحكَمه ﴿مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ من عند الله الحكيمِ الذي لا يَتَناقَضُ كلامُهُ ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ وما يتّعِظ ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ أصحابُ العقولِ، وهو مَدْحٌ للراسخين بإلقاءِ الذّهْنِ وحُسْنِ التأمّل.

٨- ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا﴾ لا تُمِلْها عن الحقّ بخَلْق المَيْل في القلُوب ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ للعمَل بالمحكَم والتّسليم للمتشابه ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ﴾ مِنْ عندِكَ نِعمةً بالتّوفيق والتثبيت ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ كثيرُ الهِبة، والآيةُ مِنْ مَقُول الراسخين، وكذلك التي بَعدَها، وهي:

---

(١) في الأصل «يهتدي»، ويحمل على الاستثناء المنقطع أي إلا اللهُ يعلمُ، لأنه لا يقال عن الله يهتدي لأن الاهتداء لا يكون في الإطلاق إلا بعد جهل وضلال، والإجماع منعقد على أن ما لم يرد إطلاقه وكان موهمًا لا يجوز إطلاقه على الله عز وجل؛ كما قال ابن المُنَيِّر في كتابه الإنصاف.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ
ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ
ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدۡ كَانَ
لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم
مِّثۡلَيۡهِمۡ﴾

٩- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ﴾ تجمَعُهم لحِسَابِ يومٍ أو لجزاء يوم ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ لا شَكَّ في وقُوعهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ المَوْعِدَ، والمعنى أنّ الإلـٰهيةَ تُنافي خُلفَ الميعاد،أي لا يُخلِفُ ما وعد المسلمينَ والكافرينَ منَ الثوابِ والعِقاب.

١٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ برسولِ الله ﴿لَن تُغۡنِيَ﴾ تنفعَ أو تَدفعَ ﴿عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ منْ عذابهِ ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ منَ الإغناءِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ حَطَبُها.

١١- ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [دَأَبَ] في العملِ إذا كَدَحَ فيه، تقديرُهُ دَأْبُ هؤلاء الكفَرةِ في تكذيب الحقّ كَدَأْبِ مَنْ قبلَهم مِنْ ءالِ فرعونَ وغيرِهم ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ بسبب ذنوبهم ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ شديدٌ عِقَابُه.

١٢- ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم مشركو مكة ﴿سَتُغۡلَبُونَ﴾ يوم بدر ﴿وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ﴾ من الجِهنَّامِ وهي بئر عميقة. ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ المُسْتَقَرُّ جهنّمُ.

١٣- ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ﴾ الخطاب لمشركي قريش ﴿فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ﴾ يومَ بدر ﴿فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ وفئةٌ أخرى ﴿كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ﴾ يرى المشركونَ المسلمينَ مِثْلَي عَددِ المشركينَ ألفينِ، أو مِثْلَي عَددِ المسلمينَ ستّمائةٍ ونَيّفًا وعشرينَ، أراهمُ الله إيّاهم مع قلّتهم أضعافَهم لَيهابوهم ويَجْبُنُوا

﴿رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي
ٱلۡأَبۡصَٰرِ ⁽١٣⁾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ
ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ﴾

عن قتالهم. ولا يناقضُ هذا ما قال في سورة الأنفال ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ ⁽٤٤⁾﴾ لأنهم قُلِّلوا أوّلًا في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم، فلمّا اجتمعوا كُثِّروا في أَعينهم حتى غُلبوا، فكانَ التقليلُ والتكثيرُ في حالتين مختلفتَين، وتقليلهم تارةً وتكثيرهم أُخرى في أعينهم أبلغُ في القدرة وإظهارِ الآية ﴿رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ رؤيةً ظاهرةً مكشوفة لا لَبْسَ فيها ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾ كما أَيّدَ أهلَ بدرٍ بتكثيرهم في أعين العدوّ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في تكثير القليل ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ لعِظَة ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ⁽١٣⁾﴾ لذوي البصائر.

١٤- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ المُزَيِّنُ هو الله للابتلاء ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ الشهوةُ تَوَقانُ النفسِ[(١)] إلى الشيءِ، جَعَلَ الأعيانَ التي ذكَرها شَهَواتٍ مبالغةً في كونها مشتهاةً، أو كأنه أراد تخسيسَها بتَسمِيتها شَهواتٍ، إذ الشهوةُ مُستَرذَلةٌ عند الحُكماء، مذمومٌ من اتَّبعها، شاهِدٌ على نفسه بالبَهيمية ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ والإماءُ داخلةٌ فيها ﴿وَٱلۡبَنِينَ﴾ جمعُ ابنٍ قد يقع في غير هذا الموضع على الذكور والإناثِ، وهنا أُريدَ به الذكورُ، فهُمُ المشتَهَوْنَ في الطباع، والمُعَدُّونَ للدّفاع ﴿وَٱلۡقَنَٰطِيرِ﴾ جمعُ قِنطار وهو المالُ الكثيرُ ﴿ٱلۡمُقَنطَرَةِ﴾ المُنَضَّدةِ[(٢)] أو المدفونةِ ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ سُمي ذهبًا لسرعة ذهابه بالإنفاق، وفضةً لأنها تتفرّقُ بالإنفاقِ، والفَضُّ التفريقُ ﴿وَٱلۡخَيۡلِ﴾ سُميت به لاختيالها في مَشيها[(٣)]

---

(١) أي: شَوْقُها.
(٢) بمعنى المُتراصَّة.
(٣) أي: لمشيها مشية المعجَب بنَفسِه.

﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ
ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ
بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ
ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلَّمةِ من السُّومة وهي العلامة ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الأزواجِ الثمانية ﴿وَٱلْحَرْثِ ۗ﴾ الزَّرْعِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكورُ ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ يُتمتَّع [به] في الدنيا ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ المرجع.

ثم زَهَّدَهُم في الدنيا فقال:

١٥- ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ﴾ مِنَ الذي تقدّم ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾ كلامٌ مستأنف فيه دِلالة على بيان ما هو خيرٌ من ذلكم ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفةٌ لجناتٌ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ رضا الله ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ عالم بأعمالِهم فيُجازيهم عليها، أو بصيرٌ بالذين اتقوا وبأحوالهم فلِذَا أعدَّ لهم الجناتِ.

١٦- ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ صفةٌ للمتقينَ أو للعبادِ ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ إجابةً لدعوتك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إنجازًا لوعدِك ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ بفضلِك.

١٧- ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الطّاعاتِ والمصائب ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قولًا بإخبارِ الحقّ، وفعلًا بإحكام العملِ ونيةً بإمضاءِ العزم ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ الداعين أو المطيعين ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ المتصدقين ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ المصلين أو الطالبين المغفرة، وخَصَّ الأسحارَ لأنه وقتُ إجابةِ الدعاءِ، ولأنه وقتُ الخَلوة، قالَ لقمانُ لابنه «يا بُنَيَّ لا يكنِ الديكُ أكيَسَ منكَ ينادي بالأسحارِ وأنتَ نائم».

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ﴾

١٨- ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ حَكَمَ أو قال ﴿أَنَّهُۥ﴾ بأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بما عاينوا من عظيم قدرتهِ ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ الأنبياءُ والعلماءُ ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ مُقيمًا للعدل فيما يَقسِمُ من الأرزاقِ والآجالِ، ويثيبُ ويُعاقِبُ، وما يأمر به عباده من إنصافِ بعضهم لبعضٍ والعملِ على السّوية فيما بينهم، وكُرِّرَ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ للتأكيدِ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ العزيزُ الذي لا يُغالَبُ، الحكيمُ الذي لا يَعدِلُ عن الحقّ.

١٩- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ شَهِدَ اللهُ أنَّ الدينَ عند الله الإسلامُ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أهلُ الكتاب مِنَ اليهودِ والنصارى، واختلافُهم أنهم تركوا الإسلامَ وهو التَّوحيد، فثَلَّثَتِ النصارى، وقالتِ اليهودُ: عُزَيرٌ ابنُ الله ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أنه الحقُّ الذي لا مَحِيْدَ عنه ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ﴾ ما كان ذلك الاختلافُ إلا حسدًا بينهم وطلبًا منهم للرياسة وحظوظِ الدنيا واستِتْباعَ كلِّ فريقٍ ناسًا لا شُبهةً في الإسلام، وقيل: هو اختلافهم بنبوة محمد عليه السلام حيث ءامن به بعض وكفر به بعض ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بحُجَجه ودلائلهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ سَريعُ المُجازاة.

٢٠- ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ فإن جادَلُوك في أنَّ دينَ الله الإسلام، والمرادُ بهم وفدُ بني نجرانَ ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ أخلَصْتُ نفسيَ وجُملَتي لله وَحدَهُ، ولم أجعل فيها لغيره شريكًا بأن أَعبُدَه وأدعو إلٰهًا معه، يعني أنَّ ديني دينُ التوحيد، وهو الدين القويم الذي ثبتت عندكم صحته كما ثبتت عندي، وما جئت بشيء بديع(١) حتى تجادلوني فيه ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ﴾

---

(١) أي: جديد مبتدع.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ
حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾

أي أسلمتُ أنا ومَن اتّبعني ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مِنَ اليهودِ والنصارى ﴿وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ والذينَ لا كتابَ لهم من مُشرِكي العَرب ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ يعني أنه قد أتاكم منَ البيناتِ ما يقتَضي حصولَ الإسلام، فهل أسلمتُم أم أنتم بعدُ على كفركم؟ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ فقد أصابوا الرُّشدَ حيثُ خرجوا مِنَ الضلالِ إلى الهدى ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي لم يضُرُّوكَ فإنك رسولٌ منبِّهٌ، ما عليكَ إلا أن تُبلّغ الرسالةَ وتنبِّه على طريقِ الهدى ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ فيُجازيهم على إسلامهم وكفرهم.

٢١- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ هم أهلُ الكتاب راضُون بقتل ءابائهمُ الأنبياءَ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ حالٌ مؤكِّدَةٌ لأنَّ قتلَ النبي لا يكونُ حقًّا ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدلِ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ سوى الأنبياءِ ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٢٢- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ضاعت ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فلهم اللعنةُ والخِزيُ في الدنيا والعذابُ في الآخرة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ جُمِعَ لِوَفْقِ رؤوس[1] الآي.

٢٣- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يُريدُ أحبارَ اليهود وأنهم حصّلوا نصيبًا وافرًا من التوراة ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ التوراة أو

---

(١) لموافقة رؤوس الآيات بدلًا من ناصر قال: ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، لأنه لا ناصر واحدًا لهم ولا أكثر.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ
أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ
مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾

القرءانِ ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ جُعِلَ حاكمًا حيث كان سببًا للحكم، أو ليَحكم النبيُّ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ استبعادٌ لتولّيهم بعد عِلمِهم بأنَّ الرجوعَ إلى كتابِ الله واجبٌ ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وهم قومٌ لا يزالُ الإعراضُ دَيْدَنَهم.

٢٤- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ ذلك التّولي والإعراضُ بسبب تَسهيلهم على أنفسهم أمرَ العقابِ وطَمَعِهم في الخروج منَ النارِ بعدَ أيامٍ قلائلَ، وهي أربعون يومًا أو سبعةُ أيام ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ غرَّهمُ افتراؤهُم على الله، وهو قولُهم نحن أبناءُ الله وأحباؤه، فلا يعذّبُنا بذنوبنا إلا مدةً يسيرة.

٢٥- ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ﴾ فكيف يكونُ حالُهم في ذلك الوقت ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكَّ فيه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاءَ ما كسبت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ بزيادةٍ في سيئاتهم ونقصان في حسناتهم.

٢٦- ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[1] يا مالِكَ المُلك ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ تُعطي مَن تشاءُ النصيبَ الذي قسَمْتَ له من المُلك ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أن تنزِعَه، فالملكُ الأوّل عامٌّ، والمُلْكان الآخَران خاصّان بَعْضانِ من الكل. رُويَ أنه عليه الصلاة والسلام حين فتح مكة وَعَد أُمته مُلْكَ فارسَ والروم فقالتِ اليهودُ والمنافقونَ: هيهاتَ هيهاتَ من أين لمحمد مُلكُ فارسَ والرومِ، هم أعزُّ وأمنعُ من ذلك،

---

(١) المُلكُ هنا المُلك الذي يكون في المخلوقين، للملوك، أما مُلكُ الله الذي هو صفتُهُ فهو أزليٌّ أبديّ.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ
وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ
حِسَابٖ ٢٧ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾

فنزلت: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بالمُلْك ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾ بنزعهِ منه ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ أي الخيرُ والشرُّ، [أي أنت مالكهما والقادر عليهما في الدنيا والآخرة]، فاكتُفِي بذِكرِ أحدِ الضّدّينِ عنِ الآخر - [وإن كان مالكَهما] - لأن الكلامَ وقعَ في الخير الذي يسوقُه إلى المؤمنينَ وهو الذي أنكرته الكفرةُ، فقالَ: بيدِك الخيرُ تؤتيه أولياءَكَ على رغم مِن أعدائكَ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ ولا يقدِرُ على شيء أحدٌ غيركَ إلا بإقدارِكَ.

ثم ذَكَرَ قدرتَه الباهرة بذِكرِ حال الليل والنهارِ في المعاقبة بينهما، وحالِ الحيّ والميتِ في إخراج أَحدِهما من الآخر، وعطف عليه رزقَه بغيرِ حساب بقوله:

٢٧- ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ الإيلاجُ إدخالُ الشيء في الشيءِ، وهو مجازٌ هنا، أي يَنْقُصُ من ساعاتِ الليل ويزيدُ في النهار، ويَنقُصُ من ساعاتِ النهار ويَزِيدُ في الليل ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ الحيوانَ مِنْ النطفةِ، أو الفَرْخَ مِنَ البيضةِ، أو المؤمِنَ مِنَ الكافِرِ ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ النطفةَ مِنَ الإنسانِ، أو البيضَ مِنَ الدّجَاجِ، أو الكافرَ مِنَ المؤمنِ ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾ لا يعرِفُ الخلقُ عَدَدَهُ ومقدارَه وإن كانَ معلومًا عند الله، ليدلَّ على أنَّ مَن قدرَ على تلك الأفعالِ العظيمةِ المُحيّرةِ للأفهام، ثم قَدَرَ أن يرزق بغير حسابٍ من يشاءُ من عبادهِ، فهو قادرٌ على أن يَنزعَ المُلكَ مِنَ العجم ويُذِلّهم ويؤتِيَه العربَ ويُعِزَّهم.

٢٨- ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ نُهوا أن يُوالُوا الكافرينَ لقرابةٍ بينهم أو لصداقة قبلَ الإسلام، أو غيرِ ذلك، وقد كُرّرَ ذلك في القرءانِ، والمحبةُ في الله والبُغضُ في الله بابٌ عظيم في الإيمان

﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾

﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ يعني أنَّ لكم في موالاة المؤمنين مندوحةً[1] عن موالاةِ الكافرينَ فلا تُؤثروهم عليهم ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ ومن يُوالِ الكفرةَ فليس من ولايةِ اللهِ في شيء، لأنَّ موالاةَ الوليّ وموالاةَ عَدوِّهِ متنافيان ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ إلا أن تخافُوا من جهتهم أمرًا يجبُ اتقاؤه، أي إلا أن يكونَ للكافرِ عليك سُلطانٌ فتخافَه على نَفسِك أو مالِكَ فحينئذ يجوز لك إظهارُ الموالاةِ وإبطانُ المعاداةِ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ أي ذاتَهُ، فلا تتعرَّضوا لسَخَطه بموالاةِ أعدائه، وهذا وعيدٌ شديد ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾ مصيرُكم إليه، والعذابُ مُعَدٌّ لديه، وهو وعيد ءاخر.

٢٩- ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ﴾ مِن ولايةِ الكفارِ أو غيرها مما لا يُرضي الله ﴿يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ ولم يَخفَ عليه، وهو أبلغُ وعيد ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ هو الذي يعلمُ ما في السمواتِ وما في الأرض، فلا يخفى عليه سِرُّكم وعَلَنُكم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾ فيكونُ قادرًا على عقوبتكم.

٣٠- ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ يومَ القيامةِ حينَ تجِدُ كلُّ نفس خيرها وشرَّها حاضِرَين، تتمنى لو أنَّ بينها وبين ذلك اليوم وهَوْلِهِ أمدًا بعيدًا، أي مسافةً بعيدةً، وكرّرَ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ ليكونَ على بالٍ منهم لا

---

(١) أي: سَعَةً وغنًى.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٣٠ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٢ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾

يَغفُلونَ عنه ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٣٠﴾ ومِن رأفته بهم أن حَذّرهم نفسَه حتى لا يتعرَّضوا لسَخَطِه، ونزلَ حينَ قالَ اليهودُ: نحن أبناءُ الله وأحباؤه:

٣١- ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ محبةُ العبدِ لله إيثارُ طاعته على غيرِ ذلك، ومحبةُ الله العبدَ أن يرضَى عنه ويَحمَدَ[1] فِعلَه، وعن الحسنِ: زَعمَ أقوامٌ على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبُّونَ الله، فأرادَ أن يجعل لقولهم تصديقًا من عملٍ، فمن ادَّعَى محبَّته وخالفَ سنّةَ رسوله فهو كذّابٌ، وكتابُ الله يكذِّبه، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣١﴾.

٣٢- ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾ هي علامةُ المحبةِ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أعرَضوا عن قَبولِ الطاعةِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ أي لا يُحبُّهم [ولا يغفر لهم].

٣٣- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ اختارَ ﴿ءَادَمَ﴾ أبا البشر ﴿وَنُوحٗا﴾ شيخَ المرسَلين ﴿وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ إسماعيلَ وإسحاقَ وأولادهما ﴿وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ موسى وهارونَ، هما ابنا عِمرانَ بنِ يَصْهُرَ، وقيل عيسى ومريم بنت عِمرانَ بن ماثان، وبين العِمرانين ألف وثمانمائة سنة ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾ على عالَمي زَمانِهم.

٣٤- ﴿ذُرِّيَّةَۢ﴾ بدلٌ من ءال إبراهيمَ وءالِ عمران ﴿بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ يعني أنَّ الآلَينِ ذُريةٌ واحدةٌ متسلسلةٌ، بعضُها مُتشَعِّب من بعضٍ، موسى

---

(١) يحمد فعله: يكرمه بالإثابة عليه.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

وهارون من عِمران، وعمرانُ من يَصْهُر، ويَصْهُرُ من قاهَث، وقاهثُ من لاوَى، ولاوَى من يعقوب، ويعقوبُ من إسحاقَ وكذلك عيسى بنُ مريمَ بنتِ عمران بن ماثان وهو يتصلُ بيهوذا بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ، وقد دخلَ في ءالِ إبراهيمَ رسولُ الله ﷺ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ يعلم مَنْ يَصلحُ للاصطفاء.

٣٥- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ هي امرأةُ عِمرانَ بنِ ماثانَ أُمُّ مريمَ جَدَّةُ عيسى، وهي حَنّةُ بنتُ فاقُوذا ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ﴾ أَوْجَبْتُ ﴿مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ مُعتَقًا لخِدمةِ بيتِ المقدس لا يد لي عليه ولا أستخدمُه، وكان هذا النوعُ من النذر مشروعًا عندهم، أو مُخْلَصًا للعبادة ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ التقبلُ: أخذُ الشيءِ على الرضا به ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾.

٣٦- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وضعتُ النفسَ أنثى، وإنما قالت هذا القولَ لأنَّ التحريرَ لم يكن إلا للغِلْمانِ، فاعتذرت عمَّا نذرت، وتحزّنَت إلى ربها، ولتكلُّمِها بذلكَ على وجه التحزُّنِ والتّحَسُّرِ قال الله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ تعظيمًا لموضُوعها، وما عُلِّقَ به من عظائم الأمور، بمعنى ولعلَّ لله فيه سرًّا وحكمةً ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ﴾ الذي طَلَبَتْ ﴿كَٱلْأُنثَىٰ﴾ التي وُهِبَتْ لها ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وإنما ذَكرَتْ حَنَّةُ تسميتَها مريمَ لربها، لأن مريمَ في لُغتهم العابدةُ، فأرادت بذلك التقربَ والطلبَ إليه أن يَعصِمَها حتى يكونَ فِعْلُها مطابقًا لاسمِها، وأن يُصدِقَ فيها ظنَّها بها ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أُجيرها ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أولادَها ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ الملعونِ، في الحديث: «**ما منْ مولود يولَدُ إلا والشيطانُ يَمَسُّهُ حين يولَدُ فيستَهِلُّ صارخًا منْ مَسِّ الشيطانِ إياهُ إلا مريمَ وابنَها**».

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

٣٧- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قَبِلَ اللهُ مريمَ ورضيَ بها في النّذر مكانَ الذَّكَر.

رُوِيَ أن حَنّةَ لمَّا ولدت مريمَ لفَّتها في خِرقة وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عندَ الأَحبار أبناءِ هارون، وهم في بيت المقدسِ كالحَجَبَةِ في الكعبة، فقالت لهم: دونَكُم هذه النذيرةَ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنتَ إمامِهم وصاحبِ قُربانِهم، وكانت بنو ماثان رؤوسَ بني إسرائيلَ وأحبارَهم، فقال لهم زكريا: أنا أَحقُّ بها، عندي أُختها، فقالوا: لا حتى نَقترِعَ عليها، فانطلقُوا وكانوا سبعةً وعشرينَ إلى نهر، فألقَوا فيه أقلامَهم، فارتفعَ قلَم زكريا فوقَ الماء، ورسَبَت أقلامُهم، فتكفَّلَها ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجازٌ عن التربية الحسنةِ ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ جعلَه كافلًا لها وضامِنًا لمصالحها، ومعنى [زكريا] في العِبْرِيّ: دائمُ الذّكر والتّسبيح ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ قيل: بنى لها زكريا مِحرابًا في المسجد، أي غُرفةً يُصْعَد إليها بسُلَّم، وقيل المحراب أشرف المجالس ومُقدَّمها، كأنها وُضعت في أشرف موضع من بيت المقدس، وكان لا يدخل عليها إلا هو ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ كان رزقُها ينزِلُ عليها من الجنة، ولم ترضَع ثَديًا قط، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهةَ الصيفِ في الشتاء ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ من أينَ لك هذا الرّزقُ الذي لا يُشبهُ أرزاقَ الدنيا، وهو ءاتٍ في غير حينهِ ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ فلا تَستَبْعِدْ. قيل: تكلّمت وهي صغيرة كما تكلّم عيسى وهو في المهد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ مِنْ جملةِ كلام مَريم ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ بغير تقديرٍ لِكَثرتهِ، أو تفضُّلًا بغير محاسبةٍ ومُجازاةٍ على عمل.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾

٣٨- ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلكَ المكانِ حيث هو قاعِدٌ عند مريمَ في المِحراب، أو في ذلك الوقتِ لَمَّا رأى حالَ مريمَ في كرامتها على الله ومنزلَتِها رغِبَ أن يكون له من إيشاع ولدٌ مِثْلُ وَلدِ أُمها حَنّةَ في الكرامة على الله، وإن كانت عاقرًا عجوزًا، فقد كانت أمُّها كذلك ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً﴾ ولدًا، والذريَّة يقع على الواحد والجمع ﴿طَيِّبَةً﴾ مباركةً، والتأنيث للفظ الذرية ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ مُجيبُه.

٣٩- ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيل: ناداه جبريلُ عليه السلام، وإنما قيلَ الملائكةُ لأنَّ المعنى أتاه النّداءُ مِنْ هذا الجِنْسِ، كقولهم فلان يركبُ الخيل ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ وفيه دليلٌ على أنَّ المُراداتِ تُطْلَبُ بالصلوات، وفيها إجابةُ الدّعَواتِ وقَضاءُ الحاجات، قال ابنُ عطاءٍ: ما فتحَ اللهُ تعالى على عَبْدٍ حالةً سَنيّةً إلا باتّباع الأوامر وإخلاصِ الطاعات ولُزوم المَحارِيْب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ بأنَّ الله ﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصَدّقًا بعيسى مؤمنًا به، فهو أولُ مَنْ ءامَنَ به، وسُمِّيَ عيسى كلمةَ الله لأنَّ تكوُّنه [بأمره تعالى] بلا أبٍ، أو ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مؤمنًا بكتاب منه ﴿وَسَيِّدًا﴾ هو الذي يَسُودُ قومَه أي يفوقُهم في الشرفِ، وكان يحيى فائقًا على قومه لأنه لم يَرْكَبْ سيئة قَطُّ، ويا لها من سيادة ﴿وَحَصُورًا﴾ هو الذي لا يقرَبُ النساء مَع القُدرةِ حَصْرًا لنفسِهِ أي مَنعًا لها مِنَ الشهواتِ ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ ناشئًا من الصالحين، لأنه كان من أصلاب الأنبياءِ، أو كائنًا من جملة الصالحين.

٤٠- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ استبعادٌ من حيث العادةُ واستِعظامٌ للقُدرة لا تشَكُّكٌ ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ أثَّر فيّ الكِبَرُ وأضْعفَني وكانَ له

﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٤١ وَإِذۡ قَالَتِ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي
لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾

تِسْعٌ وتِسْعُونَ سنَةً، ولامرأتِهِ ثمان وتِسْعُون ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ لا تَلِدُ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾ مِنَ الأفعالِ العَجيبة.

٤١- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ علامةً أَعرِفُ بها الحبَلَ لأتلقّى النعمةَ بالشُّكْر إذا جاءَت ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ لا تَقدِرُ على تكليم الناسِ ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ إلا إشارةً بيدٍ أو رأس أو عينٍ أو حاجب مع إبقاءِ قدرته على التكلم بذكر الله، ولذا قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٤١﴾ في أَيامِ عَجزِكَ عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة والأدلة الظاهرة، وإنما حُبِسَ لسانه عن كلام الناس ليُخْلِصَ المدةَ لذكر الله، لا يشغلُ لسانه بغيره، كأنه لمَّا طلب الآية من أجل الشكر، قيل له: ءايتُك أن تَحْبِسَ لِسَانَكَ إلا عن الشُّكْرِ، وأحسَنُ الجواب ما كان مُنتزَعًا من السؤال، والعَشِيُّ من حينِ الزوالِ إلى الغروب، والإبكارُ من طلوع الفجر إلى وقتِ الضحى.

٤٢- ﴿وَإِذۡ﴾ واذكُر إذ ﴿قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ﴾ رُوِي أنهم كلَّمُوها شِفاهًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ أولًا حينَ تَقبّلَكِ مِنْ أُمّكِ وربَاكِ واختَصّك بالكَرامةِ السَّنيّة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مما يُسْتَقذَر مِنَ الأفعال ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾ ءاخِرًا ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢﴾ بأن وهَبَ لكِ عيسى من غير أبٍ، ولم يكن ذلك لأحَد منَ النساء.

٤٣- ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أَديمي الطاعةَ أو أَطيلي قيامَ الصلاة ﴿وَٱسۡجُدِي﴾ قيلَ: أُمِرَت بالصلاةِ بذِكر القُنوتِ والسجُودِ لِكَونِهما من هَيئاتِ الصلاةِ ثم قيلَ لها ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ أي ولتَكُنْ صَلاتُك مع المصلين أي في الجماعةِ، أو وانظِمي نفسَك في جملةِ

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ
وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ
ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا﴾

المصلين وكوني في عِدادهم، ولا تكوني في عِدادِ غيرهم.

٤٤- ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما سبقَ من قصّةِ حَنَّةَ وزكريا ويحيى ومريم ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ يعني أنَّ ذلك من الغيوبِ التي لم تَعرِفْها إلا بالوحي ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾ أزلامَهُم، وهي قِدَاحُهُم[1] التي طرحوها في النهر مُقترعين، أو هي الأقلام التي كانوا يكتبون التوراة بها، اختاروها للقرعة تبركًا بها ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ يُلقونها ينظرونَ أيُّهم يكفُلُ مريم ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ في شَأنها تنافُسًا في التَّكَفُّل بها.

٤٥- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي اذكُرْ [يا محمدُ إذ قال جبريل، وقيل: كل الروايات أن النداء كان من جبريل وحده، وإنما ذكره بلفظ الجمع لأن جبريل عليه السلام إذا نزل لأمر نزل معه جماعة من الملائكة فإذا أخبر بأمر يجوز أن يقال: أخبر الملائكةُ بكذا، على معنى أنّه أخبر وهم معه وقد جاؤوا لهذا] ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾ أي بِعيسَى [يخلقه الله تعالى بأمره من غير أب] ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ﴾ والمسيحُ لقَبٌ مِنَ الأَلْقاب المشَرَّفة كالصّدّيقِ والفَارُوق، وأَصْلُه مشيحا بالعِبْرانية ومعناه المُبَارك، وقيل: سُمّي مَسِيحًا لأنه كان لا يمسَحُ ذا عاهَة إلا بَرِئ، أو لأنه كان يمسَح الأرضَ بالسّياحة لا يَستَوطنُ مكانًا ﴿عِيسَى﴾ بدلٌ منَ المسيح ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ هوَ ابنُ مَريمَ، وإنّما قالَ ابنُ مَريم إعلامًا لها أنه يُولَد مِنْ غَيرِ أبٍ، فلا يُنسَبُ إلا إلى أمّه ﴿وَجِيهٗا﴾ ذا جاه وقَدْر

---

(١) القِدَاحُ جمع قِدْح بكسر فسكون: هو السهم قبل أن يُنَصَّلَ ويُراشَ، يكتبون عليها ما يريدون الاقتراع عليه، وهي الأَزلام.

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ
إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ
وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالنُّبوة والطاعَة ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بعلُوّ الدرجَةِ والشفاعة ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [والتقريب بالمكانة والشرف لا بالمكان].

٤٦- ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ أي ومُكلّمًا الناسَ ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾ ثابتًا في المَهْدِ وهو ما يُمهَّد للصَّبي مِنْ مَضجَعِهِ ﴿وَكَهۡلٗا﴾ يكلِّمُ الناسَ طِفْلًا وكَهلًا، أي يكلِّمُ الناسَ في هاتَين الحالتَين كلامَ الأنبياءِ مِن غيرِ تَفاوُتٍ بَينَ حالِ الطفُولَة وحَالِ الكُهولةِ التي يَسْتَحْكِمُ فيها العَقلُ ويُستَنبأ فيها الأنبياء ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ التقدير: يُبَشّرُكِ به مَوصُوفًا بهذه الصفاتِ.

٤٧- ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ إذا قَدَّر تكوُّنَ شَىءٍ كوّنه مِنْ غَيرِ تأخِير، لكنه عبَّر بقَوله كن إخبارًا عن سُرعة تَكَوُّنِ الأشياءِ بتكوينهِ(١).

٤٨- ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي الكتابةَ وكانَ أحسَنَ الناسِ خَطًّا في زَمانِهِ، وقيلَ: كُتُبَ الله ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ بيانَ الحَلالِ والحَرام ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾.

٤٩- ﴿وَرَسُولًا﴾ [ويجعَلُهُ] رَسُولًا ﴿إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي﴾ بأني ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ بدلالةٍ تَدُلُّ على صدقي فيما أدّعِيْه منَ النبُوة

---

(١) ليس المعنى أن الله ينطق بالكاف والنون، هذا يستحيل، إنما المعنى الشىء الذي أراد وجودَه يوجده بلا تعب ولا مشقّة ولا تأخر عن الوقت الذي شاء وجوده فيه.

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾(١) أُقَدّرُ لكم شيئًا مثلَ صورة الطّير ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ في ذلك الشيء المماثِل لهيئةِ الطير ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا﴾ فيصيرُ طيرًا كسائرِ الطيور ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [بإرادته وتكوينه]، قيل: لم يَخلُق(٢) شيئًا غيرَ الخُفّاش ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ الذي وُلدَ أعمى ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ [من به البَرَصُ، وهو داءٌ معروف يقع به بياض الجلد ولا يزول عادة بالعلاج] ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ كرّر بإذنِ الله دَفْعًا لِوَهْم مَنْ يتوهَّم فيه اللّاهوتية(٣)، روي أنه أحيا سَامَ بنَ نُوح عليه السلام وهم ينظرون إليه، فقالوا: هذا سِحرٌ مبين، فأرِنا ءايةً، فقال: يا فلانُ أكلتَ كذا، ويا فلانُ خُبِئَ لك كذا، وهو قوله ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما [أتيت به من المعجزات] ﴿لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [العلامةً لكم على صدق نبوَّتي].

٥٠- ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي قد جِئتكم بآيةٍ وجِئتكُم مُصَدِّقًا ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ وما حَرَّمَ الله

---

(١) أَخْلُقُ هنا معناه أُصوّرُ، في لغةِ العربِ يقال: خلق بمعنى صوَّر، خلق فلانٌ من الطين طيرًا، أي عَمِلَ صورةً من الطينِ. ويقال بمعنى التقدير: خلقتُ الثوبَ قميصًا أي قدّرْتُ أن أجعله قميصًا، الخياطُ يقدّرُ أوّلًا ثم يُفصّلُ ويَخيط، ويقال أيضًا: فلانٌ خلق هذا الخبرَ أي افتراهُ، أما خلق بمعنى أوجد وأخرج من العدم إلى الوجود فلا يُطلق إلا في حق الله، خلق الله كذا أي أبرزه من العدم إلى الوجود أي كان معدومًا ثم جعله موجودًا، على هذا المعنى قولُ الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ١٦﴾ [سورة الرعد] أي هو الذي أبرز كل شيء من العدم إلى الوجود.

(٢) أي: عيسى لم يصور شيئًا غير الخفاش.

(٣) أي: الألوهيّة.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ
أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾

عليهم في شَريْعةِ مُوسَى عليهِ السلامُ الشّحُومُ ولُحومُ الإبلِ والسمكُ وكلُّ ذِي ظُفُرٍ، فأَحلَّ لَهم عيسى بعضَ ذلك ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كُرِّرَ للتأكيد ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في تكذيبي وخِلافي ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ في أَمري.

٥١- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إقرارٌ بالعُبودية ونفيٌ للرُّبوبيةِ عن نفسِه بخلافِ ما يَزعمُ النصارى ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ دُوني ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ يؤدّي صَاحبَه إلى النّعيم المقيم.

٥٢- ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ عَلِمَ مِنَ اليهودِ كُفرًا عِلمًا لا شُبْهةَ فيه كعِلْم ما يُدرَكُ بالحواسّ ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ﴾ جَمْعُ ناصر كأصحابٍ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي مَنْ أنصاري ذاهبًا إلى الله ملتجئًا إليه ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ حَوارِيُّ الرَّجُل صَفْوتُه وخاصَّتُه ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أعوانُ دِينِهِ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ﴾ يا عيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ إنما طَلَبُوا شَهادتَه بإسلامِهم تأكيدًا لإيمانهم، لأن الرُّسُلَ يَشهدونَ يوم القيامةِ لقومهم وعليهم، وفيه دليلٌ على أنَّ الإيمانَ والإسلامَ واحدٌ.

٥٣- ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ رسُولَك عيسى ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ مع الأنبياء الذين يَشهَدُون لأُمَمِهم، أو مع الذينَ يَشْهَدُون لكَ بالوَحْدانيةِ، أو مع أمةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلامُ لأنهم شهداءُ على الناس.

٥٤- ﴿وَمَكَرُواْ﴾ أي كفارُ بني إسرائيلِ الذينَ أحسَّ عيسى منهم الكفرَ حينَ أرادوا قتله وصلبَه ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ جازاهُم على مَكرِهم بأن

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ﴾

رفعَ عيسَى إلى السَّماءِ وألقى شَبَهَهُ على من أراد اغتِيالَه حتى[(١)] قُتِلَ، ولا يجوز إضافَة المَكْرِ إلى الله تعالى إلا على مَعنى الجزاءِ، لأنه مذمومٌ عند الخلق، وعلى هذا الخداعُ والاستهزاءُ ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أقوى المجازِينَ وأَقدرُهم على العقابِ من حيث لا يشعر المُعاقَب.

٥٥- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ مُستوفٍ أجلَكَ، ومعناه أنّي عاصِمُكَ من أن يقتُلَك الكفارُ، ومميتُك لا قتلًا بأيديهم. ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ إلى سمائي ومَقَرِّ ملائكتي ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من سوءِ جِوارِهِمْ وخُبثِ صُحبتهم، وقيل ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: قابضُك من الأرض، أو مميتُك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن، إذ الواو لا توجب الترتيب ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ أي المسلمين لأنهم متّبعوه في أصلِ الإسلام، وإن اختلفتِ الشرائع ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَعلُونهم بالحجةِ، وفي أكثر الأحوال بها وبالسيفِ ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

٥٦-٥٧- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [في الدنيا بالأسر والقتل والجزية والذُّل، وفي الآخرة بعذاب النار] ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ

---

(١) الصواب ما قاله عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من أن الذي أُلقِيَ عليه الشَّبَهُ هو أَحدثُ تلاميذ عيسى عليه السلام سنًّا وكان من الصالحين.

﴿أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأٓيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ٥٨ إِنَّ
مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا
وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾

﴿أُجُورَهُمْۗ﴾ [التوفية: دفعُ الشيء وافيًا من غير نقص، والأجور: ثواب الأعمال، وتوفية الأجور هي: قَسْمُ المنازل في الجنة بحسب الأعمال] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾ وتفسيرُ الحُكْمِ هاتان الآيتانِ.

٥٨- ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما سَبقَ من نبإ عيسى وغيره ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأٓيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ٥٨﴾ القرءانِ، يعني المُحكَم، أو كأنه ينطِقُ بالحِكمة لكثرةِ حِكَمِه.

ونَزَلَ لما قالَ وَفدُ بني نَجْرانَ: هل رأيتَ ولدًا بلا أبٍ؟:

٥٩- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾ إنَّ شأنَ عيسى وحالَهُ الغريبةَ كشأنِ ءادمَ عليه السلام ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ قَدَّرَهُ جسدًا من طين ولم يكن ثمةَ أبٌ ولا أُم، فكذلك حال عيسى مع أن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشبَّهَ الغريبَ بالأغرب ليكون أقطعَ للخصم وأحسم لمادَّةِ شُبهته ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ أي أنشأه بشَرًا ﴿فَيَكُونُ ٥٩﴾ فكان.

٦٠- ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي هو الحقّ ﴿فَلَا تَكُن﴾ أيها السامعُ ﴿مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ٦٠﴾ الشاكين.

٦١- ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ من النصارى ﴿فِيهِ﴾ في عيسى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ مِنَ البيّناتِ الموجبةِ للعلم ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ هَلُمُّوا، والمرادُ المجيء بالعَزْم والرأي ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي يَدْعُ كُلٌّ منّا ومنكم أَبناءَه ونساءَه ونفسَه إلى المباهَلةِ ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ بأن نقولَ: بَهْلَةُ الله على الكاذِب منّا ومنكُم، والبَهْلَة اللعنةُ،

﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾

وبَهَلَه الله لَعَنَهُ وأَبعدَه من رَحمته، وأصلُ الابتهال هذا، ثم يُستَعمَلُ في كلّ دُعاء يُجتَهَدُ فيه وإن لم يكن التِعَانًا. رُوي أنه عليه الصلاة والسلام لمَّا دعاهم إلى المباهلَة قالوا: حتى نَنظُرَ، فقالَ العَاقِبُ – وكانَ ذا رأيهم –: والله لقد عرفتُم يا معشَرَ النصارى أنَّ محمّدًا نَبيٌّ مُرسَلٌ، وما باهَلَ قَومٌ نَبيًّا قطُّ فَعاشَ كبيرُهم ولا نَبتَ[1] صغيرهم، ولئن فعلتُم لتَهلِكُنَّ، فإن أبَيتُم إلا إلْفَ دِينِكُم، فوادعوا[2] الرجُلَ وانصَرِفوا إلى بلادِكم، فأَتَوا رسولَ الله ﷺ وقد غَدا مُحتَضِنًا للحُسَين ءاخِذًا بِيَد الحسَنِ، وفاطمةُ تَمشي خلفه، وعليّ خَلفها، وهو يقولُ: «**إذا أنا دَعَوتُ فأمّنوا**»، فقالَ أُسقُفُّ نجرانَ: يا مَعشَر النصارى، إني لأَرى وجوهًا لو سألوا الله أن يُزِيلَ جَبلًا من مكانه لأزَالَه بها، فلا تُباهِلُوا فتَهلِكُوا ولا يَبقى على وجهِ الأرضِ نصراني، فقالوا: يا أبا القاسم، رأينا أَلَّا نباهِلكَ. فصالحهمُ النبيُّ على أَلْفَي حُلّةٍ كلَّ سنةٍ، وإنما ضمّ الأبناءَ والنساءَ وإن كانت المباهلَةُ مختصّةً به وبمن يُكاذِبهُ، لأنَّ ذلك ءاكَدُ في الدلالةِ على ثقته بحالِه واستيقانِه بصِدقِه حيث استجرأَ على تَعريضِ أَعزّته وأفلاذ كَبِده لذلك، ولم يقتصر على تَعريض نفسه له، وعلى ثقَتِه بكذِب خَصمِه حتى يَهلِكَ خَصْمُه مع أَحِبّته وأعِزّتِه إنْ تمّت المباهلةُ. وخَصَّ الأبناءَ والنساءَ لأنهم أَعزُّ الأَهلِ وألصَقُهم بالقُلوب، وقَدَّمَهُم في الذّكْر على الأنفُسِ ليُنَبّه على قُربِ مَكانِهم ومَنزِلتِهم، وفيه دليلٌ واضحٌ على صحّة نبوة النبي ﷺ، لأنه لم يَروِ أحد من مُوافِق أو مُخالِف أنهم أجابُوا إلى ذلك ﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾ مِنّا ومنكم في شأنِ عيسى.

---

(١) نبت: بلغ واحتلم.
(٢) أي: صالحوا.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

٦٢- ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي قُصَّ عليك من نبأ عيسى ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ﴾ الصدق الذي لا كذب فيه والحق الذي لا باطل فيه ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ المرادُ الردُّ على النصارى في تثليثهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في الانتقام ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ في تدبير الأحكام.

٦٣- ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا ولم يَقبلُوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ وعيدٌ لهم بالعذابِ المذكورِ في قوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابٗا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة النحل].

٦٤- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم أهل الكتابَين أو وَفْدُ نجرانَ أو يهودُ المدينة ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ مستويةٍ ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلفُ فيها القرءانُ والتوراةُ والإنجيلُ، وتفسيرُ الكلمةِ قولُه: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ يعني تعالَوا إليها حتى لا نقولَ: عزيرٌ ابنُ الله، ولا المسيحُ ابنُ الله، لأنّ كلَّ واحدٍ منهُما بعضُنا، بشَرٌ مثلنا، ولا نُطيعَ أحبارَنا فيما أحْدَثوا مِنَ التحريم والتحليلِ من غيرِ رُجُوعٍ إلى ما شَرعَ الله، وعن عَدِيّ بن حاتم: ما كنَّا نعبدهم يا رسول الله، قال: «**أليس كانوا يُحِلُّونَ لكم ويُحَرِّمونَ فتأخذون بقولهم**»، قال: نعم، قال: «**هو ذاك**»[(١)] ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن التوحيدِ ﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي لَزِمَتكُم الحُجَّةُ فوجَبَ

---

(١) كانوا يأخذون بتحليل وتحريم أحبارهم على اعتقادٍ أنه من عند أنفسهم، لا على أنهم يأخذون من الكتاب المنزَّل فكان هذا عبادةً لهم، أما تقليد عوام المسلمين للأئمة والعملُ بموجَب فتاواهم في التحليل والتحريم فإنما هو لاعتقادهم أنهم يأخذون من كتاب الله، فليس ذلك عبادة للأئمة.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾

عليكُم أن تَعتَرِفُوا وتُسَلِّموا بأنّا مُسلِمُون دُونَكُم، كما يقولُ الغَالبُ للمغلُوبِ في جِدالٍ أو صِرَاع: اعترف بأنّي أنا الغالِب، وسلِّمْ إليَّ الغَلبةَ.

٦٥- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ زَعَم كل فريقٍ منَ اليهودِ والنصارَى أنَّ إبراهيمَ كان منهم، وجَادَلُوا رسولَ الله ﷺ والمؤمنينَ فيه، فقيلَ لهم: إنَّ اليهودية إنما حدَثت بعدَ نُزولِ التوراةِ، والنصرانيةَ بعد نزولِ الإنجيلِ، وبين إبراهيمَ وموسى ألفُ سنة، وبينه وبين عيسى ألفانِ، فكيفَ يكونُ إبراهيمُ على دِينٍ لم يَحدُث إلا بعدَ عهدِهِ بأزمِنَةٍ مُتطاوِلَةٍ ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾ حتى لا تُجادلوا مثلَ هذا الجدال المحال.

٦٦- ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ها للتنبيه، وأنتم مبتدأٌ، وهؤلاء خبرُهُ ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾ يعني أنتُم هؤلاء الأشخاصُ الحمقَى، وبيانُ حماقَتِكُم وقِلةِ عقولِكُم أنكم جادلتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ مما نطقَ به التوراةُ والإنجيلُ ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾ ولا ذِكرَ له في كتابَيكُم من دينِ إبراهيم ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ عَلِمَ ما حَاجَجْتُم فيه ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ وأنتم جاهِلُون به.

ثم أعلَمهُم بأنه بريء من دينهم فقال:

٦٧- ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾ كأنه أرادَ بالمشركينَ اليهودَ والنصارى لإشراكِهم به عُزَيرًا والمسيحَ، أو وما كانَ مِنَ المشركين كما لم يكنْ منهم.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت
طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ
بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

٦٨- ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ إنّ أخصَّهم به وأقربَهم منه ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ في زَمانِهِ وبعدَهُ ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ خصوصًا، خُصَّ بالذكر لخصوصيتِهِ بالفضل، والمراد محمدٌ عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من أمّتِهِ ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ ناصِرُهم.

٦٩- ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ همُ اليَهُودُ؛ دعَوا حُذَيْفَةَ وعَمارًا ومُعاذًا إلى اليهودية ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وما يعود وبالُ الإضلالِ إلا عليهم، لأن العذابَ يُضَاعَفُ لهم بضَلالِهم وإضلالهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بذلك.

٧٠- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالتوراةِ والإنجيل، وكُفرهم بها أنهم لا يؤمنونَ بما نطَقَتْ به من صحة نُبوةِ رسول الله ﷺ وغيرها ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ تَعترِفُونَ بأنها ءاياتُ الله، أو تَكفُرون بالقرءانِ ودلائلِ نبوة الرسول، وأنتم تَشهَدُونَ نَعتَه في الكِتَابَينِ، أو تكفُرون بآياتِ الله جَميعًا وأنتم تعلَمُونَ أنها حقٌّ.

٧١- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ تَخلِطُون الإيمانَ بموسى وعيسى بالكفرِ بمحمدٍ ﷺ ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ نَعْتَ محمدٍ عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ أنه حقٌّ.

٧٢- ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فيما بينهم ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي القرءانِ ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أظهِروا الإيمانَ بما أُنزِل على المسلمينَ في أوّلِ النهار ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ واكفُروا به ءاخِرَه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ لعلّ المسلمينَ يقولونَ: ما رجَعُوا وهم أهلُ كتاب وعِلمٍ

﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾

إلا لأَمر قد تَبيَّن لهم فيَرجِعُونَ برجُوعِكُم.

٧٣- ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ ولا تؤمنوا مُتعلّق بقوله ﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ﴾ وما بينهما اعتراض، أي ولا تُظهِروا إيمانَكم بأن يؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم إلا لأهلِ دينكم دون غيرِهم، أرادوا: أَسِرُّوا تصديقكم بأنَّ المسلمين قد أُوتوا من كتب الله مثلَ ما أوتيتم ولا تُفشوهُ إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتًا ودون المشركين لئلا يدعوَهم إلى الإسلام ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾ ولا تؤمنوا لِغَير أتباعِكُم أنَّ المسلمينَ يُحاجُّونكم يومَ القيامةِ بالحقّ ويُغالِبُونَكم عندَ الله بالحُجَّةِ، ومعنى الاعتراضِ أن الهُدى هُدى الله، من شاءَ هداه حتى أسلَم، أو ثبتَ على الإسلام كان ذلك، ولم ينفع كيدُكم وَحِيَلُكم وَزَيُّكم تصديقَكم[1] عن المسلمينَ والمشركين، وكذلك قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾ يُريدُ الهِدايةَ والتوفيقَ ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ واسِعُ الرحمة ﴿عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾﴾ بالمصلحة.

٧٤- ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ﴾ بالنبوة أو بالإسلام ﴿مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

٧٥- ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ هوَ عبد الله ابنُ سَلام، استَودعَه رَجُلٌ مِنْ قُريشٍ ألفًا ومائتَي أُوقيةٍ ذهَبًا فأدَّاهُ إليه ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ هو فَنْحاصُ بنُ عَازُوراءَ، استَودعَه رجلٌ من قُريش دينارًا فَجحدَه وخَانه، وقيلَ: المأمونُونَ على

---

(١) زَيّكم أي: منعكم وإخفاؤكم، وقوله: (تصديقَكم) مفعولُ (زَيُّكم).

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

الكثير النصارى لِغلَبةِ الأمانة عليهم، والخائِنُون في القَليلِ اليهودُ لِغَلبة الخيانةِ عليهم ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ إلا مُدّةَ دَوامِكَ عليه يا صاحبَ الحقّ قائمًا على رأسهِ مُلازِمًا له ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى تَرك الأداءِ ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي تركُهم أداءَ الحقوقِ بسببِ قولهم: ليس علينا في الأُميّين سبيلٌ، أي لا يتَطَرَّق علينا إثم وذَمٌّ في شأن الأُميّين، يعنُون الذين ليسوا من أهلِ الكتاب وما فعلنا بهم من حَبْسِ أموالهم والإضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا، وكانوا يستَحِلُّونَ ظُلْم مَن خالفَهُم، ويقولُون: لم يُجعل لهم في كتابنا حُرمَةٌ ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بادِّعائهم أنّ ذلك في كتابهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أنهم كاذبون.

٧٦- ﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لما نفوه مِنَ السبيل عليهم في الأُمّيين، أي بلى عليهم سَبيلٌ فيهم، وقولُه: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ كلُّ مَن أوفى بعَهد الله واتّقاه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ ويَدخُل في ذلكَ الإيمانُ وغيرُه مِنَ الصالِحاتِ، وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء.

٧٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلونَ ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بما عَاهَدوه عليه مِنَ الإيمانِ بالرسولِ المصَدّقِ لِما معهم ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمِنَنَّ به ولننصُرَنَّه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مَتاعَ الدنيا مِنَ الترؤس والارتشاءِ ونحو ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ لا نَصيب ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يَسُرُّهم ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ نَظَرَ رَحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يُثني عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ مُؤلم.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

٧٨- ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ من أهلِ الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾ هم كعبُ بنُ الأشرَف ومالِكُ بنُ الصَّيْفِ وحُيَيُّ بنُ أخْطَبَ وغيرُهم ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ يَفتلونها بقراءتِه عن الصحيح إلى المحرّف[1] واللَّيُّ الفَتْلُ وهو الصَّرفُ، والمرادُ تحريفُهم كآيةِ الرَّجم[2] ونَعتِ محمدٍ ﷺ ونحو ذلكَ ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ لتَحسَبُوا ذلكَ الشَّبَهَ ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي التوراةِ ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وليسَ هو منَ التوراةِ ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ زيادةُ تَشنيع عليهم ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أنهم كاذِبُون.

٧٩- ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تَكذِيبٌ لمن اعتقَدَ عِبادةَ عيسَى عليه السلامُ، وقيل: قال رجل: يا رسول الله نُسَلِّمُ عليك كما يُسَلِّم بعضُنا على بعض، أفلا نَسجُدُ لك قال: «**لا ينبغي أن يُسجَدَ لأحد من دون الله، ولكن أكرِمُوا نبيَّكم واعرِفوا الحَقَّ لأهله**» ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ والحكمةَ وهي السُّنةُ، أو فَصْلَ القَضاء ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ ولكن يقول: كونُوا ربّانيّين، والربانيُّ هو شَديدُ التّمسُّكِ بدينِ الله وطاعتِه، وقالوا: الربانيُّ العالِمُ العامِلُ المعَلِّم ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ غيرَكم ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ تقرؤون، والمعنى: بسبب كونِكم عالِمين وبسبب كونِكم دارِسين للعِلم كانت الرَّبانيَّةُ التي هي قُوّةُ التمسكِ بطاعة الله

(١) هذا يدلُّ على أنه في ذلك الوقت كان توراةٌ صحيحة، إنما كانوا يحرّفون الحكم ويفتون بخلاف ما فيها.

(٢) ءاية الرّجم حرّفوها في ذلك الوقت بالتفسير، أما اللفظ فما حرّفوه.

﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠ وَإِذۡ
أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا
مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ
فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾

مُسَبَّبَةً عن العلم والدراسة، وكفى به دليلًا على خَيبةِ سَعْيِ مَن جَهَدَ نفسَه وكَدّ رُوحَه في جَمْعِ العِلم ثم لم يجعله ذريعَةً إلى العَملِ، فكانَ كَمَن غرسَ شَجَرَةً حسناءَ تُؤنِقُه بمنظرِها ولا تنفعُه بثَمرِها.

٨٠- ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾ والمعنى: ما كانَ لبشَر أن يَسْتَنبِئَهُ اللهُ ويَنْصِبَه للدُّعاءِ إلى اختِصاصِ الله بالعبادةِ وتَركِ الأندادِ ثم يأمرَ الناسَ بأن يكونوا عِبادًا له، ويأمرَكُم ﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ﴾ الهمزةُ للإنكارِ، وقوله ﴿بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠﴾ يدُلُّ على أنّ المخاطَبِين كانوا مُسلِمينَ، وهمُ الذينَ استأذَنُوه أن يَسْجُدوا له.

٨١- ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هو على ظَاهِره مِنْ أَخْذِ الميثاقِ[1] على النّبيينَ بذلك ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾ لَلَّذي آتيتُكُموهُ [من الكتاب والحكمة] لَتُؤْمِنُنَّ به[2] ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ﴾ ثم جاءكم به ﴿رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ للكتاب الذي مَعكُم ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾ بالرسولِ ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ أي الرسولَ وهو محمدٌ ﷺ ﴿قَالَ﴾ الله ﴿ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ قَبِلتُم عَهدي، وسُمِّيَ إصرًا لأنه مما يؤصَرُ أي يُشَدُّ ويُعْقَدُ ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ﴾ فلْيَشْهَدْ بعضُكم على بعض بالإقرار ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾ وأنا معكم على ذلكم من إقرارِكم وتَشاهُدِكم من الشاهدين، وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع.

---

(١) أي: العهد وما وثَّقوا به أنفسهم طاعة الله فيما أمرهم به ونهاهم عنه ومتى جاءهم رسولٌ مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرنه.

(٢) وقيل: معناه لئن ءاتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مُصَدِّق لِما ءاتيتكموه لتؤمنن به ولتنصرنه.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ
عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾

٨٢- ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ [من أُمَمِ الأنبياء لأن التولّيَ لا يقع من الأنبياء، ولا يوصفون بالفسق، فالميثاق كان على الأنبياء وأممهم على التبعية، والتولّي يقع من الأمم خاصة] ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الميثاقِ والتوكيدِ، ونقضَ العَهدَ بعد قَبوله وأعرضَ عن الإيمانِ بالنبيّ الجائي [وهذا الفرض محال في حق النبيين، وإنما ذلك في حق الأتباع] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ المتمرّدونَ منَ الكفّار.

٨٣- ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [هو استفهامُ توبيخ وإنكار] ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الملائكةُ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ الإنسُ والجنُّ ﴿طَوْعًا﴾ بالنظر في الأدِلة والإنصافِ مِنْ نفسِه ﴿وَكَرْهًا﴾ بالسيفِ أو بمعاينَة العَذابِ، كنَتْقِ الجَبل[1] على بني إسرائيلَ، وإدراك الغَرق فرعونَ، والإشفاءِ على الموتِ[2] ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ فيُجازَون على الأعمال.

٨٤- ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بأن يُخبِر عن نفسِه وعمَّن معه بالإيمان ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أولادِ يعقوبَ[3] وكانَ فيهم أنبياءُ ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ

---

(١) أي: قَلعِه من أصلِه ورفعِهِ فوق قوم موسى عليه السلام عندما أَبَوا أن يقبلوا أحكام التوراة.
(٢) أي: الإشراف على الموت.
(٣) لعله أراد به ذريتَه لا أبناءه من صلبه الذين أساؤوا إلى يوسف، وإلا فإطلاقُهُ قولٌ باطلٌ، لأن من سبقت له تلك الأفعال الخسيسة لا يليق بمنصب النبوة، لأن الناس ينفرون منه. وليس معنى الأسباط صريحًا في إرادتهم من حيث اللغة، وكذلك الأولاد يطلق على الذرية وليس فقط على أولاده من صلبه.

﴿وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤ وَمَن يَبۡتَغِ
غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا
كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٧ خَٰلِدِينَ
فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٨٩﴾

وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ مِنْ عندِ ربّهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ في الإيمانِ بهم كما فعَلتِ اليهودُ والنصارى ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ مُوحّدُون مخلصُون أنفُسَنا له، لا نجعلُ له شريكًا في عبادتنا.

٨٥- ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا﴾ غيرَ دينِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ مِنَ الذينَ وقَعوا في الخُسران، ونَزلَ في رَهطٍ أسْلَموا ثم رجَعوا عن الإسلام ولحِقُوا بمكة.

٨٦- ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ﴾ أي كفروا وقد شهدوا أنَّ محمدًا عليه السلام حقٌّ، معناه بعدَ أن ءامنوا ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ الشواهدُ كالقرءان وسائرِ المعجزات ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾ ما دَاموا مُختارِيْنَ الكفرَ.

٨٧-٨٨ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في اللّعنة، [أو النار لدِلالة اللعنة عليها ودِلالة قوله:] ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨﴾ [يُمهَلون لتوبة أو مَعذِرة].

٨٩- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ الكفرِ العظيم والارتداد ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسَدوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لكُفرهم ﴿رَّحِيمٌ ٨٩﴾ بهم.

ونزَل في اليهود:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا
وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا
تُحِبُّونَۚ﴾

٩٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بعيسى والإنجيل ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ بموسى والتوراة ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ بمحمد ﷺ والقرءان، أو كفروا برسول الله ﷺ بعدما كانوا به مؤمنين قبلَ مَبْعَثه، ثم ازدادوا كفرًا بإصرارهم على ذلك، وطعنهم فيه في كل وقت، أو نزل في الذين ارتدُّوا ولَحِقوا بمكة. وازديادهم الكفرَ أن قالوا: نُقيم بمكةَ نتربَّصُ بمحمد ريبَ المَنُونِ(١) ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ إيمانُهم عندَ البأس [أي عند معاينة العذاب]، لأنهم لا يتوبونَ إلا عند الموت، قالَ الله تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة غافر] [أي عذابنا الشديد، لأنه قد مضى في حكم الله أنَّ من تاب بعد نزول العذاب من الله على تكذيبه لم تنفعه توبته] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾.

٩١- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ فلَن يُقبَلَ مِنْ أحَدِهم فِدْيَةٌ ولو افتَدى بملء الأرضِ ذَهبًا. قال عليه الصلاة والسلام: «**يقال للكافر يوم القيامة: لو كان لك مِلْءُ الأرض ذهبًا أَكُنتَ مفتديًا به، فيقول: نعم، فيقال له: لقد سُئِلْتَ أيسرَ من ذلك**». وسبب امتناع قبول الفدية الموت على الكفر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ مؤلم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ مُعِينينَ دافِعين للعذاب.

٩٢- ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ﴾ لن تبلغوا حقيقة البِرّ، أو لن تنالوا بِرَّ الله وهو ثوابه ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ حتى تكونَ نفَقتُكم من أموالِكُم التي

(١) أي: حوادثَ الدهر، أي ننتظر موته كما هلك الشعراء المشهورون قبلَه كزهير والنابغة الذبياني.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا
مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾

تُحِبونها وتؤثِرُونَها ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ هو عليم بكلّ شيء تنفِقُونه فيُجازِيكُم بحَسَبِه.

ولَمّا قالت اليهود للنبي عليه السلام: إنك تدَّعي أنك على مِلَّة إبراهيم وأنت تأكل لحوم الإبِلِ وألبانَها، فقال عليه السلام: «**كان ذلك حلالًا لإبراهيم**» فقالت اليهود: إنها لم تزل مُحرَّمة في مِلَّة إبراهيم ونوح عليهما السلام، نزل تكذيبًا لهم:

٩٣- ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ أي المطعوماتِ التي فيها النّزاع؛ فإنَّ منها ما هوَ حَرام قبلَ ذلك كالمَيتة والدّم، ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي حلالًا ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ يعقوبُ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ وهوَ لُحومُ الإبل وألبانُها، وكانا أحَبَّ الطعام إليه، والمعنى أنَّ المطاعِمَ كلَّها لم تَزل حلالًا لبني إسرائيلَ مِنْ قَبلِ إنزال التوراةِ سِوَى ما حَرّم إسرائيلُ على نفسه، فلما نزلت التوراةُ على موسى حُرّم عليهم فيها لحومُ الإبل وألبانُها لِتَحريم إسرائيلَ ذلكَ على نفسه ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ أُمِرَ بأن يُحَاجَّهم بكتابهم ويُبَكِّتَهم بما هو ناطقٌ به مِنْ أنَّ تحريم ما حُرّمَ عليهم تحريمٌ حادثٌ بسبب ظُلمهم وبَغْيِهِم لا تَحرِيمٌ قَدِيم كما يدّعُونَه، فلم يَجْسُرُوا[1] على إخراجِ التوراةِ وبُهِتُوا. وفيه دليلٌ بيّن على صِدق النبي عليه الصلاة والسلام، وعلى جَوازِ النّسخ الذي يُنكِرونَه.

٩٤- ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بزَعمه أنَّ ذلكَ كان مُحَرَّمًا في ملَّةِ إبراهيمَ ونُوح عليهما السلام ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ مِنْ بعد ما لَزِمَهُم منَ

---

(١) أي: فلم يَجْرُؤُوا، وبُهِتُوا أي انقطعوا وتحيَّروا ولم يجدوا جوابًا.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

الحُجَّةِ القَاطِعة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ المكابِرُونَ الذين لا يُنصِفون من أنفسِهم ولا يَلتفِتُونَ إلى البيّناتِ.

٩٥- ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ في إخبارِه أنه لم يُحَرّم، وفيه تَعريضٌ بكذبِهم، أي ثبتَ أنّ الله تعالى صَادقٌ فيما أنزَلَ وأنتم الكاذبون ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهي مِلّةُ الإسلام التي عليها محمدٌ عليه الصلاة والسلام ومَنْ ءامنَ معه، حتى تَتَخَلّصُوا مِن اليهودية التي وَرَّطَتكُم في فَسادِ دِينكم ودُنياكُم، حيثُ اضطَرَّتْكُم إلى تَحرِيفِ كتابِ الله لتَسويةِ أغراضِكم[1]، وألزَمتكُم تَحريمَ الطيباتِ التي أحَلَّها الله لإبراهيمَ ولمن تَبِعَه ﴿حَنِيفًا﴾ مائلًا عن الأديانِ الباطلةِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

ولمَّا قالتِ اليَهودُ للمسلمينَ، قِبلَتُنا قبلَ قبلَتِكُم، نَزَلَ:

٩٦- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ والواضِعُ هوَ الله عزَّ وجلَّ، ومعنى وَضَعَ الله بَيتًا للناسِ أنه جعله مُتَعبَّدًا لهم، فكأنه قال: إنَّ أوَّلَ مُتَعَبَّدٍ للناس الكعبةُ، وفي الحديث أنَّ المسجد الحرام وُضِعَ قبل بيت المقدس بأربعين سنةً وهو أولُ بيت بَناه ءادمُ عليه السلام في الأرضِ ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ لَلبيتُ الذي بِبَكّة، وهي عَلَم للبلَدِ الحرام، ومكةُ وبكّة لُغتان فيه، وقيلَ: مكّةُ البلَدُ وبَكّةُ مَوضِعُ المَسجد، وقيل لأنها تَبُكُّ أعناق الجبابرة، أي تَدُقُّها، ولم يقصدها جَبّارٌ إلا قَصَمَهُ الله ﴿مُبَارَكًا﴾ كثيرَ الخيرِ لِمَا يَحصُل للحُجّاج والمعتَمِرين مِنَ الثواب وتكفير السيئات ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ لأنه قِبلَتهُم ومُتَعبَّدُهم.

---

(١) أي: لتحصيلها.

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا﴾

٩٧- ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ علاماتٌ واضِحاتٌ لا تَلْتَبِسُ على أحَدٍ ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ [ويشتمل] على ءايات، لأنّ أثرَ القَدَم في الصَّخْرةِ الصّماءِ(١) ءايةٌ، وغوصَهُ فيها إلى الكَعبين ءايةٌ، وإلانَةَ بعضِ الصّخرة دونَ بعض ءايةٌ، وإبقاءَه دونَ سائر ءاياتِ الأنبياء عليهِمُ السلامُ ءايةٌ لإبراهيمَ خاصَّة، على أنَّ ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ يدُل على أَمْنِ دَاخِله، كأنه قيل: فيه ءايات بيناتٌ مقامُ إبراهيمَ وأَمْنُ داخله، وكثير سواهما، وقيل في سبب هذا الأثر: إنه لمَّا ارتفع بنيان الكعبة وضَعُف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ استقرَّ لَه عليهم فرضُ الحجّ ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ بالزّادِ والرّاحِلَة ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ جَحَد فرضية الحج ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ مُسْتَغْن عنهم وعن طَاعتهِم، وفي هذه الآيةِ أنواعٌ مِنَ التأكيد والتشديد، أي أنه حَقٌّ واجبٌ لله في رِقابِ الناس، وذِكرُ الاستغناء دليل على المَقْتِ والسَّخَطِ.

٩٨- ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ لِمَ تكفُرونَ بآياتِ الله الدالةِ على صِدْقِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، والحالُ أنَّ الله شهِيدٌ على أعمالِكُم فيُجازِيكُم عليها؟!

٩٩- ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ الصّدُّ المَنْعُ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ﴾ عن دينٍ حَقٍّ عَلِمَ أنه سبيلُ الله التي أمرَ بسلُوكها وهو الإسلام، وكانوا يمنَعون مَنْ أرادَ الدخولَ فيه بجهدِهم ﴿تَبۡغُونَهَا﴾ تَطلبُون

---

(١) أي: الصُّلبةِ المُصْمَتة.

﴿عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

لها ﴿عِوَجًا﴾ اعوِجاجًا ومَيلًا عن القَصد والاستقامةِ بتغييركم صفةَ رسولِ الله ﷺ عن وجهِها ونحوِ ذلك ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أنها سَبيلُ الله التي لا يَصُدُّ عنها إلا ضالٌّ مُضِل ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ منَ الصّدّ عن سَبيلِهِ، وهو وَعيدٌ شَديدٌ.

١٠٠- ثم نهى المؤمنينَ عن اتباعِ هؤلاء الصّادّين عن سَبيلهِ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ قيلَ: مَرَّ شَأسُ بنُ قَيْس اليهوديُّ على نفَر منَ الأنْصار منَ الأَوْس والخَزْرج في مَجلِس لهم يتَحدثونَ، فغَاظَه تَحدُّثُهم وتأَلُّفهم، فأمرَ شَابًّا منَ اليَهُودِ أن يُذَكّرَهم يومَ بُعاثٍ[1] لعلَّهم يغضَبُون، وكان يومًا اقتتَلت فيه الأوسُ والخزرج، وكان الظَّفَرُ فيه للأَوس، ففعَل، فتنَازَع القومُ عندَ ذلك، وقالُوا: السّلاحَ السّلاحَ، فبَلَغَ النبيَّ عليه الصلاة والسلام، فخرجَ إليهم فِيمن معه مِنَ المهاجِرين والأنصارِ، فقال: «**أَتَدْعُونَ الجاهليةَ وأنا بين أَظهُرِكُم بعدَ إذ أكرمكم الله بالإسلام وألَّفَ بينكم**». فعرَف القومُ أنها نَزْغَةٌ[2] منَ الشيطان، فألقَوا السّلاح وعانقَ بعضُهم بعضًا باكِيْن، فنزَلت الآية.

١٠١- ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ معنى الاستفهام فيه الإنكار [والتعجيب، أي] مِن أين يتَطرّق إليكمُ الكفرُ، [سؤالُ استبعادِ الكفر منهم مع هاتين الحالتين، وهما تلاوة كتاب الله عليهم وهو القرءان الظاهر الإعجاز، وكَيْنُونَةُ الرسولِ فيهم الظاهِرُ على يديه الخوارقُ] ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

---

(١) بالصرف وعدمِه، اسم حصن أو بستان وقعت الحرب عنده بين الأوس والخزرج قبل الهجرة بخمس سنين.

(٢) أي: إفسادٌ.

﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٠١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾

ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ على لِسَانِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام غَضَّةً طَرِيّةً ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ وبينَ أظهركم رسولُ الله عليه الصلاة والسلام يُنَبِّهكُم ويَعِظُكم ويُزيحُ عنكم شُبَهَكُم ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ﴾ ومَنْ يتَمسَّكْ بدِينِهِ أو بكتابه، أو هوَ حَثٌّ لهم على الالتجاءِ إليه في دَفْع شُرور الكفار ومكايدهم ﴿فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٠١﴾ أُرشِدَ إلى الدّين الحقّ، أو ومَنْ يَجعل ربَّه مَلجَأ ومَفْزَعًا عندَ الشُّبَه يحفَظه عن الشُّبَه.

١٠٢- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ واجبَ تَقواهُ وما يَحِقُّ منها، وهوَ القِيامُ بالواجِب والاجتنابُ عن المحارِم ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٢﴾ ولا تَكونُنَّ على حالٍ سِوَى حالِ الإسلام إذا أدركَكُم الموتُ.

١٠٣- ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾ تَمسَّكُوا بالقرءانِ لقوله عليه السلام: «**القرءان حَبْلُ الله المتين**(١) **لا تنقضي عجائبه ولا يَخْلَقُ عن كثرة الرَّدِّ**(٢)**، من قال به صَدَقَ ومن عمل به رَشَدَ ومن اعتصم به هُدِيَ إلى صراط مستقيم**» ﴿جَمِيعٗا﴾ وقيل: تَمسّكُوا بإجماع الأُمّة دليلهُ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ أي ولا تَتفرّقوا، يعني ولا تفعَلُوا ما يكونُ عنه التّفرقُ ويزولُ معه الاجتماع ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ كانوا في الجاهلية بينهم العَداوةُ والحُروبُ، فأَلّف بينَ قُلوبهِم بالإسلام، وقذَفَ في قُلوبهِمُ المَحبّةَ، فتَحابُّوا وصَارُوا

---

(١) أي: الوُصْلَةُ والوسيلةُ القويَّة المُوصلةُ إلى رضاه عَزَّ وجلّ.
(٢) أي: لا يَبلَى ولا يُمَلُّ من كثرة التكرار والتَّرْداد.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ﴾

إخوانًا ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وكنتم مُشْفِين[1] على أن تقعُوا في نارِ جَهنّم، لِمَا كنتُم عليه منَ الكُفْر ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإسلام، وشَفَا الحُفْرةِ: حَرْفُها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك البيان البليغ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي القرءانَ الذي فيه أَمْرٌ ونَهيٌ ووَعْدٌ ووَعِيدٌ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ لِتكونوا على رَجاءِ الهِداية، أو لتَهْتَدُوا به إلى الصَّواب وما يُنالُ به الثَّوابُ.

١٠٤- ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بما استَحْسَنه الشَّرعُ والعَقلُ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عَمّا استَقبَحَه الشّرعُ والعَقلُ، أو المعروف ما وافق الكتاب والسنة، والمنكر ما خالفهما، والدعاء إلى الخير عامٌّ في التكاليف من الأفعال والتروك، وما عطف عليه خاص، ومِن للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يصلُحُ له إلا مَن عَلِمَ بالمعروف والمنكر وعَلِمَ كيف يُرَتِّب الأمر في إقامته، فإنه يَبدأُ بالسهل فإن لم ينفع ترقَّى إلى الصعب ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ همُ الأخصّاء بالفَلاح الكامِل.

١٠٥- ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾ بالعَداوةِ ﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ في الدّيانة وهمُ اليَهُودُ والنصارَى، فإنّهم اختلَفُوا وكفَّر بَعضُهم بعضًا ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ المُوجِبَةُ للاتّفاقِ على كلمةٍ واحِدَةٍ، وهي كلمةُ الحقّ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

١٠٦- ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ أي وجُوهُ المؤمنينَ ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وجوهُ الكافِرينَ. والبَياضُ مِنَ النُّور، والسَّوادُ مِنَ الظُّلْمة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ

---

(١) أي: مُشرفين.

﴿وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ
ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ
أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

﴿وُجُوهُهُمْ﴾ فيقالُ لَهم ﴿أَكَفَرْتُم﴾ الهَمزةُ للتّوبيخ [والتّعجيب] مِنْ حَالِهِم ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يومَ الميثاقِ، فيكونُ المرادُ به جميعَ الكفارِ، أو هم المرتدون ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

١٠٧- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ ففي نِعمَتِه، وهي الثوابُ المخلَّدُ، ثم استأنفَ فقالَ: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ لا يَظْعَنُون عنها[1] ولا يَموتُونَ.

١٠٨- ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الوارِدَةُ في الوَعْدِ والوَعِيدِ وغيرِ ذلكَ ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ [نوحيها إليكَ بعضَها على إثرِ بعض، وقيل: أي جبريلُ يتلوها عليك بأمرنا] مُلْتَبِسَةً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ [أي بالصدق، وقيل: لبيان الحقِّ] مِن جَزاءِ المُحسِن والمُسيء ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ لا يشاءُ أن يَظْلِمَ هو عبادَه، [أي أنَّ مشيئة الظلم لا تحصل منه، لأنَّ الظلم مستحيل عليه ولا يتصوَّرُ منه سبحانه وتعالى وهو مالك المُلك، فلا يَحِقُّ عليه شيء فيظلِمَ بنقصه، ولا يُمنع من شيءٍ فيظلمَ بفعله، وله ما في السماوات وما في الأرض وإليه تُرجع الأمور فيجازي كلًّا بما وعد به وأوعد، فلا يَأخذُ] أحدًا بغير جُرْمٍ أو يَزيدُ في عِقَاب مُجرم [على ما يستحقُّه] أو يَنقُصُ مِنْ ثوابِ مُحْسِن.

١٠٩- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ فيُجازِي المحسِنَ بإحسَانه والمسِيء بإساءتِه.

١١٠- ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كأنه قيل: وُجِدْتُم خيرَ أُمة، أو كنتُم في الأُمم قبلكم مذكورين بأنكم خيرُ أُمة ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أُظهرَت للناس

---

(١) أي: لا يخرجون منها.

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ
وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا
بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمانِ وطاعةِ الرسولِ ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الكُفر وكُلّ مَحظور ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ وتَدُومونَ على الإيمانِ به ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ﴾ لَكانَ الإيمانُ خيرًا لهم مما هم فيه، لأنهم إنما ءاثروا دِينهُم على دينِ الإسلام حُبًّا للرِّيَاسَةِ واستِتباعِ العَوامّ[1]، ولو ءامنوا لكان لهم مِنَ الرياسة والأَتباع وحظُوظِ الدنيا ما هو خيرٌ مما ءاثروا دينَ الباطِل لأجلهِ مع الفَوز بما وُعدوا على الإيمانِ به مِن إيتاءِ الأجر مرتين ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبدِ الله بنِ سلام وأصحابهِ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ المتمرّدونَ في الكفر.

١١١- ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ﴾ إلا ضَرَرًا مقتَصِرًا على أذًى بقولٍ مِن طَعنٍ في الدين أو تَهديدٍ أو نَحوِ ذلك ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ منهزمين ولا يَضرّوكم بقتل أو أَسر ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ ثم لا يكونُ لهم نَصرٌ مِنْ أحَد، ولا يُمنَعُون منكم، وفيه تثبيتٌ لمن أسلَم منهم، لأنهم كانوا يؤذُونهم بتَوبيخِهم وتَهديدهم.

١١٢- ﴿ضُرِبَتْ﴾ أُلزِمَت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ على اليهود ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ وُجِدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إلا معتَصِمين أو متَمسّكين بحَبلٍ منَ الله ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الحبلُ: العَهدُ والذِّمة، والمعنى ضُرِبَت عليهمُ الذلّة في كل حال إلا في حَالِ اعتِصَامِهم بحَبل الله وحَبلِ الناس، يعني ذِمَّةَ الله وذِمّةَ المسلمينَ، أي لا عِزَّ لَهُم قَطُّ إلا هذِه الواحِدة، وهي

---

(١) أي: ليتبعَهُم عوام الناس.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾

التِجاؤهم إلى الذِّمة، لِما قَبِلُوه منَ الجِزية [وحفظ المسلمين لعهد الذمة فيهم، وإلا فهذا لا يخرجهم من الذِّلَّة في أنفسهم] ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استوجَبُوه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ الفقرُ عقوبةً لهم على قَولِهم: إنّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ، أو خَوفُ الفقر مع قيام اليسار ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ذلكَ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِنْ ضَرْبِ الذِّلّة والمَسكَنَة والبَوء[1] بغَضب الله، أي ذلك كائنٌ بسبَب كفرهم بآياتِ الله وقتلِهمُ الأنبياءَ بغَير حقّ، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي ذلكَ الكفرُ وذلكَ القَتلُ كائنٌ بسبَب عصيانِهم لله واعتِدائِهم لحدوده.

١١٣- ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ ليس أهلُ الكتاب مُستَوِين ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ جماعةٌ مستقيمةٌ عادِلةٌ وهم الذينَ أسلَمُوا منهم ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرءانَ ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ سَاعاتهِ ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ يُصَلُّونَ.

١١٤- ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمانِ وسائرِ أبوابِ البرّ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الكفرِ ومَنهِيّات الشرع ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يُبادِرُون إليها خَشْيَة الفَوت ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المَوصُوفُون بما وُصِفُوا به ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ منَ المسلمينَ، أو مِنْ جملة الصالحينَ الذينَ صَلَحَتْ أحوالُهم عندَ الله ورَضِيَهُم.

---

(١) البَوْءُ: الرُّجوع.

﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ١١٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن
تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ١١٦ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ
قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١١٧ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾

١١٥- ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ﴾ فلَن يُحرَمُوا جَزاءَهُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ١١٥﴾ بشَارة للمتقين بجزِيل الثواب.

١١٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾ أي مِنْ عذابِ الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾.

١١٧- ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في المَفَاخِرِ والمَكَارِمِ وكَسْبِ الثناء وحُسْنِ الذِّكر بينَ الناسِ، أو ما يتقرّبون به[1] إلى الله معَ كُفْرِهم ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ كَمَثَلِ مُهلَك رِيْح، وهو الحَرْثُ، أو مَثلُ إهلاكِ ما يُنفِقُونَ كَمَثَل إهلاك ريح ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ بَردٌ شَديدٌ ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكُفر ﴿فَأَهْلَكَتْهُۚ﴾ عقوبةً على كفرِهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإهلاكِ حرثهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١١٧﴾ بارتكابِ ما استَحقُّوا به العقوبة.

١١٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ بطانَةُ الرَّجُلِ خَصِيْصَتُه وصَفِيُّه، شُبّه ببِطانة الثّوبِ ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ مِنْ دون أبناء جنسِكم، وهم المسلمونَ ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ لا يُقَصّرون في فسَادِ دِينِكُم، يقال: ألَا في الأمر يألو: إذا قَصَّرَ فيه، والخَبَالُ الفساد ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي عَنَتَكُم، والعنَتُ شِدّة الضّرَر والمشَقّة، أي تَمنَّوا أن يَضُرّوكم في دينِكم ودُنياكم أشَدَّ الضرر وأَبلَغه ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ لأنهم لا

---

(١) أي: بحسب زعمهم.

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَاأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا
يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ
ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾

يَتَمالكُون مع ضَبطهم أَنفُسَهم أن ينفَلِتَ من ألسنتهم ما يُعلَم به بُغضهُم للمسلمين ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من البغض لكم ﴿أَكْبَرُ﴾ مما بَدَا ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَاتِ﴾ الدالةَ على وجوبِ الإخلاصِ في الدِّين وموالاةِ أولياءِ الله ومُعاداةِ أعدائه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ ما بُيِّنَ لكم.

١١٩- ﴿هَاأَنتُمْ أُولَاءِ﴾ أي أنتم أُولاءِ الخاطِئُونَ في مُوالاةِ مُنافِقِي أهلِ الكِتَاب ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بَيانٌ لخطئهم في مُوالاتِهم حيث يَبذُلون مَحبّتَهم لأهلِ البَغضاء ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ تؤمنون بكتابهم كلِّه، وهم مع ذلك يُبغِضُونكم، فما بالُكم تُحبُّونهم وهم لا يؤمنون بشيء مِنْ كِتابكم؛ وفيه تَوبيخٌ شَديد لأنهم في باطِلِهم أصْلَبُ مِنكُم في حَقِّكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أظهَرُوا كلمةَ التّوحيدِ ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ فارَقُوكم أو خَلا بَعضُهم ببَعضٍ ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ يُوصَفُ المُغتَاظُ والنادمُ بِعَضّ الأناملِ والبَنان والإبهام ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ دُعاءٌ عليهم بأن يَزداد غَيظُهم حتى يَهلِكوا به، والمرادُ بزيادةِ الغَيظِ زيادةُ ما يغِيظُهم مِنْ قُوةِ الإسلام وعِزّ أهلِهِ وما لَهُم في ذلكَ مِنَ الذُّلِّ والخِزْيِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ فَهو يَعلَمُ ما في صُدور المنافقينَ مِنَ الحَنَقِ[1] والبَغضاء، وما يكونُ منهم في حالِ خُلُوّ بعضهم ببعض، وهو داخلٌ في جملةِ المقول، أي أَخْبِرْهُم بما يُسِرُّونه من عَضِّهم الأناملَ غيظًا إذا خَلَوا، وقل لهم: إنَّ الله عليم بما هو أخفَى مما تُسِرُّونه بينكم وهو مُضمَرات الصدور فلا تظنّوا أنَّ شيئًا من أسراركم يَخفى عليه.

١٢٠- ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ رَخاءٌ وخِصْبٌ وغنِيمَةٌ ونُصْرَة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾

---

(١) الحَنَقُ: الغَيْظ.

﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ
بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ١٢١ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا﴾

تُحزنْهُم إصابَتُها ﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ أضداد ما ذكرنا ﴿يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ بإصابتها ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ على عَداوَتِهِم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ما نُهيتُم عنه مِنْ مُوالاتِهِم ﴿لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ مَكْرُهم، وكنتُم في حِفْظِ الله، وهذا تَعليمٌ منَ الله وإرشادٌ إلى أن يُستعانَ على كيدِ العَدُو بالصّبرِ والتّقوى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ أي أنه عالمٌ بما يَعمَلُونَ في عدَاوَتِكُم فمعاقِبُهم عليه.

١٢١- ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ واذكر يا محمدُ إذ خَرجْتَ غُدْوَةً[١] مِنْ أهلِكَ بالمدينة، والمرادُ غُدُوّه مِنْ حُجْرة عائشةَ رضي الله عنها إلى أُحُدٍ ﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تُنْزِلُهم ﴿مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ﴾ مَواطِنَ ومَواقِفَ مِنَ المَيْمَنَةِ والمَيْسَرةِ والقَلْبِ والجَناحَين والسَّاقَة[٢] ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾ سَميعٌ لأقْوالِكم عليم بِنيّاتِكُم وضَمائِرِكُم.

١٢٢- ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ﴾ حَيّان مِنْ الأنصار: بنو سَلِمَةَ منَ الخَزْرج وبنو حَارثة منَ الأَوْس، وكانَ عليه الصلاة والسلام خَرجَ إلى أُحُد في ألفٍ، والمشركونَ في ثلاثةِ ءالافٍ، ووعَدَهُمُ الفَتح إنْ صَبروا، فانْخَزَلَ[٣] عبدُ الله بنُ أبي[٤] بثُلُث الناس، وقالَ: عَلَام نَقتلُ أنفُسَنا وأولادَنا، فهَمَّ الحَيّان باتّباعِه، فعصَمَهُمُ الله فَمضَوا معَ رسول الله عليه الصلاة والسلام ﴿أَن تَفۡشَلَا﴾ أي بأن تَجْبُنا وتَضعُفا، والفَشَلُ: الجُبْن

---

(١) الغُدْوَةُ: بفتح الغين وضمّها، الخروج أوَّل النهار.
(٢) قلبُ الجيش: وسطُه، وجناحاهُ: جانباه، وساقتُه: مؤخِّرتُه.
(٣) انْخزَلَ: انقطَعَ ورجَع.
(٤) عبد الله بن أبي المشهور بابن سلول، وسلول جدته لأبيه، رأس المنافقين في الإسلام.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم﴾

والخَوَر[١] ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ مُحِبُّهما أو ناصرهما أو مُتولي أَمرِهما، فما لهما تفشلان ولا تتوكلان على الله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أَمرَهم بأَلَّا يتوكلوا إلا عليه ولا يُفَوِّضوا أُمورَهم إلا إليه.

١٢٣- ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ﴾ وهو اسمُ ماءٍ بينَ مكّةَ والمدينةِ كانَ لرجل يُسمَّى بَدرًا فسُمّيَ به، أو ذَكَرَ بَدرًا بعدَ أُحد للجَمْع بينَ الصّبر والشُّكر ﴿وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ لقِلّة العَدد - فإنهم كانوا ثلاثَمائة وبِضعَةَ عشَر، وكانَ عَدُوُّهم زُهاءَ ألفِ مُقاتل - والعُدَدِ - فإنهم خرجوا على النّواضح[٢] يَعْتَقِبُ النَّفَر منهم على البعير الواحِد، وما كان معهم إلا فرسٌ واحد، ومع عدُوهم مائةُ فَرس - والشِّكَّةِ والشَّوكةِ[٣] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الثباتِ مع رَسُوله ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ بتَقواكم ما أَنْعَمَ اللهُ به عليكم منَ النَّصْر.

١٢٤- ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يومَ بدر، أو يومَ أُحد ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ للنُّصْرة، ومعنى ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ﴾ إنكارُ أَلّا يكفيَهمُ الإمدادُ بثلاثة ءالافٍ منَ الملائكة.

١٢٥- ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ إيجابٌ لِمَا بعدَ «لن»، أي يكفِيكُم الإمداد بهم، فأَوْجَب الكفايةَ[٤]، ثم قال: ﴿إِن تَصۡبِرُواْ﴾ على القِتالِ ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ خِلَافَ الرّسولِ عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَأۡتُوكُم﴾ يعني المشركينَ

---

(١) الخَوَرُ: الضعف.
(٢) النواضح: جمع الناضح وهو البعير.
(٣) الشِّكَّةُ: بالكسر السلاحُ، والشوكة: السلاحُ أو حِدَّتُه.
(٤) أي: أثبتَها.

﴿مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا
بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا
مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ
يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾

﴿مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ مِنْ ساعتهم هذه ﴿يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ في حالِ إتْيانهم لا يتأخّر نُزولهم عن إتيانهم، يعني أنّ الله تعالى يُعَجّلُ نُصْرَتكم وَيُيَسّر فَتْحَكم إن صبرتُم واتّقيتم ﴿مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ مُعلِّمينَ أنفُسَهم أو خَيلَهم بعلامة يُعرفون بها في الحرب.

١٢٦- ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ﴾ أي وما جعل الله إمدادَكم بالملائكة إلا بِشَارةً لكم بأنكم تُنصَرون ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ كما كانت السَّكِينةُ لبني إسرائيل بِشارةً بالنصر وطُمأنينةً لقلوبهم ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا مِن عند المقاتِلة ولا مِن عند الملائكة، ولكنّ ذلك مما يُقَوّي به اللهُ رجاءَ النُّصرة والطمعَ في الرحمة ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالَبُ في أحكامه ﴿ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾ الذي يُعطي النصر لأوليائه ويبتليهم بجهاد أعدائه.

١٢٧- ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ليُهلِكَ طائفةً منهم بالقتل والأسر، وهو ما كان يومَ بدر من قتل سبعين وأَسرِ سبعين من رؤساء قريش ﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ﴾ أو يُخزيَهم ويَغيظَهم بالهزيمة، وحقيقةُ الكَبْتِ شِدَّةُ وَهْنٍ تقع في القلبِ فيُصرَعُ في الوجه لأجله ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾ فيرجِعوا غيرَ ظافرين بمبتغاهم.

١٢٨- ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ المعنى أنَّ الله تعالى مالكُ أَمرِهم فإما أن يُهلِكَهُم أو يَهزِمَهُم أو يتوبَ عليهم إن أسلموا ﴿أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾ إن أصَرّوا على الكفر، إنما أنتَ عبدٌ مبعوثٌ لإنذارهم ومُجاهَدَتهم ﴿فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ مستَحِقُّونَ للتعذيب.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ
تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ
تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ
لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

١٢٩- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي الأمرُ له، لا لك، لأنّ ما في السمٰوات وما في الأرضِ مِلكُه ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [المغفرةَ له] ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [تعذيبَهُ] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ [لأوليائه] ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ [بأهل طاعته].

١٣٠- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ هذا نهيٌ عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه، كان الرجلُ منهم إذا بلغَ الدَّينُ مَحِلَّه يقولُ: إما أن تقضيَ حقّي أو تُرْبِيَ وأزيدَ في الأجل. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في أكله ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

١٣١- ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ أوْعَدَ الله المؤمنينَ بالنارِ المعدَّةِ للكافرين إن لم يتّقُوه في اجتنابِ محارِمه، [وقد أخبر سبحانه وتعالى أنها أُعدت للكافرين فلا يكون فيها خلود للمؤمنين وإن دخلوها بذنوبهم].

١٣٢- ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ [في تحريم الرِّبا] ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ [فيما بَيَّنَ من وجوهه] ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ لِتُرحموا.

١٣٣- ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾، معنى المسارعة إلى المغفرةِ والجنّةِ الإقبالُ على ما يُوصِلُ إليهما ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ عرضُها عرضُ السمٰواتِ والأرضِ، والمراد وصفُها بالسَّعَة والبسط فشُبِّهت بأَوسَعِ ما عَلِمَه الناسُ من خلقه وأَبسَطِه، وخُصَّ العرض لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة ﴿أُعِدَّتۡ﴾ معدَّة ﴿لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ ودلّت الآيتان على أنَّ الجنةَ والنار مخلوقتان، والمتَّقي من يتَّقي الشرك.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ
يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟
لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ
خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

١٣٤- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في حالِ اليُسر والعُسر ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ والمُمسِكينَ الغيظَ عن الإمضاءِ. والغيظ: توقُّد حرارةِ القلب منَ الغضب. وعن النبي عليه الصلاة والسلام: «**مَن كظَم غَيظًا وهوَ يقدِرُ على إنفاذِهِ ملأ الله قلبَهُ أمنًا وإيمانًا**» ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ فيتناولُ كلَّ مُحسِن ويدخُلُ تحتَه هؤلاء المذكورونَ.

١٣٥- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ الفاحِشَةُ الزنا، وظُلمُ النفسِ القُبلَةُ واللّمسةُ ونحوهما ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بلسانهم أو بقلوبهم ليبعثهم على التوبة ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ فتابوا عنها لقُبحها نادمينَ ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فيه تَطْيِيبٌ لنفوسِ العبادِ، وتنشيطٌ للتَّوبةِ، وبَعْثٌ عليها، وَرَدْعٌ عن اليأسِ والقنوطِ، وبيانٌ لِسَعَةِ رحمته وقُرْب مَغْفِرَتِهِ منَ التائب، وإشعارٌ بأنَّ الذنوبَ وإن جَلَّتْ[1] فإنَّ عفوَه أجَلُّ وكرمَه أعظمُ ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ ولم يُقيموا على قبيح فعلهم، والإصرارُ الإقامةُ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ أنه لا يغفِرُ ذنوبَهم إلا الله.

١٣٦- ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفونَ ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بتوبتهِ ﴿وَجَنَّـٰتٌ﴾ برحمتهِ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: ونِعْمَ أجرُ العاملين ذلك يعني المغفرةَ والجناتِ، نزلت في تَمّارٍ قال لامرأةٍ تُريدُ التمر: في بيتي تمرٌ أجودُ، فأدخلَها بيتَهُ

---

(١) أي: عَظُمَت.

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا
بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ
ٱلنَّاسِ﴾

وضمَّها إلى نفسه وقبّلَها فَندِمَ.

١٣٧- ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ مَضت ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ يريدُ ما سَنَّهُ الله تعالى في الأمم المكذبين مِنْ وَقائِعِه ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ فتعتبروا بها.

١٣٨- ﴿هَٰذَا﴾ القرءانُ أو ما تقدّم ذكره ﴿بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى﴾ إرشادٌ ﴿وَمَوۡعِظَةٞ﴾ ترغيبٌ وترهيب ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ عن الشرك.

١٣٩- ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ ولا تضعُفوا عن الجهادِ لِمَا أصابكم منَ الهزيمة ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ على ما فاتكم من الغنيمة أو على مَن قُتل منكم أو جُرح، وهو تسليةٌ منَ الله لرسوله وللمؤمنين عما أصابهم يومَ أُحد وتقويةٌ لقلوبهم ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ وحالُكم أنكم أعلى منهم وأغلَبُ، لأنكم أَصبتم منهم يومَ بدر أكثرَ مما أصابوا منكم يومَ أُحد، أو وأنتم الأَعلَون بالنصر والظفَر في العاقبة، وهي بشارةٌ لهم بالعُلُوّ والغلَبة، أو وأنتم الأعلَون شأنًا، لأن قتالكم لله ولإعلاء كلمته وقتالَهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر، أو لأن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ يعني أن صحةَ الإيمانِ تُوجِبُ قوةَ القلب والثقة بوعدِ الله، وقلّةَ المبالاة بأعدائه.

١٤٠- ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ﴾ [جِراحةٌ وألم وقتل] ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ إن نالوا منكم يومَ أُحد فقد نلتُم منهم قبلَه يومَ بدر، ثم لم يُضعِف ذلك قلوبَهم ولم يمنعهم عن مُعاودتكم إلى القتال، فأنتم أَوْلى أَلَّا تضعُفوا ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾ نُصَرّفُها ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ نُصَرّفُ

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾

ما فيها منَ النِّعَم والنِّقَم، نُعطي لهؤلاء تارةً، وطورًا لهؤلاء. ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي نُداوِلُها لِضُروبٍ منَ التدبير، وليعلَمَ الله المؤمنينَ مميَّزينَ بالصَّبر والإيمانِ من غيرهم [حالَ وجودهم]، كما عَلِمَهم قبل الوجود [وتحقيق ذلك لا يكون بحدوث العلم لأن علمه تعالى لا يمكن فيه الزيادة والنقصان، وقيل: معناه ليظهَرَ في الوجود إيمانُ الذين قد علمَ أزلًا أنهم يؤمنون، إذْ عِلْمُه لا يطرأ عليه التغيير] ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾ وليُكرِم ناسًا منكم بالشهادة، يريدُ المستَشهَدين يومَ أُحد ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ والله لا يُحِبُّ مَنْ ليس مِن هؤلاء الثابتينَ على الإيمان المجاهدين في سبيله، وهم المنافقون والكافرون.

١٤١- ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التّمحيصُ: التّطهيرُ والتّصفيةُ ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ ويُهلِكَهُمْ، يعني إن كانت الدَّولةُ[١] على المؤمنين فللتّمييز والاستِشهادِ والتّمحيص، وإن كانت على الكافرينَ فلِمَحقِهم ومَحْوِ ءاثارِهم.

١٤٢- ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أي لا تحسبوا[٢] ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ أي ولمَّا تجاهدوا، لأن العلم متعلق بالمعلوم، فنُزِّلَ نفيُ العلم منزلةَ نفي متَعلَّقِهِ، لأنه منتفٍ بانتفائه، تقول ما عَلِمَ اللهُ في فلان خيرًا أي ما فيه خير حتى يعلمه، ولَمَّا بمعنى لم ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [عند البأس على ما ينالهم من جرح وألم ومكروه].

---

(١) قال الراغب في المفردات: الدُّولةُ والدَّولة واحدة، وقيل: الدُّولةُ بالضم في المال، والدَّولة بالفتح في الحرب والجاه.

(٢) أي: أظننتم أن تدخلوا الجنة مع أنكم لم تجاهدوا ولم تصبروا على بلائه.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾

١٤٣- ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ خُوطِبَ به الذين لم يشهدوا بدرًا، وكانوا يتمنَّونَ أن يحضروا مَشهدًا مع رسولِ الله ﷺ لينالوا كرامةَ الشهادةِ، وهم الذين أَلَحُّوا على رسولِ الله ﷺ في الخروج إلى المشركين، وكان رأيه في الإقامةِ بالمدينة ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ رأيتموه معاينين مشاهدينَ له حين قُتِلَ إخوانكم بين أيديكم، وشارفتم أن تُقتلوا، وهذا توبيخٌ لهم على تَمنّيهم الموتَ وعلى ما تسبّبوا له من خروج رسولِ الله ﷺ بإلحاحهم عليه، ثم انهزامِهِم عنه[1].

لمَّا رمى ابنُ قَمِيئَة[2] رسولَ الله ﷺ بحجر فكسرَ رَباعِيَتَه[3]، أَقبلَ يريدُ قتلَه، فذبَّ عنه مُصعبُ بنُ عُمير[4]، وهو صاحبُ الراية حتى قتله ابنُ قَميئة وهو يرى أنه رسولُ الله ﷺ، فقال: قتلتُ محمدًا، وخرجَ صارخٌ - قيلَ: هو الشيطانُ - فقال: ألا إنَّ محمدًا قد قُتِلَ، ففشا في الناسِ خبرُ قتله، فانكفَؤوا وجعلَ رسولُ الله ﷺ يدعو: «**إليَّ عبادَ الله**» حتى انحازَت إليه[5] طائفةٌ من أصحابه، فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسولَ الله، فديناك بآبائنا وأمهاتنا، أتانا خَبرُ قتلك، فولَّينا مُدْبِرين، فنزل:

١٤٤- ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مَضَتْ ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾

---

(١) أي: تولّيهم عنه وتركِهم إيّاه.
(٢) عبد الله ابن قميئة الحارثي.
(٣) الرَّباعِيَةُ: بتخفيف الياء، السِّنُّ التي بين الثَّنِيَّةِ والنّاب.
(٤) مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، صحابي من السابقين إلى الإسلام قاتل في بدر واستشهد في أحد عام ٣هـ.
(٥) أي: اجتمعت عليه.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

فَسَيَخلو كما خَلَوا، وكما أنّ أتباعهم بَقُوا متمسكين بدينهم بعد خُلُوِّهم فعليكم أن تتمسّكوا بدينه بعد خُلوّه، لأنّ المقصودَ من بعثة الرسل تبليغُ الرسالةِ وإلزامُ الحُجّةِ لا وجودُهُ بين أَظهُرِ قومِه ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ [الهمزة للإنكار والتوبيخ بمعنى: أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قُتِلَ؟!]، والانقلاب على العَقِبَين مجاز عن الارتداد أو عن الانهزام ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ وإنما ضَرَّ نفسه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ الذين لم ينقلبوا، وسمَّاهم شاكرين لأنهم شكروا نعمةَ الإسلامِ فيما فعلوا.

١٤٥- ﴿وَمَا كَانَ﴾ وما جاز ﴿لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بعلمه(١)، أو بأن يُؤذَنَ لملَك الموت في قبضِ روحه، والمعنى أن موتَ الأنفس محالٌ أن يكون إلا بمشيئةِ الله، وفيه تحريضٌ على الجهاد، وتشجيعٌ على لقاءِ العدو، وإعلامٌ بأنّ الحذرَ لا ينفعُ [في رد القضاء أو تأخير الأجل]، وأنّ أحدًا لا يموتُ قبلَ بلوغ أجله، وإن خاضَ المهالِكَ واقتحمَ المعارِكَ ﴿كِتَٰبًا﴾ المعنى: كُتِبَ الموتُ كتابًا ﴿مُّؤَجَّلًاۗ﴾ مؤقتًا له أجل معلومٌ لا يتقدَّمُ ولا يتأخر ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ بقتاله ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي الغنيمةَ، وهو تعريضٌ بالذين شغلتهم الغنائمُ يومَ أُحُد ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ من ثوابها ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي إعلاءَ كلمة الله والدرجةَ في الآخرة ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيءٌ عن الجهاد.

---

(١) أي: بالوقت الذي علم الله بموتها فيه.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا
ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا
فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ
ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾

١٤٦- ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ [وكم من نبيّ] ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ الرِّبيُّونَ: الربانيون [أي علماءُ أتقياء، أو عارفون بربهم عابدون له] ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فما فَتَروا [لِمَا أُصيبوا به من الجراحات والآلام، أو] عندَ قتل نبيّهم ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عن الجهادِ بعدَه ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ وما خضعوا لعدوّهم، وهذا تعريضٌ بما أصابهم من الوَهْنِ عند الإرجاف(١) بقتل رسول الله عليه الصلاة والسلام، واستكانتهم لهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ على جهاد الكافرين.

١٤٧- ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ وما كان قولَهم إلا هذا القولَ، وهو إضافة الذنوب إلى أنفسهم مع كونهم ربّانيّين هَضْمًا(٢) لها ﴿وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ [تفريطنا ومجاوزتنا الحدَّ] ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ في القتال ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾ بالغَلَبة، وقدَّمَ الدعاءَ بالاستغفارِ مِنَ الذنوبِ على طلب تثبيتِ الأقدام في مواطن الحربِ والنصرةِ على الأعداء لأنه أقربُ إلى الإجابة، لِمَا فيه من الخضوع والاستكانة.

١٤٨- ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ النُّصرةَ والظَّفَر والغنيمة ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ المغفرةَ والجنةَ ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾ أي هم محسنونَ والله يُحِبُّهم.

---

(١) الإرجافُ: إشاعةُ الكذب والباطل للاغتمام به.
(٢) أي: كَسْرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ
خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾

١٤٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ يُرجعوكم إلى الشرك ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ قيل: هو عامٌّ في جميع الكفار، وعلى المؤمنينَ أن يجانبوهم ولا يطيعوهم في شيء حتى لا يَسْتجرُّوهم إلى موافقتهم.

١٥٠- ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصِرُكم فاستغنُوا عن نُصرةِ غيره ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

١٥١- ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ قَذَفَ الله في قلوبِ المشركينَ الخوفَ يومَ أُحدٍ فانهزموا إلى مكة من غير سَببٍ، ولهم القوة والغَلَبَة ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ بسبب إشراكهم ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ لم يُرِدْ أنّ هناك حُجّة إلا أنها لم تنزل عليهم، وإنما المرادُ نفي الحُجّةِ ونزولها جميعًا ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ مرجِعُهم ﴿ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ النارُ.

ولمَّا رجع رسول الله ﷺ مع أصحابه إلى المدينةِ قال ناسٌ من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزل:

١٥٢- ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي حَقّقَ ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ تقتلونهم قَتلًا ذريعًا[1] ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره وعلمه [وإرادته] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جَبُنتُم ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ اختلفتم ﴿وَعَصَيْتُم﴾

---

(١) أي: سريعًا.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾

أمرَ نبيِّكُم بترككم المركزَ[١] واشتغالِكُم بالغنيمة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ مِنَ الظَّفَرِ وقهرِ الكفارِ، [والتقدير] حتى إذا فَشِلتم مَنَعكُم نصرَهُ، وجاز أن يكون المعنى صَدَقَكم اللهُ وعدَه إلى وقت فشلكم ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ الغنيمةَ، وهم الذين تركوا المركز لطلبِ الغنيمةِ، رُوِي أنّ رسولَ الله ﷺ جعلَ أُحُدًا خلفَ ظهره، واستقبل المدينةَ، وأقامَ الرُّماةَ عند الجبل، وأمرهم أن يثبتوا في مكانهم ولا يبرحوا، كانت الدَّولةُ[٢] للمسلمينَ أو عليهم، فلمّا أقبلَ المشركونَ جَعلَ الرماةُ يَرشقونَ خيلَهم، والباقون يضربونهم بالسيوفِ حتى انهزموا، والمسلمون على ءاثارهم يقتلونهم، حتى إذا فَشِلوا وتنازعوا؛ فقالَ بعضهم: قد انهزمَ المشركونَ فما موقفنا هٰهنا فادخُلُوا عسكر المسلمين وخذوا الغنيمةَ مع إخوانكم، وقال بعضهم: لا تُخالفوا أمر رسولِ الله ﷺ؛ فممّن ثبت مكانَهُ عبدُ الله بنُ جُبير[٣] أميرُ الرُّماة في نفر دون العشرة، وهم المَعنِيّون بقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ فَكَرَّ المشركون على الرماة، وقتلوا عبدَ الله بنَ جُبير، وأقبلوا على المسلمين حتى هزموهم، وقتلوا مَن قتلوا، وهو قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ كَفَّ مَعُونَته عنكم فغلبوكم ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ ليمتَحِنَ صبرَكم على المصائب وثباتَكم عندها، وحقيقته: ليعامِلَكم معاملةَ المختبِرِ لأنه يجازي على ما يعملُه العبدُ لا على ما يعلَمُه منه ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ حيث نَدِمتم على ما فرطَ منكم[٤] من عصيان

---

(١) وهو المكان الذي أمرَهم رسول الله ﷺ بملازمته.
(٢) الدَّولَةُ: العُقْبَةُ في الحرب.
(٣) عبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري، صحابي شهد العقبة وبدرًا واستشهد في أحد.
(٤) أي: سبقَ وتقدَّم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾

رسولِ الله ﷺ ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾ بالعفو عنهم وقبول توبتهم، أو هو مُتفضِّل عليهم في جميع الأحوال لأن الابتلاء رحمة كما أن النصرةَ رحمة.

١٥٣- ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ تُبالغون في الذهاب في صعيد الأرض ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ ولا تَلْتَفِتُون، وهو عبارةٌ عن غاية انهزامهم وخوفِ عدوّهم ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾ يقولُ: «**إليَّ عبادَ الله، أنا رسولُ الله، مَنْ يَكُرُّ فلهُ الجنة**» ﴿فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ في ساقَتِكم(١) وجماعتِكم الأخرى، وهي المتأخرة ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ فجازاكُم الله ﴿غَمَّۢا﴾ حين صرفكُم عنهم وابتلاكم ﴿بِغَمّٖ﴾ بسببِ غمّ أذقتموه رسولَ الله ﷺ بعصيانِكم أَمرَهُ ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ لتَتمرّنوا على تَجرُّعِ الغموم(٢) فلا تحزنوا فيما بَعدُ على فائتٍ من المنافع ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ ولا على مُصيبٍ منَ المَضارِّ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ عالم بعَمَلِكُم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهذا ترغيبٌ في الطاعة، وترهيبٌ عن المعصية.

١٥٤- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾ ثم أنزلَ الله الأمنَ على المؤمنينَ، وأزالَ عنهم الخوف الذي كان بهم حتى نَعَسوا وغلبهم النوم، عن أبي طلحة: غَشِيَنا النعاس ونحن في مَصافِّنا(٣) فكان السيف

---

(١) المراد ساقةُ العسكر ومؤخِّرَتُه.
(٢) لتعتادوا على تذوُّقها.
(٣) أي: صفوف القتال.

﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾

يسقط من يد أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه ﴿يَغۡشَىٰ﴾ النُّعاس ﴿طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ هم أهلُ الصدق واليقين ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾ هم المنافقون ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ ما يُهِمُّهم إلا هَمُّ أنفسهم وخلاصُها، لا همُّ الدِّين ولا همُّ رسولِ الله ﷺ والمسلمينَ ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ يظنُّون بالله غير الظنّ الحقّ الذي يجبُ أن يُظَنَّ به، وهو ألَّا ينصُرَ محمدًا ﷺ ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ المرادُ الظنُّ المختصُّ بالمِلَّةِ الجاهلية ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ هل لنا معاشرَ المسلمين من أمرِ الله نصيبٌ قط، يعنونَ النَّصرَ والغَلَبة على العدو ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ﴾ النَّصرَ والغلبةَ ﴿كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ ولأوليائه المؤمنينَ، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [سورة الصافات] ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ خوفًا مِن السيف ﴿يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم أو بعضُهم لبَعْض منكِرينَ لقولِكَ لهم: إنَّ الأمرَ كلَّه لله ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ أي لو كان الأمرُ كما قالَ محمدٌ إنَّ الأمرَ كلَّه لله ولأوليائه وإنهم الغالبون لَمَا غُلِبنا قط، ولَمَا قُتل منَ المسلمين مَنْ قُتِل في هذه المعركة ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ أي مَنْ عَلِمَ اللهُ منه أنه يُقتَلُ في هذه المعركة وكتب ذلك في اللوح لم يكن بدٌّ من وجوده، فلو قَعَدتُم في بيوتكم ﴿لَبَرَزَ﴾[1] من بينكم ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ مَصارِعِهم[2] بأُحُدٍ ليكونَ ما عِلمَ الله أنه

---

(١) أي: لو تخلَّفتُم أنتم أيها المنافقون فمكثتم في منازِلكم بالمدينة لخرج الذين كُتِبَ عليهم القتل في اللوح المحفوظ.

(٢) أي: الأماكن التي ماتوا فيها.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا
ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ
إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾

يكون، والمعنى أنَّ الله كتب في اللوح قَتْلَ من يُقتل من المؤمنين، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون لعِلمه أنّ العاقبةَ في الغَلَبَة لهم، وأنّ دين الإسلام يظهر على الدين كلِّه، وأنّ ما يُنْكَبون[(١)] به في بعض الأوقات تمحيصٌ لهم ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ﴾ ولِيمتحِنَ ما في صدور المؤمنينَ منَ الإخلاص، ويُمحِّصَ[(٢)] ما في قلوبهم من وساوس الشيطانِ فَعَلَ ذلك ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ بخَفيّاتِها.

١٥٥- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ﴾ انهزموا ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمعُ محمد عليه الصلاة والسلام وجمعُ أبي سفيان للقتالِ بأُحُد ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ دعاهم إلى الزّلة وحَمَلهم عليها ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ بتركهم المركزَ الذي أمرهم رسولُ الله ﷺ بالثباتِ فيه. وكان أصحابُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام تولَّوا عنه يومَ أُحد إلا ثلاثةَ عشرَ رجلًا، منهم: أبو بكر وعليٌّ وطلحةُ وابنُ عوف وسعدُ بن أبي وقّاص والباقونَ من الأنصار ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ تجاوز عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ لا يُعاجِلُ بالعقوبة.

١٥٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كابنِ أُبيّ وأَصحابهِ ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ في النفاق ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سافروا فيها للتجارة أو غيرها ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ جمعُ غازٍ، وأَصابَهم موتٌ أو قتلٌ

---

(١) أي: يصابون به من المصائب.
(٢) التمحيص: التطهيرُ والتَّنقية.

﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ
كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾

﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ﴾ لا تكونوا كهؤلاء في النطق بذلك القولِ واعتقاده، ليجعل الله ذلك حَسرةً في قلوبهم خاصَّة، ويَصُون منها قلوبَكم ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ﴾ ردٌّ لقولهم: إنَّ القتالَ يقطعُ الآجالَ، أي الأمرُ بيده[1] قد يُحيي المسافرَ والمقاتلَ، ويميتُ المقيمَ والقاعدَ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

١٥٧-١٥٨ ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ لإلى الرحيم الواسعِ الرحمةِ المثيب العظيمِ الثوابِ تُحشرونَ. كذّبَ الكافرينَ أوّلًا في زعمهم أنّ مَنْ سافر من إخوانهم أو غزا لو كان بالمدينة لَمَا ماتَ، ونهى المسلمينَ عن ذلك، لأنه سببُ التقاعُد عن الجهاد، ثم قالَ لهم: ولئن تَمّ عليكم ما تخافونه منَ الهلاك بالموتِ أو القتل في سبيلِ الله، فإنَّ ما تنالونه منَ المغفرة والرحمة بالموت في سبيل الله خير مما تجمعونَ مِنَ الدنيا، فإنَّ الدنيا زاد المعاد، فإذا وصلَ العبدُ إلى المُراد لم يحتَجْ إلى الزاد.

١٥٩- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ﴾ لِينُه لهم ما كان إلا برحمة منَ الله، ومعنى الرحمةِ رَبْطُهُ على جَأْشِه[2]، وتوفيقُه للرِّفق والتلطُّف بهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ جافيًا ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسِيَه ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾

---

(١) أي: بتقديره وتدبيره.

(٢) الجَأْشُ: النفسُ، وربطُهُ على جأشِهِ أي حبسُ نفسِه وكَفُّها عند الغضب.

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ
بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾

لتفرَّقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحدٌ منهم ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ ما كان منهم يومَ أُحُدٍ مما يختصُّ بكَ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ فيما يختصُّ بحقّ الله إتمامًا للشفقةِ عليهم ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ في أمرِ الحربِ ونحوِهِ مما لم ينزل عليك فيه وحيٌ، تَطييبًا لنفوسهم، وترويحًا لقلوبهم، ورفعًا لأَقدارهم، أو لتقتديَ بكَ أمتُك فيها ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ﴾ فإذا قطعتَ الرأي على شيء بعد الشورى ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ في إمضاءِ أمرِكَ على الأرشَدِ لا على المَشُورةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ عليه، والتوكل الاعتماد على الله، والتفويض في الأمور إليه.

١٦٠- ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصَركم يومَ بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ فلا أحدَ يغلبكم، وإنما يُدرِك نصرَ الله مَن تبرّأَ مِن حولِه وقوتهِ واعتصمَ بربه وقدرته ﴿وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ﴾ كما خذلَكم يومَ أُحد ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ مِن بعدِ خِذلانه وهو تركُ المَعونة، وهذا تنبيه على أنّ الأمر كلَّه لله، وعلى وجوب التوكل عليه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾ وليخُصَّ المؤمنونَ ربَّهم بالتوكل والتفويض إليه لعِلمهم أنه لا ناصرَ سواه، ولأنَّ إيمانهم يقتضي ذلك.

١٦١- ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ أي أن يخونَ، والمعنى: ما صحّ له ذلك، يعني أن النبوةَ تنافي الغلول. روي أن قَطيفة[١] حَمراءَ فُقدت يومَ بدر مما أصيب من المشركين، فقال بعض المنافقينَ: لعلَّ رسولَ الله ﷺ أَخذَها، فنزلت الآية: ﴿وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ أي

(١) قَطِيفة: بفتح القاف وكسر الطاء: دِثارٌ له خَمْلٌ.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ
بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾

يأتِ بالشيء الذي غلَّهُ بِعَينِهِ حاملًا له على ظهره كما جاء في الحديث، أو يأت بما احتَمَلَ من وَباله وإثمه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ تُعطى جزاءَها وافيًا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ جزاءُ كلٍّ على قَدْرِ كَسبه.

١٦٢- ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أي رضا الله، قيل: هم المهاجرون والأنصار ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهم المنافقون والكفار ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ المرجع.

١٦٣- ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات، والمعنى تفاوُتُ منازل المُثَابين منهم ومنازل المُعاقَبين ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتها فيجازيهم على حَسَبها.

١٦٤- ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ على مَن ءامنَ مع رسولِ الله عليه الصلاة والسلام من قومه، وخَصَّ المؤمنينَ منهم لأنهم هم المنتفعونَ بمَبْعَثِه ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من جنسهم عربيًّا مثلَهم، أو مِن ولَد إسماعيل كما أنهم من ولده، والمنّة في ذلك من حيث إنه إذا كان منهم كان اللسانُ واحدًا، فيسهل أَخذُ ما يجب عليهم أخذه عنه، وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقربَ لهم إلى تصديقه، وكان لهم شرفٌ بكونه منهم ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي القرءانَ بعدما كانوا أهلَ جاهلية، لم يَطرُق أَسمَاعَهم شيءٌ من الوحي ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم بالإيمانِ من دَنَس[1] الكفر والطغيان ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ﴾ القرءانَ والسنة ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ بعثةِ

---

(١) الدَّنَس: الوسخ.

﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ
عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ
وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾

الرسول ﷺ ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ﴾ عَمًى وجهالةٍ ﴿مُّبِينٍ ١٦٤﴾ ظاهر لا شُبهةَ فيه.

١٦٥- ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ يريدُ ما أَصابهم يومَ أُحد مِن قَتْل سبعين منهم ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ يومَ بدر من قتل سبعينَ وأسر سبعينَ ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ من أَينَ هذا ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ لاختياركم الخروجَ منَ المدينة أو لترككمُ المركزَ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ يقدرُ على النصرِ وعلى منعه.

١٦٦- ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ «ما» بمعنى الذي ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ جَمْعُكم وجمعُ المشركينَ بأُحدٍ ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فكائنٌ بإذنِ الله، أي بعلمه وقضائه[1] ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾ وهو كائنٌ ليتميزَ المؤمنونَ [عن المنافقين بثبوتهم في القتال، ويظهرَ ذلك كما عَلِمَه اللهُ تعالى أزلًا].

١٦٧- ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ [وليَظْهَرَ كفرُ المنافقين بانخزالهم[2] عن المسلمين] ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ﴾ للمنافقين - وهو كلامٌ مبتدأ -: ﴿تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جاهِدوا للآخرةِ كما يقاتلُ المؤمنونَ ﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ قاتِلوا دفعًا عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم إن لم تقاتلوا للآخرةِ، وقيل: أو ادفعوا العدوَّ بتكثيركم سواد المجاهدين[3] إن لم تقاتلوا لأن كثرة السواد مما

---

(١) هنا ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي بإرادته ومشيئته، فلا يمكن المعتزلة الذين خالفوا أهل الحق في هذه المسألة أن يقولوا: إن الإذن هنا بمعنى الأمر، لا يتجرؤون على القول بأن معنى الآية أنّ أذى المشركين للمسلمين في تلك المعركة بإذن الله بمعنى بأمر الله، فكان في الآية دليل واضح على بطلان مذهبهم.

(٢) أي: انقطاعِهم.

(٣) أي: جماعتِهم.

﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا
مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

يُروّع العدو ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ لو نعلم ما يصح أن يسمّى قتالًا لاتَّبعناكم، يعنونَ أنَّ ما أنتم فيه لِخطإِ رأيكم ليس بشيء ولا يقالُ لمثله قتالٌ، إنما هو إلقاءُ النفس في التهلُكةِ ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ يعني أنهم كانوا يتظاهرونَ بالإيمانِ قبلَ ذلك، وما ظهرت منهم أَمارةٌ تؤذِنُ بكفرهم، فلمَّا انخزلوا عن عسكر المؤمنينَ وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمانِ المظنونِ بهم، واقتربوا مِنَ الكفر ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يُظهرونَ خلاف ما يُضمرونَ منَ الإيمان وغيره ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ مِنَ النفاقِ.

١٦٨- ﴿الَّذِينَ قَالُواْ﴾ أي ابنُ أُبيّ وأصحابُه ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ لأجلِ إخوانهم المقتولينَ يومَ أُحُدٍ ﴿وَقَعَدُواْ﴾ قالوا - وقد قَعَدوا عن القتالِ -: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ لو أطاعنا إخوانُنا فيما أَمرناهم به من الانصرافِ عن رسول الله ﷺ والقعودِ ووافقونا فيه لَمَا قُتلوا كما لم نُقتل ﴿قُلْ فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ معناه قل إن كنتم صادقين في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلًا وهو القعود عن القتال فَجِدوا إلى دفع الموت سبيلًا. وروي أنه مات يومَ قالوا هذه المقالةَ سبعونَ منافقًا[١].

١٦٩- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ الخطابُ لرسولِ الله ﷺ أو لكل أَحدٍ ﴿الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ بل هم أحياءٌ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مُقرَّبون عنده ذوو زُلفَى ﴿يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ مثلَ ما يُرزقُ سائرُ الأحياءِ يأكلونَ

(١) بعدد من استُشهد من المسلمين في أُحُد.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾

ويشربون، وهو تأكيدٌ لكونهم أحياءً، ووصفٌ لحالهم التي هم عليها من التنعم برزقِ الله.

١٧٠- ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ وهو التوفيقُ في الشهادةِ، وما ساق إليهم منَ الكرامة والتفضيلِ على غيرهم من كونهم أحياءً مقرَّبينَ معجَّلًا لهم رزقُ الجنة ونعيمُها. وقال النبي عليه السلام: «**لَمَّا أُصِيبَ إخوانُكم بأحُدٍ جعلَ الله أرواحَهم في أجوافِ طيرٍ خُضْرٍ تدورُ في أنهارِ الجنةِ وتأكلُ منْ ثمارِها وتأوي إلى قناديلَ من ذهبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العرشِ**» ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ﴾ بإخوانهم المجاهدينَ الذين ﴿لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم﴾ لم يُقتلوا فيَلحقوا بهم ﴿مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يريدُ الذين بَقُوا بعدَهم وهم قد تقدَّموهم ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ والمعنى: ويستبشرونَ بما تبيّن لهم مِن حالِ مَن تَركوا خلفهم من المؤمنينَ، وهو أنهم يُبعثونَ ءامنينَ يومَ القيامة، بَشَّرهم الله بذلك فهم مُستبشِرون به، وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفَهم بعثٌ للباقين بعدَهم على الجِدّ في الجهاد والرغبة في نيل منازل الشهداء ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [في الآخرة].

١٧١- ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ يُسَرُّون بما أنعمَ الله عليهم وما تفضَّل عليهم من زيادةِ الكرامةِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بل يوفِّرُ[1] عليهم.

١٧٢- ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾ الجَرْحُ. روي أن أبا سفيان وأصحابَهُ لمَّا انصرفوا من أُحُدٍ فبلغوا

---

(١) أي: يُتِمُّ ولا يُنقِص.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾

الرَّوحاءَ[1] ندموا وهمُّوا بالرجوع، فبلغَ ذلك رسولَ الله ﷺ فأراد أن يُرهِبَهم ويريَهم مِن نفسه وأصحابه قوةً، فندبَ[2] النبيُّ عليه الصلاة والسلام أصحابَه للخروجِ في طلب أبي سفيان، فخرج يوم الأحد من المدينة مع سبعينَ رجلًا حتى بلغوا حمراءَ الأَسد، وهي من المدينةِ على ثمانيةِ أميال، وكان بأصحابِهِ القَرْحُ[3]، فألقى اللهُ الرعبَ في قلوب المشركينَ فذهبوا، فنزلت: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا﴾ مِنْ للتبيين لأنَّ الذينَ استجابوا لله والرسولِ قد أَحسَنوا كلُّهم واتّقَوا، لا بعضُهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ في الآخرة.

١٧٣- ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ رُوِي أنَّ أبا سفيانَ نادى عند انصرافِهِ من أُحد: يا محمدُ، موعِدنا موسمُ بدر القابلُ، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن شاء الله**»، فلمّا كان القابلُ خرجَ أبو سفيانَ في أهلِ مكة، فألقى اللهُ الرُّعبَ في قلبه، فبدا له أن يرجِعَ، فلقيَ نُعيمَ بنَ مسعود[4] الأشجعيّ، وقد قَدِمَ مُعتمِرًا، فقالَ: يا نُعيم، إني واعدتُ محمدًا أن نلتقيَ بموسم بدر، وقد بدا لي أن أرجعَ فالحَقْ بالمدينةِ فَثَبِّطْهم ولك عندي عشرةٌ من الإبل، فخرج نُعيمٌ فوجد المسلمينَ يتجهزونَ، فقالَ لهم: أتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم فوالله لا يُفلِتُ منكم أحد، فقال عليه الصلاة والسلام: «**والله لأخرُجَنَّ**

---

(١) موضع بين مكة والمدينة، على نحو أربعين ميلًا من المدينة.
(٢) أي: دَعا.
(٣) أي: الجِراحات من غزوة أُحُد.
(٤) نُعيم بن مسعود الأشجعيُّ، صحابي أسلم أيام الخندق، وخَذَّلَ بين الأحزاب حتى تفرقوا في كل جهة.

﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾

ولو لم يخرُج معي أحَد»، فخرج في سبعينَ راكبًا، وهم يقولونَ: حسبنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ، حتى وافَوا بدرًا، وأقاموا بها ثمانيَ ليال، وكانت معهم تجارةٌ فباعوها وأصابوا خيرًا، ثم انصرفوا إلى المدينةِ سالمينَ غانمينَ، ولم يكن قتالٌ، ورجعَ أبو سفيانُ إلى مكة، فسمَّى أهلُ مكة جيشَه جيشَ السَّويق[1] وقالوا: إنما خرجتم لتأكلوا السَّويقَ؛ فالناسُ الأَوَّلُ نُعيمٌ، وهو جمعٌ أريدَ به الواحدُ، أو كان له أتباعٌ يُثَبِّطون[2] مثلَ تَثبيطه، والثاني أبو سفيان وأصحابُه ﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ فخافوهم ﴿فَزَادَهُمۡ﴾ المقولُ الذي هو: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾: ﴿إِيمَٰنٗا﴾ بَصيرةً وإيقانًا ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ كافينا اللهُ [ونِعمَ الكافي] ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ ونِعمَ الموكولُ إليه هو.

١٧٤- ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهي السلامةُ وحذرُ العدوّ منهم ﴿وَفَضۡلٖ﴾ وهو الربح في التجارة فأصابوا بالدرهم درهمين ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ لم يلقَوا ما يسوؤهم من كَيدِ عدو، والتقديرُ: فرجعوا من بدر مُنَعَّمين بريئين من سوء ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ بجُرأَتهم وخروجهم إلى وجهِ العدو على إثر تثبيطه ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ قد تفضَّلَ عليهم بالتوفيقِ فيما فعلوا.

١٧٥- ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إنما ذلكم المُثَبِّطُ هو الشيطانُ وهو نُعيمٌ[3] ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ المنافقينَ [من المشركين، فيوسوسُ إليهم

---

(١) السَّويق: ما يتخذ من الحنطة أو الشعير المطحون زادًا للسفر وغيره.

(٢) أي: يُعَوّقون.

(٣) أي: ثبَّطهم قبل أن يُسلِم، ورجح بعضٌ تفسير الشيطان هنا بإبليسَ.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ﴾

ويعظمُ أمورَهم عندهم لئلا يخرجوا عونًا للمؤمنين، أو معناه يُخوِّفكم أولياءَه الذين هم أبو سفيان وأصحابه] ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [في مخالفة أمري، فجاهِدوا مع رسولي] ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ لأنَّ الإيمانَ يقتضي أن يؤثِرَ العبدُ خوفَ الله على خوفِ غيره.

١٧٦- ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾ يعني لا يُحزِنوك لخوفِ أن يضُرُّوكَ، ألا ترى إلى قولهِ: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ أي أولياءَ الله[١]، يعني أنهم لا يَضُرّون بمسارعتهم في الكفر غيرَ أنفسهم، ثم بيَّن كيف يعودُ وباله عليهم بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ نصيبًا من الثواب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ وذلك أبلغ ما ضَرَّ به الإنسان نفسَه، والآية تدل على إرادةِ الكفر والمعاصي، لأن إرادته ألَّا يكونَ لهم ثوابٌ في الآخرة لا تكون بدون إرادةِ كفرهم ومعاصيهم[٢].

١٧٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ استبدلوه به ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ من الضرر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

١٧٨- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ ولا يَحسَبنَّ الذين كفروا إملاءنا خيرًا لأنفسهم، والإملاء لهم إمهالُهم وإطالة عُمُرهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ﴾ كأنه قيل: ما بالُهم لا يَحسَبون الإملاءَ خيرًا لهم، فقيل: إنما نُملي لهم ليزدادوا إثمًا، والآيةُ حُجّةٌ لنا

---

(١) أي: لن يضروا أولياء الله شيئًا، والله تعالى جَلَّ أن يلحقه المضار والمنافع، ولكن هذا وعد لهم بالنصرة وأمان لهم من شرورهم وضَرهم، وإضافة ذلك إلى نفسه تشريف لهم.
(٢) هذا ردٌّ على المعتزلة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ
ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾

على المعتزلةِ في مسألتي الأصلحِ وإرادةِ المعاصي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

١٧٩- ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من اختلاط المؤمنين الخُلَّص والمنافقينَ ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ حتى يَعزِلَ المنافقَ عن المُخلِصِ، كأنه قيل: ما كان اللهُ ليَذَرَ المخلِصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض حتى يميزَهم منكم بالوحي إلى نبيه وإخبارِهِ بأَحوالكم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ وما كان الله ليؤتيَ أحدًا منكم علمَ الغيوب، فلا تتوهَّموا عندَ إخبارِ الرسول بنفاقِ الرجل وإخلاص الآخر أنه يطّلعُ على ما في القلوبِ اطّلاعَ الله فيُخبِرُ عن كفرها وإيمانها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ ولكنَّ الله يُرسلُ الرسولَ فيوحي إليه ويُخبرُه بأنَّ في الغيب كذا، وأنَّ فلانًا في قلبه النفاقُ، وفلانًا في قلبه الإخلاصُ، فيَعلَمُ ذلك من جهةِ إخبارِ الله لا من جهة نفسه. ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ﴾ بصِفَةِ الإخلاصِ ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ النفاقَ ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ في الآخرة.

ونزل في مانعي الزكاةِ:

١٨٠- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ﴾ ولا يَحسَبنّ الذين يبخَلونَ بُخلَهم هو خيرًا لهم ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي البخلُ ﴿شَرٌّ لَّهُمْ ۖ﴾ لأنَّ أموالهم ستزول عنهم، ويبقَى عليهم وبالُ البخل ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ سيُجعلُ مالُهم الذي مَنعوه عن الحقّ طوقًا في أعناقهم كما جاء في الحديث [روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «**من ءاتاه الله مالًا فلم يؤدّ زكاتَه مُثِّلَ**

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٨٠ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ١٨١ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾

له مالُه شجاعًا أقرع له زَبيبتان يُطوَّقُه يوم القيامة يأخذ بِلِهْزِمَتَيْهِ - يعني بشِدقيه - **يقول: أنا مالُك أنا كنزُك»** ثم تلا هذه الآية][1] ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ وله ما فيهما من مالٍ وغيره، فما لهم يبخَلون عليه بملكه، ولا ينفقونه في سبيلِ الله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٨٠﴾ التاءُ على طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الوعيد.

١٨١- ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قال ذلك اليهودُ حين سمعوا قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ١١﴾ [سورة الحديد]. وقالوا: إنّ إلٰه محمدٍ يَستقرِضُ منا، فنحن إذًا أغنياءُ وهو فقيرٌ، ومعنى سماع الله له أنه لم يخفَ عليه، وأنه أعدَّ له كِفاءً من العقاب ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ سنأمر الحَفَظَةَ بكتابة ما قالوا في الصحائف، أو سنحفظُه ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ جَعلَ قتلَهم الأنبياءَ قرينةً له إيذانًا بأنهما في العِظَم أَخوان، وأنّ من قتل الأنبياءَ لم يُستَبعد منه الاجتراءُ على مِثلِ هذا القول ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم يومَ القيامة ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ١٨١﴾ عذابَ النارِ كما أذقتُم المسلمينَ الغُصَصَ[2]. قال الضحاك: يقول لهم ذلك خَزَنَةُ جهنم، وإنما أُضيف إلى الله تعالى لأنه بأَمره.

١٨٢- ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدم من عقابهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾

---

(١) مُثِّلَ أي: صُوِّرَ له ماله، شجاعًا أقرعَ أي: حيةً ذكرًا قد تقرَّع رأسُهُ أي تمعَّط لكثرة سُمِّه، له زبيبتان أي: لَحمتان على رأسه مثل القرنين، وقيل نابان يخرجان من فِيْهِ، وشِدقيه أي: خَدَّيه.

(٢) الغُصَصُ: جمعُ غُصَّة، وهو ما يَغَصُّ به الإنسان من طعام حقيقةً أو غَيْظٍ مجازًا.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ﴾

أي ذلك العذابُ بما قدَّمتُم من الكفرِ والمعاصي، والإضافةُ إلى اليَدِ لأن أكثرَ الأعمالِ يكون بالأيدي، فجُعلَ كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيلِ التغليب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ وبأنّ الله لا يظلمُ عباده، فلا يعاقبهم بغير جُرم[1].

١٨٣- ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾ أَمَرَنا في التوراةِ وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ﴾ بأَلَّا نؤمن ﴿لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ أي يُقَرِّبَ قربانًا فتنزل نارٌ من السماء فتأكله، فإن جئتنا به صدَّقناك، وهذه دعوى باطلةٌ وافتراءٌ على الله، لأنّ أكلَ النار القُربانَ سببُ الإيمان للرسول الآتي به لكونه معجزةً، فهو إذًا وسائرُ المعجزات سواءٌ ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ سوى القُربانِ ﴿وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾ أي بالقربان، يعني قد جاءَ أسلافُكم الذين أنتم [تَدَّعون أنكم] على مِلَّتهم وراضون بفعلهم ﴿فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ﴾ إن كان امتناعُكم عن الإيمانِ لأجل هذا، فلِمَ لَمْ تؤمنوا بالذين أَتَوا به؟ ولِمَ قتلتموهم؟

---

(١) الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والتصرف في ملك الغير بغير إذن، فلا يتصور الظلم في حق الله تعالى وهو مالك الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ أن الله تعالى لو عذَّب جميع البشر والملائكة والجن لم يكن ذلك ظلمًا ولا سفها، هذا مذهب الصحابة وغيرهم، وقد ورد في حديث زيد بن ثابت: «**لو أن الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم**» وهو حديث صحيح رواه ابن حبان وأبو داود. ولعل مرادَه بقوله (فلا يعاقبهم بغير جرم) أن الله تعالى لا يُخلِف وعده وقد وعد أَلَّا يعاقب أحدًا بغير جُرم، وقيل في معنى الآية الكريمة ﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾: ليس بواضعٍ الثواب والعقاب في غير موضعهما.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٨٣ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ
وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ١٨٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن
زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ
ٱلْغُرُورِ ١٨٥ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾ في قولكم: إنما نؤخرُ الإيمانَ لهذا.

١٨٤- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فإن كذَّبك اليهودُ، فلا يَهُولَنَّك، فقد فَعَلت الأممُ بأنبيائها كذلك ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ الكُتُبِ، جمع زَبُور، من الزَّبْر وهو الكتابةُ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ جنسِه ﴿ٱلْمُنِيرِ ١٨٤﴾ المضيء، قيل: هما واحدٌ في الأصل، وإنما ذُكِرَا لاختلاف الوصفين، فالزبورُ كتابٌ فيه حِكَم زاجرة، والكتابُ المنير هو الكتابُ الهادي.

١٨٥- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ المعنى: لا يحزنكَ تكذيبُهم إيّاك، فمرجِعُ الخلق إليَّ، فأُجازيهم على التكذيب، وأجازيك على الصبر، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تُعطَونَ ثوابَ أَعمالِكم على الكمال يومَ القيامة، فإنّ الدنيا ليست بدارِ الجزاءِ ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ بُعِّدَ، والزحزحةُ: الإبعادُ ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظَفِرَ بالخير، وقيل: فقد حصل له الفوز المطلق ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾ شَبَّه الدنيا بالمتاع الذي يُدَلَّسُ به على المُستام(١) ويُغَرُّ حتى يشتريَهُ ثم يتبيَّنُ له فسادُه وَرَداءَته، والشيطانُ هو المُدَلِّسُ الغَرور.

١٨٦- ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أي لَتُختَبرُنّ ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بالإنفاقِ في سبيل الله وبما يقعُ فيها مِنَ الآفاتِ ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالقتلِ والأسر والجراح

---

(١) المُستام: المشتري.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ
وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ
مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟﴾

وما يَرِدُ عليها من أنواعِ المخاوف والمصائب، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهودَ والنصارى ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ﴾ كالطَّعن في الدّين وصَدِّ مَنْ أرادَ الإيمانَ وتخطئةِ مَنْ ءامنَ ونحوِ ذلك ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ على أذاهُم ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ مخالفةَ أمرِ الله ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ فإنَّ الصَّبرَ والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ من مَعزوماتِ الأمور، أي مما يجبُ العزمُ عليه منَ الأمور، خُوطِبَ المؤمنونَ بذلكَ ليُوَطّنُوا أنفسهم على احتمالِ ما سيلقَون من الشدائدِ والصّبر عليها، حتى إذا لَقُوها وهم مستعدّونَ لا يُرهقهم ما يُرهِقُ مَن تصيبُه الشِّدّةُ بغتة فيُنكرُها وتشمئزُّ منها نفسُه.

١٨٧- ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ واذكروا وقتَ أخذَ الله ميثاقَ أهلِ الكتاب ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ عن الناسِ، أكَّد عليهم إيجابَ بيانِ الكتاب واجتنابَ كِتمانِه ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فنبذوا الميثاقَ وتأكيدَهُ عليهم، أي لم يراعُوه ولم يلتفتوا إليه، والنَّبذُ وراءَ الظَّهر مَثَلٌ في الطَّرح وتركِ الاعتداد، وهو دليلٌ على أنه يجبُ على العلماءِ أن يُبينوا الحقَّ للناسِ وما عَلِمُوه، وألَّا يكتموا منه شيئًا لغَرَضٍ فاسد، وفي الحديث: «**مَنْ كَتَمَ علمًا ألجَمَهُ اللهُ بلِجام من نارٍ يومَ القيامة**» ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ﴾ عَرَضًا يسيرًا ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [شراؤهم هذا].

١٨٨- والخطابُ في ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ لرسولِ الله ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ تقديرُه لا تحسبنَّهم فائزين ﴿بِمَآ أَتَوا۟﴾ بما فَعلوا ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟﴾

﴿بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨ وَلِلَّهِ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ
ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾

بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ بمَنْجَاةٍ منه ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾ مؤلمٌ، روي أنَّ رسولَ الله ﷺ سألَ اليهودَ عن شيء مما في التوراةِ، فكتَموا الحقَّ وأَخبروه بِخلافهِ، وأَرَوه أنهم قد صَدَّقوه واستحمَدوا إليه، وفَرِحوا بما فعلوا من تدلِيسِهم، فأَطلعَ اللهُ رسولَه على ذلك، وَسلَّاه بما أنزَل من وعيدهم، أي لا تحسَبَنَّ اليهودَ الذين يفرحون بما فَعلوا من تدليسهم عليك ويُحبُّون أن تَحمَدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عمَّا سألتَهم عنه ناجين منَ العذابِ، وفيه وعيد لمن يُحبُّ أن يَحمَدَه الناسُ بما ليس فيه.

١٨٩- ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فهو يملكُ أمرَهما، وفيه تكذيبٌ لمن قالَ: إنّ الله فقير ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾ فهو يقدرُ على عقابهم.

١٩٠- ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ﴾ لأَدِلّةً واضحةً على صانع قديم عليم حكيم قادر ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ لِمَنْ خَلَصَ عقلُه عن الهوى خلُوصَ اللُّبِّ عن القشر، فيرَى أن العَرَض المُحدَث في الجواهر يدل على حدوث الجواهر، لأن جوهرًا ما لا ينفَكُّ عن عَرَض حادث، وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث، ثم حدوثُها يدل على مُحدِثها وذا قديم، وإلا لاحتاج إلى مُحدِث ءاخَرَ إلى ما لا يتناهَى، وحُسْنُ صُنعه يدل على علمه، وإتقانُه يدل على حِكمته، وبقاؤُه يدل على قدرته.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾

١٩١- ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ يُصلّون ﴿قِيَٰمٗا﴾ قائمينَ عند القدرة ﴿وَقُعُودٗا﴾ قاعدينَ ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ مضطجعين عند العجز[١]، أو المراد الذِّكرُ على كل حال، وفي الحديث: «**مَنْ أَحبَّ أن يرتعَ في رياض الجنة**[٢] **فليُكثر ذِكرَ الله**» ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وما يدلُّ عليه اختراعُ هذه الأجرام العظام، وإبداعُ صَنعتها، وما دبَّر فيها مما تَكِلُّ[٣] الأفهام عن إدراكِ بعضِ عجائبه من عِظَم شأنِ الصانع وكبرياءِ سلطانه ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ يتفكرون قائلينَ [ذلك]، والمعنى: ما خلقته خلقًا باطلًا بغير حكمة، بل خلقته لحكمة عظيمة، وهو أن تجعلَها مساكنَ للمُكَلَّفين وأدلةً لهم على معرفتك ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك عن الوصف بخلق الباطل ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ تقديره: إذا نزهناك فقنا.

١٩٢- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾ أَهَنْتَه أو أَهلكتَه أو فضحتَه ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ المرادُ الكفار ﴿مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾ من أعوان وشفعاءَ يشفعونَ لهم كما للمؤمنين.

١٩٣- ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾ المنادي هو الرسولُ عليه الصلاة والسلام أو القرءانُ ﴿يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ لأَجل الإيمانِ بالله، وفيه تفخيمٌ لشأنِ المنادِي إذ لا مناديَ أعظمُ من منادٍ ينادي للإيمانِ ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ﴾ بأَن ءامنوا ﴿بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائِرَنا ﴿وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ صغائرَنا ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ مخصوصينَ بصُحبتهم

---

(١) أي: عن القيام والقعود، أي يُصلُّون في كل حالٍ حسبَ الطاقة.
(٢) أي: أن يأخذ بالحظِّ الوافرِ.
(٣) أي: تَعْيا.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ
لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟
وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ
تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾

معدودين في جُملتهم، والأبرارُ المتمَسّكون بالسُّنة.

١٩٤- ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي على تصديق رُسُلِك، أو على ألسنة رُسلك، والموعود هو الثواب أو النصرة على الأعداء، وإنما طلبوا إنجاز ما وَعَدَ اللهُ - واللهُ لا يُخلف الميعادَ - لأن معناه طلبُ التوفيق فيما يحفظ عليهم أَسباب إنجاز الميعاد. ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ هو إظهارٌ للخضوع والضَّراعةِ ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾.

١٩٥- ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أجـاب ﴿أَنِّى﴾ بـأنّـي ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ الذكرُ مِنَ الأنثى والأنثى من الذكرِ، كُلُّكم بنو ءادمَ فيما وعَدَ اللهُ به عبادَه العاملينَ ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ فالذين عملوا هذه الأعمالَ السَّنيّةَ الفائقةَ وهي المهاجَرَةُ عن أوطانهم فارِّينَ إلى الله بدينهم إلى حيث يأمنون عليه ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ التي وُلدوا فيها ونشأوا ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ بالشتم والضرب ونهب المال، يريد: سبيلَ الدين ﴿وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ وغزَوا المشركين واستُشهدوا ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا﴾ إثابةً ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ يختصُّ به ولا يَقدِرُ عليه غيرُه.

روي أنّ طائفةً من المؤمنين قالوا: إنّ أعداءَ الله فيما نرى مِنَ الخير وقد هَلَكنا من الجوع، فنزل:

١٩٦- ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ والخطابُ لكل أحدٍ، أو للنبي عليه الصلاة والسلام، ورسولُ الله كان غيرَ مغرور

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾

بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة القصص] ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة القصص] وهذا في النهي نظيرُ قوله في الأمر: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [سورة الفاتحة]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة النساء].

١٩٧- ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ تَقلُّبُهم في البلادِ متاعٌ قليلٌ، وأرادَ قِلَّتَه في جَنبِ ما أعدَّ الله للمؤمنينَ مِنَ الثوابِ ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ وساءَ ما مهَّدوا لأنفسهم.

١٩٨- ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ عن الشركِ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا﴾ رزقًا أو عطاءً ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الكثير الدائم ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ مما يَتقلَّبُ فيه الفُجّارُ مِنَ القليلِ الزائلِ.

١٩٩- ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ مِنَ القرءان ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ مِنَ الكتابَين ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ﴾ كما يفعلُ مَنْ لم يُسلم مِن أحبارهم وكبارهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ ما يختصُّ بهم منَ الأجرِ وهو ما وُعِدُوهُ في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة القصص] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ لنفوذِ علمهِ في كلّ شيء.

٢٠٠- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾ على الدّين وتكاليفه، قال

﴿وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾

الجنيد رضي الله عنه: الصبر حبس النفس على المكروه بنفي الجزَع[١]. ﴿وَصَابِرُواْ﴾ أعداءَ الله في الجهاد، لا تكونوا أَقلَّ صبرًا منهم وثباتًا ﴿وَرَابِطُواْ﴾ وأقيموا في الثُّغور[٢] رابطينَ خيلَكم فيها مترصِّدين مستعدين للغزو ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ الفلاحُ: البقاءُ مع المحبوب بعد الخلاصِ عن المكروه. قال النبي ﷺ: «**اقرءوا الزَّهراوين: البقرةَ وءالَ عمران، فإنهما يأتيانِ يومَ القيامةِ كأنهما غَمامتان أو غَيايَتان[٣] أو فِرقانِ[٤] من طيرٍ صَوَافَّ تُحاجّانِ[٥] عن أصحابِهما**»[٦]. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

---

(١) الجَزَعُ: ضِدُّ الصَّبر.
(٢) الثُّغور: أطراف بلاد المسلمين التي يُخاف فيها من دخول العدو.
(٣) الغَيايَةُ: كل شيء أظلَّ الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرها.
(٤) فِرقان: أي قطعتان.
(٥) تُحاجَّان: أي تدفعان عمن قرأهما في الدنيا بالشفاعة له عند الله.
(٦) رواه مسلم في صحيحه.

سورة النساء
نزلت بالمدينة ءاياتُها مائةٌ وسِتٌّ وسَبعون ءايةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا بَني ءادمَ ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فَرّعَكُم من أصلٍ واحِدٍ وهو نَفْسُ ءادمَ أبيكُم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ المعنى: شَعّبكُم من نفسٍ واحدةٍ هذه صفتُها، وهي أنه أنشأها مِنْ تُرابٍ وخَلَقَ منها زوجَها حَواءَ مِنْ ضِلَعٍ مِنْ أضلاعها ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ ونَشَرَ مِنْ ءادمَ وحَواءَ ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ كثيرةً أي وبَثَّ منهما نوعي جِنْسِ الإنسِ وهما الذكورُ والإناثُ، ومَن قَدَرَ على نحوِهِ كان قادرًا على كل شىء، ومِن المقدورات عقاب الكفار والفُجّار، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يُتَّقى القادر عليه ويُخشى عقابه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ أي يسألُ بعضُكم بعضًا بالله، فيقولُ: بالله افْعَلْ كذا على سَبيل الاستعطافِ ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ واتَّقوا الأرحامَ أن تقطعوها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ حافظًا أو عالمًا.

٢- ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ يعني الذين ماتَت ءاباؤهم فانفردوا عنهم، والمعنى: وءاتُوا اليتامى أموالهم بعد البلوغ، وسمّاهم يتامى لقرب عهدهم إذا بلغوا بالصغر، وفيه إشارة إلى ألَّا يؤخَّرَ دفعُ أموالهم إليهم

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ﴾

عن حَدّ البلوغ إن أُونِسَ منهم الرُّشْدُ. ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ﴾ ولا تستبدلوا الحرامَ - وهو مالُ اليتامى - بالحلالِ - وهو مالُكم - ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ﴾ ولا تَضُمُّوها إليها في الإنفاقِ حتى لا تُفرِّقُوا بين أموالِكم وأموالهم قلةَ مبالاةٍ بما لا يَحِلُّ لكم وتَسويةً بينه وبين الحلالِ ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ أكْلَها ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ ذنبًا عظيمًا.

٣- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾ أي لا تعدِلُوا ﴿فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ يقالُ للإناثِ اليتامى كما يقالُ للذكور وهو جَمْعُ يتيمةٍ ويتيم، وأما أيتامٌ فجمعُ يتيم لا غير ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم﴾ ما حلَّ لكُم ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ لأنّ منهنّ ما حرَّمَ الله كاللاتي في ءايةِ التحريم، قيل: كانوا لا يَتحرَّجون من الزنا ويتحرَّجون من وِلايةِ اليتامى، فقيلَ: إن خِفتُم الجَورَ[1] في حقِّ اليتامى فخافوا الزنى، فانكحوا ما حَلَّ لكم من النساء ولا تَحُوموا حولَ المحرَّمات. ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ﴾ فانكِحوا الطيباتِ لكم مَعدوداتٍ هذا العَددَ ثِنْتَيْنِ ثِنْتَيْنِ وثَلاثًا ثلاثًا وأربعًا أربعًا[2]، كما تقول للجماعة: اقتسِموا هذا المال - وهو ألف درهم - درهمين درهمين وثلاثةً ثلاثة وأربعةً أربعة [بمعنى أن تقع القسمة على هذا التفصيل دون غيره فلا تقسِموا خمسةً خمسة، والمعنى: من شاء منكم أن يزيد على الواحدة

---

(١) الجَوْرُ: الظُّلم.

(٢) ألفاظ مثنى وثلاث ورباع معدولة عن اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة ويراد بذلك تكرار العدد إلى غاية المعدود كقوله: ونفروا بعيرًا بعيرًا، وفَصَّلْتُ لك الحساب بابًا بابًا، وليس المراد بذلك الجمع بين تسع نسوة، فإنه إذا قيل لقوم: ادخلوا الدار مثنى وثلاث ورباع لم يكن أمرًا بدخول تسعة منهم جملةً في حالة بل هو أمر لهم بأن يدخلوا اثنين اثنين، ولهم أن يدخلوا بدل ذلك ثلاثة ثلاثة، ولهم أن يدخلوا بدل ذلك أربعة أربعة وكذا في كل موضع ذكر فيه مثل ذلك، هذا قضية اللغة، وما خالفه جهل شنيع بلسان العرب.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾

في النكاح فليكن على هذا الترتيب يأخذ كلٌّ واحد منكم اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا لا على غير هذا الترتيب] ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ بين هذه الأعدادِ ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ فالزَمُوا أو فاختاروا واحِدةً ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ سَوَّى في اليُسرِ بين الحُرّةِ الواحِدَةِ وبين الإماءِ من غيرِ حَصر ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى اختيارِ الواحدةِ والتَّسَرِّي ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ أقربُ مِن أَلَّا تميلُوا ولا تَجُوروا.

٤- ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ مُهورَهُنَّ ﴿نِحْلَةً﴾ مِنْ نَحلَه كذا إذا أَعطاهُ إيّاه ووَهبَهُ له عن طِيبةٍ من نفسهِ، أي أعطُوهن مهورَهن عن طيبة أنفسكم والخِطَابُ للأزواجِ، وقيلَ: للأولياءِ لأنهم كانوا يأخذُونَ مُهورَ بَناتِهم ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾ للأزواجِ ﴿عَن شَىْءٍ مِّنْهُ﴾ مِنَ الصّدَاقِ، إذ هو في معنى الصَّدُقاتِ ﴿نَفْسًا﴾ المعنى: فإن وهَبْنَ لكم شَيئًا من الصداق وتَجافَت عنه نفوسُهنَّ طَيّبات غَيرَ مُخَبَّثاتٍ بما يضطَرُّهُنَّ إلى الهِبَةِ مِنْ شَكاسَةِ أخلاقِكُم[1] وسُوءِ مُعاشَرتِكم ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا﴾ لا إثمَ فيهِ ﴿مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ لا داءَ فيه، وهذه عبارة عن المبالغة في الإباحة وإزالة التَّبِعة.

٥- ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ﴾ المبذِّرينَ أموالَهُم الذينَ يُنفِقُونَها فيما لا ينبغي ولا قُدرةَ لهم على إصلاحِها وتَثميرها والتّصرفِ فيها، والخِطابُ للأولياء، وأضاف إلى الأولياء أموال السفهاء بقوله: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ لأنهم يلُونَها ويُمسِكُونها ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ أي [جعلَها الله لكم] قِواما

---

(١) أي: سُوئِها.

﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾

لأبدَانِكم ومعاشًا لأهلِكُم وأولادِكم[(١)] ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ واجعلُوها مكانًا لرزقهم بأن تَتجَروا فيها وتربحوا حتى تكونَ نفقتُهم منَ الأرباحِ لا مِن صُلبِ المالِ فيأكُلَها الإنفاقُ ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥﴾ عِدَةً[(٢)] جميلةً إن صَلَحتُم ورَشَدتُم سَلَّمنا إليكم أموالَكُم.

٦- ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ واختَبِروا عقولهم وذوقوا أحوالَهم ومعرفتَهم بالتصرفِ قبلَ البلوغ، فالابتلاء عندنا[(٣)] أن يُدفَعَ إليه ما يتصَرَّفُ فيه حتى يتبيَّن حالُه فيما يَجيء منه، وفيه دليلٌ على جوازِ إذْن الصبي العاقلِ في التجارة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ الحُلُمَ لأنه يَصْلُح للنكاحِ عندَه ولطَلبِ ما هو مقصودٌ به وهو التوالُد ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ﴾ تَبَيّنتُم ﴿رُشۡدٗا﴾ هِدايةً في التّصَرُّفات وصَلاحًا في المعامَلات ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ مِنْ غَيرِ تأخيرٍ عن حَدّ البلُوغِ، فكأنه قيل: وابتَلُوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفعَ أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾ ولا تأكلُوها مُسرِفينَ ومبادِرينَ كِبَرَهُم تقولون: نُنفِق فيما نشتهي قبل أن يكبَر اليتامى فينتزعوها من أيدينا ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ قَسَّمَ الأَمرَ بين أن يكونَ الوَصِيُّ غَنِيًّا وبينَ أن يكون فقيرًا، فالغَنيُّ يَستعفُّ مِنْ أكلها أي يَحترِزُ مِنْ أكلِ مالِ اليتيم، والفقيرُ يأكلُ قُوتًا مُقَدَّرًا مُحتاطًا

---

(١) أي: أن الأموال في الجملة مجعولةٌ للناس كلهم قِوامًا لهم، لا أن يجعلوا أموال السفهاء التي هم أولياء عليها قوامًا لأبدانهم هم ومعاشهم.

(٢) العِدَةُ، بتخفيف الدّال: الوعدُ.

(٣) أي: عند الحنفية.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

في أكلهِ ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم قَبضُوها دفعًا للتَّجاحُدِ ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ مُحاسِبًا.

٧- ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ همُ المتوارِثُونَ مِنْ ذَوِي القَراباتِ دونَ غيرِهم ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ مَقطُوعًا لا بدَّ لهم مِنْ أن يَحُوزُوه، وكان أهلُ الجاهليةِ لا يورّثونَ النِّساءَ والأطفالَ ويقولونَ: لا يَرِثَ إلا مَنْ طاعَنَ بالرّماح وحَازَ الغَنِيمةَ.

٨- ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ قِسْمةَ التَّرِكَةِ ﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ مِمّن لا يَرِثُ ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ﴾ مِنَ الأجانِب ﴿فَارْزُقُوهُم﴾ فأَعطُوهُم ﴿مِّنْهُ﴾ مما تَركَ الوالِدَانِ والأقرَبُونَ، وهو أَمرُ نَدْبٍ ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾ عُذْرًا جَميلًا وعِدَةً حسنةً.

٩- ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ المرادُ بهم الأَوصِياءُ[1]، أُمِروا بأن يَخشَوا الله فيخَافُوا على مَن في حُجورِهم مِنَ اليتامى فيُشفِقُوا عليهم خَوفَهُم على ذُريتهم لَو تركُوهم ضِعَافًا، وأن يقدِّروا ذلك في أنفسهم ويُصوِّروه حتى لا يَجسُروا على خلاف الشفقة والرحمة، والقول السديد من الأوصياء أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب.

---

(١) الأوصياءُ غيرُ القرائب، كأن يوصيَ الأب شخصًا يحِبُّه لِيَليَ أمرَ أولادِه بعد موته ويتَصرف لهم بأموالهم بالإنفاق والتّنميةِ والحفظ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾

١٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ ظالِمينَ ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ﴾ مِلءَ بُطونِهم ﴿نَارٗاۖ﴾ أي يأكلونَ ما يَجُرُّ إلى النارِ فكأنه نارٌ، رُوِي أنه يُبعَثُ ءاكِلُ مالِ اليتامى يومَ القيامةِ والدخانُ يَخرجُ مِنْ قَبرِه ومِنْ فيْهِ وأَنفِه وأُذُنَيهِ فيَعرفُ الناسُ أنه كانَ يأكُلُ مالَ اليتيم [بغير حقّ] في الدنيا ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [سيدخلون النار المستعرة الملتهبة].

١١- ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ يَعهَدُ إليكم ويأمرُكم ﴿فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ في شأنِ ميراثِهم ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ أي لِلذّكَرِ مِنْ أولادِكم، كانوا يُورّثونَ الذكُورَ دونَ الإناثِ، وهو السّبَبُ لِورُودِ الآيةِ، فقِيلَ: كَفَى الذكُورَ أن ضُوعِفَ لهم نَصِيبُ الإناثِ، والمرادُ حالَ الاجتماع إذا اجتمع الذكر والأنثيان كان له سهمان كما أنّ لهما سهمين، ثم أتبعه حكمَ الانفراد بقوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ﴾ فإن كانتِ الأولادُ نِساءً خُلَّصًا يعني بناتٍ ليس مَعَهُنَّ ابنٌ ﴿فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ أي نِساءً زائِداتٍ على اثنَتينِ ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ﴾ الميتُ، لأنّ الآيةَ لمّا كانت في الميراثِ عُلِم أنّ التّارِكَ هو الميّتُ ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ﴾ وإن كانت المولودةُ منفرِدَةً [عن الذكور] واحدةً ﴿فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾ [أي: فرضًا، والباقي للعَصَبة إنْ كان. ودلَّ هذا على أنّ الابنَ إذا انفرد فله كلُّ المال] ولم يذكر [صريحًا] حكم البنتين في حال الانفراد، [فأغلب] الصحابة رضي الله عنهم أعطوهما حكم الجماعة بمقتضى قوله للذكر مثل حظ الانثيين، وذلك لأن من مات وخلف بنتًا وابنًا فالثلث للبنت والثلثان للابن، فإذا كان الثلث لبنت واحدة كان الثلثان للبنتين، ولأنه تعالى قال في ءاخر السورة في الأختين: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ والبنتان أمسُّ رَحِمًا من الأختين فأوجبوا لهما ما أوجب الله للأختين ولم

﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾

يَنْقُصوا حظهما عن حظ مَن هو أبعدُ منهما. ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ﴾ للميّتِ، والمرادُ الأبُ والأمُّ إلا أنه غلَّبَ الذكرَ ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ﴾ هو يقعُ على الذكرِ والأنثى[(١)] ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾ مما تركَ، والمعنى: ووَرِثه أبواهُ فحسْبُ، لأنه إذا ورِثَه أبواهُ مع أحَدِ الزوجينِ كان للأُم ثلثُ ما يبقَى بعدَ إخراجِ نَصيبِ الزوجِ لا ثلثُ ما تَركَ، لأنّ الأَبَ أقوى مِنَ الأمّ في الإرثِ بدليلِ أنّ له ضِعْفَ حَظّها إذا خَلَصَا فلو ضُرِبَ لها الثلُثُ كاملًا لأدَّى إلى حَطِّ نصيبه عن نصيبها، فإن امرأةٌ تَركت زوجًا وأبوَينِ فصارَ للزوجِ النصفُ وللأم الثُّلُث والباقي للأَبِ حَازَت الأم سَهمَينِ والأبُ سَهمًا واحدًا، فينقَلِبُ الحكمُ إلى أن يكونَ للأُنثى مِثلُ حَظّ الذَّكَرَين[(٢)] ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ﴾ للميّتِ ﴿إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ إذا كان للميتِ اثنانِ مِنَ الإخوةِ والأخَواتِ فصاعدًا فلأمهِ السدُسُ، والأخُ الواحِدُ لا يَحجُبُ[(٣)]، والأعيانُ والعَلّاتُ والأخيافُ[(٤)] في حَجْبِ الأمّ سواءٌ ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ﴾ قِسمةُ هذه الأنصِباءِ مِنْ بَعدِ وصيّةٍ ﴿يُوصِي بِهَآ﴾ الميتُ ﴿أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ الدَّين مقدّمٌ على الوصيةِ في الشرع وقُدّمتِ الوصيةُ على الدَّينِ في

---

(١) أي: إن ترك الميت ولدًا ذكرًا أو أنثى أو أكثر فلأمه سدس ماله ولأبيه أيضًا سدسٌ فرضًا.
(٢) وهذا خلاف المقصود، وخلاف قوله تعالى: ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾ أي ولأبيه الباقي، لذلك كان لها إذا كانت مع الأب وأَحدِ الزوجين ثلث الباقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة وكان للأب الباقي بعدَها وهو ضعف ما لها.
(٣) أي: لا يَنقُصها من الثلث إلى السدس، إلا إذا كان الإخوة اثنين فصاعدًا فتنزل إلى السدس.
(٤) الأعيان: الإخوة من أب وأم، والعَلّات: أبناء الرجل من نساء عدة، والأخياف: أبناء الأم من رجال شتى.

﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾

التلاوة، فكان التقدير: من بعد أحد هذين الشيئين الوصية أو الدَّين ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ﴾ فرضَ الله الفرائضَ على ما هو عنده حكمةٌ، ولو وَكلَ ذلكَ إليكم لم تعلَموا أَيُّهم أنفعُ لكم فَوضَعتُم أنتُم الأموالَ على غيرِ حكمة، والتفاوتُ في السهام بتفاوُتِ المنافِع، وأنتم لا تدرونَ تفَاوتَها، فتولّى الله ذلكَ فضلًا منه ولم يَكِلها إلى اجتهادِكم لِعَجزِكُم عن معرفةِ المقاديرِ ﴿فَرِيضَةً﴾ فُرِضَ ذلكَ فَرضًا ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياءِ قَبلَ خَلْقِها ﴿حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ في كل ما فَرضَ وقَسَمَ مِنَ المَواريثِ وغَيرِها.

١٢- ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ أي زوجاتُكُم ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ﴾ ابنٌ أو بنتٌ ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ منكم أو من غيرِكُم ﴿فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ﴾ والواحِدَةُ والجماعةُ سواءٌ في الربع والثمنِ(١)، جعلَ ميراثَ الزوجِ ضِعفَ ميراثِ الزوجَة لدلالة قولهِ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾ ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ﴾ يعني المَيتَ ﴿يُورَثُ﴾ مِنهُ ﴿كَلَٰلَةً﴾ أي وإن كانَ رجُلٌ مَورُوثٌ منه كَلَالَةً، والكَلالَة تُطلَق على مَن لم يُخَلّف ولَدًا ولا والِدًا

---

(١) أي: الربع أو الثمن نصيبُ الزوجة الواحدة إن انفردت ونصيبُهن إن تعددن من اثنتين إلى أربع فيقتسمن هذا النصيب بينهن.

﴿أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾

﴿أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾ [تُورثُ كلالةً] ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ أي لأُم [وعلى هذا إجماع الصحابة والعلماء] ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ﴾ [مِنَ الأخ أو الأخت منَ الأم السدسُ، لا يُفَضَّل ذَكَرُهم على أُنثاهم] ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ مِنْ واحِدٍ [أو واحدة[1]] ﴿فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ لأنهم يستحقون بقَرابَةِ الأُم، وهي لا ترث أكثرَ منَ الثلُثِ، ولأن الشِّركة إن أُطلقت تقتضي التسوية. لا يُفَضّلُ الذكرُ منهم على الأنثى [بل يرثون الثلث بينهم بالسَّويَّة وليس للذكر مثل حظ الأنثيين] ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ إنما كُرِّرَت الوصيةُ لاختِلافِ المُوصِين، فالأولُ الوالِدَانِ والأولادُ، والثاني الزَّوجَةُ، والثالثُ الزوجُ، والرابعُ الكَلالَةُ ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ أي يُوصِي بها وهو غيرُ مُضَارّ لِوَرثَتِهِ، وذلكَ بأن يُوصِيَ بزيادةٍ على الثلُثِ، أو لِوَارِثٍ[2] ﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ يُوصِيكُم بذلكَ وصيةً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمَن جَارَ[3] أو عَدَلَ في وصيتهِ ﴿حَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ على الجائِرِ لا يُعاجِلُه بالعقُوبةِ، وهذا وعيدٌ.

١٣- ﴿تِلۡكَ﴾ إشَارةٌ إلى الأَحكام التي ذُكِرَت في باب اليتامى والوصايا والمواريث ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ سَمّاها حُدودًا لأنَّ الشَّرائِعَ كالحدودِ المضروبةِ للمكَلّفِينَ لا يجوزُ لهم أن يتجاوزوها ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) أي: الاثنان فأكثرَ من الإخوة لأم ذكورًا كانوا أو إناثًا أو مختلطين.

(٢) فإنه لا وصيةَ لوارث، ولا وصيةَ لغيره بزيادة على الثلث.

(٣) جارَ: ظَلَمَ.

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾

١٤- ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ لِهَوانِه عند الله، قال الكلبي: ومن يعصِ الله ورسوله بكفره بقسمة المواريث ويتعدَّ حدودَه استحلالًا.

ثم خَاطبَ الحُكّام فقال:

١٥- ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ أي الزِّنا لزِيادتها في القُبح على كثيرٍ منَ القَبائح ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ﴾ فاطلُبوا الشهادةَ ﴿أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ مِنَ المؤمنينَ ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ بالزِّنا ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ فاحبِسُوهُنَّ ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي ملائكةُ الموتِ، أو حتى يأخذَهن الموت ويستوفيَ أرواحهن ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ غيرَ هذه، لقوله عليه الصلاة السلام: «**خُذوا عنيّ، خُذوا عنيّ قَد جَعَلَ الله لَهُنَّ سبيلًا؛ البِكرُ بالبِكْر جَلدُ مائةٍ وتَغريبُ عام والثيِّبُ بالثيّب جَلدُ مائةٍ ورَجْمٌ بالحِجَارةِ**».

١٦- ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ يريدُ الزانيَ والزانيةَ ﴿يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ أي الفَاحِشَةَ ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ بالتوبيخ والتعيير وقولُوا لهما: أما استَحْيَيْتُما أما خِفتُما الله ﴿فَإِن تَابَا﴾ عن الفَاحِشَةِ ﴿وَأَصۡلَحَا﴾ وغَيَّرا الحالَ ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾ فاقْطَعُوا التَّوبيخَ والمذَمَّةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾ يَقبَلُ تَوبة التائب ويَرحَمهُ. قال الحسن: أَولُ ما نَزلَ مِنْ حَدِّ الزِّنَا الأَذى ثم الحَبسُ ثم الجَلدُ أو الرَّجْمُ، فكانَ تَرتيبُ النزولِ على خِلَافِ تَرتيبِ التّلَاوَة، والحاصل أنهما إذا كانا محصنَين فحدُّهما الرجم لا غير، وإذا كانا غير محصنين فحدهما الجلدُ لا غير، وإن كان أحدهما محصنًا

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾

والآخر غيرَ محصن فعلى المحصن منهما الرجم وعلى الآخر الجلد.

١٧- ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ﴾ هي مِنْ تَابَ الله عليهِ إذا قَبِلَ تَوبتَهُ، أي إنما قَبُولُها ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ وليس المرادُ به الوجوبَ، إذ لا يجب على الله شيء ولكنه تأكيدٌ للوَعْدِ، يعني أنه يكون لا مَحالَةَ ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ الذنبَ لِسُوءِ عِقَابهِ ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ جَاهِلين سُفهاء، لأنَّ ارتكابَ القبيحِ مما يَدعُو إليهِ السَّفَه، وقيل: جهالته اختياره اللذةَ الفانية على الباقية، وقيل: لم يجهل أنه ذنب ولكنه جهل كُنْهَ عقوبته ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ مِنْ زَمانٍ قَريبٍ، وهو ما قبلَ حَضْرةِ الموتِ، وعنه ﷺ: «**إن الله تعالى يقبَلُ توبةَ العبد ما لم يُغَرْغِر**[1]» ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ إعلامٌ بأنَّ الغُفرانَ كائِنٌ لا مَحالةَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بعَزمِهِم على التّوبةِ ﴿حَكِيمٗا ١٧﴾ حَكَمَ بكونِ النَّدمِ تَوبةً.

١٨- ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ ولا تَوبةَ للذينَ يُذنِبُونَ ويُسَوِّفُونَ تَوبَتَهُم إلى أن يَزُولَ حَالُ التّكلِيفِ بحضُورِ أسبابِ المَوتِ ومُعايَنَة مَلَكِ المَوتِ، فإنّ تَوبةَ هؤلاءِ غيرُ مقبُولَةٍ، لأنها حَالةُ اضطرارٍ لا حَالةُ اختيارٍ، وقبول التوبة لا وعدَ به إلا لمختار ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ﴾ أي ليستِ التوبةُ للذينَ يعملونَ السّيئاتِ ولا للذينَ ﴿يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ أي هيّأنَا.

---

(١) أي: ما لم تصل الرُّوح إلى موضع الغرغرة من الحلقوم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾

كانَ الرّجلُ يَرِثُ امرأةَ مُورثِهِ بأَنْ يُلقِيَ عليها ثوبَهُ فيَتزَوَّجَها بِلَا مَهْرٍ فَنزَلَ:

١٩- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ أي أنْ تأخذُوهُنَّ على سَبيلِ الإرثِ كما تُحازُ المَوارِيثُ وهنَّ كارِهَاتٌ لذلكَ، أو مُكرَهَاتٌ كَرْهًا.

وكانَ الرجلُ إذا تَزوجَ امرأةً ولم تكن مِنْ حَاجَتِهِ حَبَسَها مع سُوءِ العِشْرَةِ لِتَفتَدِي منهُ بمالِها وتختلِعَ فقيلَ: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ أي لا يحِلُّ لكم أن تَرِثوا النساءَ ولا أن تَعضُلُوهنَّ. والعَضْلُ: الحَبْسُ والتَّضييقُ ﴿لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ مِنَ المَهْرِ ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ﴾ هي النُّشُوزُ وإيذَاءُ الزَّوجِ وأَهلِه بالبَذَاءِ[(١)]، وعن الحسن: الفاحشة الزنا ﴿مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ كأنه قيل: ولا تَعضُلُوهُن في جَميعِ الأوقاتِ إلا وقتَ أن يأتينَ بفاحشة، أو ولا تَعضُلُوهُنّ لِعلَّةٍ منَ العِلل إلا لأَنْ يأتينَ بفاحشَةٍ، وكانوا يُسِيئونَ مُعاشَرةَ النساءِ فقيل لهم: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ وهو النَّصَفَةُ[(٢)] في المَبيتِ والنفقةِ والإجمالُ[(٣)] في القَولِ ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ﴾ لِقُبْحِهِنّ أو سُوءِ خلُقِهنّ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ في ذلكَ الشيء ﴿خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ ثَوابًا جَزيلًا أو وَلَدًا صالِحًا، والمعنى: فإن كَرِهتُموهنَّ فلا تُفارِقوهُنّ لِكَراهَةِ الأنفُسِ وحدَها، فرُبما كَرِهَتِ النّفسُ ما هو أصْلَحُ في الدّينِ وأدنى إلى الخَيرِ، وأحبَّت ما هو

---

(١) البَذَاءُ: الفُحْشُ، وفلان بَذِيُّ اللسان والمرأة بَذِيَّةٌ.
(٢) النَّصَفَةُ: العدلُ والإنصاف.
(٣) الإجمالُ: فِعلُ الجميل.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ
شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ
بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ﴾

بضِدّ ذلكَ، ولكن للنّظَر في أسبابِ الصّلاح.

وكان الرجُلُ إذا رأَى امرأةً فأَعجَبَتْهُ بَهتَ التي تَحته[1] ورَماها بفاحِشَةٍ حتى يُلجِئَها إلى الافتداءِ منه بما أعطاها فقيل:

٢٠- ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ تَطليقَ امرأةٍ وتَزوُّجَ أُخرَى ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾ وأَعطيتُم إحدى الزوجاتِ ﴿قِنطَارًا﴾ مالًا عظيمًا ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ﴾ مِنَ القِنطار ﴿شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ أي بَيّنًا، والبُهتانُ أن تَستقبِلَ الرجلَ بأمرٍ قَبيح تقذِفُه به وهو بَريء منه لأنَّه يَبْهَتُ عند ذلكَ أي يتَحَيَّرُ.

ثمّ أنكرَ أَخْذَ المَهْرِ بَعدَ الإفضاء فقالَ:

٢١- ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ خَلا بلا حَائِلٍ، ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ عَهدًا وَثيقًا، وهو قولُ الله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ﴿٢٢٩﴾﴾ [سورة البقرة]. والله تعالى أخذَ هذا الميثَاقَ على عبادِهِ لأَجلهِنَّ فهو كأخذهن، أو قولُ النبي عليه السلام: «**استوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عوانٍ[2] في أيديكم**».

ولمَّا نَزَلَ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ﴾ قالوا: تركنا هذا، لا نَرِثهُنَّ كرهًا ولكن نخطُبهُنَّ فَننكِحُهُنَّ برضاهُنَّ، فقيلَ لهم:

٢٢- ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وفيهِ تَحريمُ وَطْءِ

---

(١) أي: افترى عليها.
(٢) عوانٍ: أسيرات.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾

مَوطُوءَةِ الأَبِ بنكاحٍ أو بمِلكِ يمين ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾ لكن ما قد سَلَفَ فإنكم لا تُؤاخَذُونَ به ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ بالِغَةً في القُبحِ ﴿وَمَقْتًا﴾ وبُغضًا عند الله وعند المؤمنينَ ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ وبِئْسَ الطريقُ طريقًا ذلكَ.

ولمَّا ذكرَ في أوّلِ السُّورَةِ نِكَاحَ ما طَابَ أي حَلَّ مِنَ النِّساءِ، وذكرَ بعضَ ما حَرمَ قبلَ هذا، وهو نِساءُ الآباءِ ذَكَرَ المحرّماتِ الباقياتِ، وهنَّ سَبعٌ منَ النَّسَبِ، وسَبْعٌ مِنَ السَّبَبِ، وبدأ بالنَّسَب فقالَ:

٢٣- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ المرادُ تَحريمُ نِكاحِهنَّ، والجَدّةُ مِنْ قِبَلِ الأُمِّ أو الأبِ مُلْحقَةٌ بهِنّ ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وبناتُ الابنِ وبناتُ البنتِ مُلحَقاتٌ بِهنَّ ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ لأبٍ وأم أو لأبٍ أو لأمّ ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ مِنَ الأوجُهِ الثلاثةِ ﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ كذلكَ ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ﴾ كذلِكَ ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ كذلكَ، ثم شَرعَ في السبب فقال: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ الله تعالى نَزَّلَ الرَّضاعةَ منزلَةَ النَّسَب فسمَّى المُرضِعَةَ أُمًّا للرَّضِيعِ والمُراضِعَةَ أُختًا، وكذلكَ زَوجُ المُرضِعَةِ أَبوهُ، وأَبواهُ جَدّاهُ، وأُختُه عَمَّتُه، وكلُّ وَلَدٍ لهُ مِنْ غيرِ المُرضِعة قبلَ الرّضاعِ وبعدهُ فَهُم إخوَتُه وأخواتُه لأبيهِ، وأمُّ المُرضِعَةِ جَدّتُه، وأختُها خالَتُه، وكلُّ مَنْ وُلِدَ لها مِنْ هذا الزَّوجِ فَهُم إخوتُهُ وأخَواتُه لأبيهِ وأمّه، ومَن وُلِدَ لها مِنْ غيرهِ فَهُم إخوتُه وأخَواتُه لأُمٍ؛ وأصلُه قولُه عليه الصلاة السلام: «**يَحرُم منَ الرَّضَاعِ مَا يَحرُمُ مِنَ النَّسَبِ**» ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ وهنَّ مُحرّماتٌ بمجَرّدِ العَقْدِ ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ سَمَّى ولَدَ المرأةِ مِنْ غيرِ زوجِها رَبِيبًا ورَبِيبةً، لأنه يَرُبُّهما كما يَرُبُّ ولدَهُ في غالبِ الأمرِ، ثم

﴿ٱلَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾

اتُّسِعَ فيه فسُمِّيا بذلكَ وإنْ لم يَرُبَّهما ﴿ٱلَّتِي فِي حُجُورِكُم﴾ ذُكِرَ الحِجْرُ[١] على غَلبةِ الحالِ دونَ الشّرطِ، وفائدتُه التَّعليلُ للتّحريم وأنهن لاحتضانكم لهن أو لكونهن بصدد احتضانكم كأنكم بالعقد على بناتهن عاقدون على بناتكم ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ أي الربيبةُ مِنَ المرأةِ المَدخُولِ بها حَرامٌ على الرجلِ حَلالٌ له إذا لم يَدخُل بها، والدخُولُ بهنّ كنايةٌ عن الجِماع ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ فلا حَرجَ عليكم في أن تتزوَجُوا بناتِهنَّ إذا فارقتمُوهُنَّ أو متْنَ ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾ جَمعُ حَليلَةٍ وهي الزوجةُ ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ دونَ مَن تَبنّيتم[٢] فقد تزَوجَ رسولُ الله ﷺ زَينبَ حينَ فَارقَها زيدٌ[٣]، وقالَ الله تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ

---

(١) حِجْرُ الإنسان: حِضنُهُ.

(٢) التبنّي كان حلالًا قبل نزول الوحي بتحريمه.

(٣) الرسول عليه الصلاة والسلام كان له عبدٌ أهدته إياه زوجته خديجة عليها السلام قبل البعثة وهي كانت قد اشترته من غيرها، ولم يكن الرسول ﷺ والسيدة خديجة يعلمان بقصته وأنه اختُطِفَ من اليمن وكان اسمه زيد بن حارثة، ثم بعد وقت علم أهله الذين كانوا ما زالوا يبحثون عنه أنه عند النبي عليه السلام ولم يكن قد نزل عليه الوحي فأتى أبوه وعمه إلى مكة إلى الرسول وقال أبو زيد: هذا ولدي ونريد أن نأخذه، فقال النبي عليه السلام: «**ما رأيكما في أن أعطيه الخيار، إن اختاركما فلا أمنعه من الذهاب معكما، وإن اختار أن يبقى معي فأنا لا أمنعه**» فقالا: هذا عدل، فنادى زيدًا وقال له: «**هل تعلم من هذا؟**» قال: نعم، هذا أبي، قال: «**وهل تعلم من هذا؟**» - يعني الرجل الثاني - قال: نعم، هذا عمي فقال عليه الصلاة والسلام: «**أتيا ليأخذاك فماذا تريد؟**» فقال لوالده وعمه: هذا الشخص - يعني النبي عليه الصلاة والسلام - عاملني إلى درجة أني لا أريد أن أتركه، أعلم أنكم أهلي ولكن أريد البقاء معه، عند ذلك تبنَّى النبي ﷺ زيدًا حتى صار يقال له بعد ذلك زيد بن محمد، وكان هذا قبل البعثة، ثم لما نزل الوحي بتحريم التبني بعد البعثة تُرك مناداته بزيد بن محمد وصار يقال له زيد بن حارثة.

﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾

أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الأحزاب]. وليسَ هذا لِنَفي الحُرمةِ عن حَليلةِ الابنِ منَ الرضَاع ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ أي في النكاح، أي وحَرُمَ علَيكُم الجمعُ بينَ الأختَين ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ولكن ما مضى مغفورٌ بدليلِ قولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ وعن محمدِ بنِ الحسَنِ رحمه الله أنّ أهلَ الجاهليةِ كانوا يعرفونَ هذه المحرّماتِ إلا نِكاحَ امرأةِ الأبِ ونِكاحَ الأختَين فلِذا قالَ فيهما: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

٢٤- ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي ذَواتُ الأَزواج لأنهُن أحْصَنَّ فروجَهُنَّ بالتَّزوُّجِ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ بالسَّبْيِ وزَوجُها في دارِ الحَرب، والمعنى: وحَرُم عليكم نِكاحُ المنكُوحاتِ أي اللاتي لَهُنَّ أزواجٌ إلا ما مَلكتُموهُنَّ بسَبْيهنّ وإخراجِهنَّ بدونِ أَزواجهن لِوقُوع الفُرقةِ بتَبايُنِ الدّارَينِ لا بالسَّبي فتَحِلُّ الغنائمُ بمِلكِ اليمينِ بَعدَ الاستبراءِ ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ كتبَ الله ذلكَ عليكم كتابًا وفرضه فَريضةً وهو تَحريمُ ما حَرُمَ ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ما سِوَى المحرماتِ المذكورةِ ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ بيَّن لكُم ما يَحِلُّ مما يَحرُم لأن تَبتغوا ﴿بِأَمْوَالِكُم﴾ يعني المُهورَ، وفيه دليلٌ على أنّ النّكاحَ لا يكونُ إلا بمهرٍ، وأنه يجبُ وإن لم يُسَمَّ، وأن غير المال لا يصلحُ مهرًا، وأنّ القليلَ لا يَصلُح مَهرًا[1]، إذ الحَبَّةُ لا تُعَدُّ مالًا عادةً ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ في حَالِ كَونِكم مُحصِنينَ ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ لئلا تُضَيّعُوا أموالَكُم وتُفقِروا أنفُسَكُم فيما لا يَحِلُّ لكم

---

(١) هذا عند الحنفية، وأما عند الشافعية فيصح بكل ما يتوافقان عليه مما جاز أن يكون ثمنًا، أو مبيعًا، أو أجرة قلَّ أو كَثُرَ. ويجوز أن يكون منفعةً معلومةً.

﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٢٤ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾

فتَخسَروا دِينكُم ودُنياكُم، ولا فسادَ أعظَمُ مِنَ الجَمعِ بين الخُسرَانَينِ. والإحصانُ العِفَّةُ وتَحصِينُ النَّفْسِ مِنَ الوقوعِ في الحَرام، والمُسَافِحُ الزانِي ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ فما نكَحتُموهُ منهُنَّ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مُهورَهُنَّ، لأن المهرَ ثَوابٌ على البُضعِ[1] ﴿فَرِيضَةٗۚ﴾ مفروضةً ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾ فيما تَحُطُّ عنه مِنَ المَهرِ أو تَهَبُ له من كُلِّهِ، أو يَزِيدُ لها على مقدارِه، أو فيما تراضيا به مِنْ مُقام أو فراقٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياءِ قَبلَ خَلْقِها ﴿حَكِيمٗا ٢٤﴾ فيما فَرضَ لهم مِنْ عَقْدِ النكاحِ الذي به حُفِظَتِ الأَنسَابُ.

٢٥- ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا﴾ فَضلًا ﴿أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الحَرائرَ المُسلِماتِ ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ﴾ أي فلْيَنْكِحْ مملوكةً مِنَ الإماءِ المسلماتِ، وقوله: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾ أي من فتيات المسلمينَ، والمعنى: ومَن لم يَستَطِعْ زِيادةً في المالِ وسَعَةً يَبلغُ بها نِكاحَ الحُرّةِ فَلْيَنكِحْ أَمَةً، ونِكَاحُ الأَمةِ الكِتَابيةِ يجوزُ عندنا[2]، والتّقييدُ في النَّصّ للاستحباب بدليل أن الإيمان ليس بشرط في الحرائر اتفاقًا مع التقييد[3] به ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ﴾ فيه تَنبِيه على قَبُول ظَاهرِ إيمانِهنَّ ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ لا تستنكِفُوا مِنْ نِكاح الإماءِ، فكُلُّكم بنُو ءادمَ، وهو تحذيرٌ عن

---

(١) البُضْعُ: النكاح.
(٢) يريدُ: مَعْشَر الحنفية.
(٣) مع أن الآية الكريمة ذكرت المؤمنات أيضًا عند الكلام عن الحرائر.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ﴾

التّعيير بالأنسابِ والتّفاخُرِ بالأَحْسَابِ ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ سَادَتِهِنَّ ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وأَدُّوا إليهنّ مُهورَهُنّ بغَير مَطْلٍ وإضرارٍ، ومُلَّاكُ مُهورِهنَّ مَواليهنَّ ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ عَفائِفَ ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ زَوانٍ علانيةً ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾ زوانٍ سرًّا، والأخدَانُ: الأخِلاءُ في السِّرّ ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ بالتّزويج ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ زِنا ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الحرائرِ ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِۚ﴾ مِنَ الحَدّ يعني خمسينَ جلدةً، وقولُه: ﴿نِصْفُ﴾ يَدلُّ على أنَّه الجلدُ لا الرَّجْمُ، لأنّ الرّجمَ لا يتنصَّفُ، وأنّ المحصناتِ هنا الحَرائِرُ اللّاتِي لم يُزَوَّجْنَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي نِكاحُ الإماءِ ﴿لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ﴾ لِمن خافَ الإثمَ الذي تُؤدِّي إليه غَلَبَةُ الشَّهوَةِ، وأَصلُ العَنَتِ انكِسَارُ العَظْمِ بعد الجَبْرِ فاستُعِيرَ لكُل مشَقّةٍ وضَرَر، ولا ضَرَرَ أَعظَمُ مِن مُواقَعة المآثِم[1]، وعن ابنِ عباسٍ رضيَ الله عنهما: هو الزّنا لأنه سببُ الهَلاكِ ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟﴾ وصَبرُكم عن نِكاحِ الإماء مُتعفّفينَ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْۗ﴾ لأنّ فيه إرقاقَ الولد ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ يَسترُ المحظُورَ ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ يَكشفُ المَحذور.

٢٦- ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ يريدُ الله أن يُبَيّنَ لكم ما هو خَفيٌّ عليكُم مِن مصالِحكُم وأفاضِلِ أعمالِكُم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وأن يَهديَكم مناهِجَ مَن كان قبلَكُم مِنَ الأنبياءِ والصالحينَ، والطُّرقَ التي سلكوها في دِينهم لِتقتدوا بهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ﴾ ويوفّقَكم

(١) ويدخل في المآثم الشركُ وسائر أنواع الكفر.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ
أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ
مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا
فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾

للتَّوبةِ عما كنتم عليه مِنَ الخِلافِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عبادِه ﴿حَكِيمٌ ۝٢٦﴾ فيما شَرعَ لهم.

٢٧- ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ التكريرُ للتأكيدِ والتّقريرِ والتقابُل ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧﴾ [أي: يريد أعداؤكم من الكفار الذين إنما يتَّبعون ما تميل إليه أهواؤهم أن تميلوا عن طاعة الله وعن دينه ميلًا فاحشًا مُفرطًا في الجهل والخطأ].

٢٨- ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ﴾ بإحلالِ نِكاحِ الأَمَةِ وغيرِهِ مِنَ الرُّخَصِ ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ لا يَصبرُ عن الشهواتِ وعلى مَشاقِّ الطاعاتِ.

٢٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بما لم تُبِحهُ الشَّريعةُ مِن نَحوِ السرقَةِ والخيانةِ والغَصب والقِمار وعقُودِ الرِبا ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾ إلا أن تكونَ التجارةُ تِجارةً ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ﴾ عن تَراضٍ بالعَقدِ أو بالتعاطي ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ مَن كانَ من جِنسِكُم مِنَ المؤمنينَ، لأن المؤمنينَ كنَفسٍ واحدةٍ، أو لا يقتلِ الرجلُ نفسه كما يفعله بعض الجهلة، أو لا ترتكبوا ما يوجب القتل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩﴾ ولِرحمتِه بكم نَبّهَكُم على ما فيهِ صيانةُ أموالِكُم وبقاءُ أبدانِكُم.

٣٠- ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ القتلَ ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ لا خطأً ولا قِصاصًا ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ﴾ نُدخِلُه نارًا مخصوصةً شديدةَ العذابِ ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي إصلاؤه النارَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾ سَهلًا، وهذا الوعيدُ في

﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا
كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا
ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾

حقّ المستحِلّ للتَّخليْدِ، وفي حَقّ غيرِه لبيانِ استِحقَاقِه دُخولَ النارِ مَع وَعْدِ الله بمغفِرَته.

٣١- ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ عن ابن مَسعودٍ رضي الله عنه: الكبائرُ كل ما نهى الله عنه من أولِ سُورةِ النِّساء إلى قوله: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ اهـ. ﴿وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾ حسنًا.

ولمَّا كان أَخْذُ مالِ الغَيرِ بالباطِل وقَتلُ النَّفسِ بغَيرِ حَقٍّ بتَمنّي مالِ الغَيرِ وَجَاهِه نهاهُم عن تَمنّي ما فَضّلَ الله به بعضَ الناسِ على بَعضٍ مِنَ الجاهِ والمالِ بقوله:

٣٢- ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ لأنّ ذلك التفضيلَ قِسْمَةٌ مِنَ الله صَادِرَةٌ عن حِكمةٍ وتَدبيرٍ وعلمٍ بأحوال العباد، فعلى كل واحد أن يرضى بما قُسِمَ له ولا يحسُد أخاه على حظِّه.

ولما قالَ الرّجالُ: نَرجُو أن يكونَ أجرُنا على الضِّعْفِ مِنْ أَجْرِ النِّساء كالمِيراثِ، وقالَت النساءُ: [نرجو أن] يكونَ وِزْرُنا على نِصْفِ وِزْرِ الرجالِ كالميراثِ، نَزَلَ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾ أي ليس ذلك على حَسَب الميراثِ ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ فإنّ خَزائِنَه لا تَنفَدُ، ولا تَتمنَّوا ما للناسِ مِنَ الفَضْلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾﴾ فالتفضيلُ منه عن عِلم بمواضع الاستحقاقِ.

٣٣- ﴿وَلِكُلّٖ﴾ ولكلّ أَحَدٍ ﴿جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ وُرّاثًا يَلُونَه ويُحرِزُونه

﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾

﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ﴾ لكُلّ مالٍ مما تركَهُ الوالِدانِ [والأقربونَ] ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ عقدت عهودَهم أَيْمَانُكُم ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ﴾ المرادُ به عَقْدُ الموالاةِ، وهي مشرُوعَةٌ، والوِرَاثَةُ بها ثَابِتَةٌ عند عامّةِ الصَّحابةِ رضيَ الله عنهم، وتَفسيرُه: إذا أَسْلَمَ رَجُلٌ أو امرأةٌ لا وَارِثَ له وليسَ بعَربيّ ولا مُعتَقٍ فيقولُ لآخرَ: والَيْتُكَ على أن تَعقِلَني إذا جَنيتُ وتَرِثَ منّي إذا مِتُّ ويَقولُ الآخَرُ: قَبِلتُ، انعقَدَ ذلكَ[1] ويَرِثُ الأعلَى منَ الأَسفَلِ[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣﴾ أي هو عالمُ الغيب والشهادةِ، وهو أبلَغُ وعدٍ ووَعيدٍ.

٣٤- ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ يقومونَ عليهن ءامِرينَ ناهِينَ كما يقومُ الولاةُ على الرعايا ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني إنما كانوا مُسَيطِرينَ عليهنّ لسَبب تَفضيلِ الله بعضَهم - وهم الرجالُ - على بعضٍ - وهم النساءُ - بالعَقلِ والعَزم والحَزم والرأي والقُوةِ والغَزْوِ وكمالِ الصَّوم والصلاةِ والنّبُوةِ والخِلافةِ والإمامةِ والأذانِ والخُطْبَة والجماعة والجُمعةِ والشهادةِ في الحدودِ والقِصاصِ وتضعيف الميراثِ والتّعصيب فيه ومِلكِ النكاحِ والطلاقِ، وإليهمُ الانتسَابُ، وهم أصحابُ اللِّحى والعَمائم ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ وبأنّ نَفقَتهُنّ عليهم، وفيه

---

(١) هذا عند أبي حنيفة، وأما عند مالك والشافعي رحمهم الله تعالى فميراثه للمسلمين فهم يرثونه ويعقلون عنه ولا توارث بوَلاء الموالاة، والآية عند الشافعية منسوخة الحكم بقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

(٢) إلا إن اتفقا على أن يكون التوارث بينهما من الجهتين فيكون على ما اتفقا عليه، وهذا عندهم بالإرث بوَلاء الموالاةِ، وأما بولاء العَتَاقة فالإرث به من جهة واحدة لا غير، وهو أن المُعتِق يرث من العتيق لا العكس.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾

دليلُ وجوبِ نفَقَتِهنّ عليهم. ثم قسّمَهُنّ على نَوعَين:

النّوعُ الأوّلُ: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ مُطِيعاتٌ قائماتٌ بما عليهنّ للأزواجِ ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ لمَواجب الغَيبِ، وهو خِلافُ الشهادَةِ، أي إذا كانَ الأزواجُ غيرَ شاهدينَ لهنّ حفِظْنَ ما يجبُ علَيهنّ حِفظُه في حَالِ الغَيبةِ منَ الفُروجِ والبيوتِ والأموالِ، وقيل: لأَسرارِهم ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ بما حَفِظَهنّ الله حِينَ أوصَى بهنّ الأزواجَ بقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ١٩﴾ [سورة النساء] أو بما حفظهنَّ الله ووفقهن لحفظ الغيب.

والثاني: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عِصْيانَهُنّ وتَرَفُّعَهُنّ عن طَاعةِ الأزواج. والنَّشْزُ: المكانُ المرتَفِعُ والنَّبْوَةُ. عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما: هو أن تَستَخِفَّ بحقوقِ زَوجِها ولا تُطِيعَ أَمْرَه ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ خَوّفُوهنّ عقُوبةَ الله تعالى والضَّربَ، والعِظَةُ كلامٌ يُلينُ القلوبَ القاسِيةَ ويرغّبُ الطبائعَ النّافِرةَ ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ في المَراقِد، أي لا تُداخِلُوهُنَّ تحتَ اللُّحُفِ وهو كِنايةٌ عن الجماع ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ ضَربًا غيرَ مُبرّح. أمَرَ بوَعْظِهنّ أوّلًا ثم بهِجرانِهنّ في المضَاجِع ثم بالضّرب إن لم يَنْجعْ[1] فيهنَّ الوَعْظُ والهِجْرَانُ ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾ بتركِ النشُوز ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ فأزِيلُوا عنهُنّ التّعرضَ بالأذى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ أي أنَّ قدرتَه عليكم أعظم مِن قدرتكم عليهن فاجتنبوا ظلمهن.

ثم خاطبَ الولاة بقوله:

---

(١) أي: لم يؤثِّر.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا
يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ
وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ
وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا
فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾

٣٥- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ الشّقاقُ: العَداوةُ والخِلافُ، لأنّ كلًّا منهما يفعلُ ما يَشُقّ على صَاحبِهِ ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾ رجُلًا يَصلُح للحكُومَةِ والإصلاح بينهما ﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وإنما كان بَعْثُ الحَكَمينِ من أهلِهما لأنّ الأقارِبَ أعرَفُ ببَواطِن الأحوالِ وأَطلَبُ للصّلاح، ونفُوسُ الزّوجَينِ أسكَنُ إلَيهم فيُبرِزانِ ما في ضَمائرِهما مِنَ الحُبّ والبُغْضِ وإرادةِ الصُّحْبَةِ والفُرقة. والضميرُ في ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ للحكَمينِ، وفي ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ للزّوجَينِ؛ أي إن قَصدا إصلاحَ ذاتِ البَيْنِ وكانَت نيتُهما صَحيحةً بُورِكَ في وسَاطتِهما وأَوقع الله بحُسنِ سَعْيهما بينَ الزّوجَينِ الأُلفَة والوِفاقَ وألقَى في نفُوسِهما المودّةَ والاتّفاقَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بإرادةِ الحَكَمينِ ﴿خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ بالظالم منَ الزّوجين.

٣٦- ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وأَحسِنُوا بهما إحسانًا بالقَول والفِعْلِ والإنفاقِ علَيهما عند الاحتياج ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وبكلّ مَنْ بينكم وبينه قُربى مِنْ أخٍ أو عمّ أو غيرهما ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الذي قَرُبَ جِوارُه ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الذي جِوارُه بعيدٌ، أو الجارُ القَريبُ: النّسِيْبُ، والجارُ الجنُبُ: الأجنبي ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي الزوجَةِ، أو الذي صَحِبَك إما رفيقًا في سفر، أو شريكًا في تَعلُّم عِلم، أو غيره ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الغريب أو الضَّيفِ ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ العَبيد والإماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ مُتكبّرًا يأنَفُ عن قَرابَتِهِ وجيرانِه فلا يلتَفِتُ إليهم ﴿فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ يُعدّدُ مناقِبَهُ كِبْرًا.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ
وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ
بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ
ذَرَّةٖۖ﴾

٣٧- ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ أي يَبخَلُونَ بذاتِ أيديهم وبما في أَيدي غَيرِهم فيأمرونهم بأن يَبْخَلوا به مَقْتًا[1] للسخاء ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ ويُخفُونَ ما أنعمَ الله علَيهم به منَ المالِ وسَعةِ الحَالِ [أو العلم]، قيل: نزلت في شأن اليهود الذين كَتَموا صفة محمد ﷺ ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾﴾ يُهانونَ به في الآخرةِ.

٣٨- ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ للفَخَار ولِيُقالَ: ما أَجودَهُم، لا لابتغاء وجه الله، وهمُ المنافقُونَ أو مُشْرِكُو مكّةَ ﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾﴾ حيثُ حملَهُم على البُخلِ والرّياء وكل شرٍّ، ويجوزُ أن يكونَ وعيدًا لهُم بأنَّ الشيطانَ يُقرَنُ بهم في النارِ.

٣٩- ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ وأيُّ تَبِعَةٍ ووَبالٍ عليهم في الإيمانِ والإنفاقِ في سَبيلِ الله، والمرادُ الذمُّ والتّوبيخُ، وهذا كما يقال للعاقِّ: ما ضَرَّكَ لو كنت بارًّا؟ وقد علم أنه لا مَضرَّةَ في البرِّ ولكنه ذَمٌّ وتوبيخ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ وعيدٌ.

٤٠- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ هي النملةُ الصغيرةُ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أدخل يده في التراب فرفعه ثم نفخ فيه فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة، وقيل: كل جزء من أجزاء الهَباء في

---

(١) المَقْتُ: أشدُّ البُغض.

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾

الكَوَّةِ ذرةٌ ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ وإن يكُ مِثقالُ الذّرةِ حَسَنةً ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾ يضاعِفْ ثَوابها ﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ ويُعطِ صَاحِبها مِن عنده ثوابًا عظيمًا.

٤١- ﴿فَكَيۡفَ﴾ يَصنعُ هؤلاءِ الكفَرةُ منَ اليَهُودِ وغَيرِهم ﴿إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾ يَشهَدُ عليهم بما فعلوا وهو نبيهُم ﴿وَجِئۡنَا بِكَ﴾ يا محمدُ ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي أُمتِكَ ﴿شَهِيدٗا ﴿٤١﴾﴾ شَاهِدًا على مَنْ ءامنَ بالإيمانِ وعلى مَنْ كَفَرَ بالكُفر وعلى مَنْ نافَقَ بالنّفاقِ. وعن ابنِ مَسعُودٍ رضيَ الله عنه أنه قرأ سُورةَ النّساءِ على رَسُولِ الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ فَبكى رسولُ الله ﷺ وقالَ: حَسْبُنا.

٤٢- ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بـالله ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ لو يُدفَنُونَ فتُسَوّى بهِمُ الأرضُ كما تُسوّى بالموتَى ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾﴾ ولا يقدِرُونَ على كِتمانهِ، لأنّ جَوارِحَهُم تَشْهَدُ عليهم.

ولمَّا صنعَ عبدُ الرحمٰن بن عوف طعامًا وشرابًا ودعا نفرًا من الصحابة رضي الله عنهم [قبل نزول تحريم الخمر] فأكلوا وشربوا فقدَّموا أَحدَهم ليصليَ بهم المغرب فقرأ[1]: (قل يا أيها الكافرون أَعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد) نزل:

٤٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ لا تَقرَبُوها في هذهِ الحالَةِ ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ أي تقرأونَ ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ أي ولا تُصَلّوا جُنبًا ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ لا تقرَبُوا الصلاةَ جنُبًا غيرَ عابري سَبيلٍ

---

(١) هذا الرجل زال عقله بالمرّة فقرأ تلك القراءة.

﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

أي جُنبًا مقيمينَ غيرَ مسافِرين ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ﴾ إلا أن تكونوا مُسَافِرِينَ عادِمينَ الماءَ متيممينَ، عَبَّر عن المتيَمِّم بالمسافرِ، لأنّ غالِبَ حالهِ عدَمُ الماءِ، وهذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله. وقال الشافعي رحمه الله: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: مواضعَ الصلاة وهي المساجد، ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ أي: ولا تقربوا المسجد جُنبًا إلا عابري سبيل إلا مجتازين فيه، فيجوز للجنب العبور في المسجد عند الحاجة ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ أي المُطْمئِنّ[1] من الأرضِ، وكانوا يأتونَه لقَضاء الحاجَة[2]، فكُنِيَ به عن الحَدثِ ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ جامعتموهُنَّ[3] ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ فلم تَقدِروا على استِعمالِهِ لعدَمهِ أو بُعدِه أو فَقدِ ءالةِ الوُصُولِ إليه أو لمانعٍ مِنْ حَيّةٍ أو سَبُعٍ أو عدُوّ ﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾ أَدْخلَ في حُكْمِ الشَّرطِ أربعةً وهم المَرضَى والمسافِرونَ والمُحدِثُونَ وأهلُ الجَنابة، والجَزاءُ الذي هو الأمرُ بالتيمم متعلّقٌ بهم جميعًا، فالمرضَى إذا عَدِمُوا الماءَ لِضَعْفِ حَركَتِهم وعَجزِهم عن الوصُولِ إليه، والمسافرونَ إذا عَدِمُوه لبُعْدِه والمحدِثُونَ وأهلُ الجَنابَة إذا لم يَجِدُوه لبعضِ الأسبابِ فلهُم أن يتيمموا ﴿صَعِيدًا﴾ هو وجهُ الأرضِ تُرابًا كانَ أو غيرَه، وإن كان صَخرًا لا تُرابَ عليه لو ضَربَ المتيممُ يدَهُ ومسَح لكانَ ذلك طُهورَه. ﴿طَيِّبًا﴾ طَاهِرًا ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ بالتّرخيصِ والتّيسير ﴿غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ عن الخَطأ والتّقصير.

---

(١) أي: المنخفِض.
(٢) ما كان لهم كُنُفٌ، بيوتُ خلاء، إنما كانوا يذهبون إلى الأماكنِ المنخَفِضة.
(٣) هذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وأما الشافعي رحمه الله فقد حمل اللمس على ظاهره.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟
ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ
ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾

٤٤- ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من رؤية القلب، على معنى: ألم يَنتهِ عِلمُكَ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حَظًّا من عِلم التوراةِ وهم أحبارُ اليَهُودِ ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ يَستبدِلُونَها بالهُدى وهو البقاءُ على اليَهوديةِ بعدَ وضُوحِ الآياتِ لَهُم على صِحّةِ نُبوّةِ رَسولِ الله ﷺ وأنه هو النبيُّ العربي المبشَّرُ به في التّوراةِ والإنجيل ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟﴾ أنتُم أيها المؤمنونَ ﴿ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ سَبيلَ الحَقّ كما ضَلُّوه.

٤٥- ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ مِنكُم ﴿بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ وقَد أخبرَكُم بعداوةِ هؤلاء فاحذرُوهم ولا تَستنصِحُوهم في أُمورِكم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ في النَّفْع ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ في الدّفْعِ، فثِقُوا بوَلايتِه ونُصْرتِه دُونهُم، أو لا تُبالُوا بهم فإنّ الله ينصُركم عليهم ويكفيكُم مَكْرَهُم.

٤٦- ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ بيانٌ للذينَ أُوتوا نَصِيبًا مِنَ الكِتابِ ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ يُميلُونَهُ عنها ويُزيلُونَه، لأنّهُم إذا بَدَّلُوه ووَضَعُوا مَكانَه كلِمًا غَيرَهُ فقد أَمالُوهُ عَن مَواضِعِه في التوراةِ ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولَك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أَمْرَكَ ﴿وَٱسْمَعْ﴾ قَولَنا ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ اسمَع وأَنتَ غيرُ مُسْمَعٍ وهو قولٌ ذو وجهين، يحتمل الذمَّ أي اسمع مِنّا مدعوًّا عليك بلا سمعتَ، ويحتمل المدح أي اسمع غيرَ مُسمَعٍ مكروهًا، وكذلك قوله: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ يحتمل راعِنا نُكلِّمْك أي ارقُبنا وانتَظِرْنا، ويحتمل شِبهَ كلمة عبرانية أو سُريانية كانوا يتسابُّون بها وهي راعينا، فكانوا سخريةً بالدين وهُزُؤًا برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمِل يَنوونَ به الشتيمةَ والإهانة ويُظهرون به التوقيرَ والإكرام ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ يَفتِلُون بأَلسِنتِهمُ الحقَّ إلى البَاطلِ حيث يضعون ﴿وَرَٰعِنَا﴾ موضع انظُرْنا، و﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ موضعَ لا

﴿وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن
لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا
لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ
ٱلسَّبۡتِۚ﴾

أُسمعتَ مكروهًا ﴿وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ هو قولهم: لو كان نبيًّا حقًّا لأخبر بما نعتقدُ فيه ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ ولم يقولوا: وعصَينا ﴿وَٱسۡمَعۡ﴾ ولم يُلحِقُوا به غيرَ مُسمَع ﴿وَٱنظُرۡنَا﴾ مكانَ رَاعِنا ﴿لَكَانَ﴾ قولُهم ذاكَ ﴿خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ عندَ الله ﴿وَأَقۡوَمَ﴾ وأَعدلَ وأسَدَّ ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ طَرَدَهُم وأبعدَهُم عن رَحمَتِهِ بسَببِ اختيارهم الكفرَ ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾﴾ منهم قد ءامنوا كعَبدِ الله بنِ سَلامٍ وأصحابِهِ.

ولمَّا لم يؤمنوا نَزَلَ:

٤٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا﴾ يعني القرءانَ ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾ يعني التَّوراةَ ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾ نَمحُوَ تَخطِيطَ صُوَرِها مِنْ عَينٍ وحَاجِبٍ وأَنفٍ وفَم ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ فنجعلَها على هيئةِ أدبارِها وهي الأَقفاءُ مَطموسَةً مثلَها ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ﴾ أي نُخزيَهُم بالمَسخ كما مَسَخْنا أَصحابَ السَّبْتِ، والوعيد كان معلَّقًا بأَلَّا يؤمن كلُّهم، وقد ءامن بعضهم فإنَّ ابن سلام قد سمعَ الآية قافلًا[1] من الشام فأتى النبيَّ ﷺ مسلمًا قبل أن يأتيَ أهلَه وقال: ما كنت أرى أن أصِلَ إلى أهلي قبل أن يطمسَ الله وجهي. أو أن الله تعالى أوعدَهم بأحد الأمرين بطمس الوجوه أو بلعنهم، فإن كان الطمسُ تبدُّلَ أحوال رؤسائهم[2] فقد كان أحد الأمرين، وإن كان غيره

(١) أي: راجعًا.
(٢) ويكون معنى طمس وجوههم على هذا طمسَ جاههم عند أتباعهم الذين لأجلهم غيَّروا بما يُطلعهم الله على خيانتهم، وقد فعلَ ذلكَ.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن
يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن
يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

فقد حصل اللعن، فإنهم ملعونون بكل لسان، وقيل: هو منتظرٌ في اليهود[(١)] ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ المأمورُ به وهو العَذابُ الذي أُوعِدُوا به ﴿مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ كائنًا لا محالَةَ، فلا بُدّ أن يقعَ أحدُ الأمرينِ إن لم يؤمنوا.

٤٨- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ إن ماتَ عليه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ما دونَ الشركِ وإن كان كبيرةً مع عَدمِ التوبة، وتقييدُه بقَوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ لا يُخرِجُه عن عمومِهِ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ كذَبَ كَذِبًا عظيمًا استَحَقَّ به عذابًا أليمًا.

ونزل فيمن زكّى نفسَه مِنَ اليهودِ والنصارى حيث قالوا[(٢)]: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ ﴿١٨﴾﴾ [سورة المائدة]، ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ ﴿١١١﴾﴾ [سورة البقرة]:

٤٩- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ﴾ ويدخُلُ فيها كلُّ مَن زَكّى نفسَه ووصفَها بزكاءِ[(٣)] العمل وزيادةِ الطاعةِ والتقوى ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ إعلامٌ بأنَّ تزكيةَ الله هي التي يُعتَدُّ بها لا تزكيةَ غيرِهِ، لأنه هو العالِم بمَن هو أهلٌ للتّزكيةِ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي الذينَ يُزَكونَ أنفسَهم يُعاقَبُونَ على تزكيةِ أنفُسِهم حقَّ جزائِهم ﴿فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ قَدْرَ فَتيلٍ، وهو ما يحدُثُ بفَتلِ الأصابع مِنَ الوَسخ[(٤)].

---

(١) أي: لا بُدَّ أن يحصُلَ فيهم طمسٌ ومسخٌ قبل يوم القيامة.
(٢) اليهود قالت ذلك، والنصارى كذلك.
(٣) الزكاء بالزاي الطّيِّبُ، أما الذكاء بالذال فهو الفِطنةُ، يقال: زَكَا بالزاي أي طابَ.
(٤) وقيل: هو ما يكون في شِقِّ النواة.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ۝٥٠ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا
مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝٥١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ
مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾

٥٠- ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ في زعمهم أنهم عند الله أزكياءُ ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ بزعمهم هذا ﴿إِثۡمٗا مُّبِينًا ۝٥٠﴾ مِن بينِ سائرِ ءاثامهم.

٥١- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني اليهودَ ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ﴾ أي الأصنام وكلّ ما عبدوه من دونِ الله ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ الشيطانِ ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝٥١﴾ وذلك أنَّ حُيَيّ بنَ أَخطبَ وكَعبَ بن الأشرَفِ اليهوديَّينِ خرجا إلى مكةَ مع جماعةٍ منَ اليهودِ يُحالفونَ قريشًا على محاربةِ رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل الكتابِ وأنتم إلى محمدٍ أقربُ منا، وهو أقربُ منكم إلينا، فلا نأمنُ مَكرَكُم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئنَّ إليكم، ففعلوا فهذا إيمانهم بالجِبْت والطاغوتِ، لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليسَ - عليه اللعنةُ - فيما فعلوا، فقال أبو سفيانَ: أَنحنُ أَهدى سبيلًا أم محمدٌ؟ فقال كعبٌ: أنتم أهدى سبيلًا.

٥٢- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أبعدَهُم من رحمتهِ ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾ يُعتدُّ بِنَصْرِهِ.

ثم وصف اليهودَ بالبخلِ والحسدِ، وهما من شرّ الخِصالِ، يمنعون ما لهم ويتمنَّونَ ما لغيرِهم، فقال:

٥٣- ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ إنكارُ أنْ يكونَ لهم نصيبٌ منَ المُلْكِ ﴿فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾ أي لو كان لهم نصيبٌ من المُلكِ أي مُلكِ أهلِ الدنيا أو مُلكِ الله فإذًا لا يؤتُون أحدًا مِقدار نَقيرٍ لفَرْطِ بُخلِهم، والنقيرُ: النُّقرةُ في ظهرِ النَّواةِ، وهو مَثلٌ في القِلّةِ كالفَتيلِ.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ﴾

٥٤- ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ﴾ بل أَيَحْسُدونَ رسولَ الله ﷺ والمؤمنينَ، وكانوا يَحْسُدونهم على ما ءاتاهُمُ اللهُ من النُّصرةِ والغلَبةِ وازديادِ العِزِّ والتّقدّم كلَّ يوم ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التّوراة ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الموعظةَ والفِقْهَ ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ يعني مُلكَ يوسفَ وداودَ وسليمانَ عليهم السلام، وهذا إلزامٌ لهم بما عرفوه من إيتاء اللهِ الكتابَ والحكمةَ ءالَ إبراهيمَ الذين هم أسلافُ محمدٍ عليه الصلاة السلامُ، وأنه ليس ببِدْعٍ[1] أنْ يؤتِيَهُ اللهُ مِثلَ ما أُوتيَ أَسْلافُه.

٥٥- ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ فمن اليهودِ منْ ءامنَ بما ذُكِرَ من حديثِ ءالِ إبراهيمَ ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ﴾ وأنْكرَهُ مع علمِهِ بصحّتِهِ ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ للصّادّين.

٥٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ نُدخلُهم ﴿نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ احترقت ﴿بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أعَدْنا تلك الجلودَ غيرَ مُحترقةٍ ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ﴾ لِيدومَ لهم ذَوْقُه ولا ينقطعَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ غالبًا بالانتقام لا يمتنعُ عليه شيءٌ مما يريدُه بالمجرمين ﴿حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ فيما يفعلُ بالكافرين.

٥٧- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ﴾ منَ الأنجاسِ والحيْضِ

---

(١) أي: ليس بعجيب.

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾

والنّفاسِ ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ وهو ما كان طويلًا فَيْنانًا لا جَوْبَ فيه ودائمًا لا تَنسخُهُ الشمس، وسَجْسَجًا[١] لا حَرَّ فيه ولا بَرْدَ وليس ذلك إلا ظلَّ الجنّةِ.

ثمّ خاطبَ الوُلاةَ بأداءِ الأماناتِ والحكمِ بالعدلِ بقوله:

٥٨- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ دخل في هذا الأمرِ أداءُ الفرائضِ التي هي أَمانةُ اللهِ تعالى التي حملَها الإنسانُ، وحِفْظُ الحَواسِّ التي هي ودائعُ اللهِ تعالى ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ قَضَيتُم ﴿أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ بالسّويّةِ والإنْصافِ، وقيل: إن عثمان بنَ طلحةَ بن عبد الدار كان سادِنَ[٢] الكعبة، وقد أخذ رسول الله منه مفتاح الكعبة، فلمّا نزلت الآية أَمرَ عليًّا رضي الله عنه بأن يَردَّهُ إليه وقال رسول الله ﷺ: «**لقد أنزل الله في شأنك قرءانًا**» وقرأ عليه الآية فأسلم عثمانُ، فهبَطَ جبريلُ عليه السلام وأخبر رسول الله ﷺ أن السِّدَانة في أَولادِ عثمانَ أبدًا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ﴾ أي نِعْمَ الذي يَعِظُكم به، وهو المأمورُ به من أداء الأمانات والعدلِ في الحُكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا﴾ لأَقوالِكم ﴿بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ بأعمالِكم.

ولمّا أَمرَ الوُلاةَ بأداءِ الأَماناتِ والحُكمِ بالعدلِ، أَمرَ النّاسَ بأن يُطيعوهم بقوله:

٥٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ أي

---

(١) الفَيْنانُ: الطويلُ الممتد، والجَوْبُ: الخَرْق والقطع، والسَّجْسَجُ: المتوسط.
(٢) أي: خادم الكعبة، وجمعه سَدَنَة.

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾

الوُلاةَ، أو العلماءَ لأنّ أمرَهم ينفُذُ على الأُمَراءِ[1] ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ﴾ فإن اختلفتُم في شيءٍ من أمور الدين ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي ارجعوا فيه إلى الكتاب والسّنّة ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي إنّ الإيمانَ يوجبُ الطاعةَ دون العِصيان، ودلّتِ الآية على أنّ طاعةَ الأمراءِ واجبةٌ إذا وافقوا الحقَّ، فإذا خالفوه فلا طاعةَ لهم، لقوله عليه الصلاة والسّلام: «**لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ**» ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الرّدّ إلى الكتابِ والسّنةِ ﴿خَيْرٌ﴾ عاجِلًا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ عاقبةً.

كان بين بِشْرٍ المنافقِ ويهوديّ خصومةٌ فدعاه اليهوديُّ إلى النبيّ ﷺ لعلمِه أنّه لا يَرْتَشي، ودعاه المنافقُ إلى كعبِ بنِ الأشرفِ لِيَرْشُوَه، فاحتكَما إلى النبيّ عليه الصلاة والسّلام فقضى لليهوديّ فلم يَرْضَ المنافقُ وقال: تعالَ نتحاكم إلى عمرَ، فقال اليهوديُّ لعمرَ رضيَ اللهُ عنه: قضَى لي رسولُ الله ﷺ فلم يَرْضَ بقضائه، فقال عمرُ للمنافق: أكذلك، قال: نعم، فقال عمرُ: مكانَكُما حتى أَخرجَ إليكما، فدخل عمرُ فأخذَ سيفَه ثم خرج فضربَ به عنقَ المنافقِ، فقال: هكذا أَقضي لِمَنْ لم يَرْضَ بقضاءِ الله ورسوله فنزل:

٦٠- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وقال جبريلُ عليه السلام: إن عمر فَرَقَ بين الحق والباطل، فقال له رسول الله ﷺ: «**أنت الفاروق**» ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي كعب بنِ الأشرف، سمّاه الله طاغوتًا لإفراطه في الطغيانِ

---

(١) تفسيره بالخلفاء وأمرائهم أحسن.

﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ
تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ
صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ
إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ
عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾﴾

وعداوةِ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام، أو على التشبيه بالشيطانِ، أو جُعلَ اختيارُ التحاكم إلى غير رسول الله ﷺ على التحاكم إليه تحاكمًا إلى الشيطان بدليل قوله: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ﴾ عن الحق ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾﴾ مستمرًّا إلى الموت.

٦١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ للمنافقين ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ للتحاكُم ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾﴾ يُعرِضون عنك إلى غيرِكَ لِيُغْروه بالرِّشوةِ فيقضي لهم.

٦٢- ﴿فَكَيۡفَ﴾ تكونُ حالُهم وكيف يصنعون ﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ مِنْ قتل عمرَ بِشْرًا ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مِنَ التحاكُم إلى غيرك واتهامِهم لكَ في الحُكم ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ أي أصحابُ القتيلِ مِنَ المنافقين ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ ما أردنا بتحاكُمِنا إلى غيرك ﴿إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا﴾ لا إساءَةً ﴿وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ بين الخَصمين، ولم نُرِد مخالفةً لكَ ولا تَسَخُّطًا لحُكمِك، وهذا وعيدٌ لهم على فعلهم وأنَّهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندمُ ولا يُغني عنهم الاعتذارُ.

٦٣- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ مِنَ النفاقِ ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾﴾ فأَعرِض عن قَبولِ الأَعذارِ، وعِظ بالزجرِ والإنكارِ، وبالغ في وَعظِهم بالتخويفِ والإنذار، أو أعرض عن عقابهم وعِظهم في عتابِهم وبلِّغ كُنْهَ ما في ضميرِك مِنَ الوعظ.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾

٦٤- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾ قَطُّ ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ بتوفيقِه في طاعتِه وتيسيرِه ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالتحاكم إلى الطاغوتِ ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبينَ مِنَ النِّفاقِ معتذرينَ عما ارتكبوا مِنَ الشِّقاقِ[1] ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ مِنَ النفاقِ والشقاقِ ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ بالشفاعةِ لهم ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا﴾ لتابَ عليهم، ولم يقل: واستغفرتَ لهم وعدلَ عنه إلى طريقةِ الالتفاتِ تفخيمًا لشأنِ رسول الله ﷺ وتعظيمًا لاستغفارِه وتنبيهًا على أنَّ شفاعةَ الرسولِ مِنَ اللهِ بمكانٍ ﴿رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾﴾ بهم، قيل: جاء أعرابي بعدَ دفنِهِ عليه الصلاة السلام فرمى بنفسِه على قبرِه، وَحَثا مِنْ ترابِه على رأسِه، وقال: يا رسولَ الله، قلتَ فسمعنا، وكان فيما أُنزِلَ عليك: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ الآيةَ، وقد ظلمتُ نفسي وجئتك أستغفرُ الله مِنْ ذنبي، فاستغفِر لي مِنْ ربي، فنودي مِنْ قبرِه قد غُفِرَ لك[2].

٦٥- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي فوربِّكَ كقوله ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة الحجر] ولا مَزيدةٌ لتأكيد معنى القَسَم وجواب القَسَم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، أو التقدير: ﴿فَلَا﴾ أي ليس الأمر كما يقولون. ثم قال ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ فيما اختَلفَ بينهم واختلَط ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا﴾ ضيقًا ﴿مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ لا تضيقُ صدورُهم من حكمِك، ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾ وينقادوا

---

(١) الشِّقاق: العداوة.

(٢) هذه العبارة الأخيرة وهي (فنودي من قبره) ما لها أصل صحيح، والذي له أصل أنه بعدما ولّى الرجلُ أخذ رجلٌ غفوة فرأى الرسول ﷺ في المنام فقال: «الحق الأعرابي فأخبره أنه قد غفر له».

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ
وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ
مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

لقضائكَ انقيادًا، والمعنى: لا يكونون مؤمنين حتى يرضَوا بحكمك وقضائك.

٦٦- ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على المنافقين ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ تعرّضوا للقتلِ بالجهادِ ﴿أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ بالهجرةِ ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ لنفاقِهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ مِن اتباعِ رسولِ الله عليه الصلاة السلام والانقيادِ لحُكمه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ﴾ في الدارين ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ لإيمانِهم وأبعدَ عن الاضطراب فيه.

٦٧- ﴿وَإِذًا﴾ جوابٌ لسؤالٍ مقدّرٍ كأنه قيل: وماذا يكونُ لهم بعد التثبيت؟ فقيل: وإذًا لو ثبتوا ﴿لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾ ثوابًا كثيرًا لا ينقطعُ.

٦٨- ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ لثبتناهم على الدِّينِ الحقّ.

٦٩- ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ كأفاضل صحابة الأنبياء، والصِّدِّيقُ: المبالِغُ في صدق ظاهره بالمعاملة وباطنه بالمراقبة، أو الذي يُصَدِّق قولَه بفعله. ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ والذين استُشهدوا في سبيلِ الله ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ ومَنْ صَلَحَتْ أحوالُهم وحَسُنَتْ أعمالهم ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ وما أَحسَنَ أولئك رفيقًا.

٧٠- ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ المعنى أنَّ ما أُعطي المطيعون مِنَ الأجرِ العظيم ومرافقةِ المُنعَم عليهم مِنَ الله، لأنه تفَضَّل به عليهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ بعبادِه وبمن هو أهلُ الفضلِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣﴾

٧١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ احذروا واحترزوا من العدو ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ فاخرجوا إلى العدو جماعاتٍ متفرقةً سَرِيَّةً بعد سريةٍ ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾ مجتمعين، أو انفِروا ثُباتٍ إذا لم يَعُمَّ النفيرُ أو جميعًا إذا عَمَّ النفير.

٧٢- ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ وإنَّ منكم لَمَنْ أقسمَ بالله لَيُبَطِّئَنَّ أي ليَتَخَلَّفن عن الجهاد، والخطاب لعسكر رسول الله ﷺ، وقوله: ﴿مِنكُمۡ﴾ أي في الظاهر دون الباطن، يعني المنافقين، يقولون: لِمَ تقتلون أنفسكم؟! تأنَّوا حتى يظهر الأمر ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ قتلٌ أو هزيمةٌ ﴿قَالَ﴾ المُبَطّىءُ ﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢﴾ حاضرًا فيصيبَني مثل ما أصابهم.

٧٣- ﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فتحٌ أو غنيمةٌ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المُبَطِّئُ متلهِّفًا[1] على ما فاتَه مِنَ الغنيمةِ لا طلبًا للمثوبةِ ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ﴾ والمعنى: كأنْ لم يتقدم له معكم مُوادَّةٌ، لأنَّ المنافقين كانوا يُوادُّون المؤمنين في الظاهر وإن كانوا يَبغونَ لهم الغوائلَ[2] في الباطنِ ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣﴾ فآخذَ مِنَ الغنيمةِ حظًّا وافرًا.

---

(١) مُتَلَهِّفًا: مُتحسِّرًا.
(٢) أي: الشُّرور.

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

٧٤- ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ يبيعون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۚ﴾ والمرادُ المؤمنون الذين يستحِبُّون الحياةَ الآجلةَ على العاجلةِ ويستبدلونَها بها، أي إن صَدَّ الذين مرضت قلوبُهم وضعُفت نياتهم عن القتال، فلْيُقاتِل الثابتون المخلصون ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ وعدَ الله المقاتلَ في سبيلِ الله ظافرًا أو مظفورًا به إيتاءَ الأجرِ العظيمِ على اجتهادهِ في إعزازِ دينِ الله.

٧٥- ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ وهذا الاستفهام في النفي للتنبيه على الاستبطاءِ، وفي الإثباتِ للإنكارِ ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأيُّ شيءٍ لكم تاركين القتالَ وقد ظهرت دواعيه ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ واختصَّ مِنْ سبيل الله خَلاصَ المستضعفين لأنَّ سبيل الله عامٌّ في كل خير، وخلاصُ المستضعفين المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير وأخصّه، والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصدَّهم المشركون عن الهجرة فبقُوا بين أظهرهم مستضعفين يَلقَون منهم الأذى الشديد ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ لأنَّ المستضعفين كانوا يُشركونَ صِبيانهم في دعائِهم استنزالًا لرحمةِ الله بدعاءِ صغارِهم الذين لم يذنبوا كما فعلَ قومُ يونُسَ عليه السلام ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعني مكة ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ التي ظَلَمَ أهلُها ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يتولَّى أمرَنا ويستنقذُنا مِنْ أعدائنا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ ينصرُنا عليهم، كانوا يَدْعُون الله بالخلاص ويستنصرونه، فيسَّر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة وبقي بعضهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من لَدُنه خيرَ وليّ وناصر وهو محمد عليه السلام فتولَّاهم أحسن التولّي ونصرهم أقوى النصر، ولما خرج

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾

[رسول الله ﷺ إلى المدينة] استعمل عتّابَ بن أَسِيد فرأوا منه الوَلاية والنصرة كما أرادوا.

ثم رغَّب الله المؤمنين بأنهم يقاتلون في سبيل الله، فهو وليُّهم وناصرُهم، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشيطان فلا وليَّ لهم إلا الشيطان بقوله:

٧٦- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي الشيطان ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ أي الكفارَ ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي وساوسَهُ، وقيل: الكيدُ السعيُ في فساد الحال على جهة الاحتيال ﴿كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ لأنَّه غرورٌ لا يؤُول إلى محصولٍ، أو كيده في مقابلةِ نصرِ الله ضعيفٌ.

كانَ المسلمونَ مكفوفين عن القتالِ مع الكفارِ ما داموا بمكة، وكانوا يَتمنَّون أنْ يُؤذَنَ لهم فيه فنزل:

٧٧- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ عن القتالِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ فُرِضَ بالمدينة ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ يخافونَ أن يقاتلَهم الكفارُ كما يخافونَ أنْ يُنزِّلَ اللهُ عليهم بأسَه لا شكًّا في الدين ولا رغبةً عنه، ولكن نفورًا عن الإخطارِ بالأرواح وخوفًا مِنَ الموت ﴿أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ﴾ أشدَّ خشيةً مِنْ أهلِ خشيةِ الله ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾ هلَّا أَمهلتَنا إلى الموتِ فنموتَ على الفُرُشِ، وهو سؤالٌ عن وجهِ الحكمةِ في فرضِ القتالِ عليهم لا اعتراضٌ لحُكمِهِ، بدليلِ أنَّهم لم

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ
ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ
سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ﴾

يوبَّخوا على هذا السؤال، بل أجيبوا بقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ متاعُ الدنيا قليلٌ زائلٌ، ومتاعُ الآخرةِ كثيرٌ دائمٌ، والكثيرُ إذا كان على شرفِ الزوالِ فهو قليلٌ، فكيف القليلُ الزائلُ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ ولا تُنقصون أدنى شيء مِنْ أجورِكم على مشاقِّ القتلِ فلا ترغبوا عنه.

ثم أخبر أن الحَذَرَ لا يُنجي من القَدَر بقوله:

٧٨- ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ﴾ حصونٍ أو قصورٍ ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ مرفَّعةٍ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ نعمةٌ مِنْ خِصبٍ ورخاءٍ ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نسبوها إلى الله ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بَلِيَّةٌ مِنْ قحطٍ وشدةٍ ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أضافوها إليكَ وقالوا هي مِنْ عندِك وما كانت إلا بشؤمِك، وذلك أن المنافقينَ واليهودَ كانوا إذا أصابهم خيرٌ حَمِدوا الله تعالى، وإذا أصابهم مكروهٌ نسبوه إلى محمدٍ ﷺ، فكذَّبهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ كلُّ ذلكَ، فهو يَبسُط الأرزاق ويَقبضها ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ يفهمونَ ﴿حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ فيعلموا أنَّ الله هو الباسِطُ القابِضُ، وكلُّ ذلكَ صادرٌ عن حكمة، ثم قال:

٧٩- ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ يا إنسان خطابًا عامًّا. وقال الزجاج: المخاطب به النبي عليه الصلاة السلام والمراد غيره ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نعمة وإحسان ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ تفضلًا منه وامتنانًا ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ من بَلِيَّة ومصيبة ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فمن عندك أي فيما كَسَبت يداك ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الشورى] ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ

﴿رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ
حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ
يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾

﴿رَسُولًاۚ﴾ فإليك تبليغ الرسالة وليس إليك الحسنة والسيئة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ بأنك رسوله، وقيل: هذا مُتَّصل بالأول أي لا يكادون يفقهون حديثًا يقولون: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾[1].

٨٠- ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[2] لأنه لا يأمر ولا ينهى إلا بما أمر الله به ونهى عنه، فكانت طاعته في أوامره ونواهيه طاعةً لله ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة فأعرِضْ عنه ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسِبُهم عليها وتعاقبهم.

٨١- ﴿وَيَقُولُونَ﴾ ويقول المنافقون إذا أمرتَهم بشيء: ﴿طَاعَةٞ﴾ أي أَمرُنا وشأْنُنا طاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ﴾ خرجوا ﴿مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ﴾ من البيتوتة لأنه قضاء الأمر وتدبيره بالليل ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ خلافَ ما قلتَ وما أَمرتَ به ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ يُثبته في صحائف أعمالهم ويجازيهم عليه ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ ولا تحَدِّث نفسَك بالانتقام منهم ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ في شأنهم فإن الله يكفيك مَضرَّتَهم وينتقمُ لك منهم إذا قوي

---

(١) قيل في تفسير هذه الآية ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ إلى ءاخرها: أنّ ما مفعول لفعلٍ محذوفٍ أي يقولون ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ إلى ءاخره، أي أنّ الكفار يقولون ذلك طعنًا في الرسول ﷺ وعليه يكون الكلام متصلًا، والمعنى فمالِ هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا حتى يقولوا ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك؛ معنى كلامه أن الكفار قالوا: الرخاء والبسط الذي يصيبك يا محمد من نعمة الله عليك، أما ما يصيبك من قحط وبلية هذا من شؤمك، هذا سبٌّ للرسول ﷺ.

(٢) هذه الآية دليل على أن الرسول ﷺ لا يخطئ في اجتهاده في أمور الدين، وأن الأخذ بقول الرسول ﷺ صواب ليس خطأً، سواء اجتهد فقال باجتهاده في أمر الدّين أو قاله من غير اجتهادٍ منه بل بوحي، في الحالين هو مصيب، ومن اقتدى به فهو على هدى.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

أَمرُ الإسلام ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ كافيًا لمن توكَّل عليه.

٨٢- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ﴾ أفلا يتأملون معانيَه ومبانيَه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ كما زعم الكفار ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ أي تناقضًا أو تفاوتًا.

٨٣- ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ هم ناس من ضَعَفَة المسلمين الذين لم يكن فيهم خُبرةٌ بالأحوال ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾ أَفشَوهُ، وكانت إذاعتُهم مَفسَدةً ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي ذلك الخبرَ ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي رسول الله ﷺ ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ يعنى كُبَراءَ الصحابة البُصَرَاءَ بالأمور ﴿لَعَلِمَهُ﴾ لعلم تدبيرَ ما أخبروا به ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ يستخرجون تدبيره بفِطَنِهم وتَجارِبهم ومعرفتهم بأُمور الحرب ومكايدها ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بإرسالِ الرسول ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإنزال الكتاب ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لبَقيتم على الكفر ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ لم يتبعوه.

لـمَّا ذكرَ في الآي قبلَها تَثَبُّطَهم عن القتال وإظهارَهم الطاعةَ وإضمارَهم خلافها قال:

٨٤- ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن أَفردوكَ وتركوك وحدَك ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ﴾ غيرَ نفسِك وحدَها أن تقدِّمَها إلى الجهاد فإن الله تعالى ناصِرُك لا الجنود ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ وما عليك في شأنهم إلا التحريضُ على القتال فحسب لا التعنيفُ بهم ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ أي بطشَهم وشِدَّتَهم وهم قريش، وقد كَفَّ بأسَهم بالرعب فلم يخرجوا ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ من قريش ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ تعذيبًا.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ
مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾

٨٥- ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ هي الشفاعة في دفعِ شَرٍّ أو جَلبِ نَفعٍ مع جوازها شرعًا ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ من ثواب الشفاعة ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ هي خلافُ الشفاعة الحسنة ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ نصيب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ مُقتدرًا؛ مِنْ أَقاتَ على الشيء اقتدر عليه، أو حفيظًا؛ من القُوتِ لأنه يُمسك النفسَ ويحفظها.

٨٦- ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ أي سُلِّم عليكم فإن التحية في ديننا بالسلام في الدارين، ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴿٦١﴾﴾ [سورة النور]. وكانت العرب تقول عند اللقاء: حيّاك الله أي أطال الله حياتك، فأبدل ذلك بعد الإسلام بالسلام ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ أي قولوا: وعليكم السلام ورحمة الله إذا قال: السلام عليكم، وزيدوا: وبركاته إذا قال: ورحمة الله ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ أجيبوها بمثلها، والتسليم سنة، والرد فريضة، والأحسنُ فَضْلٌ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ أي يحاسبكم على كل شيء من التحية وغيرها.

٨٧- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ ومعناه اللهُ واللهِ ليجمعنَّكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي ليحشرنَّكم إليه، [وسُمِّيَ يومُ القيامة بذلك إما لقيامهم من القبور، أو لقيامهم للحساب] ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي جمعًا لا ريب فيه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ أي لا أَحدَ أصدقُ منه في إخباره ووعده ووعيده لاستحالة الكذب عليه.

٨٨- ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ ما لكم اختلفتم في شأن قوم قد نافقوا نفاقًا ظاهرًا وتفرَّقتم فيهم فرقتين ولم تقطعوا القول بكفرهم؛ وذلك أن قومًا من المنافقين استأذنوا رسول الله في الخروج إلى البدو

﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن
تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ
مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾

مُعتلِّين باجتواء المدينة[1]، فلمَّا خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون فيهم، فقال بعضهم: هم كفار، وقال بعضهم: هم مسلمون ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ رَدَّهم إلى حكم الكفار ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾ من ارتدادهم ولحوقهم بالمشركين، فَرُدُّوهم أيضًا ولا تختلفوا في كفرهم ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ﴾ أن تَجعلوا من جملة المهتدين ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ مَن جَعَله اللهُ ضالًّا ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾﴾ طريقًا إلى الهداية.

٨٩- ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ وَدُّوا لو تكفرون كفرًا مثلَ كفرهم ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ مستوينَ أنتم وهم في الكفر ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فلا توالوهم حتى يؤمنوا، لأن الهجرة في سبيل الله [لا تكون إلا] بالإسلام ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن الإيمان ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾ كما كان حكم سائر المشركين ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم.

٩٠- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ﴾ ينتهون إليهم ويتَّصلون بهم ﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ القوم هم الأسلمِيُّون[2] كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدٌ، وذلك أنه وادَعَ[3] قبل خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأَسلمي على ألَّا يُعينَه ولا يُعينَ عليه، وعلى أنَّ مَن وصلَ إلى هلالٍ

---

(١) أي: مُدَّعين بأنهم استوخموا هواءَها ولم يوافقهم.
(٢) الأسلميون: نسبة إلى أسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو السمعاني.
(٣) وادَعَ: صالَحَ.

﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ
فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ
سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟
فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

والتجأَ إليه فله من الجِوار[1] مثلُ الذي لهلال، أي فاقتلوهم إلا مَن اتصل بقوم بينكم وبينهم ميثاق ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ أي إلا الذين يَصِلون إلى قوم معاهَدِين أو قومٍ مُمسكينَ عن القتال لا لكم ولا عليكم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ الحَصَرُ: الضيق والانقباض ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ عن أن يقاتلوكم ﴿أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ﴾ معكم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ﴾ بتقوية قلوبهم وإزالة الحَصْرِ عنها ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ فإن لم يتعرضوا لكم ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ الانقيادَ والاستسلامَ ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ طريقًا إلى القتال.

٩١- ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ بالنفاق ﴿وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ بالوِفاق، هم قومٌ من أَسَدٍ وغَطَفان كانوا إذا أَتوا المدينةَ أسلَموا وعاهدوا لِيَأمَنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونَكَثوا عهودَهم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ كلما دعاهم قومُهم إلى قتال المسلمين ﴿أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ﴾ قُلبوا فيها أقبحَ قَلْبٍ وأَشنَعه وكانوا شرًّا فيها من كل عدوٍّ ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ فإن لم يعتزلوا قتالكم ﴿وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ ولم ينقادوا لكم بطلَب الصُّلح ﴿وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ ولم يُمسِكوا عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ﴾ حيث تمكنتم منهم وظَفِرتم بهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ حُجةً واضحة لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم في الكفر والغدر وإضرارهم بالمسلمين.

---

(١) أي: العَهدِ.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾

٩٢- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ وما صَحَّ له ولا استقام ولا لاقَ بحالِهِ ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ أي ليس المؤمن كالكافر الذي تقدَّمَ إباحةُ دمه ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ إلا على وَجْهِ الخطإِ من غير قصد، بأن يرميَ كافرًا فيصيبَ مسلمًا ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فعليه تحرير رقبة، والتحرير الإعتاق ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ لـمَّا أخرجَ نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يُدخلَ نفسًا مثلَها في جملة الأحرار لأن إطلاقها من قَيْدِ الرِّقِّ كإحيائها ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ مُؤَدَّاةٌ إلى ورثته يقتسمونها كما يقتسمون الميراثَ لا فرق بينها وبين سائر التركة في كل شيء، فيقضَى منها الدينُ وتُنفَّذ الوصيةُ، وإذا لم يبقَ وارث فهي لبيت المال، والديةُ على العاقلةِ[1]، والكفارةُ على القاتل ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية، أي يعفُوا عنه ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ فإن كان المقتول خطأً من قوم أعداء لكم أي كَفَرة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي المقتولُ مؤمنٌ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ يعني إذا أسلم الحربي في دار الحرب ولم يهاجر إلينا فقتلَه مسلم خطأً[2] تجبُ الكفارة بقتله للعصمة المُؤثِمَةِ، وهي الإسلام ولا تجب الدية[3] ﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ﴾ بين المسلمين ﴿وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عهد ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ

---

(١) هم العَصَبَةُ، القرابةُ من قِبَلِ الأب.
(٢) لظنه أنه من الكفار لوجوده بينهم.
(٣) لأن أولياء المقتول كَفَرةٌ فلا يُعطون ما يتقوَّون به، واختلف إذا قُتِلَ خطأ في بلاد المسلمين فقال بعضهم: فيه الدية وهي لبيت المال، وقال بعضهم: لا دية له لأن أهله كفار لا يستحقون الدية، ولا المسلمون لأنهم ليسوا أهله فلا تجب في الحالين.

﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ
مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ
جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ
لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾

﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ أي وإن كان المقتول ذميًّا فحُكمُه حكم المسلم[1] ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ رقبةً أي لم يملكها ولا ما يتوصَّلُ به إليها[2] ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ﴾ فعليه صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ قبولًا من الله ورحمةً منه، مِنْ تابَ الله عليه إذا قَبِلَ توبته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما أمر ﴿حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾﴾ فيما قَدَّرَ.

٩٣- ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾ قاصدًا قتلَه لإيمانه وهو كفرٌ أو قَتلَه مستحلًّا لقتلِه وهو كفرٌ أيضًا ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ انتقمَ منه وطرَدَه من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾﴾ لارتكابه أمرًا عظيمًا وخَطْبًا جسيمًا. في الحديث: «**لَزوالُ الدنيا أَهْونُ على الله مِنْ قتلِ امرئٍ مسلم**».

٩٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سِرْتُم في طريق الغزو ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ فتثبتوا، أي اطلبوا بيان الأمر وثباتَه ولا تتهوَّكوا[3] فيه ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ التسليمَ الذي هو تحيةُ أهل الإسلام ﴿لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تطلبون الغنيمة التي هي حُطامٌ[4] سريعُ النَّفاد. والعرض[5]: المال، سُمّي به لسرعة

---

(١) هذا عند الحنفية، لأن المؤلف حنفي المذهب.
(٢) أي: لا يجد ثمنها.
(٣) التهوّك: التَّحيّر.
(٤) حُطامُ الدنيا: كلُّ ما فيها مِن مال يَفنى.
(٥) عند علماء التوحيد العرَض صفة الجسم، بياض الجسم، سواد الجسم، حركة الجسم وسكونه، هذا هو العَرَضُ، أما هنا في الآية فالمال.

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ
وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ
دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥﴾

فَنائه ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ﴾ تُغنيكم عن قتل رجل يُظهر الإسلام ويتعوَّذُ به من التعرض له لتأخذوا مالَهُ ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾ أَوَّلَ ما دخلتُم في الإسلام سُمعت من أفواهكم كلمةُ الشهادة فحُصِّنَت دماؤكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم[1] ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالاستقامة والاشتهار بالإيمان فافعلوا بالداخِلين في الإسلام كما فُعل بكم ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْۚ﴾ كرَّر الأمرَ بالتبيُّن ليؤكدَ عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾ فلا تتهافتوا[2] في القتل، وكونوا محترِزين محتاطين في ذلك.

٩٥- ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ﴾ عن الجهاد ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ الضررُ المرض أو العاهَةُ من عمًى أو عرج أو زَمانَة أو نحوها ﴿وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ نفَى التساوي بين المجاهد والقاعد بغير عذر - وإن كان معلومًا - توبيخًا للقاعد عن الجهاد وتحريكًا له عليه، ونحوه ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ٩﴾ [سورة الزمر] فهو تحريك لطلب العلم وتوبيخ على الرضا بالجهل ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ﴾ ذكر هذه الجملة بيانًا للجملة الأولى موضحة لما نُفِيَ من استواء القاعدين والمجاهدين ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ المَثوبة الحسنى وهي الجنة، وإن كان المجاهدون مُفَضَّلين على القاعدين درجة ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ بغير عذر ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥﴾.

---

(١) أي: موافقتها لها.

(٢) فلا تتهافتوا: فلا تتساقطوا.

﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ
قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ
مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ
حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ﴾

٩٦- ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾ كأنه قيل: فضَّلَهم تفضيلات، وحاصلُه أن الله تعالى فضَّل المجاهدين على القاعدين بعذر درجة، وعلى القاعدين بغير عذر اكتفاءً بغيرهم درجاتٍ لأن الجهاد فرض كفاية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾ بتكفير العذر ﴿رَّحِيمًا ٩٦﴾ بتوفير الأجر.

٩٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ التَّوفِّي قبضُ الرُّوْح، والملائكة ملَكُ الموتِ وأعوانُه ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ في حال ظُلمهم أنفُسَهم بالكفر وترك الهجرة ﴿قَالُواْ﴾ أي الملائكة للمتوفَّين ﴿فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾ في أيِّ شيء كنتم في أَمر دينكم؟ ومعناه التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ عاجزينَ عن الهجرة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أرضِ مكةَ فأخرجونا كارهينَ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الملائكة مُوَبِّخين لهم ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ أرادوا أنكم كنتم قادرينَ على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التي لا تُمنعون فيها من إظهار دينكم ومن الهجرة إلى رسول الله ﷺ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾ الآية تدل على أنَّ مَن لم يتمكن من إقامة دينه في بلد كما يجب وَعَلِمَ أنه يتمكن من إقامته في غيره حَقَّت عليه المهاجَرَةُ.

٩٨- ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ استثنى من أهل الوعيد المستضعَفينَ الذين ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ﴾ في الخروج منها لفقرهم وعجزهم ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨﴾ ولا معرفةَ لهم بالمسالك.

٩٩- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾ وعسى وإن كان للإطماع فهو من الله تعالى [كائن لا محالة] لأن الكريمَ إذا أَطْمَعَ أنجزَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ

﴿عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ
بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾

عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ لعباده قبل أن يخلقهم[1].

١٠٠- ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا﴾ مُهاجَرًا[2] وطريقًا يُراغِمُ بسلوكه قومَه أي يفارقهم على رغم أُنوفهم، والرَّغْمُ الذُلُّ والهَوان، وأَصلُه لُصوقُ الأنف بالرَّغام وهو التراب ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ في الرزق ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى حيث أَمرَ الله ورسوله ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ قبلَ بلوغهِ مهاجَرَهُ ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ حَصلَ له الأَجْر بوعد الله، وهو تأكيد للوعد، فلا شيء يجب على الله لأحد من خلقه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ قالوا: كُلُّ هِجرة لطلب علم أو حج أو جهاد أو فِرار إلى بلد يزداد فيه طاعةً أو قناعة أو زهدًا أو ابتغاءَ رزقٍ طَيّبٍ فهي هجرة إلى الله ورسوله وإن أَدركه الموت في طريقه فقد وقع أَجره على الله.

١٠١- ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سافرتم فيها ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ حَرَجٌ ﴿أَن تَقْصُرُوا﴾ في أن تقصُروا ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ من أعداد ركعات الصلاة فتُصلّوا الرباعيةَ ركعتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إن خشيتم أن يقصدَكم الكفارُ بقتل أو جَرح أو أَخْذٍ، والخوف ليس بشرط [لجواز القصر] لِمَا روي عن يعلى بن أُميَّة أنه قال لعمر: ما بالنا نَقصُر وقد أَمِنَّا؟ فقال: عجبتُ مما تعجبتَ منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك

---

(١) عند الماتريدية مغفرة الله أزلية أبدية كصفات المعاني السبعة، المغفور له حادث أما مغفرة الله فأزلية.

(٢) المُهاجَرُ: موضع الهجرة.

﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ
مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ
أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ
تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن
كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ﴾

فقال: «**صدقةٌ تَصدَّق الله بها عليكم فاقبَلوا صدقتَه**» [فقوله تعالى ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ ليس للاشتراط بل بيان للواقع إذ ذاك] لأن حالهم حين نزول الآية [كان] كذلك فنزلت على وفق الحال ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ فتحرَّزوا عنهم.

١٠٢ - ﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فِيهِمْ﴾ في أصحابك ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فأردتَ أن تقيم الصلاة بهم ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم﴾ فاجعلهم طائفتين، فلتقُم إحداهما ﴿مَّعَكَ﴾ فصلِّ بهم، وتقومُ طائفة تُجاهَ العدو ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي الذين تُجاه العدو ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾ قيدوا ركعتهم بسجدتين ﴿فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي إذا صَلَّت هذه الطائفة التي معك ركعة فليرجعوا لِيَقِفوا بإزاء العدو ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾ ولتحضر الطائفة الواقفة بإزاء العدو فليصلوا معك الركعة الثانية ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ﴾ ما يَتحرَّزون به من العدو كالدرع ونحوه ﴿وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ﴾ جمع سلاح وهو ما يقاتَل به ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ تمنَّوا أن ينالوا منكم غِرَّةً(١) في صلاتكم ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ فيشُدُّون عليكم شَدَّةً واحدة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟﴾ في أن تضعوا ﴿أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ﴾ رَخَّصَ لهم في

---

(١) أي: على غَفْلَة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٠٢ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا
وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا
مَّوۡقُوتٗا ١٠٣ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا
تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾

وضع الأسلحة إن ثَقُلَ عليهم حَملها بسبب ما يَبُلُّهم من مطر أو يضعفُهم من مرض، وأمرهم مع ذلك بأخذ الحِذْر لئلا يغفُلوا فيهجم عليهم العدو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٠٢﴾ أَخبر أنه يُهين عدوَّهم لتقوى قلوبُهم، وليعلموا أن الأمرَ بالحِذْرِ ليس لتوقُّع غَلَبتهم عليهم وإنما هو تعبدٌ من الله تعالى.

١٠٣- ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فَرَغتم منها ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ دُوموا على ذكر الله في جميع الأحوال ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ﴾ سكنتم بزوال الخوف ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ فأتمُّوها بطائفة واحدة، أو إذا أقمتم فأتِمّوا ولا تقصُروا ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ مكتوبًا محدودًا بأوقات معلومة.

١٠٤- ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ ولا تضعُفوا ولا تتوانَوا ﴿فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾ في طلب الكفار بالقتال والتعرض به لهم، ثم ألزَمهم الحجة بقوله: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ أي ليس ما تجدون من الألم بالجَرح والقتل مختصًّا بكم، بل هو مشترك بينكم وبينهم يُصيبهم كما يصيبكم، ثم إنهم يصبرون عليه، فما لكم لا تصبرون مثلَ صَبرهم؟ مع أنكم أَجدَرُ منهم بالصبر، لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب العظيم في الآخرة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما يجد المؤمنون من الألم ﴿حَكِيمًا ١٠٤﴾ في تدبير أمورهم.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾

رُوِي أن طُعمةَ بنَ أُبَيْرِق أحدَ بني ظَفَرٍ سرق درعًا من جار له اسمُه قتادةُ بن النُّعمان في جِرابٍ[1] دقيقٍ، فجعل الدقيقُ ينتثر من خَرْقٍ فيه، وخبأها عند زيد بن السمين رجلٍ من اليهود، فالتُمِسَتِ الدرع عندَ طُعمة فلم توجد وحلفَ ما أخذها وما له بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال: دفعها إليَّ طُعمةُ وشَهِدَ له ناس من اليهود، فقالت بنو ظَفَرٍ: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فسألوه أن يجادلَ عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح، وبرئ اليهودي، فنزل[2]:

١٠٥- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي مُحقًّا ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ بما عَرّفك وأوحى به إليك، وقال الشيخ أبو منصور رحمه الله: بما ألهمك بالنظر في أصوله المنزلة، وفيه دلالة جواز الاجتهاد في حقه عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ﴾ لأجل الخائنين ﴿خَصِيمٗا ١٠٥﴾ مخاصمًا، أي ولا تخاصم اليهودَ لأجل بني ظَفَر، [قيل: إن هذا النهي للنبي عليه الصلاة والسلام وإن كان معلومًا أن هذا لا يكون لِمَا عصمه الله تعالى من ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

---

(١) الجِرابُ: وِعاءٌ من جلد.

(٢) ذكر في الأصل هنا كما في عدد من التفاسير أن النبي عليه الصلاة والسلام همَّ أن يخاصم عن طُعمة ولكن رَدَّ ذلك عدد ءاخر من المفسرين، قال في تأويلات الماتريدي بعد أن ذكر أن أكثر أهل التفسير يقولون إن النبي عليه السلام همَّ بالدفع عن طعمة: «فلو لم يقولوا ذلك كان أوفق وأحسن»، وهو مأوَّل عند من قال به بأنه لم يظهر عند النبي ﷺ من طعمة الخيانة إذ ذُكر في القصة أن الدرع وجدت في دار غيره وأنه شهد معه بعض أقربائه ليدفعوا عنه الخيانة والتهمة، وقد بيّن القرءان الكريم أنهم خاصموا عنه بالباطل وخانوا في الشهادة له وهم يعلمون أنه سارق.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ
مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ﴾

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الأنعام] فالعصمة لا تتعارض مع النهي، وقيل: إن الخطاب للنبي ﷺ والمراد به الذين كانوا يفعلونه من المسلمين دونه لوجهين: أحدهما أنه تعالى أبان ذلك بعد بقوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، والآخر أن النبي ﷺ كان حكمًا فيما بينهم ولذلك كان يُعتذر إليه ولا يَعتذر هو إلى غيره].

١٠٦- ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ﴾[للمذنبين مِن أُمتك والمتخاصمين بالباطل، ومَحَلُّكَ من الناس أن تسمع من المُتداعِيَين وتقضي بنحو ما تسمع وتستغفر للمذنب] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾.

١٠٧- ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ﴾ يخونونها بالمعصية، والمراد به طُعمةُ ومَن عاوَنَه من قومه وهم يعلمون أنه سارق، [وهو على ما ذُكر مِن أنَّ العصمة لا تتعارض مع الأمر والنهي] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ وإنما قيل بلفظ المبالغة لأنه تعالى عالِمٌ من طُعمةَ أنه مُفرط في الخيانة وركوبِ المآثم، ورُوي أن طعمة هرب إلى مكة وارتد، ونَقَبَ حائطًا بمكة ليسرق أهلَه فسقط الحائط عليه فقتله.

١٠٨- ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ يستترون ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ حياءً منهم وخوفًا من ضررهم ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ولا يَستَحْيون منه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ وهو عالم بهم مُطَّلع عليهم لا يخفى عليه خافٍ من سِرِّهم، وكفى بهذه الآية ناعيةً[1] على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يدبِّرون ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ﴾ وهو تدبير طعمة أن يرميَ

---

(١) أي: مُنادِيَةً.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن
يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ
نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ
نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ
بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾﴾

بالدرع في دار زيد ليُسَرَّقَ دونه ويحلفَ أنه لم يسرقها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ عالمًا عِلْمَ إحاطة.

١٠٩- ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [بمعنى يا هؤلاء] ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾ خاصَمْتُم، [والخطاب لِرَهط طعمة] ﴿عَنۡهُمۡ﴾ عن طعمةَ [والخائنين معه] ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فمن يخاصِمُ عنهم في الآخرة إذا أخذَهم اللهُ بعذابه ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾﴾ حافظًا ومحاميًا مِنْ بأس الله وعذابه.

١١٠- ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا﴾ ذنبًا دون الشرك ﴿أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ بالشرك، أو ﴿سُوٓءًا﴾ قبيحًا يتعدى ضرره إلى الغير كما فعل طُعمةُ بقَتادةَ واليهودي، ﴿أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ بما يختص به كالحَلِفِ الكاذب ﴿ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ يسألْ مغفرتَه، [يعني بالتوبة، وليس بمجرد الاستغفار باللسان، وتوبة المشرك بالنطق بالشهادتين والدخول في الإسلام] ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾﴾ له، وهذا بعثٌ لطعمة على الاستغفار والتوبة.

١١١- ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ﴾ لأن وَبالَه عليها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾﴾ فلا يعاقبُ بالذنب غيرَ فاعله.

١١٢- ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً﴾ صغيرة ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾ أو كبيرة ﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾ كما رَمَى طعمةُ زيدًا ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا﴾ كذبًا عظيمًا ﴿وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾﴾ ذنبًا ظاهرًا.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن
تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ
بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

١١٣- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي عصمتُه ولُطفه من الاطّلاع على سِرّهم ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من بني ظفر ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق وتوخّي طريقِ العدل مع علمهم بأن الجانيَ صاحبُهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن وبالَه عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ لأنك إنما [تكون] عَمِلتَ بظاهر الحال، وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرءان ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والسُّنَّة ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من أمور الدين والشرائع ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ فيما علَّمك وأنعم عليك.

١١٤- ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ من تناجي الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ ولكن مَن أمر بصدقة ففي نجواه الخير ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ قرضٍ أو إغاثة مَلهوف أو كل جميل ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي إصلاحِ ذاتِ البَيْن ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ المذكورَ ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ طلبَ رضا الله، وخرج عنه مَن فعلَ ذلك رياءً أو ترؤسًا ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

١١٥- ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ ومن يخالف الرسول من بعد وضوح الدليل وظهور الرُّشْدِ ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي السبيلِ الذي هم عليه من الدين الحنيفيّ، وهو دليل على أن الإجماع حجةٌ لا تجوز مخالفتُها كما لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نَجعلْه واليًا لِما تولَّى من الضلال ونَدَعْهُ وما اختاره في الدنيا ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾ في العقبى ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ قيل: هي في طعمة وارتداده.

١١٦- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ مَرَّ تفسيره في هذه السورة ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ عن الصواب.

١١٧- ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ ما يعبدون من دون الله ﴿إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ جمع أنثى وهي اللات والعزى ومناة، ولم يكن حيٌّ من العرب إلا ولهم صنم يعبدونه يُسمُّونه أنثى بني فلان، وقيل: كانوا يقولون في أصنامهم: هُنَّ بنات الله ﴿وَإِن يَدۡعُونَ﴾ ما يعبدون ﴿إِلَّا شَيۡطَٰنٗا﴾ لأنه هو الذي أغراهم على عبادة الأصنام فأطاعوه، فجُعلت طاعتُهم له عبادة ﴿مَّرِيدٗا ١١٧﴾ خارجًا عن الطاعة عاريًا عن الخير.

١١٨- ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ﴾ يعني شيطانًا مَريدًا جامعًا بينَ لعنةِ الله وهذا القولِ الشنيع ﴿مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨﴾ مقطوعًا واجبًا لي.

١١٩- ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ﴾ بالدعاء إلى الضلالة والتزيين والوسوسة، ولو كان إنفاذُ الضلالة إليه لأَضلَّ الكُل ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ ولأُلقيَن في قلوبهم الأمانيَّ الباطلةَ من طول الأعمار وبلوغ الآمال ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ البَتْكُ: القَطْعُ. والتبتيك للتكثير والتكرير، أي لأَحملنهم على أن يُقَطِّعوا ءاذان الأنعام، وكانوا يَشقون ءاذان الناقة إذا

﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ
خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩
يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠
أُوْلَٰٓئِكَ
مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ١٢١
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ
قِيلٗا ١٢٢
لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾

ولدت خمسة أبطن وجاءَ الخامسُ ذكرًا، وحرَّموا على أنفسهم الانتفاع بها ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ بالوشم، أو بنفي الأنساب واستلحاقها، أو بالتحريم والتحليل، أو بالتخنُّث، أو بتبديل فِطرة الله التي هي دين الإسلام ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وأجاب إلى ما دعاه إليه ﴿فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩﴾ في الدارين.

١٢٠- ﴿يَعِدُهُمۡ﴾ يوسوس إليهم أن لا جنةَ ولا نارَ ولا بَعث ولا حساب ﴿وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾ ما لا ينالون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ هو أن يرى شيئًا يَظهَرُ خلافُه.

١٢١- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ١٢١﴾ مَعْدِلًا ومَفَرًّا.

١٢٢- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يتَّبعوا الشيطان في الأمر بالكفر ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ قولًا، وهو استفهام بمعنى النفي، أي لا أحدَ أصدق منه، وهو تأكيد، وفائدة هذه التوكيدات مقابلةُ مواعيد الشيطان الكاذبة لقُرَنائه بوعد الله الصادق لأوليائه.

١٢٣- ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ ليس الأمر على شهواتكم وأمانيكم أيها المشركون أن تنفعكم الأصنام ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ ولا على شهوات اليهود والنصارى حيث قالوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ ١٨﴾

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

[سورة المائدة]، ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴿٨٠﴾﴾ [سورة البقرة] ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ من المشركين وأهل الكتاب بدليل قوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ وهذا وعيد للكفار لأنه قال بعده:

١٢٤- ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ قدرَ النَّقير، وهو النُّقرةُ في ظهر النَّواة.

١٢٥- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أخلَصَ نفسَه لله وجعلها سالمة له لا يَعرفُ لها ربًّا ولا معبودًا سواه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ عامل للحسنات ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ﴾ مائلًا عن الأديان الباطلة ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا[1] ﴿١٢٥﴾﴾ هو في الأصل المُخالُّ، وهو الذي يُخَالُّكَ أي يوافقك في خِلالك[2]، أو يداخلك خلال منزلك، أو يَسُدُّ خَلَلك كما تَسُدُّ خَلَلَه، فالخُلة صَفاءُ مَوَدَّة توجب الاختصاص بتخلُّلِ الأسرار، والمَحبة أَصفى لأنها من حَبَّةِ القلب، وفائدتها تأكيد وجوب اتباع مِلته لأن مَن بَلَغَ مِن الزُّلفى عند الله أن اتخذه خليلًا كان جديرًا بأن تُتَّبعَ مِلتُه وطريقته.

١٢٦- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ دليل على أن اتخاذه

---

(١) أي: الذي بلغ في حب الله الغاية، بلغ الغاية بعد سيدنا محمد ﷺ في الانقطاع إلى الله بالعبادة، ومقام الخلة هذا لم يصل إليه إلا سيدنا محمد وسيدنا إبراهيم عليهما السلام.

(٢) أي: في خِصالك.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾

خليلًا لاحتياج الخليل إليه لا لاحتياجه تعالى إليه لأنه منزه عن ذلك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ عالمًا.

١٢٧- ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ ويسألونك الإفتاء في النساء، والإفتاء تبيينُ المُبْهَم ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ ما فُرِضَ لهن من الميراث، وكان الرجل منهم يَضُم اليتيمةَ إلى نفسه ومالَها فإن كانت جميلة تزوجَها وأكلَ المال، وإن كانت دميمة[1] عَضَلَها[2] عن التزوج حتى تموتَ فيرثَها ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ في أن تنكحوهن لجمالهن، أو عن أن تنكحوهن لدمامتهن ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ اليتامى، وكانوا في الجاهلية إنما يُوَرِّثون الرجال القُوَّام بالأمور دون الأطفال والنساء ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ﴾ بمعنى: يفتيكم في يتامى النساء وفي المستضعفين، ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا لهم حقوقهم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل في ميراثهم ومالهم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ أي فيجازيكم عليه.

١٢٨- ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ توقَّعت منه ذلك لِما لاحَ[3]

---

(١) دَميمَة: قبيحة.

(٢) عَضَلَها: مَنَعَها.

(٣) أي: ظَهَر.

﴿أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾

لها من أَماراتِه، والنشوز أن يتجافَى عنها بأن يمنَعها نفسَه ونفقته، وأن يؤذيها بسبّ أو ضرب ﴿أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ عنها بأن يُقِلَّ محادثَتها ومؤانَسَتها بسبب كِبَرِ سِنٍّ أو دمامة أو سوءٍ في خَلْق أو خُلُق ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا﴾ يتصالحا ﴿صُلۡحٗاۚ﴾ على أن تَطِيبَ له نفسًا عن القِسمة أو عن بعضها، أو تَهَبَ له بعضَ المهر أو كلَّه، أو النفقة ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ من الفُرقة، أو من النشوز، أو من الخصومة في كل شيء ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ جُعِلَ الشُّحُّ حاضرًا لها لا يغيب عنها أبدًا ولا تنفك عنه. والمراد أن المرأة لا تكاد تَسمَحُ بقَسمها والرجل لا يكاد يَسمحُ بأن يقسِمَ لها إذا رغب عنها، فكل واحد منهما يطلب ما فيه راحته، ثم حثَّ على مخالفة الطبع ومتابعة الشرع بقوله ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ﴾ بالإقامة على نسائكم وإن كرهتموهن وأحببتم غيرَهن وتصبروا على ذلك مراعاة لِحَقّ الصحبة ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ النشوز والإعراض وما يؤدي إلى الأذى والخصومة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الإحسان والتقوى ﴿خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾﴾ فيثيبكم عليه.

١٢٩- ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أن تعدلوا في المحبة، وكان عليه الصلاة والسلام يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «**هذه قِسمَتِي فيما أَملك، فلا تؤاخذْني فيما تملكُ ولا أملك**» يعني المحبة لأن عائشة رضي الله عنها كانت أحبَّ إليه ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾ بالغتم في تحري ذلك ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجَوْر فتمنعوها قَسْمَها من غير رضًا منها ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ وهي التي ليست بذات بعل ولا مطلقة

﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾

﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ﴾ بينهن ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الجَوْرَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾﴾ يغفر لكم مَيْلَ[1] قلوبكم ويرحمكم فلا يعاقبكم.

١٣٠- ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ إن لم يصطلح الزوجان على شيء وتفرَّقا بالخُلْع، أو بتطليقِهِ إياها وإيفائه مهرَها ونفقةَ عِدَّتها ﴿يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا﴾ كلَّ واحد منهما ﴿مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ من غناه، أي يرزقه زوجًا خيرًا من زوجِهِ وعَيشًا أهنأ من عَيشه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ بتحليل النكاح ﴿حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾﴾ بالإذن في السَّراح، فالسَّعة: الغنى والقدرة، والواسع: الغنيُّ المقتدر، ثم بَيَّنَ غِناهُ وقدرته بقوله:

١٣١- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ خَلْقًا ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الكتبَ السماوية ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ من الأمم السالفة ﴿وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ بأن اتقوا، لأنهم بالتقوى يَسعَدون عنده ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾ وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن خلقه وعن عبادتهم ﴿حَمِيدٗا ﴿١٣١﴾﴾ مستحِقًّا لأن يُحمدَ لكثرة نعمه وإن لم يَحمَده أحد.

١٣٢- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ فاتخذوه وكيلًا ولا تتكلوا على غيره، ثم خوَّفهم وبيَّن قدرته بقوله:

١٣٣- ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ يُعدِمْكم ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾

---

(١) معناه لا يؤاخذكم على ميل قلوبكم، المغفرة قد تكون من غير معصية.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ١٣٣ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا
وَٱلْآخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ١٣٤ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ
لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ
فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ١٣٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ
وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ﴾

ويوجِد إنسًا آخَرين مكانكم، أو خلقًا آخَرين غير الإنس ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ١٣٣﴾ بليغَ القدرة.

١٣٤- ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمجاهِد يريدُ بجهاده الغنيمةَ ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۚ﴾ فما له يطلبُ أَحدَهما دون الآخر، والذي يطلبه أَخسُّهما؟! ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا﴾ للأقوال ﴿بَصِيرًا ١٣٤﴾ بالأفعال، وهو وعد ووعيد.

١٣٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ مجتهدين في إقامة العدل حتى لا تَجُوروا ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ تُقيمون شهاداتكم لوجه الله ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم، والشهادة على نفسه هي الإقرار على نفسه ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ﴾ ولو كانت الشهادة على ءابائكم وأمهاتكم وأقاربكم ﴿إِن يَكُنْ﴾ المشهود عليه ﴿غَنِيًّا﴾ فلا يُمنع الشهادة عليه لغناه طلبًا لرضاه ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ فلا يمنْعها ترحمًا عليه ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ بالغني والفقير بالنظر لهما والرحمة ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ إرادة ﴿أَن تَعْدِلُوا۟ۚ﴾ عن الحق ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ أي وإن تَلْوُوا ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل، أو تُعرضوا عن الشهادة بما عندكم وتمنعوها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥﴾ فيجازيكم عليه.

١٣٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خطاب للمسلمين ﴿ءَامِنُوا۟﴾ اثبتوا على الإيمان ودُوموا عليه ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي القرءان ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ﴾ أي جنس ما

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا
لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن
دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ
أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ
غَيْرِهِۦٓ ۚ﴾

أنزل على الأنبياء قبلَه من الكتب ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي ومن يكفر بشيءٍ من ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ لأن الكفر ببعضِه كفرٌ بكُلِّه.

١٣٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بموسى عليه السلام ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ حين عبدوا العجل ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟﴾ بموسى بعدَ عوده ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ بعيسى عليه السلام ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بكفرهم بمحمد ﷺ ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾ إلى النجاة، أو إلى الجنة.

١٣٨- ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أخبرهم، ووَضعَ﴿بَشِّرِ﴾ مكانَه تهكّمًا بهم ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ مؤلمًا.

١٣٩- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ كان المنافقون يُوالون الكفرة يطلبون منهم المَنَعة والنصرة ويقولون: لا يَتِمُّ أَمرُ محمد ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ ولِمَن أعزَّه كالنبي عليه الصلاة السلام والمؤمنين، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة المنافقون].

١٤٠- ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرءانِ ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ﴾ وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرءان في مجالسهم فيستهزءون به، فنُهيَ المسلمون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه، وكان

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ
فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ
نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ
لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾

المنافقون بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين بمكة، فنُهوا أن يقعدوا معهم كما نُهوا عن مجالسة المشركين بمكة ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ﴾ في الوِزْرِ إذا مكثتم معهم، ولم يُرِدْ به التمثيل من كل وجه فإن خوض المنافقين فيه كفر، ومُكثَ هؤلاء معهم معصيةٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ لاجتماعهم في الكفر والاستهزاء.

١٤١- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون بكم ما يتجدد لكم مِن ظَفَر أو إخفاق ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نَصرٌ وغنيمة ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ مُظاهِرين فأَشرِكونا في الغنيمة ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ سُمِّيَ ظَفَرُ المسلمين فتحًا تعظيمًا لشأنهم لأنه أمر عظيم تُفتح له أبوابُ السماء، وظفَرُ الكافرين نصيبًا تخسيسًا لحظهم لأنَّه لُمْظَةٌ[1] من الدنيا يصيبونها ﴿قَالُوٓاْ﴾ للكافرين ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ ألم نتمكن من قتلكم فأبقينا عليكم ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾ بأن ثَبَّطناهم[2] عنكم وتوانَينا في مُظاهرتهم، فهاتوا نصيبًا لنا مما أصبتم ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون والمنافقون ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ فيدخِلُ المنافقين النارَ والمؤمنين الجنة ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ في القيامة.

١٤٢- ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ يفعلون ما يَفعَلُ المخادعُ من

---

(١) اللُّمْظَةُ: مثل النُّكْتَةِ وهي أثر قليل كالنقطة.

(٢) أي: شَغَلناهم.

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ
سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن
تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ
لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾

إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع، حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعدَّ لهم الدَّرْكَ الأسفل من النار في العقبى ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين كراهةً، أما الغفلةُ فقد يُبتلى بها المؤمن ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يقصِدون بصلاتهم الرياءَ والسُّمعةَ ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ ولا يُصلُّون إلا قليلًا، لأنهم لا يصلون قَطُّ غائبين عن عيون الناس.

١٤٣- ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ مترددين، يعني ذَبذَبهم الشيطانُ والهوى ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الكفر والإيمان ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لا منسوبين إلى هؤلاء فيكونوا مؤمنين ﴿وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ ولا منسوبين إلى هؤلاء فيُسَمَّوا مشركين ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ طريقًا إلى الهدى.

١٤٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ حُجةً بينة في تعذيبكم.

١٤٥- ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ في الطَّبَقِ الذي في قعر جهنم، والنار سبعُ دَرَكات، سُميت بذلك لأنها متدارَكة متتابَعة بعضُها فوق بعض ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ يمنعهم من العذاب.

١٤٦- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ من النفاق ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ ما أَفسدوا من أَسرارهم وأحوالهم في حال النفاق ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ ووثقوا به كما يَثِق المؤمنون الخُلَّص ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهَهُ

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ
بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ
بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن
سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟
بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ
سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم أصحاب المؤمنين ورفاقُهم في الدارين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ فيشاركونهم فيه.

١٤٧- ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ لله ﴿وَءَامَنتُمْ﴾ بـه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ يجزيكم على شكركم ويعطي الجزيل من الثواب ﴿عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ عالمًا بما تصنعون.

١٤٨- ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ولا غيرَ الجهر، ولكنَّ الجهرَ أفحشُ ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ إلا جهرَ مَن ظُلم، استثنى من الجهر الذي لا يُحبّهُ اللهُ جهرَ المظلوم، وهو أن يدعوَ على الظالم ويذكُرَه بما فيه من السوء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لشكوى المظلوم ﴿عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ بظلم الظالم، ثم حَثَّ على العفو وألّا يجهر أحدٌ لأحد بسوء وإن كان على وجه الانتصار حثًّا على الأفضل فقال:

١٤٩- ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾ مكانَ جَهر السوء ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فتعملوه سرًّا ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ تمحوه عن قلوبكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ أي إنه لم يزل عفوًّا عن الآثام مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسُنته.

١٥٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ كاليهود كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام والإنجيل و القرءان، وكالنصارى كفروا بمحمد ﷺ والقرءان ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ دينًا وسطًا بين

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا
رَّحِيمٗا ١٥٢ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن
ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا
جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ﴾

الإيمان والكفر، ولا واسطة بينهما.

١٥١- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ هم الكاملون في الكفر، لأن الكفر بواحد كفرٌ بالكل ﴿حَقّٗاۚ﴾ يقينًا لا شك فيه ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾ في الآخرة.

١٥٢- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ﴾ أي الثوابَ الموعودَ لهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾ يستر السيئات ﴿رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ يقبل الحسنات.

ولمَّا قال فِنحاصُ وأصحابه للنبي ﷺ: إن كنت نبيًّا صادقًّا فَأْتنا بكتاب من السماء جملةً، كما أتى به موسى عليه السلام، نزل:

١٥٣- ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ جملةً كما نزلت التوراة جملة، وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التَّعنُّت ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ معناه إن استكبرت[1] ما سألوه منك فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ عِيانًا ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ العذاب الهائل، أو النار المحرقة ﴿بِظُلۡمِهِمۡۚ﴾ على أنفسهم بسؤال شيء في غير موضعه، وتعنُّتِهم في سؤال الرؤية لا بسؤال الرؤية، لأنها ممكنة كإنزال القرءان جملة، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ إلٰهًا ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ المعجزات التسع[2] ﴿فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ﴾

---

(١) أي: رأيته كبيرًا.

(٢) المعجزات التسع: العصا، واليد البيضاء، والجراد، والقُمَّلُ، والضفادع، والدم،=

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾

تفضُّلًا، ولم نستأصلهم ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ حجة ظاهرة على من خالفه.

١٥٤- ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم ليخافوا فلا ينقضوه ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ والطور مُظِلٌّ عليهم ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ادخلوا باب إِيْلِيَاءَ[1] مُطأطِئين عند الدخول رؤوسكم ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟﴾ لا تجاوزوا الحَّد ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ بأخذِ السَّمك ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ عهدًا مؤكدًا.

١٥٥- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ أي فبنقضهم، وما مزيدةٌ للتوكيد، والباء يتعلق بقوله ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ ﴿١٦٠﴾﴾ [سورة النساء] تقديره: حرَّمنا عليهم طيباتٍ بنقضِهم ميثاقَهم ﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾ معنى التوكيد تحقيقُ أن تحريم الطيبات لم يكن إلا بنقض العهد وما عُطِفَ عليه من الكفر وقتل الأنبياء وغير ذلك ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي معجزات موسى عليه السلام ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ كزكريا ويحيى وغيرهما ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بغير سبب يستحقون به القتل ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ محجوبة لا يَتَوصَّل إليها شيءٌ من الذكر والوعظ ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ هو رَدٌّ وإنكار لقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [أي بل خذَلها ومنَعها التوفيق للتدبر في الآيات والتذكر في المواعظ] ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه.

= والحَجَرُ، وفَلْقُ البحر، والطور الذي رفَعَهُ اللهُ على بني إسرائيل. ومنهم من أبدل الحجر بِنَقْصٍ من الأموال والأنفس والثمرات.

(١) إِيْلِيَاءَ المدينة التي فيها بيت المقدس.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ
ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ
عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

١٥٦- ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ ولمَّا تكرر منهم الكفر لأنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد ﷺ عطفَ بعضَ كفرهم على بعض ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ هو النسبة إلى الزنا.

١٥٧- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ سُمِّيَ مسيحًا لأنه كان يمسح المريضَ والأَكْمَهَ[١] والأَبرص فيبرأ ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ هم لم يعتقدوه رسولَ الله، لكنهم قالوا استهزاء ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ اجتمعت اليهودُ على قتله فأَخبرهُ اللهُ بأنه يرفعه إلى السماء ويُطهرهُ من صحبة اليهود[٢]، فقال لأصحابه: أيُّكم يرضى أن يُلقى عليه شَبَهي فيُقتلَ ويُصلبَ ويدخلَ الجنة؟ فقال رجل منهم: أنا، فأَلقى اللهُ عليه شَبَهَهُ فقُتل وصُلب، وقيل: كان رجلًا ينافق عيسى، فلمَّا أرادوا قتله قال: أنا أَدُلّكم عليه فدخل بيت عيسى، ورفع عيسى، وأَلقى اللهُ شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في عيسى يعني اليهودَ، قالوا: إن الوجهَ وَجهُ عيسى والبَدَنَ بدنُ صاحبنا، أو اختلف النصارى قالوا: إلٰه وابن إلٰه وثالث ثلاثة ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ يعني ولكنهم يتَّبعون الظن ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ أي قتلًا يقينًا، أو ما قتلوه حقًّا.

١٥٨- ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إلى حيث لا حُكمَ فيه لغير الله، أو إلى السماء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ في انتقامه من اليهود ﴿حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ فيما دَبَّر مِنْ رَفْعهِ إليه[٣].

---

(١) الأَكْمَهُ: مَن وُلد أعمى.
(٢) أي: من سوء جِوارهم وخُبث صُحبتهم.
(٣) أي: إلى مَحلّ كرامَتِه.

﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ
شَهِيدٗا ١٥٩ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرٗا ١٦٠ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ
عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦١﴾

١٥٩- ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى عليه السلام وبأنه عبد الله ورسوله يعني إذا عاينَ [الموت والهلاك] قبل أن تَزهق[1] روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف، أو قبل موت عيسى عليه السلام، وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله. روي أنه ينزل من السماء في ءاخر الزمان، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون المِلَّة واحدة وهي مِلَّة الإسلام ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ١٥٩﴾ يشهد على اليهود بأنهم كذبوه، وعلى النصارى بأنهم دعَوه ابنَ الله.

١٦٠- ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ وهي ما ذكر في سورة الأنعام ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ ١٤٦﴾ الآية [سورة الأنعام]، والمعنى ما حرَّمنا عليهم الطيبات إلا لِظُلم عظيم ارتكبوه، وهو ما عُدّد قبل هذا ﴿وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وبمنعهم عن الإيمان ﴿كَثِيرٗا ١٦٠﴾ خَلقًا كثيرًا.

١٦١- ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾ كان الربا مُحَرَّمًا عليهم كما حُرِّمَ علينا وكانوا يتعاطَونه ﴿وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ﴾ بالرِّشوةِ وسائر الوجوه المحرمة ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ﴾ دونَ مَن ءامَنَ ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦١﴾ في الآخرة.

---

(١) أي: تخرجَ.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢ ۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ﴾

١٦٢- ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ الثابتونَ فيه المُتقِنونَ كابن سَلام وأَضرابِهِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ من أهل الكتاب ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ المؤمنون منهم أو المؤمنون من المهاجرين والأنصار ﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي القرءانِ ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ أي سائرِ الكتب ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ منصوب على المدح لبيان فضل الصلاة ﴿وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾.

١٦٣- ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ جوابٌ لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن يُنزل عليهم كتابًا من السماء، واحتجاجٌ عليهم بأن شأنَه في الوحي إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سَلَفوا ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ كهودٍ وصالح وشُعيبٍ وغيرِهم ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ أولاد يعقوب[1] ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ

---

(١) يوسف عليه السلام نبي من أولاد سيدنا يعقوب، وكذلك بنيامين من أولاده يجوز أن يكون نزل عليه الوحي بالنبوة لأنه لم يشارك إخوته في تلك الأفعال الشنيعة في حق سيدنا يوسف، وهو أخوه من أبيه وأمه وكان أصغرهم، أما بقية أولاد يعقوب الذين شاركوا في تلك الأفعال الخسيسة في حق أخيهم يوسف وفي حق أبيهم النبي يعقوب عليه السلام وإيذائه الإيذاء الشديد فلا تصح لهم النبوة، لأن الأنبياء معصومون عن تلك الأفعال قبل النبوة وبعدها، وأولادُ يوسف وإخوتِه وذريتُهم يقال لهم أيضًا الأسباط هؤلاء فيهم أيضًا أنبياء كما يقال عن الحسن والحسين إنهما سبطا رسول الله عليه السلام وهما ولدا بنته وليسا ولديه، ثم هؤلاء أولاد سيدنا يعقوب بعدما عاشوا في مصر في زمن سيدنا يوسف عليه السلام تكاثروا حتى صاروا كالقبائل تحتها فروع حتى بلغ عددهم في زمن سيدنا موسى ستمائة ألف فخلصهم الله تعالى من ظلم فرعون على يد سيدنا موسى عليه السلام.

﴿وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ
عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ
حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ
بِعِلْمِهِۦۖ﴾

وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾.

١٦٤- ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ هذه السورة ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ﴾ سأل أبو ذَرّ رسولَ الله ﷺ عن الأنبياء [كم هم] قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا**»، قال: كم الرسل منهم؟ قال: «**ثلاثمائة وثلاثة عشر، أول الرسل ءادم، وءاخرهم نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام، وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ومحمد عليه السلام**» ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ أي بلا واسطة[(١)].

١٦٥- ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي وأرسلنا رُسُلًا ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ المعنى أن إرسالَهم إزاحةٌ للعِلة وتتميمٌ لإلزام الحجة لئلا يقولوا: لولا أَرسلتَ إلينا رسولا فيوقظَنا من سِنَةِ الغفلة وينبهَنا بما وجب الانتباه له ويعلمَنا ما سبيلُ معرفته السمعُ كالعبادات والشرائع ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ في العقاب على الإنكار ﴿حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ في بعث الرسل للإنذار.

ولما نزل: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ قالوا: ما نشهد لك بهذا فنزل:

١٦٦- ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ﴾ معنى شهادةِ الله بما أَنزلَ إليه إثباتُه لصحته بإظهار المعجزات إذ الحكيمُ لا يؤيد الكاذبَ بالمعجزة ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ﴾ أنزله وهو عالم بأنك أهلٌ لإنزاله إليك

---

(١) أي: أقدر الله موسى عليه السلام على سماع كلامه الذي لا يشبه كلامَ البشر، ليس حرفًا ولا صوتًا ولا لغة.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾

وأنك مُبَلِّغه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ﴾ لك بالنبوة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ شاهدًا وإن لم يشهد غيره.

١٦٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بتكذيب محمد ﷺ، وهم اليهود ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ومنعوا الناس عن سبيل الحق بقولهم للعرب: إنا لا نَجِدُه في كتابنا ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ عن الرشد.

١٦٨- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ﴿وَظَلَمُوا۟﴾ محمدًا عليه الصلاة والسلام بتغيير نَعتِه وإنكار نبوته ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ما داموا على الكفر ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾.

١٦٩- ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ وكان تخليدهم في جهنم سهلًا عليه.

١٧٠- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي بالإسلام ﴿فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ لمَّا بعثَهم على الإيمان وعلى الانتهاء عن التثليث، علم أنه يَحمِلُهم على أمر، فقال: ﴿خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ أي اقصدوا وَأْتُوْا أمرًا خيرًا لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث، وهو الإيمان به والتوحيد ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ فلا يَضرُّهُ كفركم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن يؤمنُ وبمن يكفر ﴿حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ لا يُسَوّي بينهما في الجزاء.

١٧١- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ لا تُجاوزوا الحَدَّ، فغلَتِ اليهود في حَطِّ المسيح عن منزلته حتى قالوا: إنه ابن الزنا،

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾

وغلت النصارى في رَفعه عن مقداره حيث جعلوه ابنَ الله ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ﴾ وهو تنزيهُه عن الشريك والولد ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ابنُ الله ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾[1] [أي بشارته التي بشّر بها مريم أنها تلد غلامًا زكيًّا من غير زوج و] قيل له: كلمة لأنه يُهتدى به كما يُهْتَدَى بالكلام ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أوصلها إليها وحصَّلها فيها ﴿وَرُوحٌ﴾ قيل له: روح لأنه كان يُحيي الموتى كما سُمِّيَ القرءان روحًا بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الشورى] لِمَا أنه يحيي القلوب ﴿مِّنْهُ ۖ﴾ بتخليقه وتكوينه[2] كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الجاثية] ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ﴾ ولا تقولوا: الآلهةُ ثلاثةٌ ﴿ٱنتَهُوا۟﴾ عن التثليث ﴿خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ [إنما الإلٰه المعبود واحد لا تعدُّدَ فيه بوجه ما] ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أُسَبِّحه تسبيحًا من أن يكون له ولد ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ بيانٌ لتنزهه مما نُسِبَ إليه، بمعنى أن كل ما فيهما خلقُه ومِلكُه، فكيف يكون بعضُ مِلكه جزءًا منه، على أن الجزء إنما يصح في الأَجسام، وهو يتعالى عن أن يكون جسمًا ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ حافظًا ومدبرًا لهما ولِما فيهما.

ولـمَّا قال وفد نجرانَ لرسول الله ﷺ: لـمَ تَعيبُ صاحِبَنا عيسى؟ تقول: إنه عبدُ اللهِ ورسولُه، قال: إنه ليس بعارٍ أن يكون عبدًا لله،

---

(١) بشارته.

(٢) أي: ليست للجزئية والبعضية.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾

قالوا: بلى، نزل قوله تعالى:

١٧٢- ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ لن يأنفَ[1] ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ هو رَدٌّ على النصارى ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ رَدٌّ على من يَعبدُهم من العرب ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ أي الكَرُوبِيُّون[2] الذين حولَ العرش كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومن في طبقتهم ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ يترفَّعْ ويطلبِ الكبرياءَ ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ فيجازيهم على استنكافهم واستكبارهم، ثم فَصَّلَ فقال:

١٧٣- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

كأنه قيل: ومن يستنكفْ عن عبادته ويستكبر فسيعذَّبُ بالحسرة إذا رأى أجور العاملين، وبما يصيبه من عذاب الله.

١٧٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ رسولٌ يَبْهَرُ المُنْكِرَ[3] بالإعجاز ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ قرءانًا يُستضاء به في ظلمات الحَيْرة.

---

(١) أي: لن يَستكبِرَ.
(٢) الكَرُوبِيُّون: سادة الملائكة المقربون، من الكَرْب بمعنى القُرْبِ.
(٣) أي: يَغلبُه.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

١٧٥- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ بالله ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي جنَّة ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادةِ النعمة ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ ويُرشدهم ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الله، أو إلى صراطِهِ ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

١٧٦- ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ كان جابر بنُ عبد الله مريضًا فعادَهُ رسولُ الله ﷺ، فقال: إني كَلالَةٌ[1] فكيف أصنع في مالي؟ فنزلت: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي إن هَلَكَ امرؤ غيرُ ذي ولد [ولا والد، وهو الكلالة] ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ أي لأب وأم، أو لأب ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ الميتُ ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أي الأخُ يرثُ الأختَ جميعَ مالِها إن قُدِّرَ الأمرُ على العكس مِنْ مَوتِها وبقائهِ بعدَها ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [فإن كان لها ولدٌ ذكرٌ فلا شيء له، أو أُنثى فله ما فضل من نصيبها] ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فإن كانت الأُختان اثنتين دَلَّ على ذلك: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾، ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً﴾ وإن كان مَن يرث بالأُخُوَّةِ ﴿رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾ ذكورًا وإناثًا ﴿فَلِلذَّكَرِ﴾ منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الحقَّ ﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾ [لِئَلا] تَضِلُّوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ يعلم الأشياء بِكُنْهِهَا قبلَ كونها وبعدَه.

---

(١) أي: لا وَلَدَ له ولا والد.

سورة المائدة
مدنية وهي مائة وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ وهي عقود الله التي عقدها على عباده وألزمها إياهم من مَواجب التكليف، أو ما تعاقدتم بينكم، والظاهر أنها عقود الله عليهم في دينهم من تحليل حلاله وتحريم حرامه، وأنه كلام قُدِّمَ مجملًا ثم عُقِّبَ بالتفصيل ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي الأزواج الثمانية[١]، وقيل: الظِّباء وبقر الوحش ونحوهما ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ءايةُ تحريمِه وهو قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ الآيةَ ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ أُحِلَّت لكم هذه الأشياءُ لا مُحِلّين الصيدَ ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ﴾ أحللنا لكم بعضَ الأنعام في حال امتناعكم من الصيد وأنتم مُحْرِمون لئَلا يُضَيَّق عليكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ من الأحكام أو من التحليل والتحريم.

---

(١) يشير إلى ما ورد في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ﴾، ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾

ونزل نهيًا عن تحليل ما حُرّم:

٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ جمعُ شعيرةٍ، وهي ما جُعلَ شعارًا وعَلَمًا للنُّسُك به مِن مَواقف الحج ومَرامِي الجِمار والمَطاف والمَسْعَى والأفعالِ التي هي علاماتُ الحاجِّ يُعرف بها من الإحرام والطواف والسَّعي والحَلْق والنَّحْر [أي لا تستحلوا شيئًا من ترك المناسك[1]] ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [هو اسمُ جنس فيقع على] أشهرِ الحج ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ وهو ما أهدي إلى البيت وتُقرِّب به إلى الله تعالى من النسائك[2] وهو جمعُ هَدْيَةٍ ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ جمعُ قِلادةٍ وهي ما قُلِّدَ به الهَدْي من نعلٍ أو عُروة مَزَادَةٍ[3] أو لِحاء شجرٍ[4] أو غيره [لِيُعرَفَ أنها هَدْيٌ للحرم فلا يُتعرضَ لها ولا لأصحابها] ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ ولا تُحِلُّوا قومًا قاصدين المسجد الحرام، وهم الحُجاج والعُمَّار، وإحلال هذه الأشياء أن يُتَهاونَ بحُرمة الشعائرِ، وأن يُحالَ بينها وبين المتنسّكين بها، وأن يُحْدثوا في أشهر الحج ما يَصُدون به الناسَ عن الحج، وأن يتعرضوا للهَدْي بالغصب أو بالمنع من بلوغ مَحِلِّه، وأما القلائد فجاز أن يرادَ بها ذواتُ القلائد - وهي البُدْنُ - وتعطفَ على الهدي للاختصاص[5] لأنها أشرف الهدي كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ

---

(١) وذلك لأن كثيرًا من العرب كانوا لا يَرون الصفا والمروة من شعائر الله، والبعض كانوا لا يرون الوقوف بعرفات منها.

(٢) جمع نسيكة، وهي الذبيحة التي يُتقرب بها إلى الله تعالى، والنسائك المتعبَّدات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي متعبداتنا.

(٣) العُرْوَة: الأُذُن أو المَقْبِضُ، والمَزَادة: قِربةٌ صغيرة يُتَزوَّد فيها الماء.

(٤) لحاءُ الشجر: قِشْرُه.

(٥) لأن لها خصوصيةً.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ﴾

وَمِيكَىٰلَ ﴿٩٨﴾﴾[1] [سورة البقرة] ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ثوابًا ﴿وَرِضْوَانًا﴾ وأن يرضى عنهم، أي لا تتعرضوا لقومٍ هذه صِفتُهم، تعظيمًا لهم ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ خرجتم من الإحرام ﴿فَاصْطَادُوا﴾ إباحةٌ للاصطياد بعد حَظْره عليهم بقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ ولا يُكسِبَنَّكم بُغضُ قوم لأن صَدُّوكم الاعتداءَ ولا يَحمِلَنَّكم عليه. ومعنى صَدِّهم إياهم عن المسجد الحرام مَنعُ أهلِ مكة رسولَ الله ﷺ والمؤمنين يومَ الحُدَيبية عن العمرة، ومعنى الاعتداء الانتقامُ منهم بإلحاقِ مكروه بهم ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ على العفو والإغضاء ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ على الانتقام والتشفّي، ويجوز أن يراد العموم لكل بِرٍّ وتقوى، ولكل إثم وعدوان ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣﴾﴾ لمن عَصاه وما اتّقاه.

ثم بيَّن ما كان أهل الجاهلية يأكلونه فقال:

٣- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ البهيمةُ التي تموت حَتْفَ أنفها[2] ﴿وَالدَّمُ﴾ المسفوح وهو السائل ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ وكله نجس، وإنما خُصَّ اللحمُ لأنه معظمُ المقصود ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ رُفِعَ الصوتُ به لغير الله، وهو قولُهم: باسم اللاتِ والعُزَّى عند ذبحه ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ التي خَنَقوها حتى ماتت، أو انخنقت بالشبكة أو بغيرها ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي أثخنوها

---

(١) بعدما ذُكِرت الملائكةُ ذكرَ اللهُ جبريلَ وميكال لبيان أن لهما خاصية، هما من الملائكة لكن خصّا بالذكر لبيان فضيلتهما من بين الملائكة.

(٢) أي: فجأة بلا ضرب ولا قتل.

﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾

ضربًا بعصًا أو حجرٍ حتى ماتت ﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تَردَّت من جبل أو في بئر فماتت ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ التي نطحتها أُخرى فماتت بالنطح ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ بعضَه ومات بجرحه ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ إلا ما أدركتم ذكاتَهُ، والاستثناء يرجع إلى المنخنقة وما بعدها فإنه إذا أدركها وبها حياة[1] فذبحها وسمَّى عليها حلّت ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ كانت لهم حجارةٌ منصوبة حولَ البيت يذبحون عليها يُعظمونها بذلك ويتقربون إليها تُسمى الأَنصابَ ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ أي حُرِّمت عليكم الميتة وكذا وكذا والاستقسام بالأَزلام، وهي القِداحُ المُعَلَّمَة واحدها: زَلَمٌ، كان أحدهم إذا أراد سفرًا أو غزوًا أو تجارةً أو نكاحًا أو غير ذلك يَعمِد إلى قداح ثلاثة على واحد منها مكتوب «أمرني ربي» وعلى الآخر «نهاني» والثالث غُفْلٌ[2]، فإن خرج الآمر مضى لحاجته، وإن خرج الناهي أَمسَكَ، وإن خرج الغُفْلُ أَعادَه، فمعنى الاستقسام بالأزلام طلبُ معرفة ما قُسم له مما لم يُقسم له بالأزلام ﴿ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾ الاستقسام بالأزلام خروج عن الطاعة، ويحتمل أن يعود إلى كل مُحرَّم في الآية ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ لم يُرَد به يومٌ بعينه، وإنما معناه الآن ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ يئِسوا منه أن يُبطِلوه ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ بعدَ إظهار الدين وزوالِ الخوف من الكفار وانقلابهم مغلوبينَ بعدما كانوا غالبين ﴿وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ أَخلِصوا إليَّ الخَشية ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ بأن كفيتكم خوفَ عدوكم وأَظهرتكم عليهم، أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال

---

(١) أي: حياة مستقرة، ويعلم ذلك باضطرابها اضطراب المذبوح وتدفق الدم منها عند ذبحها.

(٢) ليس عليه كتابة.

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ﴾

والحرام والتوقيف على شرائع الإسلام وقوانين القياس ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بفتح مكة ودخولِها ءامنين ظاهرين وهَدم مَنار الجاهلية ومناسِكِهم ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ اخترتُه لكم من بين الأديان وءاذنتكم بأنه هو الدين المَرضي وَحْدَه. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ۝٨٥﴾ [سورة ءال عمران] ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ متصلٌ بذكر المحرمات، ومعناه فمن اضطر إلى الميتة أو إلى غيرها ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مَجاعة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ﴾ مائلٍ إلى إثم، أي غيرَ مُتجاوز سَدَّ الرَّمَقِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لا يؤاخذه بذلك ﴿رَّحِيمٌ ۝٣﴾ بإباحة المحظور للمعذور.

٤- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾ من المطاعم، كأنهم حين تُلِيَ عليهم ما حُرِّمَ عليهم من خَبيثات المآكل سألوا عما أُحِلَّ لهم منها فقال: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ﴾ ما ليسَ بخبيث منها، أو هو كل ما لم يأتِ تحريمه في كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ أُحِلَّ لكم الطيبات وصيدُ ما علَّمتم ﴿مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ الكواسِبِ للصيد من سِباع البهائم والطير كالكلب والفَهْد والعُقاب والصَّقر والبازِي والشاهين ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ [مُعلِّمين إياها الصيد] والمُكَلِّبُ: مُؤَدِّبُ الجوارح ومُعلِّمُها مُشتقٌّ من الكلب، لأن التأديب في الكلاب أكثرُ، فاشتق من لفظه لكثرته في جنسه ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾ من عِلم التكليبِ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ الإمساكُ على صاحبه ألَّا يأكل منه فإن أكل منه لم يؤكل إذا كان صَيدَ كَلب ونحوهِ[1]، فأما صيد البازي ونحوهِ فأكلُه لا يُحَرِّمُه ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ﴾ سَمُّوا

---

(١) كالفهد، وهذا عند الحنفية فهم يفرقون بين ما أكل منه الكلب ونحوه فلا يؤكل، وما أكلت منه الطيور الجارحة فيؤكل، وأما عند الشافعي فلا يؤكل مطلقًا إن أكلَ منه طيرًا=

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلٌّ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾

عليه عند إرساله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ واحذروا مخالفةَ أمرِه في هذا كُلِّه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤﴾ إنه محاسبكم على أفعالكم، ولا يلحقه فيه لَبْثٌ.

٥- ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ الآن ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ كَرَّره تأكيدًا للمِنَّة ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمۡ﴾ أي ذبائحُهم، لأن سائر الأطعمة لا يختص حِلُّها بالمِلَّة ﴿وَطَعَامُكُمۡ حِلٌّ لَّهُمۡۖ﴾ فلا جُناحَ عليكم أن تُطعموهم، لأنه لو كان حرامًا عليهم طعامُ المؤمنين لما سَاغَ لهم إطعامُهم ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ هُنَّ الحرائرُ أو العفائف، وليس هذا بشرطٍ لصحة النكاح بل هو للاستحباب، لأنه يصحُّ نكاح الإماءِ من المسلمات ونكاح غير العفائف[1] ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ هنَّ الحرائرُ الكتابيات أو العفائف الكتابيات ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أعطيتموهن مهورَهن ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ متزوجين غيرَ زانين ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ صدائِقَ [مُسِّرين بالزنا بهنَّ]، والخِدنُ يقعُ على الذكر والأنثى ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ بشرائع الإسلام وما أَحلَّ اللهُ وحرَّم ﴿فَقَدۡ حَبِطَ﴾ بَطَلَ ﴿عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾.

٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أي إذا أردتم القيامَ إلى الصلاة ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ «إلى» تفيد معنى

= كان أو كلبًا ونحوه، ويؤكل عند مالك مطلقًا إن أكل منه الجارحُ أو لم يأكل كلبًا كان أو طيرًا.

(١) أي: الزانيات.

﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾

الغاية مطلقًا، فأما دخولُها في الحكم وخروجُها فأمرٌ يدور مع الدليل، وقوله: ﴿إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ لا دليلَ فيه على أَحَدِ الأمرين فأَخذَ الجمهورُ بالاحتياط فحكموا بدخولها في الغسل، [والمرفق: ملتقى عظمَي الساعد والعَضُد] ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ المرادُ إلصاقُ المسح بالرأس، وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما مُلصِقٌ للمسح برأسه ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [أي معهما، وهما العظمان الناتئان من كل رجل عند مفصل الساق والقدم] والمعنى: فاغسلوا وجوهَكم وأَيديَكم إلى المرافق وأَرجلَكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم على التقديم والتأخير ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ فاغسلوا أَبدانَكم ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم﴾ معناه: وجاء، حتى لا يُلزِمَ المريضَ والمسافرَ التيممَ بلا حدث ﴿مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ كنايةٌ عن قضاء الحاجة ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ جامعتم(١) ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا(٢) طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ في باب الطهارة حتى لا يُرخِّصَ لكم في التيمم ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ بالتراب إذا أَعوزَكم(٣) التطهرُ بالماء ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ ولِيُتِمَّ برُخَصِهِ إنعامَه عليكم بعزائِمِهِ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ نعمته فيثيبكم.

---

(١) وعند الشافعية الجَسُّ باليد ولمس البشرة بأي عضو كان.

(٢) فسرها الشافعي بالتراب الطاهر الطهور، وفسر الأئمة الثلاثة الصعيدَ بوجه الأرض، ووجهُ الأرض يشمل التراب والحجر.

(٣) تقول: أعْوَزني هذا الأمرُ إذا اشتدَّ عليك وعَسُرَ.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ
بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم
مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾

٧- ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالإسلام ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ أي عاقدَكُم به عقدًا وثيقًا وهو الميثاقُ الذي أَخذه على المسلمين حين بايعهم رسولُ الله ﷺ على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر والمَنشَطِ[1] والمَكره، فقبلوا وقالوا: سمعنا وأطعنا ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ في نقض الميثاق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ بسرائرِ الصدور من الخير والشر، وهو وَعدٌ ووعيد.

٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بالعدل ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ ولا يَحمِلَنَّكم بغضُ قوم على ترك العدل فيهم ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ ثم صَرَّح بالأمر بالعدل تأكيدًا وتشديدًا ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ فيما أمر ونهى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ وعد ووعيد، ولذا ذكرَ بعدَها ءاية الوعد وهو قولُه تعالى:

٩- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩﴾ والوعيدِ وهو قولُه:

١٠- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾ لا يفارقونها.

---

(١) المَنشطُ: هو الأمر الذي تَنشطُ له وتُؤْثِر فِعلَه، وعكسه المَكْرَهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ
أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞وَلَقَدۡ
أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي
مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾

١١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ﴾ بأن [يَمُدُّوا] ﴿إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ بالقتل ﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ فمنعها أن تُمَدَّ إليكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ فإنه الكافي والدافع والمانع.

١٢- ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ هو الذي يُنَقِّب عن أَحوال القوم ويُفتِّشُ عنها. ولما استقرَّ بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون، أَمرهم الله بالمسير إلى أَريحاءَ أَرضِ الشام[١]، وكان يسكنها الكَنعانيون الجبابرةُ، وقال لهم: إني كتبتُها لكم دارًا وقرارًا، فاخرجوا إليها وجاهِدوا من فيها، وإني ناصركم، وأَمرَ اللهُ موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبًا يكون كفيلًا على قومه بالوفاء بما أُمروا به توثقةً عليهم، فاختار النقباءَ، وأخذ الميثاق على بني إسرائيل، وتكفَّل لهم به النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون[٢] فرأوا أجرامًا عظيمة[٣] وقوةً وشَوْكةً فهابوا ورجعوا فحَدَّثوا قومَهم، وقد نهاهم أن يحدثوهم فنكثوا الميثاق، إلا كالَبَ بنَ يوفَنّا ويوشَعَ بنَ نون، وكانا من النقباء ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾ ناصركم ومعينكم ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وكانتا فريضتين عليهم ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ من غير تفريق بين أحد منهم

---

(١) أريحا أرض الشام: مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن بالشام.
(٢) أي: يأتون بالأخبار.
(٣) أي: أجسامًا عظيمة ضخمة.

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ
ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ
مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ وعظمتموهم أو نصرتموهم بأن تردُّوا عنهم أعداءَهم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[1] بلا مَنٍّ، وقيل: هو كل خير ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ بعد ذلك الشرط المؤكَّدِ المتعلق بالوعد العظيم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ أخطأ طريق الحق، نعم مَنْ كفر قبل ذلك فقد ضَلَّ سواءَ السبيل أيضًا ولكن الضلال بعده أظهرُ وأعظم.

١٣- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ [فبنقضهم] ﴿مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ طردناهم وأخرجناهم من رحمتنا، أو مسخناهم، أو ضربنا عليهم الجزية ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ يابسة لا رحمةَ فيها ولا لينَ. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ يفسرونه على غير ما أنزل، وهو بيانٌ لقسوة قلوبهم، لأنه لا قسوةَ أشدُّ من الافتراء على الله وتغييرِ وَحْيِهِ ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا﴾ وتركوا نصيبًا جزيلًا وقِسطًا وافيًا ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ منَ التوراة ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمدُ ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي هذه عادتُهم وكان عليها أَسلافُهم، كانوا يخونون الرسُل، وهؤلاء يخونونك ويَهُمُّون بالفتك بك، وقوله: ﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٍ﴾ أي على خيانةٍ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين ءامنوا منهم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ بعثٌ على مخالفتهم، أو فاعفُ عن مؤمنيهم ولا تؤاخِذْهم بما سلفَ منهم ﴿وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) بصدقة التطوع.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ
فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ
يَصۡنَعُونَ ١٤ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ
تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ
مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾

١٤- ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ وهو الإيمانُ بالله والرسُل، وإنما لم يقل: من النصارى لأنهم إنما سَمَّوا أنفسَهم بذلك ادعاءً لنَصْرِ الله، وهم الذين قالوا لعيسى: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ٥٢﴾ [سورة ءال عمران]، ثم اختلفوا بعدُ أنصارًا للشيطان ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا﴾ فألصقنا وألزمنا ﴿بَيۡنَهُمُ﴾ بين فِرَقِ النصارى المختلفين ﴿ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ بالأهواء المختلفة ﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ أي في القيامة بالجَزاءِ والعقاب.

١٥- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ خطابٌ لليهود والنصارى ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ محمدٌ عليه الصلاة والسلام ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مِن نحوِ صفةِ رسول الله ﷺ ومن نحو الرَّجْم ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ مما تُخفونَه لا يُبَيّنه ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ يريدُ القرءانَ لكَشفِه ظلُماتِ الشرك والشك، ولإبانته ما كان خافيًا على الناس من الحق، أو لأنه ظاهر الإعجاز.

١٦- ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي بالقرءان ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ مَن ءامن منهم ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ طُرُقَ السلامة والنجاة من عذاب الله ﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ بإرادته وتوفيقه ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾

١٧- ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾ كان في النصارى قومٌ يقولون ذلك، أو لأن مذهبَهم يؤدي إليه حيث إنهم اعتقدوا أنه يخلق ويحيي ويميت ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فمن يَمنعُ من قدرته ومشيئته شيئًا ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ﴾ إن أراد أن يُهلِكَ مَن دَعَوه إلـٰها مِنَ المسيحِ وأُمه، يعني أن المسيح عبدٌ مخلوق كسائر العباد، والمعنى أن مَن اشتمَلَ عليه رَحِمُ الأُمومية متى يُفارقُه نقصُ البشرية؟ ومن لاحَتْ عليه شواهدُ الحَدَثية أَنَّى يليقُ به نعتُ الربوبية؟ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ أي يَخلقُ مِن ذَكَرٍ وأُنثى، ويخلقُ من أُنثى بلا ذَكر كما خَلقَ عيسى، ويخلقُ مِن ذكر من غير أنثى كما خلقَ حواءَ من ءادمَ، ويخلق من غير ذكر وأنثى كما خَلقَ ءادم، أو يخلق كما يشاء كَخَلقِ الطير على يَدِ عيسى معجزةً له(١)، فلا اعتراضَ عليه لأنه الفعَّال لما يريد ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

١٨- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ﴾ أي أَعِزَّةٌ عليه كالابن على الأب ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾ فإن صح أنكم أبناء الله وأحباؤه، فلم تُعذَّبون بذنوبكم بالمسخ والنار أيامًا معدودةً على

---

(١) معناه أن الله تعالى أظهرَ ذلك على يد عيسى، فعيسى يُصوّر من الطين كهيئة الطير، ثم يَخلقُ الله تعالى فيه الرُّوحَ، ثم كان الطير يطير إلى مسافة حتى يغيب عن انظار الناس ثم يقع ميتًا، فعيسى وتصويرُه والمصوَّرُ والرُّوح وحركة الطير كلُّ ذلك مخلوقٌ لله تعالى.

﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ
أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ
وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾

زعمكم(١)؟! وهل يَمسَخُ الأَبُ ولدَه، وهل يعذِّبُ الوالدُ ولدَه بالنار؟! ثم قال ردًّا عليهم: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أنتم خَلقٌ من خلقه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ لمن تاب عن الكفر فضلًا ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ من مات عليه عدلًا ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ فيه تنبيه على عبودية المسيح، لأن المُلكَ والبُنوَّةَ متنافيان.

١٩- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمدٌ عليه الصلاة والسلام ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الشرائع ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ على حين فتورٍ من إرسال الرسُل وانقطاعٍ من الوحي، وكان بين عيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام ستُّمائةِ سنة أو خمسمائةِ سنةٍ وستون سنة ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ [لِئَلا] تقولوا ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم﴾ أي لا تعتذروا فقد جاءكم ﴿بَشِيرٌ﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرٌ﴾ للكافرين ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ فكان قادرًا على إرسال محمد عليه الصلاة والسلام ضرورةً.

٢٠- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ لأنه لم يُبعث في أُمةٍ ما بُعِثَ في بني إسرائيل من الأنبياء ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ لأنه مَلَّكَهم بعد فرعون مُلْكَه، وبعد الجبابرة مُلْكَهم، ولأن الملوك تكاثروا فيهم تكاثرَ الأنبياء ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ مِن فَلْقِ البحر وإغراقِ العدوِّ وإنزال المَنِّ والسَّلوى

---

(١) اليهود كانوا يقولون للمسلمين: نحن في الآخرة نعذب في النار أيامًا معدودة، ثم أنتم تبقون فيها. فالآية رد عليهم.

﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ
خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن
يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ
عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ قَالُواْ
يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾

وتظليل الغمام ونحو ذلك من الأمور العظام.

٢١- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ المطهرةَ المباركة وهي أرضُ بيتِ المقدسِ، أو الشامُ ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ قَسَمَها لكم ﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ﴾ ولا ترجعوا على أعقابكم مُدبرين منهزمين من خوفِ الجبابرة جُبْنًا، أو لا ترتدُّوا على أدباركم في دينكم ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ فترجعوا خاسرين ثوابَ الدنيا والآخرة.

٢٢- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ﴾ الجَبَّارُ هو العاتي الذي يُجبر الناسَ على ما يريد ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا﴾ بالقتال ﴿حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ بغير قتالٍ ﴿فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ بلا قتالٍ ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ بلادَهم.

٢٣- حينئذ ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ كالَبُ ويوشَعُ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله ويخشَونه ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ بالخوف منه ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ أي بابَ المدينة ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ أي انهزَموا وكانت الغَلَبة لكم، وإنما عَلِما ذلك بإخبار موسى عليه السلام ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ إذ الإيمانُ به يقتضي التوكلَ عليه، وهو قطع العلائق[١]، وترك التملُّق للخلائق[٢].

٢٤- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدًا﴾ هذا نفي لدخولهم في المستقبل على وجه التوكيد ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ اذهب

---

(١) أي: تصفية النية.

(٢) أي: ترك شَغْل القلب بهم لغرض دنيوي.

﴿فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا
وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا
تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

أنت، وربك يُعينك[1] على قتالك ﴿فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ماكثون لا نقاتلهم لنصرة دينكم، فلمَّا عَصَوه وخالفوه:

٢٥- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ﴾ لنصرة دينك ﴿إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ إني لا أملك إلا نفسي وإن أخي لا يملك إلا نفسه ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فافصِل بيننا وبينهم بأن تحكُمَ لنا بما وعدتنا، وتحكُمَ عليهم بما هم أهله، وهو في معنى الدعاء عليهم.

٢٦- ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ أي الأرضَ المقدسةَ ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾ لا يدخلونها، وهو تحريمُ مَنعٍ لا تحريمُ تَعبُّد ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ﴾ فإذا مضى الأربعون كان ما كَتَبَ، فقد سارَ موسى عليه السلام بمن بقيَ من بني إسرائيل، وكان يوشَعُ على مُقَدمته، ففتحَها وأقامَ فيها ما شاء الله ثم قُبض ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يسيرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقًا أربعين سنةً، وإنما عوقبوا بالحبس لاختيارهم المُكثَ، فكانوا مع شدة سَيرهم يُصبحون حيث أمسَوا، ويُمسون حيث أَصبحوا في ستة فراسخ، ولما ندم على الدعاءِ عليهم قيل له: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي فلا تَحزن عليهم لأنهم فاسقون، قيل: لم يكن موسى وهارون معهم في التيه لأنه كان عقابًا، وقد سأل موسى ربه أن يفرُق بينهما وبينهم [فأُجيبت دعوتُه].

أمر الله تعالى محمدًا ﷺ أن يَقُصَّ على حاسِدِيه ما جرى بسبب الحسد ليتركوه بقوله:

---

(١) معناه لا يُحمل على الحركة والانتقال بالنسبة لله.

﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ
ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ
أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي
وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ
فَقَتَلَهُۥ﴾

٢٧- ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ على أهل الكتاب ﴿نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ﴾ من صُلبه هابيلَ وقابيل ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ نبأً ملتبسًا بالصدق موافقًا لما في كُتُب الأولين ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا﴾ ما يُتقرب به إلى الله من نَسيكةٍ أو صدقةٍ، والمعنى إذ قَرَّب كل واحد منهما قربانَه ﴿فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا﴾ قربانُه وهو هابيل بأن نزلت نار فأكلته ﴿وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ قربانُه وهو قابيل، فازداد قابيلُ حسدًا وسَخَطًا وتوعده بالقتل، وهو قوله: ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ﴾ أي هابيل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ وأنت غير مُتَّقٍ، فإنما أُتيت من قِبَلِ نفسِك لانسلاخها من التقوى لا من قِبَلي.

٢٨- ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ مَددْتَ ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ﴾ بمادٍّ ﴿يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ [ما أنا بباسطٍ يدي إليك مبتدئًا كقصدك ذلك مني، وكان هابيلُ عازمًا على مدافعته إذا قصد قتله]، وإنما قتله فتكًا على غفلة منه.

٢٩- ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ﴾ أن تحتمل أو ترجع ﴿بِإِثۡمِي﴾ بإثم قتلي إذا قتلتني ﴿وَإِثۡمِكَ﴾[1] الذي لأجله لم يُتقبَّل قربانُك، وهو عقوقُ الأب والحسدُ والحِقدُ ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾.

٣٠- ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ فوسَّعَتْهُ ويسَّرته [أي سهَّلت له نفسُه قتل أخيه، فأطاع هواه] ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ عند عَقَبَةِ حِراءَ والمقتولُ ابن

---

(١) ليس معناه أنه يُحب له هذه المعصية، إنما المعنى التهديد والتخويف، كأنه يقول: ارجع عن هذا وإلا تكون من أهل النار حاملًا لهذه الآثام.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾

عشرين سنةً ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [صار خاسرًا دنياه وءاخرتَه، فقد أسخط والديه، وفقَد أخاه، وأسخط ربه وصار إلى النار].

روي أنه لما قتله تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، فخاف عليه السباع، فحمله في جِراب على ظهره سنةً.

٣١- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ﴾ عورة أخيه وما لا يجوز أن ينكشف من جسده، بعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة، فحينئذ ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ على قتله لِمَا تَعِبَ فيه من حمله وتحيُّره في أمره ولم يندم نَدمَ التائبين.

٣٢- ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ بسبب ذلك ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ خَصَّهم بالذكر وإن اشترك الكل في ذلك، لأن التوراة أَولُ كتاب فيه الأحكام ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ بغير قتل نفسٍ ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بغير فسادٍ في الأرض، وهو الشرك وكل فساد يوجبُ القتلَ ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي في الذنب[1] ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ ومن استنقذها من أسباب الهَلَكة من قتل أو غَرقٍ أو حرقٍ أو هدم أو غير ذلك ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ جُعِلَ قتلُ الواحد كقتل الجميع،

---

(١) أي: من حيث إن ذنب قاتل النفس بغير حق عَظيم جدا كما أن ذنب قاتل الناس جميعًا عظيم جدا، وليس معناه أن جزاءهما بنفس المقدار، وقيل في ذلك أقوال أُخر من وجوه التشبيه.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

وكذلك الإحياءُ ترغيبًا وترهيبًا، لأن المُتعرِّضَ لقتل النفس إذا تصور أن قتلَها كقتل الناس جميعًا عَظُمَ ذلك عليه فثَبَّطَه، وكذا الذي أراد إحياءها إذا تصوَّر أن حكمَه حكمُ إحياء جميع الناس رَغِبَ في إحيائها ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ أي بني إسرائيل ﴿رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات الواضحات ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما كتبنا عليهم، أو بعد مجيء الرسل بالآيات ﴿فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ في القتل لا يبالون بعَظَمته.

٣٣- ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، أي أولياء الله ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ مفسدين [وهم قطَّاع الطريق، جعلهم محاربين الله ورسوله لأنهم يحاربون المؤمنين، وهم أولياء الله ورسوله] ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟﴾ من غير صَلب إن أفردوا القتلَ، [والتقتيل: تكثير القتل وتكريره، ومِثلُه التصليب والتقطيع] ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ مع القتل إن جَمعوا بين القتل وأَخذ المالِ ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ إن أَخذوا المال ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي مختلفةً [أي تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى] ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ بالحَبْس إذا لم يزيدوا على الإخافة ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ ذُلٌّ وفضيحة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

٣٤- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ فتسقطُ عنهم هذه الحدودُ لا ما هو حقُّ العباد ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ يغفر لهم بالتوبة ويرحَمُهم فلا يعذبهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ
بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ
ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا
جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ
ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ﴾

٣٥- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فلا تُؤذوا عبادَ الله ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ هي كُلُّ ما يُتوسَّل به، أي يُتقرَّب من قُرْبَةٍ أو صَنيعةٍ أو غيرِ ذلك، فاستعيرت لِمَا يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك السيئات ﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

٣٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من صنوف الأموال ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ وأنفقوه ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ ليجعلوه فديةً لأنفسهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ فلا سبيل لهم إلى النجاة بوجهٍ.

٣٧- ﴿يُرِيدُونَ﴾ يتمنَّون ﴿أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ دائم.

٣٨- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ يديهما، والمراد اليمينان ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ مفعول له ﴿نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ عقوبةً منه [رادعةً لهما من العَود، ولغيرهم من الاقتداء بهما] ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُعارَض في حكمه ﴿حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ فيما حكم من قطع يد السارق والسارقة.

٣٩- ﴿فَمَن تَابَ﴾ من السرقة ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ سَرِقَته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بِرَدِّ المسروق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ﴾ يَقبَلُ توبتَه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ يغفر ذنبه ويرحمه.

٤٠- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد، أو يا مخاطَب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ
ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ
ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن
لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ من مات على الكفر ﴿وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ لمن تاب عن الكفر ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من التعذيب والمغفرة وغيرهما ﴿قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ قادر.

٤١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ لا تهتمَّ ولا تُبالِ بمسارعة المنافقين في الكفر، أي في إظهاره بما يلوح منهم من ءاثار الكيد للإسلام، ومن موالاة المشركين، فإني ناصرك عليهم وكافيك شرَّهم ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ من المنافقين ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾ اليهود ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ يَسمعون منك ليكذبوا عليك بأن يمسَخوا ما سمعوا منك بالزيادة والنقصان والتبديل والتغيير ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ سمَّاعون منك لأجل قوم ءاخرين من اليهود وجَّهوهم عيونًا[1] ليبلغوهم ما سمعوا منك ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ يُزيلونه ويُميلونه عن مواضعه التي وَضعَه اللهُ فيها ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا﴾ المُحرَّفَ المزالَ عن مواضعه ﴿فَخُذُوهُ﴾ واعلموا أنه الحقُّ واعملوا به ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ﴾ وأَفتاكم محمدٌ بخلافه ﴿فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ فإياكم وإياه فهو الباطل، روي أن شريفًا زنى بشريفة بخَيبرَ وهما مُحصَنان وحَدُّهما الرجمُ في التوراة فكرهوا رجمَهما لشرفهما، فبعثوا رَهْطًا منهم ليسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك وقالوا: إن

---

(١) أي: جواسيس.

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾

أمركم بالجلد والتحميم[1] فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا، فأمرَهم بالرجم فلم يأخذوا به ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ ضلالَته، وهو حجة على من يقول: يريدُ اللهُ الإيمانَ ولا يريد الكفر[2] ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ﴾ قطعَ رجاءَ محمد ﷺ عن إيمانِ هؤلاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ﴾ عن الكفر، لعِلمِه منهم اختيارَ الكفر أيضًا ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ﴾ للمنافقين فضيحة، ولليهود جِزية ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ أي التخليدُ في النار.

٤٢- ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كُرِّرَ للتأكيد أي هم سماعون ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ﴾ وهو كل ما لا يحِلُّ كَسْبُه، وهو مِن سَحَتَه إذا استأصَلَه لأنه مَسحوتُ البركة، وكانوا يأخذون الرِّشا على الأحكام وتحليلِ الحرام ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ﴾ قيل: كان رسول الله ﷺ مُخيَّرًا إذا تحاكَمَ إليه أهلُ الكتاب بين أن يَحكم بينهم، وبين أَلَّا يحكم بينهم، وقيل نُسخ التخيير بقوله ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة المائدة] ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ﴾ فلن يقدروا على الإضرار بك، لأن الله تعالى يعصمك من الناس ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ﴾ بالعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ العادلين.

---

(١) التحميم: تسويدُ الوجه.

(٢) بمعنى المشيئة، فالمحذور هو نفي مشيئة الله للكفر.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

٤٣- ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ تَعجيبٌ[1] من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه، مع أن الحكم منصوص في كتابهم الذي يدَّعون الإيمانَ به ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ﴾ ثم يُعرضون من بعد تحكيمك عن حُكمِكَ الموافقِ لما في كتابهم، لا يرضَونَ به ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ بك أو بكتابهم كما يدَّعون.

٤٤- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى﴾ يَهدي للحق ﴿وَنُورٌۚ﴾ يُبيّن ما استَبْهَمَ منَ الأحكام ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ انقادوا لحُكم الله في التوراة، وهو صفةٌ أُجريت للنبيين على سبيل المدح، وأُريدَ بإجرائها التعريضُ باليهود لأنهم بُعَدَاءُ من ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء كلهم ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ تابوا من الكفر ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ الزهَّادُ والعلماء ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ﴾ استُودِعوا ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي كَلَّفَهم اللهُ حِفظَه ﴿وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ﴾ رُقباءَ لئَلا يُبَدَّل ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ نَهيٌ للحُكام عن خشيتهم غيرَ اللهِ في حُكوماتهم، وإمضائها على خلاف ما أُمروا به من العَدل خشيةَ سلطانٍ ظالم أو خِيفَةَ أَذِيةِ أحدٍ ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ في مخالفة أمري ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي﴾ ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامِه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾ وهو الرشوةُ وابتغاءُ الجاه ورضا الناس ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مستهينًا به ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

---

(١) معناه: الله تعالى يُعَجِّبُ خلقه، أما هو تبارك وتعالى فهو منزه عن التعجب - الذي هو إنكارُ ما يَرِدُ عليك لقلة اعتياده ولا يمكن وصف الخالق بذلك - ومعناه اعجبوا بأناس هذه صفتهم.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: من لم يحكم جاحدًا فهو كافر، وإن لم يكن جاحدًا فهو فاسق ظالم.

٤٥- ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ وفرضنا على اليهود في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ مأخوذةٌ ﴿بِٱلنَّفْسِ﴾ مقتولةٌ بها إذا قَتَلَتها بغير حق ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ مفقوءَةٌ ﴿بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ﴾ مَجدوعٌ[1] ﴿بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ﴾ مقطوعة ﴿بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ﴾ مقلوعة ﴿بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي ذاتُ قصاصٍ، وهو المُقاصة، ومعناه ما يمكن فيه القِصاص، وإلا فَحُكومَةُ عَدلٍ ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من أَصحاب الحق ﴿بِهِۦ﴾ بالقِصاص وعفا عنه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ فالتصدقُ به كفارةٌ للمتصدق بإحسانه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ بالامتناع عن ذلك.

٤٦- ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ [أَتبعنا] ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ على ءاثار النبيين الذين [مِن قبلِكَ] ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [فبعثناه نبيًا] ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [قبلَه] ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾ [من الضلالة] ﴿وَنُورٌ﴾ [وضياءٌ للطريق الحق] ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي وءاتيناه الإنجيل ثابتًا فيه هدى ونور ومصدقًا [لما تقدَّمه من التوراة في أصل التوحيد والطاعة] ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ هاديًا وواعظًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ لأنهم ينتفعون به.

---

(١) مَجْدوعٌ: مقطوعٌ.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

٤٧- ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ﴾ وقلنا لهم: احكموا بموجبه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ الخارجون عن الطاعة، وقيل ومن لم يحكم بما أَنزلَ الله فهو كافر بنعمةِ اللهِ ظالمٌ في حُكمِه فاسقٌ في فعله[1].

٤٨- ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرءان ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بسبب الحق وإثباته وتبيين الصواب من الخطأ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما تَقدَّمه نزولًا ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المرادُ به جنسُ الكتب المنزلة، لأن القرءان مُصَدقٌ لجميع كتب الله، ومعنى تصديقهِ الكتبَ موافقَتُها في التوحيد والعبادة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنبياء] ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ أي: وشاهدًا لأنه يشهد له بالصحة والثبات ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ﴾ بما في القرءان ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ نُهِيَ أن يَحكُم بما حرَّفوه وبَدَّلوه اعتمادًا على قولهم ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيها الناس ﴿شِرْعَةً﴾ شريعةً ﴿وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ وطريقًا واضحًا ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جماعةً متفقةً على شريعةٍ واحدةٍ ﴿وَلَٰكِن﴾ أرادَ ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ليعامِلَكم معاملة المختَبِر ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾ من الشرائع المختلفة فتعبَّدَ كلَّ أمةٍ بما اقتضته الحِكمةُ ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾ فابتدروها وسابقوا نحوها قبل الفَوات

---

(١) هذا موافق لتفسير ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قوله: «ليس الكفر الذي تذهبون إليه، إنما هو كفر دون كفر». وهو كقوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» أي لا يكون إيمانه كاملًا حين مواقعته هذه الفاحشة. أما المستحل فيكفر.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾

بالوفاة. والمراد بالخيرات كلُّ ما أَمر اللهُ تعالى به ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فَيُخبركم بما لا تَشكُّون معه من الجزاء الفاصل بين مُحِقِّكم ومُبطِلكم، وعامِلكم ومُفرِّطكم في العمل.

٤٩- ﴿وَأَنِ ٱحْكُم﴾ وأنزلنا إليك الكتابَ بالحق وبأَنِ احكم ﴿بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ يَصْرِفوك، وإنما حَذّره - وهو رسولٌ مأمون - لقَطع أَطماعِ القوم ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الحُكم بما أَنزلَ اللهُ إليك وأرادوا غيره ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ﴾ بذنبِ التولّي عن حُكم الله وإرادةِ خلافِهِ، فَوُضِعَ ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ﴾ موضعَ ذلك، وهذا الإبهام لتعظيم التولّي وفيه تعظيمُ الذنوب فإن الذنوبَ بعضُها مُهلك فكيف بكُلِّها ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ لَخارجون عن أمر الله.

٥٠- ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾ يَطلبون، يخاطِبُ بني النَّضير في تفاضُلهم على بني قُرَيظَةَ وقد قال لهم رسول الله ﷺ: «**القَتْلى سواءٌ**»، فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك، فنزلت: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ لا أحد أَحسَنُ ﴿مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي هذا الخطابُ وهذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم هم الذين يَتَبيّنون أن لا أَعدلَ من الله، ولا أحسنَ حكمًا منه.

ونزل نهيًا عن موالاة أعداء الدين:

٥١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ لا تتخذوهم أولياءَ تَنصُرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونَهم وتعاشرونهم معاشرةَ

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ
فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ
مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ
أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾

المؤمنين، ثم علل النهي بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ وكلُّهم أعداءُ المؤمنين، وفيه دليل على أن الكفر كلَّه ملةٌ واحدة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ مِن جُملتهم وحكمُه حكمُهم، وهذا تغليظٌ من الله وتشديد في وجوب مُجانَبَةِ المخالِف في الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ لا يُرشِد الذين ظلموا أنفسَهم بموالاة الكفرة.

٥٢- ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ في معاونتهم على المسلمين وموالاتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ﴾ حادثةٌ تدور بالحال التي يكونون عليها ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي يؤمَرُ النبيُّ عليه الصلاة والسلام بإظهار أسرار المنافقين وقتلِهم ﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾ أي المنافقون ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من النفاق ﴿نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

٥٣- ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ يقول بعضهم لبعض عند ذلك: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ﴾ أقسموا لكم بإغلاظ الأَيمان أنهم أولياؤكم ومعاضِدُوكم[1] على الكفار ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ضاعت أعمالهم التي عَمِلوها رياءً وسُمعةً لا إيمانًا وعقيدةً ﴿فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ في الدنيا والعقبى لفوات المَعونة ودوام العقوبة.

٥٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ من يرجعْ منكم عن دين الإسلام إلى ما كان عليه من الكفر ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾

---

(١) أي: مُعاونوكم.

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يَرضَى أَعمالَهم ويُثني عليهم بها ويُطيعونه ويؤثرون رضاه، وفيه دليلُ نبوته عليه الصلاة والسلام حيث أخبرهم بما لم يكن فكان، وإثباتُ خلافةِ الصِّدّيق لأنه جاهَدَ المرتدِّين، وصحة خلافَتِه وخلافَةِ عمرَ رضي الله عنهما ﴿أَذِلَّةٍ﴾ جمعُ ذليل، والذِّلُّ بالكسر اللينُ وهو ضد الصعوبة ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أشِدّاءَ عليهم، والعَزاز: الأَرضُ الصُّلبة، فهم مع المؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده، ومع الكافرين كالسَّبُع على فريسته ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقاتلون الكفار ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ يجاهدون وحالُهم في المجاهدة خلافُ حال المنافقين، فإنهم كانوا مُوالين لليهود فإذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءَهم اليهودَ فلا يعملون شيئًا مما يعلمون أنه يلحقُهم فيه لَوْمٌ من جهتهم، وأما المؤمنون فمجاهدتهم لله لا يخافون لومةَ لائم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما وُصِفَ به القومُ من المحبة والذِّلة والعِزة والمجاهدة وانتفاء خوفِ اللومة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفواضِلِ ﴿عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ بمَنْ هو من أهلها.

عَقَّبَ النهيَ عن موالاة من تجب معاداتهم ذِكرَ من تجب موالاتهم بقوله:

٥٥- ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «إنما» يفيد اختصاصَهم بالموالاة ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ يؤتونَها في حال ركوعهم في الصلاة. قيل: إنها نزلت في عليّ رضي الله عنه حين سأله سائلٌ وهو راكع في صلاته، فطرحَ له خاتمه كأنه كان مَرِجًا[1] في

---

(١) مرِجًا: متحركًا.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾

خنصره فلم يتكلف لخلعه كثيرَ عمل يُفسِدُ صلاتَه، وورد بلفظ الجمع وإن كان السببُ فيه واحدًا ترغيبًا للناس في مثل فعله لينالوا مثلَ ثوابه، والآية تدل على جواز الصدقة في الصلاة، وعلى أنّ الفعل القليل لا يفسد الصلاة.

٥٦- ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يتخذْهُ وليًّا أو يكن وليًّا ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ المرادُ بحزبِ الله الرسولُ والمؤمنون، ومن يتولَّهم فقد تولى حزبَ اللهِ واعتضَدَ بمن لا يغالَبُ. وأصلُ الحِزبِ القومُ يجتمعون لأمر حَزَبَهم أي أصابهم.

روي أن رِفاعةَ بنَ زيدٍ وسُويدَ بنَ الحارث قد أظهرا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادُّونهما فنزل:

٥٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يعني اتخاذُهم دينكم هزوًا ولعبًا لا يصح أن يقابَلَ باتخاذكم إياهم أولياء، بل يقابَلُ ذلك بالبَغضاء والمنابَذة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ «مِن» للبيان ﴿مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ﴾ أي المشركين ﴿أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في موالاة الكفار ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ حقًّا، لأن الإيمان حقًّا يَأبَى موالاةَ أعداء الدين.

٥٨- ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا﴾ أي الصلاة، أو المناداة ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ لأن لَعِبَهم وهُزوَهم من أفعال السفهاء والجهلة فكأنهم لا عقل لهم، وفيه دليل على ثبوت الأذان بنصِّ الكتاب لا بالمنام وحدَه.

٥٩- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ٥٩ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ
ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ
ٱلسَّبِيلِ ٦٠ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ
يَكۡتُمُونَ ٦١ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ٦٢﴾

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾ يعني هل تَعيبون منّا وتنكرون إلا الإيمانَ بالله وبالكتب المنزلة كلها ﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ٥٩﴾ والمعنى: أعاديتمونا لأنَّا اعتقدنا توحيدَ الله وصدقَ أنبيائه وفسقكم لمخالفتكم لنا في ذلك.

٦٠- ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي ثوابًا، والمثوبة وإن كانت مختصةً بالإحسان ولكنها وضعت موضع العقوبة كقوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [سورة ءال عمران]، وكان اليهود يزعمون أن المسلمين مستوجبون للعقوبة فقيل لهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [أبعدَه من رحمته] ﴿وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ يعني أصحاب السبت، فشبابهم مُسخوا قردةً ومشايخهم مُسخوا خنازير ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ العجل، أو الشيطان لأن عبادتهم العجلَ بتزيين الشيطان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الممسوخون الملعونون ﴿شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ جعلت الشرارةُ للمكان وهي لأَهلِهِ للمبالغة ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠﴾ عن قصد الطريق الموصل إلى الجنة.

ونزل في ناس من اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ ويُظهرون له الإيمان نفاقًا:

٦١- ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ دخلوا كافرين وخرجوا كافرين، أي قالوا ذلك وهذه حالهم ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦١﴾ من النفاق.

٦٢- ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ من اليهود ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ﴾ الكذب ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ الظلم ﴿وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ الحرَامَ ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٢﴾ لبئس شيئًا عَمِلوه.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾

٦٣- ﴿لَوْلَا﴾ هلّا، وهو تَحضيضٌ ﴿يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ هذا ذَمٌّ للعلماء[١]، والأول للعامة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي أشد ءاية في القرءان، حيث أَنزلَ تاركَ النهي عن المنكر منزلةَ مرتكب المنكر في الوعيد.

٦٤- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ رُوي أن اليهودَ لعنهم الله لـمَّا كذَّبوا محمدًا عليه الصلاة والسلام كفَّ الله ما بسط عليهم من السَّعَة، وكانوا من أكثر الناس مالًا، فعند ذلك قال فِنْحاص: يد الله مَغلولة، ورضي بقوله الآخرون فأُشركوا فيه، وغَلُّ اليد وبسطُها مجاز عن البُخل والجُود، ولا يقصِدُ المتكلم به إثباتَ يَدٍ ولا غَلٍّ ولا بَسطٍ حتى إنه يستعمل في مَلِكٍ يُعطي ويَمنع بالإشارة من غير استعمال اليد[٢]، ومن لم ينظر في علم البيان يتحير في تأويل أمثال هذه الآية، وقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاءٌ عليهم بالبخل، ومِن ثَم كانوا أبخلَ خلق الله، وإنما ثنّيت اليد في ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وهي مفردة في ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ليكون رَدُّ قولهم وإنكارُه أبلغَ وأدلَّ على إثبات غايةِ السخاءِ له ونفيِ البُخلِ عنه، فغاية ما يبذله السخِيُّ أن يُعطيه بيديه ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تأكيد للوصف بالسخاء، ودلالة

---

(١) أي: علماء اليهود.

(٢) هذا رد على المشبهة الذين يحتجون لإثبات الجارحة لله بهذه الآية، إذ معتقد أهل الحق أن الله سبحانه وتعالى ليس بجسم ولا جارحة له ولا يشبهه شيء من خلقه ولا يكيَّف ولا يتحيَّز ولا تحلُّه الحوادث، وهذا مقرر في علم أصول الدين، والجمهور على أن هذا استعارة عن جُوده وإنعامه السابغ.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾

على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ من اليهود ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ﴾ يزدادون عند نزول القرءان لحَسَدهم تماديًا في الجحود وكفرًا بآيات الله ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ فكلامهم أبدًا مختلفٌ، وقلوبهم شتَّى[(١)]، لا يقع بينهم اتفاقٌ ولا تعاضُد. [فهم - أي اليهود - أبغضُ خلق الله إلى الناس] ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ﴾ [كلما جمعوا وأعدوا شَتَّتَ الله جَمْعهم. وقيل: إن اليهود لما أفسدوا وخالفوا كتاب الله - التوراة - أرسل الله عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فأرسل عليهم بطرس الرومي، ثم أفسدوا فأرسل عليهم المجوس، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم المسلمين، فكانوا كلما استقام أمرهم شتتهم الله، فكلما أوقدوا نارًا أي أهاجوا شرًّا وأجمعوا أمرهم على حرب النبي ﷺ أطفأها الله وقهرهم ووهَّنَ أمرهم] ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ﴾ ويجتهدون في دفع الإسلام ومحو ذكر النبي عليه الصلاة والسلام من كتبهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

٦٥- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟﴾ برسول الله عليه الصلاة والسلام وبما جاء به مع ما عددنا من سيئاتهم ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ وقرنوا إيمانهم بالتقوى ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ ولم نؤاخذهم بها ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ مع المسلمين.

٦٦- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أقاموا أحكامهما وحدودهما

---

(١) شَتَّى: مُتفرقة.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾

وما فيهما من نعت رسول الله ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ من سائر كتب الله، لأنهم مكلفونَ الإيمانَ بجميعها، فكأنها أنزلت إليهم، وقيل: هو القرءان ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ يعني الثمار من فوق رؤوسهم ﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ يعني الزروع، وهذه عبارة عن التوسعة، كقولهم: فلان في النعمة من قَرنهِ[1] إلى قَدَمه. ودلت الآية على أن العمل بطاعة الله تعالى سبب لسَعَة الرزق، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ٣﴾ [سورة الطلاق] ﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ﴾ [الاقتصاد: الاعتدال في القول والعمل من غير غُلُّو ولا تقصير]، وقيل: هم الطائفة المؤمنة وهم عبد الله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦﴾ وكثير منهم ما أسوأَ عَمَلَهم، وهم كعب بن الأشرف وأصحابه وغيرهم.

٦٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ غيرَ خائف أن ينالك مكروه ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ﴾ وإن لم تبلِّغ جميعَه كما أمرتُك ﴿فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ فلم تُبلّغ إذًا ما كُلِّفت من أداء الرسالة وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، فإذا لم تؤدِّ بعضها فكأنك أغفلت أداءَها جميعًا ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ يحفظك منهم قتلًا فلم يُقدر عليه، وإن شُجَّ في وجهِهِ يوم أُحُدٍ وكُسرت رَباعِيَتُه، أو نزلت بعدما أَصابَه ما أَصابَه. و﴿ٱلنَّاسِۗ﴾: الكفار بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ لا يُمَكِّنهم مما يريدون إنزالَه بك من الهلاك.

---

(١) القَرْنُ: الجانبُ الأعلى من الرأس.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾

٦٨- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ على دينٍ يُعتَدُّ به حتى يُسمَّى شيئًا لبطلانه ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ يعني القرءانَ ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ﴾ إضافةُ زيادة الكفر والطغيان إلى القرءان بطريق التسبيب [لكفرهم به] ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ فلا تتأسف عليهم، فإن ضرر ذلك يعود إليهم لا إليك.

٦٩- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بألسنتهم وهم المنافقون ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ[(١)] وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ ارتفع الصابئون بالابتداء وخبرُهُ محذوف، كأنه قيل: إن الذين ءامنوا [بألسنتهم] والذين هادوا والنصارى ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ والصابئون كذلك، أي من ءامن [من كل هؤلاء][(٢)] بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم فَقُدِّمَ وحُذِفَ الخبرُ، وفائدة التقديم التنبيه على أن الصابئين - وهم أبينُ هؤلاء المعدودين ضَلالًا وأَشدُّهم غيًّا - يُتاب عليهم إن صح منهم الإيمان، فما الظن بغيرهم.

٧٠- ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بالتوحيد ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ﴾ ليقِفُوهم على ما يَأتون وما يَذَرون في دينهم ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ﴾ منهم ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ بما يخالف هواهم ويُضادُّ

---

(١) العرب تُسمي كل مَن خرج مِن دين كان عليه إلى غيره صابئًا، ثم قيل هم عبدةُ الكواكب، وقيل هم قوم لا هم نصارى ولا يهود ولا دين لهم، وقيل قوم يعبدون الملائكة ويُصلّون إلى القبلة ويقرؤون الزبور، وقيل هم إلى النصارى أقرب، وقيل غير ذلك.

(٢) وهم المنافقون واليهود والنصارى، وحتى من الصابئة.

﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ٧٠ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ٧١ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ٧٢ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾

شهواتِهم من مشاقِّ التكليف والعمل بالشرائع ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ٧٠﴾ قيل: التكذيبُ مشترك بين اليهود والنصارى، والقتل مُختَصٌّ باليهود، فهم قتلوا زكريا ويحيى.

٧١- ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وحسب بنو إسرائيل أنهم لا يُصيبُهم من الله عذابٌ بقتل الأنبياء وتكذيب الرسل ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ فعموا عن الرشد وصمُّوا عن الوعظ ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [أي تابوا بدخولهم بالإسلام بالنطق بالشهادتين. فقبل الله توبتهم] ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [أي ثم عَمِيَ كثير منهم وصمَّ كرَّةً ثانية] ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ٧١﴾ فيجازيهم بحسب أعمالهم.

٧٢- ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ﴾ لم يُفرِّق عيسى عليه السلام بينه وبينهم في أنه عبدٌ مربوب ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ في عبادته غيرَ الله ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي هي دار الموحِّدين، أي حَرَمَه دخولَها ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ أي مرجعه ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿مِنْ أَنصَارٍ ٧٢﴾ [يمنعونهم من عذاب الله].

٧٣- ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ أي ثالث ثلاثة ءالهةٍ، قال في الآية الأولى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾ وقال في الثانية: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، بعض النصارى كانوا يقولون: المسيح بعَينه هو الله، لأن الله ربما يتجلَّى في بعض الأزمان في شخصٍ، فتجلَّى في ذلك الوقت

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾

في شخص عيسى، ولهذا كان يظهر من شخص عيسى أفعال لا يقدر عليها إلا الله، وبعضهم ذهبوا إلى ءالهةٍ ثلاثةٍ: الله ومريمَ والمسيح، وأنه ولدُ الله من مريم ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ﴾ أي وما إلٰه قَطُّ في الوجود إلا إلٰهٌ موصوف بالوَحدانية لا ثانيَ له، وهو الله وحدَه لا شريك له ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ ليَمسَّن الذين بقُوا على الكفر منهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ نوع شديد الألم من العذاب.

٧٤- ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ﴾ ألا يتوبون بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر وهذا الوعيدِ الشديد مما هم عليه، وفيه تعجيب من إصرارهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ يغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم(١).

٧٥- ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فيه نفي الألوهية عنه ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خَلَوا من قبله، وإبراؤه الأَكمَهَ والأَبرص وإحياؤه الموتى لم يكن منه؛ لأنه ليس إلٰهًا، بل الله أَبرأَ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يده [أي يد عيسى]، كما أحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى. وخَلْقُه من غير ذَكَر كخلق ءادم من غير ذكرٍ وأنثى ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ﴾ وما أُمُّه أيضًا إلا كبعض النساء المصدِّقات للأنبياء المؤمناتِ بهم، [وصِدِّيقة أي بَرَّة تقية صَدَقت في أعمالها وأقوالها وأحوالها]، ثم أبعدهما عما نُسب إليهما بقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ لأن من

---

(١) المعنى أن الله يغفر لمن تاب من هؤلاء ولغيرهم من التائبين.

﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ﴾

احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم [وما يتبع الهضم] لم يكن إلا جسمًا مركبًا من لحم وعظم وعروق وأعصابٍ وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ الأدلةَ الظاهرة على بطلان قولهم ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمُّله بعد هذا البيان، وهذا تعجيب[1] من الله تعالى في ذهابهم عن الفَرقِ بين الرب والمربوب.

٧٦- ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ هو عيسى عليه السلام، أي شيئًا لا يستطيع أن يضرَّكم بمثل ما يضرُّكم به الله من البلاء والمصائب في الأنفس والأموال، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به [الله] من صحة الأبدان والسَّعةِ والخِصب، لأن كُلَّ ما يستطيعه البشر من المَضارِّ والمنافع فبتخليقه تعالى، فكأنه لا يملك منه شيئًا، وهذا دليل قاطع على أن أمره منافٍ للربوبية، حيث جَعلَه لا يستطيع ضرًّا ولا نفعًا، وصفة الرب أن يكون قادرًا على كل شيء لا يخرج مَقدورٌ عن قدرته ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ أتشركون بالله ولا تخشَونه وهو الذي يسمع ما تقولونه ويعلم ما تعتقدونه.

٧٧- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الغلوُّ مجاوزةُ الحَدِّ، فغلوُّ النصارى رفعُه فوقَ قدره باستحقاق الألوهية، وغلوّ اليهود وَضعُه عن استحقاق النبوة ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ يعني غُلوًّا باطلًا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ

---

(١) معناه يُعَجِّبُ خلقه، أما الله تعالى فهو منزه عن التعجب، معناه اعْجَبوا بأُناسٍ هذه صفتهم.

﴿قَوۡمٍ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧ لُعِنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ
وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ
يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾

قَوۡمٍ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ أي أسلافكم وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل مَبعث النبي ﷺ ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ ممن تابَعهم ﴿وَضَلُّواْ﴾ لما بُعِثَ رسولُ الله ﷺ ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ حين كذبوه وحسدوه وبَغوا عليه.

٧٨- ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ قيل: إن أَهلَ أَيلَةَ لما اعتدَوا في السبت، قال داود: اللهم العنهم واجعلهم ءاية؛ فمُسخوا قردةً، ولمَّا كَفرَ أصحابُ عيسى بعد المائدة قال عيسى: اللهم عَذِّب مَن كفر بعدما أكل من المائدة عذابًا لم تُعذِّبْه أحدًا من العالمين، والعنهم كما لعنتَ أصحابَ السبت، فأصبحوا خنازير، وكانوا خمسةَ ءالاف رجلٍ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾ ذلك اللعن بعصيانهم واعتدائهم، ثم فسَّر المعصية والاعتداء بقوله:

٧٩- ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ﴾ لا يَنهى بعضُهم بعضًا ﴿عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ عن قبيحٍ فَعلوه ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ فيه دليل على أن ترك النهي عن المنكر من العظائم، فيا حسرةً على المسلمين في إعراضهم[(١)] عنه.

٨٠- ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ هم منافقو أهل الكتاب، كانوا يُوالُون المشركين [من عبدةِ الأوثان] ويُصَافونَهم

---

(١) يعني منذ ظهرت المنكرات وتُرك التناهي.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوْ
كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
فَٰسِقُونَ ۝٨١ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ
أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لبئس شيئًا قدَّموه لأنفسهم سَخَطُ الله عليهم ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝٨٠﴾ أي في جهنم.

٨١- ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إيمانًا خالصًا بلا نفاقٍ ﴿وَٱلنَّبِىِّ﴾ محمدٍ ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ يعنى القرءان ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أن موالاةَ المشركين تدلُّ على نفاقهم ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨١﴾ مستمرُّون في كفرهم ونفاقهم.

٨٢- ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ وصفَ اليهودَ بشدة الشَّكيمَةِ(١)، والنصارى بلِينِ العريكة(٢)، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين، ونبَّه على تقدُّم قَدَمِهم فيها بتقديمهم على المشركين [ومعناه أن الغالب من حال اليهود القساوةُ والإصرارُ على ما هم عليه من الطغيان والعتو، وكذلك المشركون فيهم الأَنفة وحميَّة الجاهلية والنفوس الأبيَّة، فهم في الإجابة كاليهود، وحرَّض المؤمنين على دعوة النصارى فهم ألين وأقرب والطمع في

---

(١) الشكيمة في اللجام: الحديدة المعترضة في فم الفرس، ويقال من المجاز فلان شديد الشكيمة أي شديد النفس أَنِفٌ أبيٌّ لا ينقاد، ويستعمل في الخير أي شديد صلب في دينه وفي الحق لا ينحرف عنه، ويقال في الباطل كهؤلاء اليهود فوصفهم بشدة التصلب في الكفر والضلال وعدم الميل والانصياع للحق المشاهَد الواضح.

(٢) العريكةُ: الطبيعة، ويقال: فلان لَيّن العريكة إذا كان سَلِسًا مطواعًا منقادًا قليل الخلاف والنفور، ومراده أنه كان هذا حالهم في ذلك الزمن.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

انقيادهم للإسلام أقوى] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ علماء وعبادًا[1] ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ عَلَّل سهولة مأخذ النصارى وقرب مَودّتهم للمؤمنين بأن منهم قسيسين ورهبانًا، وأن فيهم تواضعًا واستكانةً[2]، واليهودُ على خلاف ذلك.

٨٣- ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ وصفَهم برِقّة القلوب وأنهم يبكونَ عند استماع القرءان، كما رُوِي عن النجاشي أنه قال لجعفرِ بنِ أبي طالب حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون وهم يُغرونه عليهم: هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر: فيه سورة تُنسب إلى مريم، فقرأها إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة مريم] وقرأ سورة طه إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾﴾ [سورة طه] فبكى النجاشي؛ وكذلك فَعلَ قومُه الذين وَفَدُوا على رسول الله ﷺ وهم سبعون رجلًا حين قرأ عليهم سورة يس فبكَوا ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ تمتلئُ من الدمع حتى تَفيضَ، ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ عرفوا بعض الحق فأبكاهم فكيف إذا عرفوا كله وقرؤوا القرءان وأحاطوا بالسُّنة[3] ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بمحمد ﷺ والمراد إنشاءُ الإيمان والدخولُ فيه ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ مع أمة محمدٍ عليه الصلاة والسلام الذين هم شهداءُ على سائر الأمم يوم القيامة ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة البقرة]،

---

(١) أي: متجردون للعبادة على طريقتهم، ولو كانت منحرفة عن دين عيسى الإسلام.
(٢) استكانَة: خضوعًا وذُلًّا.
(٣) هذا في ذلك الزمن، لأن مَلِكَهم كان متواضعًا، فساروا سيرته.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

وقالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك.

٨٤- ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ إنكارٌ واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام موجَبِهِ، وهو الطمَعُ في إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين ﴿وَمَا جَآءَنَا﴾ وبما جاءنا ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني محمدًا عليه السلام والقرءان ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجنةَ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ الأنبياءِ والمؤمنين.

٨٥- ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟﴾ أي بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾، وتصديقِهم لذلك ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ وفيه دليل على أن الإقرار داخل في الإيمان.

٨٦- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ هذا أَثر الرد في حق الأعداء، والأول أَثرُ القَبول للأولياء.

ونزل في جماعة من الصحابة رضي الله عنهم حَلَفوا أن يترهَّبوا[١] ويلبَسوا المُسوح ويقوموا الليل ويصوموا النهار ويسيحوا في الأرض[٢] ولا يأكلوا اللحم والوَدَكَ[٣] ولا يقربوا النساء والطيب:

---

(١) أي: أن ينقطعوا للعبادة، بعض الصحابة أرادوا أَلَّا يتزوجوا وأن يلبسوا المُسوح أي شعر البهائم، الرهبان الذين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام كان فيهم أولياء، أولئك انقطعوا إلى عبادة الله، تركوا المساكن وبنوا الصوامع في الغابات ورؤوس الجبال ومكثوا فيها لعبادة الله، كان فيهم أولياء، هؤلاء الصحابة أرادوا أن يترهَّبوا للعبادة مثل أولئك المسلمين.

(٢) أي: أن يتجولوا في البراري، بعضهم ما كانوا يلتزمون مكانًا واحدًا إنما يسيحون، وحيثما أدركهم الليل ينزلون، إن كانوا في برية أو مسجد أو فلاة يبيتون ليلتهم هناك.

(٣) الوَدَكُ: دسم اللحم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾

٨٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ ما طابَ وَلَذَّ من الحلال، ومعنى ﴿لَا تُحَرِّمُواْ﴾: لا تمنعوها أنفسَكم كمنع التحريم[(١)] ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ ولا تجاوزوا الحَدَّ الذي حُدَّ عليكم في تحليلٍ أو تحريم، أو ولا تَتَعَدَّوا حدود ما أُحل لكم إلى ما حُرِّم عليكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ حدودَه.

٨٨- ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ ﴿٨٨﴾﴾ [لا يُراد به هنا الترغيب بأكل المستلذات من الحلال وإنما بيان حكمه أنه يجوز] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ لأن الإيمان به يوجب التقوى فيما أَمر به ونهى.

٨٩- ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ اللغو في اليمين: الساقطُ الذي لا يتعلقُ به حكمٌ، وهو أن يحلفَ على شيءٍ يرى أنه كذلك وليس كما ظَنَّ، وكانوا حَلفوا على تحريم الطيبات على ظَنِّ أنه قُربَةٌ، فلما نزلت تلك الآية قالوا: فكيف أيمانُنا؟ فنزلت. وعند الشافعي رحمه الله: ما يجري على اللسان بلا قصدٍ[(٢)] ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ بتعقيدكم الأَيمانَ، وهو توثيقها. والعقدُ: العزمُ على الوفاء، وذا لا يُتصوَّر في الماضي، فلا كفارة في الغَمُوس، وعند الشافعي رحمه الله [العقدُ]: القصد بالقلب ويمينُ الغَمُوس مقصودةٌ فكانت معقودة، فكانت الكفارة فيها مشروعة، والمعنى: ولكن

---

(١) لا تقطعوا أنفسكم عنها مع اعتقاد التحريم، الطيبات في القرءان ورد بمعنيين: أحدهما المستلذات والثاني الحلال. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ ﴿٥١﴾﴾ [سورة المؤمنون] معناه هنا الحلال، ليس المستلذات.

(٢) لغو اليمين في مذهب الشافعي ما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف، وهو قول الرجل: لا والله وبَلَى والله من غير قصد لليمين.

﴿فَكَفَّارَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾

يؤاخذكم إذا عقدتم ثم حَنِثتم ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ فكفارة نكثِهِ ﴿إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ هو أن يُغدِّيَهم ويُعَشِّيَهم، ويجوز أن يُعطيَهم بطريق التمليك، وهو لكل واحد نصفُ صاع من بُرٍّ[(١)] أو صاعٌ من شعير أو صاعٌ من تمر، وعند الشافعي رحمه الله مُدٌّ لكل مسكينٍ ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾ غَدَاءً وعَشاءً من بُر، إذ الأوسَعُ ثلاثُ[(٢)] مراتٍ مع الإدام، والأدنى مرةٌ من تمرٍ أو شعير ﴿أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ﴾ وهو ثوبٌ يغطي العورة ﴿أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾ مؤمنةٍ أو كافرةٍ لإطلاق النص، وشَرَطَ الشافعيُّ رحمه الله الإيمانَ حملًا للمطلق على المقيّد[(٣)] في كفارة القتل، ومعنى ﴿أَوۡ﴾ التخييرُ وإيجابُ إحدى الكفارات الثلاث ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ إحداها ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ﴾ متتابعةٍ[(٤)] ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ وحنِثتم ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ فبَرُّوا فيها ولا تحنَثوا إذا لم يكن الحِنث خيرًا، أو ولا تحلفوا أصلًا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أعلامَ شريعته وأحكامَه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩﴾ نعمتَه فيما يُعلِّمكم ويسهِّلُ عليكم المخرجَ منه.

٩٠- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ القمارُ ﴿وَٱلۡأَنصَابُ﴾ الأَصنامُ لأنها تُنصَبُ فتُعبد ﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ وهي القِداح التي مَرَّت ﴿رِجۡسٞ﴾ نجسٌ أو خبيث مستقذر ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ لأنه يَحمِلُ عليه فكأنه عَمَلُه ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾

---

(١) هذا عند الحنفية.
(٢) أي: الأوسع أن يطعموا ثلاث مرات في اليوم مع الإدام.
(٣) عند الشافعي شرطها أن تكون مؤمنةً في الكفارة، أما في غير الكفارة يجوز إعتاق الرقيق الكافر.
(٤) هذا أيضًا عند الحنفية، وأما الشافعي فلم يشترط التتابع.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ
وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن
تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ
فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحًا كان الارتكاب خسارًا.

٩١- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ﴾ ذكَرَ ما يَتولَّدُ منهما من الوَبالِ وهو وقوع التعادي والتباغض بين أصحاب الخمر والقمار وما يؤديان إليه من الصَّدّ عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلاة، وخَصَّ الصلاة من بين الذكر لزيادة درجتها ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ مِن أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: أم أنتم كأن لم تُوعظوا ولم تُزجروا.

٩٢- ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ﴾ وكونوا حذرين خاشعين، لأنهم إذا حَذِروا دعاهم الحذرُ إلى اتقاء كلِّ سيئة وعَمَلِ كل حسنة ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ذلك ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ فاعلموا أنكم لم تضرُّوا بتولِّيكم الرسولَ، لأنه ما كُلِّفَ إلا البلاغَ المبين بالآيات، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كُلِّفتموه.

ونزل فيمن تعاطى شيئًا من الخمر والميسر قبل التحريم:

٩٣- ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ أي شربوا من الخمر وأكلوا من مال القمار قبل [نزول] تحريمهما ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ الشركَ ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ بالله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بعد الإيمان ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ الخمرَ والميسِرَ بعد التحريم ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ بتحريمهما ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ سائرَ المحرمات ﴿وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ﴾ إلى الناس ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾

ولما ابتلاهم اللهُ بالصيد عامَ الحُدَيبية وهم مُحْرِمون، وكَثُرَ عندَهم حتى كان يغشاهم في رحالهم فيستمكنونَ من صَيدِهِ أخذًا بأيديهم وطعنًا برماحهم، نزل:

٩٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾ ومعنى يبلو: يَختَبِرُ، وهو من الله لإظهار ما عَلِمَ من العبد على ما عَلِمَ لا لعِلْم ما لم يَعلَم، و﴿مِّنَ﴾ للتبعيض إذ لا يَحرُمُ كلُّ صيد ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ [ليتميَّز الخائف من عقابه - وهو غائب منتظَرٌ - لقوة إيمانه ممن لا يخافه لضعف قلبه وقلة إيمانه، فذكَرَ العلمَ وأراد وقوعَ المعلوم وظهورَه إذ قد علمَ الله تعالى ذلك في الأزل] ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ﴾ فصادَ ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ الابتلاء ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾﴾، قَلَّلَ في قوله: ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ ليُعلَمَ أنه ليس من الفِتَن العظام.

٩٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ﴾ المَصيدَ ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾ مُحرِمون ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا﴾ ذاكرًا لإحرامه، أو عالمًا أن ما يقتله مما يَحرُم قتلُه عليه، فإن قتله ناسيًا لإحرامه، أو رمى صيدًا وهو يظن أنه ليس بصيدٍ فهو مخطئ ﴿فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ فعليه جزاءٌ يُماثل ما قَتلَ من الصيد وهو قيمة الصيد يُقَوَّمُ حيث صِيدَ، فإن بلغت قيمتُه ثَمَنَ هَدْي خُيِّر بين أن يُهدِيَ من النَّعم ما قيمتُه قيمةُ الصيد وبين أن يشتريَ بقيمته طعامًا فيعطي كلَّ مسكينٍ نصفَ صاع من بُرٍّ أو صاعًا من غيره، وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يومًا. وعند محمد والشافعي رحمهما الله تعالى: مثلُه نظيرُه من النَّعَم ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ﴾ بمثل ما قَتَلَ ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ حكمان عادلان من المسلمين ﴿هَدۡيَۢا﴾ يحكم به في حال الهدي ﴿بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ معنى بلوغِهِ الكعبةَ أن يُذبح بالحَرَم، فأما التصدُّق به

﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾

فحيث شئت، وعند الشافعي رحمه الله في الحرم ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ أي هي طعام [مساكين] ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الطعام ﴿صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ﴾ فعليه أن يجازيَ أو يكفِّرَ ليذوقَ سوء عقاب عاقبة هَتْكِه لحُرمة الإحرام، والوبال: المكروه والضرر الذي يناله في العاقبة مَن عَمَلِ سوء لثِقَلِه عليه ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ﴾ لكم من الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل الصيد بعد التحريم ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ﴾ بالجزاء ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ بإلزام الأَحكام ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ لمن جاوزَ حدودَ الإسلام.

٩٦- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ مَصِيداتُ البحر مما يؤكل ومما لا يؤكل ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ وما يُطْعَمُ من صيده، والمعنى: أُحِلَّ لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر، وأُحِلَّ لكم أكلُ المأكول منه وهو السمك وحده(١) ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ أُحِلَّ لكم تمتيعًا لكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ﴾ وللمسافرين ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ ما صِيدَ فيه وهو ما يُفَرِّخُ فيه، وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات، كالبط فإنه بري، لأنه يتولد في البَرِّ، والبحرُ له مَرعًى ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ﴾ مُحرمين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الاصطياد في الحَرَم أو في الإحرام ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ تُبعثون فيجزيكم على أعمالكم.

٩٧- ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ انتعاشًا لهم في أمر دينهم ونهوضًا إلى أغراضهم في معاشهم ومعادهم، لِما يَتِمُّ لهم من أمر حَجِّهم وعمرتهم وتجارتهم وأنواعِ منافعهم ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ والشهر

---

(١) هذا عند الحنفية.

﴿وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ
شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا
ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ
ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

الذي يؤدَّى فيه الحج، وهو ذو الحجة لأن في اختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسِم الحج فيه شأنًا قد علمه الله ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾ ما يُهدَى إلى مكة ﴿وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾ والمُقَلَّدَ منه خصوصًا وهو البُدْنُ، فالثواب فيه أكثر، وبهاءُ الحج معه أظهر ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جَعْلِ الكعبة قيامًا ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ أي لتعلموا أن الله يعلَمُ مصالحَ ما في السمٰوات وما في الأرض، وكيف لا يَعلَمُ وهو بكل شيء عليم.

٩٨- ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن استخفَّ بالحَرَم والإحرام ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لآثام من عَظَّمَ المشاعرَ العِظام ﴿رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾﴾ بالجاني الملتجئ إلى البلد الحرام.

٩٩- ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ تشديدٌ في إيجاب القيام بما أُمر به، وأن الرسولَ قد فَرَغَ مما وجَبَ عليه من التبليغ، وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة، فلا عُذرَ لكم في التفريط ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ فلا يخفى عليه نفاقكم وَوِفاقكم.

١٠٠- ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ لما أخبر أنه يعلم ما يُبدون وما يكتمون، ذكر أنه لا يستوي خبيثهم وطيبهم، بل يُمَيِّزُ بينهما، فيعاقِبُ الخبيثَ أي الكافر، ويُثيبُ الطيبَ أي المسلم ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وءاثِروا الطيبَ وإن قلَّ على الخبيث وإن كَثُر ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي العقولِ الخالصة ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

كانوا يسألون النبي ﷺ عن أشياء امتحانًا فنزل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ
ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ
أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

١٠١- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ أي إن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي، وهو ما دام الرسولُ بين أظهركم تُبْدَ لكم تلك التكاليف التي تسوؤكم، أي تَغُمُّكم وتَشقُّ عليكم، وتؤمرون بتحمُّلها فتُعرِّضون أنفسَكم لغضب الله بالتفريط فيها ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ عفا الله عما سَلَفَ من مسألتكم فلا تعودوا إلى مثلها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾﴾ لا يعاقبكم إلا بعدَ الإنذار.

١٠٢- ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ من الأولين ﴿ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا﴾ صاروا بسببها ﴿كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ كما عُرِفَ في بني إسرائيل.

١٠٣- ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ كان أهل الجاهلية إذا نُتِجَت الناقة خمسةَ أبطنٍ ءاخِرُها ذكرٌ بَحَروا أُذنها أي شَقُّوها، وامتنعوا عن ركوبها وذبحها، ولا تُطردُ عن ماء ولا مرعى، واسمها البَحِيرَة، وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفري أو بَرِئْتُ من مرضي فناقتي سائبةٌ، وجَعَلَها كالبَحيرة في تحريم الانتفاع بها، وكانت الشاة إذا وَلَدت سبعةَ أَبطُن فإن كان السابعُ ذكرًا أكلَه الرِّجالُ، وإن كان أنثى أُرسلت في الغنم وكذا إن كان ذكرًا وأنثى، وقالوا: وصَلَت أخاها، فالوصيلة بمعنى الواصلة، وإذا نُتِجَت من صُلب الفحل عشرةَ أَبطُنٍ قالوا: قد حَمَى ظهرَه فلا يُركَبُ ولا يُحمل عليه ولا يُمنع من ماءٍ ولا مرعى، ومعنى ﴿مَا جَعَلَ﴾: ما شَرَعَ ذلك ولا أَمر به ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بتحريمهم ما حَرَّموا ﴿يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ في نِسبَتِهم هذا التحريمَ إليه ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أن الله لم يُحَرِّم ذلك، وهم عوامُّهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ﴾

١٠٤- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ هَلُموا إلى حكم الله ورسوله بأن هذه الأشياءَ غيرُ محرمةٍ ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ كافينا ذلك ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أَحَسْبُهم ذلك ولو كان ءاباؤهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ أي الاقتداءُ إنما يصح بالعالِم المهتدِي، وإنما يُعرف اهتداؤه بالحُجة.

١٠٥- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ﴾ الزموا إصلاحَ أنفسِكم ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾ كان المؤمنون تذهب أَنفسُهم حَسرةً على أهل العناد من الكفرة يتمنَّون دخولَهم في الإسلام فقيل لهم: عليكم أنفسَكم وما كُلِّفتم من إصلاحها، لا يضرُّكم الضُّلَّال عن دينكم إذا كنتم مهتدين، وليس المراد تركَ الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر، فإنَّ تركَهما مع القدرة عليهما لا يجوز ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ رجوعكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ ثم يَجزيكم على أعمالكم.

رُوِي أنه خرج بُدَيْلٌ[1] مولى عمرو بن العاص، وكان من المهاجرين مع عَدِيّ وتميمٍ وكانا نصرانيين إلى الشام، فمرض بديلٌ وكتب كتابًا فيه ما معه وطرحَه في مَتاعه ولم يخبر به صاحبيه وأَوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أَهله ومات، ففتَّشا متاعه فأخذا إناءً من فضةٍ فأصاب أهلُ بديلٍ الصحيفةَ فطالبوهما بالإناء فجَحَدا، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزل:

١٠٦- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ﴾ أي فيما فُرِضَ عليكم أن يشهدَ اثنان، وحضور الموت

---

(١) اختلف في ضبطه وصحح بعضهم أن اسمه بُزَيل بموحدة وزاي.

﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْأَثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾

ظهور أمارات بلوغ الأجل ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ من أقاربكم لأنهم أعلم بأحوال الميت ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من الأجانب ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سافرتم فيها ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا﴾ تَقِفُونهما للحَلِفِ ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ من بعد صلاة العصر لأنه وقتُ اجتماع الناس. وفي حديث بديلٍ أنها لما نزلت صلى رسولُ الله ﷺ صلاةَ العصر ودعا بعَدِيٍّ وتميم فاستحلَفَهما عند المنبر فحَلَفا، ثم وُجِدَ الإناءُ بمكة فقالوا: إنا اشتريناه من تميم وعدي ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ فيحلفان به ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ شككتم في أمانتهما، والتقدير: إن ارتبتم في شأنهما فحلِّفوهما ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ﴾ بالله ﴿ثَمَنًا﴾ عوضًا من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقسَمُ له ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي لا نَحلِفُ بالله كاذبين لأَجل المال ولو كان مَن نُقسم له قريبًا منّا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي الشهادةَ التي أَمرَ اللهُ بحفظها وتعظيمها ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إن كتمنا ﴿لَّمِنَ ٱلْأَثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

١٠٧- ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ فإن اطُّلع ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ فِعلًا ما أَوجَبَ إثمًا واستوجبا أن يقال إنهما لَمِنَ الآثمين ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ فشاهدان ءاخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي من الذين استحق عليهم الإثم، ومعناه منَ الذين جُنِيَ عليهم، وهم أهل الميت وعشيرتُه؛ وفي قصة بديلٍ أنه لما ظهرت خِيانةُ الرجلين حَلفَ رجلان من ورثَتهِ أنه إناء صاحِبهما، وأن شهادتهما أَحَقُّ من شهادتهما ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ الأَحَقَّان بالشهادة لقرابتهما أو معرفتهما ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ لَيَمينُنا أَحقُّ بالقَبول من يمين هذين

﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن
تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ
ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى
ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى
ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾

الوَصِيين الخائنين ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ وما تجاوزنا الحَقَّ في يميننا ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ إن حلفنا كاذبين.

١٠٨- ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي مَرّ ذكره من بيان الحكم ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أَقربُ ﴿أَن يَأْتُوا۟﴾ أي الشهداءُ على نحو تلك الحادثة ﴿بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ كما حملوها بلا خيانةٍ فيها ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ﴾ أي تكرر أَيمانُ شهودٍ ءاخرين بعد أيمانهم فيفتضحوا بظهور كذبهم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الخيانة واليمين الكاذبة ﴿وَٱسْمَعُوا۟ ۗ﴾ سَمْعَ قبولٍ وإجابةٍ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ الخارجين عن الطاعة.

١٠٩- ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ﴾ ما الذي أجابتكم به أُمَمُكم حين دعوتموهم إلى الإيمان؟ وهذا السؤال توبيخٌ لمن أنكرهم ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ﴾ بإخلاصِ قومنا، دليله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ أو بما أَحدثوا بعدَنا، دليله: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة المائدة] أو قالوا ذلك تأدبًا، أي عِلمنا ساقط مع علمك ومَغمورٌ به فكأنه لا عِلمَ لنا.

١١٠- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حيث طهرتُها واصطفيتُها على نساء العالمين ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ قويتُك ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بجبريلَ عليه السلام، أُيّدَ به لتثبُتَ الحجة عليهم ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ تكلمهم طِفلًا إعجازًا ﴿وَكَهْلًا ۖ﴾ تبليغًا ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الخَطَّ ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الكلامَ المحكَمَ الصَّوابَ

﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ
وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾ وَإِذۡ
أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذۡ
قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾

﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ﴾ تُقدِّرُ [وتُصوِّر] ﴿مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ هيئةً مثلَ هيئةِ الطير ﴿بِإِذۡنِي﴾ بتسهيلي ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ﴾ [بتخليقي] ﴿وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ من القبور أحياءً ﴿بِإِذۡنِيۖ﴾ قيل: أخرج سامَ بنَ نوحٍ ورجلين وامرأةً وجارية ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ أي اليهودَ حين هَمُّوا بقتله ﴿إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [بالمعجزات الدالة على نبوتك] ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [الجاحدون من بني إسرائيل] ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾﴾ [ما الذي أتيتَ به إلا سحر ظاهر].

١١١- ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ﴾ أَلهمتُ ﴿إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الخواصّ ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي اشهد بأننا مُخلصون.

١١٢- ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هل يفعلُ، أو هل يُطيعك ربك إن سألته، فاستطاع وأطاع بمعنًى، كاستجاب وأجابَ [والمعنى: هل يستجيب لك ربك لو طلبتَ منه ذلك؟ أو هل تقدرُ أن تسأل ربك؟ على الإضمار، أو هل تستدعي إجابةَ ربك؟ ولم يكن هذا شكًّا منهم في قدرة عيسى على السؤال، أو شكًّا في قدرة الله تعالى على الإعطاء، ولكنه تلطُّفٌ في السؤال والرجاء كقولك لآخر: أتستطيع أن تقضي حاجتي؟ أو: يستطيع فلان أن يقضي حاجتي بشفاعتك؟] ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ هي الخِوان[1] إذا

(١) الخِوان: الشيء الذي يؤكل عليه، وهو معرَّب، فإن كان عليه طعام فهو مائدة.

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ
أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا
مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ
ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

كان عليه الطعام ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في اقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ إذ الإيمان يوجب التقوى.

١١٣- ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا﴾ تبركًا ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ ونزداد يقينًا كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ ﴿٢٦٠﴾﴾ [سورة البقرة] ﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾ أي نَعلمَ صِدقَكَ عيانًا كما عَلِمْناهُ استدلالًا ﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ بما عايَنَّا لِمَن بعدَنا.

ولما كان السؤال لزيادة العلم لا للتعنُّت

١١٤- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ نداء ثانٍ ﴿أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ العيدُ: السرور العائد، معناه: تكون لنا سرورًا وفرحًا ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ يأكل منها ءاخر الناس كما يأكل أولهم ﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾ على صحة نبوتي ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ وأعطنا ما سألناك وأنت خير المُعطين.

١١٥- ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ وَعَدَ الإنزالَ وشرطَ عليهم شرطًا بقوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ﴾ بعدَ إنزالها ﴿مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾ تعذيبًا ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ نزلت مائدةٌ منكوسَةٌ تطير بها الملائكة، عليها كلُّ طعام إلا اللحم، وقيل: كانوا يجدون عليها ما شاؤوا، وقيل: كانت تنزل حيث كانوا بكرةً وعشيًّا(١).

---

(١) أي: أول النهار وآخره.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾

١١٦- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الجمهور على أن هذا السؤالَ يكون في يوم القيامة، [وليس هذا السؤال سؤالَ استخبار واستفهام، لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنه لم يقل لهم ذلك، ولكنه سؤال توبيخ وتبكيت وتخويف لمن ادَّعى أن عيسى عليه السلام هو الذي أمرهم بذلك] ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ من أن يكون لك شريكٌ ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ ما ينبغي لي ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أن أقول قولًا لا يَحِقُّ لي أن أقولَه ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ ولو قلتُه لعلمتَه لأنك ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ ذاتي ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ذاتك، والمعنى: تعلم معلومي ولا أعلم معلومَك ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ لأن ما يَعلَمُ علامُ الغيوب لا ينتهي إليه عِلمُ أحدٍ.

١١٧- ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ ما أَمرتُهم إلا بما أمرتني به، ثم فسَّر ما أُمرَ به فقال: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رقيبًا ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ مُدَّةَ كوني فيهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [فلما رفعتني إلى السماء(١)] ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ الحفيظ ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ من قولي وفعلي وقولِهم وفِعلِهم.

---

(١) قال القرطبي في تفسيره: قال الحسن: الوفاة في كتاب الله على ثلاثة أوجه، وفاةُ الموت وذلك كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الزمر]، يعني وقت انقضاء أجلها، ووفاة النوم، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الأنعام]، يعني الذي يُنيمكم، ووفاة الرفع، قال الله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة ءال عمران].

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

١١٨- ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ عَلِمَ عيسى عليه السلام أن منهم مَن ءامَنَ ومنهم من أقامَ على الكفر، فقال: إن تُعذِّبْ من كفر منهم فإنهم عبادُك الذين عَلِمْتَهم جاحدين لآياتك مكذبين لأنبيائك وأنت العادل في ذلك، فإنهم قد كفروا بعد وجوب الحُجة عليهم، وإن تغفر لهم أي لمن أَقلعَ منهم وءامن فذلك تفضُّلٌ منك، وأنت عزيز لا يمتنع عليك ما تريد حكيم في ذلك.

١١٩- ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ﴾ أي هذا يومٌ ينفع الصادقين فيه صدقُهم ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالسعي المشكور ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ﴾ بالجَزاء المَوْفور ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ لأنه باقٍ بخلاف الفوز في الدنيا فهو غير باقٍ.

١٢٠- ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ عظَّم نفسَه عما قالت النصارى إنّ معه إلـٰهًا ءاخر ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ مِنَ المَنع والإعطاء والإيجاد والإفناء، نسأل الله أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله تفسير سورة الأنعام

سورة الأنعام مكية
وهى مائة وخمس وستون ءاية كوفي
أربع وستون بصرى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاًۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ - ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ الحمد له [تعالى ثابت على أفعاله كلها، ونعمه كلها] وإن لم تحمدوه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [بغير عمد من تحتها ولا عِلاقة من فوقها] ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ بمعنى أحدث وأنشأ، [أي خلق ذلك كله] ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بعد هذا البيان ﴿بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾﴾ على معنى أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه.

٢ - ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ ابتدأ خلق أصلكم - يعني ءادم - منه ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاًۖ﴾ أي حكم أجلَ الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ أجلُ القيامة ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ استبعاد أن يمتروا [بمعنى أن يَشُكُّوا] فيه بعدما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم.

٣ - ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وهو المعبود فيهما، [أو المستحِقُّ للعبادة فيهما وحدَه] ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ
فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ
فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

من الخير والشر، ويُثيب عليه ويعاقب.

٤- ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي وما يظهر لهم دليلٌ قطُّ من الأدلة التي يجبُ فيها النظر والاعتبار ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ تاركين للنظر لا يلتفتون إليه، لقلة خوفهم وتدبُّرهم في العواقب.

٥- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ إن كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا ﴿بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بما هو أعظمُ ءايةٍ وأكبرُها هو القرءان الذي تُحُدُّوا به فعَجَزوا عنه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ أي أنباء الشىء الذي كانوا به يستهزؤون، وهو القرءان أي أخباره وأحواله وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا، أو يوم القيامة.

٦- ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعني المكذِّبين ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ هو مدة انقضاء أهل كل عصر وهو ثمانون سنة أو سبعون[1] ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ التمكين في البلاد إعطاء المَكِنَة، والمعنى: لم نُعطِ أهلَ مكة نحوَ ما أعطينا عادًا وثمودَ وغيرَهم من البَسطة في الأجسام والسَّعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ كثيرًا ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ من تحت أشجارهم، والمعنى: عاشوا في الخِصب بين الأنهار والثمار وسُقيا الغيث المِدرار ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يُغنِ ذلك عنهم شيئًا ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ بدلًا منهم.

---

(١) وعلى قولِ القرنُ مائةُ سنة كما نقل أبو حيان ذلك في تفسيره عن الجمهور، وقال القرطبي: «وعليه أكثر أصحاب الحديث أن القرن مائة سنة، واحتجوا بأن النبي ﷺ قال لعبد الله بن بسر: «**تعيش قرنًا**» فعاش مائة سنةٍ.

﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ
مُّبِينٞ ٧ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ
مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ
فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾

٧- ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا﴾ مكتوبًا ﴿فِي قِرۡطَاسٖ﴾ في ورقٍ ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ هو للتأكيد ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ تعنتًا وعنادًا للحق بعد ظهوره.

٨- ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ﴾ هلّا ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾ على النبي ﷺ ﴿مَلَكٞۖ﴾ يكلمنا أنه نبي، فقال الله: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ لقُضِيَ أَمرُ هلاكهم ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ لا يُمهلون بعد نزوله طرفة عينٍ، لأنهم إذا شاهدوا مَلَكًا في صورته زَهَقَتْ أرواحُهم من هول ما يشاهدون.

٩- ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا﴾ ولو جعلنا الرسولَ مَلَكًا كما اقترحوا، لأنهم كانوا تارة يقولون: لولا أنزل على محمد ملك، وتارة يقولون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ٢٤﴾ [سورة المؤمنون] و﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ ١٤﴾ [سورة فصلت] ﴿لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾ لأرسلناه في صورة رجلٍ كما كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ في أَعَمِّ الأحوال في صورةِ دِحْيَةَ[1] ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ ولخلطنا وأشكلنا عليهم من أَمرهِ إذ كان سبيلُه كسبيلك يا محمد، فإنهم يقولون إذا رأوا المَلَك في صورة الإنسان: هذا إنسانٌ وليس بملَكٍ.

ثم سَلَّى نبيه على ما أصابه من استهزاء قومه بقوله:

١٠- ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ فأحاط بهم الشيءُ الذي كانوا يستهزؤون به وهو الحَقُّ، حيث أُهلكوا من أجل استهزائهم به.

---

(١) هو دِحْيَةُ بن خليفة الكلبي الصحابي، وكان من أجمل الناس يضرب به المثل في حسن الصورة.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

١١- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ سيروا لأجل النَّظَر ولا تسيروا سيرَ الغافلين.

١٢- ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ﴾ تقرير لهم، أي هو لله، ولا تقدرون أن تضيفوا منه شيئًا إلى غيره ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ﴾ وَعَدَ ذلك وعدًا مؤكدًا وهو مُنجِزُهُ لا محالةَ، ثم أَوعَدَهم على إغفالهم النظرَ وإشراكهم به مَن لا يَقدرُ على خلق شيء بقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فيجازيكم على إشراككم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ في اليوم أو في الجمع ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ باختيارهم الكفر ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

١٣- ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ﴾ ما سكن وتحرك فيهما، فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر كقوله: ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴿٨١﴾﴾ [سورة النحل] أي والبردَ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم فلا يخفى عليه شيء.

١٤- ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ ناصرًا ومعبودًا ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مخترعِهما ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ﴾ وهو يَرزق ولا يُرزق، أي المنافعُ كلها من عنده ولا يجوز عليه الانتفاع ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ﴾ لأن النبي سابقُ أُمتهِ في الإسلام ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ المعنى: أمرت بالإسلام ونُهيت عن الشرك.

١٥- ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ إني أخاف عذابَ يوم عظيم وهو القيامة إن عصيتُ ربي.

﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا
كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ
وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ
لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾

١٦- ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ﴾ العذابُ ﴿يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ﴾ اللهُ الرحمةَ العُظمى وهي النجاة ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ النجاةُ الظاهرة.

١٧- ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ من مرضٍ أو فقرٍ أو غير ذلك من بلاياه ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ فلا قادرَ على كشفه إلا هو ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ من غنى أو صِحةٍ ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ فهو قادر على إدامته وإزالته.

١٨- ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ﴾ الغالب المقتدِرُ ﴿فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ عالٍ عليهم بالقُدرة [ولا يراد به المكان إذ البارئ سبحانه وتعالى منزه عن أن يحُلَّ في جهة ومكان، والعرب تستعمل «فوق» إشارة إلى عُلُوِّ المنزلة، وأبعَدَ من ذهب إلى أنها هنا حقيقة في المكان وزعم أنه تعالى حالٌّ في الجهة التي فوق العالم إذ ذلك يقتضي التجسيم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا] ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في تنفيذ مراده ﴿ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ بأهل القهر من عباده.

١٩- ﴿قُلۡ﴾ [يا محمد للمشركين الذين سألوك من يشهد لك بالنبوة] ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ [في الصدق والصحة، وهو سؤالُ تقرير] ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ أي الله أكبر شهادةً، [أَمَرَهُ بأن يجيب عنه كما يُجابُ عن الأمر المسلَّم ثبوتُه]، والشيء اسم للموجود، والله تعالى موجود، فيكون شيئًا، ولذا نقول: الله تعالى شيء لا كالأشياء ﴿شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ وإذا كان الله شهيدًا بينه وبينهم فأكبر شيء شهادةً شهيدٌ له ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ ومن بلغَهُ القرءانُ إلى قيام الساعة ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾ استفهامُ إنكارٍ وتبكيتٍ ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾ بما تَشهدونَ وكَرَّرَ

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝١٩ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٢٢ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ﴾

﴿قُلْ﴾ توكيدًا ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝١٩﴾ به.

٢٠- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني اليهودَ والنصارى، والكتاب: التوراة والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي رسولَ الله ﷺ بحِليته ونَعتِه الثابت في الكتابين ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ بحِلاهم ونعوتِهم، وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوته، ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾ به.

٢١- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا أَحدَ أَظلَمُ لنفسه، والظُّلمُ: وضعُ الشيء في غير موضعه، وأَشنَعُهُ اتخاذُ المخلوق معبودًا ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ اختَلَقَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيصفُه بما لا يليق به ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ﴾ بالقرءان والمعجزات ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الأمر والشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١﴾ جمعوا بين أمرين باطلين فكَذَبوا على الله ما لا حجةَ عليه وكَذَّبوا بما ثبتَ بالحجة حيث قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، وسَمَّوا القرءانَ والمعجزاتِ سحرًا.

٢٢- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ واذكر يوم نحشرهم ﴿جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ مع اللهِ غيرَهُ توبيخًا ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ ءالهتُكم التي جعلتموها شركاءَ اللهِ ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٢٢﴾ أي تزعمونهم شركاءَ.

٢٣- ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ كفرهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾ ثم لم تكن عاقبةُ كُفرِهم الذي لَزموه أعمارَهم وقاتلوا عليه إلا جحودَه والتبرؤ منه والحلِفَ على الانتفاءِ من التديُّن به.

٢٤- ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ﴾ بقولهم: ما كنا

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ
ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

مشركين، فيختم على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم، [وهو حكاية عن يوم القيامة، ولا إشكال في استعمال لفظ الماضي ﴿كَذَبُوا۟﴾ موضع المستقبل تحقيقًا لوقوعه ولا بد] ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إلٰهيتَه وشفاعتَه(١).

٢٥- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلو القرءان ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطيةً، جمع كِنانٍ وهو الغِطاء ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [لئلا] يفقهوه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثِقَلًا يمنع من السمع ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ المعنى أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك، يقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ما القرءان ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فيجعلونَ كلامَ الله أكاذيبَ، وواحِدُ الأساطير أُسطورة.

٢٦- ﴿وَهُمْ﴾ المشركون ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ يَنهون الناس عن القرءان ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ ويَبعُدون عنه بأنفسهم فيُضِلون ويَضِلون ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ لا يتعدَّاهم الضررُ إلى غيرهم وإن كانوا يظنون أنهم يَضُرون رسولَ الله ﷺ.

٢٧- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ ولو ترى لشاهدت أمرًا عظيمًا ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أُرُوها حتى يعاينوها ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ تَمنَّوا الردَّ إلى الدنيا ليؤمنوا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ واعِدينَ الإيمانَ، ومعناه: إن رُددنا لم نُكذِّب ونكُنْ من المؤمنين.

---

(١) أي: أصنامهم التي كانوا يزعمونها ءالهةً ويرجون شفاعتها.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ
هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ
قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا
سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾

٢٨- ﴿بَلْ﴾ للإضراب عن الوفاء بما تمنَّوا ﴿بَدَا لَهُم﴾ ظهر لهم ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا من قبائحهم وفضائحهم في صُحفهم ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾ إلى الدنيا بعد وُقوفهم على النار [وتمنِّيهم الردَّ] ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ من الكفر ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فيما وَعدوا به [من الإيمان لو رُدُّوا].

٢٩- ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ ولو رُدُّوا لكفروا ولقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [إلى الحشر والجزاء].

٣٠- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ مجاز عن الحَبْسِ للتوبيخ والسؤال ﴿قَالَ﴾ لهم ربهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ البعثُ ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ بالكائن الموجود، وهذا تعيير لهم على التكذيب بالبعث ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ أقروا وأكدوا الإقرارَ باليمين ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بكفركم.

٣١- ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ ببلوغ الآخرة وما يتصل بها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي القيامةُ ﴿بَغْتَةً﴾ فجأةً ﴿قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا﴾ نداءُ تَفَجُّع ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ قَصَّرنا ﴿فِيهَا﴾ في الحياة الدنيا ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ ءاثامَهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾ خُصَّ الظهرُ لأن المعهودَ حملُ الأثقال على الظهور كما عهد الكسب بالأيدي ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ بئس شيئًا يحملونه.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ
إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ
كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ
وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا
فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم﴾

٣٢- ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ [أي الاشتغال بها] ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ جوابٌ لقولهم: إن هي إلا حياتُنا الدنيا، لأنها لا تُعقب منفعة كما تعقب أعمالُ الآخرة المنافع العظيمة ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فيه دليل على أن ما سوى أعمال المتقين لَعِبٌ ولَهْو ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ولمَّا قال أبو جهلٍ: ما نكذبك يا محمد، وإنك عندنا لمُصَدَّق وإنما نكذِّبُ ما جئتنا به نزلَ:

٣٣- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ لا يَنسُبونك إلى الكذب ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فيه دلالة على أنهم ظَلَموا في جحودهم، والمعنى أن تكذيبك أمرٌ راجع إلى الله لأنك رسولُه المصَدَّقُ بالمعجزات فهم لا يكذبونَكَ في الحقيقة وإنما يكذبون اللهَ لأن تكذيبَ الرسول تكذيبُ المرسِلِ.

٣٤- ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ ﴿فَصَبَرُوا۟﴾ والصبر حبس النفس على المكروه ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ لمواعيده ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ بعضُ أنبائهم وقصصِهم وما كابَدوا من مصابرة المشركين.

٣٥- ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ عَظُمَ وشَقَّ ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإسلام ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مَنْفَذًا تنفذُ فيه إلى ما تحتَ الأرض حتى تُطلِعَ لهم ءايةً يؤمنون بها ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم﴾ منها

﴿بِـَٔايَةٍۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ
يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ
قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ
بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ﴾

﴿بِـَٔايَةٍۚ﴾ فافعَلْ، والمعنى أنك لا تستطيع ذلك، والمراد بيانُ حِرصِه على إسلام قومِه وأنه لو استطاعَ أن يأتيَهم بآيةٍ من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاءَ إيمانهم ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ لجعلَهم بحيث يختارون الهدى، ولكن لمَّا عَلِمَ أنهم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمَعَهم على ذلك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ من الذين يجهلون ذلك.

٣٦- ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ إنما يُجيبُ دعاءَك الذين يسمعون دعاءَك بقلوبهم ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ الكفارُ ﴿يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ فحينئذ يَسمعون، وأما قبلَ ذلك فلا.

٣٧- ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ﴾ هلّا أنزل عليه ﴿ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ كما نقترح من جَعْلِ الصفا ذهبًا وتوسيعِ أرض مكة وتفجير الأنهار خلالَها ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ﴾ كما اقترحوا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أن الله قادر على أن يُنزِّل تلك الآية، أو لا يعلمون ما عليهم في الآية من البلاء لو أُنزلت.

٣٨- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ في الخلق والموت والبعث والاحتياج إلى مُدبِّر يُدبر أمرَها ﴿مَّا فَرَّطۡنَا﴾ ما تركنا ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مِن شَيۡءٖۚ﴾ من ذلك لم نكتبْه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ يعني الأُمَمَ كلَّها من الدواب والطيور، فيُنصِفُ بعضَها من بعض.

٣٩- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ﴾ لا يسمعون كلامَ المُنبِّه ﴿وَبُكۡمٞ﴾ لا

﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ
إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠ بَلۡ إِيَّاهُ
تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن
قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن
قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾

يَنطقون بالحق، خابطونَ ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ ظلمةِ الجهل والحَيرة والكفر، غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ من يشأ اللهُ ضلالَه يُضلله ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾ وفيه دلالة خلقِ الأفعال وإرادةِ المعاصي ونفي الأصلح.

٤٠- ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ هل علمتم أن الأمر كما يقال لكم؟ فأخبروني بما عندكم ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ مَنْ تدعون؟ ثم بَكَّتهم بقوله: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ أتخُصُّون ءالهتَكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أَصابكم ضُرٌّ؟! أم تدعون اللهَ دونَها ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠﴾ في أن الأصنامَ ءالهةٌ فادعوها لتخلِّصَكم.

٤١- ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ بل تَخصُّونه بالدعاء ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾ ما تدعونَه إلى كَشْفِه ﴿إِن شَآءَ﴾ إن أراد أن يتفضَّلَ عليكم ﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١﴾ وتتركون ءالهتكم، أو لا تذكرون ءالهتكم في ذلك الوقت إذ هو القادر على كشف الضُّرِّ دون غيره.

٤٢- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ رسلًا فكذبوهم ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالبؤس والضر، والأَولُ القحطُ والجوع، والثاني المرض ونُقصانُ الأَنفُس والأموال ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢﴾ يتذللون ويتخشَّعون لربهم ويتوبون عن ذنوبهم، فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد.

٤٣- ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ هلّا تضرعوا بالتوبة، ومعناه نفي التضرع، كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءَهم بأسُنا، ولكنه جاء بلولا ليفيدَ أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

فلم ينزجروا بما ابتُلوا به ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وصاروا معجبينَ بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

٤٤- ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من البأساء والضراء أي تركوا الاتعاظ به ولم يزجرْهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الصحة والسعة وصنوف النعمة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ من الخير والنعم ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ءايسون متحسرون.

٤٥- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أُهلكوا عن ءاخرهم ولم يُترك منهم أَحدٌ ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ إيذانٌ بوجوب الحمدِ لله عند هلاك الظَّلَمة، وأنه من أَجلِّ النعم وأَجزلِ[1] القِسَمِ.

ثم دل على قدرته وتوحيده بقوله:

٤٦- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ بأَن أَصَمَّكم وأعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فسَلَبَ العقولَ والتمييز ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ بما أُخِذَ وخُتِمَ عليه ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ لهم ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ نكرِّرُها ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ يُعرضون عن الآيات بعد ظهورها، والصُّدوفُ: الإعراض عن الشيء.

٤٧- ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ بأن لم تَظهر أَماراتُه ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بأَن ظهرت أماراته ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ما يُهلَكُ هلاكَ تعذيبٍ وسَخَطٍ إلا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربهم.

---

(١) أَجْزَل: أعظم.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ
يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾

٤٨- ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ بالجِنان والنيران للمؤمنين والكفار، ولم نرسِلْهم ليُقْتَرَحَ عليهم الآياتُ بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة والأدلة الساطعة ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ داومَ على إيمانه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

٤٩- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ جُعل العذاب ماسًّا كأنه حَيٌّ يفعل بهم ما يريد من الآلام ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ بسبب فِسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى بالكفر.

٥٠- ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ قَسْمُهُ بين الخلق وإرزاقُه ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ كأنه قال: لا أقول لكم هذا القولَ ولا هذا القول ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ لا أدّعي ما يُستبعد في العقول أن يكون لبشر من مِلك خزائن الله وعلم الغيب ودعوى المَلَكية، وإنما أدعي ما كان لكثير من البشر وهو النبوة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ ما أُخبركم إلا بما أَنزلَ الله عليّ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مَثَلٌ للضال والمهتدي ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فلا تكونوا ضالين أشباهَ العُميان.

٥١- ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ بما يوحى ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المسلمون المُقِرون بالبعث إلا أنهم مُفرطون في العمل، فينذرهم بما أوحي إليه ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي يخافون أن يُحشروا غيرَ منصورين ولا مشفوعًا لهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ يدخلون في زُمرة أهل التقوى.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾

ولمَّا أمر النبيَّ عليه الصلاة والسلام بإنذار غير المتقين ليتقوا، أُمِرَ بعد ذلك بتقريب المتقين ونُهِيَ عن طردهم بقوله:

٥٢- ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاءَ ربهم أي عبادَته ويواظبون عليها، والمراد بذكر الغَداة والعَشي الدوامُ ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [تعالى، أي رضاه، لا شيئًا من أعراض الدنيا]. نزلت في الفقراء بلالٍ وصُهَيب وعَمَّار وأضرابِهم حين قال رؤساء المشركين: لو طردتَ هؤلاء السُّقَّاطَ[1] لجالسناك، فقال عليه السلام: «**ما أنا بطاردِ المؤمنين**»، فقالوا: اجعل لنا يومًا ولهم يومًا، وطلبوا بذلك كتابًا، فدعا عليًّا رضي الله عنه ليكتب [لهم ذلك طمعًا في إيمانهم]، فقام الفقراء وجلسوا ناحيةً، فنزلت، فرمَى عليه الصلاة والسلام بالصحيفة وأتى الفقراءَ فعانَقهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم، فقال حسابُهم عليهم لازمٌ لهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابَكَ عليك لا يتعدّاك إليهم ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جوابُ النفي، وهو: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم﴾، ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ جواب النهي، وهو: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾[2].

٥٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ومثل ذلك الفَتْنِ العظيم ابتلينا الأغنياءَ بالفقراء ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ أي الأغنياءُ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أنعمَ الله عليهم بالإيمان، ونحن المقدَّمون والرؤساءُ وهم

---

(١) يُريدون الذين هم دون في الحَسَب والنَّسَب.

(٢) أي: لو حصل منك ذلك، أي لا تطردهم فتكونَ من الظالمين لو حصل منك ذلك، ولكنَّ ذلك لم يحصل.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ
رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ
فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ
أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

الفقراء، إنكارًا لأن يكون أمثالُهم على الحق وممنونًا عليهم من بينهم بالخير ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ بمن يشكر نعمتَه.

٥٤- ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ إما أن يكون أمرًا بتبليغ سلامِ الله إليهم وإما أن يكون أمرًا بأن يبدأهم بالسلام إكرامًا لهم وتَطْييبًا لقلوبهم وكذا قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ من جملة ما يقول لهم ليبشرَهم بسَعَة رحمةِ الله وقبولِهِ التوبةَ منهم، ومعناه وعَدَكم بالرحمة وعدًا مؤكدًا ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ ذنبًا ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ جُعِلَ جاهلًا لإيثاره المعصية على الطاعة ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد السوء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أخلصَ توبتَه ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ فشأنه أنه غفور رحيم.

٥٥- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ومثلَ ذلك التفصيل البيّن نُفصِّلُ ءايات القرءان ونلخصُها في صفة أحوال المجرمين، من هو مطبوعٌ على قلبه ومن يرجى إسلامه ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [ولتظهرَ سبيلُ المجرمين فتُجتنبَ].

٥٦- ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ صُرفت وزُجرت بأدلة العقل والسمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ لا أَجرِي في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ إن اتبعت أهواءكم ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ وما أنا من الهدى في شيء، يعني أنكم كذلك.

﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا
لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧ قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ
بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٥٨ ۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ
وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ
ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾

٥٧- ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ إني من معرفة ربي وأنه لا معبودَ سواه على حُجةٍ واضحةٍ ﴿وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ﴾ حيث أشركتُم به غيرَه ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ يعني العذابَ الذي استعجلوه في قولهم: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ٣٢﴾ [سورة الأنفال] ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ في تأخير عذابكم ﴿يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ﴾ [من قَصَّ يَقُصُّ؛ أي: يُخبر بالحق، ولا خُلفَ في وعده ووعيده] ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧﴾ القاضينَ بالقضاءِ الحَق، إذ الفصلُ هو القضاءُ.

٥٨- ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي﴾ في قدرتي وإمكاني ﴿مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾ لأهلكتُكم عاجلًا غضبًا لربي ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٥٨﴾ فهو ينزّلُ عليكم العذابَ في وقت يَعلَمُ أنه أردعُ.

٥٩- ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ ما غاب عن العباد من الثواب والعقاب والآجال والأحوال ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [لا يعلمُ الأشياءَ على حقائقها جملةً وتفصيلًا إلا هو] ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ﴾ من النبات والدواب ﴿وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ من الحيوان والجواهر وغيرهما [يعلم مقاديرَها وظواهرها وبواطنها وما أُودِعَ فيها] ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ يعلم عددَها وأحوالَها قبل السقوط وبعده ﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [في جوف الأرض] ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ وهو اللوح [المحفوظ].

ثم خاطب الكفرة بقوله:

٦٠- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ يقبض أنفُسَكم عن التصرف بالتمام

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾

في المنام ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ كَسَبتم فيه من الآثام ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ ثم يوقظكم في النهار ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لتوفَّى الآجالُ على الاستكمال ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعُكم بالبعث بعد الموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ في ليلكم ونهاركم.

٦١- ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الغالبُ خلقَه العالي عليهم بقدرته] ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكةً حافظين لأعمالكم، وهم الكرام الكاتبون، ليكون ذلك أَزجرَ للعباد عن ارتكاب الفساد إذا تفكروا أن صحائفَهم تُقرأ على رؤوس الأشهاد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ وذلك -[أي: حفظُ الأعمال وكتابتُها]- دأبُ الملائكة مع المكلف مُدَّةَ الحياة إلى أن يأتيَه المماتُ ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ استوفت روحَهُ، وهم مَلَكُ الموت وأَعوانُه ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ لا يتوانَونَ ولا يؤخِّرون.

٦٢- ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى حُكمِه وجزائه ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ مالِكِهم الذي يلي عليهم أُمورهم ﴿الْحَقِّ﴾ العدلِ الذي لا يَحكمُ إلا بالحق ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يومئذٍ لا حُكمَ فيه لغيره ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ لا يَشغَلُه حسابٌ عن حساب، يحاسِبُ جميعَ الخلق في مقدار حَلْبِ شاةٍ.

٦٣- ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ مَجازٌ عن مخاوفِهما وأهوالِهما ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا﴾ معلنين الضَّرَاعةَ ﴿وَخُفْيَةً﴾ مُسِرّين في أنفسكم ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ خلَّصنا ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الظلمات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ لله تعالى.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ
عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ
نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ
نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى
حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾

٦٤- ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ من الظلمات ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ غَمٍّ وحزنٍ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ولا تشكرون.

٦٥- ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ هو الذي عرفتموه قادرًا، أو هو الكامل القدرة ﴿عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كما أَمطرَ على قوم لوطٍ وعلى أصحاب الفيل الحجارة ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما أغرقَ فرعونَ وخَسَفَ بقارونَ ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ يَخلِطَكم فِرَقًا مختلفين على أهواءٍ شتى، كل فرقةٍ منكم مشايعةٌ لإمامٍ، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بأن يقتلَ بعضُكم بعضًا، والبأس: السيفُ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ بالوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [بطلان ما هم عليه من الشرك والمعاصي].

٦٦- ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ بالقرءان ﴿قَوْمُكَ﴾ قريش ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الصدق ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ بحفيظٍ وُكّل إليّ أمركم إنما أنا منذر.

٦٧- ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ يعني أنَّ إنباءَهم بأنهم يعذبون وإيعادَهم به له ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ وقتُ استقرار وحصولٍ لا بد منه ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ تهديد.

٦٨- ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي القرءان، يعني يخوضون في الاستهزاء بها والطعن فيها، وكانت قريش في أَنديتهم يفعلون ذلك ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تجالسهم، ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ غيرِ القرءانِ مما يَحِلُّ، فحينئذ يجوز أن تجالسَهم ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ما نُهيت عنه ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ بعد أن تذكرَ النهيَ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [يعني المشركين].

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ﴾

٦٩- ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ من حساب هؤلاء الذين يخوضون في القرءان تكذيبًا واستهزاءً ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي وما يلزَمُ المتقين الذين يجالسونهم شيءٌ مما يحاسَبون عليه من ذنوبهم ﴿وَلَٰكِن﴾ عليهم أن يُذكِّروهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ إذا سمعوهم يخوضون بالقيام عنهم وإظهارِ الكراهة لهم وموعظتِهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ لعلهم يجتنبون الخوض حياءً أو كراهةً لمَساءتِهم.

٧٠- ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ﴾ الذي كُلِّفوه ودُعوا إليه وهو دين الإسلام ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ حيث سَخِروا به واستهزؤوا. ومعنى ذرهم: أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ وَعِظْ بالقرءان ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [لئلا] تُسْلَم نَفْسٌ إلى الهَلَكة والعذابِ وتُرتَهَنَ بسوء كَسْبِها ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ﴾ ينصُرها بالقوة ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفع عنها بالمَسْألة ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ وإن تَفْدِ كل فِدَاءٍ، والعَدْلُ: الفدية، ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ﴾ [ما تفدي به] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المتخذين من دينهم لعبًا ولهوًا ﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي ماءٍ حارٍّ [بالغ النهاية في الحرارة]، والتقدير: أولئك المُبْسَلون ثابتٌ لهم شراب من حميمٍ ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ بكفرهم.

٧١- ﴿قُلْ﴾ لأبي بكر يَقُل لابنه عبدِ الرحمٰن - وكان يدعو أَباهُ إلى عبادة الأوثان -: ﴿أَنَدْعُواْ﴾ أنعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الضارِّ النافع ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ ما لايقدر على نفعِنا إن دعوناه ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركناهُ ﴿وَنُرَدُّ﴾

﴿عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ﴾

وأَنُردُّ ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ راجعين إلى الشرك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإسلام وأَنقذَنا من عبادةِ الأصنام ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ كالذي ذهبت به الغِيلانُ ومَرَدَةُ الجن ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المَهْمَهِ(١) ﴿حَيْرَانَ﴾ تائهًا ضالًّا عن الجادَّةِ لا يدري كيف يصنع، ﴿لَهُۥٓ﴾ لهذا المستهوَى ﴿أَصْحَـٰبٌ﴾ رُفْقَةٌ ﴿يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ إلى أن يَهْدُوه الطريقَ. سُمِّيَ الطريقُ المستقيمُ بالهُدَى، يقولون له: ﴿ٱئْتِنَا﴾ وقد اعتسَفَ(٢) المَهْمَهَ تابعًا للجن لا يُجيبهم ولا يأتيهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ وهو الإسلام ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وَحْدَهُ وما وراءَهُ ضلال ﴿وَأُمِرْنَا﴾ كأنه قيل: قل هذا القولَ وقل: أُمرنا ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ والتقدير: أُمرنا لأن نُسْلِمَ.

٧٢- ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأُمرنا لإقامة الصلاة ﴿وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ يوم القيامة.

٧٣- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحِكمَةِ، [أي لم يخلقهما باطلًا ولا عبثًا، بل صدرا عن حكمة وصواب، وليُستدل بها على وجود الصانع، أي أن هذه المخلوقات العظيمة الظاهر عليها سمات الحدوث لا بد لها من صانع واحد عالم قادر مريد وهو الله جل وتعالى] ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [هذا تمثيل لإخراج الشيء من العدم إلى الوجود، وسرعة وجوده من غير تأخير ولا تَمنُّع، لا أنَّ ثَمَّ شيئًا يؤمَرُ، وإنما المعنى أن ما قضاه سبحانه وتعالى من الأمور وأراد

---

(١) المَهْمَهُ: المَفازة البعيدة والبريَّةُ القَفْرُ.
(٢) الاعتسافُ: السَّيرُ بغير هداية والأخذُ على غير الطريق.

﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ﴾

كونه فإنما يتكوَّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقُّف] ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ﴾ المعنى أنه خلق السمواتِ والأرضَ بالحق والحكمة، أي لا يُكَوِّنُ شيئًا من السمٰوات والأرض وسائر المكوَّنات إلا عن حكمة وصواب. ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ هو القَرْنُ بلغة اليمن [وتخصيص الملك له بذلك اليوم كتخصيصه بقوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الانفطار] وفائدته الإخبار بانفراده بالملك حين لا يمكن أن يُدَّعى مُلكٌ] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ هو عالم السر والعلانية ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في الإفناء والإحياء ﴿ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ بالحساب والجزاء.

٧٤- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ هو اسمُ أبيه أو لقبُه ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ أتتخذها ءالهةً وهي لا تستحق الإلٰهية؟! ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [في ضلال عن الحق بَيِّن ظاهر].

٧٥- ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكما أريناه قُبحَ الشرك ﴿نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نُري بصيرتَه لطائفَ خلق السماوات والأرض، قال مجاهد: فُرِّجت له السماوات السبع فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى نظره إلى العرش، وفُرّجت له الأرضون السبع حتى نظر إلى ما فيهن. ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ عِيانًا كما أيقن بيانًا.

٧٦- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أظلم ﴿رَءَا كَوْكَبًاۖ﴾ أي الزُّهَرة أو المشتريَ، وكان أبوه وقومُه يعبدون الأصنامَ والشمسَ والقمرَ والكواكب، فأراد أن يُنبهَهُم على الخطأ في دينهم، وأن يُرشِدَهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويُعرِّفَهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى أن شيئًا منها ليس بإلٰه لقيام دليلِ الحدوث فيها وأن لها مُحدِثًا أحدثها ومُدبِّرًا

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ
فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ
هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ
لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ
أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾

دبَّرَ طلوعَها وأُفولَها وانتقالها ومسيرها وسائرَ أحوالِها، فلما رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ قال لهم: هذا ربي في زعمكم، أو المراد: أهذا [ربي]؟ استهزاءً بهم وإنكارًا عليهم، والعرب تكتفي عن حرف الاستفهام بنغمةِ الصوت، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ غابَ ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ لا أُحبُّ عبادةَ الأرباب [المزعومين] المتغيرين من حالٍ إلى حال، لأن ذلك من صفات الأجسام.

٧٧- ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ مبتدئًا في الطلوع ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [أي: على زعمكم؟!] ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ [أي: غابَ] ﴿قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ نبّه قومَه على أن من اتخذَ القمرَ إلٰهًا فهو ضالٌّ، وإنما احتج عليهم بالأُفول دون البزوغ، وكلاهما انتقالٌ من حال إلى حال لأن الاحتجاج به أَظهرُ، لأنه انتقالٌ مع خفاءٍ واحتجابٍ.

٧٨- ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ من الأجرام التي تجعلونها شركاءَ لخالقها.

٧٩- ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ للذي دلَّت هذه المحدثاتُ على أنه مُنشئها ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ مائلًا عن الأديان كلِّها إلى الإسلام ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ بالله شيئًا من خلقه.

٨٠- ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ في توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ في توحيده ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ إلى التوحيد ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾ لا أخاف معبوداتكم في وقتٍ قَطُّ،

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ
أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ
حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ﴾

لأنها لا تقدر على منفعةٍ ولا مَضَرةٍ إلا إذا شاء ربي أن يصيبَني منها بضُرٍّ فهو قادر على أن يجعل فيما شاء نفعًا وفيما شاء ضُرًّا لا الأصنام ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ فلا يصيب عبدًا شيءٌ من ضُر أو نفع إلا بعلمه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ فتميزوا بين القادر والعاجز.

٨١- ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ معبوداتِكم ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ بإشراكِهِ ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ﴾ حُجةً إذ الإشراكُ لا يصح أن يكون عليه حجةٌ، والمعنى: وما لكم تنكرون عليّ الأمنَ في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ فأيُّ فريقَي الموحدين والمشركين ﴿أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [إن كنتم من ذوي العلم والاستبصار]، ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله:

٨٢- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾ [ولم يخلِطوا] ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ بشرك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ تمّ كلام إبراهيم عليه السلام.

٨٣- ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيمُ عليه السلام على قومه ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ﴾ [لقَّنَّاها إبراهيمَ وبصَّرناه إيّاها] ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ في العلم والحكمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ [في صُنعه] ﴿عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [بخلقه].

٨٤- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ لإبراهيمَ ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ﴾ أي: [هدَينا كلَّ واحد منهم للحق] ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ﴾ أي وهدينا نوحًا

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا
وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ
هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

من قبل إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ ذُريَّةِ نوحٍ ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي: وهدينا من ذريته هؤلاء ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ ونجزي المحسنين جزاءً مثلَ ذلك [أي: بالشرف والذكر والثناء الحسن، وقيل: بالثواب والدرجات في الآخرة].

٨٥- ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ﴾ أي كلُّهم ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ وذِكرُ عيسى معهم دليلٌ على أن النَّسبَ يثبت من قِبَلِ الأم أيضًا، لأنه جعلَهُ من ذرية نوحٍ عليه السلام وهو لا يتصل به إلا بالأم.

٨٦- ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ بالنبوة والرسالة.

٨٧- ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ﴾ وفضلنا بعض ءابائهم، [ومن ذرياتهم وإخوانهم ءاخرين سواهم لم يُسَمِّهم] ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ [واخترناهم لديننا وبلاغِ رسالتنا] ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [سدَّدناهم فأرشدناهم إلى طريق غير مُعْوَجٍّ، وذلك دين الله الذي لا عِوَجَ فيه].

٨٨- ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما دان به هؤلاء المذكورون ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ دينُ الله ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ فيه نقض قول المعتزلة لأنهم يقولون: إن الله شاء هدايةَ الخلقِ كلِّهم لكنهم لم يهتدوا ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ مع فضلهم وتقدُّمهم وما رُفِعَ لهم من الدرجات العلى ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ لبطلت أعمالهم(١) كما قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الزمر].

---

(١) أي: على فَرْضِ حصول ذلك منهم، ولكن ذلك مستحيل على الأنبياء عليهم السلام.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا
بِكَٰفِرِينَ ٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ
إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ
مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ
وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾

٨٩- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يريد الجنس [أي الكتب] ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ والحكمة ﴿وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ وهي أعلى مراتب البشر ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا﴾ بالكتاب والحُكم والنبوة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي أَهلُ مكةَ ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا﴾ هم الأنبياء المذكورون ومن تابعهم، ومعنى توكيلهم بها أنهم وُفِّقوا للإيمان بها والقيامِ بحقوقها، ﴿لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ لتأكيد النفي.

٩٠- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ أي: الأنبياءُ الذين مَرَّ ذكرهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ فاختصَّ(١) هداهم بالاقتداء ولا تقتد إلا بهم، والمراد طريقتُهم في الإيمان بالله وتوحيده دون الشرائع فهي مختلفةٌ ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ على الوحي ﴿أَجۡرًاۖ﴾ جُعْلًا ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾ ما القرءان إلا عِظةٌ للجن والإنس.

٩١- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ ما عرفوه حقَّ معرفته في الرحمة على عباده حين أنكروا بَعثةَ الرسُل والوحيَ إليهم ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾ مما فيه نعتُ رسولِ الله ﷺ، أي بَعَّضوه وجعلوه قراطيسَ مقطعةً وورقاتٍ مفرقةً ليتمكّنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء ﴿وَعُلِّمۡتُم﴾ يا أهلَ الكتاب بالكتاب ﴿مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ﴾ من أمور دينكم ودنياكم ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ أنزله، فإنهم لا يَقدرون أن يُناكِروك ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه ﴿يَلۡعَبُونَ ٩١﴾

---

(١) أمرٌ بالاختصاص.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ
يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ
فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾

[يشتغلون بما لا يُجدي عليهم نفعًا].

٩٢- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ على نبينا محمدٍ عليه الصلاة والسلام ﴿مُبَارَكٞ﴾ كثيرُ المنافع والفوائد ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ كأنه قيل: أنزلناه للبركات وتصديقِ ما تقدَّمه من الكتب والإنذار ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مكةَ، وسميت أُمَّ القرى لأنها سُرَّةُ[1] الأرض وقبلةُ أهل القرى وأَعظمُها شأنًا ولأن الناس يؤمونها ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ أهلَ الشرق والغرب ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يُصدِّقون بالعاقبة ويخافونها ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ بهذا الكتاب ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ خُصّت الصلاة بالذكر لأنها عَلَمُ الإيمان[2] وعِماد الدين، فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها ظاهرًا.

٩٣- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [قيل]: هو مالكُ بنُ الصيف [من أحبار اليهود قال: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء] ﴿أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ﴾ هو مسيلمة الكذاب ﴿وَمَن قَالَ﴾ وممّن قال ﴿سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ أي سأَقول وأُملي، هو عبد الله بنُ سعدِ بنِ أبي سرح كاتبُ الوحي، ارتد ولحق بمكة [ثم تاب وأسلم بعد الفتح] ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ لرأيت أمرًا عظيمًا ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يريد الذين ذكرهم من اليهود والمُتنبئَةِ ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ شدائده وسكراته ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ يَبسُطون إليهم أَيديَهم يقولون: هاتوا أرواحَكم، أَخرجوها إلينا من أجسادكم، وهذه عبارة عن التشديد في الإزهاق من

---

(١) سُرَّةُ الأرض: وسَطُها.
(٢) بمعنى علامةِ الإيمان.

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ
تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ
ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ
وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ
ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

غير إمهال ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ أرادوا وقتَ الإماتة وما يعذبون به من شدة النَّزْع، والهُونُ: الهَوان الشديد، ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ من أن له شريكًا وصاحبةً وولدًا ﴿وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ فلا تؤمنون بها.

٩٤- ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ منفردين بلا مالٍ ولا مُعينٍ ﴿كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ مثلما خلقناكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ على الهيئات التي ولدتم عليها في الانفراد ﴿وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ﴾ مَلَّكناكم ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ ولم تحتملوا منه نقيرًا[1] ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾ في استعبادكم ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي وقع التقطُّع بينكم، [أو تقطَّعَ الوُدُّ بينكم] ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ ضاع وبطل ﴿مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أنها شفعاؤكم عند الله.

٩٥- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ أي فَلَقَ الحَبَّ عن السُّنبلة والنواةَ عن النخلة ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ النباتَ الغَضَّ النامي من الحب اليابس ﴿وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ﴾ الحبِّ اليابس من النبات النامي، أو الإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان، أو المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ﴾ ذلكم المحيي والمميت هو الله الذي تحق له الربوبية، لا الأصنام ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ فكيف تُصرفون عنه وعن تَوَلِّيه إلى غيره بعد وضوح الأمر.

---

(١) هو كنايةٌ عن الشيء القليل.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ
خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾

٩٦- ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ أي شاقُّ عَمودِ الصبح عن سواد الليل، أو خالقُ نورِ النهار ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ مسكونًا فيه [تسكن فيه النفوس من كدِّ التصرف في أسباب المعاش] ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وجعل الشمس والقمر ﴿حُسْبَانًاۚ﴾ جعلهما عَلَمَي حُسبانٍ لأن حِسابَ الأوقات يُعلَمُ بدَورهما وسيرهما ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما حسبانًا ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي قهرهما وسَخَّرهما ﴿ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ بتدبيرهما وتدويرهما.

٩٧- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ خلقها ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ﴾ في ظلمات الليل بالبر والبحر ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ قد بينا الآيات الدالةَ على التوحيد لقوم يعلمون [يتدبرون].

٩٨- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي ءادمُ عليه السلام ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ﴾ فلكم مُستقرٌّ في الرَّحِم ومستودَعٌ في الصُّلب ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ إنما قيل: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ثَمَّ و﴿يَفْقَهُونَ﴾ هنا لأن الدلالة ثَم أظهر وهنا أَدقُّ فكان ذِكرُ الفقه الدال على تدقيق النظر أَوفقَ.

٩٩- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب مطرًا ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ نَبْتَ كل صنفٍ من أصناف النامي ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات ﴿خَضِرًا﴾ شيئًا غضًّا أَخضرَ ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخضِر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ وهو السُّنبلُ الذي تراكَبَ حَبُّه ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾

﴿دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ
وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ
وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ
وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

من طلع النخل قِنوانٌ: جمعُ قِنْوٍ وهو العِذْق[1] ﴿دَانِيَةٌ﴾ من المجتني لانحنائها بثِقَلِ حَملها أو لقِصَرِ ساقها ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ أي وأخرجنا به جناتٍ ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي مع النخل، وكذا ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ [بمعنى وأخرجنا الزيتون والرمان] ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ تقديره: والزيتونَ متشابهًا وغيرَ متشابه والرمانَ كذلك يعني بعضُه متشابهٌ وبعضُه غيرُ متشابه في القدر واللون والطعم ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ إذا أَخرجَ ثَمَره كيف يخرجه ضعيفًا لا يُنتفع به ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ ونُضْجِهِ، أي انظروا كيف يعود شيئًا جامعًا لمنافع ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

١٠٠- ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ والمعنى أنهم أطاعوا الجن فيما سَوَّلت لهم من شِركهم فجعلوهم شركاءَ لله ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي وقد خلق الجن فكيف يكون المخلوق شريكًا لخالقه؟! ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ﴾ أي اختلقوا ﴿بَنِينَ﴾ كقول أهل الكتابين في المسيح وعزيرٍ ﴿وَبَنَٰتٍۭ﴾ كقول بعض العرب في الملائكة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوا من خطأ أو صواب ولكن رميًا بقول عن جهالة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ من الشريك والولد.

١٠١- ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ أي من أين يكون له ولد والولد لا يكون إلا من صاحبةٍ، ولا صاحبةَ له، ولأن الولادة من صفات الأجسام، ومخترع الأجسام لا يكون جسمًا حتى يكونَ له ولد ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ ما من

---

(١) العِذقُ بالكسر: العنقود على النخلة، وبالفتح: النخلة بحملها.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ قَدۡ جَآءَكُم
بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤ وَكَذَٰلِكَ
نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾

شيءٍ إلا وهو خالقه وعالمُه، ومن كان كذلك كان غنيًّا عن كل شيء.

١٠٢- ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى الموصوف بما تقدم من الصفات ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [ومن اتصف بهذه الصفات كان هو الحقيقَ بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا مَنْ دونَه من بعض خلقه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ هو مع تلك الصفات مالكٌ لكل شيءٍ من الأرزاق والآجال، رقيب على الأعمال.

١٠٣- ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ لا تحيط به، والمَنفيُّ هو الإدراكُ لا الرؤية، والإدراكُ هو الوقوف على جوانب المرئي وحدودِهِ، وما يستحيل عليه الحدود والجهات يستحيل إدراكه لا رؤيته. ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ [أي تحيط رؤيته وعلمه بالأشياء كلها، قال القرطبي في تفسيره: لا يخفى عليه شيء إلا يراه ويعلمه، وإنما خَصَّ الأَبصار لتجنيس الكلام] ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ العالم بدقائق الأمور ومشكلاتها ﴿ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ العليم بظواهر الأشياء وخفياتها.

١٠٤- ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ البصيرةُ نورُ القلب الذي به يَستبصِرُ القلبُ، كما أن البصرَ نور العين الذي به تُبصر، أي جاءكم من الوحي والتنبيهِ ما هو للقلوب كالبصائر ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ﴾ الحقَّ وءامن ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أَبصرَ وإياها نفعَ ﴿وَمَنۡ عَمِيَ﴾ عنه وضلَّ ﴿فَعَلَيۡهَاۚ﴾ فعلى نفسه عَمِيَ وإياها ضَرَّ بالعمى ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، إنما أنا منذرٌ والله هو الحفيظ عليكم.

١٠٥- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ تصريفًا مثلَ ما تلونا عليك ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ [يعني أهل مكة حين تقرأ عليهم القرءان] ﴿دَرَسۡتَ﴾ قرأتَ

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾

كتبَ أهل الكتاب، قيل: اللام لامُ العاقبة والصيرورة، أي لتصير عاقبة أمرهم إلى أن يقولوا: درستَ [وقيل: فيها إضمار: لا، وتقديره: لئلا يقولوا: درستَ] ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ أي القرءانَ ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ الحق من الباطل[1].

١٠٦- ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ ولا تتّبع أهواءَهم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ اعتراضٌ أَكَّدَ به إيجابَ اتّباع الوحي ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ في الحال إلى أن يَرِدَ الأمرُ بالقتال.

١٠٧- ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إيمانهم ﴿مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾ بَيَّنَ أنهم لا يشركون على خلاف مشيئة الله، ولو عَلِمَ منهم اختيارَ الإيمان لهداهم إليه، ولكن علم منهم اختيار الشرك وشاء شِركَهم، فأشركوا بمشيئته ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾ مراعيًا لأعمالهم مأخوذًا بإجرامهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾﴾ بِمُسلَّطٍ.

وكان المسلمون يَسُبّون ءالهتَهم فَنُهوا عنه لئلا يكون سبُّهم سببًا لسبِّ الله بقوله:

١٠٨- ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا﴾ ظلمًا وعُدوانًا ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ على جهالةٍ بالله وبما يجب أن يُذكرَ به ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك التزيين ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من أُمم الكفار ﴿عَمَلَهُمۡ﴾ وهو كقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي

---

(١) أي: للمؤمنين العلماء، فإن الآيات تقع بيانًا لهم وزيادةَ علم بالله وبدينه، فأما المعاندون فيقولون: هذا شيء أخذته من أهل الكتاب.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن
جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا
كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ
عَدُوًّا﴾

مَن يَشَآءُ ﴿٨﴾﴾ [سورة فاطر] ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ مصيرهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ فيخبرُهم بما عَمِلوا ويَجزيهم عليه.

١٠٩- ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ جاهدين في الإتيان بأوكَدِ الأيمان ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ من مقترحاتهم ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ وهو قادر عليها لا عندي فكيف ءاتيكم بها ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يُدريكم ﴿أَنَّهَآ﴾ أن الآية المقترحةَ ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ بها، يعني أنا أَعلمُ أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تعلمون ذلك، وكان المؤمنون يَطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآيةُ ويتمنَّون مجيئَها.

١١٠- ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ عن قبول الحق ﴿وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ عن رؤية الحق عند نزول الآية التي اقترحوها فلا يؤمنون بها ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كما كانوا عند نزول ءاياتِنا أولًا لا يؤمنون بها ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ يتحيَّرون.

١١١- ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ كما قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الفرقان] ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما قالوا: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الدخان] ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ جمعنا ﴿كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ كُفلاءَ بصحة ما بَشَّرنا به وأنذرنا، جمع قبيلٍ وهو الكفيل، ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إيمانَهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي هؤلاء لا يؤمنون إذا جاءتهم الآية المقترَحة.

١١٢- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ وكما جعلنا لك أعداءً من

﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ
فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟
مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ
مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

المشركين، جعلنا لمن تقدَّمك من الأنبياء أعداءً لما فيه من الابتلاء الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطينُ الجن إلى شياطين الإنس، وكذلك بعضُ الجن إلى بعضٍ وبعضُ الإنس إلى بعضٍ ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ ما زينوه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي ﴿غُرُورًاۚ﴾ خَدْعًا وأخذًا على غِرَّةٍ[1] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ أي الإيحاءَ، يعني ولو شاء الله لمنع الشياطين من الوسوسة، ولكنه امتحنَ بما يعلم أنه أَجزلُ في الثواب ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ عليك وعلى الله، فإن الله يُخزيهم وينصرك ويَجزيهم.

١١٣- ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ﴾ ولتميلَ إلى زُخرُف القول قلوبُ الكفار ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ من الآثام.

١١٤- ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ قل يا محمد: أَفغيرَ الله أَطلبُ حاكمًا يحكمُ بيني وبينكم ويفصِلُ المُحِقَّ منا من المُبْطل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المعجِزَ ﴿مُفَصَّلًاۚ﴾ مبيَّنًا فيه الفصلُ بين الحق والباطل ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عبدُ الله بنُ سلام وأَصحابُه ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ الشاكِّينَ فيه أيها السامعُ، أو ولا يُرِيْبَنَّكَ جحود أكثرهم وكفرهم به.

---

(١) الغِرَّةُ بالكسر: الغفلة، وبالضم: من الشهر أولُه.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ
مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم
بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ
إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

١١٥- ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي تَمَّ كل ما أَخبرَ به وأمر ونهَى ووعد وأوعد ﴿صِدْقًا﴾ في وعده ووعيده ﴿وَعَدْلًا﴾ في أمره ونهيه ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا أَحدَ يبدلُ شيئًا من ذلك ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لإقرار من أَقَرَّ ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ بإصرارِ مَن أَصَرَّ، أو السميع لما يقولون العليم بما يضمرون.

١١٦- ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الكفارَ لأنهم الأكثرون ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينِه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وهو ظنُّهم أن ءاباءَهم كانوا على الحق فهم يقلدونَهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ يكذِبون في أن الله حرمَ عليهم كذا وأحل لهم كذا.

١١٧- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ هو يعلم الكفارَ والمؤمنين.

١١٨- ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ ذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله، فما قتلَ اللهُ أَحقُّ أن تأكلوا مما قتلتم أنتم، فقيل للمسلمين: إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا مما ذكر اسم الله على ذبحه دون ما ذكر عليه اسم غيره من ءالهتم [المزعومة] أو مات حَتْفَ أنفه.

١١٩- ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟﴾ وأَيُّ غرضٍ لكم في ألّا تأكلوا ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ بيّن لكم ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما لم يحرم ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ إلى أكله مما حُرِّمَ عليكم فإنه حلال لكم في حال الضرورة أي شدة المجاعة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يُضلون [غيرَهم] فيحرمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم من

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ
الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا
فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾

غير تعلق بشريعةٍ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ بالمتجاوزين من الحق إلى الباطل.

١٢٠- ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ علانيته وسِرَّه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ﴾ يومَ القيامة ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ يكتسبون في الدنيا.

١٢١- ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عندَ الذبح ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن أَكلَه ﴿لَفِسْقٌ﴾ والآية تُحرّم متروكَ التسميةِ، وخُصت حالةُ النسيان بالحديث[1] ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ ليوسوسون ﴿إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ من المشركين ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ بقولهم: لا تأكلون مما قَتلَه الله وتأكلون مما تذبحون بأيديكم ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال ما حرَّمه الله ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ لأن من اتّبع غير الله في دينه فقد أشرك به.

١٢٢- ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي كافرًا فهديناه لأن الإيمان حياةُ القلوب ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ مستضيئًا به، والمراد به

---

(١) أي: أن الذبيحة تحرم إذا لم تذكروا اسم الله عليها عند الذبح ذاكرين لذلك غير ناسين، وهذا عند الإمام أبي حنيفة، وأما عند الإمام الشافعي رضي الله عنهما فيجوز أكل الذبيحة ولو لم يذكر اسم الله عليها ما لم يذكر عليها اسم غير الله، وذلك لما روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قالوا: يا رسول الله إن هنا أقوامًا حديثًا عهدهم بشرك (أي أسلَموا وتركوا الشركَ حديثًا) يأتونا بلُحمان لا ندري يذكرون اسم الله عليها أم لا قال: «**اذكروا أنتم اسم الله وكلوا**». ولو كانت التسمية شرطًا للحِل لما ثبت الحِل عند الشك فيها، وحملوا الآية على ما أُهل به لغير الله كما ورد في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ حتى قوله تعالى ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ
إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ
ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾

اليقين ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ صفته ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ خابطٌ فيها ﴿لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ لا يفارقها ولا يتخلص منها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما زُينَ للمؤمن إيمانُه ﴿زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ بتزيين الله تعالى ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي أعمالُهم.

١٢٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكما جعلنا في مكة صناديدَها[1] ليمكروا فيها ﴿جَعَلۡنَا﴾ صَيَّرنا ﴿فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ﴾ ليتجبروا على الناس فيها ويعملوا بالمعاصي، وخَصَّ الأكابرَ - وهم الرؤساء - لأن ما فيهم من الرياسة والسَّعة أدعى لهم إلى المكر والكفر من غيرهم. ثم سَلَّى رسوله عليه السلام ووعدَه النصرةَ بقوله: ﴿وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ لأن مكرَهم يَحيقُ[2] بهم ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ أنه يَحيقُ بهم.

ولما قال أبو جهل: زاحَمَنا بنو عبد منافٍ في الشرف حتى إذا صرنا كفرَسَي رهان[3] قالوا: منا نبي يوحى إليه، واللهِ لا نرضى به إلا أن يأتينا وحيٌ كما يأتيه نزل:

١٢٤- ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ﴾ أي الأكابرَ ﴿ءَايَةٞ﴾ معجزة، أو ءاية من القرءان تأمرهم بالإيمان ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ أي نُعطى من الآيات مثلَ ما أُعطيَ الأنبياء، فأعلَمَ الله تعالى أنه أَعلمُ بمن يَصلُح للنبوة فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ يعلم

---

(١) أي: رؤساءَ المشركين فيها.
(٢) الحَيْقُ: ما حاقَ بالإنسان من مَكر أو سوء عمل يعملُه فينزلُ ذلك به، فهو أن يشتمل على الإنسان ويحيطَ به عاقبة مكروهِ فِعلِهِ.
(٣) يعني صِرنا متساوِيين.

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤ فَمَن يُرِدِ
ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا
كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ ١٢٥ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ ۞ لَهُمۡ دَارُ
ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ
ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾

موضِعَ رسالتهِ ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ﴾ ذُلٌّ وهَوَان ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في القيامة ﴿وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ في الدارين من القتل والأسر وعذاب النار ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤﴾ في الدنيا.

١٢٥- ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ يُوسِّعْه وينوِّرْ قلبَه ﴿وَمَن يُرِدۡ﴾ أي الله ﴿أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ بالغًا في الضيق ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ كأنه كُلِّفَ أن يصعدَ إلى السماء إذا دُعِيَ إلى الإسلام من ضِيقِ صَدره عنه ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ﴾ العذابَ في الآخرة واللعنةَ في الدنيا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾.

١٢٦- ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ طريقُه الذي اقتضته الحكمةُ وسُنَّته في شرح صدر من أرادَ هدايتَه وجعله ضيقًا لمن أراد ضلاله ﴿مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ عادلًا مُطَّردًا ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ يتعظون.

١٢٧- ﴿لَهُمۡ﴾ لقوم يذَّكرون ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ يعني الجنة دار السلامة من كل ءافة وكدر ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ في ضَمانه ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ ناصرهم على أعدائهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧﴾ بجزاء ما كانوا يعملون.

١٢٨- ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ [ويوم يَحشرُ الخلقَ جميعًا يقول:] ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ أضللتم منهم كثيرًا وجعلتموهم أتباعكم ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ الذين أطاعوهم واستمعوا إلى وسوستهم ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ [استمتع] الإنس بالشياطين حيث دلُّوهم على الشهوات وعلى أسباب التوصّل إليها، [واستمتع] الجنّ

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ ... وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ
أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ
أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن
رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾

بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم في إغوائهم ﴿وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ﴾ يعنون يومَ البعث، وهذا الكلام اعترافٌ بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى والتكذيب بالبعث وتحسرٌ على حالهم ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ منزلُكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ يخلدون في عذاب النار الأبدَ كلَّه إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب السعير إلى عذاب الزَّمْهرير(١) ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بأوليائه وأعدائه ﴿عَلِيمٞ ١٢٨﴾ بأعمالهم فيجزي كلًّا على وفق عمله.

١٢٩- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا﴾ نُتبع بعضَهم بعضًا في النار ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾ بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي.

ثم يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ:

١٣٠- ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ الرسل من الإنس خاصةً، وإنما قيل: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ لأنه لما جمع الثقلين في الخطاب صح ذلك وإن كان من أحدهما ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ يقرؤون كتبي ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ يعني يومَ القيامة ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ بوجوب الحجة علينا وتبليغ الرسل إلينا ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾ بالرسل.

١٣١- ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم ﴿أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ المعنى: لم يكن الله مُهلكَ

---

(١) ولا يَفتُر عنهم العذاب بين العذابَين.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو
ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن
ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ﴾

القرى بسبب ظلم أقدموا عليه وهم غافلون لم يُنَبهوا برسول وكتاب.

١٣٢- ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من المكلفين ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ منازلُ ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ من جزاء أعمالهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [ليس بساهٍ تخفى عليه مقادير الأعمال وما يترتب عليها من الأجور، وفي ذلك تهديد ووعيد].

١٣٣- ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن عباده وعن عبادتهم ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ عليهم بالتكليف ليُعرِّضَهم للمنافع الدائمة ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الظلَمةُ ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من الخلق المُطيع ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ من أولاد قوم ءاخرين لم يكونوا على مثل صفتكم، وهم أهل سفينة نوح عليه السلام.

١٣٤- ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث والحساب والثواب والعقاب ﴿لَءَاتٍ﴾ لكائنٌ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ بفائتين.

١٣٥- ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ اعملوا على تمكُّنِكم من أمركم وأقصى استطاعتكم ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ على مكانتي التي أنا عليها، أي اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم، وهو أمر تهديد ووعيد، دليله قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي أيُّنا تكون له العاقبةُ المحمودة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ الكافرون.

١٣٦- ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ [أي كفار مكة] ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ [خلق] ﴿مِنَ

﴿ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ
لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ
شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ
لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا ﴿١٣٨﴾﴾

﴿ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ أي وللأصنام نصيبًا، فاكتفى بدلالة قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قِرَى الضيفان والتصدق على المساكين ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ من إنفاقهم عليها والإجراء على سَدَنتها(١) ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ في إيثار ءالهتِهم على الله وعملِهم على ما لم يُشرَعْ لهم.

١٣٧- ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كما زَيَّنَ لهم تجزئةَ المال زيَّنَ وَأْدَ البنات ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [من الشياطين، فحسَّنوا لهم وأدَ البنات بطريق الوسوسة خشية الإملاق ولحوق العار] ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم بالإغواء ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وليخلطوا عليهم ويشوبوه، ودينُهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل حتى زلّوا عنه إلى الشرك ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ فيه دليل على أن الكائنات كلَّها بمشيئة الله تعالى ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ من الإفك لأن ضرر ذلك عليهم لا عليك ولا علينا.

١٣٨- ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ﴾ للأوثان ﴿حِجْرٌ﴾ حرام، وكانوا إذا عينوا أشياء من حَرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا

(١) أي: خَدَمَةِ الأصنام.

﴿مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾

﴿مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾ يعنونَ خَدَمَ الأوثان، والرجالَ دون النساء، والزعم قولٌ بالظن يَشُوبه الكذب ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾ هي البَحائرُ والسَّوائبُ والحوامي[1] ﴿وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ حالةَ الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماءَ الأصنام ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ أي قَسَموا أنعامَهم: قِسمٌ حِجْرٌ، وقِسم لا يُركَبُ، وقسم لا يُذكرُ اسمُ الله عليها، ونسبوا ذلك إلى الله افتراء عليه ﴿سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨﴾ وعيدٌ.

١٣٩- ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ كانوا يقولون في أَجنةِ البحائر والسوائب: ما ولد منها حيًّا فهو خالصٌ للذكور لا تأكلُ منه الإناث وما ولد ميتًا اشترك فيه الذكور والإناث ﴿وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ﴾ وإن يكن ما في بطونها ميتة فهم فيه شركاء ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ جزاءَ وصفِهم الكذبَ على الله في التحليل والتحريم ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ في جزائهم ﴿عَلِيمٞ ١٣٩﴾ باعتقادهم.

١٤٠- ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾ كانوا يَئِدُون بناتِهم مخافة السَّبي والفقر ﴿سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ لِخِفَّة أحلامِهم[2] وجهلِهم بأن الله هو

---

(١) البحائر جمع بَحيرة وهي الناقة بنت السائبة وذلك إذا نُتِجَت خمسةَ أبطن وكان الخامس أُنثى تُخَلَّى مع أمها وتُشق أذنها ليعلم أنها سائبة أو بحيرة فلا تركب ولا يشرب لبنها ولا يُحملُ عليها وهذا من أفعال الجاهلية.
وأما الحوامي فهو جمع حام وهو الفحل من الإبل إذا طال مكثه عندهم حتى لقح ولد ولده فيقولون: قد حمى ظهره فلا يُركب ولا يُجَزُّ له وبر ولا يمنع من مرعى.

(٢) أي: عقولهم.

﴿وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ
ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ
وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ
وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا
رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾

رازقُ أولادِهم لا هم ﴿وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ من البحائر والسوائب وغيرها ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ إلى الصواب.

١٤١- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾ خلقَ ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ من الكروم ﴿مَّعْرُوشَـٰتٍ﴾ مسموكاتٍ مرفوعاتٍ ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ﴾ متروكاتٍ على وجه الأرض لم تُعْرَشْ، يقال: عَرَّشْتُ الكرم إذا جعلتُ له دعائمَ وسَمْكًا تُعطف عليه القضبان ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا﴾ في اللون والطعم والحجم والرائحة ﴿أُكُلُهُۥ﴾ ثَمرُه الذي يؤكل ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا﴾ في اللون ﴿وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ في الطعم ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ من ثَمَرِ كل واحدٍ، وفائدةُ ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أن يُعلَمَ أن أولَ وقتِ الإباحة وقتُ إطلاع الشجر الثمرَ، ولا يُتوهَّمَ أنه لا يباح إلا إذا أَدركَ ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ﴾ عُشرَه[1] ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ بإعطاء الكل وتضييع العيال ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [المتجاوزين ما حُدَّ لهم، وقيل: الإسرافُ فيه: أَكلُهُ من ثمره حتى لا يبقى منه شيء للزكاة].

١٤٢- ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ الحَمُولَةُ: الكبار التي تَصلُحُ للحَمل، والفرشُ: الصغار كالفُصلان والعجاجيل والغنم لأنها دانيةٌ من الأرض مثل الفُرُشِ ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ما أَحلَّ الله لكم منها ولا

---

(١) هذا عند الإمام أبي حنيفة، وأما عند الإمام الشافعي فما يجب فيه العشر أو نصفه على تفصيل فيه.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ﴾

تُحَرموها كما في الجاهلية ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ طرقه في التحليل والتحريم كفِعلِ أهل الجاهلية ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ فاتهموه على دينكم.

١٤٣- ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ﴾ زوجين اثنين يريد الذكر والأنثى من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين، والهمزة في ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ﴾ للإنكار، والمراد بالذكرين الذكر من الضأن والذكر من المعز، وبالأنثيين الأنثى من الضأن والأنثى من المعز، والمعنى إنكار أن [يكونَ حَرَّمَ اللهُ] من جنسي الغنم ضأنِها ومَعْزِها شيئًا من نوعي ذكورها وإناثها، [أو] مما تحمل الإناث؛ وذلك أنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارةً وإناثها طورًا وأولادها كيفما كانت ذكورًا أو إناثًا أو مختلطةً تارةً، وكانوا يقولون: قد حَرَّمها الله، فأنكر ذلك عليهم ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ أخبروني بأمرٍ معلوم من جهة الله يدل على تحريم ما حرمتم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ في أن الله حَرَّمَهُ.

١٤٤- ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ منهما ﴿حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ﴾ أم ما تحمل إناثُها ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي بل أكنتم شهداءَ ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ﴾ يعني أم شاهدتم ربَّكم حين أمركم بهذا التحريم، ولمَّا كانوا لا يؤمنون برسول الله وهم يقولون: الله حرّم هذا الذي نحرمه تهكَّم بهم في قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ لأنكم لا تؤمنون بالرسل

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً
أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ
بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ
وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسَب إليه تحريمَ ما لم يحرم ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ الذين في عِلمِه أنهم يُختَمون على الكفر.

١٤٥- ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ في ذلك الوقت، وفيه تنبيه على أن التحريم إنما يثبت بوحي الله وشرعه لا بهوى الأنفس ﴿مُحَرَّمًا﴾ حيوانًا حُرّم أكلُه ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ على ءاكل يأكله ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ إلا أن يكون الشيءُ المُحَرمُ ميتةً ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ مصبوبًا سائلًا، فلا يحرم الدمُ الذي في اللحم والكبد والطحال ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ نجسٌ ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ رُفع الصوتُ على ذبحه باسم غير الله، وسُمي بالفسق لتوغله في باب الفسق ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ فمن دَعتْهُ الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ متجاوزٍ قدرَ حاجته من تناوله ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ لا يؤاخذه.

١٤٦- ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ﴾ ما له أُصبعٌ من دابةٍ أو طائرٍ، ويدخلُ فيه الإبلُ والنَّعام ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ حرمنا عليهم لحمَ كل ذي ظُفرٍ وشحمَه، وكل شيءٍ منه، ولم يُحَرِّم من البقر والغنم إلا الشحومَ ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ إلا ما اشتمل على الظهور والجُنوب من السَّحْفَةِ(١) ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ أو

(١) السَّحفَةُ: الشحمة التي على الظهر الملتزقة بالجلد.

﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ
ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾

ما اشتمل على الأمعاء ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾ وهو الأَلية أو المخ ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ﴾ بسبب ظلمهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ فيما أخبرنا به.

١٤٧- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فيما أوحيتُ إليك من هذا ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ بها يُمهل المكذبين ولا يعاجلُهم بالعقوبة ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ عذابُه مع سَعَة رحمته ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ إذا جاء، فلا تغتر بسَعة رحمته عن خوف نِقمته.

١٤٨- ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ إخبار بما سوف يقولونه ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ألّا نشرك ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ﴾ ولكن شاءَ، فهذا عُذرنا ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي كتكذيبهم إياك كان تكذيبُ المتقدمين رسلَهم، وتشبثوا بمثل هذا فلم ينفعْهم ذلك، إذ لم يقولوه عن اعتقادٍ بل قالوا ذلك استهزاءً، ولأنهم جعلوا مشيئته حجةً لهم على أنهم معذورون به وهذا مردود لا الإقرارُ بالمشيئة، ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ﴾ حتى أنزلنا عليهم العذاب ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ﴾ فتظهروه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ تكذبون.

١٤٩- ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ﴾ عليكم بأوامره ونواهيه، ولا حجةَ لكم على الله بمشيئته ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

١٥٠- ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ هاتوا شهداءكم وقرّبوهم ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ

﴿أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ
عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ
نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ
ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا
بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا
وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾

﴿أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾ أي ما زَعَموه محرَّمًا ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾ فلا تُسلِّمْ لهم ما شهدوا به ولا تُصدقْهم، لأنه إذا سلَّم لهم فكأنه شهد معهم مثلَ شهادتهم ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإن من كذب بآيات الله فهو متبع للهوى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هم المشركون ﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ يُسَوُّون الأصنام.

١٥١- ﴿قُلۡ﴾ للذين حرموا الحرث والأنعام ﴿تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ وأحسنوا بالوالدين إحسانًا ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ من أجل فقرٍ ومن خَشيته ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ لأن رزق العبيد على مولاهم ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ ما بينَك وبينَ الخلق ﴿وَمَا بَطَنَۖ﴾ ما بينك وبين الله ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ كالقِصاص والقتل على الردة والرَّجْم ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ المذكور مفصلًا أَمركم ربُّكم بحِفظه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ لتعقِلوا عِظَمها عند الله.

١٥٢- ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ إلا بالخَصلة التي هى أحسن، وهي حِفظُه وتَثميرُه ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ﴾ مَبلَغَ حُلُمِهِ فادفعوه إليه ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بالسويَّة والعدل ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ إلا ما يَسَعُها ولا تعجزُ عنه ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ فاصدُقوا ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ ولو كان المقولُ له أو عليه في شهادةٍ أو غيرها

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا
فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ﴾

من أهل قرابة القائل ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يومَ الميثاق، أو في الأمر والنهي والوعد والوعيد والنذر واليمين ﴿أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما مرَّ ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ أي أمركم به لتتعظوا.

١٥٣- ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾ ولأن هذا صراطي ﴿مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الطرُقَ المختلفة في الدين من اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر البدع والضلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فتفرّقكم أيادي سبأ(١) عن صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ لتكونوا على رجاء إصابة التقوى.

١٥٤- ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا﴾ [للنعمة] ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ على من كان مُحسنًا صالحًا ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وبيانًا مُفصلًا لكل ما يحتاجون إليه في دينهم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم﴾ أي بني إسرائيل ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ يُصَدِّقون بالبعث والحساب وبالرؤية.

١٥٥- ﴿وَهَٰذَا﴾ القرءان ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ كثيرُ الخير ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ﴾ مخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ لترحموا.

١٥٦- ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ لئلا تقولوا، والخطاب لأهل مكة ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ

---

(١) فيُفرّقكم اتّباعُ السُّبُلِ تفرُّقًا مثلَ تفرُّق أيادي سبأ، والأيادي كنايةٌ عن الأبناء والأسرة، وهو مَثَلٌ ضُرِبَ بأبناء سبأ، وسبأ: اسم رجل باليمن وَلَدَ عامَّةَ قبائل العرب وسُميت مدينة بلقيس به وكانوا بنعمة عظيمة فكفروا النعمة وظلموا أنفسهم بالكفر فأغرق اللهُ مكانهم وأغرق جناتهم فتبدَّدوا في البلاد.

﴿ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾

﴿ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ أي أهلِ التوارة وأهلِ الإنجيل ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [وما كنا] عن تلاوة كتبهم [إلا غافلين] لا علم لنا بشيءٍ من ذلك.

١٥٧- ﴿أَوْ تَقُولُوا۟﴾ [لئلا] تقولوا ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ﴾ لِحِدَّة أذهاننا وثَقابة أفهامنا وغزارة حِفظنا لأيام العرب ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إن صَدَقتم فيما كنتم تَعِدون من أنفسكم، فقد جاءكم ما فيه البيان الساطع والبرهان القاطع ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعدما عَرفَ صحَّتَها وصِدقها ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ﴾ أعرض ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو النهاية في النِّكاية[1] ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ بإعراضهم.

١٥٨- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي أقمنا حجج الوحدانية وثبوتِ الرسالة وأبطلنا ما يعتقدون من الضلالة، فما ينتظرون في ترك الضلالة بعدَها؟ ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ملائكةُ الموت لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ أَمرُ ربك وهو العذاب ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ﴾ أشراطُ الساعة كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ لأنه ليس بإيمانِ اختيارٍ، بل هو إيمانُ دفعِ العذاب والبأس عن أنفسهم ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ إخلاصًا كما

---

(١) النِّكاية: الانتقام.

﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾

لا يقبل إيمان الكافر بعد طلوع الشمس من مغربها، لا يقبل إخلاص المنافق أيضًا أو توبته ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ إحدى الآيات الثلاث ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ بكم إحداها.

١٥٩- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ اختلفوا فيه وصاروا فِرَقًا كما اختلفت اليهود والنصارى ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ فرقًا كل فرقةٍ تُشيّعُ إمامًا لها ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ﴾ من السؤال عنهم وعن تفرقهم ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ فيجازيهم على ذلك.

١٦٠- ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ﴾ تقديره: عشرُ حسناتٍ أمثالِها ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ بنقصِ الثواب وزيادة العقاب.

١٦١- ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا﴾ معناه: هداني صراطًا ﴿قِيَمًا﴾ قَيّمًا ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ بالله يا معشر قريش.

١٦٢- ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ عبادتي ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ وما أَتيتُه في حياتي وأَموتُ عليه من الإيمان والعمل ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ خالصةٌ لوجهه.

١٦٣- ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ في شيءٍ من ذلك ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ الإخلاص ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ لأن إسلامَ كلِّ نبي متقدمٌ على إسلام أُمته.

١٦٤- ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ جوابٌ عن دعائهم له إلى عبادة

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

ءالهتهم، أي منكرٌ أن أطلب ربًّا غيره ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وكلُّ مَنْ دونه مربوب، ليس في الوجود من له الربوبيةُ غيرُه ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ جوابٌ عن قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴿١٢﴾﴾ [سورة العنكبوت] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لا تُؤخذُ نفس ءاثمةٌ بذنب نفسٍ أخرى ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ من الأديان التي فرقتموها.

١٦٥- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ لأن محمدًا ﷺ خاتمُ النبيين، فأُمته قد خَلَفَت سائرَ الأمم ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الشَّرف والرزق وغيرِ ذلك ﴿دَرَجَاتٍ﴾ إلى درجاتٍ ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فيما أعطاكم من نعمةِ الجاهِ والمال كيف تشكرون تلك النعمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن كفر نعمتَه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ لمن قام بشكرها.

سورة الأعراف مكية
وهي مائتان وخمس ءايات بصري [عند البصريين] مائتان وست ءايات كوفي ومدني [عند الكوفيين والمدنيين]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١- ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه أنا الله أَعلَمُ وأَفْصِلُ.

٢- ﴿كِتَٰبٌ﴾ هو كتاب ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ شك فيه، أو حرج من تبليغه لأنه كان يخاف تكذيبَ [قومه] وإعراضَهم عنه فأمَّنه الله ونهاه عن المبالاة بهم ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ لإنذارك [بالقرءان] ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [أي أُنزل لإنذار الكافرين ولتذكير المؤمنين].

٣- ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي القرءانَ والسنة [قيل: هو ابتداء خطاب للمشركين] ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دون الله ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ ولا تتولَّوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، [وقليل من يؤمن منكم].

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم
بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ
مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾

٤- ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أردنا إهلاكها ﴿فَجَآءَهَا﴾ جاء أهلها ﴿بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ كأنه قيل: فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين[1] وقيل: ﴿بَيَٰتًا﴾: ليلًا، أي ليلًا وهم نائمون، أو نهارًا وهم قائلون.

٥- ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ دعاؤهم وتضرعهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ لـمَّا جاءَهم أوائلُ العذاب ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ اعترفوا بالظلم على أنفسهم والشرك حين لم ينفعهم ذلك.

٦- ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ فلنسألن المرسَلَ إليهم وهم الأمم عما أجابوا به رسُلَهم ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ عما أجيبوا به.

٧- ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ على الرسل والمرسَلِ إليهم ما كان منهم ﴿بِعِلْمٍ﴾ عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ عنهم وعما وُجِدَ منهم، ومعنى السؤال التوبيخُ والتقريع والتقرير إذا فاهوا به بألسنتهم وشَهِدَ عليهم أنبياؤهم.

٨- ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ وزنُ الأعمال والتمييزُ بين راجحها وخفيفها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم يَسألُ اللهُ الأممَ ورسلَهم ﴿ٱلْحَقُّ﴾ العدلُ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمعُ ميزانٍ أي فمن رَجَحت أعمالُه الموزونة التي لها وزنٌ وقَدْرٌ وهي الحسنات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾ الفائزون.

٩- ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ هم الكفار، فإنه لا إيمانَ لهم ليعتبرَ معه عملٌ، فلا يكون في ميزانهم خيرٌ، فتخف موازينهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ

---

(١) من القيلولة وهو النوم في الظهيرة.

﴿أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾﴾

أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ يَجحَدون، فالآيات الحجج، والظلم بها جحودُها وترك الانقياد لها.

١٠- ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾ جمع معيشةٍ، وهي ما يُعاشُ به من المطاعم والمشارب وغيرهما ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [على ذلك].

١١- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ أي خلقنا أباكم ءادمَ عليه السلام طينًا غيرَ مُصورٍ ثم صورناه بعد ذلك، دليلُهُ: ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [كان بين الملائكة ومعهم ولم يكن منهم بل كان من الجن بالنص القرءاني، ولأنه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور، ولأنه أبى وعصى واستكبر والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، فالاستثناء من غير جنسه] ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ ممن سَجَد لآدم عليه السلام.

١٢- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ أيُّ شيءٍ منعك من السجود ﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ فيه دليل على أن الأمر للوجوب، والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكِبره وافتخاره بأصله وتحقيره أصلَ ءادم عليه السلام ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾ وهي جوهرٌ نوارني ﴿وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾﴾ وهو ظُلْماني، وقد أخطأ الخبيث، بل الطين أفضلُ لرَزانَتِه ووَقاره، ومنه الحِلمُ والحياءُ والصبر، وذلك دعاهُ -[أي دعا ءادم بعدما أكل من الشجرة]- إلى التوبة والاستغفار، وفي النار الطَّيْشُ والحِدَّة والترفُّع، وذلك دعاه -[أي دعا إبليس بعدما أُمر بالسجود لآدم]- إلى الاستكبار، والطين عُدَّةُ الممالك والنار عدة

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

المهالك، والطين يطفئ النار وَيُتلفها والنار لا تتلفه، كأنه قال: منعني من السجود فضلي عليه، واستبعادُ أن يكون مثلُه مأمورًا بالسجود لمثله.

١٣- ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ من الجنة لأنه كان فيها، وهي مكان المطيعين والمتواضعين ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصح لك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصِيَ ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ من أهل الصَّغار[1] والهَوَان على الله وعلى أوليائه يَذمُّك كل إنسانٍ ويلعنك كل لسانٍ لتكبرك.

١٤- ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ أمهلني إلى يوم البعث وهو وقت النفخة الأخيرة.

١٥- ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ إلى النفخة الأولى، وإنما أجيب إلى ذلك لما فيه من الابتلاء، وإنما جَسَرَهُ على السؤال مع وجود الزلل منه في الحال عِلمُه بحِلْم ذي الجلال.

١٦- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أَضلَلْتني، أي فبسبب إغوائك إياي أُقسمُ ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ لأعترضَنَّ لهم على طريق الإسلام مترصِّدًا للرد متعرضًا للصد.

١٧- ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أُشكِّكُهم في الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في الدنيا ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ من قِبل الحسنات [فأُثبِّطهم عنها] ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ من قِبل السيئات [فأزينها لهم وءامرَهم بها] ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ مؤمنين، قاله ظنًّا فأصاب.

---

(١) الصَّغار: الذُّلُّ، والمراد أن الله تعالى أذله وجعله ملعونًا رجيمًا إلى يوم القيامة جزاءً له على تكبره.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ
وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا
ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن
تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا
ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾

١٨- ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة ﴿مَذْءُومًا﴾ مَعيبًا ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مُبعدًا من رحمة الله ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ﴾ منك ومنهم ﴿أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

١٩- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾ وقلنا: يا ءادم بعد إخراج إبليس من الجنة ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ اتخذاها مسكنًا ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [بالأكل منها] ﴿فَتَكُونَا﴾ فتصيرا ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [من الضارين أنفسهم].

٢٠- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وسوس: إذا تكلم كلامًا خفيًّا يُكَرِّره ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ليكشف لهما ما سُتِرَ عنهما من عوراتهما، وفيه دليلٌ على أن كشف العورة من عظائم الأمور، وأنه لم يزل مستقبحًا في الطباع والعقول ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ إلا [من أجل أن لا] تكونا مَلَكين تَعلمان الخير والشر وتستغنيان عن الغذاء ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ من الذين لا يموتون ويبقَون في الجنة ساكنين.

٢١- ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ وأقسم لهما ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [وكذب عدو الله في ذلك].

٢٢- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ فنزَّلهما إلى الأكل من الشجرة ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرَّهما به من القَسَم بالله ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ وجدا طعمَها ءاخذَين في الأكل منها وهي السنبلة أو الكرم[1] ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ ظهرت لهما عوراتهما

---

(١) وقيل غير ذلك، الله أعلم بحقيقة الشجرة، ولم يَرِد شيء ثابت بحقيقتها.

﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل
لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ
حِينٖ ٢٤﴾

لِتَهافُتِ[1] اللباس عنهما ﴿وَطَفِقَا﴾ وجعلا ﴿يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ يجعلان على عورتهما من ورق التين أو الموز ورقةً فوق ورقةٍ ليستترا بها كما تُخْصَفُ النعلُ ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [استفهام بمعنى الإثبات، وهو] عِتابٌ من الله وتنبيهٌ على الخطأ، [وليس معنى ذلك أن الله تعالى كلمهما بكلامه الذاتي الأزلي الذي ليس حرفًا ولا صوتًا ولا لغة، وإنما معناه نداءُ الملك بأمر الله تعالى، وإلا للزم أن يكون ءادم وحواء كليمَين بمثابة موسى عليه السلام مع أن هذا كان قبل النبوة بالنسبة لآدم عليه السلام وللزم منه مساواة غير النبي - وهي حواء - النبيَّ لأن سماع كلامه تعالى الذاتي الذي هو صفته مما خصَّ به ذوي النبوة كما ورد في النص القرءاني لموسى عليه السلام في سورة الأعـــراف ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ١٤٤﴾] ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [بيّنُ العداوة، والاستفهام للتقرير].

٢٣- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا﴾ [ذنبنا] ﴿وَتَرۡحَمۡنَا﴾ [بقبول توبتنا] ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [أي الهالكين].

٢٤- ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ﴾ الخطاب لآدم وحواء بلفظ الجمع لأن إبليس هبط من قبلُ، ويحتمل أنه هبط إلى السماء ثم هبطوا جميعًا إلى الأرض ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ متعادِين يعاديهما إبليسُ ويعاديانِه ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾ استقرارٌ ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ وانتفاع بعيشٍ ﴿إِلَىٰ حِينٖ ٢٤﴾ إلى انقضاء ءاجالكم.

---

(١) التهافت: التساقط قطعة بعد قطعة.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي
سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ
لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ
إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٧﴾

٢٥- ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ في الأرض ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾ للثواب والعقاب.

٢٦- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ جعل ما في الأرض مُنزَّلًا من السماء لأن أصله من الماء وهو منها ﴿يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ يستر عوراتِكم ﴿وَرِيشًا ۖ﴾ لباس الزينة، استُعير من ريش الطير لأنه لباسُه وزينته، أي أنزلنا عليكم لباسين: لباسًا يواري سوءاتكم ولباسًا يزينكم ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ ولباسُ الوَرَع الذي يقي العقاب ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ﴾ كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على فَضلِه ورحمته على عباده، يعني إنزالَ اللباس ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦﴾ فيعرفوا عظيمَ النعمة فيه.

٢٧-﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ لا يخدَعَنَّكم ولا يُضِلنَّكم بألّا تدخلوا الجنةَ كما فتنَ أبويكم بأن أخرجَهما منها ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ أَخرَجهما نازعًا لباسَهما بأن كان سببًا في أن نُزِعَ عنهما(١)، أي لا تتبعوا الشيطان فيفتنكم ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ﴾ عوراتهما ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾ تعليل للنهي وتحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدو المُدَاجِي(٢) يَكيدكم من حيث لا تشعرون ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ وذريته، أو وجنوده من الشياطين ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ﴾ قال ذو النون: إن كان هو يراك من حيث لا تراه، فاستعن بمن يراه من حيث لا يراه، وهو الله الكريم الستار الرحيم الغفار ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ [أعوانًا وقرناء] ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٧﴾ فيه دلالة خلق الأفعال.

---

(١) لكنهما ستراها على الفور ولم يخرجا من الجنة مكشوفَي العورة.
(٢) أي: المُداري الذي يُخفي عداوَته.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ
أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ
مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ
ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَـٰبَنِىٓ
ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾

٢٨- ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾ ما يُبَالَغُ في قُبحه من الذنوب وهو طوافُهم بالبيت عراةً وشِرْكُهم ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ إذا فعلوها اعتذروا بأن ءاباءهم كانوا يفعلونَها فاقتدَوا بهم، وبأن الله أمرهم بأن يفعلوها حيث أَقرَّنا عليها إذ لو كرِهَها لنَقَلَنا عنها، وهما باطلان لأن أحدَهما تقليد للجهال والثاني افتراء على ذي الجلال ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾ إذ المأمورُ به لا بد أن يكون حسنًا وإن كان على مراتب على ما عرف في أُصولِ الفقه ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ استفهام إنكارٍ وتوبيخ.

٢٩- ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ بالعدل وبما هو حَسَنٌ عند كل عاقلٍ، فكيف يأمر بالفحشاء ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ اقصدوا عبادتَه في كل سجودٍ ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾ أي الطاعةَ مبتغين بها وجهَه خالصًا ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ كما أنشأكم ابتداءً يُعيدكم، احتجَّ عليهم في إنكارهم الإعادةَ بابتداء الخلق، والمعنى أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم، فأخلصوا له العبادة.

٣٠- ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وهم المسلمون ﴿وَفَرِيقًا﴾ أي أضل فريقًا ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ﴾ وهم الكافرون ﴿إِنَّهُمُ﴾ إن الفريق الذين حَقَّ عليهم الضلالةُ ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أنصارًا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ والآية حجة لنا على أهل الاعتزال في الهداية والإضلال.

٣١- ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ لباسَ زينتِكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ كلما

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ
لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ
نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ
بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾

صليتم، وقيل: الزينة المِشطُ والطيب، والسنةُ أن يأخذ الرجل أحسنَ هيئاتِه للصلاة، لأن الصلاة مناجاةُ الربِّ[1] فيستحب لها التزيُّنُ والتعطر كما يجب التستر والتطهر ﴿وَكُلُوا۟﴾ من اللحم والدَّسَم ﴿وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [ولا تجاوزوا حد الشرع] بالشروع في الحرام ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأَتْكَ خصلتان: سَرَفٌ ومَخِيلَة[2].

ثم استفهم إنكارًا على مُحَرِّمِ الحلال بقوله:

٣٢- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ من الثياب وَكُلِّ ما يُتجمَّلُ به ﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أصلَها، يعني القطنَ من الأرض، والقَزَّ من الدود ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ والمستلَذَّات من المآكل والمشارب، وقيل: كانوا إذا أحرموا حرَّموا الشاةَ وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ غير خالصةٍ لهم، لأن المشركين شركاؤهم فيها ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يَشرَكُهم فيها أحدٌ يوم القيامة ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نُمَيزُ الحلالَ من الحرام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أنه لا شريك له.

٣٣- ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الفواحشُ ما تفاحَشَ قبحُه أي تزايدَ ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ سِرَّها وعَلانِيَتَها ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ شُربَ الخمر أو كلَّ ذنبٍ ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ والظلمَ والكِبرَ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ

---

(١) مناجاة الله تعالى معناه مدحه تعالى والثناء عليه ونداؤه لطلب أشياء ودفع أشياء.

(٢) السَّرَف هو الإسراف ومجاوزة الحد، والمَخِيْلَةُ بفتح الميم وكسر الخاء: الاختيال والكبر.

﴿سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ
سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ
وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا﴾

﴿سُلْطَٰنًا﴾ حُجةً، كأنه قال: حَرّم الفواحش وحرَّم الشرك ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وأن تتقوَّلوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.

٣٤- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وقتٌ معين يأتيهم فيه عذابُ الاستئصال إن لم يؤمنوا، وهو وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أَجلٍ معلوم عند الله كما نَزلَ بالأمم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ قيَّد بساعةٍ[1] لأنها أقل ما يستعمل في الإمهال.

٣٥- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [﴿إِمَّا﴾ كلمتان: (إنْ) و(ما)، و(إنْ)] هي إن الشرطية ضُمت إليها ما مؤكدةً لمعنى الشرط [والمعنى: وإن جاءكم ومتى جاءكم] ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [من جنسكم] ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ يقرؤون عليكم كتبي وجواب الشرط: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الشركَ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل منكم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أصلًا.

٣٦- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ منكم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ تَعَظَّموا عن الإيمان بها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

٣٧- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ فمن أَشنعُ ظلمًا ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ ممن تقوَّل على الله ما لم يقله، أو كذّب ما قاله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ما كُتِبَ لهم من الأَرزاق والأعمار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ مَلَكُ الموت وأَعوانُه ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يَقبضونَ أرواحَهم ﴿قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا

---

(١) الساعة هنا أقل الوقت ليست الساعة الزمنية والفلكية.

﴿كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟
كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا
دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ
أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليذُبُّوا عنكم ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ غابوا عنا فلا نراهم ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ اعترفوا بكفرهم بلفظ الشهادة التي هي لتحقيق الخَبَر.

٣٨- ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟﴾ أي يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفار: ادخلوا ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ من كفار الجن والإنس ﴿فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ النارَ ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلت بالاقتداء بها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ تلاحقوا واجتمعوا في النار ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ منزلةً وهي الأتباع والسَّفِلة[1] ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ منزلةً وهي القادة والرؤوس، ومعنى لأُولاهم لأجل أُولاهم، لأن خطابهم مع الله لا معهم ﴿رَبَّنَا﴾ يا ربنا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ مضاعفًا ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ للقادة بالغَواية والإغواء، وللأَتباع بالكفر والاقتداء ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ما لكل فريقٍ منكم من العذاب، أي لا يعلم كل فريقٍ مقدارَ عذاب الفريق الآخر.

٣٩- ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ لا فضل لكم علينا وإنّا متساوون في استحقاق الضِّعف ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بكسبكم وكفركم، وهو من قول الله لهم جميعًا.

(١) السَّفِلَةُ بكسر الفاء: السُّقَّاط من الناس.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ
حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن
فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا
نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢ وَنَزَعۡنَا مَا فِي
صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾

٤٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لا يؤذن لهم في صعود السماء ليدخلوا الجنة، أي لا يصعد لهم عمل صالح ولا تنزل عليهم البركة ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ حتى يدخل البعير في ثَقب الإبرة، أي لا يدخلون الجنةَ أبدًا ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلَ ذلك الجزاء الفظيع الذي وصفنا ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠﴾ الكافرين بدلالة التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها.

٤١- ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ﴾ فِراشٌ ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ أغطيةٌ[١]، جمع غاشيةٍ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾ أنفسَهم بالكفر.

٤٢- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا﴾ [منهم] ﴿إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ طاقتها [في الدنيا] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأٌ، والخبرُ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ والجملة خبر ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، و﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ اعتراض بين المبتدأ والخبر ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢﴾ [في العقبى].

٤٣- ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ حِقدٍ كان بينهم في الدنيا فلم يبق بينهم إلا التوادُّ والتعاطف ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ لما هو وسيلةٌ إلى هذا الفوز العظيم وهو الإيمان ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ وما كان يصح أن نكون مهتدين لولا هدايةُ الله ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ فكان لطفًا لنا وتنبيهًا على

(١) أي: لُحُفٌ من نار، أي تحيط بهم النار من جميع الجهات.

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ
ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ
بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ
كَٰفِرُونَ ٤٥ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾

الاهتداء فاهتدينا، يقولون ذلك سرورًا بما نالوا وإظهارًا لما اعتقدوا ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ أي كأنه قيل لهم: تلكم الجنة ﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾ أُعطيتموها ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ سمَّاها ميراثًا لأنها لا تُستحَقّ بالعمل، بل هي مَحْضُ فضلِ الله وَعَدَهُ على الطاعات كالميراث من الميت ليس بعوض عن شيء بل هو صلة[1] خالصة.

٤٤- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثواب ﴿حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ﴾ من العذاب ﴿حَقّٗاۖ﴾ وتقديره: وعدكم ربكم، فحذف «كُمْ» لدلالة ﴿وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ عليه، وإنما قالوا لهم ذلك شَماتةً بأصحاب النار واعترافًا بنِعَم الله تعالى ﴿قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ نادى منادٍ وهو مَلَكٌ يُسمع أهلَ الجنة والنار ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾.

٤٥- ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ ويطلبون لها الاعوجاج والتناقُضَ ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بالدار الآخرة ﴿كَٰفِرُونَ ٤٥﴾ [جاحدون].

٤٦- ﴿وَبَيۡنَهُمَا﴾ وبين الجنة والنار، أو بين الفريقين ﴿حِجَابٞۚ﴾ وهو السُّور المذكور في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ ١٣﴾ [سورة الحديد] ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ على أعراف الحِجاب، وهو السور المضروب بين الجنة والنار، وهي أعاليه جمع عُرفٍ استعير من عُرف الفرس وعُرف الديك ﴿رِجَالٞ﴾ من أفاضل المسلمين أو من ءاخِرهم دخولًا في الجنة لاستواء حسناتهم وسيئاتهم ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا﴾ من زُمرة السعداء والأشقياء ﴿بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾

---

(١) أي: عَطِيَّة.

﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ
أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ
قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ
ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ
أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾

بعلامتهم [التي يلهمهم الله معرفتها]، قيل: سِيْما المؤمنين بياضُ الوجوه ونضارتُها، وسيما الكافرين سوادُ الوجوه ﴿وَنَادَوْاْ﴾ أي أصحابُ الأعراف ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ﴾ أنه سلام، وهو تهنئةٌ منهم لأهل الجنة ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي أصحابُ الأعراف ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ في دخولها.

٤٧- ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أبصارُ أصحاب الأعراف، وفيه أن صارفًا يَصرِفُ أبصارَهم لينظروا فيستعيذوا ﴿تِلْقَآءَ﴾ ناحيةَ ﴿أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ ورأوا ما هم فيه من العذاب ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فاستعاذوا بالله وفَزِعوا إلى رحمته ألّا يجعلَهم معهم.

٤٨- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ من رؤوس الكفرة ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ المالَ، أو كثرَتُكم واجتماعُكم ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ واستكبارُكم عن الحق وعلى الناس.

٤٩- ثم يقولون لهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ حلفتم في الدنيا، والمشار إليهم فقراءُ المؤمنين كصُهيبٍ وسَلْمانَ ونحوِهما ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ﴾ تقديره: أَقسمتُم عليهم بألّا ينالَهم اللهُ برحمةٍ، أي لا يُدخلُهم الجنة، [وقد كانوا] يحتقرونَهم لفقرهم، فيقال لأصحاب الأعراف: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ وذلك بعد أن نظروا إلى الفريقين وعرفوهم بسيماهم وقالوا ما قالوا ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

٥٠- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ وفيه دليل على أن الجنةَ فوق النار ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة، أو من الطعام والفاكهة

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا
وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ٥٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ
جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا
نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ هو تحريم منعٍ.

٥١- ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ فحرَّموا وأحلُّوا ما شاؤوا ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ اغتروا بطول البقاء ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ نتركُهم في العذاب [كالمنسيّين، قال الإمام الماتريدي في شرح التأويلات: «لا يجوز أن يضاف النسيان إلى الله تعالى بحال»، فلا يجوز على الله تعالى أن ينسى أو يسهو أو يغفل عن شيء] ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ [بتركهم العمل له كالمتناسين له] ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾ [أي: لنسيانهم وكونهم جحدوا ءايات الله تعالى].

٥٢- ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾ ميّزنا حلالَه وحَرامَه ومواعِظَه وقِصَصَه ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ عالمين بكيفية تفصيل أحكامه ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾.

٥٣- ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ إلا عاقبةَ أَمرِهِ وما يؤولُ إليه من تبيُّن صِدقِه وظهورِ صحة ما نَطَقَ به من الوعدِ والوعيد ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [عاقبةُ تصديقِه وتكذيبه، وهو يوم القيامة] ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ تركوه وأعرضوا عنه ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ تَبيَّنَ وصَحَّ أنهم جاءوا بالحق فأقروا حين لا ينفعهم ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ﴾ كأنه قيل: فهل لنا من شفعاءَ أو هل نُرَدُّ ﴿فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾ ما كانوا يعبدونه من الأصنام.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾

٥٤- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أراد السمٰوات والأرض وما بينهما، وقد فَصَّلَها في «حم السجدة» أي من الأحد إلى الجمعة لاعتبار الملائكة، شيئا فشيئًا، وللإعلام بالتأني في الأمور، ولأن لكل عملٍ يومًا، ولأن إنشاء شيءٍ بعد شيءٍ أدلُّ على عالمٍ مدبِّرٍ مريدٍ يُصَرِّفه على اختياره ويُجريه على مشيئته ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ استولى ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[1] أضاف الاستيلاء إلى العرش، وإن كان سبحانه وتعالى مستوليًا على جميع المخلوقات، لأن العرش أَعظمُها وأعلاها، وتفسير العرش بالسرير والاستواءِ بالاستقرار - كما تقوله المشبهةُ - باطلٌ [كفر]، لأنه تعالى كان قبل العرش ولا مكان، وهو الآن كما كان، لأن التغير من صفات الأكوان ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يُلحِقُ الليلَ بالنهار، أو النهارَ بالليل ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ سريعًا، والطالب هو الليل كأنه لسرعة مُضيّه يطلب النهار ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ وخلق الشمسَ والقمرَ والنجوم ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ مذللات ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ هو أَمرُ تكوينٍ، ولما ذكر أنه خلقهن مسخراتٍ بأمره قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ هو الذي خلق الأشياء وله الأمر ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ كَثُرَ خيرُهُ أو دام بِرُّهُ، مِنَ البَركةِ النَّماءِ ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

٥٥- ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ ذوي تضرعٍ وخُفيةٍ أي: تذللًا وتملُّقًا[2] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ المجاوزين ما أمروا به في كل شيءٍ من الدعاء وغيره.

---

(١) ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ معناه وقد استوى على العرش. «ثم» معناها هنا معنى الواو، يقال في اللغة: زيد يأتي غدًا ثم إنه كان أتى قبل هذا، معناه وقد أتى قبل هذا، المشبهة المجسمة عندهم ثم هنا للتأخر.

(٢) أي: تذللًا وتخشُّعًا لطاعته لا جهارًا ومراءاةً، والتملُّقُ: التلطف والتودد.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا
ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا
كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾

٥٦- ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بالمعصية بعد الطاعة ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خائفين من الرد طامعين في الإجابة ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ شيء قريب ﴿مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [عملًا والمحسنين أملًا، أما الأول ففي الموفين، وأما الثاني ففي المقصِّرين الطامعين في إجابة الدعاء].

٥٧- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا﴾ لأن الرياح تبشّر بالمطر ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أمام نعمته وهي الغيث الذي هو من أجلِّ النعم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ﴾ حملت ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء ﴿سُقْنَاهُ﴾ [أي: السحاب] ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لأجل بلدٍ ليس فيه مطر ولسَقْيهِ ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ بالسحاب، [أو بالبلد الماءَ] ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [مما تثمره الأرض كالحبوب والفواكه] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الإخراج وهو إخراج الثمرات ﴿نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ فيؤديكم التذكرُ إلى الإيمان بالبعث إذ لا فرق بين الإخراجين.

٥٨- ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الأرضُ الطيبةُ التربةِ ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بتيسيره حسنًا وافيًا ﴿وَالَّذِي خَبُثَ﴾ والبلد الخبيث ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباته ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ هو الذي لا خير فيه، وهذا مَثَلٌ لمن يَنْجَعُ فيه الوعظ وهو المؤمن، ولمن لا يؤثر فيه وهو الكافر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك التصريف ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ نردِّدُها ونكررها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ نعمةَ الله وهم المؤمنون ليتفكروا فيها ويعتبروا بها.

٥٩- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أُرسل وهو ابنُ خمسين سنةً وكان

﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ
مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ
أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

نجارًا ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ ما لكم إلٰه غيرُهُ فلا تعبدوا معه غيرَهُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾﴾ يومِ القيامة، أو يومِ نزول العذاب عليهم وهو الطوفان.

٦٠- ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ الأشراف والسادة ﴿مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾﴾ بيِّن، في ذهابٍ عن طريق الصواب.

٦١- ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ ليس بي شيء من الضلال ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ في الغاية القصوى من الهدى.

٦٢- ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ ما أُوحيَ إليَّ في الأوقات المتطاوِلَةِ ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ وأقصد صلاحكم بإخلاصٍ ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي من صفاته، يعني قدرتَه الباهرةَ وشدةَ بطشِهِ على أعدائه وأَنَّ بأسَه لا يُرَد عن القوم المجرمين.

٦٣- ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾ كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم ﴿أَن جَآءَكُمۡ﴾ من أن جاءكم ﴿ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾ موعظةٌ على لسان رجل منكم ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾ ليحذرَكم عاقبة الكفر ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ ولتوجَدَ منكم التقوى، وهي الخشية بسبب الإنذار ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ولترحموا بالتقوى إن وُجدت منكم.

٦٤- ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فنسبوه إلى الكذب ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ وكانوا أربعين رجلًا وأربعين امرأةً ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ كأنه قيل: والذين صَحِبوه في الفلك ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ عن الحق.

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ
وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا﴾

٦٥- ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ وأرسلنا إلى عادٍ ﴿أَخَاهُمْ﴾ واحدًا منهم، من قولك: يا أخا العرب للواحد منهم ﴿هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [استفهام بمعنى الأمر، أي اتقوا الله].

٦٦- ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وإنما وصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوحٍ، لأن في أشراف قوم هودٍ من ءامن به، ولم يكن في أشراف قوم نوح عليه السلام مؤمن ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ في خِفَّة حِلم وسخافة عقلٍ حيث تهجرُ دين قومك إلى دينٍ ءاخر ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ في ادّعائك الرسالة.

٦٧-٦٨ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ فيما أدعوكم إليه ﴿أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ على ما أقول لكم.

٦٩- ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ خَلَفْتُموهم في الأرض أو في مساكنهم ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ طُولًا وامتدادًا فكان أقصَرُهم ستينَ ذراعًا وأطولُهم مائةَ ذراع ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ [نِعَمَهُ] في استخلافكم وبَسطَةِ أجرامكم وما سواهما من عطاياه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [لتفوزوا بكل مأمول، وتُوقَوْا كلَّ محذور].

٧٠- ومعنى المجيء في ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا﴾ أن يكون لهودٍ عليه السلام

﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾

مكانٌ معتزَلٌ عن قومه يتحنَّث[1] فيه كما كان يفعل رسولُ الله ﷺ بحِرَاءَ قبلَ المَبعث، فلما أوحي إليه جاء قومَه يدعوهم [فقالوا: أجِئتنا] ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أنكروا واستبعدوا اختصاص اللهِ وحدَه بالعبادة وتركَ دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاءَ معه حُبًّا لِمَا نشأوا عليه ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أن العذاب نازل بنا.

٧١- ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ أي قد نزل ﴿عَلَيْكُم﴾ جعَلَ المتوقَّعَ الذي لا بُدَّ من نزوله بمنزلة الواقع، كقولك لمن طلب إليك بعض المطالب: قد كان ﴿مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب ﴿وَغَضَبٌ﴾ سَخَطٌ ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ في أشياءَ ما هي إلا أسماءٌ ليس تحتها مسمَّيات، لأنكم تسمُّونَ الأصنامَ ءالهةً، وهي خالية عن معنى الألوهية ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ حجةٍ ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ نزولَ العذاب ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ ذلك.

٧٢- ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي من ءامن به ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدابرُ: الأَصلُ، وقطعُ دابرهم استئصالُهم وتدميرُهم عن آخِرِهم ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ فائدة نفي الإيمان عنهم مع إثبات التكذيب بآيات الله الإشعارُ بأن الهلاك خصَّ المكذبين.

٧٣- ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وأرسلنا إلى ثمود، وقيل: سُميت ثمودَ لقلة

---

(١) يَتحنَّث أي: يتعبد.

﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

مائها من الثَّمَد وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحِجرَ بين الحجاز والشام ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ ءايةٌ ظاهرة شاهدة على صحة نبوتي ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ هذه إضافة تخصيصٍ وتعظيم لأنها بتكوينه تعالى بلا صُلْبٍ ولا رَحِم، [بل من صخرة صمَّاء[1]] ﴿لَكُمْ ءَايَةًۖ﴾ [علامةً ظاهرةً على رسالتي] ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ﴾ فذروها تأكل في أرض ربها من نبات ربها، فليس عليكم مؤنَتُها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ ولا تضربوها ولا تعقِروها ولا تطردوها إكرامًا لآية الله ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [موجع، وهو في الدنيا].

٧٤- ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾ ونزَّلكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أرض الحِجْرِ بين الحجاز والشام ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ غرفًا للصيف ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾ للشتاء ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ روي أن عادًا لمَّا أُهلكت عمَّرت ثمودُ بلادَها وخَلَفوها في الأرض، وعُمِّروا أعمارًا طوالًا فنحتوا البيوت من الجبال خَشية الانهدام قبل الممات، وكانوا في سعةٍ من العيش، فَعَتوا[2] على الله، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، فبعثَ الله إليهم صالحًا، وكانوا قومًا عَرَبًا، وصالحٌ من

---

(١) أي: صُلبة شديدة من غير تجويف.
(٢) العُتُوُّ: التَّجبُّر والتَّكبر.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ
أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾

أوسطهم نسبًا، فدعاهم إلى الله، فلم يَتَّبعه إلا قليلٌ منهم مستضعفون، فأنذرهم، فسألوه أن يُخرجَ من صخرةٍ بعينها ناقةً عُشَراء[١]، فصَلَّى ودعا ربه فتمخَّضت تَمَخُّضَ النَّتُوجِ بولدها[٢]، فخرجت منها ناقة كما شاؤوا فآمن به رَهْطٌ من قومه[٣].

٧٥- ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ للذين استضعفهم رؤساء الكفار ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ وهو يدل على أن استضعافهم كان مقصورًا على المؤمنين ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ قالوه على سبيل السخرية ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أُرسل به لا شُبهة فيه، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم أنَّا مؤمنون.

٧٦- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ ردًّا لما جَعَلَه المؤمنون معلومًا مسلَّمًا.

٧٧- ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ أُسند العَقرُ إلى جميعهم وإن كان العاقر قُدَارَ ابنَ سالفٍ لأنه كان برضاهم، وكان قدارُ أحمرَ أزرقَ قصيرًا كما كان فرعون كذلك ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وتولَّوا عنه واستكبروا ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

---

(١) ناقة عُشَراء أي حامل مضى لحملها عشرة أشهر، فإذا وضعت لتمام سنة فهي عُشَراءُ أيضًا.

(٢) أي: تحركت كحركة الحامل بولدها إذا أرادت وضعَه.

(٣) الرهطُ: دون العشرة من الرجال.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ
لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

٧٨- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الصَّيحةُ التي زُلزِلت لها الأرضُ واضطربوا لها ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ في بلادهم أو مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ ميتين قعودًا.

٧٩- ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ لمَّا عقروا الناقة ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ﴾ عند فراقهِ إياهم ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ الآمِرين بالهدى لاستحلاءِ الهوى. رُوِيَ أنّ عَقْرَهم الناقةَ كان يومَ الأربعاء، فقال صالحٌ: تعيشون بعده ثلاثةَ أيام تصفَرُّ وجوهُكم أولَ يومٍ وتحمَرُّ في الثاني وتسوَدُّ في الثالث ويُصيبكم العذابُ في الرابع، وكانَ كذلك. روي أنه خرج في مائةٍ وعشرةٍ من المسلمين وهو يبكي، فلما علم أنهم هَلَكوا رجعَ بمن معه فسكنوا ديارهم.

٨٠- ﴿وَلُوطًا﴾ أي واذكـر لـوطًـا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أتفعلون السيئة المتمادية في القبح ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ ما عَمِلَها قبلَكم ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ مِن زائدةٌ لتأكيد النفي وإفادةِ معنى الاستغراق ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾، أنكر عليهم أولًا بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ ثم وبَّخهم عليها بقوله: أنتم أول من عملها[1].

---

(١) لا يجوز أن يقال: «إن فعلَ اللواط مشتقٌّ من اسم نبي الله لوط»، وقد ذكر الزركشي في تشنيف المسامع ما نصه: «الأفعال مشتقَّة من المصادر على الصحيح، والأفعال أصل للصفات المشتقة منها فتكون المصادر أصلًا لها أيضًا» اهـ. وقال أبو منصور اللغوي: وكلُّ أسماءِ الأنبياءِ أعجميّةٌ إلا أربعةً ءادم وصالح وشعيب ومحمد اهـ وهذا خلافُ ما جاء في الصحيحِ ففي صحيح ابن حبانَ من حديثِ أبي ذرٍّ أن الرسولَ عليه السلام قال: «**أربعةٌ من الأنبياءِ من العربِ هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ ومحمدٌ**» وظاهرُ الحديثِ أن أسماء غيرِ الأربعة أعجمية، ويمكننا تأويلُ الحديثِ على أن المرادَ به أن الأربعةَ عربٌ ومن سواهم=

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾

٨١- ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ لا حامل لكم عليه إلا مجردُ الشهوة [وهو] وَصْفٌ لهم بالبهيمية ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ [اللاتي خُلقن لذلك] ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بأنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيءٍ، فمِن ثَمَّ أسرفوا في باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد.

= لا يُسَمَّون عربًا من حيث الجنسيةُ وعلى هذا لا يعارِض كونَ لفظ ءادم عربيًّا. وكيف يمضي هذا الزمن الطويل من ءادم إلى لوط من غير أن تكون اللغة العربية وهي أول لغة تكلم بها ءادم وعلمها أبناءه كلغاتٍ غيرها فيها فعل للواط بل كان أولاد ءادم ومن بعدهم يعرفون كلمة لاط بتصاريفها كما كانوا يعرفون كلمة الزنى وتصاريفها، وقائل هذا كالذي يقول إن البشر ما كانوا يعرفون كلمة الزنى وتصاريفها حتى مضى على البشر زمان طويل، وكيف يكون هود وصالح اللذان هما مبعوثان إلى العرب لغتهما ولغة من أرسلا إليهم خاليةٌ عن هذه الكلمة فلا يغترَّ بأن هذه المقالة الشنيعة مذكورة في كتاب لسان العرب (٧/٣٩٦) وشرح القاموس تاج العروس (٥/٢١٨) وليس لهما حجة إلا تقليد الليث في ذلك. وقد زيّف هذه المقالة من أئمة اللغة الزجاج، فلا يجوزُ أن يُقالَ إن لوطًا مشتقٌّ من اللواطِ لأن اللواطَ لفظٌ عربيٌّ وهو مصدَرُ لاطَ، ولوط اسمٌ أعجميٌّ فكيفَ يدّعي مدَّعٍ أنه مشتقٌّ من اللواطِ، وكذلك عكسُهُ وهو القولُ بأن اللواطَ مأخوذٌ من لوطٍ، فلفظُ اللواطِ كانَ قَبلَ قوم لوطٍ لأنَّ اللغةَ العربيةَ لغةٌ قديمةٌ حتى قال بعض العلماءِ: إن أولَ لغةٍ تكلَّمَ بها ءادمُ هي العربية، ويشهَدُ لذلك ما وَرَدَ في الصحيح: «**أن ءادمَ عَطَسَ فقالَ الحمدُ لله**»، وإنما قومُ لوطٍ هم أولُ من فَعَلَ تلكَ الفعلةَ الشنيعةَ، أما اللفظُ كانَ موضوعًا بين المتكلمينَ باللغةِ العربيةِ قبلَ لوط وهم قومُ عادٍ، وليس في قولِ الله تعالى إخبارًا عن قولِ لوط لقومِهِ ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [سورة الأعراف] أن لفظَ اللواطِ لم يكن قبل ذلكَ وإنما معناهُ أنَّ فعلَ تلك الفاحشةِ لم يسبقهم بها قبلهم غيرهم، فوَضعُ الكلمةِ يَتَقَدَّمُ على العملِ بهِ، واللواطُ هكذا اللفظُ سابقٌ لكن التَّنفيذ ما حَصَلَ إلا في قوم لوطٍ، ولا يقاسُ الاشتقاقُ على المُعَرَّبِ، فالمعرَّبُ لا يُسمى اشتقاقًا فهو شيءٌ والاشتقاقُ شيءٌ ءاخر، فنقولُ في المعرَّب نقل لغةٍ أعجميةٍ إلى العربيةِ ولم يستعملوهُ على أنهُ عربيٌّ، فأسماءُ الأعيانِ نُقِلَ عددٌ منهم والعربُ استعملتها استعمالا وليسَ هناكَ أنه اشتقَّ هذا من هذا، فرقٌ بعيدٌ بين المعرَّبِ والاشتقاقِ. أفاده الإمام الهرري في كتابه الدليل القويم على الصراط المستقيم.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ
يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا
تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ﴾

٨٢- ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾ أي لوطًا ومن ءامن معه، يعني ما أجابوه بما يكون جوابًا عما كلَّمهم به لوطٌ من إنكار الفاحشة ووصفِهم بصفةِ الإسراف الذي هو أصلُ الشر، ولكنهم جاءوا بشيءٍ ءاخر لا يتعلق بكلامه ونصيحَتِه من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يدَّعون الطهارة ويدَعون فِعلَنا الخبيثَ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: عابوهم بما يُتَمَدَّح به.

٨٣- ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ ومن يختص به من ذويه، أو من المؤمنين ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ من الباقين في العذاب، وكانت كافرة موالية لأهل سَدُوم.

٨٤- ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ وأرسلنا عليهم نوعًا من المطر عجيبًا، قالوا: أَمطَرَ اللهُ عليهم الكبريت والنار ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ الكافرين.

٨٥- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ وأرسلنا إلى مَدْيَنَ، وهو اسمُ قبيلة ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ﴾ يقال له خطيبُ الأنبياء لحسن مراجعته قومَه، وكانوا أهلَ بَخْسٍ للمكاييل والموازين ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ مُعجزةٌ، وإن لم تذكر في القرءان ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أَتِمُّوهما، والمراد: فأوفوا الكيلَ ووَزْنَ الميزان ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ ولا تَنقُصوا حقوقَهم بتطفيف الكيل ونُقصان الوزن ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ﴾ بعدَ

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧ ۞قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾

الإصلاح فيها، أي بعدما أصلحَ فيها الصالحونَ من الأنبياء والأولياء ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ في الإنسانية وحُسن الأُحدوثة[1] ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾ مُصدِّقين لي في قولي.

٨٦- ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ﴾ بكل طريقٍ ﴿تُوعِدُونَ﴾ مَن ءامن بشُعيبٍ بالعذاب ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن العبادة ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بالله ﴿وَتَبۡغُونَهَا﴾ وتطلبون لسبيل الله ﴿عِوَجٗاۚ﴾ أي تَصِفونها للناس بأنها سبيلٌ مُعْوَجَّة غيرُ مستقيمةٍ لتمنعوهم عن سلوكها ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا﴾ واذكروا على جهة الشكر وقتَ كونِكم قليلًا عددُكم ﴿فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ اللهُ ووَفَّرَ عددَكم ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ ءاخرُ أمرِ مَن أفسدَ قبلكم من الأمم كقوم نوح وهودٍ وصالح ولوطٍ عليهم السلام.

٨٧- ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ﴾ فانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ﴾ أي بين الفريقين بأن ينصُرَ المُحِقّين على المُبطِلين ويُظهرَهم عليهم، وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله تعالى منهم ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧﴾ لأن حُكمَه حَقٌّ وعدل لا يُخاف فيه الجَوْرُ.

٨٨- ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) أي: ما يُتَحدَّثُ به.

﴿مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ (٨٨) قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ (٨٩)﴾

مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ﴾ [شعيب عليه السلام لم يكن قط في ملتهم، قال الماتريدي: ليس أنهم كانوا فيها وتركوها، ولكن على ابتداء الدخول فيها. وقيل: العود هنا بمعنى الصيرورة فيكون المعنى: أو لتصيرُنَّ في ملتنا لأن شعيبًا ما كان على الكفر قط. وقيل: إنهم خاطبوا شعيبًا وأرادوا به الذين ءامنوا معه، فإنهم كانوا كفارًا قبل إيمانهم، فأرادوا عودهم إلى ما كانوا عليه، وقيل: غَلَّبوا في الخطاب الجمع على الواحد لأن شعيبًا لم يكن قط في ملتهم، وعلى نحوه أجاب] ﴿قَالَ﴾ شعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ (٨٨)﴾ تقديره: أَتُعيدوننا في مِلتكم مع كوننا كارهين؟ [وهو استفهام إنكار] قالوا: نعم، ثم قال شعيب:

٨٩- ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ هو قسمٌ أي واللهِ لقد افترينا على الله كذبًا إن عدنا في ملتكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾ خلَّصنا الله ﴿مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ وما ينبغي لنا وما يصح ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ إلا أن يكون سَبقَ في مشيئته أن نعود فيها إذ الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى خيرُها وشرُّها. [قال أبو حيان في البحر المحيط: وتجويز العود من المؤمنين إلى ملتهم دون شعيب لعصمته بالنبوة، فجرى الاستثناء على سبيل تغليب حكم الجمع على الواحد وإن لم يكن ذلك الواحد داخلًا في حكم الجمع] ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ﴾ هو عالم بكل شيءٍ ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾ في أن يُثبتَنا على الإيمان ويوفِّقَنا لازدياد الإيقان ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي احكم [بيننا وبينهم بحكمك الذي هو الحق] ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ (٨٩)﴾ [أي القاضين، فلا محاباة في حكمك ولا جورَ].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا
كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ
فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا
بِٱلْبَأْسَآءِ﴾

٩٠- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ مغبونون لفواتِ فوائدِ البَخْسِ والتطفيف باتّباعِه، لأنه ينهاكم عنهما ويحمِلُكم على الإيفاء والتسوية.

٩١- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ ميّتين.

٩٢- ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ﴾ لم يقيموا فيها ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ كأنه قيل: الذين كذبوا شعيبًا هم المخصوصون بأن أُهلكوا كأن لم يُقيموا في دارهم، لأن الذين اتبعوا شعيبًا قد أنجاهم الله، والذين كذبوا شعيبًا هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أَتباعه فهم الرابحون، وفي التكرار مبالغةٌ واستعظام لتكذيبهم ولِما جرى عليهم.

٩٣- ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [أي: أعرضَ عنهم] بعد أن نزلَ بهم العذاب ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ أحزَنُ ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ أراد: لقد أعذرت لكم في الإبلاغ والتحذير مما حلَّ بكم فلم تصدقوني، فكيف ءاسى عليكم؟! [فهو استفهام بمعنى الإنكار].

٩٤- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ يقال لكل مدينةٍ قرية، وفيه حذفٌ أي فكذبوه ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ بالبؤس[1] والفقر

---

(١) البؤس: شدة الحاجة.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ
ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ
لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الضُّرِّ والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ ليتضرَّعوا ويتذللوا ويَحُطُّوا أَردية الكِبر[1].

٩٥- ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمِحنةِ الرخاءَ والسَّعةَ والصحة[2] ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ كثُروا ونمَوا في أنفسهم وأموالهم ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ قالوا: هذه عادة الدهر يعاقِبُ في الناس بين الضراء والسراء[3]، وقد مسَّ ءاباءَنا نحوُ ذلك، وما هو بعقوبة الذنب فكونوا على ما أنتم عليه ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾ فجأةً ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ بنزول العذاب.

٩٦- ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ الذين كذبوا وأُهلكوا ﴿ءَامَنُواْ﴾ بدَلَ كفرهم ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ الشركَ ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لآتيناهم بالخير من كل وجه ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ الأنبياءَ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ بكفرهم وسوءِ كَسْبهم.

٩٧- ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ يريدُ الكفارَ منهم ﴿أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا﴾ عذابُنا ﴿بَيَٰتٗا﴾ ليلًا أي وقتَ بَياتٍ ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

---

(١) الأردية: جمع رداء، والمعنى: ليتركوا الكِبْر، الله يعلم أنهم يؤمنون أو لا يؤمنون ومع هذا يقول لعلهم، ليس لأنه متردد، هو عالم، لكن ليفهمنا أنه جائز بحسب الظاهر أن يرجعوا أو لا يرجعوا.

(٢) النعمة والرخاء يقال لهما حسنة، والمصيبة يقال لها سيئة، الحسنات يقال لها خير، والنعمة والمال الوافر يقال له خير، والمعصية يقال لها سيئة، والمصائب يقال لها سيئة، والقحط والمجاعة كذلك.

(٣) أي: أنهما يتناوبان.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا
يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ
أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن
قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

٩٨- ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ نهارًا، والضحى في الأصل ضوء الشمس إذا أشرقت، المعنى إنكارُ الأمن من إتيان العذاب ليلًا أو ضحًى ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ يشتغلون بما لا يجدي عليهم.

٩٩- ﴿أَفَأَمِنُوا۟﴾ تكرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ ﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أَخذَه العبدَ من حيث لا يشعر ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ إلا الكافرون الذين خَسِروا أنفسَهم حتى صاروا إلى النار.

١٠٠- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يُبيّن ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ﴾ أولم يهدِ للذين يخلُفون مَن خلا قبلَهم في ديارهم ويرثونهم أرضهم هذا الشأنُ، وهو أنّا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا مَن قبلهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين ﴿وَنَطْبَعُ﴾ نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ الوعظ.

١٠١- ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ﴾ تلك القرى المذكورة من قوم نوح إلى قوم شعيبٍ نَقصُّ عليك بعضَ أنبائها ولها أنباءٌ غيرُها لم نَقُصَّها عليك ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ عند مجيء الرسل بالبينات ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ بما كذبوا من ءايات الله مِن قبل مجيء الرسل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الطَّبْعِ[1] الشديد ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ لِمَا عَلِمَ منهم أنهم يختارون الثبات على الكفر.

---

(١) الطَّبْعُ: الخَتْمُ مثل قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وهو التغطية والاستيثاق والتغشية بعدم التوفيق للخير، أعاذنا الله من ذلك.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم
مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ
مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ
قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

١٠٢- ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ﴾ يعني أن أكثر الناس نقضوا عهدَ الله في الإيمان، أو للأمم المذكورين فإنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضُرٍّ ومَخافةٍ [بنحو قولهم]: لئن أنجيتنا لنؤمنن، ثم أنجاهم نكثوا ﴿وَإِن﴾ وإنَّ الشأن والحديث ﴿وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ لخارجين عن الطاعة.

١٠٣- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ الضمير للرسل ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [قومه] ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَاۖ﴾ فكفروا بآياتنا ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ حيث صاروا مُغرَقين.

١٠٤- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ﴾ يقال لملوك مصرَ الفراعنةُ كما يقال لملوك فارسَ الأكاسرةُ، وكأنه قال: يا ملِكَ مصرَ واسمه قابوسُ [بن مُصعب]، أو الوليدُ بنُ مُصعبِ بنِ الريّان ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ إليك، قال فرعون: كذبت، فقال موسى:

١٠٥- ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ﴾ أي أنا حقيقٌ[1] على قول الحق، أو أُرسلت على ألّا أقول على الله إلا الحقَّ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بما يُبيّن رسالتي ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾[2] فَخَلِّهم يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة؛ وذلك أن يوسف

---

(١) أي: جديرٌ وحريصٌ.

(٢) هؤلاء قوم موسى عليه السلام كانوا مؤمنين لكن تحت حكم فرعون في مصر، هؤلاء من ذرية يعقوب عليه السلام، من ذرية يوسف عليه السلام وإخوته.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ
ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ
هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾

عليه السلام لما توفي غَلَبَ فرعونُ على نَسلِ الأسباط واستعبدهم فأنقذَهم الله بموسى عليه السلام، وكان بين اليوم الذي دخل يوسفُ عليه السلام مصر واليومِ الذي دخله موسى أربعمائة عام.

١٠٦- ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ من عندِ مَن أرسلَك ﴿فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ فأتني بها لتصحَّ دعواك ويثبتَ صدقُك فيها.

١٠٧- ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى عليه السلام ﴿عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾ حية عظيمة ﴿مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ ظاهرٌ أَمرُه، رُوي أنه كان ذكرًا فاغرًا فاهُ بين لَحييه ثمانون ذراعًا، وضعَ لَحيَه الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجَّه نحو فرعون فهربَ وأَحْدَثَ، وحمل على الناس فمات منهم خمسةٌ وعشرون ألفًا، قتلَ بعضُهم بعضًا، فصاح فرعون: يا موسى خُذهُ وأنا أومن بك، فأخذه موسى فعاد عصًا.

١٠٨- ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جَيبه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ فإذا هي بيضاء للنظارة[1]، ولا تكون بيضاء للنَّظّارة إلا إذا كان بياضًا عجيبًا خارجًا عن العادة يجتمع الناسُ للنظر إليه. رُوي أنه أرى فرعونَ يدَه وقال: ما هذه؟ فقال: يدُك، ثم أدخلَها في جيبه ونزعها فإذا هي بيضاء غلب شعاعُها شعاعَ الشمس، وكان موسى عليه السلام ءادمَ شديدَ الأدمة[2].

١٠٩- ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ عالم بالسحر ماهر فيه قد خيَّلَ إلى الناس العصا حيّةً والآدمَ أبيض. وهذا الكلام قد عُزي إلى فرعون في سورة الشعراء وأنه قاله للملأ، وهنا

---

(١) الناس الذين يجتمعون في مكانٍ وينظرون إلى شيء يقال لهم: نَظّارة.
(٢) أسمر شديد السمرة، ليس أسود.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ﴾

عزي إليهم، فيحتمل أنه قد قاله هو وقالوه هم، أو قاله ابتداءً فتلقَّنه منه الملأ فقالوه لأعقابهم.

١١٠- ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ يعني مصرَ ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ تشيرون، وهو كلام فرعون للملأ لما قالوا له: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

١١١- ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ﴾ أَخِّر أمرَه ولا تَعجَل ليتبين سِحرُه عند الخلق ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾ جامعين.

١١٢- ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ مِثلِه في المهارة، أو بخيرٍ منه.

١١٣- ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ فأرسل إليهم فحضروا ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ لجُعلًا على الغَلَبَةِ، والتنكيرُ للتعظيم ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

١١٤- ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ إنَّ لكم لأجرًا ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ عندي، فتكونون أوّلَ من يدخلُ وءاخرَ من يخرج.

١١٥- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ لِما معنا، وفيه دلالة على أنَّ رغبتهم في أَنْ يُلقُوا قبلَه.

١١٦- ﴿قَالَ﴾ لهم موسى عليه السلام: ﴿أَلْقُواْ﴾ ازدراءً لشأنهم وقلة مبالاةٍ بهم واعتمادًا على أن المعجزة لن يغلبها سحر أبدًا، [أي فسترون ما يَحُلُّ بكم من الخزي، ولم يكن هذا أمرًا بتنفيذ السحر ورضًا به، ولكنه تهديد[1]، وقيل: كان أمرًا على وجه التعجيز] ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ

---

(١) قاله أبو حفص نجم الدين عمر بن محمد النسفي في تفسيره «التيسير في التفسير»، وقال مثله أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط».

﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ
فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟
صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ
لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ﴾

﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أَرَوها بالحِيَل والشعوذة وخَيَّلوا إليها ما الحقيقةُ بخلافِه، رُوي أنهم ألقَوا حبالًا غلاظًا وخشبًا طوالًا، فإذا هي أَمثالُ الحيّات قد ملأتِ الأرضَ وركِبَ بعضُها بعضًا ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وأَرهبوهم إرهابًا شديدًا بالحيلة ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ في باب السحر.

١١٧- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ تبتلعُ ﴿مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ ما يَقْلِبونَه عن الحق إلى الباطل ويُزوِّرونه. ورفعها موسى فرجعت عصًا كما كانت، وأعدمَ اللهُ بقدرته تلك الأجرام العظيمة أو فرّقها أجزاءً لطيفةً، قالت السحرة: لو كان هذا سحرًا لبقيت حبالنا وعِصِيُّنا.

١١٨- ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ فحصل وثبت ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ من السحر.

١١٩- ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ أي فرعونُ وجنودُه والسحرة ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ وصاروا أذلّاءَ مبهوتين.

١٢٠- ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ وخَرُّوا سُجّدًا لله لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم أُلقوا، فكانوا أول النهار كفارًا سحرةً وفي ءاخره شهداءَ[1] بررةً.

١٢١-١٢٢ ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

١٢٣- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ وهذا توبيخ منه لهم ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ قبل إذني لكم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ﴾

---

(١) لأن فرعون قتلهم بعد إسلامهم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

إن صنعَكم هذا لَحيلةٌ احتلتموها أنتم وموسى في مصرَ قبل أن تخرجوا إلى الصحراء لغَرَضٍ لكم، وهو أن تُخرجوا من مصر القِبطَ وتُسكنوا بني إسرائيل ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ وعيدٌ أَجمَلَه ثم فَصَّله بقوله:

١٢٤- ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ من كل شِقٍّ طَرفًا ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ هو أول مَن قَطع من خلافٍ[1] وصَلَب.

١٢٥- ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ فلا نُبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا[2] ورحمته.

١٢٦- ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وما تَعيبُ منا إلا ما هو أَصلُ المَناقب والمَفاخر وهو الإيمان. ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ هب لنا صبرًا واسعًا وأكثِرْه علينا حتى يَفيضَ علينا ويغمُرَنا كما يُفرَغ الماء إفراغًا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ ثابتين على الإسلام.

١٢٧- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مِصرَ بالاستعلاء فيها وتغيير دينِ أهلِها، لأنه وافقَ السحرةَ على الإيمان ستُّمائة أَلفِ نَفْسٍ ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ قيل: صَنَعَ فرعونُ لقومه أصنامًا وأمرَهم أن يعبدوها تقربًا إليه كما يعبُد عبدةُ الأصنام الأصنامَ ﴿قَالَ﴾ فرعون مُجيبًا للمَلأ: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ سَنُعيدُ عليهم قتلَ الأبناء ليعلَموا أنّا على ما كنا عليه من الغَلَبة والقهر، وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، ولئَلا يتوهم

---

(١) القطع من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو العكس.
(٢) أي: جزائه وثوابه.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ
فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

العامة أنه هو المولود الذي تَحدَّثَ المُنجِّمون بذهاب مُلكنا على يده فيثبِّطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه.

١٢٨- ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ قال لهم ذلك حين جَزِعوا من قول فرعون: سنقتِّلُ أبناءَهم تسليةً[١] لهم ووعدًا بالنصر عليهم ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرضَ مصر ﴿لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فيه تمنِيَتُه إياهم أرضَ مصر ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ بشارة بأن الخاتمةَ المحمودة للمتقين منهم ومن القبط.

١٢٩- ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يعنون قتلَ أبنائِهم قبلَ مولِدِ موسى إلى أن استنبئ، وإعادتَه عليهم بعد ذلك، وذلك اشتكاءً من فرعون واستبطاءً لوعد النصر ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تصريحٌ بما رَمَزَ إليه من البشارة قبلُ وكشفٌ عنه، وهو إهلاكُ فرعون واستخلافُهم بعدَه في أرض مصر ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ فيرى الكائنَ منكم من العمل حَسَنَه وقبيحَهُ وشكرَ النعمة وكفرانَها ليجازيَكم على حسب ما يوجدُ منكم.

١٣٠- ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ سِني القَحطِ وهُنَّ سبعُ سنين ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ ليتَّعظوا فيتنبَّهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر، ولأن الناسَ في حال الشدة أضرعُ خدودًا[٢] وأَرَقُّ أفئدةً.

---

(١) يقال: سَلَّاهُ من هَمِّهِ تسليةً أي كشفه عنه.

(٢) أي: أكثر خضوعًا.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾

١٣١- ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ الصحة والخِصبُ ﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ هذه التي نستحقُّها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جَدْب ومرض ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ قالوا: هذه بشؤمهم ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾ سبب خيرهم وشرِّهم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ في حُكمه ومشيئته، والله هو الذي يُقدِّر ما يصيبهم من الحسنة والسيئة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ ذلك.

١٣٢- ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ إنما سَمَّوها ءايةً اعتبارًا لتسمية موسى، أو قصدوا بذلك الاستهزاء.

١٣٣- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ ما طافَ بهم وغلبَهم من مطر أو سَيلٍ، قيل: طفا الماء فوق حروثهم، وذلك أنهم مُطروا ثمانية أيام في ظلمةٍ شديدةٍ لا يرون شمسًا ولا قمرًا، ودخل الماء في بيوت القِبط حتى قاموا في الماء إلى تراقِيْهم(١)، فمن جلس غَرِقَ، ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيل من الماء قطرةٌ ﴿وَالْجَرَادَ﴾ فأكلت زروعَهم وثمارَهم وسُقوفَ بيوتِهم وثيابَهم، ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيل منها شيء ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها، أو البراغيث، أو كبار القِردان(٢) ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ وكانت تقع في طعامهم وشرابهم حتى إذا تكلم الرجل تقع في فِيْهِ ﴿وَالدَّمَ﴾ الرُّعاف، وقيل: مياههم انقلبت دمًا، حتى إنّ القِبطي والإسرائيلي إذا اجتمعا على إناءٍ فيكون ما يلي الإسرائيلي ماءً وما يلي القِبطي دمًا ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبيَّناتٍ ظاهراتٍ لا يشكل على عاقلٍ أنها من

---

(١) التراقي: عظام الحلق، جمع تَرْقُوة، ولكل إنسان تَرْقُوَتان.
(٢) القِردان: جمع القُراد وهو دُوَيبَّةٌ تَعَضُّ الإبل.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا
رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ
يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا
غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي
بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾

ءايات الله ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان بموسى ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

١٣٤- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ العذاب الأخير وهو الدم، أو العذاب المذكور واحدًا بعد واحدٍ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ متوسلًا إليه بعهدِهِ عندك وهو النبوةُ ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾.

١٣٥- ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ إلى حَدٍّ من الزمان ﴿هُم بَالِغُوهُ﴾ لا محالةَ فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حُلوله ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ فلما كشفنا عنهم [نكثوا العهد ونقضوه وأصرُّوا على كفرهم].

١٣٦- ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ هو البحر الذي لا يدرَك قعره ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ كان إغراقُهم بسبب تكذيبهم بالآياتِ وغفلتِهم عنها وقلة فِكرهم فيها.

١٣٧- ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل، كان يستضعِفُهم فرعونُ وقومُه بالقتل والاستخدام ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ يعني أَرضَ مِصرَ والشام ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخِصب وسَعَةِ الأرزاق وكثرة الأنهار والأشجار ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [أي نَجزَ وعدُ الله على بني إسرائيل بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض] ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم، وحَسْبُكَ به حاثًّا على الصبر

﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزۡنَا
بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل
لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ
مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ
أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾

﴿وَدَمَّرۡنَا﴾ أهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ من العِمارات وبناء القصور ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ يرفعون من الأبنية المشيَّدة[١].

١٣٨- ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ روي أنهم عَبَرَ بهم موسى يومَ عاشوراء بعدما أهلك اللهُ فرعونَ وقومَه، فصاموه شكرًا لله ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ﴾ فمرُّوا عليهم ﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ يواظبون على عبادتها، وكانت تماثيلَ بقرٍ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ صَنَمًا نعكفُ عليه ﴿كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ أصنامٌ يعكفونَ عليها ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ تعجَّب من قولهم على إثرِ ما رأوا من الآية العظمى، فوصفَهم بالجهل المطلق وأكَّده.

١٣٩- ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني عبدةَ تلك التماثيلِ ﴿مُتَبَّرٞ﴾ مُهْلَكٌ، من التَّبَار ﴿مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ أي يُتَبِّرُ اللهُ ويهدِمُ دينَهم الذي هم عليه على يديَّ ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ أي: وما عملوا من عبادة الأصنام باطل مُضمَحِلٌّ.

١٤٠- ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا﴾ أغيرَ المستحق للعبادةِ أَطلبُ لكم معبودًا ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ على عالَمِي زمانِكم.

١٤١- ﴿وَإِذۡ﴾ [واذكر إذ] ﴿أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [يُذيقونكم] شِدَّةَ العذاب ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾

---

(١) المُشَيَّدة: المرتفعة.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً وَأَتۡمَمۡنَٰهَا
بِعَشۡرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةًۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي
وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ
أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾

[يَسْتَبْقون إناثكم حَيَّاتٍ للخدمة] ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أي في الإنجاء، أو في العذاب ﴿بَلَآءٌ﴾ نعمة أو محنة ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

١٤٢- ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً﴾ لإعطاءِ التوراة ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٍ﴾ رُوي أنّ موسى عليه الصلاة والسلام وَعدَ بني إسرائيل - وهو بمصرَ - إن أهلَكَ اللهُ عدوَّهم أَتاهم بكتاب من عند الله، فلما هلك فرعون سأَلَ موسى رَبَّه الكتابَ، فأمره بصوم ثلاثين يومًا، وهي شهرُ ذي القَعْدَةِ، فلما أتمّ الثلاثين أَنكرَ خُلُوفَ فِيْهِ، فتسوّكَ، فأَوحى الله إليه: أما علمت أن خُلُوفَ فَم الصائم أَطيبُ[1] عندي من ريح المسك، فأَمره أن يزيدَ عليها عشرةَ أيام من ذي الحِجَّة لذلك ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةًۚ﴾ ما وَقَّت له من الوقت وضَرَبه له ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ كُنْ خَليفتي فيهم ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ ما يجب أن يُصلَح من أمور بني إسرائيل ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تَتَّبِعه ولا تُطِعْهُ.

١٤٣- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقّتنا له وحَدَّدنا ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ بلا واسطةٍ ولا كيفيةٍ، فلما سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقِهِ فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أرني ذاتَك أنظُرْ إليك، يعني مَكِّنِي من رؤيتك بأن تتجلَّى لي[2] حتى أراك، وهو دليل لأهل السنة على جواز الرؤية، فإن موسى عليه السلام اعتقد أن الله

---

(١) معنى أطيب: أفضل، لأن الشمَّ مستحيل على الله.
(٢) أي: بأن تُريَني ذاتَك الذي ليس كمثله شيء.

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

تعالى يُرى حتى سَأله، واعتقادُ جوازِ ما لا يجوزُ على الله كفرٌ ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ بعينٍ فانيةٍ ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ بقي على حاله ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ وهو دليل لنا أيضًا لأنه عَلَّقَ الرؤيةَ باستقرار الجبل وهو ممكن، وتعليق الشيء بما هو ممكن يدل على إمكانه ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [خلق قوة وإدراكًا في الجبل فرأى اللهَ تعالى] بلا كيفٍ، قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: معنى التجلّي للجبل ما قاله الأشعري: إنه تعالى خلق في الجبل حياةً وعلمًا ورؤيةً حتى رأى ربه ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مدكوكًا أي أرضًا مستوية لا أَكَمَةَ[1] فيها ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ سَقَطَ مغشيًّا عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من صَعقته ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من السؤال في الدنيا[2] ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ بعظمتك وجلالك، أو بأنك لا تعطي الرؤية في الدنيا مع جوازها.

١٤٤- ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اخترتُكَ على أهل زمانِك ﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾ هي أسفار[3] التوراة ﴿وَبِكَلَٰمِى﴾ وبتكليمي إياك ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أَعطيتُك من شرف النبوة والحكمة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ على النعمة في ذلك فهي من أجلّ النعم، قيل: خرَّ موسى صعقًا يوم عرفة، وأُعطيَ التوراة يوم النحر، ولمَّا كان هارون وزيرًا وتابعًا

---

(١) الأكمة محركةً: التل دون الجبال، أو موضع يكون أَشدَّ ارتفاعًا مما حوله.
(٢) قال أبو حيان في البحر المحيط: أو عن صغائري حكاه الكرماني، أو قال ذاك على سبيل الإنابة إلى الله تعالى والرجوع إليه عند ظهور الآيات على ما جرت به عادة المؤمن عند رؤية العظائم، وليست توبة عن شيء معين.
(٣) سُميت الأسفار بذلك لأنها تُسفر عما فيها من المعاني إذا قرئت.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

لموسى تَخصَّص الاصطفاءُ بموسى عليه السلام.

١٤٥- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ ألواحِ التوراة، وكانت عشرةَ ألواحٍ، وكانت من زُمُردٍ، وقيل: من خشب نزلت من السماء فيها التوراة ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ كتبنا له كُلَّ شيءٍ كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيلِ الأحكام ﴿فَخُذْهَا﴾ أي الألواحَ ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزيمةٍ ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ﴾ أي فيها ما هو حَسَنٌ وأحسن، كالقِصاص والعفو والانتصار والصبر، فَمُرهم أن يأخذوا بما هو أَدخلُ في الحُسن وأكثرُ للثواب ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ دارَ فرعونَ وقومِهِ وهي مِصرُ ومنازلُ عادٍ وثمودَ والقرونِ المُهلَكة كيف أَقفرت[1] منهم لتعتبروا، فلا تفسُقوا مثلَ فِسقهم فينكِّلَ بكم مثلَ نكالهم.

١٤٦- ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ﴾ عن فهمها[2] ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ يتطاولون على الخلق ويأنفون عن قَبول الحق ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يتكبرون غيرَ محقِّين ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ من الآياتِ المنزَّلة عليهم ﴿لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ طريقَ صلاحِ الأَمر وطريقَ الهدى ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾ الضلالِ ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ﴾ [لأنفسهم يسلكونه ويدينون به] ﴿ذَٰلِكَ﴾ الصرف ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بسبب تكذيبهم ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ غَفلةَ عنادٍ وإعراضٍ لا غفلةَ سهوٍ وجهلٍ.

---

(١) أي: خلَت.

(٢) أي: أَحرِمُهم فهمَ القرءان.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ١٤٧ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا
يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ﴾

١٤٧- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ولقائِهم الآخرةَ ومشاهدَتِهم أحوالَها ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ﴾ [قال الإمام الماتريدي في كتاب تأويلات أهل السنة: يحتمل أنهم كانوا مؤمنين من قبل فكذبوا الآيات فكفروا بها فحبطت أعمالهم وبطلت، ويحتمل المعروف الذي كانوا يفعلونه في حال الكفر من نحو صلة الرحم والصدقات وغيره من المعروف والخيرات حبط ثواب ذلك كله إذ لم يأتوا بالإيمان] ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾ [استفهام بمعنى النفي، أي لا يجزَون إلا بما عملوا من الكفر والمعاصي].

١٤٨- ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد ذهابه إلى الطور ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ [التي استعاروها من القِبط حين همُّوا بالخروج من مصر] وإنما نُسِبَت إليهم مع أنها كانت عوارِيَ في أيديهم لأن الإضافة تكون لأدنى ملابَسة، [أو لأنهم مَلَكوها بعد هلاك قوم فرعون]، والمتخِذُ هو السامريُّ ولكنهم رضوا به فأُسندَ الفعلُ إليهم، والحُلِيُّ: اسمُ ما يُتحسَّنُ به من الذهب والفضة ﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ [أي مُصْمتًا[1]، غير أنهم كانوا يسمعون منه خُوارًا، وقيل: قَلَبَه الله] بدنًا ذا لحمٍ ودم كسائر الأجساد ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ هو صوت البقر، ثم عَجَّبَ من عقولهم السخيفة فقال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ حين اتخذوه إلـٰهًا ﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ﴾ لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيلٍ حتى لا يختاروه على مَنْ لو كان البحرُ مِدادًا لكلماته لنفِدَ البحر قبل أن تنفَدَ كلماته، وهو الذي هدى الخلق إلى سبيل الحق بما رَكَزَ في العقول من الأدلة وبما أَنزل في

---

(١) المُصْمَتُ: الذي لا جَوفَ له.

﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن
لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ
أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِى مِنۢ بَعۡدِىٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾

الكتب ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾[1] [أي: العجلَ] إلـٰهًا، فأقدموا على هذا الأمر المنكر ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

١٤٩- ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ ولما اشتد ندمهم على عبادة العجل ﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ وتبيّنوا ضلالَهم تبينًا كأنهم أبصروه بعيونهم ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ المغبونين في الدنيا والآخرة.

١٥٠- ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ من الطُّور ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ بني إسرائيل ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ حزينًا ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِى﴾ قُمتُم مقامي وكنتم خُلَفائي ﴿مِنۢ بَعۡدِىٓۖ﴾ والخطابُ لعَبَدة العجلِ من السامري وأَشياعه، ومعنى: ﴿مِنۢ بَعۡدِىٓۖ﴾ من بعد ما رأيتم مني من توحيد الله ونفي الشركاء عنه ﴿أَعَجِلۡتُمۡ﴾ أسبَقتم بعبادة العجل ﴿أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ وهو إتياني لكم بالتوراة بعد أربعين ليلة، وأصل العَجَلة: طلبُ الشيء قبل حينه، وقيل: عجِلتم

---

(١) موسى عليه السلام لمَّا ذهب لميقات ربه، لمناجاة الله، أي لسماع كلام الله الأزلي خَلّف على قومه أخاه هارون وكان نبيًّا، ثم قضى أربعين ليلة ثم عاد إليهم فوجدهم قد عبدوا العجل إلا بعضًا منهم، وذلك بعد أن اجتاز بهم البحر ورأوا هذه المعجزة الكبيرة، وهي انفلاقُ البحر اثني عشر فرقًا، كل فِرْقٍ كالجبل العظيم، وأنقذهم من فرعون، فتنهم شخص يقال له موسى السامري، صاغ لهم عجلًا من ذهب ووضع فيه شيئًا من أثر حافر فرس جبريل، لأنه عندما أراد فرعون أن يخوض البحر كان جبريل على فرس، هذا الخبيث رأى موقف فرس جبريل فأخذ منه شيئًا ووضعه في هذا العجل المصور من ذهب، فأحيا الله تعالى هذا العجل فصار يخور كالعجل الحقيقي، خلق الله فيه الحياة فقال لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى، حَمَلهم على عبادة هذا العجل ففتنوا فعبدوه. من الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم للإمام العلامة الهرري.

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾

بمعنى: تركتم ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾[(١)] ضَجَرًا[(٢)] عند استماعه حديث العجل غضبًا لله، فتكسرت فرُفعت ستةُ أسباعها وبقي سبع واحد، وكان فيما رُفِعَ تفصيلُ كل شيء، وفيما بقي هدى ورحمة ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشعر رأسه[(٣)] ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ كان ابنَ أُمه وأبيه، وإنما ذكرَ الأُم لأنها كانت مؤمنةً، ولأن ذِكرَها أدعى إلى العطف ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ أي إني لم ءالُ[(٤)] جهدًا في كفِّهم بالوعظ والإنذار، ولكنهم استضعفوني وهمُّوا بقتلي ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ الذين عبدوا العجلَ، أي لا تفعل بي ما هو أُمنيتهم [مما ظاهره] الاستهانة بي والإساءة إليّ. [قيل: إن بعض بني إسرائيل كانوا على نهاية سوء الظن بموسى عليه السلام حتى إن هارون غاب عنهم غيبةً فقالوا لموسى: أنت قتلته، فلما أخذ موسى برأس هارون عليهما السلام خاف هارون أن يسبق إلى قلوبهم ما لا أصل له فقال له ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ

---

(١) حين ألقى الألواح إما أنه نسي أنها في يده، أو ألقاها على مكان طاهر نظيف، ولم يلقها على وجه الاستخفاف بها، وفسر الإمام الماتريدي أبو منصور الإلقاء بالوضع وقال: ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ ليس يفهم منه الطرح والإلقاء ولكن يفهم منه الوضع، وقال أبو حفص النسفي في التيسير في التفسير: وكذا قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾. فليس معناه هنا الطرح والرمي، بل وضعُها على الأرض، وقال أبو حيان في البحر المحيط: فوضعها بالأرض غضبًا على ما فعله قومه من عبادة العجل.

(٢) الضَّجَرُ: القلق من الهمّ، وضَجِرَ من الأمر وتضَجَّرَ: تَبَرَّمَ أي سَئِمَ.

(٣) غضبًا على الذين عبدوا العجل، لا غضبًا عليه لأن هارون بريء من فعلهم، هو نهاهم لكن ما أطاعوه، ولم يكن ذلك من موسى على وجه الإهانة لأخيه هارون عليهما السلام بل كان غضبه لله تعالى وإنكارًا على أخيه أنه لم يتبعه ليخبره بما حصل منهم حين لم يقبلوا قولَه، ولم يتعمد إيذاءَ أو إهانةَ أخيه الأكبر منه سنًّا والنبيِّ المعينِ له في الدعوة لدين الله تعالى، ولكن الغيرةَ في الله ملكته.

(٤) أي: لم أُقصِّر.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ
وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا
وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ
ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿٩٤﴾ [سورة طه] لئلا يظن القوم فيك ما لا صحة له] ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ قرينًا لهم بغضبك عليّ، [وكان موسى عليه السلام قال له ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة طه] فبيّن له هارون عليه السلام عذره في ذلك كما بُيِّنَ في سورة طه]. فلما اتضح له عذرُ أخيه:

١٥١- ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ ليُرضيَ أخاه وينفيَ الشماتة عنه بإشراكه معه في الدعاء ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ عِصْمَتك في الدنيا وجنتك في الآخرة ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

١٥٢- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلـٰهًا ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هو ما أُمروا به من قتل أنفسهم توبةً ﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ خروجُهم من ديارهم، فالغُربة تُذِلُّ الأعناقَ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ الكاذبين على الله.

١٥٣- ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ثُمَّ تَابُوا۟﴾ رجعوا إلى الله ﴿مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟﴾ وأَخلصوا الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي السيئات أو التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لسَتورٌ عليهم مَحَّاءٌ لِمَا كان منهم ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ مُنعم عليهم بالجنة.

١٥٤- ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ سكن ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ وفيما نُسِخَ منها، أي كُتِبَ ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [أي يخشون الله فيأخذون بهداه لينالوا رحمته].

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾

١٥٥- ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ من قومه ﴿سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ اختار من اثني عشر سِبطًا[١] من كل سِبطٍ ستةً فبلغوا اثنين وسبعين رجلًا، فقال: ليتخلَّف منكم رجلان، فقعد كالَبُ ويُوشَعُ ﴿لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ [للوقت الذي وَقَّتَه الله تعالى لموسى عليه السلام ليأتي بسبعين إلى جبل الطور] لاعتذارهم عن عبادة العجل [وهو ميقاتٌ آخرُ غيرُ ميقات المناجاة ونزول التوراة المذكور في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ١٤٣﴾] ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة ﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾ بما كان منهم من عبادة العجل ﴿وَإِيَّٰيَۖ﴾ لقتلي القبطيَّ[٢] ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ أتهلكنا عقوبةً بما فعل الجهال منّا وهم أصحاب العجل ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ ابتلاؤك ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ بالفتنة ﴿مَن تَشَآءُ﴾ مَن علمتَ منهم اختيارَ الضلالة ﴿وَتَهۡدِي﴾ بها ﴿مَن تَشَآءُۖ﴾ من علمتَ منهم اختيار الهدى ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ مولانا القائم بأمورنا ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [معناه أن كل من سواك يتجاوز عن الذنب إما طلبًا للثناء الجميل أو للثواب الجزيل أو لدفع ضرر، أما أنت فتغفر ذنوب عبادك لا لطلب عوض وغرض، بل لمحض الفضل والكرم، فوجب القطع بأنه تعالى خير الغافرين][٣].

---

(١) السِّبط من اليهود كالقبيلة من العرب، وهم الذين يرجعون إلى أب واحد.
(٢) هذا القبطي كان كافرًا، ولكن موسى عليه السلام قتله قبل أن يؤذنَ له بذلك.
(٣) العباد يَغفِرُ بعضُهم لبعض ما يصير بينهم من الإيذاء، هذا غفرانُ العباد، إذا أسأت لشخص فسامحك يقال: غَفرَ لك، وإذا إنسان أساءَ إليك فقلت له: غفرتُ لك، معناه لا أجازيك بالسيئة، أما مَحوُ الذنب فلا يكون إلا لله قال تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ١٣٥﴾ [سورة آل عمران].

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾

١٥٦- ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ وأَثبت لنا واقسِم ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ عافيةً وحياةً طيبةً وتوفيقًا في الطاعة ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ الجنةَ ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ تُبنا إليك، وهادَ إليه يَهودُ إذا رجعَ وتاب، والهُودُ جمع هائدٍ وهو التائب ﴿قَالَ عَذَابِيٓ﴾ من صِفتِه أني ﴿أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ أي لا أعفو عنه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من صِفة رحمتي أنها واسعة تبلغ كل شيءٍ، ما من مسلم ولا كافر إلا وعليه أَثرُ رحمتي في الدنيا ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي هذه الرحمةَ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشركَ من أمة محمدٍ ﷺ ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بجميع كُتبنا ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ لا يكفرون بشيءٍ منها.

١٥٧- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ الذي نوحي إليه كتابًا مُختصًّا به وهو القرءانُ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ صاحبَ المعجزات ﴿ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ﴾ يَجِدُ نعتَه أولئك الذين يتّبعونَه من بني إسرائيل ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بخَلْع الأَندادِ وإنصافِ العباد ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عبادةِ الأَصنام وقطيعة الأَرحام ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ما حُرِّم عليهم[1] من الأَشياء الطيبة كالشحوم وغيرها، أو ما طاب في الشريعة ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ ما يُستخبث كالدم والميتة ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به، أو ما خَبُثَ في الحكم كالربا والرشوة ونحوهما من

---

(١) أي: على الذين هادوا، قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴿١٤٦﴾﴾ [سورة الأنعام].

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

المكاسب الخبيثة ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ هو الثِّقَلُ الذي يأصِرُ صاحبَه أي يحبسُه عن الحَراك لِثقَله، والمراد التكاليف الصعبة كقتل النفس في توبتهم وقطع الأعضاء الخاطئة ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ﴾ هي الأحكامُ الشاقَّةُ نحوُ بَتِّ القضاء بالقِصاص عمدًا كان أو خطأً من غير شَرْعِ الدِّيَةِ وقرضِ موضع النجاسة وإحراق الغنائم وظهور الذنوب على أبواب البيوت، وشبّهت بالغُلِّ(١) للزومها لزومَ الغُلِّ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ بمحمدٍ ﷺ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وعظَّموه، ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي واتبعوا القرءانَ المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ الفائزون بكل خير والناجون من كل شر.

١٥٨- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ بُعث كل رسولٍ إلى قومه خاصةً، وبُعث محمدٌ ﷺ إلى كافة الإنس وكافة الجن ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ إذ لا يقدر على الإحياء والإماتة غيرُه ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي الكتبِ المنزَّلة ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ الذي وَجبَ الإيمانُ به هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته.

١٥٩- ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يهدون الناس مُحِقِّين ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ وبالحق يعدلون بينَهم في الحكم لا يَجُورون.

---

(١) الغُلُّ: طَوْقٌ من حديد يُجعل في العُنُق.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾

١٦٠- ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ وصيَّرناهم قطعًا - أي فرقًا - وميّزنا بعضهم من بعض ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ والأسباط: أولاد الولد جمع سِبطٍ، وكانوا اثنتي عشرة قبيلةً من اثني عشر ولدًا من ولد يعقوب عليه السلام ﴿أُمَمًاۚ﴾ وقطَّعناهم أممًا لأن كل أسباطٍ كانت أمةً عظيمةً، وكل واحدةٍ كانت تؤمُّ خلاف ما تؤمُّه الأخرى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ﴾ فضرب ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ فانفجرت ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ﴾[على عدد الأسباط] ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ﴾ [كل سبطٍ عينهم التي يشربون منها] ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ وجعلناه ظليلًا عليهم في التِّيه ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ﴾ [هما التَّرَنْجَبين والطير السُّمانى[1]]، وقلنا لهم: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ وما رجع إلينا ضررُ ظلمهم بكفرانهم النِّعَمَ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ ولكن كانوا يَضرون أنفسَهم ويرجع وَبَالُ ظلمهم إليهم.

١٦١- ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ واذكر إذ قيل لهم: ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ بيتَ المقدس ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [مسألتنا حِطَّةٌ، أو أمرنا حِطَّةٌ، يقال: استحطَّه وِزرَه: سأله أن يَحطَّه عنه والاسم الحِطَّة، حُكي أن بني إسرائيل إنما قيل لهم: وقولوا حِطَّة ليستحطوا بذلك أوزارَهم فتحطَّ عنهم، وقيل غير ذلك] ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾

---

(١) قد مر الكلام عليهما في سورة البقرة عند تفسير الآية (٥٧).

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي
قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ
ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ
سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ
يَفۡسُقُونَ ١٦٣ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ
مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾

نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١﴾ [على غفران الخطايا ثوابًا].

١٦٢- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [أمروا بقولٍ معناه التوبةُ والاستغفار فخالفوه ولم يمتثلوا أمر الله، وقالوا مكان حِطّة: حنطة استهزاء] ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾ [بعثنا عليهم عذابًا أهلكناهم بما كانوا يغيرون ما يؤمرون به فيفعلون خلاف ما أمرهم الله بفعله].

١٦٣- ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾ واسأل اليهود ﴿عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ أيلَةَ أو مَدينَ، وهذا السؤال للتقريع بقديم كفرهم ﴿ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ قريبةً منه ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ إذ يتجاوزون حَدَّ الله فيه، وهو اصطيادهم في يوم السبت وقد نُهوا عنه ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ﴾ جمعُ حوت ﴿يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ﴾ يومَ تعظيمِهم أَمرَ السبت، والسبت مصدر سَبَتَتِ اليهودُ إذا عظَّمت سَبْتَها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد ﴿شُرَّعٗا﴾ ظاهرة على وجه الماء ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ﴾ [فإذا غابت شمس يوم السبت ذهبت فلا تُرى إلى السبت الآخر] ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بفسقهم.

١٦٤- ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ﴾ جماعة من صلحاء القرية الذين أَيِسوا من وَعظهم بعدما رَكِبوا الصَّعْبَ والذَّلول في موعظتهم لآخرين لا يُقلعون عن وعظهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾ وإنما قالوا ذلك لعِلمِهم أن الوعظَ لا ينفع فيهم ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً
خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ
رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ
ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾

أي موعظتنا إبلاءُ عذر[١] إلى الله لئَلا نُنسب في النهي عن المنكر إلى التفريط ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ ولطمعنا في أن يتقوا.

١٦٥- ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ أي أهل القرية لَمَّا تركوا ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ﴾ ما ذكَّرهم به الصالحون تَرْكَ الناسي لِمَا ينساهُ ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ من العذاب الشديد ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الراكبين للمنكر وهم الذين أخذوا الحيتان ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ شديدٍ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [بسبب فسقهم].

١٦٦- ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ جعلناهم قردةً أذلاءَ مُبعَدين، قيل: صار الشبان قردةً والشيوخُ خنازيرَ، وكانوا يعرفون أقاربهم ويبكون ولا يتكلمون، والجمهور على أنها ماتت[٢] بعد ثلاثٍ.

١٦٧- ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أَعلَمَ ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ لَيُسَلِّطَنّ على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ﴾ من يُوَلِّيهم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ فكانوا يؤدونَ الجزيةَ إلى المجوس إلى أن بُعث محمد ﷺ فضربَها عليهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ﴾ للكفار ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ للمؤمنين.

١٦٨- ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ﴾ وفرقناهم فيها فلا يَخلو بلدٌ من فرقةٍ ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ الذين ءامنوا منهم بالمدينة ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾

---

(١) أي: إظهارُ العذر، تقول أبليتُه عذرًا إذا بينته له بيانًا لا لومَ عليك بعده.

(٢) أي: القردة والخنازير.

﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ
يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ
ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

ومنهم ناس دون ذلك الوصف مُنحطّون عن الصلاح، وهم الفَسَقةُ ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنِّعَم والنِّقَم والخِصْبِ والجَدْب ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ ينتهون فَيُنيبون.

١٦٩- ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المذكورين ﴿خَلْفٌ﴾ وهم الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التوراةَ ووقفوا على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم ولم يعملوا بها ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ العَرَضُ: المتاع، أي: [يأخذون] حطامَ هذ الشيء الأدنى، يريدُ الدنيا وما يُتمتع به منها، وهو من الدنو بمعنى القرب لأنه عاجل قريب، والمراد ما كانوا يأخذونه من الرِّشا في الأحكام ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لا يؤاخذنا الله بما أخذْنا ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ يرجون المغفرة وهم مُصِرونَ عائدون إلى مثل فِعلهم غيرُ تائبين ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الميثاق المذكور في الكتاب ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أُخِذَ عليهم الميثاق في كتابهم ألّا يقولوا على الله إلا الصدق ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ وقرأوا ما في الكتاب ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من ذلك العَرَض الخسيس ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الرُّشا والمحارم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أنه كذلك.

١٧٠- ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ الإمساكُ والتمسيك والتمسُّك: الاعتصامُ والتعلقُ بشيء ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خَصَّ الصلاة مع أن التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادةٍ لأنها عمادُ الدين ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ أي إنا لا نضيع أجرهم.

﴿۞وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

١٧١- ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ واذكروا إذ قَلَعناهُ ورفعناه ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ هي كل ما أَظلَّكَ من سَقِيفةٍ أو سَحابٍ ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ وعَلِموا أنه ساقطٌ عليهم، وذلك أنهم أَبَوْا أنْ يقبَلوا أحكامَ التوراة لغِلَظها وثِقَلِها فرفَعَ اللهُ الطورَ على رؤوسهم مقدارَ عسكرهم وكان فرسخًا في فرسخ، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلا لَيَقَعَنَّ عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خَرَّ كل رجل منهم ساجدًا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى فَرَقًا من سقوطه، وقلنا لهم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ وعزمٍ على احتمال مَشاقِّه وتكاليفه ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهي ولا تنسَوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ ما أنتم عليه.

١٧٢- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ واذكر إذ أخذ ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ من ظهورِ بني ءادم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ومعنى أَخْذِ ذرياتِهم من ظهورهم إخراجُهم من أَصلاب ءابائهم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ هذا من باب التمثيل[1]، ومعنى ذلك أنه نَصَب لهم الأدلةَ على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم التي رَكَّبها فيهم، وجعلها مُميِّزَةً بين الهدى والضلالة، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم: ألست بربكم وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقولُ لئلا يقولوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ لم نُنبَّه عليه.

---

(١) هذا عند الماتريدية، أما الأشاعرة فأثبتوا أن الأرواح أُخرجت من ظهر ءادم وصُوِّرت كأمثال الذر واستُنطقت فشهدت بالتوحيد حقيقة، وذلك عملًا بما ورد من الأحاديث.

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ﴾

١٧٣- ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ﴾ فاقتدينا بهم، ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ أي كانوا السببَ في شِركنا لتأسيسهم الشركَ وتركِهِ سنةً لنا، [والمعنى أنه لا يمكنهم الاحتجاج بذلك] لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نُبهوا عليه قائم معهم، فلا عُذْرَ لهم في الإعراض عنه والاقتداء بالآباء، كما لا عُذْرَ لآبائهم في الشرك وأدلةُ التوحيد منصوبةٌ لهم.

١٧٤- ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلَ ذلك التفصيل البليغ ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ لهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ عن شِركهم. وذهبَ جمهورُ المفسرين إلى أن الله تعالى أخرج ذرية ءادم من ظهر ءادم مثل الذرّ وأَخذَ عليهم الميثاق أنه ربهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ﴾، فأجابوه ببلى، قالوا: وهي الفطرةُ التي فَطَرَ اللهُ الناس عليها.

١٧٥- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على اليهود ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ هو عالمٌ من علماء بني إسرائيل، قيل: هو بَلْعَمُ بنُ باعوراءَ أُوتيَ عِلمَ بعضِ كتب الله ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ فخرج من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فَلَحِقَه الشيطانُ وأَدركه وصار قرينًا له ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ فصار من الضالين الكافرين.

١٧٦- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء ﴿بِهَا﴾ بتلك الآيات ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مالَ إلى الدنيا ورغِبَ فيها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ في إيثار الدنيا ولذّاتِها على الآخرة ونعيمها ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ تزجُرْهُ وتطرُدْهُ ﴿يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ غيرَ

﴿يَلْهَثْ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ
مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن
يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا
يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ﴾

مطرود ﴿يَلْهَثْ﴾ والمعنى: فَصِفَته التي هي مَثَلٌ في الخِسَّةِ والضَّعَة كصفة الكلب في أخسّ أحواله وأذلها وهي حال دوام اللهثِ به، وقيل: معناه هو ضال وُعِظَ أو تُرِكَ ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ﴾ من اليهود بعد أن قرأوا نعتَ رسول الله ﷺ في التوراة وذِكرَ القرءانِ المعجِز وما فيه وبَشَّروا الناسَ باقتراب مَبعثه ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ قَصَصَ بَلْعَمَ الذي هو نحوُ قَصَصِهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ فيحذرون مثلَ عاقبته إذا ساروا نحوَ سيرته.

١٧٧- ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [قَبُحَ مثلًا مَثَلُ القوم الذين كذَّبوا بحجج الله تعالى وأدلته فجحدوها حيث وُصفوا بصفة الكلب اللاهث] ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظُلم أنفسهم [إذ جنَوا عليها بما يوجب الذم في الدنيا والعقوبة في العقبى].

١٧٨- ١٧٩- ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي ومن يُضلله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ الهدى من الله تعالى: التوفيقُ والعصمةُ والمعونة، ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن.
﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ هم الكفار من الفريقين المُعرضون عن تدبر ءايات الله، والله تعالى علم منهم اختيارَ الكفر [وشاء] منهم الكفر وخلق فيهم ذلك وجعل مصيرهم جهنمَ لذلك ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحقَّ ولا يتفكرون فيه ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الرُّشْدَ ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ﴾ الوَعظَ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في عَدم الفِقه والنظر للاعتبار والاستماع للتفكر ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ﴾ منَ الأنعام لأنهم

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٨٠ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٨١ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢﴾

كابَروا العقولَ وعاندوا الرسولَ وارتكبوا الفُضُول[1]، فالأنعام تطلب منافعها وتهرب عن مضارِّها، وهم لا يعلمون مضارَّهم حيث اختاروا النار، وكيف يستوي المكلف المأمور والمُخَلّى المعذور ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ الكاملون في الغفلة.

١٨٠- ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي هي أحسن الأسماء ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ فسَمُّوه بتلك الأسماء ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ واتركوا تسميةَ الذين يميلون عن الحق والصوابِ فيها فيسَمُّونَه بغير الأسماء الحسنى وذلك أن يسَمُّوه بما لا يجوز عليه، ومن الإلحاد تسميتُه بالجِسم والجوهر والعقل والعِلَّة ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٨٠﴾ [وعيد شديد لهم لإلحادهم في أسمائه].

١٨١- ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾ للجنة ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٨١﴾ في أحكامهم، قيل: هم العلماءُ والدعاة إلى الدين، وفيه دلالة على أن إجماع كل عصر حجة[2].

١٨٢- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ سنستدنيهم[3] قليلًا قليلًا إلى ما يُهلكهم ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢﴾ ما يُرادُ بهم، وذلك أن يواتِرَ الله نِعَمه عليهم مع انهماكهم في الغَيّ، فكلما جَدَّدَ اللهُ عليهم نعمةً ازدادوا بَطَرًا وجدَّدوا معصيةً، فيتدرَّجون في المعاصي بسبب ترادُفِ النعم ظانين أن ترادفَ النعم أَثَرَةٌ[4] من الله تعالى وتقريب، وإنما هو خِذلان منه وتبعيد.

---

(١) الفضول: ما لا خير فيه.
(٢) فيه إشارة أن إجماع المجتهدين حجة شرعية في كل عصر، لا يختص ذلك بالصحابة.
(٣) أي: سنُقرِّبهم.
(٤) أي: مَكرُمَة.

﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١٨٤ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ١٨٥ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾

١٨٣- ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾ أُمهِلُهم ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ أَخذي شديد[١]، سَمَّاه كيدًا لأنه شبيهٌ بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خِذلان.

ولما نسبوا النبي ﷺ إلى الجنون نزل:

١٨٤- ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾ [فيعلموا] ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمدٍ عليه الصلاة والسلام ﴿مِّن جِنَّةٍۚ﴾ جنونٍ [وهم يعلمون تنزهه عنه، وسماه صاحِبَهم لأنه نبيهم يصحبهم ويخالطهم] ثم نفى عنه الجنون بقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ١٨٤﴾ منذِرٌ[٢] من الله موضِحٌ إنذارَه.

١٨٥- ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ﴾ نظرَ استدلال ﴿فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الملكوت: المُلكُ العظيم ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ وفيما خلق الله مما يقع عليه اسمُ الشيء من أجناسٍ لا يحصُرها العددُ ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ﴾ أولم ينظروا في أن الشأن والحديث عَسَى ﴿أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ﴾ ولعلهم يموتون عما قريب فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم قبل مفاجأة الأجل وحُلول العقاب ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ﴾ بعد القرءان ﴿يُؤۡمِنُونَ ١٨٥﴾ إذا لم يؤمنوا به.

١٨٦- ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ لا يهده أحد ﴿وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ كفرهم ﴿يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾ يتحيَّرون.

---

(١) معناه: عقوبتي شديدة.

(٢) أي: مرسل من الله للإنذار.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

ولما سألت اليهودُ أو قريشٌ عن الساعة متى تكون؟ نزل:

١٨٧- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ سُميت القيامةُ بالساعة لوقوعها بغتةً، أو لسرعة حسابها ﴿أَيَّانَ﴾ متى ﴿مُرْسَىٰهَاۖ﴾ إرساؤها، والمعنى: متى يرسيها الله ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ عِلمُ وقتِ إرسائها عندَهُ قد استأثر به لم يُخبرْ به أحدًا من مَلَكٍ مُقرّبٍ ولا نبي مرسلٍ، ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجَرَ عن المعصية، كما أَخفى الأجلَ الخاصَّ وهو وقت الموت لذلك ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ لا يُظهر أَمرَها ولا يكشِفُ خفاءَ عِلْمِها إلا هو وحده ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ كلٌّ من أَهلِها من الملائكة والثقلين أَهمَّه شأنُ الساعة ويتمنى أن يتجلَّى له عِلمُها وشَقَّ عليه خَفاؤها، لأن أهلَها يخافون شدائدها وأهوالها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ﴾ فجأةً على غفلةٍ منكم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ﴾ كأنك عالم بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ كرر للتأكيد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ أنه المختص بالعلم بها.

١٨٨- ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ هو إظهارٌ للعبودية وبَراءَةٌ عما يختص بالربوبية من عِلم الغيب، أي أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلابَ نفع ولا دفعَ ضرر ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واجتناب السوء والمَضارّ حتى لا يَمسَّني شيءٌ منها ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ إن أنا إلا عبد أُرسلت نذيرًا وبشيرًا وما من شأني أن أَعلمَ الغيب ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ لأن النِّذارةَ والبِشارةَ إنما ينفعان فيهم.

﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ
حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾

١٨٩- ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ هي نفس ءادمَ عليه السلام ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ حواءَ خلقَها من جَسَدِ ءادمَ من ضِلَع من أضلاعه ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ ليطمئن إليها ويميل ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ جامعها ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾ خَفَّ عليها ولم تلقَ منه ما يَلقَى بعضُ الحَبَالَى من حملِهنَّ من الكَرب والأذى ولم تستثقلْه كما يَستثقلْنَه ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾ فمضت به إلى وقت ميلاده، أو حملت حملًا خفيفًا يعني النطفة فمرت به فقامت به وقعدت ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾ حان وقت ثِقَلِ حَملِها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دعا ءادمُ وحواءُ ربَّهما ومالكَ أَمرِهما الذي هو الحقيقُ بأن يُدعى ويلتجأ إليه فقالا: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾ لئن وهبتَ لنا ولدًا سويًّا قد صَلَحَ بدنُه [لأن ءادم رأى حين أُخذ الميثاق على ذريته جميع أولاده منهم السَّويُّ ومنهم غير السوي، ومنهم التقي ومنهم غير التقي فسألاه أن يكون هذا الولد سويًّا تقيًّا] ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾ لك [فأعطاهما الله ذلك فشكرا].

١٩٠- ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا﴾ [فلما أعطى مَن بعدهما من أولادهما كلَّ والد ووالدة من أهل الشرك ولدًا صالحًا سويَّ الأعضاء، وإنما صح صرف قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا﴾ على هذين الأبوين لأن أول الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ وهو خطاب الجمع، فتناول كل الناس، وهذان الأبوان فيهم] ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ جعلَ أولادُهما له شركاءَ ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ ءاتى أولادَهما، دليلُهُ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ حيث جمع الضمير، وءادمُ وحواءُ بريئان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما ءاتاهم الله تسميتُهم أولادَهم بعبد العزى وعبد مناف وعبد شمسٍ ونحو ذلك مكانَ: عبدِ الله وعبد الرحمٰن وعبد الرحيم.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ
يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ
صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ
لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

١٩١- ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعني الأصنام ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ أجريت الأصنام مُجرى أولي العلم بناءً على اعتقادهم[(١)] فيها وتسميتهم إياها ءالهةً، والمعنى: أَيُشركون ما لا يقدرُ على خلق شيءٍ وهم يُخلقون، لأن الله خالقهم، أو: أَيُشركون ما لا يخلق شيئًا وهم مخلوقو الله، فليعبدوا خالقهم.

١٩٢- ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ لعبدتهم ﴿نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث كالكسر وغيره بل عَبَدَتُهم هم الذين يدفعون عنهم.

١٩٣- ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ وإن تدعوا هذه الأصنام ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ إلى ما هو هدى ورشادٌ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلى مرادكم وطِلْبَتِكم[(٢)] ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ عن دعائهم في أنه لا فلاحَ معهم ولا يجيبونكم.

١٩٤- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعبدونَهم وتُسمّونَهم ءالهةً ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ مخلوقون مملوكون أمثالكم ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ لجلب نفعٍ أو دفع ضُرٍّ ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ فليجيبوا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ في أنهم ءالهةٌ.

ثم أَبطلَ أن يكونوا عِبادًا أمثالَهم فقال:

---

(١) المشركون كانوا يعتقدون أنها تعلم.
(٢) الطِّلْبَةُ: الحاجة.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ
ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ
ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ
يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا
يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾

١٩٥- ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ مَشيَكم ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ[1] بِهَآ﴾ يتناولون بها ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فَلِمَ تعبدون ما هو دونَكم؟ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عَداوتي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعًا أنتم وشركاؤكم، ﴿فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [أي امكروا بي ولا تؤخرون عما تريدون بي من الضر] فإني لا أبالي بكم، وكانوا قد خوَّفوه ءالهتَهم، فأُمر أن يخاطبهم بذلك، [وهو أمر تعجيز، أي لا يمكن أن يقع منكم ولا منهم ذلك].

١٩٦- ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ﴾ ناصري عليكم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أوحى إليَّ وأعزَّني برسالته ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ ومِن سُنَّتِهِ أن ينصُرَ الصالحين من عباده ولا يخذُلَهم.

١٩٧- ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ مــن دون الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾.

١٩٨- ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يُشبِهون الناظرينَ إليك لأنهم صَوَّروا أصنامَهم بصورة مَنْ قَلَبَ حدَقَته[2] إلى الشيء ينظر إليه ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ المرئي.

١٩٩- ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [هذا خطاب لرسول الله ﷺ ويَعُمُّ جميع أمته وهو أمر بجميع مكارم الأخلاق، أي اقبل من الناس في أخلاقهم

---

(١) البطش يُطلق على اللمس بلا عنف وعلى اللمس بعنف.
(٢) أي: سوادَ عينِه.

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ
إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا
هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ
قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾

وأموالهم ومعاشرتهم بما أتى عفوًا دون تكلّف، والعفو]: ضِدُّ الجَهْدِ أي ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم [أي ما تيسر وسهل،] ولا تطلب منهم الجَهْدَ وما يَشُق عليهم حتى لا ينفِروا، كقوله عليه السلام: «**يَسِّروا ولا تُعسِّروا**» ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ بالمعروف والجميل من الأفعال ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ ولا تكافئ السفهاءَ بمثل سَفَههم ولا تُمارِهم واحلُم عليهم.

٢٠٠- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ وإما ينخَسَنّك منه نخسٌ أي بأن يحمِلَك بوسوسته على خلافِ ما أُمرتَ به ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾ ولا تُطِعْه ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لنَزْغِه ﴿عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ بدفعه.

٢٠١- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ هذا تأكيد لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأن عادة المتقين إذا أصابهم أدنى نزغٍ من الشيطان وإلمامٍ بوسوسته ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ ما أَمرَ الله به ونهى عنه ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ فأبصروا السَّدَادَ ودفعوا وسوستَه، وحقيقته أن يَفِرّوا منه إلى الله[1] فيزدادوا بَصيرةً من الله بالله.

٢٠٢- ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ وأما إخوانُ الشياطين من شياطين الإنس فإن الشياطينَ ﴿يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾ يكونون مددًا لهم فيه ويعضُدونهم ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢﴾ ثم لا يُمسكون عن إغوائهم حتى يُصِرُّوا ولا يرجعوا.

٢٠٣- ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾ مقترَحةٍ ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ هلّا

---

(١) أي: إلى طاعته.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى
نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

اخترتَها، أي: اختلقتها[1] كما اختلقت ما قبلها ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ ولست بمقترِح لها ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا القرءان دلائلُ تُبصِّرُكم وجوهَ الحق ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ به.

٢٠٤- ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ إذا تلا عليكم الرسول القرءان عند نزوله فاستمِعوا له، وجمهور الصحابة رضي الله عنهم على أنه في استماع المُؤْتَمّ، وقيل: في استماع الخُطبة [وعُبّر عنها بالقرءان لاشتمالها عليه]، وقيل: فيهما وهو الأصح.

٢٠٥- ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ هو عام في الأذكار من قراءة القرءان والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعًا وخائفًا ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ومتكلمًا كلامًا دون الجهر لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ لفضل هذين الوقتين [أي أوائل النهار وأواخره] ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ من الذين يغفُلون عن ذكر الله ويلهَون عنه.

٢٠٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ مكانةً ومنزلةً لا مكانًا ومنزلًا، يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لا يتعظمون عنها ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ وينزهونه عما لا يليق به ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره.

---

(١) أي: افتريتها.

سورة الأنفال
مدنية وهي خمس أو ست أو سبع وسبعون ءاية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ
وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١- ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ النَّفَل: الغنيمةُ لأنها مِن فَضل الله وعطائِه، والأنفالُ: الغنائم، ولقد وقع اختلافٌ بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها، فسألوا رسول الله ﷺ كيف تُقسم؟ ولمن الحكمُ في قِسمتها للمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعًا؟ فقيل له: قل لهم هي لرسول الله، وهو الحاكم فيها خاصةً، يحكم ما يَشاءُ ليس لأحد غيره فيها حُكمٌ [يقسمها على ما يأمره اللهُ به، فقسمها بينهم على السواء] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الاختلاف والتخاصم، وكونوا متآخين في الله ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوالَ أُلفة ومَحبة واتفاق ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيما أُمرتم به في الغنائم وغيرها ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾ كاملي الإيمان.

٢- ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إنما الكامِلو الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ فَزِعت لذكره استعظامًا له وتَهيبًا من جلاله وعِزّهِ وسُلطانه ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي القرءانُ ﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ ازدادوا بها يقينًا وطُمأنينة

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن
بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾﴾

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ يعتمدون ولا يفوضون أُمورهم إلى غير ربهم، لا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

٣- ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ جَمعَ بين أعمال القلوب من الوَجَلِ والإخلاص والتوكل وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة.

٤- ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ إيمانًا حقًّا ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ مراتب بعضُها فوق بعض على قَدْرِ الأعمال ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوزٌ لسيئاتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ صافٍ عن كَدِّ الاكتساب وخوف الحساب.

٥- ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ التقدير: قل: الأنفال استقرَّتْ لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتًا مثلَ ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون ﴿مِن بَيْتِكَ﴾ يريد بيته بالمدينة ﴿بِالْحَقِّ﴾ إخراجًا مُتَلَبِّسًا بالحكمة والصواب ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾﴾ أي أخرجك في حال كراهتهم، وذلك أن عيرَ قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكبًا منهم أبو سفيان، فأَخبر جبريلُ النبيَّ ﷺ، فأخبر أصحابَه، فأعجبهم تلقِّي العِير لكثرة الخير وقلة القوم، فلما خرجوا علمت قريشٌ بذلك، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة فقيل له: إن العيرَ أخذت طريقَ الساحل ونجت، فأبى وسار بمن معه إلى بدر، وهو ماء كانت العرب تجتمع فيه لسُوقهم يومًا في السنة، ونزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العيرَ وإما قريشًا، فاستشار النبي ﷺ أصحابَه، وقال: «**العير أحب إليكم أم النفير؟**» قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو، فتغير وجه رسول الله ﷺ ثم رَدَّدَ عليهم فقال: «**إن العير قد مضت على ساحل**

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾

البحر وهذا أبو جهل قد أقبل» فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فقام عند غضب النبي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا[١]، ثم قام سعد بن عبادة فقال: انظر أمرك فامض فوالله لو سرت إلى «عَدَنِ أَبْيَنَ» ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال المِقدادُ بن عمرو: امض لما أمرك الله فإنا معك حيث أحببت، لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا هـٰهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا[٢] إنا معكما مقاتلون[٣] ما دامت عين منا تُطْرَفُ[٤]، فضحك رسول الله ﷺ، وقال سعد بن معاذ: امض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله ﷺ ثم قال: «**سيروا على بركة الله، أبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم**»، وكانت الكراهة من بعضهم لقوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ قال الشيخ أبو منصور: يحتمل أنهم منافقون كرهوا ذلك اعتقادًا، ويحتمل أن يكونوا مخلصين وأن يكون ذلك كراهةَ طَبع، لأنهم غير متأهبين له.

٦- ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ الحقُّ الذي جادلوا فيه رسولَ الله ﷺ: تَلَقِّي النفيرِ لإيثارهم عليه تلقّي العيرِ ﴿بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ بعد إعلام رسول الله ﷺ بأنهم يُنصرون، وجدالُهم قولهم: ما كان خروجنا إلا للعير وهلَّا

(١) أي: فأحسنا الكلامَ.
(٢) أي: اذهب فقاتلهم وربُّك يعينُك، أو قاتلِهم منتصرًا بربك.
(٣) معناه إنا منفذون مطيعون لأمر الله تعالى وأمرك مقاتلون بين يديك.
(٤) يقال طُرِفَتْ عينُه فهي تُطْرَف طَرْفًا إذا حُرِّكت جفونُها بالنظر، ويقال عين تَطْرِفُ، وهو كنايةٌ عن الحياة.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

قلت لنا لنستعدَّ، وذلك لكراهتهم القتال ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ شَبَّه حالهم في فَرْطِ فَزَعهم وهم يُسارُ بهم إلى الظَّفَر والغنيمة بحال من يُعتَلُ[1] إلى القتل ويُساقُ على الصَّغار[2] إلى الموت، وهو مشاهِدٌ لأسبابه ناظر إليها لا يشك فيها، وقيل: كان خوفهم لقلة العدد وأنهم كانوا رَجَّالةً[3] وما كان فيهم إلا فارسان[4].

٧- ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ وهما العير والنفير ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي العيرَ، وذاتُ الشوكة ذاتُ السلاح، والشوكةُ كانت في النفير لِعَدَدِهم وعُدَّتهم، أي تتمنَّون أن تكون لكم العيرُ لأنها الطائفة التي لا سلاح لها، ولا تريدون الطائفة الأخرى ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ يُثبتَه ويُعليَه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بآياته المنزَّلة في محاربة ذاتِ الشوكة، وبما أَمرَ الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من قتلهم وطرحِهم في قليب[5] بدر ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ ءاخِرَهم، يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسَفْسَافَ[6] الأمور والله تعالى يريد معاليَ الأمور ونُصرةَ الحق وعلوَّ الكلمة، وشتّان ما بين المُرَادَين، ولذلك اختار لكم الطائفةَ ذاتَ الشوكة، وكسَرَ قوَّتَهم بضعفكم وأَعزَّكم وأذلَّهم.

---

(١) يُعْتل: يُجرُّ جرًّا عنيفًا.
(٢) الصَّغار: الذل والضَّيم.
(٣) رَجَّالةٌ: جمع راجِل، وهو الماشي.
(٤) هما الزبير بن العوّام والمقدادُ بن الأسود رضي الله عنهما.
(٥) القليب: البئر.
(٦) السفساف: الرديء من كل شيء والأمر الحقير.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى
مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ
وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ
وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ
قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

٨- ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وهو إثبات الإسلام وإبطال الكفر ومَحقُه ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ المشركون ذلك.

٩- ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ واستغاثتهم أنهم لمّا علموا أنه لا بد من القتال، طَفِقوا يدعونَ الله يقولون: ربنا انصرنا على عدوك ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأجاب ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ بأني مُمِدُّكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [أي مُردِفٌ] كلُّ مَلَك مَلَكًا ءاخرَ، ويقال: رَدِفَهُ إذا تَبِعَه، [وقيل ﴿مُرْدِفِينَ﴾: متتابعين، وقيل: مُمِدِّينَ للمؤمنين].

١٠- ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي الإمدادَ الذي دل عليه ﴿مُمِدُّكُم﴾ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ إلا بشارةً لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ يعني أنكم استغثتم وتضرَّعتم لقِلَّتكم، فكان الإمداد بالملائكة بشارةً لكم بالنصر وتسكينًا، وربطًا على قلوبكم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ولا تحسبوا النصر من الملائكة فإن الناصرَ هو اللهُ لكم وللملائكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بنصر أوليائه ﴿حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ بقهر أعدائه.

١١- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ النومَ ﴿أَمَنَةً﴾ إذ تنعُسُونَ أَمَنَةً أي لأمنكم، فالنومُ يُزيحُ الرُّعبَ ويُريحُ النفس ﴿مِّنْهُ﴾ أي أمنة حاصلة لكم من الله ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطرًا ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ بالماء من الحَدَث والجنابة ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وَسْوَسَتَه إليهم وتخويفَه إياهم من العطش، أو الجنابة من الاحتلام، وقد وسوس إليهم ألّا نصرة مع الجنابة ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بالصبر ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ بالماء،

﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾﴾

إذ الأقدام كانت تسوخ[١] في الرمل، أو في مواطن القتال.

١٢- ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ بالنصر ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ بالبشرى، وكان المَلَك يسير أمام الصف في صورة رجل ويقول: أَبشروا فإن الله ناصركم ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ هو امتلاءُ القلب من الخوف ﴿فَٱضۡرِبُواْ﴾ أَمرٌ للمؤمنين أو الملائكة ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أعاليَ الأعناق التي هي المذابح ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾﴾ هي الأصابعُ يريدُ الأطراف.

١٣- ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما أصابهم من الضَّربِ والقتل والعقاب العاجل ﴿بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ ذلك العقابُ وقع عليهم بسبب مُشاقَّتهم أي مخالفتهم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾.

١٤- ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ العقاب ﴿فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾ ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة.

١٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾ الزَّحْفُ: الجيش الذي يُرى لكثرته كأنه يَزحف ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾﴾ فلا تنصرفوا عنهم منهزمين، أي إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير وأنتم قليل فلا تفرّوا.

---

(١) تسوخُ: تدخل وتغيب.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ
إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

١٦- ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾ مائلًا ﴿لِّقِتَالٍ﴾ هو الكَرُّ بعدَ الفَرِّ، يُخَيِّلُ عدوَّهُ أنه منهزم ثم يَعطِفُ عليه، وهو من خِدَعِ الحرب ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ منضمًّا ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ إلى جماعة من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

ولمَّا كَسَروا أهلَ مكة وقَتَلوا وأسروا، وكان القاتل منهم يقول تفاخرًا: قتلتُ وأَسرتُ قيل لهم:

١٧- ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ [بقوتكم] ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ﴾ [بنصركم وإلقاء الرعب في قلوبهم]، ولما قال جبريل للنبي ﷺ: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فرمى بها وجوهَهم وقال: «**شاهت الوجوه**»، فلم يبق مشرك إلا شُغل بعينه فانهزموا ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد ﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ يعني أن الرمية التي رميتها أنت لم ترمها على الحقيقة، ولكنها كانت رميةَ الله حيث أَثَّرت ذلك الأثرَ العظيم، وفي الآية بيانُ أن فعلَ العبد مضاف إليه كسبًا وإلى الله تعالى خلقًا، لأنه أثبت الفعل من العبد بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ثم نفاه عنه وأثبته لله تعالى بقوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليعطِيَهم ﴿مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ﴾ عطاءً جميلًا، المعنى وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فَعَل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم ﴿عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ بأحوالهم.

١٨- ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ المراد إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ
عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا
يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ
فِيهِمْ خَيْرًا﴾

١٩- ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم، وهو خطابٌ لأهل مكة لأنهم حين أرادوا أن ينفِروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على الحق فانصرنا ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عن عداوة رسول الله ﷺ ﴿فَهُوَ﴾ أي الانتهاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأسلم ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ لمحاربته ﴿نَعُدْ﴾ لنُصرته عليكم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جَمعُكم ﴿شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ عَدَدًا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ ولأن الله مع المؤمنين بالنصر كان ذلك.

٢٠- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ عن رسولِ الله ﷺ، لأن المعنى أطيعوا رسولَ الله لأن طاعة الرسول وطاعةَ الله شيءٌ واحد ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة النساء] ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وأنتم تسمعونه، أو لستم كالصُّم المكذبين من الكفرة.

٢١- ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ أي ادَّعوا السَّماع، وهم المنافقون أو أهل الكتاب ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ لأنهم ليسوا بمصدِّقين، فكأنهم غير سامعين.

٢٢- ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ إن شَرَّ من يَدِبُّ على وجه الأرض الذين هم صُمٌّ عن الحق لا يعقِلونه، جَعَلهم من جنس البهائم ثم جعلهم شَرَّها لأنهم عاندوا بعد الفهم وكابروا بعد العقل.

٢٣- ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ﴾ في هؤلاء الصُّمِّ البُكمِ ﴿خَيْرًا﴾ صِدقًا

﴿لَأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾

وَرَغبة ﴿لَأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ لجعَلهم سامعين، حتى يسمعوا سماعَ المُصدِّقين ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ﴾ عنه، أي ولو أسمعهم وصَدَّقوا لارتدّوا بعد ذلك ولم يستقيموا ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ عن الإيمان.

٢٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ وَحَّدَ الضمير أيضًا، كما وَحَّدَه فيما قبلَه لأن استجابة رسولِ الله ﷺ كاستجابتهِ، والمراد بالاستجابة الطاعةُ والامتثالُ، وبالدعوةِ البعثُ والتحريض ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ من علوم [الدين] والشرائع، لأن العلمَ حياةٌ كما أن الجهل موت. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ يُمِيتُه فتفوتُه الفرصة التي هو واجدُها، وهي التمكن من إخلاص القلب، فاغتنِموا هذه الفرصةَ وأخلِصوا قلوبَكم لطاعة الله ورسوله ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ واعلموا أنكم إليه تحشرون فيثيبُكم على حَسَب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة.

٢٥- ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً﴾ عذابًا ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ إن أصابتكم لا تُصِبِ الظالمين منكم خاصَّة ولكنها تعُمُّكم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ إذا عاقب.

٢٦- ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ واذكروا وقتَ كونِكم قِلَّةً أذلَّة ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرضِ مكةَ قبل الهجرة، يستضعفُكم قريشٌ ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ لأن الناس كانوا لهم أعداءً مضادِّين ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ بمُظاهرة الأنصار وبإمداد الملائكة يومَ بدر ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من الغنائم ولم تَحِلَّ لأحد

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ
وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ
سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ
أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

قبلَكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ هذه النِّعَم.

٢٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ بأن تُعطِّلوا فرائضَه ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ بأن لا تستنُّوا به ﴿وَتَخُونُوٓاْ﴾ ولا تخونوا ﴿أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ فيما بينكم بألّا تحفظوها ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ تَبِعةَ ذلك ووبالَه.

٢٨- ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ سَبَبُ الوقوع في الفتنة، وهي الإثمُ والعذاب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ فعليكم أن تحرِصوا على طلب ذلك وتزهَدوا في الدنيا، ولا تحرِصوا على جمع المال وحُبِّ الولد.

٢٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ نَصْرًا لأنه يَفرُقُ بين الحق والباطل، وبين الكفر بإذلال حزبه والإسلام بإعزاز أَهله ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ الصغائرَ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ﴾ ذنوبَكم الكبائرَ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ على عباده.

٣٠- ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لمَّا فتح الله عليه ذَكَّره مَكرَ قريشٍ به حين كان بمكةَ ليشكُرَ نعمةَ الله في نجاته من مَكرهم واستيلائِه عليهم ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليَحبسوك ويُوثقوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ﴾ من مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ ويُخفون المكايدَ له ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ﴾ ويُخفي اللهُ ما أَعدَّ لهم حتى يأتيَهم بغتة ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ مَكرُهُ أَنفذُ من مَكرِ غيره وأبلغ تأثيرًا.

كان عليه الصلاة والسلام يقرأ القرءان ويذكر أَخبارَ القرونِ الماضية

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

في قراءته، فقال النَّضرُ بنُ الحارث: لو شئتُ لقلتُ مثلَ هذا، وهو الذي جاء من بلاد فارسَ بنُسخةِ حديثِ رُستُمَ وأحاديثِ العجم فنزل:

٣١- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي القرءانُ ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ وهذا منهم وقاحةٌ لأنهم دُعوا إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرءان فلم يأتوا به.

٣٢- ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ القرءانُ ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ رُوِيَ أن النضرَ قال: إن كان القرءان هو الحقَّ فعاقِبنا على إنكاره بالسِّجّيل كما فعلتَ بأصحاب الفيل ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ بنوع ءاخر من العذاب الأليم، فقتل يوم بدرٍ صَبْرًا[(١)].

٣٣- ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾ وسنَّتُه ألّا يعذب قومًا عذابَ استئصال ما دام نبيُّهم بين أظهرهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ معناه نفي الاستغفار عنهم، أي ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر[(٢)] لما عذبهم.

٣٤- ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وهو معذبهم إذا فارقتَهم ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يَصدُّون عن المسجد الحرام كما صَدّوا رسولَ الله

---

(١) قتل الصبر: أن ينصب الإنسان للقتل ثم يقتل بضرب عنقه أو غير ذلك من أنواع القتل وهو ينظر.
(٢) معناه يطلبون المغفرة بالدخول في الإسلام.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾

ﷺ عام الحديبية، وكانوا يقولون: نحن ولاةُ البيت والحرم فنصدُّ من نشاء ونُدخل من نشاء فقيل: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا وُلاةَ أمر الحرم ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ من المسلمين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤﴾ ذلك، كأنه استثنى مَن كان يعلَمُ وهو يعاند.

٣٥- ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ﴾ صَفيرًا كصوت المُكّاءِ[(١)] وهو طائر مليح الصوت ﴿وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ وتصفيقًا، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة وهم مُشَبِّكون بين أَصابعهم، يَصْفِرون فيها ويُصَفِّقون، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته يُخَلِّطون[(٢)] عليه ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ عذابَ القتل والأسر يومَ بدر ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾ بسبب كفركم.

ونزل في المُطعِمين يومَ بدر وكانوا اثنَي عشر رجلًا، وكلهم من قريش، وكان يُطعم كلُّ واحد منهم كل يوم عشر جُزُرٍ[(٣)]:

٣٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ كان غرضهم في الإنفاق الصَّدَّ عن اتباع محمد ﷺ وهو سبيل الله ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ ثم تكون عاقبةُ إنفاقها نَدَمًا وحَسرة

---

(١) المُكَّاءُ بالضم والتشديد والمد: طائر (أبيض يكون بالحجاز) والجمع: المكاكِيُّ، والمُكاءُ بالتخفيف: الصفير.

(٢) أي: يشوشون عليه، والتخليط في الأمر: الإفساد فيه.

(٣) الجُزُرُ: جمع الجَزور، ويقع على الذكر والأنثى من الإبل.

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ﴾

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ ءاخِرَ الأمر، وهو من دلائل النبوة لأنه أَخبرَ عنه قبلَ وُقوعِه فكان كما أَخبرَ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والكافرونَ منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لأن منهم من أَسلَمَ وحَسُن إسلامُه.

٣٧- ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ الفريقَ الخبيث من الكفار ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ من الفريقِ الطيب من المؤمنين، [جعل الله تعالى الخبيث مختلطًا بالطيب في الدنيا في سمعهم وبصرهم ونطقهم وجميع جوارحهم ولباسهم وطعامهم وشرابهم وجميع منافعهم وفي الغنى والفقر، جعل بعضهم مختلطين ببعض في الدنيا وأخبر تعالى أنه يحشرهم يوم القيامة ليفرّقَ بينهم، بين الخبيث الكافر وبين المؤمن الطيب، وجعل بينهم أعلامًا يُعرفون بها كقوله تعالى في الطيبين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة القيامة]، و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة عبس] وقال تعالى في الخبيثين ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [سورة عبس] وقال ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة طه] وقال ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴿٩٧﴾﴾ [سورة الإسراء] وغير ذلك من الآيات] ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ﴾ الفريقَ الخبيث ﴿بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ فيجمعه [متراكمًا بعضه فوق بعض] ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي: الفريق الخبيث ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أنفسَهم وأموالَهم.

٣٨- ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أَبي سفيانَ وأَصحابهِ ﴿إِن يَنتَهُوا﴾ عما هم عليه من عَداوة رسول الله ﷺ وقتاله بالدخول في الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ لهم منَ العداوة ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ لقتاله ﴿فَقَدْ

﴿مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا﴾

﴿مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [عادةُ الأمم الكافرة المتقدِّمة] بالإهلاك في الدنيا والعذاب في العُقبى.

٣٩- ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ إلى ألّا يوجَدَ فيهم شِركٌ قط ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ ويضمَحِلَّ عنهم كلُّ دين باطلٍ ويبقى فيهم دينُ الإسلام وحدَه ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ يُثيبهم على إسلامهم.

٤٠- ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرَضوا عن الإيمان ولم ينتهوا ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم ومُعينكم فَثِقُوا بولايته ونُصرته ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لا يُضِيع مَن تولّاه ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ لا يُغلب من نَصَره.

٤١- ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ والتقدير: الذي غنمتموه ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ حتى الخَيطِ والمِخْيَطِ[1] ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ فالحُكمُ أن لله خُمُسَهُ ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فالخُمُسُ كان في عهدِ رسولِ الله ﷺ يُقسَم على خَمسةِ أَسهمٍ: سهمٌ لرسول الله، وسهمٌ لذوي قرابَتهِ من بني هاشم وبني المطلب دونَ بني عبدِ شمسٍ وبني نَوفَلٍ، وثلاثةُ أَسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل، وأما بعدَ رسولِ الله ﷺ فسهمُه ساقِطٌ بموتهِ، وكذلك سهمُ ذوي القُربى، وإنما يُعطَون لفقرهم، ولا يُعطى أغنياؤهم، فيقسَم على اليتامى والمساكين وابن السبيل ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فاعمَلوا به وارضَوا بهذه القسمة، فالإيمانُ يُوجب الرضا بالحُكم والعمل بالعلم ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ إن كنتم ءامنتم بالله وبالمُنْزَل

---

(١) المِخْيَطُ بالكسر: الإبرة.

﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم
بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي
ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ
حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ يومَ بدر ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ الفريقان من المسلمين والكافرين، والمراد ما أُنزلَ عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ يقدر على أن يَنصُرَ القليل على الكثير كما فَعلَ بكم يومَ بدر.

٤٢- ﴿إِذۡ أَنتُم﴾ اذكروا إذ أنتم ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ﴾ شَطِّ الوادي ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ القُربى إلى جهة المدينة ﴿وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ البُعدى عن المدينة ﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾ العِير، وهو جمع راكب في المعنى ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ أي مكانًا أسفل من مكانكم، يعني في أسفل الوادي بثلاثة أميال ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ﴾ أنتم وأهل مكة على موعد تلتقون فيه للقتال ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ لخالف بعضُكم بعضًا فثَبَّطكم قِلَّتُكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد وثَبَّطهم ما في قلوبهم من تَهيُّب رسولِ الله ﷺ والمسلمين فلم يتفق لكم التلاقي ﴿وَلَٰكِن﴾ جَمعَ بينكم بلا ميعاد ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ من إعزاز دينه وإعلاء كلمته، وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة. ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ استُعيرَ الهلاكُ والحياة للكفر والإسلام، أي ليصدُرَ كفرُ مَن كفر عن وضوح بينةٍ لا عن مُخالَجَة شُبهة، ويصدرَ إسلامُ من أسلم أيضًا عن يقين وعلم بأنه الدين الحقُّ الذي يجب الدخول فيه والتمسك به، وذلك أن وقعة بدر من الآيات الواضحة التي من كفر بعدها كان مكابرًا لنفسه مغالطًا لها، وليعلم أن النصر والغلبة لا تكون بالكثرة والأسباب بل بالله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ بكفر من كفرَ وعقابه، وبإيمان من ءامنَ وثوابه.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ
قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

٤٣- ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إذ يُقلِّلهم في عينك ﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ﴾ في رؤياك؛ وذلك أن الله تعالى أراه إياهم في رؤياه قليلًا، فأخبر بذلك أصحابَه فكان ذلك تشجيعًا لهم على عَدُوّهم ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لجَبُنتم وهِبتُم الإقدام [والمراد بالخطاب غير الرسول عليه السلام، ولمَّا كان الرسول عليه السلام مَحميًّا من الفشل معصومًا من النقائص أُسند الفشلُ إلى من يُمكن ذلك في حقه] ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أمرِ القتال وترددتم بين الثبات والفِرار ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ﴾ عصَمَ وأَنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجرأة والجُبن والصبر والجَزَع.

٤٤- ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ وإذ يُبَصِّركم إياهم ﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ وقتَ اللقاء ﴿فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ وإنما قللهم في أعينهم تصديقًا لرؤيا رسول الله ﷺ، وليُعاينوا ما أخبرهم به فيزدادَ يقينُهم ويجِدُّوا ويثبتوا ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل منهم: إنما هم أَكَلَةُ جَزور، قيل: قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء، ثم كثَّرهم فيما بعده ليجترئوا عليهم قِلَّةَ مبالاة بهم، ثم تَفجأَهم الكثرةُ فيُبْهَتوا ويَهابوا ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ فيحكمُ فيها بما يريد.

٤٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ إذا حاربتم جماعةً من الكفار ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾ لقتالهم ولا تَفِروا ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به داعين له على عَدُوِّكم: اللهم اخذُلهم، اللهم اقطع دابرهم ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ تَظفرون بمرادكم من

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ
لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾

النُّصرة والمَثُوبة، وفيه إشعار بأن على العبد ألّا يَفتُرَ عن ذِكر ربه، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك، وإن كانت متوزعةً عن غيره.

٤٦- ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأمر بالجهاد والثبات مع العدو وغيرهما ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ فتجبُنوا ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ دولَتُكم[1] ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ في القتال مع العدو وغيره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ مُعينُهم وحافظُهم.

٤٧- ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ هم أهلُ مكة حين نَفَروا لحماية العِير، فأتاهم رسول أبي سفيان أن ارجِعوا فقد سَلِمت عِيرُكم، فأبى أبو جهل وقال: حتى نَقدَم بدرًا، ونشربَ بها الخمورَ، وننحرَ الجَزُور، وتَعزِفَ علينا القِيانُ[2]، ونُطعم بها العرب، فذلك بَطَرُهم ورياؤهم الناسَ بإطعامهم، فوافَوها فَسُقوا كأسَ المنايا مكان الخمر، وناحَتْ عليهم النوائحُ مكان القِيانِ، فنهاهم أن يكونوا مثلَهم بَطِرين طَرِبين مُرائين بأعمالهم، [وأمرهم] أن يكونوا من أهل التقوى والكآبة والحُزن من خشية الله، مُخلصين أعمالَهم لله، والبَطَر أن تشغَلَه كثرةُ النعمة عن شكرها ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينِ الله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ عالم، وهو وعيدٌ.

٤٨- ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ واذكر إذ زَيَّن لهم الشيطان أعمالَهم التي عملوها في معاداة

---

(١) الدَّولة: الغلبة والعُقبى في الحرب، يقال: كانت الدَّولةُ لنا أي الغلبة.

(٢) القِيان: جمع قَينة وهي الأَمَةُ المُغنية، والتَّقَيُّنُ: التَّزيُّن بألوان الزينة، فتكون مأخوذةً من التزيُّنِ لأنها كانت تُزيِّن، وقيل: الأَمَةُ مُغَنيةً كانت أو غيرَ مغنية.

﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾

رسول الله ﷺ، ووسوَسَ إليهم أنهم لا يُغلَبون ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمۡۖ﴾ مُجير لكم، أَوهَمَهم أن طاعة الشيطان مما يُجيرهم ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ﴾ فلما تلاقى الفريقان ﴿نَكَصَ﴾ الشيطان هاربًا ﴿عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ رَجَعَ القَهْقَرَى ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ رَجعتُ عما ضمِنتُ لكم من الأمان. رُوِي أن إبليس تمثَّلَ لهم في صورة سُراقَةَ بنِ مالك بن جُعشُم في جند من الشياطين، معه راية، فلما رأى الملائكةَ تنزلُ نَكَصَ فقال له الحارثُ بن هشام: أَتخذُلنا في هذه الحالة؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ أي الملائكةَ، وانهزموا، فلما بلغوا مكةَ قالوا: هزم الناسَ سُراقةُ، فبلغ ذلك سُراقةَ فقال: والله ما شعرتُ بمَسيركم حتى بلغتني هزيمتُكم، فلما أسلَموا عَلِموا أنه الشيطانُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أي عقوبَتَه [على أيدي من أراهم ولا ترونهم أنتم] ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [لا يُرَدُّ عقابُه بشيء ولا يُقاوم].

٤٩- اذكروا ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ بالمدينة ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هو من صفة المنافقين ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ يعنونَ أن المسلمينَ اغتروا بدينهم فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعةَ عشَرَ إلى زُهاءِ أَلفٍ، ثم قال جوابًا لهم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يَكِلْ إليه أمره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب يُسلِّط القليلَ الضعيف على الكثير القوي ﴿حَكِيمٞ ٤٩﴾ لا يُسَوِّي بين وليِّه وعدوِّه.

٥٠- ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ ولو عاينتَ وشاهدتَ ﴿إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بقبضِ أرواحهم ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ﴾ إذا أَقبَلوا ﴿وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٍ
لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ
إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا
بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾

ظهورَهم وأَستاهَهُم[1] إذا أدبروا ﴿وَذُوقُواْ﴾ ويقولون لهم: ذوقوا ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ أي مُقَدِّمَةَ عذابِ النار، أو يقال لهم يومَ القيامة: ذوقوا.

٥١- ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي كسبت ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي ذلك العذاب بسببين: بسبب كفركم ومعاصيكم، وبأنَّ الله ﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ لأن تعذيب الكفار من العدل.

٥٢- ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ دأبُ هؤلاء مثلُ دأبِ ءال فرعون، ودأبُهم: عادتُهم وعملُهم الذي دَأَبوا فيه، أي داوموا عليه ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من قبل قريش ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ جَرَوا على عادتهم في التكذيب، فأُجري عليهم مثلُ ما فُعل بهم في التعذيب.

٥٣- ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ حتى يغيروا ما بهم من الحال، نعم لم يكن لآل فرعون ومشركي مكة حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة، ولكن تغيرت الحال المسخوطة إلى أسخطَ منها، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرةً عبدةَ أصنام، فلما بُعث إليهم بالآيات فكذبوه وَسَعَوا في إراقة دمه غيروا حالَهم إلى أسوأَ فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِمَا يقول مكذبو الرسل ﴿عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ بما يفعلون.

---

(١) أَسْتاهٌ: جمع الأَسْتِ بهمزة الوصل المكسورة وهو العَجُزُ.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ﴾

٥٤- ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ﴾ تكرير للتأكيد ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ دلالة على كفران النِّعَم وجحودِ الحق ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ﴾ بماء البحر ﴿وَكُلٌّ﴾ وكلُّهم من غَرقَى القبط وقتلى قريش ﴿كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أنفسَهم بالكفر والمعاصي.

٥٥- ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي أَصَرُّوا على الكفر فلا يُتوقع منهم الإيمان.

٥٦- ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أي الذين عاهدتَّهم من الذين كفروا، وجعلَهم شَرَّ الدوابّ، لأن شَرَّ الناس الكفارُ وشَرَّ الكفار المُصِرون، وشَرَّ المُصرِّين الناكثونَ للعهود ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ في كل معاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ لا يخافون عاقبة الغدر ولا يُبالون بما فيه من العار والنار.

٥٧- ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ فإما تُصادفنَّهم وتَظفَرنَّ بهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ ففرِّقْ عن محاربتك ومناصَبتك[1] بقتلِهم شَرَّ قِتلةٍ والنكايةِ فيهم مَن وَراءَهم من الكَفَرة، حتى لا يجسُرَ عليك بعدَهم أحدٌ اعتبارًا بهم واتعاظًا بحالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ لعل المُشَرَّدين مِن ورائِهم يتعظون.

٥٨- ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ معاهَدين ﴿خِيَانَةً﴾ نَكثًا بأَمارات تَلوحُ لك ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرحْ إليهم العهدَ ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ﴾ على استواء منك

---

(١) أي: مُعاداتِك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا
ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا
تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

ومنهم في العلم بنقض العَهد [بأن تُعلِمَهم به لئلا يتهموك بالغدر] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ الناقضين للعهود.

٥٩- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾ فاتوا وأفلتوا من أن يُظفَرَ بهم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ إنهم لا يفوتونَ ولا يَجدون طالبَهم عاجزًا عن إدراكهم.

٦٠- ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ لِناقِضِي العهدِ، أو لجميع الكفار ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ من كل ما يُتقوى به في الحرب من عُدَدِها ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ هو اسمٌ للخيل التي تُربط في سبيل الله ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ بما استطعتم ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أَهلَ مكة ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ غيرَهم، وهم اليهودُ، أو المنافقون، أو أهلُ فارسَ، أو كَفَرةُ الجن ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ لا تعرفونَهم بأعيانهم ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يوفَّرْ عليكم جزاؤه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ في الجزاء بل تُعطَون على التمام.

٦١- ﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ للصُّلح ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ فَمِلْ إليها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ولا تَخفْ من إبطانهم المَكرَ في جنوحِهم إلى السَّلْم، فإن الله كافيك وعاصِمُك من مَكرِهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالك ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ بأحوالك.

٦٢- ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ يَمْكُروا ويغدروا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ كافيكَ الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾ قوَّاك ﴿بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ جميعًا، أو بالأنصار.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن
مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ
عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾

٦٣- ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ﴾ قلوبَ الأَوسِ والخَزْرَج بعد تعاديهم مائةً وعشرينَ سنة ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بلغت عداوتُهم مَبلغًا لو أنفقَ مُنفقٌ في إصلاح ذاتِ بينِهم ما في الأرض من الأموال لم يَقدِرْ عليه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ﴾ بفضله ورحمته فأَحدثَ بينهم التوادَّ والتحابَّ، وأماط عنهم التباغُضَ والتماقت ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ يقهر من يخدعونك ﴿حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ ينصُر من يتَّبعونك.

٦٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين اللهُ ناصرًا.

٦٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ التحريض: المبالغة في الحثِّ على الأمر ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هذه عِدَةٌ من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صَبَروا غَلبوا عَشرةَ أَمثالِهم من الكفار بعون الله وتأييده ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ بسبب أن الكفار قوم جَهَلةٌ يقاتلون على غير احتسابٍ وطلبِ ثوابٍ كالبهائم، فيقِلُّ ثَباتُهم ويَعدَمونَ لجَهلهم بالله نُصرَتَهُ، بخلاف من يقاتل على بَصيرة وهو يرجو النَّصرَ من الله.

قيل: كان عليهم ألّا يفروا ويثبتَ الواحدُ للعشرة، ثم ثَقُلَ عليهم ذلك فنُسِخَ وخُفِّفَ عنهم بمقاومة الواحدِ الاثنين بقوله:

٦٦- ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾ والمرادُ الضَّعفُ في البدن، [وليس المراد بالآية أن الله تعالى لم يكن يعلم في الأزل أنه

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ﴾

سيلحقهم ضعف إنما حدَث له بعد ذلك عِلمُ ذلك؛ لأن هذا فيه نسبة الجهل إلى الله تعالى، والله تعالى لم يزل عالمًا بذاته وصفاته وما يُحدثه من مخلوقاته، فلا يتصف بعلم حادث لأنه لو جاز اتصافه بالحوادث لانتفى عنه القِدَم، لأن ما كان محلًا للحوادث لا بد أن يكون حادثًا، بل المعنى أن الله تعالى خفف عنكم الآن لأنه علم بعلمه الأزلي أنكم تضعفون عن المثابرة على مقاتلة الواحد عشرة من الكفار، فقوله تعالى ﴿وَعَلِمَ﴾ ليس راجعًا إلى قوله ﴿الْآنَ﴾ بل ﴿الْآنَ﴾ مرتبط بقوله ﴿خَفَّفَ﴾ فقط أي علم بعلمه الأزلي أنه يكون فيكم ضعف فخفف عنكم الآن]. ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ وتكرير مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة لا تتفاوت.

٦٧- ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ ما صَحَّ له ولا استقام ﴿أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الإثخانُ: كثرةُ القتل والمبالغة فيه، من الثَّخانَةِ وهي الغِلَظُ والكثافة حتى يُذِلَّ الكفرَ بإشاعة القتلِ في أهله، ويُعِزَّ الإسلامَ بالاستيلاء والقهر، ثم الأَسرِ بعدَ ذلك، رُوي أن رسول الله ﷺ أُتيَ بسبعين أسيرًا فيهم العباسُ عمُّه وعقيل [أخ سيدنا علي رضي الله عنه] فاستشار النبيُّ عليه الصلاة والسلام أصحابَه [فاختلفوا بين القتل وأخذ الفداء، فاختار الرسول الفداء بعدما خَيَّرهُ جبريل بين أخذ الفداء والقتل[١] ولم يكن ذلك لمن سبقه من الأنبياء، ثم نزل:] ﴿تُرِيدُونَ

---

(١) روى ذلك الترمذي في سننه في كتاب السير باب ما جاء في قتل الأُسارى والفداء،=

﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ﴾

﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ متاعَها يعني الفِداءَ، سمَّاهُ عَرَضًا لقلة بقائه وسرعة فَنائه، [ولم يقل: «تريد» خطابًا للنبي ﷺ بل خاطب الناس، وليس بخطاب للكل أيضًا فإن أبا بكر ومن كان بمثل حاله ما أشاروا إلى أخذ الفداء رغبة في الدنيا بل رجاء إسلامهم والأقلّون منهم رغبوا في المال فعوتبوا] ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهرُ الأعداءَ ﴿حَكِيمٞ ٦٧﴾ في عِتاب الأَولياء.

٦٨- ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [بإحلال الغنائم والأسرى لكم] ﴿لَمَسَّكُمۡ﴾ لنالكم وأصابكم ﴿فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾ من فداء الأسرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾.

٦٩- ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ﴾ قد أحللت لكم الغنائمَ [التي كانت مُحرَّمة على الأمم قبلكم] فكلوا ﴿حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ مطلقًا عن العتاب والعقاب ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ [لذنوب أهل الإيمان من عباده] ﴿رَّحِيمٞ ٦٩﴾ [بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم].

٧٠- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ جمع أسير ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ خلوصَ إيمان وصحةَ نية ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ

= والنسائي في السنن الكبرى، وابن حبان في صحيحه والبيهقي في سننه، والحاكم في المستدرك، والبزار في مسنده، وقال القاضي عياض في الشفا: «وأما قوله في أسارى بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ الآيتين فليس فيه إلزام ذنب للنبي ﷺ، بل فيه بيان ما خُصَّ فيه وفضل من بين سائر الأنبياء فكأنه قال: ما كان هذا لنبيّ غيرك».

﴿مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾

﴿مِنكُمْ﴾ من الفداء، إما أن يُخلِفَكم في الدنيا أضعافَه أو يُثيبَكم في الآخرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾.

٧١- ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟﴾ أي الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نَكْثَ ما بايعوك عليه من الإسلام بالردةِ أو مَنْعَ ما ضَمِنُوه منَ الفِداء ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ في كُفرهم به ونقضِ ما أَخذَ على كل عاقل من ميثاقه ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فأَمكنكَ منهم، أي أَظفركَ بهم كما رأيتم يومَ بدر، فسَيُمْكِنُ منهم إن أعادوا الخيانة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمآل ﴿حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ فيما أمرَ في الحال.

٧٢- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟﴾ من مكة حُبًّا لله ورسوله ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم المهاجرونَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾ ءاوَوْهُم إلى ديارهم ونَصروهم على أعدائهم، وهم الأَنصارُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ يتولَّى بعضُهم بعضًا في الميراث، وكان المهاجرون والأنصارُ يتوارثون بالهجرة وبالنُّصرة دون ذوي القَرابات حتى نُسِخَ ذلك بقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة الأنفال] وقيل: أراد به النصرةَ والمُعاونةَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟﴾ من مكة ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ من تَولِّيهم في الميراث ﴿مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ فكان لا يرثُ المؤمنُ الذي لم يهاجرْ ممن ءامَنَ وهاجرَ ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ أي مَن أسلمَ ولم يهاجر ﴿فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ إن وقعَ بينهم وبين الكفار قتالٌ وطلبوا معونَتكم فواجبٌ عليكم أن تنصروهم على الكافرين ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ فإنه لا يجوز لكم نَصرُهم عليهم لأنهم لا

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ﴾

يُبتدَؤون بالقتال إذ الميثاق مانعٌ من ذلك ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾ تحذير عن تعدِّي حَدِّ الشرع.

٧٣- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ ظاهره إثباتُ الموالاة بينهم، ومعناه نهيُ المسلمين عن موالاة الكفار وموارثَتِهم وإيجابُ مباعَدَتهم ومصارمتهم(١) وإن كانوا أقارب، وأن يُتركوا يتوارثون بعضهم بعضًا، ثم قال: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ إلا تفعلوا ما أَمرتُكم به من تواصل المسلمين وتولّي بعضِهم بعضًا حتى في التوارث تفضيلًا لنسبة الإسلام على نسبة القرابة ولم تجعلوا قرابةَ الكفار كلا قرابة ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ تحصلْ فتنةٌ في الأرض ومَفسدة عظيمة، لأن المسلمين ما لم يصيروا يدًا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرًا والفسادُ زائدًا.

٧٤- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ لأنهم صَدَقوا إيمانهم وحقَّقوه بتحصيل مقتَضَياته من هجرةِ الوطن ومفارقة الأهل والسَّكن والانسلاخِ من المال والديار لأجل الدين والعُقبى ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤﴾ لا مِنَّةَ فيه ولا تنغيصَ، ولا تكرارَ لأن هذه الآيةَ واردةٌ للثناء عليهم مع الموعِدِ الكريم، والأولى للأمر بالتواصل.

٧٥- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ﴾ يريد اللاحقينَ بعد السابقين إلى الهجرة ﴿وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ جَعلَهم منهم تفضلًا وترغيبًا ﴿وَأُوْلُواْ

---

(١) أي: مقاطعتهم.

﴿ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾

﴿ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ وأُولو القرابات أَولى بالتوارث، وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنُّصرة ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ في حُكمه وقِسمَتِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾ فيقضي بين عباده بما شاء من أَحكامه، قَسَمَ الناس أربعةَ أقسام: قسمٌ ءامنوا وهاجروا، وقسم ءامنوا ونَصَروا، وقسم ءامنوا ولم يهاجروا، وقسم كفروا ولم يؤمنوا.

سورة التوبة
مدنية
وهي مائة وتسع وعشرون ءاية كوفي
ومائة وثلاثون غيره

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾

لها أسماءٌ: براءةُ، التوبةُ، المُبَعثِرة، المُخزية، الفاضِحَة [وغيرها من الأسماء]، لأن فيها التوبةَ على المؤمنين، وهي تبعثر عن أسرار المنافقين وتفضحهم، وتُخزيهم، وفي ترك التسمية في ابتدائها أقوالٌ؛ فعن علي وابن عباس رضي الله عنهم أن بسم الله أمانٌ، وبراءةُ نزلت لرفع الأمان، [وقيل غير ذلك].

١- ﴿بَرَآءَةٌ ۝١﴾ أي هـذه بـراءة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ المعنى أن الله ورسوله قد بَرِئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين، وأنه منبوذ إليهم.

٢- ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ فسيروا في الأرض كيف شئتم، والسَّيْحُ: السيرُ على مَهَلٍ، روي أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرِهم من العرب فَنَكَثوا إلا ناسًا منهم، وهم بنو ضَمرةَ وبنو كِنانة، فَنُبِذَ العهدُ إلى الناكثين، وأُمِروا أن يَسيحوا في الأرض أربعةَ أشهر ءامنين أين شاؤوا لا يُتعرضُ لهم، وهي الأشهر الحُرُم في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ ذلك لصيانة الأشهر الحُرم من القتل والقتال فيها،

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ
يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن
تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ
عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾

وكان نزولُها سنةَ تسع من الهجرة، وفتحُ مكة سنةَ ثمانٍ. والجمهور على إباحة القتال في الأشهر الحرم، وأن ذلك قد نسخ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ لا تَفوتونه وإن أَمهَلَكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ مُذِلُّهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب.

٣- ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ الأَذانُ بمعنى الإعلام، والفرق بين الجملة الأولى [وهي ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾] والثانية [وهي ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾] أن الأولى إخبارٌ بثبوت البراءة، والثانيةَ إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت، وإنما عُلِّقت البراءةُ بالذين عوهِدوا من المشركين وعُلِّقَ الأذان بالناس لأن البراءة مختصةٌ بالمعاهَدين والناكثين منهم، وأما الأذانُ فعامٌّ لجميع الناس مَن عاهدَ ومن لم يعاهِد ومن نكثَ من المعاهَدين ومن لم ينكُث ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ يومَ النحر لأن فيه تمامَ الحج من الطواف والنحر والحلق والرمي، ووصفُ الحج بالأكبر لأن العمرةَ تسمى الحجَّ الأصغرَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي ورسولُه بريءٌ ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ من الكفر والغدر ﴿فَهُوَ﴾ أي التوبةُ ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من الإصرار على الكفر ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ عن التوبة ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ غيرُ سابقينَ اللهَ ولا فائتين أَخذَهُ وعقابَه ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾ مكانَ بشارة المؤمنين بنعيم مُقيم.

٤- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ المعنى: براءةٌ من الله ورسوله إلى الذين عاهدتُم من المشركين إلا الذين عاهدتم منهم ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ من شروط العهدِ أي وَفَوا بالعهد ولم يَنْقُضوه

﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا
ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ
كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ٥ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦﴾

﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ ولم يعاونوا عليكم عدوًّا ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ﴾ فأدُّوه إليهم تامًّا كاملًا ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ إلى تمام مدتهم ولا تُجروهم مُجراهم ولا تجعلوا الوفيَّ كالغادر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤﴾ يعني أن قضيةَ التقوى ألّا يُسَوَّى بين الفريقين، فاتقوا الله في ذلك.

٥- ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ مضى ﴿ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ التي أُبيحَ فيها للناكثين أن يَسيحوا ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الذين نقضوكم وظاهروا عليكم ﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ من حِلٍّ أو حَرَم ﴿وَخُذُوهُمۡ﴾ وأْسِروهم ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾ وقيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ كُلَّ ممر ومُجتاز ترصُدونهم به ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ فأطلِقوا عنهم بعد الأسر والحصر، أو لا تتعرضوا لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ بستر الكفر والغدر بالإسلام ﴿رَّحِيمٞ ٥﴾ برفع القتل قبل الأداء بالالتزام.

٦- ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ﴾ وإن جاءك أحدٌ من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهدَ بينك وبينه واستأمَنَك ليسمعَ ما تدعو إليه من التوحيد والقرءان فأَمِّنه ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ويتدبَّرَه ويطَّلعَ على حقيقة الأمر ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ﴾ بعد ذلك ﴿مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ دارَهُ التي يأمَنُ فيها إن لم يُسلم، ثم قاتله إن شئت، وفيه دليل على أن المستأمَنَ لا يُؤذَى، وليس له الإقامةُ في دارنا، ويُمكَّن من العود ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمرُ بالإجارةِ في قوله: ﴿فَأَجِرۡهُ﴾: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ بسبب أنهم قوم جَهَلة لا يعلمون ما الإسلامُ، وما حقيقةُ ما يدعو إليه، فلا بُدَّ من

﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ
ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧ كَيۡفَ وَإِن
يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ
فَٰسِقُونَ ٨ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠﴾

إعطائهم الأمانَ حتى يَسمعوا أو يفهموا الحق.

٧- ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ أي مستنكَرٌ أن يثبتَ لهؤلاء عهدٌ، فلا تطمَعوا في ذلك ولا تُحَدِّثوا به نفوسَكم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ﴾ أي ولكن الذين عاهدتم منهم ﴿عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ ولم يظهرْ منهم نَكثٌ كبني كِنانةَ وبني ضَمْرَةَ، فتربَّصوا أَمرَهم ولا تقاتلوهم ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ﴾ فما أقاموا على وَفاءِ العهد ﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ على الوفاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧﴾ يعني أن التربُّصَ بهم من أعمال المتقين.

٨- ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ تكرارٌ لاستبعاد ثبات المشركين على العهد ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا﴾ لا يُراعوا حِلفًا أو قَرابة ﴿وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ عهدًا ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بالوعد بالإيمان والوفاء بالعهد ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ الإيمانَ والوفاءَ بالعهد ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾ ناقضون العهد.

٩- ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾ استبدلوا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالقرءان ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ عَرَضًا يسيرًا وهو اتباعُ الأهواء والشهوات ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾ فَعدَلوا عنه وصرفوا غيرَهم ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩﴾ بئسَ الصنيعُ صنيعُهم.

١٠- ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ ولا تكرارَ لأن الأول على الخصوص حيث قال: ﴿فِيكُمۡ﴾، والثاني على العموم لأنه قال: ﴿فِي مُؤۡمِنٍ﴾ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠﴾ المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة.

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ
ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ
وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾

١١- ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ فهم إخوانكم ﴿فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾ لا في النسب ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ ونبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ يَفهمون فيتفكرون فيها.

١٢- ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ نقضوا العهود المؤكَّدةَ بالأَيمان ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ وعابُوه ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ﴾ فقاتلوهم، وهم رؤساءُ الشرك ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ وإنما أثبتَ لهم الأَيمان في قوله ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم﴾ لأنه أراد أَيمانَهم التي أظهروها ثم قال ﴿لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ أي على الحقيقة، وهو دليل لنا[1] على أن يَمينَ الكافر لا تكون يمينًا. ومعناه عند الشافعي رحمه الله أنهم لا يوفونَ بها لأن يمينَهم يمينٌ عنده حيث وصفها بالنَّكث ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ ليكن غرضكم في مقاتلتهم انتهاءَهم عما هم عليه بعد ما وُجِدَ منهم من العظائم، وهذا من غاية كَرَمِه على المسيء.

ثم حرَّض على القتال فقال:

١٣- ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ﴾ التي حلفوها في المعاهدة، [وهو استفهام بمعنى الإغراء، وفيه تحريك لهم على قتالهم] ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة [حين تشاوروا بدار النَّدوة فأذن الله تعالى له في الهجرة فخرج بنفسه] ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ بالقتال [لأن رسول الله ﷺ جاءهم أولًا بالكتاب المبين وتحدّاهم به فعدَلوا عن المعارضة - لعجزهم عنها - إلى القتال، فهم البادئون] فما يمنعكم من

---

(١) أي: الحنفية.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ
ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟
مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةًۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

أن تقاتلوهم؟ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ﴾ [إستفهام بمعنى النهي] ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ فتقاتلوا أعداءَهُ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي أن قضيةَ الإيمان الكامل ألّا يَخشى المؤمنُ إلا رَبَّه ولا يبالي بمن سواه.

ولمَّا جَرَّدَ لهم الأَمرَ [بالقتال] بقوله:

١٤- ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ وعدهم النصرَ ليثَبِّت قلوبهم ويصحح نياتِهم بقوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قتلًا ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أسرًا ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يُغَلِّبْكم عليهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ طائفةٍ منهم، وهم خُزَاعَةُ.

١٥- ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ﴾ لِمَا لقُوا منهم من المكروه وقد حصَّلَ الله [لهم] هذه المواعيدَ كلها فكان دليلًا على صدق رسول الله وصحة نبوته ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ إخبار بأن بعض أهلِ مكة يتوب عن كفره، وكان ذلك أيضًا، فقد أسلم ناس منهم كأبي سفيان وعِكرمةَ بنِ أبي جهل وسُهيلِ بن عمرو ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان ﴿حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ في قبول التوبة.

١٦- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي لا تُتركون على ما أنتم عليه حتى يتبين الخُلَّصُ منكم، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله[1] ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةًۚ﴾ أي بِطانةً من الذين يُضادُّون رسولَ الله ﷺ والمؤمنين ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ من خير أو شر فيجازيكم عليه.

---

(١) أي: ابتغاءَ ثوابِه ورضاه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ
ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

١٧- ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صحَّ لهم وما استقام ﴿أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ يعني المسجد الحرام وإنما جُمِعَ لأنه قبلةُ المساجد وإمامُها، فعامِرُهُ كعامر جميع المساجد، أو أريد جنس المساجد ودخل تحت ذلك ألّا يعمروا المسجد الحرام وهو ءاكد ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾ باعترافهم بعبادة الأصنام ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ دائمون.

١٨- ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ عِمارتها: رَمُّ ما استَرَمَّ[1] منها وَقَمُّها[2] وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وصيانتها مما لم تُبنَ له المساجدُ، لأنها بنيت للعبادة والذكر، ومن الذكر درس العلم ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ولم يذكر الإيمانَ بالرسول ﷺ لِما علم أن الإيمان بالله قرينتُه الإيمانُ بالرسول لاقترانهما في الأذان والإقامة وكلمة الشهادة وغيرها ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ﴾ تنبيهٌ على الإخلاص [وأن] لا يختار على رضا الله رضا غيره ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ تبعيدٌ للمشركين عن مواقف الاهتداء، وحَسمٌ لأطماعهم في الانتفاع بأعمالهم [إذ مَن جمع هذه الخصال الأربعة جُعِلَ حالُهُ حالَ من تُرجى له هذه الهداية، فكيف بمن هو عارٍ منها].

١٩- ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) إصلاح ما احتاج الإصلاح منها لقِدَمِه.
(٢) القَمُّ: الكنس.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ
أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

نزلت جوابًا لقول العباس حين أُسِرَ فَطفِقَ[1] عليٌّ رضي الله عنه يُوبِّخُه بقتال رسولِ الله ﷺ وقطيعةِ الرَّحِم: «تذكر مَسَاوِيَنَا وتدعُ محاسننا؟!» فقيل: «أَوَلكم محاسنُ؟!» فقال: «نعمُرُ المسجدَ ونَسقِي الحاجَّ ونَفُكُّ العاني[2]»، والمعنى إنكار أن يُشَبَّهَ المشركون بالمؤمنين وأعمالُهم المحبَطةُ بأعمالهم المثبَتة.

٢٠- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ أولئك ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ من أهل السِّقاية والعِمارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ لا أنتم، والمختصُّون بالفوز دونكم.

٢١- ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ دائم.

٢٢- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾ لا ينقطع.

لمَّا أمر اللهُ النبيَّ عليه الصلاة والسلام بالهجرة جعلَ الرجلُ يقول لابنه ولأخيه ولقَرابته: إنَّا قد أُمرنا بالهجرة، فمنهم من يُسرع إلى ذلك ويُعجبه، ومنهم من تتعلَّقُ به زوجتُه أو ولده فيقول: تدعُنا بلا شيءٍ فنضيعُ، فيجلس معهم ويدعُ الهجرةَ، فنزل:

٢٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ أي اثروه واختاروه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾ أي ومن يتولَّ الكافرين ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [بوضعهم

---

(١) أي: جعَلَ.
(٢) العاني: العبدُ والأسير.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾

الموالاة في غير موضعها].

٢٤- ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقاربُكم ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتُموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فواتَ وقتِ نَفاقها ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ وهو عذاب عاجل، أو عقاب ءاجِل، أو فتح مكة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ والآية تَنعَى على الناس ما هم عليه من رَخاوةِ عَقْدِ الدِّين واضطراب حبل اليقين.

٢٥- ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ كوَقعة بدرٍ وقُريظةَ والنَّضِيرِ والحُديبيةِ وخيبرَ وفتحِ مكةَ ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكروا يوم ﴿حُنَيْنٍ﴾ وادٍ بين مكةَ والطائفِ، كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفًا وبين هَوازِنَ وثقيفٍ وهم أربعةُ ءالافٍ، فلما التقَوا قال رجل من المسلمين: لن نُغلَبَ اليومَ من قِلَّة، فساءت رسولَ الله عليه الصلاة والسلام ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فأدركت المسلمينَ كلمةُ الإعجاب بالكثرة، وزلَّ عنهم أنَّ الله هو الناصرُ لا كثرةُ الجنود، فانهزموا وبقي رسول الله وهو ثابت في مَركزِه ليس معه إلا عمُّه العباس ءاخذًا بلجام دابته وأبو سفيان بن الحارث ابن عمه ءاخذًا بركابه [وعدد قليل من الصحابة يقاتلون بين يديه]، فقال للعباس: صِح بالناس، وكان صَيّتًا فنادى: يا أصحاب الشجرة، فاجتمعوا وهم يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة عليهم الثياب البيض على خيول بُلْقٍ(١). فأخذ

---

(١) البُلْقُ: جمع أَبلق، وهو ما فيه سواد وبياض من الخيل.

﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ
أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ
كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ﴾

رسول الله ﷺ كفًّا من تراب [فرمَى المشركين] به ثم قال: «انهزَموا وربِّ الكعبة» فانهزموا، وكان من دعائه عليه السلام يومئذ: «اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان» وهذا دعاء موسى عليه السلام يومَ انفلاق البحر ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ مع رُحبها، والمعنى: لم تجدوا موضعًا لفراركم عن أعدائكم فكأنها ضاقت عليكم ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ثم انهزمتم.

٢٦- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رَحمتَه التي سكنوا بها وأمِنوا ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكةَ وكانوا ثمانية ءالاف، [وقيل أكثر وقيل أقل] ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر وسَبْيِ النساءِ والذراريّ ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

٢٧- ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ وهم الذين أَسلَموا منهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ بسَتر كُفر العدو بالإسلام ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ بنصر الوليّ بعد الانهزام.

٢٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ذَوو نَجَسٍ، لأنَّ معهم الشركَ، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، جُعلوا كأنهم النجاسة بعينها ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فلا يَحُجُّوا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو عام تسع من الهجرة حين أُمّر أبو بكر رضي الله عنه على المَوسِم ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فقرًا بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم في قدومهم عليكم من الإرفاق والمكاسب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ

﴿مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا
بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ
وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ من الغنائم، أو من مَتاجر حَجيج الإسلام ﴿إِن شَآءَۚ﴾ هو تعليم لتعليق الأمور بمشيئة الله تعالى لتنقطع الآمالُ إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ في تحقيق ءامالكم.

ونزل في أهل الكتاب:

٢٩- ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ لأنهم فيه على خلاف ما يجبُ، حيث يَزعُمون أن لا أكلَ في الجنة ولا شربَ ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ لأنهم لا يُحرِّمون ما حُرِّم في الكتاب والسنة ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ ولا يعتقدون دينَ الإسلام الذي هو الحق ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ إلى أن يقبلوها، وسُمِّيت جِزيةً لأنه مما يجب على أهلها أن يَجْزُوه أي يَقضُوه ﴿عَن يَدٍ﴾ نقدًا غيرَ نسيئةٍ لا مبعوثًا على يد أحد، ولكن عن يد المعطي إلى يد الآخذ ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ تؤخذ منهم على الصَّغار والذل [أي أذلاء منقادون لحكم الإسلام].

٣٠- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ كلُّهم أو بعضهم ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾ قولٌ لا يعضُده برهان ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ يعني أنَّ الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قولَ قدمائهم، يعني أنه كفرٌ قديمٌ فيهم غيرُ مستحدث ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ هم أَحِقّاءُ بأن يقال لهم هذا ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ كيف يُصرفون عن الحق بعد قيام البرهان.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ﴾

٣١- ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أي أهلُ الكتابين ﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾ علماءَهم ﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾ نُسَّاكَهم ﴿أَرۡبَابٗا﴾ ءالهةً ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حيث أطاعوهم في تحليل ما حرَّمَ اللهُ، وتحريم ما أحلَّ الله ﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ اتَّخذوه ربًّا حيث جعلوه ابنَ الله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ تنزيهٌ له عن الإشراك.

٣٢- ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ مَثَّلَ حالَهم في طلبهم أن يُبطلوا نبوَّةَ محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفُخَ في نور عظيم مُنبَثٍّ في الآفاق يريدُ اللهُ أن يزيدَه ويُبلِّغَه الغايةَ القصوى من الإشراق ليُطفِئَه بنفخةٍ، [وقيل: نورُ الله: القرءان والإسلام، وقيل: الدلالةُ والبرهان، و﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي بجدال بألسنتهم من غير حجة ولا برهان ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أي لا يريد الله إلا تمام هذا النور، وهو إبقاء الإسلام والإيمان والقرءان، وإيضاح الحجة والبرهان، وفيه تخييبهم وقطع أطماعهم].

٣٣- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمدًا عليه الصلاة والسلام ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ بالقرءان ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الإسلام ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ ليُعْلِيَه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على أهل الأديان كلّهم، أو ليُظهِرَ دينَ الحق على كل دين ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [ذلك].

٣٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ

﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ﴾

﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾ استعارَ الأَكلَ للأخذ ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالرِّشا في الأحكام ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ سَفِلَتَهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينهِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ يجوز أن يكون إشارةً إلى الكثير من الأَحبار والرهبان للدلالة على اجتماع ذَميمتين فيهم: أَخذِ الرشا وكنزِ الأموال والضَّنِّ(١) بها عن الإنفاق في سبيل الخير، ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غيرُ المنفقين [الذين لا يؤدّون حق المال عليهم]، ويقرن بينهم وبين المرتشين من أهل الكتاب تغليظًا ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾.

٣٥- ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ النارُ تُحمى [على هذه الأموال] أي توقَدُ ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ﴾ يُكوَوْن على الجهات الأربع ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ يقال لهم: هذا ما كنزتُموه لتنتفعَ به نفوسُكم وما علمتم أنكم كنزتموه لِتَستضِرَّ به أَنفسُكم، فهو توبيخ ﴿فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وبالَ المال الذي كنتم تكنِزونه.

٣٦- ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ المراد بيانُ أنَّ أحكامَ الشرع تُبتنى على الشهور القمرية المحسوبة بالأهلَّة دون الشمسية ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فيما أثبته وأوجبه من حكمته، أو في اللوح ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ﴾ ثلاثةٌ سَرْدٌ: ذو القَعدة للقعود

---

(١) أي: البُخل.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾

عن القتال، وذو الحِجَّة للحجّ، والمُحرَّمُ لتحريم القتال فيه، وواحد فردٌ وهو رجبٌ لترجيب العرب إياه أي لتعظيمه ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ يعني أن تحريم الأربعة الأشهر هو الدينُ المستقيم ودين إبراهيم وإسماعيل ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ﴾ في الحُرُم ﴿أَنفُسَكُمۡۚ﴾ بارتكاب المعاصي ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ جميعًا ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ ناصِرٌ لهم، حثَّهم على التقوى بضمان النُّصرة لأهلها.

٣٧- ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ وهو تأخير حُرمة الشهر إلى شهرٍ ءاخر، وذلك أنهم كانوا أصحابَ حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شقَّ عليهم تركُ المحاربة فيُحلُّونه ويُحرِّمون مكانَه شهرًا ءاخر حتى رفضوا تخصيصَ الأشهر الحرم بالتحريم ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ هذا الفعل منهم زيادةٌ في كفرهم ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ إذا أحلُّوا شهرًا من الأشهر الحُرُم عامًا رجعوا فحرَّموه في العام القابل ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ ليوافقوا العِدَّةَ التي هي الأربعة ولا يخالفوها ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ فيحلُّوا بمواطأة العدة وَحْدَها من غير تخصيصِ ما حرَّم الله من القتال، أو مِن تَركِ الاختصاص للأشهر بعينها ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾ زَيَّن الشيطانُ لهم ذلك فحسِبوا أعمالَهم القبيحة حسنةً ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ حالَ اختيارهم الثباتَ على الباطل.

٣٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ﴾ اخرجوا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ تثاقلتم أي تباطأتم ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مِلتُم إلى الدنيا

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا
قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ﴾

وشهواتها وكرهتم مَشاقَّ السفر ومتاعِبَه، أو مِلتُم إلى الإقامة بأرضكم وديارکم، وكان ذلك في غزوة تبوك، استُنفروا في وقت عُسرة وقحط وقيظ[١] مع بُعد الشُّقَّة[٢] وكثرة العدو فشقَّ عليهم ذلك، وقيل: ما خرج رسول الله ﷺ في غزوة إلا وَرَّى عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك، ليستعدَّ الناس تمام العُدَّة ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾ بدل الآخرة ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

٣٩- ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ إلى الحرب ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ﴾ سَخَطٌ عظيم على المتثاقلين حيث أوعَدَهم بعذاب أليم مطلَقٍ يَتناولُ عذابَ الدَّارين ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من التبديل والتعذيب وغيرهما ﴿قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

٤٠- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ إن لا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد، فدلَّ على أنه يَنصُره في المستقبل كما نَصره في ذلك الوقت ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أُسند الإخراج إلى الكفار لأنهم حين همُّوا بإخراجه أَذِنَ الله له في الخروج، فكأنهم أخرجوه ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ وهما رسولُ الله ﷺ وأبو بكر ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ هو نَقْبٌ في أعلى ثور، وهو جبل في يُمنى مكة على مسيرة ساعةٍ، مَكَثا فيه ثلاثًا ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) القيظ: شدة الحر.
(٢) الشُّقَّةُ: المسافة، والشُّقَّة أيضًا: السفر البعيد.

﴿مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾

﴿مَعَنَاۖ﴾ بالنُّصرة والحفظ، طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ فقال: إن تُصَبِ اليومَ ذهبَ دينُ الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما ظنُّكَ باثنين الله ثالثهما**[1]». وقيل: لما دخل الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله، والعنكبوتَ فنسجت عليه. وقالوا [أي الفقهاء]: مَن أنكر صُحبة أبي بكر فقد كفر لإنكاره كلامَ الله ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ ما أَلقَى في قلبه من الأَمَنة التي سَكنَ عندَها وعَلِمَ أنهم لا يصلون إليه ﴿عَلَيۡهِ﴾ على النبي ﷺ، أو على أبي بكر وكان النبيُّ ساكنَ القلب ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ هم الملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دعوتَهم إلى الكفر ﴿ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ دعوتُه إلى الإسلام ﴿هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ هي كانت ولم تزل عالية ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يُعِزُّ بنصره أهلَ كلمته ﴿حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ يُضِلُّ أهلَ الشرك بحكمته.

٤١- ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا﴾ في النفور لنَشَاطكم له ﴿وَثِقَالٗا﴾ عنه لمَشقَّته عليكم، أو ركبانًا ومشاةً، أو شبابًا وشيوخًا ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ إيجابٌ للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ﴾ الجهادُ ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من تركه ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ كونَ ذلك خيرًا فبادروا إليه.

ونزل في المتخلِّفين عن غزوة تبوك من المنافقين:

٤٢- ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا﴾ لو كان ما دُعوا إليه مَغْنَمًا ﴿قَرِيبٗا﴾ سهلَ

---

(١) أي: ناصِرُهما.

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟﴾

المأخذ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ وسطًا مقاربًا ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك في الخروج ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ المَسافة الشَّاطَّة[1] الشاقَّة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ من دلائل النبوة، لأنه أَخبرَ بما سيكون بعد القُفُول[2]، أي سيحلفون - يعني المتخلفين - عند رجوعك من غزوة تبوك [قائلين ذلك]، فقالوا كما أخبر ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالحَلِفِ الكاذب ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فيما يقولون.

٤٣- ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن الزَّلة لأنَّ العفوَ رادفٌ لها، وهو مِن لُطفِ العِتاب بتصدير العَفوِ في الخطاب، وفيه دلالةُ فَضلهِ ﷺ على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث لم يُذكر مثلُه لسائر الأنبياء عليهم السلام ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بيانٌ لما كُنِيَ عنه بالعفو، ومعناه: ما لك أذِنتَ لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلُّوا لك بعللهم، وهلَّا استأنيت[3] بالإذن ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ يتبينَ لك الصادق في العذر من الكاذب فيه.

٤٤- ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟﴾ ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا [وكان الخُلَّصُ من المهاجرين والأنصار يقولون: لنجاهدنَّ معه بأموالنا وأنفسنا، وقيل: معناه لا يستأذنك المؤمنون في الخروج ولا القعود كراهة أن يجاهدوا،

---

(١) الشَّاطَّة: البعيدة.

(٢) أي: بعد الرجوع من السفر.

(٣) أي: انتظرت وتربصت، يقال: استأنِ في أمرك أي لا تعجل.

﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ﴾

بل إذا أمرت بشيء ابتدروا إليه] ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ عِدَةٌ لهم بأجزل الثواب.

٤٥- ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ يعني المنافقين، وكانوا تسعةً وثلاثين رجلًا ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شَكُّوا في دينهم واضطربوا في عقيدتهم ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ يتحيَّرون، لأن التردد دَيدنُ المتحيّر[1]، كما أنَّ الثبات دَيدن المتبصّر.

٤٦- ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾ للخروج، أو للجهاد ﴿عُدَّةً﴾ أُهبَةً لأنهم كانوا مياسيرَ ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ نهوضَهم للخروج، [أي لم يُرد خروجهم] ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فكَسَّلهم وضَعَّف رَغبتهم في الانبعاث ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟﴾ قال بعضهم لبعض، أو قاله الرسول ﷺ غضبًا عليهم، [أو هو تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أي قدَّر الله تعالى ذلك] ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ هو ذمٌّ لهم وإلحاقٌ بالنساء والصبيان والزَّمنى الذين شأنُهم القعود في البيوت.

٤٧- ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم معكم ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ إلا فسادًا وشرًّا ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ ولسَعَوا بينكم بالتضريب[2] والنمائم وإفساد ذات البَين ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ يطلبون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويُفسدوا نياتِكم في مَغزاكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ﴾ نمَّامون يَسمعون حديثكم فيُلقونه إليهم، [أو فيكم قوم يستمعون

---

(١) أي: عادته ودأبه.

(٢) أي: الإفسادِ.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ
ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي
ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ
وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ
فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾

للمنافقين ويطيعونهم] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ بالمنافقين.

٤٨- ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ بصَدِّ الناس ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبل غزوة تبوك ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ ودبَّروا لك الحِيلَ والمكايدَ ودَوَّروا الآراءَ في إبطال أَمرِك ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ وهو تأييدُك ونصرُك ﴿وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ وغلَبَ دينُه وعلا شرعُه ﴿وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ على رغم منهم.

٤٩- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ ولا تُوقِعني في الفِتنة، وهي الإثمُ بألّا تأذنَ لي ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ الفتنةُ هي التي سَقطوا فيها وهي فتنة التخلُّف ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ الآنَ، لأنَّ أسبابَ الإحاطة معهم، أو تحيط بهم يوم القيامة.

٥٠- ﴿إِن تُصِبۡكَ﴾ في بعض الغزوات ﴿حَسَنَةٞ﴾ ظَفَرٌ وغنيمة ﴿تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ﴾ نَكبَةٌ وشدة في بعضِها نحوُ ما جرى يومَ أُحُد ﴿يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا﴾ الذي نحن مُتَّسِمون به من الحَذَر والتيقظ والعمل بالحَزْم ﴿مِن قَبۡلُ﴾ مِن قَبلِ ما وقَعَ ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ عن مَقامِ التَّحدُّث بذلك إلى أهاليهم ﴿وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ مسرورون.

٥١- ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي قَضى من خير أو شرّ ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ الذي يتولانا ونتولاه[1] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ

---

(١) أي: هو ناصِرُنا وحافظنا وأَولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة، فَحقُّنا أن نرضى بما يصدرُ من جهته. ومعنى من جهته: ما يقدّره لنا وييسره لنا. وليست الجهة هنا بمعنى المكان - وألّا نتوكل على غيره.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُل هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن
يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢ قُلْ
أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٣ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ
مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ
وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٥٤ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ وحقُّ المؤمنين ألّا يتوكلوا على غير الله.

٥٢- ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ تنتظرون بنا ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ وهما النُّصرةُ والشهادة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السُّوْأَيَيْنِ[1] إمَّا ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ وهو قارِعَةٌ من السماء كما نزلت على عادٍ وثمود ﴿أَوْ﴾ بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو القتل على الكفر ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ بنا ما ذكرنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ ما هو عاقبتكم.

٥٣- ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟﴾ في وجوه البرِّ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ طائعين أو مكرَهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أنفقتُم طَوعًا أو كَرهًا ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٣﴾ متمرِّدين عاتين.

٥٤- ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ وما منعهم قبولَ نفقاتهم إلا كفرُهم ﴿بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ جمع كسلانَ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ لأنهم لا يريدون بهما وجه الله تعالى [لأنهم كفار لا يرجون بهما ثوابًا ولا يخافون بالتفريط فيهما عقابًا].

٥٥- ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الإعجاب بالشيء أن تُسَرَّ به سرورَ راضٍ به متعجب من حُسنه، والمعنى: فلا تَستحسِن ما أُوتوا من زينة الدنيا، فإنَّ الله إنما

---

(١) مثنى السُّوْأَى: وهي ضد الحُسنى.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ
يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧ وَمِنْهُم
مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ
أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ
وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾

أعطاهم ما أعطاهم ليعذبهم بالمصائب فيها، أو بالإنفاق في أبواب الخير وهم كارهون ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ وتخرجَ أرواحُهم، وأَصلُ الزُّهوق الخروجُ بصعوبة ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥﴾ [فيعذبهم في الآخرة أشد العذاب].

٥٦- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ لَمِنْ جملة المسلمين ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾ يخافونَ القتلَ وما يُفعل بالمشركين، فيتظاهرونَ بالإسلام تَقِيَّةً.

٥٧- ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ مكانًا يلجأون إليه مُتحصّنين من رأس جَبل أو قلعة أو جزيرةٍ ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ أو غِيْرانًا[1] ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أو نَفقًا يَندسُّون فيه ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ لأَقبلوا نحوَه ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾ يُسرعون إسراعًا لا يردُّهم شيء.

٥٨- ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يَعِيبُكَ في قِسمة الصَّدَقات ويطعنُ عليك ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ وَصَفهم بأنَّ رضاهم وسخطهم لأَنفُسهم لا للدين وما فيه صلاحُ أَهلِه، لأنه عليه الصلاة والسلام استعطف قلوبَ أهلِ مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجِرَ المنافقون منه.

٥٩- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ ولو أنهم

---

(١) جمع غار.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ
وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٞ ٦٠ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ﴾

رَضُوا لكان خيرًا لهم، والمعنى: ولو أنهم رضُوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم - وإن قلَّ نصيبُهم - [لكان خيرًا لهم].

٦٠- ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ قصَرَ جنسَ الصدقات على الأصناف المعدودة، أي هي مختصة بهم لا تتجاوز إلى غيرهم ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ هم السُّعاة الذين يقبضُونها[1] ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ على الإسلام، أشرافٌ من العرب كان رسولُ الله ﷺ يتألَّفُهم على أن يسلموا[2]، وقوم منهم أسلموا فيعطيهم تقريرًا لهم على الإسلام [أو ليُسلمَ نُظَراؤهم أو أتباعهم] ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ هم المكاتبون يُعانُون منها ﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾ الذين رَكِبَتهم الديون ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فقراءُ الغزاة، أو الحجيجُ المُنقَطَعُ بهم ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ المسافرُ المنقطِعُ عن ماله ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ معناه فَرضَ اللهُ الصدقاتِ لهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمصلحةِ ﴿حَكِيمٞ ٦٠﴾ في القِسمة، وإنما وقعت هذه الآية حسمًا لأطماعهم [أي المنافقين] وإشعارًا بأنهم بعداءُ عنها وعن مصارفها.

٦١- ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ﴾ الأُذُنُ: الرجلُ الذي يُصَدِّق كلَّ ما يسمع ويقبلُ قولَ كل أحدٍ، سُمي بالجارحة التي هي ءالةُ السَّماع كأنَّ جملَتَهُ أُذنٌ سامعة، وإيذاؤهم له هو قولُهم فيه: هو أُذُن قَصَدوا به المَذَمَّة، ففسَّره الله تعالى بما هو مَدْحٌ له وثناء عليه

---

(١) بعض الناس يعطي زكاته لشخص ويقول له: أنت وزع، فيعتبر نفسه جهلًا من العاملين عليها فيأخذ لنفسه من هذا المال باسم العاملين وليس له ذلك، أما إن كان فقيرًا وأعطاه صاحب الزكاة باسم الفقر يأخذ، ولكن لا يقتطع هو لنفسه شيئًا بدون علم صاحب المال.

(٢) ولا يدخل هؤلاء في المذهب الشافعي الآن في دفع الزكاة لهم.

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾

فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ هو أُذُنٌ ولكن نِعْمَ الأُذُنُ، ثم فَسَّرَ كونه أُذُنَ خير بأنه ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يُصدّق بالله لِمَا قام عنده من الأدلة ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخُلَّصِ من المهاجرين والأنصار ويُسَلّم لهم ما يقولونه ويُصدِّقه لكونهم صادقين عنده ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ﴾ أي وهو رحمةٌ للذين ءامنوا منكم حيث استنقذهم من الكفر إلى الإيمان ويشفع لهم في الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ في الدارين.

٦٢- ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الخطاب للمسلمين، وكان المنافقون يتكلمونَ بالمَطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ثم يأتونَهم فيعتذرون إليهم ويؤكِّدونَ معاذيرَهم بالحَلِفِ ليعذروهم ويرضَوا عنهم، فقيل لهم: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ أي إن كنتم مؤمنين كما تزعُمون فأَحقُّ مَن أَرضَيتم اللهُ ورسولُه بالطاعة والوِفاق، وإنما وَحَّدَ الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسول الله فكانا في حكم شيء واحد.

٦٣- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ﴾ أنَّ الأَمرَ والشأنَ ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يُجاوِزِ الحَدَّ بالخلاف ﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾، أي فَحَقَّ أنَّ له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [يعني الهلاك الدائم، والاستفهام بمعنى التوبيخ والإنكار].

٦٤- ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ خبرٌ بمعنى الأمر، أي ليحذَرِ المنافقون ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ من الكفر والنفاق، والضمائرُ للمنافقين، لأنَّ السورة إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ
وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن
نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ
بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ﴾

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ أمرُ تهديدٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ مُظهرٌ ما كنتم تحذَرونَه، وكانوا يحذرونَ من أن يفضَحَهُم اللهُ بالوحي فيهم وفي استهزائهم بالإسلام وأهله.

٦٥- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ﴾ بينا رسولُ الله يسير في غزوة تبوك ورَكْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا: «انظروا إلى هذا الرجل يريدُ أن يفتحَ قصورَ الشام وحصونها هيهاتَ هيهاتَ»، فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال: «**احبسوا عليَّ الركب**» فأتاهم فقال: «**قلتم كذا وكذا**» فقالوا: يا نبي الله والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا [نخوض ونلعب] في شيء مما يخوض فيه الركب ليُقَصِّرَ بعضنا على بعض السفر ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ لم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه.

٦٦- ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سِرِّكم ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ قد أظهرتم كفركم باستهزائكم ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ﴾ بعد إظهاركم الإيمانَ ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بتوبَتهم وإخلاصهم الإيمانَ بعد النفاق ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ مُصِرِّين على النفاق غيرَ تائبين منه.

٦٧- ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ الرجال المنافقون كانوا ثلاثمائة والنساءُ المنافقات مائةً وسبعين ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ كأنهم نفسٌ واحدة ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ بالكفر والعصيان ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ عن الطاعة والإيمان ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ﴾ شُحًّا بالمَبارِّ والصدقات والإنفاق

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ
مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا
فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ
وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾

في سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ تركوا أمره، أو أغفلوا ذِكره ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركَهم من رحمته وفَضله، [فالنسيان هنا: الترك، ولا يجوز تفسيره في حق الله تعالى بما هو ضد الذكر والحفظ ولا بالسهو والغفلة تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا] ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ هم الكاملون في الفِسقِ الذي هو التمرُّدُ في الكفر والانسلاخُ عن كلّ خير.

٦٨- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مُقدِّرينَ(١) الخلودَ فيها ﴿هِيَ﴾ النار ﴿حَسْبُهُمْ﴾ فيه دلالة على عِظَم عذابها ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأهانَهم مع التعذيب وجعلَهم مذمومين مُلحَقين بالشياطين الملاعين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ دائمٌ معهم في العاجل لا يَنفكُّون عنه، وهو ما يحذرونَه أبدًا من الفضيحة ونزول العذاب إن اطُّلِعَ على أسرارهم.

٦٩- ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾ والخَلاق: النصيب، مشتق من الخَلْقِ وهو التقدير، أي أنتم مثل الذين من قبلكم [أي تلذذتم بمَلاذِّ الدنيا كما تلذذوا بملاذِّها] ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ كالخوض الذي خاضوا، والخوض: الدخول في الباطل، [فإذا كنتم في سوء المعاملة مثلهم، وفي القوة والمنعة دونهم، فما يؤمنكم أن يصيبكم من العقوبة

---

(١) الآن ليسوا خالدين لكن مُقَدَّرٌ خلودهم في المستقبل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٦٩ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٧٠ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٧١﴾

ما أصابهم]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٦٩﴾ [أما في الدنيا فلم ينالوا بها مَحمدةً ولا ثناءً من الناس، ولم يرفع الله لهم بها ذكرًا بل لعنهم وهتك أستارهم وأبدى ما كانوا يُخفون من قبائح أعمالهم وأبقى لهم في الدنيا المَذَمَّة، وأما في الآخرة فليس لهم إلا الخلود في الجحيم لأن أعمالهم الحسنة لم تكن إلا نفاقًا].

ثم ذكر نبأ مَن قبلهم فقال:

٧٠- ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ﴾ وأهلِ مَديَنَ وهم قومُ شُعيب ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ مدائنِ قوم لوط، وائتفاكهنَّ انقلابُ أحوالهنَّ عن الخير إلى الشرّ ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ [بعقابه إياهم على تكذيبهم رسلَه، وجحودِهم ءاياتِه] ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٧٠﴾ بالكفر وتكذيب الرسل [فاستحقوا بذلك العذابَ].

٧١- ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ في التناصُر والتراحم ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بالطاعة والإيمان ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ عن الشرك والعصيان ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ السين مُفيدةٌ وجودَ الرحمة لا مَحالة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ على كلّ شيء قادرٌ عليه، فهو يقدر على الثواب والعقاب ﴿حَكِيمٞ ۝٧١﴾ واضعٌ كلًّا موضِعَه.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ
طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ
جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾

٧٢- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ يطيب فيها العيش ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ هي مدينة في الجنة [فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والجنات حولها. وقيل: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ أي جنات إقامة، وقيل غير ذلك] ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾ من ذلك كلّه، لأنَّ رضاه سببُ كل فوز وسعادة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما وَعَدَ ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ وَحدَه دون ما يَعُدُّه الناسُ فوزًا.

٧٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بالحُجَّة ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ في الجهادين جميعًا ولا تُحابِهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ جهنَّمُ.

أقام رسول الله ﷺ في غزوة تبوك شهرين ينزلُ عليه القرآنُ ويَعيبُ المنافقين المتخلّفين فيسمَعُ من معه منهم، منهم الجُلَاسُ بنُ سُوَيدٍ فقال: والله لَئِنْ كان ما يقول محمدٌ حقًّا لإخواننا الذين خلَّفناهم وهم سادَتُنا فنحن شَرٌّ من الحمير، فقال عامر بن قيس الأنصاريُّ للجُلَاس: أجل واللهِ إنَّ محمدًا صادقٌ وأنت شَرٌّ من الحمار، وبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فاستُحضر، فحلَفَ بالله ما قال، فرفَعَ عامرٌ يَدَه فقال: اللهم أنزل على عبدِكَ ونبيّكَ تصديقَ الصادقِ وتكذيبَ الكاذب، فنزل:

٧٤- ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، فقال الجُلَاسُ: يا رسول الله واللهِ لقد قلتُه وصدقَ عامرٌ، فتابَ الجُلَاس وحَسُنت توبتُه ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ وأظهروا كُفرَهم بعد إظهارهم الإسلام، وفيه

﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا
لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي
قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

دِلالة على أنَّ الإيمان والإسلام واحد ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ﴾ مِن قَتلِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، أو قَتلِ عامرٍ لرَدِّه على الجُلَاس ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ وما أنكروا وما عابوا ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ﴾ وذلك أنهم كانوا حين قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ في ضَنْكٍ[1] من العيش، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأَثْرَوا بالغنائم ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ عن النفاق ﴿يَكُ﴾ التَّوبُ ﴿خَيْرًا لَّهُمْۖ﴾ وهي الآية التي تابَ عندَها الجُلَاس ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ يُصِرُّوا على النفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾ بالقَتلِ والنار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ يُنجيهم من العذاب.

٧٥- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ المالَ ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لَنُخرجَنَّ الصدقة ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ بإخراج الصدقة.

٧٦- ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أعطاهم اللهُ المالَ ونالوا مُناهم ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ مَنعوا حقَّ الله ولم يَفُوا بالعهد ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن طاعة الله ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ مُصرُّون على الإعراض.

٧٧- ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فأورثهم البخلُ نفاقًا متمكنًا في قلوبهم، لأنه كان سببًا فيه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي جزاءَ فِعلهم، وهو يومُ القيامة ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التَّصدُّق والصلاح، وكونِهم كاذبين، ومنه

---

(١) أي: في ضيق وشدة من العيش.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

جُعلَ خُلفُ الوعد ثُلُثَ النفاق.

٧٨- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ يعني المنافقين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ ما أَسرُّوه من النفاق بالعَزم على إخلاف ما وَعَدوه ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ وما يتناجَون به فيما بينهم من المطاعن في الدين ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ فلا يَخفَى عليه شيء.

٧٩- ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ يَعيبون المُتطوّعين المتبرعين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ رُوِيَ أنَّ رسول الله ﷺ حَثَّ على الصدقة، فجاءَ عبد الرحمٰن بن عوفٍ بأربعة ءالاف درهم وقال: كان لي ثمانيةُ ءالاف فأَقرضتُ ربي أربعةً[1] وأَمسكتُ أربعةً لعيالي فقال عليه السلام: «**بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت**»، وتصدَّق عاصم بمائة وَسْقٍ من تمر. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ طاقَتَهم، وجاء أبو عَقيل بصاع من تمرٍ فقال: بِتُّ لَيْلَتِي أَجُرُّ بالجَرِيْر[2] على صاعين، فتركت صاعًا لعيالي، وجئت بصاع، فلَمَزَهم المنافقون، وقالوا: ما أَعطَى عبدُ الرحمٰن وعاصمٌ إلا رياءً، وأما صاعُ أبي عقيلٍ فالله غنيٌّ عنه ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فيهزؤونَ ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جازاهم على سُخْرِيَتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ مؤلم.

ولمّا سأل عبدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ أُبيّ[3] رسولَ الله ﷺ أن يستغفر

---

(١) أي: أنفقتُها في سبيل الله.

(٢) الجرير: حبلٌ يُجَرُّ البعير به، والمراد أنه كان يستقي الماء من البئر بهذا الحبل بأُجرة صاعين، فجاء بصاع صدقةً، وترك صاعًا لعياله، الصحابة كان عندهم يقين بالآخرة.

(٣) عبد الله بن عبد الله بن أبيّ، صحابي اشتهر بالإيمان عكس أبيه الذي كان رأس المنافقين واشتهر بابن سلول.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

لأبيه في مرضه نزل:

٨٠- ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [تخيير له عليه الصلاة والسلام في الاستغفار وتركه كما ورد في حديث البخاري وغيره: «**خُيِّرتُ فاخترتُ**» أي اخترتُ الاستغفار وقال: «**وسأزيده على سبعين**» وذلك رجاء منه عليه الصلاة والسلام أن يُغفر له إن زاد في الاستغفار له عن السبعين لظنِّه أن النفاق الذي كان عنده قد ذهب عنه وهو كان يُظهر الإسلام والصلاة مع المسلمين وأرسل يطلب ثوبًا من النبي عليه السلام ليكفن فيه عندما كان في مرض وفاته وطلب منه أن يصلي عليه بعد وفاته ففعل وهو يظنه قد تاب وترك النفاق الذي كان عنده، وقد ذهب النفاق عن عدد من المنافقين غيره، ثم أعلمه الله أنه مات على كفره ونفاقه وبين له عدم المغفرة له ولأمثاله من المنافقين إذا ماتوا غير تائبين بقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [سورة المنافقون] وقوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة التوبة]] ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اليأسِ منَ المغفرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولا غُفرانَ للكافرين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ الخارجينَ عن الإيمان ما داموا مختارينَ للكفر والطغيان.

٨١- ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المنافقون الذين استأذنوا رسولَ الله ﷺ فأذن لهم وخلَّفهم بالمدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلَّفهم كَسَلُهم ونفاقهم والشيطان ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ بقعودهم عن الغزو ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ مخالفةً له ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لم يفعلوا ما فَعَلَه

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣﴾

المؤمنون من بَذلِ أموالهم وأرواحهم في سبيل الله، وكيف لا يكرهونه [وليس] فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ قال بعضُهم لبعض، أو قالوا للمؤمنين تثبيطًا(١) ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾ استجهالٌ لهم، لأنَّ مَن تَصَوَّن مِن مشقة ساعةٍ فوقعَ بسبب ذلك التَّصوُّنِ في مشَقَّةِ الأَبد كان أجهلَ من كلّ جاهل.

٨٢- ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ أي فيضحكون قليلًا على فرحهم بتخلُّفهم في الدنيا ويبكون كثيرًا جزاءً في العُقبى ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ من النفاق.

٨٣- ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ رَدَّك من تبوك ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ لأن منهم من تابَ من النفاق، ومنهم من هلك ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾ إلى غزوةٍ بعدَ غزوةِ تبوك ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أَوَّلَ ما دُعيتم إلى غزوة تبوك ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣﴾ مع من تخلَّف بَعْدُ.

وسأل ابن عبد الله بن أُبَيّ - وكان مؤمنًا - أن يكفِّنَ النبيُّ ﷺ أباه في قميصه ويصليَ عليه فقبِلَ(٢) [وكان فيما رُويَ يصلي على المنافقين

---

(١) أي: تعويقًا.

(٢) في ذلك الوقت، الله تعالى ما أعلمه أنه مات على الكفر، إنما بعد أن صلى عليه نزلت الآية أنه ما زال على الكفر. ولا يقال إنه صلى عليه وهو يعلم أنه مات كافرًا! الأنبياء والأولياء لا يعلمون إلا ما أعلمهم الله، الله تعالى وحده هو الذي يعلم كل شيء.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٨٥ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦﴾

الذين لم يَظهر له نِفاقُهم إذا ماتوا ويقوم على قبورهم بسبب ما يظهرونه من الإسلام، فإنهم كانوا يتلفظون بكلمتي الشهادة، ويُصلون ويصومون، فبنَى الأمرَ على ما ظهر من أقوالهم وأفعالهم، وَوَكَلَ سرائرَهم[1] إلى الله تعالى، ولم يزل على ذلك حتى وقعت واقعةُ عبدِ الله بن أُبيّ]، فنزل:

٨٤- ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم﴾ من المنافقين، يعني صلاةَ الجِنازةِ ﴿مَّاتَ أَبَدٗا﴾ وكان عليه الصلاة والسلام إذا دُفِنَ الميتُ [الذي هو بحسب الظاهر مسلمٌ] وقفَ على قبره ودعا له، فقيل: ﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤﴾ تعليل للنهي، أي أنهم ليسوا بأهلٍ للصلاة عليهم، لأنهم كفروا بالله ورسوله.

٨٥- ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٨٥﴾ التكريرُ للمبالغة والتأكيد، وأن يكون على بالٍ من المخاطَبِ لا يَنساهُ، وأن يعتقدَ أنه مُهِمٌّ.

٨٦- ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾ يجوز أن يُراد سورةٌ بتمامها، وأن يراد بعضُها، كما يقع القرءان والكتاب على كلّه وعلى بعضه ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ بأن ءامِنوا ﴿وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ ذوو الفَضلِ والسَّعَة ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦﴾ مع الذين لهم عذرٌ في التخلُّف كالمَرضى والزَّمنَى.

---

(١) أي: بَواطِنَهم.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ
سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى
ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾

٨٧- ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ النساءِ جمعُ خَالِفَةٍ ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ خُتِمَ عليها لاختيارهم الكفرَ والنفاق ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ما في الجهاد من الفوز والسعادة، وما في التخلُّف من الهلاك والشقاوة.

٨٨- ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾ إن تَخلَّفَ هؤلاء فقد نَهضَ إلى الغزو مَن هو خيرٌ منهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ﴾ تناولَ منافعَ الدارين لإطلاق اللفظ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ الفائزون بكل مطلوب.

٨٩- ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ قوله ﴿أَعَدَّ﴾ دليل على أنها مخلوقة [الآن].

٩٠- ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ هو مَن: عَذَّر في الأمر: إذا قصَّرَ فيه وتوانى، وحقيقته أن يُوهمَ أن له عذرًا ولا عُذْرَ له، قيل: هم أَسَدٌ وغَطَفانُ قالوا: إنَّ لنا عيالًا وإنَّ بنا جَهدًا، فَأْذَنْ لنا في التخلُّف ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ هم منافِقُو الأَعرابِ الذين لم يَجيئوا ولم يعتذروا، فظهر بذلك أنهم كذَبوا اللهَ ورسولَه في ادعائهم الإيمانَ ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ من الأعراب ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار.

٩١- ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ الهَرْمَى والزَّمْنَى ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ هم الفقراءُ من مُزَيْنَةَ وجُهينةَ وبني عُذْرَةَ ﴿حَرَجٌ﴾ إثمٌ وضِيقٌ في التأخر ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ بأن ءامَنوا

﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٩١ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ
لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا
يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ۝٩٢ ۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن
يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٩٣ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ
إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾

في السِّر والعَلَنِ، وأطاعوا كما يفعَلُ الناصح بصاحبه ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ المعذورين الناصحين ﴿مِن سَبِيلٖۚ﴾ أي لا جُناحَ عليهم ولا طريقَ للعتاب عليهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ يغفر تَخَلُّفهم ﴿رَّحِيمٞ ۝٩١﴾ بهم.

٩٢- ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ لتعطيَهم الحَمُولَةَ(١) [ليذهبوا بها معك إلى الجهاد] ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ تَسيلُ ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ۝٩٢﴾ [يبكون تأسفًا على فَوْتِ صحبتك وتخلفهم عنك] لئلَّا يجدوا ما ينفقون، والمُسْتَحْمِلون أبو موسى الأشعريُّ وأصحابُه.

٩٣- ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ [أي سبيل اللوم والعتاب والعقاب] ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ في التخلُّف ﴿وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾ كأنه قيل: ما بالُهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ بالانتظام في جملة الخوالف ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٩٣﴾ [ومعنى التكرير المبالغة في التقرير].

٩٤- ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ﴾ يقيمون لأنفسهم عذرًا باطلًا ﴿إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ من هذه السفرة ﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾ بالباطل ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ لن نُصدِّقكم ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ لأنه تعالى إذا أوحَى إلى رسوله الإعلامَ بأخبارهم وما في ضمائرهم لم يستقمْ مع ذلك تصديقُهم في

---

(١) الحَمولة بفتح الحاء: الإبل التي تحمِل، وكل ما يحتمل عليه الناس من الدواب سواء كانت عليه الأحمال أو لم تكن كالرَّكوبة.

﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ
رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن
تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا
وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن
يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾

معاذيرهم ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أَتُنيبونَ[1] أم تَثبتون على كفركم ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ تُرَدُّون إليه وهو عالمُ كلِّ سِرٍّ وعلانيةٍ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ فيجازيكم على حَسَب ذلك.

٩٥- ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ﴾ لتتركوهم ولا تُوَبِّخوهم ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ﴾ فأعطُوهم طِلْبَتَهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ﴾ تعليل لترك معاتَبتهم، أي أنّ المعاتبةَ لا تنفعُ فيهم ولا تُصلحُهم، لأنهم أَرجاسٌ لا سبيل إلى تطهيرهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ومصيرُهم النارُ، فلا تتكلَّفوا عتابهم ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ يُجزَونَ جزاءَ كَسبِهم.

٩٦- ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ﴾ غرضُهم بالحلف بالله طلبُ رضاكم لينفعَهم ذلك في دنياهم ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ فإنَّ رضاكم وحدَكم لا ينفعهم إذا كان اللهُ ساخطًا عليهم وكانوا عُرضةً لعاجل عقوبته وءاجلِها.

٩٧- ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ أهلُ البَدْوِ ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحَضَر، لجَفائهم وقَسوتهم وبُعدهم عن العلم والعلماء ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟﴾ وأَحقُّ بألّا يعلَموا ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ﴾ حدودَ الدين وما أنزلَ اللهُ من الشرائع والأحكام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالِهم ﴿حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ في إمهالِهم.

٩٨- ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ يتصدَّقُ ﴿مَغْرَمًا﴾ غَرامَةً

---

(١) أي: أترجعون عنِ الكفر.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا
قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ
وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي
تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾

وخُسرانًا، لأنه لا ينفق إلا تَقيَّةً من المسلمين ورياءً، لا لوجهِ الله وابتغاءِ المَثوبةِ عنده ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ دوائرَ الزمان وتبدُّلَ الأَحوال ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ عليهم تدورُ المصائبُ والحروبُ التي يتوقعون وقوعَها في المسلمين ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِما يقولونَ إذا توجَّهَتْ عليهم الصَّدقةُ ﴿عَلِيمٞ ٩٨﴾ بما يُضمرون.

٩٩- ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ في الجهادِ والصَّدَقات ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ أسبابًا للقُربة ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ دعاءَهُ لأنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفرُ لهم ﴿أَلَآ إِنَّهَا﴾ أي النفقةَ أو صلواتِ الرسول ﴿قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ شهادةٌ من الله للمُتصدِّق بصحةِ ما اعتقدَ من كون نفقته قُرُباتٍ وصلواتٍ ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ أي جَنَّتهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ يستر عيبَ المُخِلّ ﴿رَّحِيمٞ ٩٩﴾ يَقبلُ جُهد المُقِلّ.

١٠٠- ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ تبيينٌ لهم، وهم الذين صَلَّوا إلى القِبلتين، أو الذين شهدوا بدرًا، أو بيعةَ الرِّضوان ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾ وهم أهلُ بيعةِ العَقَبَة الأُولى، وكانوا سبعةَ نَفرٍ، وأهلُ العقبة الثانية وكانوا سبعينَ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ من المهاجرين والأنصار ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ بأعمالهم الحسنة ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ بما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية[1] ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ

---

(١) يُسَلِّمون لله تسليمًا كاملًا، مهما أصابهم من المصائب فإنهم لا يخرجون عن الرِّضا عن الله، الرِّضا عن الله مرتبة عالية لا يصل إليها إلا القليل من عباده.

﴿أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ
مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٖ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

١٠١- ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم﴾ حولَ بَلدتِكم وهي المدينةُ ﴿مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ﴾ وهم جُهينةُ وأَسلَمُ وأَشجَعُ وغِفارٌ، وكانوا نازلينَ حولَها ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ﴾ قومٌ ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ تَمَهَّروا فيه ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ يَخفَون عليك مع فِطنَتِك وصدقِ فِراسَتِك ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ لا يعلَمُهم إلا اللهُ ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ هما الفضيحةُ وعذابُ القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾ عذابِ النار.

١٠٢- ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ قومٌ ءاخرون سوى المذكورين ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ لم يعتذروا مِن تَخلُّفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم، ولكن اعترفوا على أَنفسهم بأنهم بئسَ ما فَعلوا نادمين، وكانوا عشرةً، فسَبعةٌ منهم لمَّا بلغَهم ما نزلَ في المتخلِّفين أَوثقوا أَنفسَهم على سواري المسجد، فقدم رسولُ الله ﷺ فدخلَ المسجد فصلى ركعتين - وكانت عادتَهُ كلما قدمَ من سفر - فرءاهم مُوثَقِين، فسأل عنهم، فَذُكِرَ له أنهم أَقسموا ألّا يَحُلُّوا أنفسَهم حتى يكون رسولُ الله ﷺ هو الذي يَحُلُّهم، فقال: «**وأنا أُقسِمُ ألّا أَحُلَّهم حتى أُومَرَ فيهم**»، فنزلت، فأطلقهم، فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا التي خَلَّفَتنا عنك فتصدَّقْ بها وطهِّرْنا، فقال: «**ما أُمرتُ أن ءاخذَ من أموالكم شيئًا**» فنزل: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾، ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ خروجًا إلى الجهاد [معك قبل هذه الغزوة] ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ تَخلُّفًا عنه [هذه المرة] ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ ولم يذكر توبتَهم لأنه ذكرَ اعترافهم بذنوبهم، وهو دليل على التوبة.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾

١٠٣- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ كفارةً لذنوبهم، وقيل: هي الزكاة ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن الذنوب ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ بالصدقة، والتزكيةُ مبالغة في التطهير وزيادةٌ فيه، أو بمعنى الإنماء والبركة ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واعطِفْ عليهم بالدعاء لهم وترحَّمْ، والسنةُ أن يدعُوَ المُصَدِّقُ[1] لصاحب الصَّدقة إذا أخذها ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ يسكنون إليه وتطمئنُّ قلوبُهم بأن الله قد تاب عليهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك ﴿عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ بما في ضمائرهم من الندم والغَمّ لِما فَرَطَ منهم.

١٠٤- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ قبل أن يُتابَ عليهم وتُقبَلَ صَدقاتُهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إذا صَحَّت ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ويقبلُها إذا صَدَرَت على خُلوصِ النية، وهو للتخصيص، أي أن ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ إنما الله هو الذي يقبلُ التوبة ويردُّها فاقصِدُوه بها ووجِّهوها إليه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ كثيرُ قبولِ التوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ بعفو الحَوبة.

١٠٥- ﴿وَقُلِ﴾ لهؤلاء التائبين ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإن عمَلَكم لا يخفى - خيرًا كان أو شرًّا - على الله وعباده كما رأيتم وتبيَّن لكم، أو غير التائبين ترغيبًا لهم في التوبة ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ ما يغيبُ عن الناس ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما يشاهدونه ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ تنبئةَ تذكيرٍ ومجازاةٍ عليه.

١٠٦- ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي وءاخرون من المتخلِّفين

---

(١) المُصَدِّق: هو الساعي الذي يأخذ الصَّدَقات، أما المُصَّدِّقُ فهو المتصدق، وهو دافع الزكاة.

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا
وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ﴾

موقوفون إلى أن يظهرَ أَمرُ الله فيهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أَصرُّوا ولم يتوبوا ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْۗ﴾ إن تابوا، وهم ثلاثةٌ: كعبُ بن مالك وهلالُ بنُ أُمية ومُرارةُ بنُ الربيع، تَخلَّفوا عن غزوةِ تبوكَ [كسلًا لا نفاقًا، ثم اعتذروا عن تخلُّفهم لكنهم لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة - وهو أحدُ السبعة السابق ذكرهم - وأصحابُه، فوقف أمرهم وهجرهم الناس خمسين يومًا حتى ضاقت بهم الأرض بما رَحُبَت وسلَّموا أمرهم لله فنزلت توبتهم] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِرَجائهم ﴿حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ في إرجائهم.

١٠٧- ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا﴾ جازيناهم، روي أن بني عمرو بن عَوْفٍ لما بَنَوا مَسجدَ قُباء بَعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم، فصلى فيه، فحسَدَتهم إخوانُهم بنو غُنْم بنِ عوف، وقالوا: نبني مسجدًا ونرسِلُ إلى رسول الله يصلي فيه ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، وهو الذي قال لرسول الله يوم أُحد: لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين [وهرب بعدها إلى الشام]، فبنوا مسجدًا إلى جنب مسجد قباء، وقالوا للنبيّ ﷺ: بنينا مسجدًا لذي العِلَّةِ والحاجة، ونحن نحب أن تصليَ لنا فيه، فقال: «**إني على جَناحِ سفرٍ وإذا قَدِمنا من تبوكَ إن شاء اللهُ صلينا فيه**»، فلما قَفَلَ(١) من غزوةِ تبوكَ سألوه إتيانَ المسجد، فنزلت عليه [فأمر بهدمه وإحراقه] ﴿ضِرَارًا﴾ مُضارَّةً لِأَصحابِ مسجد قُباء ﴿وَكُفْرًا﴾ وتقوية للنفاق ﴿وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا يصلُّون مجتمعين في مسجد قُباءٍ، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلفَ كلمتهم ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ﴾ وإعدادًا لأجل من ﴿حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ﴾ وهو الراهب، قيل: وكلُّ

---

(١) أي: رجع.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ
أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ
يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ
بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾

مسجد بُني مباهاةً أو رياءً أو سُمعة أو لغرضٍ سوى ابتغاءِ وجه الله أو بمال غيرِ طيبٍ فهو لاحقٌ بمسجد الضِّرار ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ كاذبينَ ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الخصلةَ الحسنى، وهي الصلاة وذكرُ الله والتوسعةُ على المصلين ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ في حَلِفهم.

١٠٨- ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هو مسجدُ قباء، أَسَّسَهُ رسول الله ﷺ، وصلَّى فيه أيامَ مُقامِه بقباء ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ مُصَليًا ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ هو عامٌّ في التطهر عن النجاسات كُلِّها، وقيل: هو التطهر من الذنوب بالتوبة، ومعنى مَحَبَّتِهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرِصون(١) عليه حِرصَ المُحِب للشيء، ومعنى محبة الله إياهم أنه يَرضى عنهم ويُحسن إليهم كما يفعلُ المُحب بمَحبوبه.

١٠٩- ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾ وَضَعَ أساسَ ما يَبنيه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أفمَن أَسَّسَ بنيانَ دينه على قاعدة مُحكَمةٍ وهي تقوى الله ورضوانُه خيرٌ، أم مَن أَسَّسَه على قاعدةٍ هي أضعفُ القواعد وهو الباطلُ والنفاق الذي مَثَلُه مَثَلُ شَفا جُرُفٍ هارٍ في قِلةِ الثبات والاستمساك، والشَّفا: الحَرْفُ، وجُرُفُ الوادي: جانِبُه، والهَارُ: الهائرُ وهو المتصدعُ الذي أَشفَى على التهدم والسقوط ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فطاحَ به الباطلُ في نار جهنم

---

(١) المراد أنهم كانوا يجتهدون فيه.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن
تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي
ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم
بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩﴾ لا يُوفِّقُهم للخير عقوبةً لهم على نفاقهم.

١١٠- ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ لا يزال هَدْمُه سببَ شكٍّ ونفاق زائدٍ على شكِّهم ونفاقِهم لِمَا غاظَهم من ذلك وعظُمَ عليهم ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ قِطعًا وتُفرقَ أجزاءً فحينئذ يَسْلُون عنه، وأما ما دامت سالمةً مجتمعة فالرِّيبَةُ باقيةٌ فيها متمكنة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بعزائمهم ﴿حَكِيمٌ ١١٠﴾ في جزاء جرائمهم.

١١١- ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ مَثَّلَ اللهُ إثابتَهم بالجنة على بذلهم أنفُسَهم وأموالَهم في سبيله بالشراء ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ تارةً يَقتلونَ العدو، وطورًا يَقتُلهم العدو فَيُقتلون ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ﴾ وَعدَهم بذلك وعدًا ﴿حَقّٗا﴾ أخبرَ بأن هذا الوعد الذي وعدَه للمجاهدين في سبيله وعدٌ ثابت قد أثبته ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ وهو دليل على أن أهلَ كلِّ مِلة أُمروا بالقتال وَوُعدوا عليه، ثم قال: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ لأن إخلافَ الميعاد قبيحٌ لا يُقدم عليه الكريم منا، فكيف بأكرم الأكرمين، ولا ترى ترغيبًا في الجهاد أَحسَنَ منه وأبلغَ ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ فافرحوا غايةَ الفرح فإنكم تبيعون فانيًا بباقٍ ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾.

١١٢- ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ يعني المؤمنين المذكورين ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ الذين عبدوا الله وَحدَه وأخلصوا له العبادة ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ على نعمة الإسلام

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ
لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ
كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ
إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ
إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون، لقوله عليه السلام: «**سِياحَةُ أمتي الصيامُ**»، أو طلبةُ العلم لأنهم يَسيحون في الأرض يطلبونه في مَظانِّه ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ المحافظون على الصلوات ﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أوامِرِه ونواهِيْهِ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ المتصفين بهذه الصفات.

١١٣- ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ ما صح له الاستغفار في حكم الله وحكمته[(١)] ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك.

ثم ذكر عُذرَ إبراهيمَ فقال:

١١٤- ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أي وَعَدَ أَبوهُ إياه أن يُسلِمَ، أو وَعَدَ هو أَباهُ أن يستغفرَ، ومعنى استغفارِهِ سؤالُه إعطاءَ الإسلام الذي به يُغفَرُ له ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ من جهة الوحي ﴿لَهُۥٓ﴾ لإبراهيم ﴿أَنَّهُۥ﴾ أنَّ أباهُ ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بأن يموتَ كافرًا وانقطع رجاؤه عنه ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وقطَعَ استغفارَهُ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ [هو الرحيم] ﴿حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ هو الصبور على البلاء الصَّفوح عن الأذى.

---

(١) لا يصح لهم ذلك أي لا ينبغي ولا يجوز الاستغفار لمن علمنا أنه مات على الكفر وقد علمنا أن الله تعالى قضى أن لا يغفر لمشرك، فلا يجوز لأحد أن يسأل الله تعالى ما قد علم أنه قضى وأخبر أنه لا يفعله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة النساء]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة محمد].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا
نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ
بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾﴾

١١٥- ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ ما أَمَرَ اللهُ باتقائهِ واجتنابه، كالاستغفار للمشركين وغيرهِ مما نَهَى عنه وبيَّنَ أنه محظورٌ، لا يؤاخِذُ به عبادَهُ الذين هداهم للإسلام ولا يَخذُلُهم إلا إذا أَقدَموا عليه بعد بيانِ حظره وعِلمِهم بأنه واجبُ الاجتناب، وأما قبلَ العلم والبيان فلا، وهذا بيانٌ لعُذرِ من خافَ المؤاخذةَ بالاستغفار للمشركين، والمراد بـ﴿مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ ما يجب اتقاؤه للنهي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

١١٦- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [وهو لا يتجمَّلُ بوجود مملوكاته، ولا يلحقه نقص بعد مخلوقاته] ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾ [وإنما هو الذي يملك أموركم ويجريها على ما يصلحكم].

١١٧- ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ فيه بَعثٌ للمؤمنين على التوبة وأنه ما مِن مؤمنٍ إلا وهو مُحتاجٌ إلى التوبة والاستغفار حتى النبيِّ ﷺ والمهاجرينَ والأنصارِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ في غزوة تبوكَ، ومعناه في وقتها، وكانوا في عُسرةٍ من الظَّهْرِ[١] - يعتقب العشرة على بعير واحد - ومن الزاد حتى اقتسم التمرة اثنان، ومن الجَدْب والقحط ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ تكريرٌ للتوكيد ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾﴾.

---

(١) أي: الدواب من خيل وبغال وجمال.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ
أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ
وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن﴾

١١٨- ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ وتابَ على الثلاثة ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ عن الغزو ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي مع سَعتها، وهو مَثَلٌ للحَيرة في أمرهم، كأنهم لا يَجدون فيها مكانًا يَقَرُّون فيه قلقًا وجزَعًا ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ قلوبُهم لا يَسَعُها أُنسٌ ولا سرور، لأنها خَرجَت من فرط الوَحشة والغم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ وعَلِموا أَلَّا ملجأً من سَخَط الله إلا إلى استغفاره ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بعد خمسين يومًا ﴿لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ ليكونوا من جملة التوَّابين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ التوبةُ النَّصوحُ أن تضيقَ على التائبِ الأرضُ بما رَحُبت وتضيقَ عليه نفسُه كتوبةِ هؤلاء الثلاثة، [وقيل: النصوح: الصادقة، وهي: أن يتوبَ من الذنب ولا يعودَ إليه، وأما غير النَّصوح فهي أن يعود إلى الذنب بعد أن تابَ منه. فمَن تابَ من ذنب ثم عادَ إليه لم تنتقِض التوبة التي تابها، ثم إن تابَ من المرَّة الثانية قُبلَت توبتُه، وهكذا كلما عادَ إلى الذنب ثم جَدَّد التوبةَ فالتي تاب منها تُمحَى كما جاء ذلك في الخبر الصحيح عن النبي ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**». ثم إنَّ شرطَ صحةِ التوبة: الندم بالقلب، والإقلاع والإضمار على ألَّا يعود، وإن كانت المعصية تتعلق بحق بني ءادم كالضرب بغير حق والشتم والغيبة إذا بلغت المغتابَ وأكل مال الغير ظلمًا فلا بد من الخروج من المَظلمة إمّا برَدِّ المال أو التمكين من القِصاص أو استرضاء المظلوم].

١١٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ في إيمانِهم دون المنافقين.

١٢٠- ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن

﴿رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ
عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا
يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾

﴿رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ المرادُ بهذا النفي النهيُ، وخُصَّ هؤلاء بالذكر - وإن استوى كل الناس في ذلك - لقُربهم منه، ولا يخفى عليهم خروجُه ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ﴾ ولا أن يَضِنُّوا[1] ﴿بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ عما يُصيبُ نفسَه، أي لا يختاروا إبقاءَ أَنفسِهم على نفسِه في الشدائد، بل أُمروا بأن يَصحبوه في البأساء والضَّراء ويُلقوا أنفسَهم بين يديه في كل شدة ﴿ذَٰلِكَ﴾ النهي عن التخلف ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ﴾ عطشٌ ﴿وَلَا نَصَبٞ﴾ تعب ﴿وَلَا مَخۡمَصَةٞ﴾ مَجاعة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في الجهادِ ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ ولا يَدوسون مكانًا من أَمكنة الكفار بحوافِرِ خيولهم وأَخفافِ رَواحلهم وأرجلهم ﴿يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ يُغضبهم ويُضَيِّقُ صدورَهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ ولا يُصيبون منهم إصابةً بقتل أو أَسر أو جرح أو كسر أو هزيمة ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾ وفيه دليل على أن مَن قَصدَ خيرًا كان سَعيُهُ فيه مشكورًا من قيام وقعود ومشي وكلام وغيرِ ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠﴾ أي أَنهم محسنون، والله لا يُبطل ثوابَهم.

١٢١- ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ﴾ في سبيل الله ﴿صَغِيرَةٗ﴾ ولو تمرةً ﴿وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ مثلَ ما أنفقَ عثمانُ رضي الله عنه في جيش العُسرة ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا﴾ في ذهابهم ومجيئهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أُثبتَ في صحائفهم لأَجلِ الجَزاء ﴿أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾ يَجزيهم على كل واحدٍ جزاءَ أحسنِ عمل كان لهم، فَيُلحَقُ ما دونَه به توفيرًا لأَجرهم.

---

(١) أي: يبخلوا.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟
فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟
ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

١٢٢- ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ أي أن نفيرَ الكافَّةِ عن أوطانهم لطلبِ العِلم غيرُ صحيح للإفضاءِ إلى المفسدة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ فحينَ لم يكن نفيرُ الكافّةِ فهلَّا نَفَرَ ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ من كل جماعةٍ كثيرةٍ جماعةٌ قليلة منهم يَكفونَهم النفيرَ ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ليتكلفوا الفَقَاهةَ فيه ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ وليجعلوا مَرمَى هِمَّتِهم في التفقه إنذارَ قومِهم وإرشادَهم ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ دونَ الأغراض الخسيسة من التَّصدُّر والترؤس والتشبُّه بالظَّلَمَةِ في المراكب والملابس ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ما يجب اجتنابه، وقيل: إن رسول الله ﷺ كان إذا بعث بعثًا بعد غزوة تبوكَ بعد ما أُنزل في المتخلِّفين من الآيات الشداد اسْتَبَقَ المؤمنون عن آخرِهم إلى النفير وانقطعوا جميعًا عن التفقه في الدين، فأمروا أن ينفِر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى سائرهم يتفقهون حتى لا ينقطعوا عن الفقه الذي هو الجهاد الأكبر، إذ الجهاد بالحِجاج أعظمُ أثرًا من الجهاد بالنِّصال.

١٢٣- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ يَقرُبون منكم ﴿مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ القتالُ واجبٌ مع جميع الكفرة قريبِهم وبعيدِهم، ولكنَّ الأَقربَ فالأَقربَ أَوجبُ، وقد حارب النبيُّ ﷺ قومَه ثم غيرَهم من عَرَب الحِجاز، ثم الشام، والشامُ أَقربُ إلى المدينة من العراقِ وغيرهِ ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شِدةً وعُنفًا في المَقالِ قبلَ القتال ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ بالنصرة والغلبة[1].

---

(١) النصرة والغلبة قسمان: معنوي وحسي، فالمؤمنون هم المنتصرون دائمًا في المعنى ولو غُلبوا من حيث الظاهرُ في الدنيا، فهم الغالبون معنًى لأن الحقَّ معهم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ
رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ
مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ
بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا
يَفۡقَهُونَ ١٢٧ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ﴾

١٢٤- ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ بعضُهم لبعض ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ السورةُ ﴿إِيمَٰنٗاۚ﴾ إنكارًا واستهزاءً بالمؤمنين ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ يقينًا وثباتًا ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ يَعُدُّونَ زيادةَ التكليف بِشارةَ التشريف.

١٢٥- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ شَكٌّ ونِفاق فهو فسادٌ يَحتاجُ إلى علاج كالفَساد في البدن ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ كفرًا مَضمومًا إلى كُفرهم ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ هو إخبارٌ عن إصرارِهم عليه إلى الموت.

١٢٦- ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ﴾ يعني المنافقين ﴿أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ﴾ يُبتلَون بالقَحط والمرض وغيرهما ﴿فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عن نِفاقهم ﴿وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ لا يَعتبرون.

١٢٧- ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكارًا للوحي وسُخريةً به قائلين: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ من المسلمين؟ لننصرفْ فإنا لا نَصبرُ على استماعه ويغلِبُنا الضحكُ فنخافُ الافتضاحَ بينهم ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ﴾ عن حضرةِ النبي ﷺ مَخافةَ الفضيحة ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن فَهمِ القرءان ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾ لا يتدبرون حتى يفقهوا.

١٢٨- ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ﴾ محمدٌ عليه الصلاة والسلام ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ من جِنسكم ومن نَسَبكم عربيٌّ قُرَشي مثلُكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ

﴿مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ١٢٩﴾

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ شديدٌ عليه شاقٌّ - لكونه بعضًا منكم - عَنَتُكم ولقاؤكم المكروهَ، فهو يخافُ عليكم الوقوعَ في العذاب ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ على إيمانكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾.

١٢٩- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ فإن أَعرَضوا عن الإيمان بك وناصَبوكَ[1] ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فاستعِن بالله وفَوّضْ إليه أمورَك، فهو كافيك مَعَرَّتَهم[2] وناصِرُك عليهم ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فَوَّضت أمري إليه ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ١٢٩﴾ هو أَعظمُ خلق الله، خُلق مَطافًا لأهل السماء وقبلةً للدعاء.

---

(١) أي: عادَوك.

(٢) المَعَرَّةُ: الأمرُ القبيح المكروه والأذى.

سورة يونس
مائة وتسع ءايات مكية وكذا ما بعدها إلى سورة النور

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ - ﴿الٓرۚ﴾ تعديد للحروف على طريق التحدّي ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والكتابُ: السورةُ ﴿ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ ذي الحكمة لاشتماله عليها.

٢ - ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لإنكار التعجُّبِ والتعجيب منه ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ بأَنْ أَنْذِرْ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ﴾ بأَنَّ لهم، الذي تَعجَّبوا منه أن يوحَى إلى بشر وأن يكون رجلًا من أَفناءِ رجالهم[1] دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون: العَجَبُ أن الله لم يجدْ رسولًا يرسِلُه إلى الناس إلا يتيمَ أبي طالب، وأن يَذكُرَ لهم البعثَ ويُنذِرَ بالنيران ويُبشِّرَ بالجِنان. وكلُّ واحد من هذه الأمور ليس بعَجَب، لأن الرسلَ المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بَشرًا مثلَهم، وإرسالُ اليتيم أو الفقير ليس بعَجَب أيضًا، لأن الله تعالى إنما يختار للنبوة من جَمَعَ أسبابَها، والغنى والتقدمُ في الدنيا ليس من أسبابها، والبعثُ للجزاء على الخير والشر هو الحِكمةُ العُظمى، فكيف يكون

(١) أي: مِمَّن لا يُعرفُ بجاهٍ ومال ورياسة ونحو ذلك مما يعدّونه من أسباب العِزِّ والجلال، وليس المرادُ أنه ﷺ ليس من مشاهيرهم نسبًا، لأنَّ شرفَ نَسَبه عندهم أظهر من الشمس.

﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ﴾

عَجبًا؟ إنما العجبُ والمنكر في العقول تعطيلُ الجزاء ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ سابقةً وفضلًا ومنزلةً رفيعة ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ إشارة إلى رسول الله ﷺ، وهو دليلُ عجزِهم واعترافهم به، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحرًا.

٣- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ أي استولى، فقد تَقَدَّسَ الدَّيّانُ(١) عن المكان والمعبودُ عن الحدود، [وأضاف تعالى الاستيلاء إلى العرش وإن كان سبحانه وتعالى مستوليًا على جميع المخلوقات لأن العرش أعظمها، وتفسير الاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبهة باطل وكفر بالله تعالى لأنه تعالى كان قبل العرش ولا مكان وهو الآن كما كان لأن التغير من صفات الأكوان] ﴿يُدَبِّرُ﴾ يقضي ويقدِّرُ على مقتضى الحِكمة ﴿ٱلْأَمْرَۖ﴾ أمرَ الخلق كلِّه وأمرَ ملكوت السماوات والأرض والعرش. ولـمَّا ذكرَ ما يدلُّ على عَظَمته ومُلكه من خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش أتبعها هذه الجملةَ لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرجُ أمر من الأمور عن قضائه وتقديره ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ﴾ دليلٌ على عِزَّته وكبريائه ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ العظيمُ الموصوف بما وُصف به ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وهو الذي يستحقُّ العبادةَ ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ وَحِّدوه ولا تُشركوا به بعضَ خلقه من إنسان أو مَلَك فضلًا عن جمادٍ لا يضرُّ ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ أفلا تتدبرون فتستدلُّون بوجود المصالح والمنافع على وجود المُصلحِ النافع.

٤- ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ﴾ لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعِدّوا

---

(١) الدَّيّان: الذي يُجازي العبادَ على أعمالهم يوم القيامة.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ
ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا
بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾

للقائه ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾ [وَعَدَ اللهُ ذلك وعدًا صدقًا] ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ [يُنشئُهُ] ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [ثم يُميتُه ثم يُحْيِيهِ للبعث و] معناه التعليل لوجوب المرجع إليه ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الحكمةُ بابتداء الخلقِ وإعادتهِ جزاءُ المكلفين على أعمالهم ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ بالعدل أي ليجزيَهم بقِسطه ويوفيَهم أُجورَهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ [من ماء حارٍّ مُغلَى بالغٍ نهايةَ الحرارة] ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾ [بسبب كفرهم].

٥- ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ الضياءُ أقوى من النور، فلذا جَعلَه للشمس ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ وقدَّرَ مَسِيرَه ﴿مَنَازِلَ﴾ ذا منازلَ ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ عددَ السنينَ والشهورِ، فاكتفَى بالسنينَ لاشتمالِها على الشهور ﴿وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ وحسابَ الآجال والمواقيت المُقدَّرة بالسنينَ والشهور ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ المذكورَ ﴿إِلَّا﴾ مُلتبسًا ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ الذي هو الحكمةُ البالغة، ولم يخلقْه عَبَثًا ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥﴾ فينتفعون بالتأمل فيها.

٦- ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ في مجيء كل واحد منهما خلفَ الآخر ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من الخلائق ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦﴾ خَصَّهم بالذكر لأنهم يحذرون الآخرة، فيدعوهم الحذرُ إلى النظر.

٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يتوقعونَه أصلًا ولا يُخطِرونه ببالهم لغفلتهم عن التفطُّن للحقائق ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ من الآخرة

﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ
ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ
أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ ۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾

وءاثروا القليلَ الفانيَ على الكثير الباقي ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ وسكنوا فيها سكونَ من لا يُزعَجُ عنها، فبنَوا شَديدًا وأَمَّلُوا بعيدًا ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ لا يتفكرون فيها.

٨- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨﴾ [من الكفر والمعاصي].

٩- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ يُسَدِّدُهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السديد المؤدي إلى الثواب ولذا جُعل: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بيانًا له وتفسيرًا؛ إذ التمسك بسبب السعادة كالوصولِ إليها [أي تجري بين أيديهم في البساتين، كما قال: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ۝٢٤﴾ [سورة مريم] وهو نهر صغير عند الجمهور وما كانت قاعدةً عليه، ولكن كان ذلك بين يديها] ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾.

١٠- ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي دعاؤهم، لأن «اللهم» نداءٌ لله، ومعناه: اللهم إنا نُسَبِّحك، أي يدعون الله بقولهم: سبحانك اللهم تلذذًا بذكره ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ﴾ يُحَيِّي بعضُهم بعضًا بالسلام ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح ﴿أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين، فيبتدؤون كلامهم بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بالشكر والثناء عليه، ويتكلمون بينهما بما أرادوا.

١١- ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ المراد أهل مكة، وقولُهم: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۝٣٢﴾ [سورة

﴿لَقُضِىَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ
إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ
لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

الأنفال]، أي ولو عجَّلنا لهم الشرَّ الذي دَعَوا به كما نعجِّل لهم الخير ونُجيبهم إليه ﴿لَقُضِىَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾ لأُميتوا وأُهلِكوا ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ شركهم وضلالهم ﴿يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ يترددون، فَنُمهِلُهم ونُفيضُ عليهم النعمةَ مع طغيانهم إلزامًا للحجة عليهم.

١٢- ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أَصابَه، والمراد به الكافرُ ﴿ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ دعا اللهَ لإزالته ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا﴾ معناه أن المضرور لا يَفترُ عن الدعاء في حالاته كلها حتى يزول عنه الضُّر ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾ أزلنا ما به ﴿مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ﴾ مضى على طريقَتِه الأُولى قبل مَسِّ الضُّرِ ونسيَ حالَ الجَهْدِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك التزيين ﴿زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ زَينَ الشيطانُ بوسوسته للمجاوزين الحدَّ في الكفر ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ من الإعراض عن الذكر واتباع الكفر.

١٣- ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ يا أهلَ مكةَ ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أشركوا ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ أي ظلَموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلُهم ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ﴾ إن بَقُوا ولم يُهْلَكوا، لأن الله عَلِمَ منهم أنهم يُصرّون على كفرهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الجزاء، يعني الإهلاكَ ﴿نَجۡزِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ وهو وعيدٌ لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ.

١٤- ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ الخطاب للذين بُعثَ إليهم محمدٌ رسولُ الله، أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناها ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ لننظرَ أتعملون خيرًا أو شرًّا

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾

فنعاملُكم على حسب عملكم [ومَن لم يعتبر بمن سبقه اعتبرَ به مَن لحقَه، ومن لم يعتبر بما سمعه اعتبر به مَن تبعَه، والله تعالى لم يزل عالمًا بما كان ويكون منهم من الطاعة والمعصية].

١٥- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ لمَّا غاظَهم ما في القرءان من ذم عبادة الأوثان والوعيد لأهل الطغيان ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ﴾ ليس فيه ما يَغيظُنا من ذلك نَتَّبعْكَ ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعلَ مكان ءايةِ عذابٍ ءايةَ رحمة، وتُسقطَ ذِكرَ [الأوثان] وذَمَّ عبادَتِها، فأُمر بأن يُجيبَ عن التبديل، لأنه داخلٌ تحت قدرة الإنسان، وهو أن يضع مكانَ ءايةِ عذابٍ ءايةَ رحمة وأن يُسقِطَ ذكرَ [الأوثان] بقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ﴾ ما يَحِلُّ لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ﴾ من قِبَلِ نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ لا أَتَّبعُ إلا وحيَ اللهِ من غير زيادة ولا نُقصان ولا تبديل ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بالتبديل من عند نفسي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ أي يومِ القيامة، وأما الإتيانُ بقرءان ءاخرَ فلا يقدرُ عليه الإنسان، وقد ظهر لهم العجزُ عنه، إلا أنهم كانوا لا يعترفون بالعجز ويقولون: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الأنفال].

١٦- ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يعني أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإظهارِهِ أمرًا عجيبًا خارجًا عن العادات، وهو أن يَخرُجَ رجل أُميٌّ لم يتعلم [القراءة والكتابة] ولم يشاهد العلماء [ويتتلمذ عليهم] فيقرأَ عليكم كتابًا فصيحًا يَغلبُ كلَّ كلام فصيح ويَعلو على كل مَنثور ومنظوم، مشحونًا بعلوم الأُصول والفروع والإخبار عن الغيوب التي لا يعلمُها إلا الله ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ولا أعلَمَكم اللهُ بالقرءان

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

على لساني ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ من قبلِ نزول القرءان، أي فقد أقمتُ فيما بينكم أربعينَ سنة ولم تعرفوني متعاطيًا شيئًا من نَحوِهِ، ولا قَدَرتُ عليه، ولا كنت موصوفًا بعِلم وبيانٍ فتتهموني باختراعه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ فتعلموا أنه ليس إلا من عند الله لا مِن مِثلي.

١٧- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يحتمل أنْ يُرِيدَ افتراءَ المشركين على الله في أنه ذو شريك وذو وَلَد ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بالقرءان، فيه بيانُ أن الكاذِبَ على الله والمُكذِّبَ بآياته في الكفر سواء ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

١٨- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوا عبادَتَها ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوها ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنامُ ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ في أَمرِ الدنيا ومعيشَتِها، لأنهم كانوا لا يُقرُّون بالبعث ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أَتُخبرونَه بكونِهم شفعاءَ عندَه، [أي أَتُخبرون الله تعالى بما لا يعلمُه موجودًا؛ أي بما يعلمُه غيرَ موجود؛ لأنه لو كان موجودًا لكان معلومًا له وجودُه؛ لأنه عالمٌ بكل شيء، فكيف يصح وجود ما لا يعلمه؟!] وقوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تأكيد لنفيه، لأن ما لم يوجد فيهما[1] [من الشركاء الذين يشركونهم به] فهو معدوم ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ نَزَّه ذاته عن أن يكون له شريك.

---

(١) مراده في جميع العالم.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا
ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ
ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ﴾

١٩- ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حُنفاءَ متفقين على مِلَّة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم، وذلك في عهد ءادم عليه السلام إلى أن قَتَلَ قابيلُ هابيلَ ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ فصاروا مِلَلًا ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو تأخيرُ الحُكم بينَهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلًا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ فيما اختلفوا فيه ولَمُيِّزَ المُحِقُّ من المُبطل، وسبقُ كلمتِهِ لحكمةٍ وهي أن هذه الدارَ دارُ تكليفٍ وتلك الدارَ دارُ ثواب وعقاب.

٢٠- ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ءايةٌ منَ الآياتِ التي اقترحوها ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص بعلم الغيب، فهو العالم بالصَّارف عن إنزال الآيات المقتَرَحة لا غيرُ ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ نزولَ ما اقترحتموه ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ لما يَفعلُ اللهُ بكم لعِنادِكم وجُحودِكم الآياتِ.

٢١- ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ أهلَ مكة ﴿رَحْمَةً﴾ خِصبًا وَسَعةً ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ يعني القَحطَ والجُوعَ ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ بدَفعِها وإنكارها. رُوِيَ أنه تعالى سلَّطَ القحطَ سبعَ سنين على أهل مكة حتى كادوا يَهلِكون، ثم رَحِمَهم بالحياة، فلما رَحِمَهم طَفِقوا يَطعنون في ءايات الله ويُعادون رسولَ الله ﷺ ويَكيدونَه، والمكرُ: إخفاءُ الكيدِ وطيُّهُ، ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [أي يا محمد قل لهؤلاء المشركين المستهزئين من حُجَجِنا وأدلتنا: اللهُ أسرعُ مِحالًا(١) بكم واستدراجًا لكم

---

(١) كقوله تعالى ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الرعد]: أي شديد الكيد لأعدائه يأتيهم بالهَلَكَةِ من حيث لا يحتسبون.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى
ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ
مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ
عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا
مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ
وَٱلْأَنْعَـٰمُ﴾

وعقوبة منكم] ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الحَفَظَة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ إعلامٌ بأن ما تَظنُّونه خافيًا لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم.

٢٢- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يَجعلُكم قادرين على قطع المسافات بالأرجل والدواب والفُلك الجارية في البحار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي السفنِ ﴿وَجَرَيْنَ﴾ أي السفنُ ﴿بِهِم﴾ بمن فيها ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لَينةِ الهُبوبِ ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ بتلك الريح لِلينِها واستقامَتِها ﴿جَآءَتْهَا﴾ أي الفلكَ ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ذاتُ عَصْفٍ ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ هو ما علا على الماء ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البحر ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أُهلكوا ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير إشراك له، لأنهم لا يدعون حينئذ معه غيرَه يقولون: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ﴾ الأهوال أو من هذه الريح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ لنعمتك مؤمنين بك متمسِّكين بطاعتك.

٢٣- ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُفسدون فيها ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ باطلًا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ ظلمُكم يَرجعُ إليكم ﴿مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تتمتعون متاعَ الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فنخبركم به ونجازيكم عليه.

٢٤- ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من السَّحاب ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ بالماء ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضًا ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني الحبوبَ والثمار والبُقولَ ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ يعني

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا
لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ
أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

الحشيشَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ زينتَها بالنبات واختلافِ ألوانهِ ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ وتَزيَّنت به، جُعلت الأرضُ ءاخذةً زُخرفَها على التمثيل بالعروس إذا أَخذتِ الثيابَ الفاخرة من كل لون فاكتَستها وتزينت بغيرها من ألوان الزَّيْنِ ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ أهلُ الأرض ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ متمكنون من مَنفعتها مُحَصِّلون لثَمَرَتها رافعون لغَلَّتِها ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ عذابُنا، وهو ضَربُ زرعِها ببعضِ العاهات بعد أَمنهم واستيقانهم أنه قد سَلِمَ ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا﴾ زرعًا ﴿حَصِيدًا﴾ شبيهًا بما يُحصد من الزرع في قَطعهِ واستئصاله ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأن لم يَغْنَ زرعُها، أي لم يَلبَث ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ هو مَثَلٌ في الوقت القريب ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ شُبِّهت حالُ الدنيا في سرعة تَقَضِّيها وانقراضِ نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حُطامًا بعدما التفَّ وتكاثَفَ وزيَّنَ الأرضَ بخُضرته ورفيفه[١].

٢٥- ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ هي الجنة، والسلامُ: السلامةُ لأن أهلَها سالمون من كل مكروه ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ويوفِّقُ من يشاء ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ إلى الإسلام، والمعنى: يدعو العباد كلَّهم إلى دار السلام ولا يَدخلُها إلا المَهْدِيُّونَ.

٢٦- ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ ءامنوا بالله ورسُله ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبةُ الحسنى، وهي الجنةُ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ رؤيةُ الربِّ عز وجل. وعن صُهيب أن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يقول الله تبارك وتعالى: أتريدون شيئًا**

---

(١) الرفيف يقال للنبات الذي يهتز خُضرةً وتلألؤًا.

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ
قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ
لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّض وجوهَنا، ألم تدخِلْنا الجنةَ وتُنجنا من النار - قال - فَيَرفَعُ الحِجابَ[1] **فينظرونَ إلى الله تعالى، فما أُعطوا شيئًا أَحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم»**، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ ولا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غَبَرَةٌ فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ولا أثرُ هَوان، والمعنى: ولا يَرهقُهم ما يَرهق أهلَ النار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

٢٧- ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وللذين كسبوا فنونَ الشرك ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ أي [لهم] جزاءُ سيئة مُقدَّرٌ بمثلها ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ ذُلٌّ وهَوان ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عِقابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي لا يعصِمُهم أحدٌ من سَخَطه وعقابه ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ جُعِلَ عليها غطاءٌ من سواد الليل، أي هم سُودُ الوجوه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٢٨- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي الكفارَ وغيرَهم ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ﴾ الزموا مكانَكم لا تَبرحوا حتى تنظروا ما يُفعَلُ بكم ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا﴾ ففرَّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وقَطَّعنا أَقرانَهم والوُصَلَ التي كانت بينهم في الدنيا ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ مَنْ عَبَدوه من دون الله من أُولي العقل، أو الأصنامُ يُنطقها اللهُ عز وجل ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إنما كنتم تعبدون الشياطينَ حيث أَمروكم أن تتخذوا لله أندادًا فأطعتموهم.

---

(١) الحجاب ليس حجابًا حِسيًّا، الله تعالى موجود بلا مكان فلا يكون بينه وبين خلقه محاذاة وحجاب حسي، تنزه الله سبحانه وتعالى عن ذلك، إنما هو المنع من رؤيته.

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ۝٢٩ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ
أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٣٠ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ
ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ
ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝٣٢﴾

٢٩- ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ كفى اللهُ شهيدًا [فإنه العالِم بِكُنْهِ الحال] ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ۝٢٩﴾ [لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل، لأنّا كنّا جمادًا لا روح فينا].

٣٠- ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان، أو في ذلك الوقت ﴿تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ تَختبر وتَذوق ﴿مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ من العمل، فتعرف كيف هو أقبيحٌ أم حَسَنٌ، أَنافعٌ أم ضارٌّ، أَمقبول أم مردود؟ ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ ربِهم الصادقِ في ربوبيته، لأنهم كانوا يَتولَّونَ ما ليس لربوبيته حقيقةٌ ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٣٠﴾ وضاع عنهم ما كانوا يَدَّعون أَنهم شركاءُ لله.

٣١- ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطرِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بالنباتِ ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ من يستطيعُ خلقَهما وتسويتَهما على الحدِّ الذي سُوِّيا عليه من الفِطرة العجيبة ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ أي الحيوانَ والفَرْخَ والزرع والمؤمنَ والعالِمَ من النطفة والبيضة والحَبِّ والكافرِ والجَاهِلِ وعكسها ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾ ومن يلي تدبير أَمرِ العالَمِ كله، جاءَ بالعموم بعد الخصوص ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ فسيجيبونك عند سؤالك: إنَّ القادرَ على هذه هو اللهُ ﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ الشركَ في العبودية إذا اعترفتم بالربوبية.

٣٢- ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ الثابتُ ربوبيتُه ثباتًا لا رَيبَ فيه لمن حقَّقَ النظرَ ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ لا واسطةَ بين الحق والضلال، فمن تَخطَّى الحقَّ وقعَ في الضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝٣٢﴾ عن الحق إلى

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن
يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن
يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ
أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾

الضلال وعن التوحيد إلى الشرك.

٣٣- ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثلَ ذلك الحق ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ كما حَقَّ أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حقت كلمة ربك ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ تَمرَّدوا في كفرهم وخرجوا إلى الحَدِّ الأقصى فيه ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ لأنهم لا يؤمنون، وأراد بالكلمة العِدَةَ بالعذاب.

٣٤- ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إنما ذكر: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهم غيرُ مُقِرِّين بالإعادة، لأنه لظهور برهانها جُعل أمرًا مُسَلَّمًا على أن فيهم من يُقِرُّ بالإعادة ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أَمرَ نبيَّه بأن ينوبَ عنهم في الجواب، يعني أنهم لا تَدَعُهم مكابرتُهم أن ينطقوا بكلمة الحق فتكلَّمْ عنهم ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فكيف تُصرفون عن قَصدِ السبيل.

٣٥- ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يُرشِد إليه ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ المعنى أن اللهَ وحدَه هو الذي يهدي للحق بما رَكَّبَ في المكلفين من العقول، وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نَصَبها لهم ووقَفَهم على الشرائع بإرسال الرسل ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أي أم الذي لا يهتدي بنفسه أو لا يهدي غيرَه إلا أن يهدِيَهُ الله ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ بالباطل حيث تزعمون أنهم أندادُ اللهِ.

٣٦- ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في قولهم للأصنام: إنها ءالهةٌ، وإنها شفعاءُ عند الله، والمراد بالأكثر الجميع ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ بغير دليل، وهو اقتداؤهم

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ
فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

بأسلافهم ظنًّا منهم أنهم مُصيبون ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو العِلمُ ﴿شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ من اتباع الظن وتركِ الحق.

٣٧- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وما صح وما استقام أن يكون مثلُه في علوِّ أمره وإعجازه مفترى ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ وهو ما تقدَّمَه من الكتب المنزَّلة ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وتبيينَ ما كُتب وفُرض من الأَحكام والشرائع ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ولكن كان تصديقًا وتفصيلًا منتفيًا عنه الرَّيْب كائنًا من رب العالمين، أو لا ريب في ذلك.

٣٨- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ بل أيقولون: اختَلَقَه ﴿قُلۡ﴾ إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فَأۡتُواْ﴾ أنتم على وجه الافتراء ﴿بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ شبيهةٍ به في البلاغة وحُسنِ النظم، فأنتم مِثلي في العربية ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وادعوا من دون الله من استطعتم من خَلقِه للاستعانة به على الإتيان بمثله ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أنه افتراه.

٣٩- ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ بل سارَعوا إلى التكذيب بالقرءان في بديهةِ السَّمَاع قبل أن يفقَهوه ويعلَموا كُنْهَ أَمرِه، وقبل أن يتدبَّروه ويقفوا على تأويله ومعانيه، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينَهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك التكذيب ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ يعني كفارَ الأُمم الماضية كذبوا رسلَهم قبل النظر في معجزاتهم وقبل تدُّبرها عنادًا وتقليدًا للآباء ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الذين

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل
لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ
إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى
ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾

ظلموا نفوسهم كيف نزل بهم العذاب، فليتَّقِ هؤلاء أن تكون عاقبتهم كذلك، وهو تسلية للنبي ﷺ وتخويف للمكذبين].

٤٠- ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بالنبي، أو بالقرءان ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ﴾ لا يصدق به ويشك فيه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ بالمعاندين.

٤١- ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وإن تَمُّوا على تكذيبك ويئستَ من إجابتهم ﴿فَقُل لِّى عَمَلِى﴾ جزاءُ عملي ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ﴾ جزاءُ أعمالكم ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ وكلٌّ مؤاخَذٌ بعَمَلِه.

٤٢- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ﴾ ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرءان وعلَّمتَ الشرائع، ولكنهم لا يَعُون ولا يقبلون، فهم كالصُّم ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أتطمعُ أنك تقدر على إسماعِ الصُّم، ولو انضم إلى صَمَمِهم عدمُ عقولِهم.

٤٣- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ﴾ ومنهم ناس ينظرون إليك ويعاينون أَدلةَ الصدق وأَعلامَ النبوةِ، ولكنهم لا يصدِّقون ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أتحسَب أنك تقدر على هداية العُمي ولو انضم إلى فَقدِ البصر فَقدُ البصيرة.

٤٤- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ لم يظلمْهم، ولكنهم ظلموا أنفسَهم بترك الاستدلال، حيث عبدوا جمادًا وهم أحياءٌ.

٤٥- ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ استقصروا مدة

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى
نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا
جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ
فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

لُبثهم في الدنيا ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾ يعرف بعضُهم بعضًا كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلًا، وذلك عندَ خروجهم من القبور، ثم ينقطعُ التعارف بينهم لشدةِ الأَمرِ عليهم ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ [أي بالبعث، والمعنى:] يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله على خُسرانهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ كأنه قيل: ما أَخسَرَهم.

٤٦- ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبلَ عذابهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك، أو نتوفينك قبل أن نُرِيَكَهُ، فنحن نُرِيْكهُ في الآخرة ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ذُكرت الشهادةُ والمرادُ مقتضاها وهو العقابُ.

٤٧- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ﴾ يُبعث إليهم لِيُنَبِّهَهم على التوحيد ويدعُوَهم إلى دين الحق ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فكذبوه ولم يتَّبِعوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين النبي ومكذِّبيه ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، فأُنجيَ الرسولُ وعُذب المكذبونَ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [بنقصان الحسنات وزيادة السيئات].

٤٨- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وعدُ العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أنَّ العذابَ نازلٌ، وهو خطاب منهم للنبي والمؤمنين.

٤٩- ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا﴾ مِن مَرَض أو فقر ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ من صحةٍ أو غِنًى ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أَملكُ لكم الضَّرَّ وجلبَ العذاب؟ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ لكل أُمةٍ وقتٌ معلوم للعذاب مكتوبٌ

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ
ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ
تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم
بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟
ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ﴾

في اللوح، فإذا جاء وقت عذابِهم لا يتقدمونَ ساعة ولا يتأخرون، فلا تستعجلوا.

٥٠- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلونَهُ ﴿بَيَٰتًا﴾ أي وقتَ بياتٍ وهو الليلُ وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وأنتم مُشتغلون بطلب المَعاش والكَسْب ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ والمعنى أن العذاب كُلَّه مكروهٌ موجِب للنفور، فأَيَّ شيء تستعجلون منه.

٥١- ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العذابُ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ حين لا ينفعكم الإيمان ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ قيل لهم إذا ءامنوا بعد وقوع العذاب: ءالآن ءامنتم به ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي بالعذاب تكذيبًا واستهزاء.

٥٢- ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي الدَّوامِ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ من الشرك والتكذيب.

٥٣- ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ ويستخبرونك فيقولون: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾ نعم واللهِ ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ إن العذابَ كائنٌ لا محالةَ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ بفائتين العذابَ، وهو لاحقٌ بكم لا محالة.

٥٤- ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ كَفَرت وأشركتْ ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في الدنيا اليومَ من خزائنها وأموالها ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لجعلته فِديةً لها ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أظهروها، من قولهم: أسرَّ الشيء إذا أظهره، أو أَخفَوها عجزًا عن النطق لشدة الأمر، فأسرَّ من الأضداد ﴿وَقُضِىَ

﴿بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم
مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ
فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ بين الظالمين والمظلومين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

ثم أتبع ذلك الإعلام بأنَّ له الملكَ كُلَّه بقوله:

٥٥- ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكيف يَقبلُ الفِداءَ، وإنه المثيبُ المعاقِبُ وما وَعَدَهُ من الثواب أو العقاب فهو حَقٌّ لقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب أو بالعذاب ﴿حَقٌّ﴾ كائن ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [لقصور عقولهم إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا].

٥٦- ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ هو القادر على الإحياء والإماتة، لا يقدر عليهما غيرُه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وإلى حسابه وجزائه المرجعُ فيُخافُ ويُرجَى.

٥٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قد جاءكم كتابٌ جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيهٍ على التوحيد، والموعظةُ: التي تدعو إلى كل مرغوب، وتزجُرُ عن كل مرهوب ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي صدورِكم من العقائد الفاسدة ﴿وَهُدًى﴾ منَ الضلالةِ ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ لمن ءامنَ به منكم.

٥٨- ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [فضلُ الله: الإسلامُ، والرحمةُ: القرءان، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل غير ذلك] والتكريرُ للتأكيدِ والتقريرِ وإيجابِ اختصاص الفضلِ والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [من حطام الدنيا فإنها إلى الزوال].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ
أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا
تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ
ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

٥٩- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي [خلقَ] ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ فبعَّضتموه وقلتم: هذا حلال وهذا حرام ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ أخبروني ءآلله أَذِنَ لكم في التحليل والتحريم فأَنتم تفعلونَ ذلك بإذنه ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ بمعنى: بل أتفترون على الله، تقريرًا للافتراء، والآية زاجرة عن أن يقول أحدٌ في شيء: جائزٌ أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، وإلا فهو مفترٍ على الدَّيان.

٦٠- ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ يَنسُبونَ ذلك إليه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي أيُّ شيء ظَنُّ المفترين في ذلك اليوم ما يُصنَعُ بهم؟ وهو يومُ الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيدٌ عظيم حيث أُبْهِمَ أَمْرُه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أَنعمَ عليهم بالعقل، ورحِمَهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ هذه النعمة ولا يَتَّبعون ما هُدوا إليه.

٦١- ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ الخطابُ للنبي ﷺ والشأنُ: الأمر ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾ من التنزيل ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ لأن كلَّ جُزء منه قرءانٌ ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم جميعًا ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ أَيِّ عمل ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ شاهدينَ رُقَباءَ نُحصي عليكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ وما يَبعُدُ وما يَغيب ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وَزنِ نَملة صغيرة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ يعني اللوحَ المحفوظ.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ
يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ
إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
شُرَكَآءَۚ﴾

٦٢- ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ هم الذين يتولَّونَهُ بالطاعة ويتولاهم بالكرامة ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ إذا خافَ الناسُ ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ إذا حَزِنَ الناس.

٦٣- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هم الذين ءامنوا ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ الشركَ والمعاصيَ.

٦٤- ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ما بَشَّرَ اللهُ به المؤمنين المتقين في غيرِ موضع من كتابه، أو لهم البشرى عند النزع بأن يُرى مكانه في الجنة ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ هي الجنةُ ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ لا تغيير لأقواله ولا إخلافَ لمواعيده ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى كونهم مُبَشَّرين في الدارين ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [لأنه نيلُ ما يُرجى، والأمنُ من كل ما يُخشَى].

٦٥- ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾ تكذيبُهم وتهديدهم وتشاورهم في تدبير هلاكِكَ وإبطالِ أمرك ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ إنَّ الغَلَبَةَ والقهر في مَلَكَةِ الله جميعًا لا يَملكُ أحد شيئًا منهما لا هُمْ ولا غيرُهم، فهو يَغلِبهم وينصُركَ عليهم ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون ﴿ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ بما يُدَبِّرون ويَعزِمون عليه، وهو مكافئهم بذلك.

٦٦- ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يعني العقلاءَ وهم الملائكةُ والثَّقَلانِ، وخصَّهم ليؤذِن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي مَلَكتِه ولا يصلح أحد منهم للربوبية فما وراءَهم مما لا يعقِلُ أحقُّ ألّا يكون له نِدًّا وشريكًا ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾ وما

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ
فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ
سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآۚ
أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا
يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يَتَّبعون حقيقةَ الشركاء وإن كانوا يُسَمُّونها شركاءَ لأن شرِكةَ الله في الربوبية محالٌ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلا ظنَّهم أنها شركاءُ اللهِ ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ يَحزِرون ويُقَدِّرون [أنها] شركاءُ تقديرًا باطلًا.

ثم نَبَّه على عظيم قُدرتِه وشُمول نعمته على عبادِه بقوله:

٦٧- ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ جَعَل لكم الليلَ مظلمًا لتستريحوا فيه من تعب التردد في النهار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾ مُضيئًا لتُبصِروا فيه مطالبَ أرزاقِكم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ سَمَاعَ مُذَّكِّرٍ مُعتَبِرٍ.

٦٨- ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ﴾ تنزيهٌ له عن اتخاذ الولد وتعجيبٌ من كلمتهم الحمقاءِ ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ﴾ وإنما يطلبُ الولدَ ضعيفٌ ليتقوَّى به، أو فقير ليستعينَ به، أو ذليلٌ ليتشرف به، والكل أَمارةُ الحاجةِ، فمن كان غنيًّا غيرَ محتاج كان الولدُ عنه منفيًّا، ولأن الولدَ بعضُ الوالدِ فيستدعِيْ أن يكونَ مُرَكَّبًا وكلُّ مركب مُمْكِنٌ وكلُّ ممكنٍ يحتاجُ إلى الغير فكان حادثًا، فاستحالَ [على] القديم أن يكون له ولد ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ مِلكًا، ولا تجتمعُ البنوةُ معه ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآۚ﴾ ما عِندَكم من حُجة بهذا القول، ولمَّا نفى عنهم البرهانَ جعلَهم غيرَ عالِمين فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

٦٩- ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بإضافةِ الولدِ إليه ﴿لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ لا يَنجُون من النار ولا يفوزون بالجنة.

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾

٧٠- ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ افتراؤهم هذا منفعةٌ قليلة في الدنيا حيث يُقيمون به رياسَتَهم في الكفر ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ المخلَّدَ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ بكفرهم.

٧١- ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ واقرأ عليهم ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ خَبَرَهُ مع قومِه ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ عَظُمَ وثَقُل ﴿مَّقَامِي﴾ مكاني يعني نفسَه، أو قيامي ومُكثي بين أظهركم ألف سنة إلا خمسين عامًا ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هم كانوا إذا وَعَظوا الجماعةَ قاموا على أرجلهم يَعِظونَهم ليكون مكانُهم بيّنًا وكلامُهم مسموعًا ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي فوّضت أمري إليه ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ مِنْ: أَجمعَ الأمرَ: إذا نواه وعَزَم عليه ﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي فأجمِعوا أَمرَكم مع شركائكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً﴾ أي غَمًّا عليكم وَهَمًّا ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ ذلك الأَمرَ الذي تريدون بي، أي أَدُّوا إليَّ ما هو حَقٌّ عندكم من هلاكي، كما يَقضِي الرجلَ غريمُه، أو اصنَعوا ما أَمكنكم ﴿وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ ولا تُمهلون.

٧٢- ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ فإن أعرضتم عن تذكيري ونصحي ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾ ففاتني ذلك بتولّيكم ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ وهو الثوابُ الذي يُثيبني به في الآخرة ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ من المستسلمين لأَوامِره ونواهيه.

٧٣- ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فداموا على تكذيبه ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ من الغرق ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ في السفينة ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ يَخلُفون الهالكين بالغَرَقِ

﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ
قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ
ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ
قَوۡمًا مُّجۡرِمِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ
لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ﴾

﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣﴾ هو تعظيم لِما جَرَى عليهم، وتحذير لمن أَنذَرَهم رسولُ الله ﷺ عن مِثلِه، وتسليةٌ له.

٧٤- ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ هودًا وصالحًا وإبراهيم ولوطًا وشعيبًا ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالحُجَج الواضحة المُثبتَةِ لدعواهم ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾ فأَصرُّوا على الكفر ﴿بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ من قبلِ مجيئِهم، يريد أنهم كانوا قبل بعثةِ الرسُلِ أهل جاهليةٍ مكذبينَ بالحق، فما وَقعَ فصلٌ بين حالتَيهم بعدَ بعثة الرسل وقبلَها كأن لم يُبعثْ إليهم أَحدٌ ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ﴾ مثلَ ذلك الطَّبعِ نَختِمُ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤﴾ المجاوزين الحَدَّ في التكذيب.

٧٥- ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم﴾ من بعد الرسل[1] ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بالآيات التسع ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن قَبولِها، وأعظمُ الكِبرِ أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تَبيُّنها، ويَتعظَّموا عن قَبولها ﴿وَكَانُواْ قَوۡمًا مُّجۡرِمِينَ ٧٥﴾ كفارًا ذوي ءاثامٍ عظام، فلذلك استكبروا عنها واجترأوا على ردها.

٧٦- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ فلما عَرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله ﴿قَالُوٓاْ﴾ لحُبِّهم الشهواتِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦﴾ وهم يعلمون أن الحقَّ أَبعدُ شيء من السحر.

٧٧- ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ﴾ هو إنكارٌ [وتوبيخ، أي

---

(١) أي: الذين سَبقوا.

﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا
ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا
جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ
ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ
كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾

أتقولون هذا للحق لمَّا جاءكم]، ثم استأنَف إنكارًا ءاخرَ فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ أي لا يَظفَرُ [الساحرون في الدنيا ولا في الآخرة].

٧٨- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لتصرِفَنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام(١)، أو عبادةِ فرعون ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي المُلك ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مصرَ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ بمصَدِّقين فيما جئتُما به.

٧٩- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [مِثلِه في المهارة أو أقوى منه، وإنما قاله لمَّا رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنهما سحرٌ].

٨٠- ٨١- ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴿٨١﴾﴾ الذي جئتم به هو السحرُ لا الذي سمّاه فرعونُ وقومُه سحرًا [وهو] من ءايات الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ يُظهر بطلانَه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ لا يُثبته بل يُدَمِّره.

٨٢- ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ ويُثبته ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأوامره وقضاياه ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ذلك.

٨٣- ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ في أول أَمرِه ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفًا من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ يرجع إلى فرعون بمعنى ءال

---

(١) قيل: كانت لفرعون أصنامٌ صغارٌ صَنعَها لهم وأمرهم بعبادتها.

﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ
ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا
بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

فرعون ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ يريد أن يعذبهم فرعونُ ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لغالبٌ فيها قاهرٌ ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ في الظلم والفساد وفي الكِبْرِ والعُتُوِّ بادعائه الربوبيةَ.

٨٤- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ صدَّقتم به وبآياته ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ فإليه أَسنِدوا أمرَكم في العصمة من فرعون ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ شُرِطَ في التوكل الإسلام، وهو أن يُسلموا نفوسَهم لله أي يجعلوها له سالمةً خالصة لا حَظَّ للشيطان فيها لأن التوكل لا يكون مع التخليط.

٨٥- ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ إنما قالوا ذلك لأن القومَ كانوا مخلِصين ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ موضعَ فتنةٍ لهم، يفتنوننا عن ديننا، أي يُضِلّوننا.

٨٦- ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ من تعذيبهم وتسخيرهم.

٨٧- ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا﴾ والمعنى: اجعلا بمصر بيوتًا من بيوته مَباءةً[1] لقومكما ومرجِعًا يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ مساجدَ متوجِّهةً نحوَ القبلة، وهي الكعبة، وكان موسى ومن معه يُصلّون إلى الكعبة، وكانوا في أَولِ الأمر مأمورينَ بأن يُصلّوا في بيوتهم في خُفية من الكَفَرة لئلا يظهروا عليهم، فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المسلمون على ذلك في أول الإسلام بمكة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ في بيوتكم حتى تأمنوا ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ يا موسى، [بقرب الخلاص، أو بالنصر والجنة].

---

(١) مَباءَةُ: مَنزِلًا.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟
عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ
﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

٨٨- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ هي ما يُتزينُ به من لباس أو حُليّ أو فَرْش أو أثاث أو غيرِ ذلك ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ نقدًا ونَعَمًا وضَيْعَةً[١] ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ ليُضلوا الناسَ عن طاعتك[٢] ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أهلِكها وأذهِبْ ءاثارها، لأنهم يستعينون بنعمتك على معصيتك، والطَّمْسُ: المَحْوُ والهَلاك، قيل: صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارةً كهيئاتها منقوشةً، وقيل: وسائرُ أموالهم كذلك ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ اطبَعْ على قلوبهم واجعَلْها قاسية[٣] ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ إلى أن يروا العذابَ الأليم، وكان كذلك، فإنهم لم يؤمنوا إلى الغرَق، وكان ذلك إيمانَ يأسٍ فلم يُقبل، وإنما دعا عليهم بهذا لَمَّا أَيِسَ من إيمانهم وعَلِمَ بالوحي أنهم لا يؤمنون.

٨٩- ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قيل: كان موسى عليه السلام يدعو وهارونُ يُؤمِّنُ، فثبتَ أن التأمينَ دعاءٌ، والمعنى أن دعاءَكما مستجابٌ وما طلبتما كائن، ولكن في وقته ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والتبليغ ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ ولا تتبعان

---

(١) أي: عَقارًا.

(٢) قال أبو حيان في البحر المحيط: «واللام في ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ الظاهر أنها لامُ كَيْ على معنى: ءاتيتَهم ما ءاتيتَهم على سبيل الاستدراج، فكان الإتيان لكي يُضِلوا، ويحتمل أن تكون لامَ الصيرورة والعاقبة كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴿٨﴾﴾.

(٣) ليس على وجه الرِّضا بكفرهم، إنما لأنه أيس من إيمانهم، فقال ذلك إرادة التشديد عليهم، كما تقول: لعن الله إبليس.

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ
ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ
وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةًۚ
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

طريقَ الجَهَلة الذين لا يعلمون صدق الإجابة وحِكمة الإمهال، فقد كان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة.

٩٠- ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ هو دليلٌ لنا على خلق الأفعال ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ فَلَحِقَهم ﴿بَغْيًا﴾ تطاولًا ﴿وَعَدْوًاۖ﴾ ظُلمًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ وفيه دليل على أن الإيمانَ والإسلام واحدٌ حيث قال: ﴿ءَامَنتُ﴾ ثم قال: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

٩١- ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أَدركَكَ الغرقُ وأَيِسْتَ من نفسك ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ من الضالين المضلين عن الإيمان.

٩٢- ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ نُلقِيكَ بِنَجْوَةٍ(١) من الأرض، فرماهُ الماءُ إلى الساحل كأنه ثَوْرٌ ﴿بِبَدَنِكَ﴾ لا رُوْحَ فيك وإنما ببدنك كاملًا سويًّا لم يتغيَّر ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةًۚ﴾ لمن وراءَك من الناس علامةً، وهم بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أن فرعونَ أَعظمُ شأنًا من أن يَغرَقَ، وقيل: أخبرهم موسى بهَلاكِه فلم يصدقوه، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه، وقيل: لمن يأتي بعدَكَ من القرون ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [أي فعلنا ذلك بفرعون مع تكبره وإسرافه ودعواه الإلٰهية، فنحن على إهلاك هؤلاء المشركين الذين هم دونه لقادرون، ولو فكروا لعلموا ذلك، لكنهم غافلون].

---

(١) النَّجْوَةُ والنجاة: المكان المرتفع الذي تظن أنه نجاؤكَ لا يعلوه السيل.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ
رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾

٩٣- ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ مَنْزِلًا صالحًا مَرضيًّا، وهو مِصرُ والشامُ ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في دينهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ التوراة، واختلفوا في تأويلها، أو المراد العلمُ بمحمد ﷺ [قيل: فما اختلفوا في نبوة محمد إلى أن جاءهم هو فحينئذ كفر بعضهم به وءامنَ بعضهم] ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ يُميز المُحِقَّ من المُبطل، ويَجزي كلًّا جزاءَه.

٩٤- ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ لما قَدَّمَ ذكرَ بني إسرائيل وهم قُرَّاءُ الكتاب، ووصفَهم بأن العلم قد جاءهم، لأن أمرَ رسولِ الله ﷺ مكتوبٌ في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم، أراد أن يؤكد عِلمَهم بصحة القرءان وبصحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ويبالغَ في ذلك، والمرادُ وصفُ الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله ﷺ لا وصفُ رسول الله ﷺ بالشك فيه ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ثبتَ عندك بالآيات الواضحة والبراهين اللائحة أنَّ ما أتاك هو الحق الذي لا مجال فيه للشك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ الشاكِّين، [وهو] لزيادة التثبيت والعصمة، ولذلك قال عليه السلام عند نزوله: «**لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق**» أو خوطب رسول الله ﷺ والمراد أمتُه.

٩٥- ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ فاثبُتْ وَدُمْ على ما أنت عليه من انتفاء المِريَة عنك والتكذيبِ بآيات الله.

٩٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ثبتَ عليهم [حكمُ] الله

﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

[وقضاؤه] الذي كتبه في اللوح، وأَخبرَ به الملائكةَ أنهم يموتون كفارًا ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

٩٧- ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ أي عند اليأس فيؤمنون ولا ينفعُهم، أو عند القيامة ولا يُقبَلُ منهم.

٩٨- ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلَّا ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من القرى التي أهلكناها ﴿ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ بأن يقبل الله منها لوقوعه في وقت الاختيار ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناء منقطع، أي ولكن قوم يونس ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ [الذي وعدهم به يونس عليه السلام أنه يَنزل بهم إن لم يؤمنوا] ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ إلى ءاجالهم. روي أن يونس عليه السلام بُعث إلى نِيْنَوَى من أرض الموصل فكذبوه، فذهب عنهم مغاضِبًا [لهم]، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم وأظهروا الإيمان والتوبة فرحمهم وكشف عنهم.

٩٩- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ على وجه الإحاطة والشُّمول ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الإيمان مُطبقين عليه لا يختلفون فيه، أخبر عن كمال قدرته ونُفوذِ مشيئته أنه لو شاء لآمن من في الأرض كلهم، ولكنه شاء أن يؤمن به من عَلِمَ منه اختيارَ الإيمان به، وشاء الكفر ممن علمَ أنه يختارُ الكفرَ ولا يؤمنُ به، [والمعنى] أن لله تعالى لُطفًا لو أعطاهم لآمنوا كلهم عن اختيار، ولكن عَلِمَ منهم أنهم لا يؤمنون فلم يعطهم ذلك، وهو التوفيق ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ لا تملك أنت يا محمد أن تكرههم على الإيمان، لأنه يكون بالتصديق والإقرار ولا يمكن الإكراه على التصديق.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ
ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ
يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى
يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

١٠٠- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بمشيئته، أو بتوفيقه وتسهيله ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ العذابَ، أو السّخطَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ لا ينتفعون بعقولهم.

١٠١- ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟﴾ نَظَرَ استدلال واعتبار ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ من الآيات والعِبَر باختلاف الليل والنهار، وخروجِ الزروع والثمار ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ [أي الدلالاتُ] والرسلُ المنذِرون، أو الإنذاراتُ ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ لا يُتوقع إيمانهم، وهم الذين لا يَعقِلون.

١٠٢- ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ يعني وقائعَ اللهِ فيهم ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [إنجازَ وعده لي في إنزال العذاب بكم إن أقمتم على تكذيبي].

١٠٣- ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾ ومَن ءامَنَ معهم ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي مثل ذلك الإنجاء كان وعدًا منا مؤكدًا لا خُلْفَ فيه، والعباد لا يجب لهم على الله تعالى شيء.

١٠٤- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا أهلَ مكة ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ وصِحته وسَدَاده فهذا ديني، فاسمعوا وَصْفَه، ثم وَصفَ دينَه فقال: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي الأصنامَ ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ﴾ يُميتكم، وَصفَه بالتوفّي ليريهم أنه الحقيق بأن يُخاف ويُتّقى دون من لا يقدر على شيء ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ اللهُ أمرني بذلك بما أوحى إليَّ في كتابه.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ
لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى﴾

١٠٥- ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ وأوحَى إليَّ أن استقِمْ مُقبلًا بوجهك على ما أَمرَكَ اللهُ ﴿حَنِيفًا﴾ [مستقيمًا قويمًا به مائلًا عن كل ما يخالفه] ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [أي وقيل لي: ولا تشرك، والخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد غيره، وكذلك قوله]:

١٠٦- ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن دعوتَه ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن خذَلْتَه[1] ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فإن دعوتَ من دون الله ما لا ينفعُكَ ولا يضرُّك ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ لأنه لا ظُلمَ أَعظمُ من الشرك، [وقيل: إن النهي في ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام وإن كان معصومًا من كل ذلك فالعصمة لا تمنع الأمر والنهي، إنما تنفع إذا كان ثمةَ أمرٌ ونهيٌ؛ إذ لولا الأمر والنهي لكان لا معنى للعصمة ولا منفعة لها والله أعلم. قاله الماتريدي في التأويلات].

١٠٧- ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ يُصِبْكَ ﴿بِضُرٍّ﴾ مَرض ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ لذلك الضُّرِّ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلا الله ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ عافية ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ فلا رَادَّ لمُرادِه ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ بالخير ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ قطع بهذه الآية على عبادِه طريقَ الرَّغبة والرهبة إلا إليه، والاعتمادِ إلا عليه ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ المُكَفِّرُ بالبلاء ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ المعافي بالعطاء.

١٠٨- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا أَهلَ مكة ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ القرءانُ ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ اختارَ الهُدى واتَّبع الحقَّ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى

---

(١) أي: تركْتَه.

﴿لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ
حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ فما نفَعَ باختياره إلا نفسَه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ ومن اثرَ الضلالَ فما ضَرَّ إلا نفسَه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ بحفيظ موكولٍ إليَّ أَمرُكم، إنما أنا بشير ونذير.

١٠٩- ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ﴾ لكَ بالنُّصرةِ عليهم والغَلَبَةِ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ لأنه المُطَّلعُ على السرائر، فلا يَحتاجُ إلى بَينةٍ وشهود.

سورة هود عليه السلام
مكية وهي مائة وثلاث وعشرون ءاية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم
مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١- ﴿الٓر﴾[١] ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نُظِمت نَظمًا رصينًا مُحكمًا لا يقع فيه نَقصٌ ولا خلل كالبناء المحكَم ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ كما تُفَصَّلُ القلائد بالفرائد[٢] من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقَصَص، أو جُعلت فصولًا سورةً سورةً وءايةً ءاية، وليس معنى ﴿ثُمَّ﴾ التراخي في الوقت، [بل جاءت لترتيب الأخبار، لا لترتيب الوقوع] ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ من عنده إحْكَامُهَا وتفصيلُها.

٢- ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ لِئَلا تعبدوا، أو أَمَرَكم ألّا تعبدوا إلا الله ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [مخوِّفٌ بالعذاب إن عصيتموه ومُبَشِّر بالثواب إن أطعتموه].

٣- ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ استغفروا من الشرك[٣]، ثم ارجعوا إليه بالطاعة ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يُطَوِّلْ نفعكم في الدنيا بمنافعَ

(١) مَرّ الكلام في ﴿الٓر﴾ في أول سورة يونس أنه تعديد للحروف على طريق التحدي.
(٢) فَرائدُ الدُّرِّ - أي: اللؤلؤ - كِبارُها. وتفصيل القلائد بالفرائد: إبانَةُ إحدى الدُّرَّتين عن الأُخرى حتى يكون بينهما فُرجة.
(٣) أي: بالدخول في الإسلام، وليس بقول: أَسْتَغْفِرُ الله وأنتم على شرككم.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى
ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ
ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ
إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾

حسنةٍ مَرضية من عِيشة واسعة ونعمة متتابعة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ إلى أن يتوفاكم ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ ويُعطِ في الآخرة كُلَّ من كان له فضلٌ في العمل وزيادةٌ فيه جزاءَ فضلهِ لا يُبْخَسُ[1] منه شيئًا ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وإن تتولَّوا ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣﴾ هو يومُ القيامة.

٤- ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ رجوعُكم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾ فكان قادرًا على إعادتكم.

٥- ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ يَزْوَرُّونَ[2] عن الحقّ ويَنحرفون عنه ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ ليطلبوا الخفاءَ من الله، فلا يطَّلع رسولُه والمؤمنون على ازورارهم ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ يَتغطَّون بها ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ فلا وجهَ لتوصُّلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء، ونفاقهم غير نافع عنده ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ بما فيها.

٦- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ تفضُّلًا لا وجوبًا ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ من الأرض [حيث تأوي إليه] ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ [أي الموضع الذي تموت فيه فتدفن، وقيل: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ في الرَّحِم، ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ في الصلب] ﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ كلُّ واحد من الدوابِّ ورزقُها ومستقرُّها ومستودعُها في اللوح.

٧- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وما بينهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾

---

(١) أي: لا يُنقَصُ.
(٢) الأزوِرارُ عن الشيء: العدولُ عنه والانحراف والإعراض.

﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ
بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ
مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩﴾

من الأحد إلى الجمعة تعليمًا للتأنّي ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ أي فوقَه، يعني: ما كان تَحتَه خُلِقَ قبلَ خَلقِ السماوات والأرضِ إلا الماءَ، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقَين قبل خلق السماوات والأرض ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ أي خلق السماوات والأرض وما بينهما للمُمْتَحَنِ فيهما ولم يَخلق هذه الأشياء لأنفسها ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ أكثرُ شكرًا، [أو أيُّكم أعملُ بالطاعة] ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ أشاروا بهذا إلى القرءان، لأن القرءانَ هو الناطقُ بالبعث، فإذا جعلوه سحرًا فقد اندرج تحته إنكارُ ما فيه من البعث وغيره.

٨- ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ عذابَ الآخرة ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ إلى جَماعة من الأوقات، والمعنى: إلى حين معلوم ﴿مَّعۡدُودَةٖ﴾ معلومَةٍ ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ﴾ ما يمنعه من النزول؟ استعجالًا له على وجه التكذيب والاستهزاء ﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾ العذابُ ﴿لَيۡسَ﴾ العذابُ ﴿مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم﴾ وأحاطَ بهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨﴾ العذاب الذي كانوا به يستعجلون، وإنما وضع ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ موضع يستعجلون لأن استعجالهم كان على وجه الاستهزاء.

٩- ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ نعمةً من صحة وأَمْن وَجِدَةٍ[1] ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾ ثم سلبناه تلك النعمةَ ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ﴾ شديد اليأس من أن يعود إليه مِثلُ تلك النعمة المَسْلوبة ﴿كَفُورٞ ٩﴾ عظيمُ

---

(١) الجِدَةُ: الغنى، والجدةُ بكسر الجيم وضمها: الرزق.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ
فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ
تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾

الكُفران لِما سَلَفَ له من التقلُّب في نعمة الله نَسَّاءٌ له.

١٠- ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ وَسَّعنا عليه النعمةَ بعد الفقر الذي ناله ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ المصائبُ التي ساءتني ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ﴾ أَشِرٌ بَطِر[١] ﴿فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ على الناس بما أذاقه اللهُ من نَعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر.

١١- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ في المِحنة والبلاء ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وشكروا في النعمة والرخاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾ يعني الجنةَ.

١٢- كانوا يقترحون عليه ءايات تعنُّتًا لا استرشادًا، وكانوا لا يعتدُّون بالقرءان ويتهاونون به، فكان يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يُلقيَ إليهم ما لا يَقبلونه ويضحكون منه، فهيَّجَهُ لطرح المبالاة[٢] بردِّهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ لعلك تترك أن تُلقِيَه إليهم وتُبلغه إياهم مَخافةَ رَدِّهم له وتهاونهم به [ولا يلزم من النهي عن الشيء احتمالُ وقوعه لجواز وجود ما يَصرف عنه، وهو عصمة الرسل عن الخيانة في التبليغ، وقد أجمع المسلمون أنه لا يجوز على الرسول أن يخون في الوحي والتنزيل وأن يترك بعض ما يوحى إليه، لأن تجويزه يؤدي إلى الشك في كل الشرائع والتكاليف وذلك يقدح في النبوة] ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ بأن تتلوَهُ عليهم، ولم يقل:

---

(١) كلاهما بمعنى المتكبِّر، وقيل: الأَشَرُ أَشَدُّ البَطَر، والبَطَرُ في الأصل الطُّغيان بالنِّعمة أو عندَها، واستُعمل بمعنى التكبُّر.

(٢) أي: حَمَله على ذلك.

﴿أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ۝١٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾

ضَيّقٌ ليدل على أنه ضِيْقٌ عارض غير ثابت، لأنه عليه السلام كان أفسحَ الناس صدرًا ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ مخافة أن يقولوا ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ هلّا أُنزلَ عليه ما اقترحنا من الكنز لننفِقَهُ، والملائكةِ لنُصَدِّقه ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ ليس عليك إلا أن تنذِرَهم بما أُوحي إليك وتبلغهم ما أُمرتَ بتبليغه، ولا عليك أن ردّوا أو تهاونوا ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ۝١٢﴾ يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم [جزاء أقوالهم وأفعالهم]، فتوكل عليه وَكِلْ أمرَك إليه.

١٣- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ﴾ تحدَّاهم أولًا بعَشْرِ سُوَرٍ ثم بسورة واحدة ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ في الحُسنِ والجَزَالة[1] ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ لمَّا قالوا: افتريتَ القرءانَ واختلقتَه[2] من عند نفسك وليس من عند الله، أَرخَى معهم العِنانَ وقال: هَبُوا أني اختلقتُه من عند نفسي[3]، فأْتوا أنتم أيضًا بكلام مِثلِه مختَلَقٍ من عند أنفسكم، فأنتم عربٌ فصحاءُ مثلي ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى المُعاونة على المعارضة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٣﴾ أنه مفترى.

١٤- ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ أي فإن لم يستجب لكم مَن تدعونه مِن دون الله إلى المظاهرة على المعارضة لِعلمِهم بالعجز عنه ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أُنزل مُلتبسًا بما لا يعلمُه إلا الله من

---

(١) هي بمعنى الفصاحة.
(٢) بمعنى افتريتَه.
(٣) معناه: لو كان الأمرُ كما تزعُمون فأتوا بكذا، وهو بمعنى التحدّي والتعجيز.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٦ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ﴾

نَظْم مُعجِزٍ للخلق، وإخبارٍ بغيوبٍ لا سبيلَ لهم إليه، واعلَموا عند ذلك أن لا إلٰه إلا اللهُ وَحدَه، وأنَّ توحيدَه واجبٌ، والإشراكَ به ظلمٌ عظيم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤﴾ مبايِعون بالإسلام بعد هذه الحُجة القاطعة.

١٥- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥﴾ نوصِلْ إليهم أُجورَ أعمالِهم وافيةً كاملة من غير بَخْس[1] في الدنيا، وهو ما يُرزقون فيها من الصحة والرزق، وهم الكفار أو المنافقون.

١٦- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ وحَبِطَ في الآخرة ما صَنعوه، أي لم يكن لهم ثواب لأنهم لم يريدوا به الآخرة ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ أي كان عملُهم في نفسه باطلًا، لأنه لم يُعمَلْ لغرض صحيح.

١٧- ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أَمَّن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة؟ أي لا يقاربونهم، يعني أن بين الفريقين تبايُنًا بَيِّنًا، وأراد بهم من ءامن مِن اليهود كعبد الله بن سلام وغيره، كان على بينة من ربه، أي برهانٍ أنَّ دين الإسلام حقٌّ وهو دليل العقل ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ ويتبع ذلك البرهانَ ﴿شَاهِدٌ﴾ يشهد بصحته وهو القرءان ﴿مِّنْهُ﴾ من الله، أو من القرءان ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ ومن قبل القرءان ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو التوراةُ ﴿إِمَامًا﴾ كتابًا مؤتمًّا به في الدين قدوةً فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمةً عظيمة على المُنزَلِ إليهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي مَن كان على بينة ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرءان

---

(١) أي: نَقْص.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ بالقرءان ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني أهلَ مكة ومن ضامَّهم[1] من المتحزّبين على رسول الله ﷺ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ مَصيرُهُ ومَورِدُه ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ شكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾ من القرءان، أو من الموعد ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [لِقِلة نظرهم واختلال فِكرهم].

١٨- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يُحبَسون في الموقف وتُعرضُ أعمالُهم[2] ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ويشهد عليهم الأشهادُ من الملائكة والنبيين بأنهم الكذَّابون على الله بأنه اتخذَ ولدًا وشريكًا ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ الكاذبين على ربهم.

١٩- ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يَصرفونَ الناسَ عن دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يَصِفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾، ﴿هُمْ﴾ الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصِهم به.

٢٠- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟﴾ ما كانوا ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بمعجزينَ الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابَهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ مَن يتولاهم فينصُرهم منه ويَمنَعُهم من عقابه، ولكنه أراد

---

(١) أي: انضَمَّ إليهم.
(٢) قال الفخر الرازي في تفسيره: إن قيل: لم يَجُز أن يكون الله تعالى في مكان، فكيف قال ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فالجواب أنهم يُعرضون على الأماكن المعَدَّة للحساب والسؤال.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣ ۞مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾

إنظارَهم وتأخيرَ عقابهم إلى هذا اليوم، وهو من كلام الأشهاد ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ لأنهم أَضلّوا الناسَ عن دين الله ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ أي استماعَ الحق ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾ الحقَّ.

٢١- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ حيث اشتَروا عبادةَ الآلهة[1] بعبادة الله ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ وبطل عنهم وضاع ما اشترَوه وهو ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١﴾ مِن الآلهة[2] وشفاعَتِها.

٢٢- ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢﴾ بالصَّدِّ والصُّدود[3] لا مَحالةَ.

٢٣- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾ [لا يخرجون منها ولا يموتون فيها].

٢٤- ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ شَبَّهَ فريقَ الكافرين بالأعمى والأصمّ، وفريقَ المؤمنين بالبصير والسميع ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ﴾ يعني الفريقين ﴿مَثَلًاۚ﴾ تشبيهًا ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾ فتنتفعون بضرب المَثَل.

---

(١) إذا قيل الآلهةُ في مقام بيان الباطل، مقامِ نفي صحةِ أُلوهية غيرِ الله يكون لا بأسَ به، ليس معناه أنه يوجد إلٰه غيرُ الله، إنما معناه هذه المعبودات بالباطل.

(٢) أي: الأصنام التي يزعمُ المشركون أنها ءالهةٌ ويعبدونها من دون الله.
صحَّ في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا قدِمَ رسول الله ﷺ مكةَ أَبَى أن يدخل البيتَ وفيه الآلهةُ، أي: امتنعَ من دخول البيت الحرام وفيه الأصنام، فأَمرَ بها فأُخرجت.

(٣) أي: عن سبيل الله.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا
وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ
بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ
عِندِهِۦ﴾

٢٥- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ أرسلناه ملتبسًا بهذا الكلام [وتقديره: أرسلناه فقلنا له: قل لهم: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي مُخوِّف لكم مُظهر ذلك].

٢٦- ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ وَصفُ اليومِ بأليم من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه.

٢٧- ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ يريد الأَشرافَ[1]، لأنهم يَملؤونَ القلوبَ هيبةً والمجالسَ أُبَّهة[2] ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون مَلَكًا أو مَلِكًا ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أَخِسَّاؤنا ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي اتَّبَعوكَ ظاهر الرأي، أو أوَّلَ الرأي، أرادوا أن اتِّباعَهم لك شيءٌ عَنَّ لهم بديهةً من غير رَوية ونظر، ولو تفكروا ما اتَّبعوك، وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ في مال ورأي، يَعنون نوحًا وأتباعَه ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي نوحًا في الدعوة، ومتّبعيه في الإجابةِ والتصديقِ.

٢٨- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أَخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ برهان ﴿مِّن رَّبِّى﴾ وشاهد منه يشهد لصحة دعواي ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ يعني

---

(١) يعني: أشرافَهم، أي: رؤساءَهم.
(٢) الأُبَّهَةُ في الأصل: البهاءُ والعظمة، والمراد هنا أنهم يَقعون عند أقوامهم موقعَ المعَظَّمِين في أعينهم.

﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا
عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا
تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ
ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾

النبوةَ ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ أُخْفِيَت عليكم البينةُ فلم تَهدِكم ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ أي الرَّحمةَ ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ لا تريدونها.

٢٩- ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿مَالًاۖ﴾ أجرًا ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ جوابٌ لهم حين سألوا طردَهم ليؤمنوا به أَنَفَةً[1] من المُجالسة معهم ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ فيشكونَني إليه إن طردتُهم ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩﴾ لقاءَ ربكم، أو أنهم خير منكم.

٣٠- ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ مَن يمنعني مِن انتقامه ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾ تتعظون.

٣١- ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فأَدَّعِي فضلًا عليكم بالغنى حتى تَجحدوا فضلي بقولكم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾، ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ حتى أَطَّلِعَ على ما في نفوس أتباعي وضمائرِ قلوبهم ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ حتى تقولوا لي: ما أنت إلا بَشَرٌ مِثلُنا ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ ولا أحكم على مَن استرذلتم من المؤمنين لفقرهم ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ في الدنيا والآخرة نزولًا على هواكم ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ من صِدقِ الاعتقاد، وإنما عليَّ قَبولُ ظاهرِ إقرارهم ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ إن قلتُ شيئًا من ذلك.

---

(١) أي: استكبارًا.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

٣٢- ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ خاصَمْتَنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ مِنَ العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ في وَعيدك.

٣٣- ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ ليسَ الإتيانُ بالعذاب إليَّ، وإنما هو إلى مَنْ كَفرتُم به ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي لم تقدروا على الهرب منه.

٣٤- ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ [النُّصحُ والنصيحةُ كلمةٌ جامعةٌ يُعبَّر بها عن جملة إرادةِ الخير للمنصوح له، وقيل]: هو إعلامُ موضع الغَيّ ليُتَّقى والرُّشدِ ليُقتَفَى ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ إن كان الله يريد أن يُغويَكم لا يَنفعكم نُصحي إن أردتُ أن أنصحَ لكم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ فيتصرفُ فيكم على قَضِيَّةِ إرادته(١) ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

٣٥- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل أيقولون افتراه ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي إن صَحَّ أنّي افتريتُه فعليَّ عقوبةُ إجرامي ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليَّ، فلا وَجْهَ لإعراضكم ومعاداتكم.

٣٦- ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ إقناطٌ من إيمانهم، وأنه غيرُ متوقَّعٍ ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك فقد حانَ وقتُ الانتقام من أعدائك.

---

(١) أي: على ما يشاء.

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ
ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ
كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا﴾

٣٧- ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ اصنعها محفوظًا [بحفظنا إيّاك حِفظَ مَن يراك ويملك دفع السوء عنك، وعُبِّر بلفظ الجمع للتعظيم] ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ وأنّا نوحي إليك ونُلهِمُكَ كيف تصنع ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ ولا تَدْعُني في شأن قومِكَ واستدفاعِ العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ محكومٌ عليهم بالإغراق فلا سبيل إلى كَفِّه.

٣٨- ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ ومِن عَمَلِهِ السفينةَ، وكان يعمَلُها في بريةٍ في أَبعدِ موضع من الماء، فكانوا يتضاحكون منه ويقولون له: يا نوحُ صِرْتَ نجّارًا بعدما كنت نبيًّا ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ عندَ رؤية الهُلك ﴿كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ مِنّا عند رؤية الفُلك.

٣٩- ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ﴾ أي الذي يأتيه ﴿عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ يريدُ عذابَ الدنيا وهو الغرقُ ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ﴾ وينزل عليه ﴿عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ وهو عذاب الآخرة.

٤٠- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ عذابُنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ هو كنايةٌ عن اشتدادِ الأمرِ وصعوبته، وقيل: معناه جاش[١] الماء من تَنُّور الخبز، وكان من حجر لِحَوّاءَ فصار إلى نوح، وقيل: التنّور: وجه الأرض ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ في السفينة ﴿مِن كُلّٖ﴾ [من كل صنفٍ من البهائم والسباع والدَّوابّ والهوامِّ والطيور] ﴿زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [ذكرًا وأنثى] ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا

---

(١) جاشَ: عَلا.

﴿مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ
ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ
ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ
جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ
فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾

﴿مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ﴾ واحمل أهلَكَ والمؤمنين من غيرهم، واستثنى مِن أهله مَن سَبَقَ عليه القول أنه من أهل النار ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ قيل: كانوا اثنين وسبعينَ رجالًا ونساءً وأولادَ نوحٍ سامٌ وحامٌ ويافِثُ ونساؤهم، فالجميع ثمانيةٌ وسبعون، نِصفُهم رجالٌ ونصفهم نساء.

٤١- ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ﴾ اركبوا فيها مُسَمِّينَ اللهَ [عند جَرْيِها ورُسُوِّها، أي منتهى سيرها] ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ﴾ لِمَن ءامنَ منهم ﴿رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ حيث خَلَّصهم.

٤٢- ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ أي السفينة تجري وهم فيها ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ يريدُ مَوجَ الطوفان ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعان ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عن أَبيه وعن السفينة، أو في معزل عن دين أبيه ﴿يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ في السفينة، أي أَسلِمْ واركَبْ ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

٤٣- ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ﴾ أَلجأُ ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ﴾ يَمنعني من الغرق ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ إلا الرَّاحِمُ وهو اللهُ تعالى، أو ولكن مَن رحمهُ اللهُ فهو المعصوم ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ بينَ نوحٍ وابنهِ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

٤٤- ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ انشَفي وتَشَرَّبي ﴿وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أَمسِكي ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نَقصَ ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وأُنجزَ ما وعدَ اللهُ نوحًا

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾

من إهلاك قومه ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ واستقرَّت السفينةُ بعد أن طافت الأرض كُلَّها ستةَ أشهر ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ وهو جبل بالمَوْصِل ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ سُحقًا لقوم نوح الذين غَرِقوا.

٤٥- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ نداؤه رَبَّهُ: دعاؤه له ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي بعضُ أهلي لأنه كان ابنَه من صُلبه ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وإن كلَّ وعدٍ تَعِدُه فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتَني أن تُنجيَ أهلي، فما بالُ ولدي[1]؟ ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أَعلَمُ الحُكَّام وأَعدَلُهم. قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: كان عند نوح عليه السلام أنَّ ابنَه كان على دينه لأنه كان ينافق، وإلا لا يحتمل أن يقول: ابني من أهلي ويسأله نجاتَه وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة هود] فكان يسأله على الظاهر الذي عنده ولم يعلم بذلك حتى أَطلعه الله عليه.

٤٦- ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾ الذين وعدتُ النجاة لهم، وهم المؤمنون حقيقة في السِّر والظاهر ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ إيذان بأنّ قَرابةَ الدين غامرةٌ لقَرابة النسب[2]، وجُعلت ذاته عملًا غيرَ صالح مبالغةً في ذَمِّه، وفيه إشعار بأنه إنما أَنجى مَن أَنجى مِن أهله لصلاحهم لا لأنهم أهلُه، وهذا لمَّا انتفى عنه الصلاحُ لم تنفعه أُبوَّته ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾ [أي أخبرتك عن حال ابنك إذ كنت غيرَ عالم به، فلا

---

(١) هذا سؤال عن سبب عدم إنجائه، لا اعتراضٌ، فإن الأنبياء عليهم السلام مُنَزَّهون عن الاعتراض على الله عزَّ وجَلّ.
(٢) أي: عاليةٌ عليها.

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾

تسألني بعد هذا ما ليس لك به علم حتى ءاذنَ لك] ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ هو كما نُهيَ رسولنا بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾ [سورة الأنعام] [قال الماتريدي: والعصمة لا تمنع النهي عن الشيء، بل بالنهي تظهر العصمة].

٤٧- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ أي من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علمَ لي بصحَّته، تأدبًا بأدبك، واتِّعاظًا بموعظتك، [إنَّ الله عز وجل قدَّم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء مَن سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أنَّ في جملة أَهلهِ مَن هو مستوجبٌ العذابَ لكونه غيرَ صالح، وأن كلَّهم ليسوا بناجين] ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾ ما فَرط مني ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ بالعصمة عن العَودِ إلى مثله ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾.

٤٨- ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ بسلامة من الغرق ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ هي الخيرات النامية، وهي في حَقِّه بكثرة ذرِّيته وأَتباعه، فقد جُعل أكثرُ الأنبياء من ذريته، وأَئمةُ الدين في القرون الباقية من نسله ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ الأُمم الذين كانوا معه في السفينة، لأن الأمم تتشعب منهم ﴿وَأُمَمٞ﴾ [من نَسلِكَ من الكفار] ﴿سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ في الدنيا بالسَّعة في الرزق والخَفض في العيش[1] ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ في الآخرة، والمعنى أن السلام مِنّا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين يَنشؤون ممن معك. وممن معك أمم مُمَتَّعون بالدنيا منقلبون إلى النار، وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء، والخَلقُ بعد الطوفان منه.

---

(١) الخفض في العيش: الدَّعَةُ والسكون.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ
قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ﴾

٤٩- ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ [يا محمد] ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ تلك القصةُ بعضُ أنباء الغيب موحاةٌ إليك مجهولة عندك وعند قومك ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ الوقتِ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومِكَ كما صَبَرَ نوح ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ في الفوز والنصر والغَلَبة ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ عن الشرك.

٥٠- ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ واحدًا منهم، أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم ﴿هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وَحِّدوه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ تفترونَ على اللهِ الكذبَ باتخاذكم الأوثانَ له شركاءَ.

٥١- ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ إذ تَرُدُّون نصيحةَ مَن لا يطلبُ عليها أجرًا إلا من الله، وهو ثوابُ الآخرة، ولا شيءَ أَنفَى للتُّهَمَة من ذلك.

٥٢- ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ ءامِنوا به ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ من عبادةِ غيره ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ المطرَ ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ كثيرَ الدَّرِّ[1] ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ إنما قصدَ استمالَتَهم إلى الإيمان بكثرةِ المَطر وزيادةِ القوة [بالمال والولد] ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟﴾ ولا تُعرضوا عني وعمّا أدعو إليه ﴿مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ مُصرّين على إجرامكم وءاثامكم.

٥٣- ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [بحجة تدلُّ على صحة دعواك، وهذا] كذبٌ منهم وجُحودٌ [فأبَوا إلا الكفرَ وقالوا] ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ

---

(١) أي: المَطر.

﴿ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ
إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا
تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ
صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا
تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ۝٥٧﴾

﴿ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾ كأنه قيل: وما نترك ءالهتَنا صادرينَ عن قولك ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣﴾ وما يصح من أمثالنا أن يُصَدِّقوا مثلَك فيما يدعوهم إليه، إقناطًا له من الإجابة.

٥٤- ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ﴾ ما نقول إلا اعتراك أي أصابك ﴿بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ بجنون وخَبَل ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤﴾.

٥٥- ﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾ من إشراككم ءالهةً من دونه، والمعنى: إني أُشهد الله أني بريء مما تشركون، واشهدوا أنتم أيضًا أني بريء من ذلك ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ أنتم وءالهتكم ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ لا تُمهلونِ، فإني لا أُبالي بكم وبكيدكم.

٥٦- ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ أي مالِكُها وهي في قبضته[1] ومَلَكَتِه وتحت قهره وسلطانه ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ إن ربي على الحق لا يعدل عنه ويُحِبُّه ويأمر به.

٥٧- ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ فقد ثَبتَتِ الحُجَّة عليكم ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ ويُهْلككم اللهُ ويَجيء بقوم ءاخرين يَخلُفونكم في دياركم وأموالكم ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ بتولِّيكم ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ من ضرر قَطُّ، إذ لا يجوز عليه المَضارُّ، وإنما تَضُرُّون أنفسَكم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ۝٥٧﴾ رقيبٌ عليه مُهيمن، فما تخفى عليه أعمالُكم ولا يَغفُل

---

(١) أي: في تصرُّفه.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ
عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا
لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ
صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾

عن مؤاخذتِكم، أو مَن كان رقيبًا على الأشياء كُلِّها حافظًا لها وكانت الأشياء مفتقرة إلى حفظهِ عن المَضارِّ لم يَضُرَّهُ مِثلُكُم.

٥٨- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وكانوا أَربعةَ ءالافٍ ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ بفضل مِنّا لا بِعَمَلِهم، أو: بالإيمان الذي أنعمنا عليهم ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾﴾ وتكرار نَجَّينا للتأكيد.

٥٩- ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ﴾ إشارةٌ إلى قبورهم وءاثارِهم كأنه قال: سِيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا، ثم وصف أحوالهم فقال: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ لأنهم إذا عَصَوا رسولَهم فقد عصَوا جميعَ رُسلِ الله ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾﴾ يريد رؤساءَهم ودُعاتَهم إلى تكذيب الرسل، لأنهم الذين يُجبرون الناسَ على الأمور ويعاندون رَبَّهم، ومعنى اتِّباعِ أمرِهم طاعتُهم.

٦٠- ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ لمَّا كانوا تابعين لهم دون الرسُل، جُعلت اللعنةُ تابعةً لهم في الدارين ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ﴾ والدعاءُ بِبُعدًا بعد هلاكِهم - وهو دعاءٌ بالهلاك - للدلالة على أنهم كانوا مستأهِلين له، [وذلك] تهويلٌ لأمرهم وبعثٌ على الاعتبار بهم ﴿قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾﴾ عطفُ بيانٍ لِعَادٍ، وفيه فائدة لأن عادًا عادان، الأولى القديمةُ التي هي قومُ هودٍ والقصةُ فيهم، والأخرى إرَمُ.

٦١- ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ لم يُنشئكم منها إلا هو، وإنشاؤهم منها خَلقُ ءادمَ من التراب ثم خَلقُهم من ءادمَ ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ وجعلكم عُمَّارَها، أو

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ
أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى
غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾

من العُمُر، أي أطال أعماركم فيها، وكانت أعمارهم من ثلاثمائة إلى ألف ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ فاسألوا مغفرتَه بالإيمانِ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ داني الرحمة ﴿مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ لِمَن دعاه.

٦٢- ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا﴾ فيما بيننا ﴿مَرْجُوًّا﴾ للسيادة والمُشاورة في الأمور ﴿قَبْلَ هَٰذَآۖ﴾ [الذي صدر منك] ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [من الأوثان] ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ موقع في الريبةِ وهي انتفاءُ الطمأنينة.

٦٣- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نُبوَّةً، كأنه قال: قَدِّروا أَني على بَيِّنةٍ من ربي وأَنني نبيٌّ على الحقيقة، وانظروا إن تابعتُكم وعَصيتُ ربي في أوامره ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ فمن يَمنعُني من عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ﴾ في تبليغ رسالتهِ ومَنعِكم عن عبادة الأوثان ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ بقولكم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ بنسبتكم إيايَ إلى الخَسَار[1]، أو بنسبتي إياكم إلى الخُسران.

٦٤- ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ ليس عليكم رزقُها مع أن لكم نفعَها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ عَقرٍ[2] أو نَحْر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ عاجلٌ.

---

(١) الخَسارُ: الضلالُ والهلاك.

(٢) عَقْرُها: قَتْلُها بضرب ساقِها بالسيف.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ
يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ
بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ
إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾

٦٥- ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يومَ الأربعاء ﴿فَقَالَ﴾ صالحٌ ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ استمتِعوا بالعيش ﴿فِى دَارِكُمْ﴾ في بلدكم، وتُسمّى البلادُ الديارَ لأنه يُدارُ فيها، أي يُتصرَّفُ ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثم تُهلَكون، فهَلَكوا يومَ السبت ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ غيرُ مكذوبٍ فيه.

٦٦- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ هذا يدل على أن مَن نُجِّيَ إنما نُجي برحمة الله تعالى لا بعَمَلِه ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي من ذُلِّهِ وفضيحته، ولا خِزيَ أعظمُ من خِزيِ مَن كان هلاكُه بغضب الله وانتقامه ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ القادر على تَنجيةِ أوليائه ﴿ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ الغالبُ بإهلاك أعدائه.

٦٧- ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صيحةُ جبريلَ عليه السلام ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ﴾ منازلهم ﴿جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ مَيّتين.

٦٨- ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ لم يُقيموا فيها ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [أي هلاكًا لهم استحقُّوه بسبب كفرهم بربهم].

٦٩- ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ، أو جبريل مع أحد عشر مَلكًا ﴿إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ هي البِشارةُ بالولد ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ سَلَّمنا عليك سلامًا ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أَمْرُكم سلامٌ ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ﴾ فما لَبِثَ في المجيء به بل عَجَّلَ فيه ﴿حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ مَشويٍّ بالحِجارةِ المُحْمَاةِ.

٧٠- ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [أي أنكرَ ذلك منهم،

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

و] كانت عادتهم أنه إذا مَسَّ مَن يَطرُقُهم طعامَهم أَمِنوهُ وإلا خافوه، والظاهرُ أَنه أَحسَّ بأنهم ملائكةٌ، ونَكِرَهم لأنه تَخوَّفَ أن يكون نزولُهم لأَمرٍ أنكره الله عليه[1]، أو لتعذيبِ قومِه، دليلُه قولُه: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أَضمَرَ منهم خوفًا ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ بالعذاب، وإنما يقال هذا لِمَنْ عَرَفهم ولم يَعرِفْ فيمَ أُرسلوا، وإنما قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾، لأنهم رأَوا أثرَ الخوف في وجهه، [وقيل: إن إبراهيم عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة في أوّل الأمر، ويدل على هذا القول أنه عليه السلام لو عرف ابتداءً أنهم ملائكة لم يشتغل بتهيئة الطعام وتقديمه لهم - لأنه يعرف أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون - ولَمَا خافهم].

٧١- ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ [سارةُ] ﴿قَآئِمَةٌ﴾ على رؤوسهم تخدمهم ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سرورًا بزوال الخِيفة، أو بهلاك أهل الخبائث ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ وخُصَّت بالبشارة لأن النساءَ أعظمُ سرورًا بالولد من الرجال، ولأنه لم يكن لها ولدٌ، وكان لإبراهيمَ ولدٌ وهو إسماعيل ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾ ومن بَعدِه ﴿يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ فبشرناها بإسحاق [ولدًا لها] ووهبنا لها يعقوبَ - [ولدَ الولدِ] - من وراء إسحاق [ولدًا له].

٧٢- ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ ابنةُ تسعين سنة ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ ابنَ مائةٍ وعشرينَ سنةً ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ أن يولدَ ولدٌ من هَرِمَين، وهو استبعاد من حيث العادةُ.

---

(١) ليس معنى ذلك أنه خافَ أن يكونوا قد أتوه بعذاب.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا
ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ
﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾

٧٣- ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ قُدرتِهِ وحِكمته ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ أرادوا أن هذه وأمثالَها مما يكرمُكم به رَبُّ العِزَّة ويَخُصُّكم بالإنعام به يا أهل بيتِ النبوة ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ﴾ محمودٌ بتعجيل النِّعم ﴿مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾ ظاهر الكرم بتأجيل النِّقَم.

٧٤- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ الفَزَعُ وهو ما أَوجَسَ من الخِيفة حين نَكِرَ أضيافَه ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ بالولد ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ [يسألُ رسُلَنا من الملائكة ويحاوِرُهم] ﴿فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ أي لَمَّا اطمأنَّ قلبُه فَرغَ للمجادلة؛ ومجادلته إياهم أنهم قالوا: إنا مُهلكو أهلِ هذه القرية، فقال: أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمنًا أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ العشرة، قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال لهم: إنَّ فيها لوطًا، قالوا: نحن أعلم بمن فيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وأهلَه.

٧٥- ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غيرُ عَجول على كلِّ مَن أَساءَ إليه ﴿أَوَّٰهٞ﴾ [الأوّاه: الرحيم بعباد الله، قاله ابن مسعود والحسن وقتادة، والأوّاه: الدَّعَّاءُ الذي يُكثر الدعاء، قاله ابن مسعود أيضًا، ولا يَصحُّ تفسيره بكثير التأوُّهِ لأن التأوُّهَ ليس ذكرًا فلا يليق وصف إبراهيم بالإكثار منه] ﴿مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾﴾ تائب راجع إلى الله، وهذه الصفات دالَّةٌ على رِقَّة القلب والرأفة والرحمة، فبينَ أن ذلك مما حَمَلَه على المجادلة فيهم رجاءَ أن يُرفَعَ عنهم العذابُ ويُمهَلوا لَعلَّهم يُحدِثون التوبةَ كما حمله على الاستغفار لأبيه، فقالت الملائكة:

٧٦- ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ الجدالِ، وإن كانت الرحمةُ

﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ
وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ
مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾﴾

دَيْدَنَك[1] ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ قضاؤه وحُكمُه ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾﴾ لا يُرَدُّ بجدال وغير ذلك، ثم خرجوا من عند إبراهيم متوجهين نحوَ قوم لوط، وكان بين قرية إبراهيمَ وقومِ لوط أربعةُ فراسخ.

٧٧- ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾ لمَّا أَتَوهُ ورأى هيئاتِهم وجمالَهم ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أُحْزِنَ، لأنه حَسِبَ أنهم إنسٌ، فخاف عليهم خُبثَ قومِهِ، وأن يعجِزَ عن مقاومتهم ومدافَعَتِهم ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ وضاق بمكانِهم صدرُه ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾﴾ شديد، ودخلوا معه منزلَهُ ولم يعلم بذلك أَحدٌ، فخرجت امرأتُه فأخبرت بهم قومَها.

٧٨- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ يُسرعون كأنما يُدفَعون دفعًا ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش حتى مَرَنوا[2] عليها وقلَّ عندهم استقباحُها ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ فتزوجوهنَّ، أراد أن يقيَ أضيافَه ببناتِه، وذلك غايةُ الكرم، وكان تزويج المسلماتِ من الكفار جائزًا في ذلك الوقت، كما جاز في الابتداء في هذه الأمة، فقد زوَّج رسولُ الله ﷺ ابنتَيهِ من عُتبةَ بنِ أبي لهب وأبي العاص وهما كافران، وقيل: كان لهم سَيِّدان مطاعان، فأراد لوط أن يزوجَهما ابنتيه ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ أَحلُّ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بإيثارهن عليهم ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ ولا تُهينوني ﴿فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ في حَقِّ ضيوفي ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾﴾ رجل يهتدي إلى طريق الحق وفِعلِ الجميل والكفِّ عن السوء.

---

(١) أي: عادَتَك.
(٢) أي: تَعَوَّدوا واستمرُّوا.

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ
ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾

٧٩- ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ حاجة، لأن نكاح الإناث أمر خارجٌ عن مذهبنا، فمذهبنا إتيانُ الذُّكران ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ عَنَوا إتيانَ الذكور وما لهم فيه من الشهوة.

٨٠- ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ المعنى: لو قَوِيْتُ عليكم بنفسي أو أَوَيتُ إلى قويّ أستند عليه وأمتنع به لفعلتُ بكم وصَنعتُ.

روي أنه أغلق بابه حين جاؤوا وجعل يُرادُّهم ويُجادلهم فتسوَّروا الجدار فلمّا رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب.

٨١- ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ﴾ إن ركنك لَشديد ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأذن جبريلُ عليه السلام رَبَّه في عقوبتِهم، فأَذِنَ له، فضربَ بجناحِهِ وجوهَهم، فطمَسَ أعينَهم، فأعماهم كما قال الله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة القمر]، فصاروا لا يعرفون الطريقَ، فخرجوا وهم يقولون: النجاءَ النجاءَ، فإن في بيت لوط قومًا سَحَرةً ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [لن يصلوا إلى إضرارك بإِضرارنا فهوّن عليك ودعنا وإياهم] ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [فاذهب بهم في الليل] ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ طائفةٍ منه، أو نصفِهِ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ بقلبه إلى ما خَلَّف أو لا ينظرْ إلى ما وراءه [لئلا يرى عظيمَ ما ينزل بهم] ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ مستثنى من ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، أُمِرَ بأن يُخَلِّفَها مع قومها فإنّ هواها إليهم، فلم يَسْرِ بها[1] ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ روي أنه قال

---

(١) وقد ورد هنا في الأصل كلام منقول عن الزمخشري وهو قوله: «وفي إخراجها مع أهله روايتان، روي أنه أخرجها معه وأمر ألّا يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت هَدَّةَ=

﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ﴾

لهم: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾﴾.

٨٢- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ جعلَ جبريلُ عليه السلام جناحَه في أسفلها أي أسفل قُراها، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهلُ السماء نُباح الكلاب وصياح الدِّيَكة، ثم قلبَها عليهم، وأُتبعوا الحجارة من فوقهم، وذلك قوله: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ وهو طين طُبخَ كما يطبخ الآجُرُّ حتى صار في صلابة الحجارة ﴿مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾﴾ مُتتابع.

٨٣- ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُعَلَّمةً للعذاب، قيل: مكتوبٌ على كل واحد اسمُ مَن يُرمى به ﴿عِندَ رَبِّكَۖ﴾ في خزائنه، أو في حُكمه ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾﴾ بشيء بعيد، وفيه وعيدٌ لأهل مكة.

٨٤- ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ هو اسمُ مدينتِهم، أي وأرسلنا شعيبًا إلى ساكني مدينَ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ﴾ أي المَكِيلَ بالمكيال ﴿وَٱلۡمِيزَانَۚ﴾ والموزونَ بالميزان ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ بثروة وسَعَةٍ تُغنيكم عن التطفيف، أو أراكم بنعمة من الله حَقُّها أن تُقابلَ بغير ما تفعلون ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ

= العذاب التفتت وقالت: يا قوماه، فأدركها حجر وقتلها ثم قال: واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين». وقد أنكر أبو حيان هذا الكلام وقال: وهذا وَهمٌ فاحشٌ (أي من الزمخشري) إذ بنى القراءتين على اختلاف الروايتين من أنه سرى بها أو لم يَسرِ بها، وهذا تكاذب في الأخبار يستحيل أن تكون القراءتان وهما من كلام الله تعالى تترتبان على التكاذب» اهـ. كلام أبي حيان. ومراده بالقراءتين قراءة: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ بفتح التاء وضمها.

﴿مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

﴿مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ مُهلِكٍ، والمراد عذابُ الاستئصال في الدنيا، أو عذابُ الآخرة.

٨٥- ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أَتِمُّوهما ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بالعدل، نُهوا أوّلًا عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان، ثم وَرَدَ الأمرُ بالإيفاء الذي هو حَسَن في العقول لزيادة الترغيب فيه، وجيء به مقيَّدًا بالقسط، أي ليكن الإيفاءُ على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ البَخسُ: النقصُ، كانوا يَنقصون من أثمانِ ما يشترونَ من الأشياء، فنُهوا عن ذلك ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ العَثْيُ والعَيثُ: أَشدُّ الفساد نحوُ السرقة والغارةِ وقطعِ السبيل.

٨٦- ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ ما يبقى لكم من الحلال بعدَ التنزه عما هو حرام عليكم ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ بشرط أن تؤمنوا، أو إن كنتم مُصدِّقين لي فيما أنصح به إياكم ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾﴾ لنِعَمِهِ عليكم فاحفظوها بترك البخس.

٨٧- ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ كان شعيبٌ عليه السلام كثيرَ الصلوات، وكان قومُه يقولون له: ما تستفيدُ بهذا؟! فكان يقول: إنها تأمر بالمحاسن، وتَنهَى عن القبائح، فقالوا على وجه الاستهزاء: أَصلواتُك تأمرك أن تأمرَنا بترك عبادة ما كان يَعبدُ ءاباؤنا، أو أن نترك التبسُّطَ في أموالنا ما نشاء من إيفاءٍ ونَقْصٍ؟! ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ أي السفيهُ الضَّالُّ، وهذه تسميةٌ على القلب استهزاءً.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ
إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ
وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ
أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي
رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾

٨٨- ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ﴾ من لَدُنْهُ ﴿رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ مالًا حلالًا من غير بخس وتطفيف [أفأشُوبه بالحرام من البخس والتطفيف؟!] ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نَهيتكم عنها، لأستبدَّ بها دونكم [بل لا ءامركم بشيء إلا عملت به، ولا أنهاكم عن شيء إلا انتهيت عنه] ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ ما أُريد إلا أن أُصلِحَكم بموعظتي ونصيحتي وأمري بالمعروف ونهيي عن المنكر ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ ما دُمتُ متمكنًا منه لا ءالو فيه جُهدًا ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ إلا بمعونته وتأييده ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ اعتمدتُ ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ أَرجعُ في السَّراء والضرّاء.

٨٩- ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم﴾ لا يُكسِبَنَّكم خِلافي إصابةَ العذاب ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ وهو الغَرَقُ والريحُ والرَّجْفَة ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ في الزمان فهم أَقربُ الهالكين منكم، أو في المكان فمنازلهم قريبة منكم.

٩٠- ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ [قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ليس يأمرهم أن يقولوا: نستغفر الله، ولكن يأمرهم بالإسلام ليغفر لهم ويكونوا من أهل المغفرة، فعلى هذا استغفار إبراهيم لأبيه، وكذلك قوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦﴾ في سورة الشعراء أي أعطه السبب الذي به يستوجب المغفرة وهو التوحيد] ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ﴾ بمَن استغفره وتاب إليه ﴿وَدُودٞ ٩٠﴾ يُحِبُّ أهلَ الوفاء مِن الصالحين.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ
أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ
إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ﴾

٩١- ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ لا نفهم صحةَ ما تقول ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ﴾ فلا تَقدر على الامتناع مِنّا إن أردنا بك مكروهًا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ﴾ ولولا عَشيرتُك لقتلناك بالرَّجم وهو شَرُّ قِتلَة، وكان رَهْطُه من أهل مِلَّتهم، فلذلك أظهروا الميلَ إليهم والإكرامَ لهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ لا تَعِزُّ علينا ولا تَكْرُمُ حتى نكرمَك من القتل ونَرفَعَك عن الرجم، وإنما يَعِزُّ علينا رَهْطُك لأنهم من أهل ديننا.

٩٢- ﴿قَالَ﴾ في جوابهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الذي بعثني إليكم وألزَمكم الانقياد لي] ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ﴾ ونَسِيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذِ وراءَ الظهر لا يُعبأُ به ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ قد أحاط بأعمالكم عِلمًا، فلا يخفى عليه شيء منها.

٩٣- ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ اعملوا قارّين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك والشنآن[1] لي [وهو صيغة أمر معناه التهديد] ﴿إِنِّي عَٰمِلٌۖ﴾ على حسب ما يؤتيني الله مِنَ النُّصرة والتأييد ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ﴾ كأنه قيل: سوف تعلمون أيُّنا يأتيه عذابٌ يُخزيه وأيُّنا هو كاذبٌ ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ وانتظِروا العاقبة وما أقول لكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ منتظر.

٩٤- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ

---

(١) الشَّنآن: البُغض.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا
بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ
أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ
ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ صاحَ بهم جبريلُ صَيحةً فهلكوا ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ جبريلُ صاحَ بهم صيحةً فَزَهِقَ روحُ كلِّ واحد منهم بغتةً.

٩٥- ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ كأن لم يُقيموا في ديارهم أَحياءً متصرِّفينَ متردِّدين ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ﴾ البُعْدُ بمعنى البَعَدِ وهو الهلاك ﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [شبَّههم بهم لأن عذابهم كان أيضًا بالصيحة، غير أن صيحة ثمود - قومِ صالح - كانت مِن تحتهم وصيحةَ مدينَ - قومِ شعيب - كانت مِن فوقهم].

٩٦- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [بالمعجزات] ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [حجة بيّنة أو] المراد به العصا [ونصَّ عليها] لأنها أَبهرُها.

٩٧- ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ أي الـمـلأُ ﴿أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾﴾ هو تجهيل لمُتَّبعيه حيث شايعوه على أمره[1] وهو ضلال مبين، وذلك أنه ادَّعى الألوهيةَ وهو بشرٌ مثلُهم، وجاهر بالظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان، وعاينوا الآيات التسع والسلطان المبين وعلموا أنَّ مع موسى الرُّشدَ والحقَّ ثم عدلوا عن اتِّباعه.

٩٨- ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي كيف يَرْشُدُ أمرُ مَنْ هذه عاقبتُه، يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ فيُوردهم النار لا محالة ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ﴾ المَورِدُ ﴿ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ الذي وَرَدُوه.

٩٩- ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ﴾ الدنيا ﴿لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ يُلعنون في الدنيا

---

(١) أي: تابَعوه عليه.

﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا
ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ
لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ
إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ
ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾﴾

ويُلعنون في الآخرة ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ رِفْدُهم، أي بئسَ العونُ المُعانُ.

١٠٠- ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ﴾ ذلك النبأ بعضُ أنباءِ القُرى المُهلَكة مَقصوصٌ عليك ﴿مِنۡهَا﴾ من القرى ﴿قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾﴾ بعضُها باقٍ وبعضُها عافي الأَثرِ[1]، كالزرعِ القائمِ على ساقه والذي حُصِدَ.

١٠١- ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ بارتكاب ما به أُهلِكوا ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ﴾ فما قَدرتْ أن تَرُدَّ عنهم بأسَ الله ﴿ٱلَّتِي يَدۡعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ عذابُه ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾﴾ تخسير، يعني وما أفادتهم عبادة غير الله شيئًا بل أهلكتهم.

١٠٢- ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلَ ذلك الأَخذِ ﴿أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي أهلَها ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ﴾ مُؤلم ﴿شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ صَعبٌ على المأخوذ، وهذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفارِ مكةَ وغيرِها، فعلى كل ظالم أن يبادرَ التوبةَ ولا يغترَّ بالإمهال.

١٠٣- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما قَصَّ الله من قَصصِ الأُمم الهالكة ﴿لَأٓيَةٗ﴾ لَعِبرةً ﴿لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ اعتقدَ صِحَّتَه ووجودَه ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى يوم القيامة ﴿يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ للحساب والثواب والعقاب ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾﴾ يَشهدُ فيه الخلائقُ الموقف، لا يغيب عنه أحد.

---

(١) أي: مُنْدَرِسُ الأَثَر.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ
وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي
ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ﴾

١٠٤- ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي اليومَ المذكورَ ﴿إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾﴾ إلا لتنتهيَ المدةُ التي ضربناها لبقاء الدنيا.

١٠٥- ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ﴾ لا تتكلم ﴿نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ أي لا يشفعُ أحدٌ إلا بإذن الله ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ﴾ مُعذَّب ﴿وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾﴾ أي ومنهم مُنَعَّم.

١٠٦- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾ هو أول نَهِيقِ الحمار ﴿وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ هو ءاخره، [وقيل غير ذلك، والمراد الدلالة على شدة كربهم وغَمِّهم وتشبيهُ صراخهم بأصوات الحمير].

١٠٧- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ مُدَّةَ دوام السماوات والأرض، والمرادُ سماواتُ الآخرة وأرضُها، وهي دائمةٌ مخلوقة للأبد، والدليل على أن لها سماواتٍ وأرضًا قوله: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة إبراهيم] ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ هو استثناءٌ من الخلود في عذاب النار، وذلك لأن أهل النار لا يَخلُدون في عذاب النار وحدَه بل يعذبون بالزَّمْهَرير وأنواعٍ من العذاب سوى عذاب النار [من غير أن يُخفف عنهم العذاب من حيث الإجمال]، أو ما شاء بمعنى مَنْ شاء، وهم قوم يُخرجون من النار ويُدخلون الجنة [وهم فسَّاقُ المسلمين الذين شاء الله تعالى عذابهم] فهؤلاء لم يشقَوا شقاوةَ من يدخل النار على التأبيد ولا سَعِدوا سعادةَ من لا تمسُّهُ النار ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ بالشقي والسعيد.

١٠٨- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ﴾ هو استثناء من الخلود في نعيم الجنة، وذلك أن لهم

﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ۝١٠٨ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم
مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ۝١٠٩ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا
كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ۝١١٠ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ
رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١١١﴾

سوى الجنةِ ما هو أكبرُ منها، وهو رؤيةُ الله تعالى ورضوانه، أو إلا مَنْ شاء أن يعذبه بقدر ذنبه [من عصاة المؤمنين] قبل أن يُدخله الجنة ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ۝١٠٨﴾ غيرَ مقطوع ولكنه ممتدٌّ إلى غير نهاية.

لمَّا قَصَّ اللهُ قِصَصَ عَبدةِ الأوثان، وذكر ما أَحَلَّ بهم من نِقَمِه وما أعدَّ لهم من عذابه قال:

١٠٩- ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ أي فلا تَشكَّ بعد ما أُنزل من هذه القِصَصِ في سوء عاقبة عبادتهم لِمَا أَصابَ أمثالَهم قبلَهم تسليةً لرسول الله ﷺ وعِدَةً بالانتقام منهم ووعيدًا لهم، ثم قال: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾ يريد أنَّ حالَهم في الشرك مثلُ حالِ ءابائهم، وقد بلغكَ ما نزلَ بآبائهم فسينزلُ بهم مثلُه ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ حَظَّهم من العذاب كما وَفَّينا ءاباءَهم أنصباءَهم ﴿غَيۡرَ مَنقُوصٖ ۝١٠٩﴾ كاملًا.

١١٠- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراةَ ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ ءامن به قومٌ وكفر به قومٌ كما اختُلِفَ في القرءان، وهو تسليةٌ لرسول الله ﷺ ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ أنه لا يُعاجِلُهم بالعذاب ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بين قومِ موسى، أو قومِكَ بالعذاب المُستأصِل ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ من القرءان أو من العذاب ﴿مُرِيبٖ ۝١١٠﴾ [موقعٍ في الرِّيبة وهي الاضطرابُ والتُّهَمة].

١١١- ﴿وَإِنَّ كُلّٗا﴾ وإنَّ جميع المختلفين فيه ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ﴾ المعنى وإن جميعهم واللهِ ليوفينَّهم ﴿رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ جزاءَ أعمالِهم من إيمان وجحود وحَسَن وقبيح ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١١١﴾ [عالم ببواطنه

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا
تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ
ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

كظواهره، وهو وعد ووعيد للفريقين].

١١٢- ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ مثلَ الاستقامة التي أُمرتَ بها غيرَ عادل عنها ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ فاستقِم أنت وليستقِم مَن تاب عن الكفر ورجع إلى الله مخلصًا ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ ولا تخرجوا عن حدود الله ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾﴾ فهو مُجازيكم فاتقوه.

١١٣- ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ ولا تَميلوا [والخطاب لغير الرسول ﷺ من أُمته] ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [بمودَّة أو مداهنة أو رضًا بأعمالهم] ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يقدرون على منعكم من عذابه، ولا يقدر على منعكم منه غيره ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ ثم لا ينصركم هو لأنه حَكَمَ بتعذيبكم.

١١٤- ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ غُدْوةً وعَشِيَّةً ﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ وساعاتٍ من الليل، وصلاةُ الغُدوةِ: الفجرُ، وصلاةُ العَشيةِ: الظهرُ والعصرُ، لأن ما بعدَ الزوالِ عَشِيٌّ، وصلاة الزُّلَفِ: المغربُ والعشاء ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ إن الصلواتِ الخمسَ يُذهبنَ الذنوب[1] ﴿ذَٰلِكَ﴾ القرءانُ ﴿ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ عِظَةٌ للمتَّعظين.

١١٥- ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ على امتثال ما أُمرتَ به والانتهاءِ عما نُهيتَ عنه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ جاء بما هو مُشتَمِلٌ على جميع الأوامر والنواهي من قوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ وغيرِ ذلك من الحسنات.

---

(١) أي: سوى الكبائر، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**الصلواتُ الخمس والجمعة إلى الجمعة كفاراتٌ لما بينهن ما لم تُغشَ الكبائرُ**». رواه مسلم، والترمذي، وغيرهما.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ
أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا
يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾

١١٦- ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فهلَّا كان ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ فَضلٍ وخير، يقال: فلانٌ مِن بقيّةِ القوم أي من خيارِهم ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ﴾ ولكنَّ قليلًا ممن أَنجينا من القرون نَهَوا عن الفسادِ وسائرُهم تاركون للنهي ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ التاركون للنهي عن المنكر ﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ مِن حُبِّ الرئاسة والثروة وطلب أسباب العيش الهني، ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونبذوه وراء ظهورهم ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ حكم عليهم بأنهم قوم مجرمون.

١١٧- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾، [ليس من صفة ربك يا محمد أن يُهلك القرى التي أهلكها - التي قَصَّ عليك نبأها - وهو ظالم لها، فالظلم مستحيل في حَقِّ مالك الملك رب العالمين] ﴿وَأَهْلُهَا﴾ قومٌ ﴿مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [مؤمنون، ولكن أهلَكَها بكفر أهلها وتماديهم في غَيِّهم وتكذيبهم رسُلَهم وركوبهم السيئات].

١١٨- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ﴾ متفقين على الإيمان والطاعات عن اختيار، ولكن لم يشأ ذلك ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ في الكفر والإيمان، أي ولكن شاء أن يكونوا مختلفين لِمَا علمَ منهم اختيار ذلك.

١١٩- ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ إلا ناسًا عصَمَهم اللهُ عن الاختلاف فاتَّفَقوا على دين الحق غيرَ مختلفين فيه ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ أي خلقهم للذي عَلِمَ أنهم يصيرون إليه من اختلاف أو اتفاق ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ
فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ
مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ
كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

وهي قوله للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ لعِلمِه بكثرةِ مَن يختارُ الباطل.

١٢٠-﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يا محمد] ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ [الذين كانوا قبلَك] ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ﴾ ومعنى تثبيت فؤاده زيادةُ يقينه، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ في هذه السورة، [أو الأنباء المقتصَّة عليك ما هو حق] ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [أي المؤمنون هم الذين ينتفعون بها].

١٢١- ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من أهلِ مكةَ وغيرِهم ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم وجهتِكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ على مكانتنا [بما أمرنا، وهو وعيد وتهديد لهم].

١٢٢- ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ بنا الدوائرَ ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أن ينزل بكم نحوُ ما اقتصَّ الله تعالى من النِّقَمِ النازلةِ بأشباهكم.

١٢٣- ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا تخفَى عليه خافيةٌ مما يجري فيهما، فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فلا بد أن يرجعَ إليه أَمرُهم وأمرُكَ فينتقمَ لك منهم ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ فإنه كافيكَ وكافِلُكَ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ أنت وهم [فيُجازِي كلًّا بما يستحِقُّه].

سورة يوسف عليه السلام
مكية وهي مائة وإحدى عشرة ءاية شامي، واثنتا عشرة مكي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١- ﴿الٓر﴾(١) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى ءايات هذه السورة، والكتابُ المبين: السورةُ، أي تلك الآياتُ ءاياتُ السورةِ الظاهِرِ أمرُها في إعجاز العرب.

٢- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصةُ يوسفَ عليه السلام في حال كونه قرءانًا عربيًّا ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ لكي تفهموا معانِيَه، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة فصلت].

٣- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ نبيّن لك أَحسنَ البيان، والقاصُّ: الذي يأتي بالقصة على حقيقتها، والمراد أنه اقتُصَّ على أبدع طريقة وأعجب أسلوب، لِمَا يتضمن من العبر والحكم

(١) قال النسفي في تفسيره لأول سورة يونس ﴿الٓر﴾: هو تعديد للحروف على طريق التحدي، [وقيل غير ذلك كما ذكر النسفي عند تفسيره لأول سورة البقرة].

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذۡ قَالَ
يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي
سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ
لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ
نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾

والعجائب ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ بإيحائنا إليك هذه السورةَ ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ عنه، يعني كنت مِن قبل إيحائنا إليك من الجاهلين به.

٤- ﴿إِذۡ قَالَ﴾ اذكُرْ إذ قال ﴿يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعقوبَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ﴾ مِنَ الرؤيا [أي في المنام] لا مِنَ الرؤية ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ هما أبواه، والكواكبُ إخوتُه ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [قال ﴿رَأَيۡتُهُمۡ﴾ ولم يقل (رأيتُها)] لأنه وَصَفَها بما هو المختصُّ بالعقلاء وهو السجود، وكررت الرؤيا لأن الأُولى تتعلق بالذات والثانية بالحال، وكان ابنَ ثِنتَيْ عشرةَ سنةً يومئذ، وكان بين رؤيا يوسفَ ومصيرِ إخوته إليه أربعونَ سنةً، أو ثمانون.

٥- ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ إن قَصَصْتَهَا عليهم كادوك. عَرَفَ يعقوبُ عليه السلام أنَّ اللهَ يصطفيه للنبوة، ويُنعمُ عليه بشَرَف الدارَين، فخاف عليه حَسَدَ الإخوة ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾ ظاهرُ العدواة، فيحمِلُهم على الحَسَد والكيد.

٦- ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلَ ذلك الاجتباء الذي دلَّت عليه رؤياك ﴿يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يَصطفيك ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ يُعلِّمك تأويلَ الرؤيا ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ [بالنبوة والإيحاء] ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ بأن وصلَ لهم نعمةَ الدنيا بنعمة الآخرة، أي جعلَهم أنبياءَ في الدنيا وملوكًا، ونقلَهم عنها إلى الدرجات العُلى في الجنة، وءالُ يعقوب أهلُه وهم

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦ ۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ
وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا
لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾

نَسلُه وغيرُهم ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾ أرادَ الجَدَّ وأبا الجَدِّ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ [فهو الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم السلام] ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ يعلم مَن يَحِقُّ له الاجتباءُ ﴿حَكِيمٞ ۝٦﴾ [فيما حكم له ولأبيه ولإخوته بما حكم].

٧- ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ﴾ في قِصَّتِهم وحديثهم ﴿ءَايَٰتٞ﴾ علاماتٌ ودِلالات على قدرة الله وحِكمته في كل شيء ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ لِمَن سألَ عن قِصَّتهم وعرَفها، أو ءايات على نبوة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب.

٨- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ [شقيقُه بنيامين] ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ قالوا: ﴿وَأَخُوهُ﴾ - وهم إخوتُه أيضًا - لأنَّ أُمَّهما كانت واحدة ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ أي يُفضِّلُهما في المَحبَّة علينا وهما صغيرانِ لا كِفايةَ فيهما ونحنُ عَشَرَةُ رجالٍ كُفاةٍ نقومُ بمَرَافِقِه، فنحن أحقُّ بزيادة المَحبَّة منهما لفضلِنا بالكثرة والمنفعة عليهما ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ غَلَطٍ في تدبيرِ أَمرِ الدنيا، ولو وَصَفوه بالضلالة في الدين لكفروا، [بل لو أرادوا ذمَّهُ وتسفيهه ولو في أمور الدنيا وهو نبي من أنبياء الله الذين أخبرنا الله أنه فضَّلهم على العالمين وأمرنا بتعظيمهم فهو كفر أيضًا، ولعل مرادَه أنه كان عندهم باللغة التي عبَّروا بها يحتمل هذا اللفظ معنيين أحدهما: التحقير والتسفيه، والثاني: مجرد الخطإ في أمر من أمور الدنيا، و﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى ظاهر، ولم يقصدوا الضلال الذي هو ضد الهدى ولا الطعن به وذمَّه إنما فقط وصفَ الحال بأنه مخطئ في أمر من أمور الدنيا فلم يَكفُروا على هذا التقدير، وإلا فبحسب الظاهر هذا طعن شديد بأبيهم نبي الله المُشَرَّف عند الله تعالى وفيه تسفيهٌ وتجهيل له عليه

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ
قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾

السلام، والطعنُ بالأنبياء وتسفيهُهم كفر صريح، نقل الطبري وأبو حيان الأندلسي عن قتادة أنه قال عنهم: قالوا لوالدهم كلمةً غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله ﷺ].

٩- ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ كأنهم أطبقوا على ذلك إلا مَن قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾، وقيل: الآمِرُ بالقتل شمعون، والباقون كانوا راضين فجُعلوا ءامرين ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ مَنكورةً مجهولةً بعيدة عن العمران ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يُقبلْ عليكم إقبالةً واحدة لا يَلتفتْ عنكم إلى غيركم ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعدِ يوسفَ، أي مِن بعدِ كفايتهِ بالقتل أو التغريب، أو مِن بعدِ قتلهِ أو طرحِه ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ تائبين إلى الله مما جنَيتم [أرادوا نفعلُ بيوسفَ ما نفعل ثم نتوب إلى الله]، أو يَصلُحُ حالُكم عند أبيكم [وقتل الصبي الصغير أو رميه في أرض منكورة مهجورة وحيدًا أو رميه في البئر من أخبث المعاصي والفجور ولو كان الصبي غريبًا، فكيف إذا كان هذا الصبيُّ أخاهم، وكيف إذا كان والدُ الصبي الذي فَجَعُوه بما فعلوا بابنه وكادوه به هو أباهم، وكيف إذا كان نبيَّ الله تعالى المُشَرَّفَ الذي أُمروا بتعظيمه وتوقيره والائتمار بأمره].

١٠- ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو يهوذا ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ فإن القتلَ عظيمٌ ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ في قَعرِ البئر وما غابَ منه عن عين الناظر ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ بعضُ الأَقوامِ الذين يسيرون في الطريق ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ به شيئًا.

١١- ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾ أي لِمَ تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونُشفق عليه، وأرادوا بذلك لمَّا عزموا على كيد يوسفَ استنزالَه عن رأيه وعادتِه في حِفظه منهم، وفيه

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾

دليل على أنه أَحسَّ منهم ما أوجبَ ألّا يأمَنَهم عليه.

١٢- ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ﴾ [يَتَّسِعْ] في أكل الفواكه وغيرها، والرَّتْعَةُ: السَّعَة ﴿وَيَلْعَبْ﴾ [يَتفرَّجْ] بما يُباحُ كالصيد والرمي والركض. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ من أن يناله مكروه.

١٣- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي يَحزُنني ذهابُكم به ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ اعتذَرَ إليهم بأنَّ ذهابَهم به مما يُحزنه، لأنه كان لا يَصبرُ عنه ساعةً، وأنه يخاف عليه من عَدْوَةِ الذئبِ إذا غَفَلوا عنه برعيهم ولَعِبهم.

١٤- ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ فِرقةٌ مجتمعة مقتَدِرة على الدفع ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي إن لم نقدِرْ على حِفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذًا وخسرناها، وأجابوا عن عُذره الثاني دون الأول لأن ذلك كان يَغيظهم.

١٥- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ عَزَموا على إلقائه في البئر، وهي بئر على ثلاثة فراسخَ من منزل يعقوب عليه السلام، رُويَ أنهم لمَّا بَرزوا به إلى البرِّية أظهروا له العداوةَ وضربوه وكادوا يقتلونه فمنعهم يهوذا، فلمَّا أرادوا إلقاءَهُ في الجُبِّ تعلَّقَ بثيابهم فنزعوها من يده، فتعلَّق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليُلَطِّخوه بالدم فيحتالوا به على أبيهم، ودلَّوه في البئر وكان فيها ماء فسقط فيه، ثم أَوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي، وكان يهوذا يأتيه بالطعام ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ قيل: أُوحِيَ إليه في الصِّغَرِ كما أُوحي إلى يحيى

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

وعيسى عليه السلام، وقيل: كان إذ ذاك مُدرِكًا ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي لتُحَدِّثَن إخوتَك بما فعلوا بك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أنك يوسفُ لعُلوّ شأنِكَ وكبرياء سُلطانك.

١٦- ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ للاستتار والتَّجَسُّر[١] على الاعتذار ﴿يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ فلمَّا سمعَ صوتَهم فَزِعَ وقال: ما لكم يا بَنيَّ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما بالكم وأين يوسفُ؟

١٧- ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ نتسابقُ في العَدْوِ أو في الرمي ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ بمُصَدِّق لنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ ولو كنا عندكَ [مِن قَبْلُ في غير هذا] من أهل الصدق والثقة، فكيف وأنت غيرُ واثق بقولنا.

١٨- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ﴾ ذي كَذِبٍ، روي أنهم ذبحوا سَخلة[٢] ولَطَّخوا القميصَ بدمِها، وزلَّ عنهم أن يُمزِّقوه، ورويَ أن يعقوبَ عليه السلام لمَّا سمع بخبر يوسُفَ صاح بأعلى صوته وقال: أين القميصُ؟ فأخذه وقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلَمَ من هذا، أكل ابني ولم يُمزِّق عليه قميصَه ﴿قَالَ﴾ يعقوبُ عليه السلام ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ زَيَّنت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ﴾ عظيمًا ارتكبتموه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾ فأمري صبرٌ جميل، وهو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي أستعينه ﴿عَلَىٰ﴾ احتمال ﴿مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ من هلاك يوسفَ، والصَّبرِ

---

(١) التَّجَسُّر: التَّجَرُّؤ.
(٢) السخلة: ولد الشاة.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

على الرُّزْءِ[١] فيه.

١٩- ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رُفقةٌ تسير من قِبَل مدين إلى مصر، وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسفَ في الجُبّ، فأخطأوا الطريق فنزلوا قريبًا منه، وكان الجُبُّ في قَفْرَةٍ[٢] بعيدة من العمران، وكان ماؤه مِلْحًا فَعَذُبَ حين أُلقي فيه يوسفُ ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ هو الذي يَرِدُ الماءَ ليستقيَ للقوم، اسمُه مالكُ بنُ ذُعْرٍ الخُزاعيُّ ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أرسلَ الدلوَ ليملأَها فتشبَّث يوسفُ بالدلو فنزعوه ﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ﴾ نادى البُشرى كأنه يقول: تعالَي فهذا أَوانُكِ ﴿هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾ قيل: ذهب به فلمَّا دنا من أصحابه صاحَ بذلك يُبشرهم به ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ الضمير للوارد وأصحابه أَخفَوه من الرُّفقة، أو لإخوة يوسف فإنهم قالوا للرُّفقة: هذا غلام لنا قد أَبَقَ فاشترُوه منا، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ﴿بِضَـٰعَةً﴾ مَتاعًا للتجارة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ بما يعمل إخوةُ يوسفَ بأبيهم وأخيهم من سوء الصَّنيع.

٢٠- ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وباعوه ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ مَبْخُوسٍ ناقصٍ عن القيمة نُقْصانًا ظاهرًا ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قليلةٍ تُعَدُّ عَدًّا ولا توزن، لأنهم كانوا يَعُدُّون ما دون الأربعين، ويَزِنون الأربعينَ وما فوقها، وكانت عشرين درهمًا ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ ممن يرغَبُ عمَّا في يده فيبيعُه بالثمن الطفيف، أو معنى ﴿وَشَرَوْهُ﴾: واشتروه - يعني الرُّفقةَ - من إخوته، وكانوا فيه من الزاهدين أي غير راغبين لأنهم اعتقدوا أنه ءابِقٌ، ويروى أن إخوته اتَّبعوهم وقالوا: استوثِقوا منه[٣] لا يأبِقُ.

---

(١) الرَّزِيَّة: المصيبة والجمع: رزايا، والاسم: الرُّزْءُ مثال قُفْل.
(٢) القَفْرُ والقَفْرةُ: الخلاء من الأرض.
(٣) أي: شدُّوا عليه الوَثاق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

٢١- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ هو قِطفِيرُ وهو العزيزُ الذي كان على خزائنِ مصرَ، والمَلِكُ يومئذ الرَّيّانُ بنُ الوليد، وقد ءامنَ بيوسفَ وماتَ في حياته، واشتراه العزيز بزِنَتِه وَرِقًا[1] وحريرًا ومِسكًا وهو ابنُ سبعَ عَشرةَ سنةً، وأقام في منزله ثلاثَ عشرةَ سنةً، واستوْزَره الريَّانُ بنُ الوليد وهو ابنُ ثلاثينَ سنةً، وءاتاهُ اللهُ الحِكمةَ والعِلمَ وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثينَ سنة، وتوفي وهو ابن مائةٍ وعشرينَ سنة ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ راعِيلَ أو زَلِيخا ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ اجعلي منزلَهُ ومُقامَه عندنا كريمًا، أي حَسَنًا مرضيًّا ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ لعله إذا تدرب وراضَ الأمورَ وفهِمَ مجارِيَها نستظهرُ به على بعض ما نحن بسبيله ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ أو نتبنّاه ونُقيمَهُ مُقامَ الولد، وكان قطفيرُ عقيمًا وقد تَفرَّسَ فيه الرُّشْدَ فقال ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ كما أنجيناه وعَطَّفنا عليه قلبَ العزيز، كذلك مكنّا له ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مصرَ وجعلناه مَلِكًا يَتَصرَّفُ فيها بأمره ونهيه ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ كان ذلك الإنجاءُ والتمكين ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا يُمْنَعُ عمَّا يشاءُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ ذلك.

٢٢- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ مُنتهى اشتدادِ قُوته، وهو ثماني عشرةَ سنةً، أو إحدى وعشرون، [وروي عن ابن عباس: ثلاث وثلاثون] ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ حِكمةً وهو العِلمُ مع العمل واجتنابِ ما يُجَهَّلُ فيه ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ تنبيهٌ على أنه كان مُحْسِنًا في عمله متّقيًا في عُنفوانِ أمره[2].

---

(١) الوَرِقُ: الفضة.

(٢) أي: في أوَّلِه وريَعان شبابِه.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾

٢٣- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي طلبَتْ من يوسفَ أن يواقِعَها، كأن المعنى: خادعته عن نفسه أي فعلت فعلَ المخادعِ لصاحبه عن الشيء الذي لا يريدُ أن يُخرجَه من يده ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ وكانت سبعةً ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ تعالَ وأقبلْ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أعوذُ بالله ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ سَيِّدي ومالكي [أي صورةً][1] يريد قطفيرَ ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ حين قال لك: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾، فما جزاؤه أن أخونَه في أهله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ الخائنون، أو الزُّناة، أو أراد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ اللهَ تعالى لأنه مسبِّب الأسباب.

٢٤- ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ هَمَّ عَزْم [على الفاحشة] ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [هَمَّ دفعٍ، لكن الله عصمه فلم يَهُمَّ] وقيل: وَهَمَّ بها هَمَّ خَطْرةٍ[2]، ولا صُنعَ للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذة عليه ولو كان همُّه كهمِّها لما مَدَحَه الله تعالى بأنه من عباده المخلَصين. وجواب: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ محذوفٌ، أو على التقديم والتأخير، أي ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، [يدلُّ عليه ما قبلَه، أي فلم يحصل منه هَمٌّ بالزنا لأن الله أراهُ برهانَه، والبرهان هو العصمة، وقيل: هو العلم الدالُّ على تحريم ما حرَّمه الله، وقيل: ما أوقعه الله تعالى في قلبه من أنه إذا دفعها

---

(١) لأن سيدنا يوسف عليه السلام لم يزل حرًّا شريفًا نسيبًا ولو كان بحسب الظاهر مِلكًا لقطفير، واستبعد أبو حيان هذا التفسير وقال عنه: ويبعد جدًّا إذ لا يُطلق نبيٌّ كريم على مخلوق أنه ربُّهُ، ولا بمعنى السيد، لأنه لم يكن في الحقيقة مملوكًا له، وقال: الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ الأصح أنه يعود على الله تعالى، أي: إن الله ربي أحسن مثواي إذ نجَّاني من الجُبِّ وأقامني في أحسن مقام.

(٢) أي: الخطور في القلب بلا إرادة.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾

لإبعادها عنه ستزعم أنه أراد بدفعها إجبارَها على الفاحشة فلم يدفعها بل أدار ظهره إليها وتوجَّه نحو الباب]. وقد سَمّاه الله مخلصًا، فعُلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولي العزم ناظرًا في دلائل التحريم حتى استحقَّ من الله الثناء ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثلَ ذلك التثبيت ثبَّتناه ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ خيانةَ السيّد ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ الزنا ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ الذين أَخلَصهم الله لطاعته.

٢٥- ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ فأسرع يريدُ الباب ليخرجَ وأسرعت وراءَهُ لتمنعه الخروجَ ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ انشقَّ حين هرب[(١)] منها إلى الباب وتبعته تمنعه ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ وصادفا بَعْلَها قِطفيرَ مُقبلًا يريد أن يدخل، فلمَّا رأته احتالت لتبرئةِ ساحتِها عند زوجها من الرِّيبة، ولتخويف يوسفَ طمعًا في أن يواطِئَها خيفةً منها ومن مَكرها حيث ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ وهو الضربُ بالسِّياط، ولم تُصَرِّح بذكر يوسفَ وأنه أراد بها سوءًا [ليكونَ] ذلك أبلغَ فيما قصدت من تخويف يوسف.

لمَّا عَرَّضته للسجن والعذاب ووجبَ عليه الدفعُ عن نفسه.

٢٦- ٢٧- ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ ولولا ذلك لكَتَمَ عليها ولم يفضَحْها ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ هو ابنُ عمّ لها، وإنما أَلقَى اللهُ الشهادة على لسان مَن هو مِن أهلها لتكونَ أَوجبَ للحُجة عليها وأوثقَ لبَراءة يوسفَ، وقيل: كان ابنَ خال لها وكان صبيًّا في المهد، وسَمَّى

---

(١) هَرَبَ هنا مدحٌ له عليه السلام وليس ذمًّا، لأنه هروب مما لا يرضي الله تعالى وهو هروب ممدوح ليس مذمومًا.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن
دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ
كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ
ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا﴾

قولَه شهادةً لأنه أَدَّى مؤدَّى الشهادة في أَنْ ثبت به قولُ يوسفَ وبطلَ قولُها ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦﴾ لأنه يُقبِلُ عليها وهي تدفعه عن نفسها فيتخرَّقُ قميصُه من قُبُل ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾ [لأنه يدلُّ على أنه كان هاربًا منها].

٢٨- ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ قِطفيرُ ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾ وعلم براءة يوسف وصِدْقَه وكَذِبَها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ إن قولك: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾، أو إنَّ هذا الأمر وهو الاحتيالُ لنَيل الرجال ﴿مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ [من احتيالكن، و] الخطاب لها ولأُمَّتِها، [أو لها ولأمثالها] ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [أي عظيم الضرر]، لأنهن ألطف كيدًا وأعظم حيلة، وبذلك يَغلبنَ الرجال.

٢٩- ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ الأمر واكتُمه ولا تتحدث به، [والقائل هو قطفير أو الشاهد، وفي مناداته باسمه] تقريب له وتلطيف لِمَحَلِّه ثم قال لراعيل: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ من جملة القوم المتعمِّدين للذنب. يقال: خَطِئَ إذا أذنبَ متعمدًا، وكان العزيز رجلًا حليمًا حيث اقتصر على هذا القول.

٣٠- ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ﴾ جماعة من النساء وكُنَّ خمسًا: امرأةُ الساقي وامرأة الخبّاز وامرأة صاحب الدوابّ وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب ﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ في مِصرَ ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ والعزيز: المَلِكُ بلسان العرب ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ غلامَها ﴿عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ لتنالَ شهوتَها منه ﴿قَدۡ شَغَفَهَا

﴿حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ
كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا
هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿حُبًّا﴾ خَرقَ حُبُّه شَغافَ قلبِها حتى وصلَ إلى الفؤاد، والشَّغافُ: جلدةٌ رقيقة يقال لها لسان القلب ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ في خطأ وبُعْدٍ عن طريق الصواب.

٣١- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ راعيلُ ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهن ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ دعتهن، قيل: دعت أربعين امرأة، منهن الخمسُ المذكورات ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ وهيَّأَت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ ما يتَّكئنَ عليه من نَمارقَ(١)، قصدت بتلك الهيئة - وهي قعودُهُنَّ متكئاتٍ والسكاكينُ في أيديهن - أن يَدْهَشْنَ عند رؤيته ويُشغَلْنَ عن نفوسهن، فتقعُ أيديهن على أيديهن فيقطِّعْنَها، لأن المتكئَ إذا بُهت لشيء وقعت يدُه على يدِه ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وكانوا لا يأكلون في ذلك الزمان إلا بالسكاكين كفِعلِ الأعاجم ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أَعظَمْنَه، وكان فضلُ يوسفَ على الناس في الحُسن كفضل القمر ليلةَ البدر على نجوم السماء، وكان إذا سار في أَزِقَّةِ مصرَ يُرى تلألؤُ وجهه على الجدران، وكان يُشبه ءادمَ يوم خلقَه رَبُّه ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وجَرَحْنَها، أي أردن أن يقطعنَ الطعام الذي في أيديهن فدَهِشْنَ لمَّا رأينه فخدشنَ أيديَهن ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ المعنى تنزيهُ الله عن صفات العجز، والتعجب من قدرته تعالى على خلق جميل مثله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ نَفَيْنَ عنه البَشَرية لغرابة جماله وأثبتن له المَلَكية وبَتَتْنَ بها الحكمَ لِمَا رَكَزَ في الطباع أن لا أَحْسَنَ من المَلَك كما ركزَ فيها أن لا أقبحَ من الشيطان.

---

(١) النمارق: الوسائد، واحدتها: نُمْرُقَة، وقيل: هي الوسادةُ الصغيرة.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ
لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ
عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

٣٢- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تقول: هو ذلك العبد الكنعاني الذي صَورتُنَّ في أنفسكن ثم لُمتنني في الافتتان به، [ثم اعترفت بأنها راودته عن نفسه فقالت:] ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ والاستعصامُ يدل على الامتناع البليغ، وهذا بيان جَليٌّ على أن يوسف عليه السلام بريء مما فَسَّرَ به بعضُهم الهَمَّ والبرهانَ مما هو خلاف عصمة الأنبياء عليهم السلام، ثم قلن له: أطع مولاتَك، فقالت راعيل: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ ولئن لم يفعل موجبَ أمري ومقتضاه ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ ليحبَسَنَّ ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [أي الأذِلاء] مع السُّرَّاق والسُّفاك.

فلما سمع يوسفُ تهديدَها:

٣٣- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أَسندَ الدعوةَ إليهن لأنهن قُلنَ له: ما عليكَ لو أجبتَ مولاتَك، أو افتُتِنَت كلُّ واحدة به فدعته إلى نفسها سِرًّا فالتجأ إلى ربِّه، وقال: ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ من رُكوب المعصية ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ فَزَعٌ منه إلى الله في طلب العصمة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَمِلْ إليهن، والصَّبْوَةُ: الميل إلى الهوى، ومنه الصَّبا[1] لأَنَّ النفوس تصبو إليها لطيب نَسيمِها وَرَوحها ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ من الذين لا يعملون بما يعلمون.

٣٤- ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أجابَ اللهُ دعاءَه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ بحاله وحالهن.

---

(١) الصبا: ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار، ومقابلتها الدبور.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ
أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ
مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا
بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾

٣٥- ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ ظهرَ لهم رأيٌ [أي] للعزيز وأَهلِه ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ وهي الشواهدُ على براءته كَقَدِّ القميص وشهادة الصبي وغير ذلك ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ لإرخاء السِّترِ على القيل والقال، وما كان ذلك إلا باستنزالِ المرأة لزوجها، وكان مِطواعًا لها، زِمامُه في يدِها، وقد طَمِعت أن يُذلِّله السجنُ ويُسخِّره لها ﴿حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ إلى زمان، كأنها اقترحت أن يُسجن زمانًا حتى تُبصِرَ ما يكون منه.

٣٦- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ عَبدَان للملك خبَّازُه وشَرَابِيُّهُ(١) بتُهمَة السَّمِّ، فأُدخلا السجن ساعةَ أُدخلَ يوسفُ ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ أي شَرابِيُّهُ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ في المنام ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ عنبًا، تسميةٌ للعنب بما يؤول إليه ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ أي خَبَّازُه ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ بتأويل ما رأيناه ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ من الذين يُحسنون عِبارةَ الرؤيا.

٣٧- ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ ببيان ماهِيَّتِه وكيفيته، لأن ذلك يشبه تفسير المشكل ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ لـمَّا استَعْبَراه(٢) ووصفاه بالإحسان افترصَ(٣) ذلك فوصل به وَصْفَ نفسِه بما هو فوق علم العلماء وهو الإخبار بالغيب، وأنه يُنَبِّئهما بما يُحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ويقول يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيكون كذلك وجعل ذلك تَخَلُّصًا إلى أن

---

(١) نسبة إلى الشَّراب، أي: ساقِيه الشَّراب.
(٢) استَعْبَراه: طلبا منه تعبيرَ الرؤيا.
(٣) افترصَ ذلك: اتخذه فرصةً.

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾

يذكرَ لهما التوحيدَ ويعرضَ عليهما الإيمان ويُزينَه لهما ويُقبّح إليهما الشرك، وفيه أن العالم إذا جُهلت منزلتُه في العلم فوصفَ نفسَه بما هو بصدده - وغرضُه أن يُقتبَسَ منه [ويُنتفعَ به في الدين] - لم يكن من باب التزكية ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ إشارة لهما إلى التأويل، أي ذلك التأويل والإخبارُ بالمُغيَّبات ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ وأَوحَى به إليَّ ولم أَقُله عن تكهُّن وتنجُّم ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ علَّمني ذلك وأوحى به إليَّ لأني رفضت مِلَّةَ أولئك، وهم أهل مصر ومن كان الفَتيَانِ على دينهم. وتكرير «هم» للتوكيد.

٣٨- ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ وهي المِلَّةُ الحنيفيةُ، وذَكَرَ الآبَاءَ ليريَهما أنه من بيتِ النبوةِ بعد أن عرَّفَهما أنه نبي بما ذَكرَ من إخباره بالغيوب ليُقوّيَ رغبتَهما في اتباع قوله، والمراد بقوله: ﴿تَرَكۡتُ﴾ التركُ ابتداءً لا أنه كان فيه ثم تركَه ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ ما صحَّ لنا مَعشرَ الأنبياء ﴿أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ أيّ شيءٍ كان صَنمًا أو غيره، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيدُ ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾ فضلَ الله، فيُشرِكون به ولا ينتهون.

٣٩- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ يا ساكِنَي السجنِ ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ أي أن تكون أربابٌ شتَّى؛ يستعبدُكما هذا ويستعبدكما هذا خير لكما أم يكون لكما ربٌّ واحدٌ قهار لا يُغالَبُ ولا يشارَكُ في الربوبية؟ [وهو استفهام بمعنى النفي].

٤٠- ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ خطابٌ لهما ولمن كان على دينهما من أهل مصر ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دون الله ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ سميتم

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا
ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي
ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي
ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ
وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ﴾

ما لا يستحقُّ الإلهية ءالهةً، ثم طَفِقْتم تعبدونها، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماءً لا مُسَمَّياتِ لها ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ بتسميتها [ءالهةً وعبادتها] ﴿مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ حجة ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ في أمر العبادة والدين ﴿إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ ثم بين ما حَكَمَ به فقال: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ الثابت الذي دلَّت عليه البراهينُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [لا يتفكَّرون فيه ولا ينظرون فلا يعلمون].

ثم عَبَرَ الرؤيا فقال:

٤١- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ يريد الشَّرَابيَّ ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ﴾ سَيِّده ﴿خَمۡرٗاۖ﴾ أي يعودُ إلى عمله ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ﴾ أي الخبّازُ ﴿فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ ولمَّا سَمِعَ الخبّازُ صَلْبَه قال: ما رأيت شيئًا، فقال يوسف: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ قُطِعَ وتَمَّ ما تستفتيان فيه من أَمرِكما وشأنكما.

٤٢- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾ الظانُّ هو يوسفُ، والظَّنُّ [هنا] بمعنى اليقين، [لأن تأويلَه الرؤيا كان بطريق الوحي] ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ صِفني عند الملك بصفتي، وقُصَّ عليه قصتي لعله يرحَمُني ويُخلِّصُني من هذه الورطة ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فأنسَى [الشيطانُ] الشرابيَّ ﴿ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ أن يذكُرَهُ لِربِّه ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ سَبعًا عند الجمهور، والبِضْعُ: ما بين الثلاث إلى التسع.

٤٣- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ﴾ لمَّا دنا فَرَجُ يوسفَ رأى مَلِكُ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾

مصرَ الريّانُ بن الوليد رؤيا عجيبةً هالته، رأى سبعَ بقرات سِمانٍ خرجنَ من نهر يابس وسبعَ بقرات عِجافٍ، فابتلعتِ العِجافُ السِّمانَ، ورأى سبعَ سُنبلات خضرٍ قد انعقد حَبُّها، وسبعًا أُخَرَ يابساتٍ قد استَحْصَدت[1] وأدركَت، فالْتَوَتِ اليابساتُ على الخضر حتى غَلَبْنَ عليها [فلم يبق من خُضرتها شيء]، فاستعبَرَها فلم يجدْ في قومه من يُحسنُ عِبارَتَها. سمانٌ: جمعُ سَمينٍ وسمينة، والعِجافُ: المَهازيلُ، والعَجَفُ: الهُزالُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾ كأنه أرادَ الأعيانَ من العلماء والحكماء ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

٤٤- ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ هي أَضغاثُ أحلام، أي تخاليطُها وأباطيلُها وما يكون منها من حديثِ نفسٍ أو وَسْوَسةِ شيطان ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أرادوا بالأحلام المناماتِ الباطلةَ، فقالوا: ليس لها عندنا تأويلٌ إنما التأويل للمنامات الصحيحة، أو اعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بخابرين.

٤٥- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا﴾ من القتل ﴿مِنۡهُمَا﴾ من صاحِبَي السجنِ ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ تذكَّرَ يوسفَ وما شاهد منه ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ بعدَ مُدةٍ طويلة، وذلك أنه حين استفتَى المَلِكُ في رؤياه وأَعْضَلَ على الملأ تأويلُها، تذكَّرَ الناجي يوسفَ وتأويلَه رؤياه ورؤيا صاحِبِهِ وطلبَه إليه أن يَذكُرَه عندَ المَلِك ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أنا أُخبركم بهِ عَمَّنْ عنده عِلمُه ﴿فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ فابعثوني إليه لأسأله، فأرسَلوه إلى يوسف فأتاه، فقال:

٤٦- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أيها البليغُ في الصِّدق، وإنما قال له ذلك

---

(١) استَحْصَدت: دنا وقتُ حصادِها.

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾

لأنه ذاقَ أَحوالَه وتعرَّفَ صِدقَه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحِبه حيث جاء كما أوَّل ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ إلى المَلِكِ وأتباعِه ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ فضلَكَ ومكانَكَ من العلم فيطلبوك ويُخَلِّصوك من مِحنَتِك.

٤٧- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ [متتابعة] خبرٌ في معنى الأَمرِ ﴿دَأَبًا﴾ دائبين [على عادتكم بجِدٍّ] ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ كي لا يَأكُلَهُ السُّوسُ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ في تلك السنين [أي تُخرجون منه بقدر الحاجة].

٤٨- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [أي سبع سنين مُجدِبة، فيها الضيقُ والشدة] ﴿يَأْكُلْنَ﴾ هو من الإسناد المجازي، جَعَلَ أَكْلَ أهلهن مُسندًا إليهن ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ في السنينَ المُخْصِبة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ تُحرِزون وتُخَبِّئون.

٤٩- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ أي من بعدِ أربعَ عَشْرَةَ سنةً عامٌ ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ من الغوث أي يُجابُ مستغيثهم، أو من الغَيث أي يُمطرون ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ العنبَ والزيتونَ والسِّمْسِمَ فيتخذون الأشربةَ والأدهان، فأوَّلَ البقراتِ السِّمَانَ والسنبلاتِ الخُضْرَ بسنينَ مخاصيبَ، والعجافَ واليابسات بسنينَ مُجْدِبَةٍ، ثم بَشَّرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأنَّ العام الثامنَ يجيء مباركًا كثيرَ الخير غزيرَ النِّعَم، وذلك من جهة الوحي.

٥٠- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ ليخرجَهُ من السجن

﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ
عَلِيمٞ ۝٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن
سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾

﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي المَلِكِ ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ أي حالُ النسوة ﴿ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ إنما تَثبَّت يوسفُ وتأنَّى في إجابة الملك وقدَّمَ سؤالَ النسوة ليُظهِرَ براءةَ ساحتهِ عمّا رُمي به وسُجن فيه، لئلا يتسَلَّقَ به الحاسدون إلى تقبيحِ أَمرِه عنده ويجعلوه سُلَّمًا إلى حَطِّ منزلته لديه، ولئلا يقولوا: ما خُلِّدَ في السجن سبعَ سنين إلا لأمر عظيم وجُرم كبير، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التُّهَم واجبٌ وجوبَ اتِّقاء الوقوف في مواقفها ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠﴾ أي إنَّ كيدَهُنَّ عظيم لا يعلمه إلا الله، وهو مُجازيهن عليه.

فرجعَ الرسولُ إلى المَلِك من عند يوسف برسالته، فدعا المَلِك النسوةَ المُقطِّعات أيديَهن ودعا امرأةَ العزيز، ثم:

٥١- ﴿قَالَ﴾ لهن: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ ما شأنكن ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ هل وَجدتنَّ منه ميلًا إليكن ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تعجُّبًا من قدرتهِ على خَلْقِ عفيفٍ مِثلهِ ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ ذنب ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ ظهرَ واستقرَّ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ ولا مزيدَ على شهادتهن له للبراءة والنزاهة، واعترافِهن على أنفسهن بأنه لم يتعلَّق بشيء مما قُذف به.

ثم رجع الرسول إلى يوسفَ وأَخبره بكلام النسوةِ وإقرار امرأةِ العزيز وشهادتها على نفسها، فقال يوسفُ:

٥٢- ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي امتناعي من الخروج والتثبتُّ لظهور البراءة ﴿لِيَعۡلَمَ﴾

﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا
كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

العزيزُ ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب في حُرْمَتِهِ، أو ليعلمَ المَلِك أني لم أخن العزيز ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ وليعلَم أن الله ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ لا يُسَدِّدُه، وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانةَ زوجها.

ثم أراد أن يتواضعَ لله ويهضِم نفسَه لئلا يكونَ لها مُزَكِّيًا، وليُبينَ أن ما فيه من الأمانة بتوفيق الله وعصمته فقال:

٥٣- ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ من الزَّلَل ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أرادَ الجنس، أي إن هذا الجنسَ يأمرُ بالسوء ويحمل عليه لِمَا فيه من الشهوات ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إلا الذي رحمه ربي بالعصمة، وقيل: هو من كلام امرأة العزيز، أي ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغَيبة، وجئت بالصدق فيما سُئلت عنه، وما أُبرىء نفسي مع ذلك من الخيانة، فإني قد خنته حين قذفته وقلت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾، وأودعته السجن، تريد الاعتذار مما كان منها، إنَّ كلَّ نفس لأمّارةٌ بالسوء إلا مَن رحم ربي إلا نفسًا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ استغفرَت ربها واسترحمته مما ارتكبت.

٥٤- ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أجعَلْهُ خالصًا لنفسي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ وشاهد منه ما لم يحتَسِبْ ﴿قَالَ﴾ المَلِك ليوسف: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة، ﴿أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ مؤتمَنٌ على كل شيء، روي أن الرسولَ جاءه فقال: أَجبِ المَلِكَ، فخرج من السجن ودعا لأهله، ثم اغتسل ولبس ثيابًا جُدُدًا، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم سَلَّم عليه ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان ءابائي،

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾

فتعجب منه وقال: أيها الصِّدِّيق إني أحب أن أسمع رؤياي منك، قال: رأيتَ بقراتٍ فوصفَ لونَهن وأحوالهن ومكانَ خروجِهن ووصفَ السنابلَ وما كان منها على الهيئة التي رءاها الملك، وقال له: من حَقِّكَ أن تجمعَ الطعام في الأهراء(١)، فيأتيكَ الخلقُ من النواحي ويمتارون منك، ويجتمعُ لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك، قال المَلِك: ومن لي بهذا، ومن يجمعه؟

٥٥- ﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ﴾ ولِّني على خزائن أرضك، يعني مصرَ ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ أمين أحفظ ما تستحفظُنيه ﴿عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ عالم بوجوه التصرف. وصفَ نفسَه بالأمانة والكفاية وهما طِلبةُ الملوك ممن يُوَلُّونه، وإنما قال ذلك ليَتوصَّلَ إلى إمضاءِ أحكام الله وإقامة الحق وبسط العدل والتمكُّن مما لأجله بُعث الأنبياء إلى العباد، ولعِلمه أنَّ أحدًا غيرَهُ لا يقومُ مَقامَه في ذلك، فطلبه ابتغاءَ وجهِ الله لا لِحُبِّ المُلك والدنيا. قالوا: وفيه دليل على أنه يجوز أن يتولَّى الإنسان عَمالةً من يد سلطان جائر، وقد كان السلف يتولَّون القضاء من جهة الظلَمة.

٥٦- ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلَ ذلك التمكين الظاهر ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مصرَ ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ﴾ إذ كلُّ مكان أرادَ أن يتخذه منزلًا لم يُمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخولها تحت سلطانه ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بعطائنا في الدنيا من المُلك والغِنى وغيرهما من النِّعَم ﴿مَن نَّشَآءُۖ﴾ [مَن نشاء مِن خلقنا كما أصبناها يوسف عليه السلام] ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [يعني الصابرين، أي] في الدنيا [كما لم نُضِعْ أجرَ يوسف].

---

(١) الأهراءُ: جمع هُرِيّ بالضَّم وكسر الرّاء وتشديد الياء، وهو بيت كبير يجمع فيه السلطانُ الطعام.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾

٥٧- ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ [أي الجنة وثوابها] ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يريد يوسفَ وغيره من المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ الشرك والفواحش.

ورُوي أنه باعَ مِن أهلِ مصرَ في سِنِي القحط الطعامَ بالدراهم والدنانير في السنة الأولى حتى لم يبقَ معهم شيء منها، ثم بالحُلِيّ والجواهر في الثانية، ثم بالدَّوابِّ في الثالثة، ثم بالعبيد والإماء في الرابعة ، ثم بالدُّور والعَقار في الخامسة، ثم بأولادِهم في السادسة، ثم برقابهم في السابعة حتى استَرَقَّهم جميعًا[1]، ثم أعتق أهل مصر عن ءاخرهم وردَّ عليهم أملاكَهم، وكان لا يبيع لأحد من الممتارين[2] أكثر من حِمل بعير تقسيطًا بين الناس، وأصابَ أرضَ كنعانَ نحوُ ما أصابَ مصرَ فأرسل يعقوبُ بَنيه ليمتاروا، وذلك قوله:

٥٨- ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ بلا تعريف ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ لتبدُّلِ الزِّيّ، ولأنه كان من وراء الحجاب، ولطولِ المدة وهي أربعونَ سنة، وروي أنه لَمَّا رءاهم وكلموه بالعِبرانية قال لهم: أخبروني مَن أنتم وما شأنكم؟ قالوا: نحن قومٌ من أهلِ الشام رُعاةٌ، أصابَنا الجَهْدُ فجئنا نمتارُ، فقال: لعلَّكم جئتم عيونًا تنظرون عورةَ بلادي؟ فقالوا: معاذَ اللهِ نحن بنو نبيّ حزينٍ لفَقدِ ابنٍ كان أَحبَّنا إليه، وقد أمسكَ أخًا له من أُمِّهِ يستأنسُ به، فقال: ائتوني به إن صَدَقْتُم.

٥٩- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أعطى كُلَّ واحد منهم حِملَ بعير

---

(١) وكانوا كفارًا.

(٢) المُمتار: طالبُ المِيرة، أي: الطعام.

﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي
بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ
ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا
رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾

﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أُتِمُّه ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ كان قد أحسنَ إنزالَهم وضيافَتهم، رَغَّبَهم بهذا الكلام على الرجوع إليه.

٦٠- ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ فلا أَبيعُكم طعامًا ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ أي فإن لم تأتوني به تُحرموا [المِيرة] ولا تقربوا [بلادي].

٦١- ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سنخادعُه عنه ونحتال حتى ننزِعَهُ من يده ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ ذلك لا محالة، لا نُفرِّطُ فيه ولا نتوانى، قال: فَدَعُوا بعضَكم رهنًا، فتركوا عنده شمعونَ.

٦٢- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ لغِلمانه الكيَّالين ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ [المالَ الذي اشترَوا به الطعامَ] ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أوعِيَتِهم، وكانت وَرِقًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ يعرفون حَقَّ رَدِّها وحقَّ التكرم بإعطاء البَدَلَين ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وفرَّغوا ظروفهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، أو ربما لا يجدون بضاعةً بها يرجعون، أو لم يَرَ من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمنًا.

٦٣- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ بالطعام وأَخبروه بما فعل ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ يريدونَ قولَ يوسف، لأنهم إذا أُنذروا بمنع الكيل فقد مُنِعَ الكيلُ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ نرفَعِ المانعَ من الكيل ونكتلْ من الطعام ما نحتاج إليه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ عن أنْ يناله مكروهٌ.

٦٤- ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ يعني

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ
إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ
كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي
بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا
تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ﴾

أنكم قلتُم في يوسفَ كما تقولونه في أخيه، ثم خُنتم بضمانكم فما يأمَنُني من مثل ذلك؟ ثم قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ﴾، فتوكَّلَ على الله فيه ودفَعَه إليهم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فأرجو أن يُنعِمَ عليَّ بحفظه ولا يجمعَ عليَّ مصيبتين.

٦٥- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ﴾ أي ما نبغي في القول ولا نتجاوز الحق، أو ما نريد منك بضاعة أخرى، أو للاستفهام أَيْ أَيَّ شيء نطلب وراء هذا؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ﴾ فنستظهر بها ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ في رجوعنا إلى الملك، أي نجلب لهم مِيْرَةً، وهي طعام يُحمَلُ من غير بلدك ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ في ذهابنا ومجيئنا فما يُصيبه شيء مما تخافه ﴿وَنَزْدَادُ﴾ باستصحاب أخينا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍۖ﴾ وَسْقَ بعير[1] ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ سَهلٌ عليه مُتيسرٌ لا يتعاظمه.

٦٦- ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا﴾ عهدًا ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المعنى: حتى تُعطوني ما أَتوثَّقُ به من عند الله، أراد أن يحلفوا له بالله، لأن الحَلِف به مما يؤكَّدُ به العهود ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ المعنى: حتى تحلفوا لَتأتُنَّني به ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾ إلا أن تُغلبوا، فلم تُطيقوا الإتيان به ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ حلفوا بالله ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من طلب المَوثِق وإعطائه ﴿وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ رقيب مُطَّلع.

٦٧- ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ﴾

---

(١) أي: حِمْلَ بعير.

﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾

خاف عليهم العينَ لجمالهم وجلالةِ أَمرِهم، ولم يأمرهم بالتفرق في الكرة الأُولى لأنهم كانوا مجهولين في الكرة الأولى، فالعين حَقٌّ عندنا، وَوُجِّهَ بأن يُحْدِثَ اللهُ تعالى عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصانًا فيه وخللًا، وكان النبيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الحَسنَ والحسينَ رضي الله عنهما فيقول: «**أُعيذكما بكلمات الله التامة، من كل [شيطان و] هامَّة**[1]، **ومن كل عين لامَّة**[2]» ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ إن كان اللهُ أرادَ بكم سوءًا لم ينفعْكم ولم يدفعْ عنكم ما أشرتُ به عليكم من التفرق، وهو مُصيبكم لا محالة ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ التوكُّلُ: تفويضُ الأمر إلى الله تعالى والاعتمادُ عليه.

٦٨- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ متفرقين ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم﴾ دخولُهم من أبواب متفرقة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ أي شيئًا قَطُّ حيث أَصابَهم ما ساءَهم مع تفرقهم من إضافةِ السرقة إليهم، وافتضاحِهم بذلك، وأَخذِ أخيهم بِوِجدان الصُّوَاعِ في رَحْلِه، وتضاعُفِ المصيبةِ على أبيهم ﴿إِلَّا حَاجَةٗ﴾ ولكنَّ حاجةً ﴿فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ وهي شَفَقَتُه عليهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ﴾ بأن القَدَرَ لا يُغني عنه الحَذَرُ ﴿لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ لتعليمنا إيّاه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ذلك.

٦٩- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ ضَمَّ إليه بِنيامينَ،

---

(١) هامَّة: واحِدةُ الهَوامّ، والهَوامُّ: ما كان مِن خَشاشِ الأرض نحو العقارب ونحوها، وقيل: الحيّاتُ وكلُّ ذي سَمّ يقتل سَمُّه، سُمِّيت بذلك لأنها تَهِمُّ أي تَدِبُّ.

(٢) لامَّة: جامعة للشرِّ على المعيون.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ورويَ أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم، فأنزلهم وأكرمهم، ثم أضافَهم وأجلسَ كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بِنيامينُ وَحْدَهُ فبَكَى وقال: لو كان أخي يوسفُ حَيًّا لأَجلسني معه، فقال يوسفُ: بقيَ أخوكم وحيدًا، فأجلَسه معه على مائدته وجعل يؤاكله وقال له: أتحبُّ أن أكون أخاكَ بدلَ أخيك الهالك؟ قال: ومن يَجِدُ أخًا مثلَك، ولكن لم يَلِدْكَ يعقوبُ ولا راحيلُ، فبكى يوسفُ وعانَقَه، ثم ﴿قَالَ﴾ له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسفُ ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بنا فيما مَضَى، فإنَّ الله قد أحسنَ إلينا وجمعنا على خير، ولا تُعلِمْهم بما أعلمتُك. وروي أنه قال له: فأنا لا أفارقُك، قال: قد علمتَ اغتمامَ والدي بي فإنْ حبستُك ازدادَ غَمُّهُ، ولا سبيلَ إلى ذلك إلا أن أنسُبَكَ إلى ما لا يُحمَد، قال: لا أُبالي فافعل ما بدا لك، قال: فإني أدُسُّ صاعي في رَحلك، ثم أُنادي عليك بأَنك سرقتَه [أي فيما يظهر لمن لم يعلم حقيقةَ الأمر، كقوله تعالى إخبارًا عما يقال للكافر في جهنم ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الدخان] أي عند نفسك لا عندنا] ليتهيأ لي رَدُّكَ بعد تسريحك معهم، فقال: افعل.

٧٠- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ هيَّأ أسبابَهم وأوفى الكيل لهم ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ السِّقايةُ هي مِشْرَبَةٌ يُسقى بها، وهي الصُّواعُ، قيل: كان يُسقَى بها الملكُ، ثم جُعلت صاعًا يكالُ به لعِزَّةِ الطعام، وكان يُشبِهُ الطاسَ من فضة أو ذهب ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ ثم نادى مناد، روي أنهم ارتحلوا وأَمهَلَهم يوسفُ عليه السلام حتى انطلقوا، ثم أَمَرَ بهم، فأُدركوا وحُبسوا، ثم قيل لهم: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ﴾ هي الإبلُ التي عليها الأَحمالُ، والمرادُ أَصحابُ العير ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ كنايةً عن سرقتهم إياهُ من أبيه.

﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ
وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا
سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ
جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ
أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ﴾

٧١- ٧٢- ﴿قَالُوا۟﴾ [أي إخوة يوسف] ﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ [وتوجهوا إلى مَن أرسلهم يوسف عليه السلام] ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [أيَّ شيء فقدتم وجئتم تطلبونه؟] ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ هو الصاع ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ يقوله المؤذِّن، يريد: وأنا بحِملِ البعير كفيلٌ أُؤدِّيه إلى من جاء به.

٧٣- ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ﴾ قَسَمٌ فيه معنى التعجب مما أُضيفَ إليهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استشهدوا بعلمهم لأنهم رَدُّوا بضاعتَهم التي وجدوها في رحالهم ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ وما كنا نوصف قَطُّ بالسرقة.

٧٤- ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي فما جزاءُ سرقتِه ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ في جحودكم وادعائكم البراءةَ منه.

٧٥- ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾ أي جزاءُ سرقَتِهِ أَخذُ مَن وُجد في رَحله، وكان حكمُ السارقِ في ءالِ يعقوبَ أن يُسترَقَّ سنةً، فلذلك استُفتوا في جزائه، وقولهم: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقريرٌ للحكم، أي فأَخذُ السارقِ نفسِهِ هو جزاؤه لا غيرُ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي السُّرَّاقَ بالاسترقاقِ.

٧٦- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فبدأ بتفتيش أَوعيتِهم قبلَ وعاءِ بِنيامين لنفي التُّهَمة حتى بلغَ وعاءَه، فقال: ما أَظنُّ هذا أخذ شيئًا، فقالوا: والله لا نتركُه حتى تنظُرَ في رَحله، فإنه أَطيبُ لنفسك وأنفسنا ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي الصُّواعَ ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ﴾ ذَكَّرَ ضمير الصُّواع مرات ثم أَنَّثَه لأن التأنيث يرجع إلى السِّقاية ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الكيد

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ﴾

العظيم ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يعني علّمناه إياه ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾، لأن الحكمَ في دينِ الملك أي في سيرتِه للسارقِ أن يُغَرَّمَ مِثْلَيْ ما أخذَ لا أن يُستعبدَ ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ما كان ليأخذَه إلا بمشيئة الله وإرادته فيه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ في العلم كما رفعنا درجةَ يوسفَ فيه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ وهو الله عز وجل.

٧٧- ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أرادوا يوسفَ، قيل: كانت مِنْطَقَةٌ[1] لإبراهيمَ عليه السلام [يتعاقبها] أكابرُ وَلَدِه [فوصلت ليد] إسحاقَ، ثم وقعت إلى ابنتهِ وكانت أكبرَ أولادِه، فحضنَتْ يوسفَ - وهي عَمَّتُه - بعد وفاة أُمه، وكانت لا تصبر عنه، فلما شَبَّ أراد يعقوب أن ينزِعَهُ منها، فعَمَدَت إلى المِنطقةِ فحَزَمَتْها على يوسفَ تحت ثيابه، وقالت: فقدتُ مِنطقةَ إسحاقَ فانظروا مَن أخذَها، فوجدوها محزومة على يوسف، فقالت: إنه لي سَلَمٌ أفعَلُ به ما شئت، فخلاه يعقوبُ عندَها حتى ماتت. وروي أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نَكَّسَ إخوته رؤوسهم حياء وأقبلوا عليه، وقالوا له: فضحتنا وسوَّدتَ وجوهَنا، يا بَنِيْ راحيلَ ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم بلاء، ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضعَ هذا الصُّواعَ في رحلي الذي وضعَ البضاعةَ في رحالكم ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ أي مقالَتَهم إنه سرق كأنه لم يسمعها ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [أي لم يُظهرها لهم، أي لم يقل: أنا يوسف وما سَرقتُ قط، فلِمَ كذبتم عليَّ؟] ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ

---

(١) المِنطقة: الحِزام.

﴿مَكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾

مَّكَانًاۖ﴾ [قال في نفسه] أنتم شرٌّ منزلةً في السَّرَقِ، لأنكم سرقتم أخاكم يوسفَ من أبيه ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ تكذبون [وتصفونه به من السرقة].

٧٨- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ في السِنِّ وفي القدر ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ أبدِلْه على وجه الاسترهان أو الاستعباد، فإنَّ أباه يتسلَّى به عن أخيه المفقود ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾ إلينا فأَتمِمْ إحسانك، أو من عادتك الإحسان فاْجرِ على عادتك ولا تغيّرها.

٧٩- ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ نعوذ بالله مَعاذًا من أن نأخذَ [غير الجاني في حَقِّنا] ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ لأن المعنى: إن أخذنا بدله ظَلَمْنا، وهذا لأنه وجبَ على قضيةِ فتواكم أَخذُ من وُجدَ الصاع في رَحلِه واستعبادُه، فلو أَخذنا غيرَه كان ذلك ظُلمًا في مذهبكم، فلمَ تطلبون ما عرفتم أنه ظُلم.

٨٠- ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ﴾ يَئِسوا ﴿مِنۡهُ﴾ من يوسفَ وإجابتِه إياهم ﴿خَلَصُواْ﴾ انفردوا عن الناس خالصين لا يخالِطُهم سواهم ﴿نَجِيّٗاۖ﴾ ذوي نجوى، وكان تناجيهم في تدبير أَمرهم: على أَيّ صفةٍ يذهبون وماذا يقولون لأبيهم في شأنِ أخيهم؟ ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ في السن وهو روبيل، أو في العقلِ والرأي وهو يهوذا أو رئيسُهم وهو شَمعونُ ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ﴾ أي ومن قبلِ هذا قَصَّرْتُم في شأن يوسفَ ولم تحفظوا عهدًا ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ فلن أُفارق أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ في

﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا
وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ
عَلَىٰ يُوسُفَ﴾

الانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ بالخروج منها، أو بالموت، أو بقتالهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٨٠﴾ لأنه لا يَحكُم إلا بالعدل.

٨١- ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه بالسرقة ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ من سرقته، إذ الصُّواعُ استُخرج من وعائه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ٨١﴾ وما علمنا أنه سيسرِقُ حين أعطيناك المَوْثِقَ.

٨٢- ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعني مصرَ، أي أرسل إلى أهلها فاسألهم عن كُنْه القصة ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ﴾ وأصحابَ العير، وكانوا قومًا من كنعانَ من جيران يعقوبَ عليه السلام ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢﴾ في قولنا، فرجعوا إلى أبيهم، وقالوا له ما قال لهم أخوهم.

٨٣- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ﴾ أردتُّموه، وإلا فمَنْ أدرَى ذلك الرجلَ أن السارقَ يُسترَقُّ لولا فتواكم وتعليمُكم ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ﴾ بيوسف وأَخيه وكبيرِهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي في الحزن والأسف ﴿ٱلْحَكِيمُ ٨٣﴾ الذي لم يبتلِني بذلك إلا لحكمة.

٨٤- ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ وأعرضَ عنهم كراهةً لِمَا جاءوا به ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أضافَ الأسفَ وهو أشَدُّ الحُزن والحسرةِ إلى نفسه، وإنما تأسَّفَ على يوسفَ دون أخيه وكبيرِهم لتمادي أسفه على يوسف دون

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾

الآخَرين، وفيه دليل على أن الرُّزْءَ[١] فيه مع تقادم عهده كان غضًّا عنده طريًّا ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ ومَحَقَت العَبْرة[٢] سوادَ العين وقلبته إلى بياضٍ كَدِرٍ، وقيل: قد عمي بصره [قيل: لم يبصر بهما ست سنين - وما أحد أكرم على الله منه يومئذ - حتى كشف الله تعالى عنه بقميص يوسف عليه السلام، وقيل: قد تَبيَضُّ العين ويبقى شيء من الرؤية] ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ لأن الحزن سَبَبُ البُكاءِ الذي حدث منه البياضُ، فكأنه حَدَثَ من الحزن، قيل: ما جَفَّت عينا يعقوبَ من وقت فراقِ يوسفَ إلى حين لقائه ثمانينَ عامًا[٣] وما على وجه الأرض أكرمُ على الله من يعقوب، ويجوز للنبي عليه السلام أن يبلغَ به الجَزَعُ ذلك المَبلغَ، فلذلك حُمِدَ صَبْرُهُ، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم، وقال: «**القلب يَجزَعُ والعين تدمع ولا نقولُ ما يُسخِطُ الربَّ وإنا عليك يا إبراهيمُ لمحزونون**» وإنما المذموم الصياحُ والنياحة ولَطْمُ الصدور والوجوه وتمزيقُ الثياب ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ مملوء من الغيظ على أولاده، ولا يُظهر ما يَسُوؤهم.

٨٥- ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟﴾ أي لا تفتأ ولا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مُشفِيًا[٤] على الهلاك مَرَضًا ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

٨٦- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ البَثُّ: أصعبُ الهَمِّ، أي

---

(١) الرُّزْءُ: المصيبة بفقد الأعِزَّة.
(٢) العَبْرَةُ بالفتح: الدمعةُ، وقيل: أن يَنهمِلَ الدمعُ ولا يُسمعَ البكاء.
(٣) هذا على قول في ذلك كما روى ذلك الطبري في تفسيره وغيره، وعلى قول ءاخر إن المدّة بين رؤيا يوسف عليه السلام وتأويلها أربعون سنة كما ذكر ذلك أيضًا الطبري وغيره والنسفي نفسه عند تفسير الآية رقم ١٠٠ من هذه السورة.
(٤) أي: مُشْرِفًا.

﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٦ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ۝٨٩﴾

لا أشكو إلى أحدٍ منكم ومن غيركم إنما أشكو إلى ربي داعيًا له وملتجئًا إليه، فخلُّوني وشِكايتي ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٦﴾ وأعلم من رحمته أنه يأتيني بالفرج مِن حيث لا أَحتسِب.

٨٧- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فَتَعَرَّفوا منهما وتَطَلَّبوا خبرَهما ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ ولا تقنَطوا من رحمة الله وفَرَجه ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الأمر والشأن ﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ لأن مَن ءامنَ يعلمُ أنه مُتقلِّب في رحمة الله ونعمته، وأما الكافر فلا يعرف رحمةَ الله ولا تقلبَهُ في نعمته فييأس من رحمته، فخرجوا من عند أبيهم راجعين إلى مصر.

٨٨- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ على يوسف ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الهُزالُ من الشدةِ والجوع ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ مدفوعة يدفَعُها كل تاجر رغبةً عنها واحتقارًا لها ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ الذي هو حقنا ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ وتفضَّل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة، أو زدنا على حقِّنا، أو هَبْ لنا أخانا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨﴾ [يثيبهم].

ولما قالوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ وتضرعوا إليه وطلبوا منه أن يتصدق عليهم ارفَضَّت عيناه ولم يتمالك أن عرَّفهم نفسه حيث قال:

٨٩- ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ﴾ هل علمتُم قُبحَ ما فعلتم بيوسفَ ﴿وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ۝٨٩﴾ لا تعلمون قُبْحَه، وفِعلُهم بأخيه تعريضهم إياهُ للغمِّ بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ
وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن
كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾

٩٠- ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ وإنما ذكر أَخاه - وهم قد سألوه عن نفسه - لأنه كان في ذكر أخيه بيانٌ لِمَا سألوه عنه ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ بالأُلفة بعد الفُرقة وذَكَرَ نعمةَ الله بالسلامة والكرامة ولم يبدأ بالمَلامَة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ الفحشاءَ ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ المتقين الصابرين.

٩١- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ اختارَكَ وفضَّلك بالعلم والحِلم والتقوى والصبر والحُسْن ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ مُتعمِّدين للإثم لم نَتَّقِ ولم نصبر، لا جَرَمَ أن الله أعزَّك بالمُلك وأذلَّنا بالتمسكن بين يديك.

٩٢- ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾ لا تعيير عليكم ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ الذي هو مَظِنَّةُ التثريب، فما ظنكم بغيره من الأيام؟ ثم ابتدأ فقال: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ فدعا لهم بمغفرة[1] ما فَرَط منهم.

ورويَ أن رسول الله ﷺ أخذ بعِضَادَتَي[2] بابِ الكعبة يومَ الفتح فقال لقريش: «**ما تَرَونَني فاعلًا بكم**» قالوا: نظنُّ خيرًا أَخٌ كريم وابنُ أخ كريم وقد قَدَرْتَ، فقال: «**أقول ما قال أخي يوسف**: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾». ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ أي إذا رحمتُكم وأنا الفقيرُ فما ظنكم بالغنيّ الغفور.

---

(١) والمعنى: الله يغفر لكم بالهداية إلى الإسلام لأنهم سَبُّوا أباهم الذي هو نبي الله بقولهم ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ وهذا كفر، أو يكون بعد أن رجعوا إلى الإسلام قال: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ أي ما يحصل منكم من المعصية في المستقبل.
(٢) عِضادتا الباب: الخشبتان المنصوبتان عن يمين الداخل منه وشماله.

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

ثم سألهم عن حال أبيه، فقالوا: إنه [ابيضَّت عيناه] من كثرةِ البكاء، قال:

٩٣- ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ يصير بصيرًا، قال يهوذا: أنا أحمِلُ قميصَ الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ لينعَموا بآثار مُلكي كما اغتموا بأخبار هُلْكي.

٩٤- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ خرجت من عريش مِصرَ ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أَوْجَدَهُ اللهُ ريحَ القميصِ حين أقبلَ من مسيرة ثمانية أيام ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ التفنيدُ: النسبةُ إلى الفَنَد وهو الخَرَفُ وإنكارُ العقل مِن هَرَم، والمعنى: لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني [والمخاطَب بقوله: ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ الظاهر مِن تناسق الضمائر أنه عائد على مَن كان بقي عنده من أولاده غير الذين راحوا يمتارون، إذ كان أولاده جماعة].

٩٥- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ لفي ذهابك عن الصواب قديمًا في إفراط محبتك ليوسف، أو في خطئك القديم من حُبِّ يوسفَ، وكان عندهم أنه قد مات. [قال قتادة: قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله ﷺ].

٩٦- ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ أي يهوذا ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ طرح البشيرُ القميصَ على وجهِ يعقوبَ ﴿فَٱرْتَدَّ﴾ فرجعَ ﴿بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ المراد قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾

بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وروي أنه سأل البشير: كيف يوسفُ؟ قال: هو ملك مصرَ، فقال: ما أصنع بالملك؟! على أي دين تركته؟ قال على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

٩٧- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ أي سَل الله مغفرة ما ارتكبنا في حقك وحق ابنك، إنا تبنا واعترفنا بخطايانا.

٩٨- ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ أَخَّرَ الاستغفار ليتعرَّفَ حالَهم في صِدقِ التوبة، أو إلى أن يسألَ يوسفَ هل عفا عنهم، ثم إن يوسف وجَّه إلى أبيه جَهازًا ومائتَي راحلة ليتجهَّزَ إليه بمن معه، فلما بلغ قريبًا من مِصرَ خرج يوسفُ والمَلِكُ في أربعة ءالاف من الجُندِ والعظماء وأهلِ مصر بأجمعهم، فتلقَّوا يعقوبَ وهو يمشي يتوكأ على يهوذا.

٩٩- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾ ضَمَّ إليه ﴿أَبَوَيۡهِ﴾ واعتنقَهما، قيل: كانت أُمُّهُ باقيةً، وقيل: ماتت وتزوج أَبوه خالَتَه، والخالةُ أمٌّ كما أن العَمَّ أَبٌ، ومعنى دخولِهم عليه قبلَ دخولِهم مصرَ أنه حين استقبلهم أنزلَهم في مضرب خيمة أو قصر كان له ثَمَّةَ ﴿وَقَالَ﴾ لهم بعدَ ذلك: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ من مُلوكها، وكانوا لا يدخلونَها إلا بجواز، أو من القحط.

١٠٠- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ قيل: لما دخلوا مصر وجلس في مجلسه مستويًا على سريره واجتمعوا إليه أَكرَمَ أبويه، فرفعهما على السرير، وخَرُّوا له يعني الإخوةَ الأحدَ عشر والأبوين سُجَّدًا، وكانت السجدةُ عندَهم جاريةً مَجرَى التحيةِ والتكرِمة كالقيام والمصافحة وتقبيل

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠ ۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾

اليد وقيل: ما كانت إلا انحناءً دون تعفير الجِباهِ ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا﴾ أي الرؤيا ﴿رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ صادقةً، وكان بين الرؤيا وبين التأويل أربعونَ سنة[١] ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ ولم يذكر الجُبَّ لقولِه: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ من البادية لأنهم كانوا أصحابَ مواشٍ يتنقلون في المياه والمناجع[٢] ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ أي أفسَدَ بيننا وأغرى ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ أي لطيف التدبير ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ بتأخير الآمالِ إلى الآجال، أو حَكَمَ بالائتلاف بعد الاختلاف.

١٠١- ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ مُـلـكِ مِـصـرَ ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ تفسيرِ كُتُبِ الله، أو تعبير الرؤيا، و﴿مِن﴾ فيهما للتبعيض، إذ لم يُؤتَ إلا بعضَ مُلك الدنيا وبعض التأويل ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ الذي تتولاني بالنعمة في الدارين ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ طَلَبَ الوفاة على حال الإسلام، كقول يعقوب لولده: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [سورة ءال عمران]، وعن التُّسْتَري: مسَلِّمًا إليك أمري ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ من ءابائي، أو على العموم.

روي أن يعقوبَ أقام معه أربعًا وعشرين سنة ثم مات، وأوصى أن

---

(١) هذا على قول وعلى قولٍ ءاخر إن المدّة بين فراق يوسف ليعقوب عليهما السلام كانت ثمانين سنة كما سبق ذكر ذلك عند تفسير الآية ٨٤ من هذه السورة.

(٢) المناجع هي المبادي، وهي أماكن يختارها البدو للعيش في البادية، خلاف المحاضر، وهي المناطق المأهولة بالسكان الذين يسكنون بالقرب من الماء، والانتجاعُ والنُّجعةُ: طلب الكلأ، والمناجع: مواضع الكلأ.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ
أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

يدفِنَه بالشام إلى جنبِ أَبيه إسحاقَ، فمضى بنفسِهِ ودفنه ثَمَّةَ، ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثًا وعشرين سنة، ثم توفاهُ الله طيبًا طاهرًا، فتخاصم أهل مصرَ وتشاحُّوا في دفنه، كلٌّ يُحب أن يدفن في مَحلَّتهم حتى همُّوا بالقتال، فرأوا أن يعملوا له صندوقًا من مَرْمَرٍ وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يَمُرُّ عليه الماء، ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شَرْعًا[1]، حتى نقلَ موسى عليه السلام بعد أربعمائة سنة تابوتَه إلى بيت المقدس، وَوُلِدَ له إِفرائيم ومَنَشّا، وولد لإفرائيم نُونٌ، ولنونٍ يوشَعُ فتى موسى، ولقد توارثت الفراعِنةُ من العماليق بعدَه مصرَ، ولم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وءابائهِ.

١٠٢- ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما سبق من نبأ يوسف، والخطابُ لرسول الله ﷺ ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ لدى بني يعقوبَ ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ عزموا على ما هَمُّوا به من إلقاءِ يوسفَ في البئر ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ بيوسف ويبغون له الغوائل، والمعنى أن هذا النبأَ غيبٌ لم يحصل لك إلا من جهة الوحي.

١٠٣- ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أراد العمومَ، أو أهلَ مكة، أي وما هم بمؤمنين ولو اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم.

١٠٤- ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ، أو على القرءان ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعْلٍ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ ما القرءان إلا عظة من الله ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ وحَثٌّ على طلب النجاة على لسان رسولٍ من رسله.

---

(١) يُسَكَّنُ ويُحَرك ومعناه: سواء.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ
أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى
وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾

١٠٥- ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من عَلامة ودِلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ يشاهدونها ﴿وَهُمْ عَنْهَا﴾ عن الآيات ﴿مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ لا يعتبرون بها، والمراد ما يرون من ءاثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العِبَر.

١٠٦- ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ وما يؤمن أكثرهم في إقراره بالله وبأنه خَلَقَه وخَلَقَ السماوات والأرض إلا وهو مشرك بعبادة الوثن. الجمهور على أنها نزلت في المشركين، لأنهم مُقِرُّون بأن الله خالقُهم ورازقهم، وإذا حَزَبَهم أمرٌ شديد دَعَوُا اللهَ، ومع ذلك يشركون به غيره، والتوحيدُ المحض ما يقوله أهل السنة وهو أنه لا خالق إلا الله.

١٠٧- ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ﴾ عقوبةٌ تغشاهم وتشمَلُهم ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ بإتيانها.

١٠٨- ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ هذه السبيل التي هي الدعوةُ إلى الإيمان والتوحيد سبيلي، ثم فسَّرَ سبيلَه بقوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غيرِ عَمياءَ ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ أدعو إلى سبيل الله أنا ويدعو إليه من اتبعني﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ وأُنزِّهُهُ عن الشُّرَكَاءِ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ مع الله غيرَهُ.

١٠٩- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ لا ملائكةً، لأنهم كانوا يقولون: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة، أو ليست فيهم امرأة ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ
وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ
كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي
قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ
وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾

﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ لأنهم أعلَمُ وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهلُ والجفاء ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ولدار الساعةِ الآخرة ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ الشركَ وءامنوا به ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [أما لهؤلاء المشركين عقول يتدبَّرون بها الحجج والمواعظ فينجوا من الهلاك].

١١٠- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ يئسوا من إيمان القوم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ وأيقن الرسلُ أنَّ قومَهم كذبوهم، أو ظن المُرسَلُ إليهم أنهم كُذِبوا مِن جهة الرُّسُلِ أي كَذَبَتْهم الرسُل في أنهم يُنصرون عليهم ولم يصدقوهم فيه ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ للأنبياء والمؤمنين بهم فجأة من غير احتساب ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ أي النبيَّ ومن ءامن به ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا﴾ عذابُنا ﴿عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ الكافرين.

١١١- ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾ في قَصَصِ الأنبياء وأُممهم، أو في قِصة يوسفَ وإخوتهِ ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ حيث نُقل من غاية الحُب، إلى غيابة الجُب، ومن الحصير إلى السرير، فصارت عاقبةُ الصبر سلامةً وكرامةً، ونهايةُ المَكر وخامةً وندامةً ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ ما كان القرءانُ حديثًا مفترىً كما زَعَمَ الكفار ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ ولكن تصديقَ الكتبِ التي تقدَّمَتْه ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يُحتاج إليه في الدين، لأنه القانونُ الذي تستند إليه السنة والإجماع والقياس ﴿وَهُدٗى﴾ من الضلال ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ من العذاب ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ بالله وأنبيائه.

سورة الرعد
مكية، وهي ثلاث وأربعون ءاية كوفي، وخمس وأربعون ءاية شامي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١- ﴿الٓمٓر﴾ أنا الله أعلم وأرى، عن ابن عباس رضي الله عنهما، [وقيل غير ذلك مما مَرَّ في أول سورة البقرة] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أُريدَ بالكتاب السورةُ، أي تلك الآياتُ ءاياتُ السورة الكاملة العجيبة في بابها ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي القرءانُ كلُّه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ [هو الحق والصدق لا كذبَ فيه ولا خُلْفَ] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ فيقولون: تقوَّلَه محمد!

ثم ذكر ما يوجب الإيمان فقال:

٢- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ خلَقَها مرفوعةً لا أن تكون موضوعة فرفعها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ هو جمعُ عِمادٍ أو عَمُودٍ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الضمير يعود إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي ترونَها كذلك [بلا عَمَد ولكنَّ الله يُمسكها بقدرته]، أو إلى ﴿عَمَدٍ﴾، أي بغير عمد مرئية، [ولها عمادٌ غير مرئي، وهو القدرة، والله يمسكها كذلك بقدرته، وكأنها عمادٌ لها] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استولى بالاقتدار ونفوذ السلطان [وهو تبارك وتعالى مالك المُلك في

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ
تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ
ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ
وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾

الأزل والأبد لا بحدوث مُلك وتجدد ولاية، وهو كسائر ما يُذكر في صفات الله تعالى أنه فعل كذا ويفعل كذا، ليس ذلك لانقضاء ما كان في الماضي ولا لحدوث ما يكون في المستقبل، بل هو وصف أزلي أبدي، وصيغة الماضي والحال والمستقبل لظهور المخلوق المفعول في زمان مخصوص، أفاده أبو حفص النسفي في تفسيره] ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لمنافع عباده ومصالح بلاده ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو انقضاءُ الدنيا ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أمرَ مَلَكوته [يُجري الأمور كُلَّها على علم عواقبها] ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ يُبين ءاياتِه في كتبه المنزلة ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ لعلكم توقنون بأن هذا المدبِّرَ والمفصِّلَ لا بد لكم من الرجوع إليه.

٣- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بَسَطها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالًا ثوابتَ ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ جارية ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الأسودَ والأبيضَ والحُلوَ والحامض والصغير والكبير وما أشبه ذلك ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يُلبِسُه مكانَه فيصيرُ أسودَ مظلمًا بعدما كان أبيضَ منيرًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ فيعلمون أن لها صانعًا عليمًا حكيمًا قادرًا.

٤- ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ بقاعٌ مختلفة مع كونها متجاورةً متلاصقة، طيبةً إلى سَبِخَة[١]، وكريمةً إلى زهيدة، وصُلبةً إلى رِخوة، وذلك دليل على قادر مريد، مُوقِعٍ لأفعاله على وجهٍ دون وجه ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ والصِّنوانُ جمعُ صِنْوٍ، وهي

---

(١) السبخة: الأرض المالحة التي لا تكاد تُنبت.

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾

النخلةُ لها رأسان وأصلها واحد ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ في الثمر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ مثَّل اختلافَ القلوبِ في ءاثارها وأنوارها وأسرارها باختلاف القِطَعِ في أنهارها وأزهارها وثمارها[١].

٥- ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمد من قولهم في إنكار البعث ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ فقولُهم حقيقٌ بأن يُتعجَّب منه، لأنَّ مَن قَدَر على إنشاء ما عُدِّدَ عليك كانت الإعادة أهونَ شيء عليه وأَيسرَه، فكان إنكارهم أعجوبةً من الأعاجيب ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [أي أَبعدَ أن صرنا ترابًا نُحْيَا ونُعاد للبعث خلقًا جديدًا كما كُنّا أول مرة؟!] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أولئك الكافرون المتمادون في كفرهم، [كفروا بربهم بإنكار البعث وَهُم مُقِرون بأنه خالقهم أول مرة] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ وصفٌ لهم بالإصرار، أو من جملة الوعيد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ دلَّ تكرارُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ على تعظيم الأمر.

٦- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ بالنِّقمة قبل العافية، وذلك أنهم سألوا رسولَ الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب استهزاءً منهم بإنذاره ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ عقوباتُ أمثالِهم من المكذبين فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزئوا، والمَثُلة: العقوبةُ لِمَا بين العقابِ والمُعاقَبِ

---

(١) وذلك أن الله تعالى أنزل القرءان الذي هو حياة الناس في دينهم، فيتفاضل العباد فيه والقرءانُ واحدٌ كتفاوت الثمارِ والماءُ واحد، أي أنه كما لو شاء لسَوَّى بين جميع الثمار، فكذلك لو شاء لسَوَّى بين قلوب العباد، ولكنه فاوَتَ بينها، فَمِن متكبر مُعرض ومِن مُتدبر مقبل.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾

عليه من المماثلة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ مع ظلمهم أنفسَهم بالذنوب، قال السُّدِّي: يعني المؤمنين، وهي أَرجَى ءايةٍ في كتاب الله حيث ذكر المغفرة مع الظلم وهو بدون التوبة، فإن التوبة تزيلها وترفعها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾ على الكافرين، أو هما جميعًا في المؤمنين لكنه مُعلَّقٌ بالمشيئة فيهما، أي يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

٧- ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ لم يعتدُّوا بالآيات المنزلةِ على رسول الله ﷺ عنادًا، فاقترَحوا نحوَ ءاياتِ موسى وعيسى من انقلاب العصا حية، وإحياء الموتى، فقيل لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾ إنما أنت رجلٌ أُرسلتَ منذِرًا مُخَوفًا لهم من سوء العاقبة، وناصحًا كغيرك من الرسل وما عليك إلا الإتيان بما يَصِحُّ به أنك رسول منذِرٌ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ من الأنبياء يهديهم إلى الدين ويدعوهم إلى الله بآية خُصَّ بها لا بما يريدون ويتحكَّمون.

٨- ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ﴾ يعلم ما تحملُه مِن الولد على أي حال هو مِن ذكورة وأنوثة، وتمام وخِداج(١)، وحُسْن وقُبح، وطول وقِصَر، وغير ذلك، وما تَغيضه الأرحام أي ويعلم ما تَنقُصه وما تزداده، والمراد عدد الولد، فإنها تشتمل على واحد واثنين وثلاثة وأربعة، أو مدة [الحمل] فإنها تكون أقلَّ من تسعة أشهر وأزيدَ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ بقَدْرٍ وحَدٍّ لا يُجاوزه ولا يَنقُص عنه.

---

(١) خِداج: المولود قبل تمام أيامه.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ
وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ
مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا
مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ
ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢﴾

٩- ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ ما غابَ عن الخلق ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما شاهدوه ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيمُ الشأن الذي كل شيء دونَه ﴿ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كَبُرَ عن صفات المخلوقين وتعالَى عنها.

١٠- ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أي في عِلْمِه ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ مُتَوارٍ ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ ذاهبٌ في سَرْبِه، أي في طريقه ووَجْهِه.

١١- ﴿لَهُۥ﴾ لِمَن أسَرَّ ومَن جهَر ومن استخفى ومن سَرَبَ ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ جماعاتٌ من الملائكة تعتقِبُ في حفظه ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ قُدَّامِهِ ووراءه ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾ من أجل أمرِ الله، أي من أجل أن الله تعالى أَمرَهم بحفظه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ من الحال الجميلة بكثرة المعاصي[(١)] ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ عذابًا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ﴾ فلا يدفعه شيء ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله، [أي غيرَ الله] ﴿مِن وَالٍ ۝١١﴾ ممن يلي أمرهم ويدفع عنهم.

١٢- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ يُخافُ من وقوع الصواعق عند لَمْعِ البرق ويُطمَعُ في الغيث ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢﴾ بالماء.

---

(١) هذا ليس باعتبار الأفراد بل باعتبار الأقوام، أما باعتبار الأفراد فقد يُغير اللهُ حالَ العبد من الرخاء إلى المجاعة ومن الراحة إلى التَّعَب بدون ذلك الشرط، أما من حيث الجُملة فلا يصير إلا أن يُغيرَ القومُ حالَهم.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾

١٣- ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرعد مَلَكٌ موكَّلٌ بالسحاب معه مخاريقُ[1] من نار يسوقُ بها السحابَ**»، والصوت الذي يُسمع زجرُهُ السحابَ حتى ينتهي إلى حيث أمر ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ ويُسبّح الملائكةُ من هَيبته[2] وإجلاله ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الصاعقةُ: نارٌ تَسقطُ من السماء، لمَّا ذكرَ علمَه النافذَ في كل شيء واستواءَ الظاهر والخفيّ عنده وما دَلَّ على قدرته الباهرة ووَحدانيته قال: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ يعني الذين كذَّبوا رسول الله ﷺ يجادلون في الله حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث وإعادة الخلائق بقولهم: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [سورة يس] ويردُّون الوحدانيةَ باتخاذ الشركاء ويجعلونه بعضَ الأجسام بقولهم: الملائكةُ بناتُ الله. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾ أي المُماحَلَةِ، وهي شِدَّةُ المُمَاكرة والمكايدة لأعدائه، يأتيهم بالهُلْكَةِ من حيث لا يحتسبون.

١٤- ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ المعنى أن الله سبحانه يُدعى فيَستجيبُ الدعوةَ ويُعْطِي الداعيَ سؤلَه، فكانت [دعوتُه] دعوةً ملابِسةً للحق، لكونه حقيقًا بأَنْ يُوَجَّهَ إليه الدعاءُ لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا يَنفعُ ولا يُجدي دعاؤه، وهو وعيدٌ للكفرة على مجادلتهم رسولَ الله ﷺ لحلول مِحاله[3] بهم وإجابةِ دعوة رسول الله ﷺ فيهم إن دعا عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [يعني الأصنام والأوثان وكلَّ معبوداتهم] مِن دون الله ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ من طلباتهم ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ

---

(١) جمع مِخْراق وهو في الأصل منديلٌ يُلَفُّ لِيُضربَ به وهو هنا ما يَسوقُ به الملائكةُ السَّحابَ.
(٢) الهيبة: المهابةُ، وهي الإجلال والمخافة.
(٣) أي: عُقوبَتِه.

﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾

﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ أي لا يستجيبون إلا كاستجابة الماء لمن بَسَطَ كفَّيه إليه طالبًا منه أن يبلغَ فاهُ، والماء جمادٌ لا يشعر ببسط كفَّيه، ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يُجيب دعاءَه ويبلغ فاهُ، وكذلك ما يدعونه جمادٌ لا يُحِسُّ بدعائهم ولا يستطيع إجابتَهم ولا يقدر على نفعهم ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ وما الماء ببالغ فاه ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ في ضَياع لا منفعة فيه، لأنهم إن دعوا الأَصنامَ لم تستطع إجابتهم.

١٥- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سجودَ تَعَبُّد وانقياد ﴿طَوْعًا﴾ يعني الملائكةَ والمؤمنين ﴿وَكَرْهًا﴾ يعني المنافقين والكافرين في حال الشدة والضيق ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ جمعُ ظِلٍّ ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ جمعُ غَدَاة ﴿وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ جمع أُصُلٍ جمعُ أَصيل، [والأَصيلُ: العَشِيُّ، وهو الوقت بين العصر إلى المغرب] قيل: ظِلُّ كل شيء يسجد لله بالغُدُوِّ والآصال، فظِلُّ الكافر يسجد كَرهًا وهو كاره، وظِلُّ المؤمن يسجد طوعًا وهو طائع.

١٦- ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ حكايةٌ لاعترافهم لأنه إذا قال لهم: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ لم يكن لهم بُدٌّ من أن يقولوا الله: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أَبَعْدَ أن عَلِمْتُموه رَبَّ السماوات والأرضِ اتخذتم من دونه ءالهة ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ﴾ لا يستطيعون لأَنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا ضررًا عنها، فكيف يستطيعونه لغيرهم؟ وقد ءاثرتموهم على الخالق الرازق المُثيب المُعاقِب، فما أبينَ ضلالتكم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي الكافرُ والمؤمن ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ مِلَلُ الكفر والإيمان ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ بل

﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ
مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾

أَجَعلوا، ومعنى الهمزة الإنكار ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾ خَلَقوا مثلَ خلقه، أي أنهم لم يتخذوا لله شركاءَ خالقينَ مثلَ خلق الله ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فاشتبه عليهم مخلوقُ اللهِ بمخلوق الشركاء حتى يقولوا: قَدَرَ هؤلاء على الخلق كما قَدَرَ اللهُ عليه فاستحقوا العبادة فنتخذُهم له شركاء ونعبدهم كما يُعبد! ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يَقدِرُ عليه الخلق فضلًا أن يقدروا على ما يقدِرُ عليه الخالق ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ خالقُ الأجسام والأعراض لا خالقَ غيرُ الله، ولا يستقيمُ أن يكون له شريكٌ في الخلق فلا يكون له شريكٌ في العبادة ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ المتوحِّدُ بالربوبية ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ لا يغالَبُ، وما عداه مربوب ومقهور.

١٧- ﴿أَنزَلَ﴾ أي الواحد القهار وهو الله سبحانه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من السحاب ﴿مَآءٗ﴾ مطرًا ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ﴾ جمع واد ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي عَلِمَ اللهُ أنه نافع للممطور عليهم غير ضارٍّ ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ﴾ رفع ﴿زَبَدٗا﴾ هو ما على وَجْهِ الماء من الرغوة، والمعنى: عَلَاه زَبَدٌ ﴿رَّابِيٗاۖ﴾ منتفخًا مرتفعًا على وجه السيل ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [وينشأ من جواهر ومعادن الأرض التي يستخرجونها من الأرض ويوقدون عليها النارَ ويذيبونها] ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ مُبتغين حليةً [من الذهب والفضة] ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ من الحديد والنحاس والرصاص يُتَّخذ منها الأواني وما يُتمتع به في الحضر والسفر ﴿زَبَدٞ﴾ خَبَثٌ [يطفو فوقه] ﴿مِّثۡلُهُۥۚ﴾ أي لهذه الفِلِزَّات[1] إذا أُغليت زبدٌ مثلُ زَبَد الماء ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ أي مَثَلَ الحقِّ والباطل ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ متلاشيًا وهو ما تقذِفُه

---

(١) جميع جواهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس وأشباهها.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨ ۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾

القِدرُ عند الغَلَيانِ والبحرُ عند الطغيان ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء والحُلي والأواني ﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فيثبت الماء في العيون والآبار والحبوبِ والثمارِ [التي تَنبت به]، وكذلك الجواهر تبقى في الأرض مُدةً طويلة ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ ليُظهرَ الحقَّ من الباطل، وقيل: هذا مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ للحقِّ وأهلهِ والباطل وحِزبِه، فمثَّلَ الحقَّ وأهلَه بالماء الذي يُنزِلُهُ من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيَونَ به وينفعهم أنواعَ المنافع، وبالفِلِزِّ الذي ينتفعون به في صَوغ الحُلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، وإن ذلك ماكث في الأرض باق بقاءً ظاهرًا، يَثبتُ الماء في منافعه وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة، وشُبِّه الباطل في سرعة اضمحلاله وَوَشكِ زواله بزَبَد السيل الذي يَرمي به، وبزبَدِ الفِلِزّ الذي يطفو فوقه إذا أُذيب.

١٨- ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ للمؤمنين الذين استجابوا لربهم [بالطاعة] ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ المَثوبَةُ الحسنى، وهي الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ [لم يُجيبوا إلى الإيمان به، وهم الكفرة] ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ لو مَلَكوا أموال الدنيا وملكوا معها مثلَها لبذلوه ليدفعوا عن أنفسهم عذابَ الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [وهو المؤاخذة بكل ما عَمِلوه ولا يُتجاوز لهم عن شيء منه] ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ ومرجعُهم بعد المحاسبة النارُ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾ المكانُ المُمَهَّدُ جهنمُ.

١٩- ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ [أي ليس الذي استجاب لله في دعوة الحق وعلم أن ما أوحي إليك حقٌّ كالذي لم يستجب له فيها وعَميَ عنها] ﴿۞ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [إنما

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟
مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾

يَتَّعِظ] الذين عملوا على قضايا عقولهم فنظروا واستبصروا.

٢٠- ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ عهدُ اللهِ: ما عَقدوه على أنفسِهم من الشهادة بربوبيته ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ ما وَثَّقُوه على أنفسِهم وقَبِلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق.

٢١- ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الأرحام والقرابات، [وظاهره العموم في كل ما أمر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله]. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي وعيدَه كُلَّه ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ خصوصًا فيحاسِبون أنفسَهم قبل أن يحاسَبوا.

٢٢- ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ مطلَقٌ فيما يُصبَر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومَشاقّ التكاليف ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا ليقالَ: ما أصبَرَهُ وأَحمَله للنوازل وأوقَره عند الزلازل، ولا لئلّا يُعابَ في الجزَع ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ داوَموا على إقامتها ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الحلال وإن كان الحرام رزقًا عندنا[1] ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يتناول النوافل لأنها في السِّر أفضلُ، والفرائضَ لأن المجاهرةَ بها أفضلُ نفيًا للتُّهَمة ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون بالحسَن من الكلام ما يَرِدُ عليهم من سَيِّئ غيرِهم، أو إذا حُرِموا أعطَوا، وإذا ظُلِموا عفَوا، وإذا قُطعوا وَصَلوا، وإذا أذنبوا تابوا، وإذا هربوا أنابوا، وإذا رأوا منكرًا أمروا بتغييره ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ عاقبةُ الدنيا وهي الجنة، لأنها التي أرادَها اللهُ أن تكون عاقبةَ الدنيا ومرجعَ أهلِها.

---

(١) أي: أهل السنة.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ
بَابٖ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ (٢٤) وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ
وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ
ٱلدَّارِ (٢٥) ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا
مَتَٰعٞ (٢٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾

٢٣- ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ﴾ أي ءامن ﴿مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾ وَصَفَهم بالصلاح ليُعلم أن الأنسابَ لا تنفع بنفسها، والمراد أَبَوا كلِّ واحد منهم، فكأنه قيل: مِن ءابائهم وأمهاتِهم ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ (٢٣)﴾ [من أبواب الجنة، أو القصور] في قدرِ كلِّ يومٍ وليلة ثلاثَ مرات بالهدايا وبِشارةِ الرضا.

٢٤- ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ قائلين: سلام عليكم ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ هذا الثوابُ بسبب صبركم على أوامر الله ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ (٢٤)﴾ الجنات.

٢٥- ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالكفر والظلم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ الإبعادُ من الرحمة ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (٢٥)﴾ يَحتملُ أن يرادَ بالدار جهنمُ وبِسُوئها عذابُها.

٢٦- ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ أي ويُضَيِّقُ لمن يشاء ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بما بَسَطَ لهم من الدنيا فَرَحَ بَطَرٍ وأَشَر[1] لا فَرحَ سرور بفضل الله وإنعامه عليهم، ولم يقابلوه بالشكر حتى يُؤجَروا بنعيم الآخرة ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ (٢٦)﴾ وخَفِيَ عليهم أن نعيمَ الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئًا نَزْرًا يتمتع به كعُجالَةِ الراكب، وهو ما يَتعجَّلُه من تُمَيراتٍ أو شَرْبَةِ سَويقٍ.

٢٧- ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ﴾ أي الآيةُ المقترحَةُ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ باقتراحِ الآيات بعد ظهور

---

(١) أي: كِبْر وافتخار.

﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ
ٱلْقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ٢٩ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ
أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ
رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ٣٠ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ
قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

المعجزات ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ٢٧﴾ ويُرشِد إلى دينه مَن رجعَ إليه بقلبه.

٢٨- ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هم الذين ﴿ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ تَسكن ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ على الدوام، أو بالقرءان، أو بوعده ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٢٨﴾ بسبب ذكره تطمئن قلوبُ المؤمنين.

٢٩- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ ومعنى طوبَى لكَ: أَصبتَ خيرًا وطِيبًا ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ٢٩﴾ مرجع.

٣٠- ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ مثلَ ذلك الإرسال أرسلناك إرسالًا له شأنٌ وفضل على سائر الإرسالات، ثم فسَّر كيف أَرسلَه فقال: ﴿فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أرسلناك في أمة تقدمَتْها أُممٌ كثيرة فهي ءاخرُ الأمم وأنت خاتَم الأنبياء ﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ لتقرأَ عليهم الكتابَ العظيم الذي أوحينا إليك ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ وحالُ هؤلاء أنهم يكفرون ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالبليغِ الرحمة الذي وَسِعَت رحمتُه كلَّ شيء ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ وربُّ كلِّ شيء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو ربي الواحدُ المتعالي عن الشركاء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نُصرتي عليكم ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ٣٠﴾ مَرجعي فيثيبُني على مُصابَرتكم.

٣١- ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن مَقارِّها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ حتى تتصدَّعَ وتتزايلَ قِطعًا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فتَسمعُ وتُجيب لكان هذا القرءانَ لكونه غايةً في التذكير ونهايةً في الإنذار والتخويف

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ بل لله القدرةُ على كل شيء، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أفلم يعلم، وقيل: إنما استُعمل اليأسُ بمعنى العلم لتضمُّنه معناه، لأن اليائسَ عن الشيء عالمٌ بأنه لا يكون، كما استُعمل النسيان في معنى الترك لتضمُّنه ذلك ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ مِن كفرهم وسوءِ أعمالهم ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهيةٌ تَقرَعُهم بما يُحِلُّ اللهُ بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم ﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ أو تَحُلُّ القارعةُ قريبًا منهم فيفزَعون ويتطايرُ عليهم شَررُها ويتعدَّى إليهم شُرورُها ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ أي موتُهم، أو القيامةُ، أو فتحُ مكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ أي لا خُلفَ في موعده.

٣٢- ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الإمـــــلاءُ: الإمهالُ وأن يُترك مَلاوَةً[1] من الزمان في خَفْضٍ[2] وأمن ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ وهذا وعيد لهم وجوابٌ عن اقتراحهم الآياتِ على رسول الله استهزاءً به وتسليةٌ له.

٣٣- ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾ احتجاجٌ عليهم في إشراكهم بالله، يعني أَفاللهُ الذي هو رقيبٌ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ﴾ صالحةٍ أو طالحة ﴿بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ يعلمُ خيرَهُ وشرَّه ويُعِدُّ لكلٍّ جزاءَه كمَن ليس كذلك! ثم استأنف فقال:

---

(١) المَلاوَةُ بتثليث الميم: مدة العيش.
(٢) الخَفْضُ: العيش الطيب.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ
زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ
ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى
ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي الأصنامَ ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ﴾ أي سَمُّوهم له مَنْ هم ونَبِّئوه بأسمائهم، ثم قال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بل أتنبئونه بشركاءَ لا يَعلمُهم في الأرض وهو العالم بما في السماوات والأرض! والمراد نفيُ أن يكون له شركاءُ ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ﴾ بل أتسمُّونَهم شركاءَ بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقةٌ ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ كيدُهم للإسلام بشركهم ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ﴾ [صَدَّهم اللهُ تعالى عن سبيل الهدى] ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ من أَحَدٍ يقدرُ على هدايته.

٣٤- ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ بالقتل والأسر وأنواع المِحَن ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ﴾ أَشدُّ لدوامه [وأغلظ وأبلغ] ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ من حافظٍ من عذابه.

٣٥- ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ﴾ صِفتُها التي هي في غرابةِ المَثَل ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ ثَمرُها دائمُ الوجود لا ينقطع ﴿وَظِلُّهَا ۚ﴾ دائم لا يُنسَخُ كما يُنسخ في الدنيا بالشمس ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ﴾ الجنةُ الموصوفةُ عُقبَى تقواهم، يعني منتهى أَمرِهم ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

٣٦- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يريدُ مَنْ أَسلمَ من اليهود كابن سلام ونحوه، ومِنَ النصارى بأرض الحبشة ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ ومن أَحزابِهم وهم كفَرَتُهم الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ

﴿مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ
مَـَٔابِ ٣٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ
ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾

بالعداوة ككعب بن الأشرف وأصحابه، والسيد والعاقب[1] وأشياعِهما[2] ﴿مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ لأنهم كانوا لا يُنكرونَ الأقاصيصَ وبعضَ الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم، وكانوا ينكرون نبوةَ محمد عليه الصلاة والسلام وغيرَ ذلك مما حرَّفوه وبَدَّلوه من الشرائع ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾ هو جواب للمنكرين، فإنكاركم له إنكارٌ لعبادة الله وتوحيده، فانظروا ماذا تنكرون من ادعائكم وجوبَ عبادةِ الله وألّا يُشرك به ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ خصوصًا لا أدعو إلى غيره ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَـَٔابِ ٣٦﴾ مرجعي، فلا معنى لإنكاركم.

٣٧- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ ومثلَ ذلك الإنزال أنزلناه مأمورًا فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه والإنذار بدار الجزاء ﴿حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ﴾ حِكمَةً عربية مترجَمَةً بلسان العرب، كانوا يدعونَ رسولَ الله ﷺ إلى أمور يشاركُهم فيها، فقيل: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بعدَ ثبوتِ العلم بالحُجج القاطعة والبراهين الساطعة ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾ لا ينصرُكَ ناصرٌ ولا يَقيكَ منه واقٍ، وهذا من باب التهييج والبعثِ للسامعينَ على الثبات في الدين، وإلا فكان رسول الله من شدة الثبات بمكانٍ.

وكانوا يَعيبونَه بالزواج والوِلاد ويقترحون عليه الآياتِ وينكرون النَّسْخَ، فنزل:

٣٨- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ نساءً وأولادًا

---

(١) السيدُ والعاقِبُ من رؤساء نصارى نجران في بلاد العرب.
(٢) أي: أتباعِهما.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ
وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ
لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ ليس في وُسْعِه إتيانُ الآيات على ما يقترحُه قومُه، وإنما ذلك إلى الله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ لكلِّ وقت حُكمٌ يُكتب على العباد، أي يُفرض عليهم على ما تقتضيه حِكمتُه.

٣٩- ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يَنسخ ما يشاء نسخَه ﴿وَيُثْبِتُ ۖ﴾ بدلَه ما يشاءُ [ويترك ما يشاء منه] غيرَ منسوخ ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ أي أصلُ كل كتاب وهو اللوح المحفوظ، لأن كل كائن مكتوب فيه.

٤٠- ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وكيفما دارتِ الحالُ أَريناكَ مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم، أو توفيناكَ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ فما يجبُ عليك إلا تبليغُ الرسالة فحسبُ ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ وعلينا حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم لا عليك، فلا يُهِمَّنَّكَ إعراضُهم ولا تستعجلْ بعذابهم.

٤١- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أرضَ الكفرةِ ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ﴾ بما نفتحُ على المسلمين من بلادهم فَنَنْقُص دارَ الحرب ونزيدُ في دار الإسلام، وذلك من ءايات النُّصرة والغَلبة، والمعنى: عليك البلاغ الذي حُمِّلْتَه ولا تهتمَّ بما وراءَ ذلك، فنحن نكفيكَه ونُتِمُّ ما وعدناك من النصرة والظفَر ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ﴾ لا رادَّ لحكمه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ فعمَّا قليلٍ[1] يُحاسبهم في الآخرة بعدَ عذاب الدنيا.

٤٢- ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي كفارُ الأمم الخالية بأنبيائهم، والمَكرُ: إرادةُ المكروه في خُفية، ثم جُعِلَ مكرُهم كَلا مكر بالإضافة

---

(١) أي: مِنَ الزَّمان.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

إلى مَكْرِه[1] فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ﴾ ثم فَسَّرَ ذلك بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ يعني العاقبةَ المحمودة، لأنَّ مَن عَلِمَ ما تكسِبُ كلُّ نفس وأَعدَّ لها جزاءَها فله المكرُ كلُّه، لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمونَ وهم في غفلة عما يُرادُ بهم.

٤٣- ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ﴾ المراد بهم كعبُ بن الأشرف ورؤساءُ اليهود قالوا: لست مُرسلًا ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بما أظهَرَ من الأدلة على رسالتي ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ قيل: هو اللهُ عز وجل، والكتابُ: اللوحُ المحفوظُ، وقيل: ومَن هو من علماءِ أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يَشهدون بنعتهِ في كتبهم.

---

(١) المكر من الله: مجازاةُ الكافرين على مكرهم.

سورة إبراهيم عليه السلام
مكية، وهي اثنتان وخمسون ءاية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١- ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ هذا كتابٌ يعني السورةَ ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائك إياهم ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من الضلالة إلى الهدى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتيسيره وتسهيله ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالبِ بالانتقام ﴿ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ المحمودِ على الإنعام.

٢- ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ خلقًا وملكًا، ولمَّا ذكرَ الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعَّدَ الكافرين بالويل، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ [وعيدٌ غليظٌ لِمَن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور].

٣- ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون ويُؤثِرون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ﴾ يطلبون لسبيل الله زَيغًا واعوجاجًا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ عن الحق.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥﴾

٤- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ إلا متكلمًا بلغتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ ما هو مبعوث به وله، فلا يكون لهم حجةٌ ولا يقولون: لم نَفهمْ ما خوطبنا به، فإن قلتَ: إن رسولَنا ﷺ بُعث إلى الناس جميعًا بقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ۝١٥٨﴾ [سورة الأعراف] بل إلى الثقلين، وهم على أَلسنةٍ مختلفة، فإن لم تكن للعرب حُجة فلغيرهم الحجةُ، قلت: لا يخلو إما أن يَنزلَ بجميع الألسنة، أو بواحد منها فلا حاجةَ إلى نزوله بجميع الألسنة، لأن الترجمةَ تنوبُ عن ذلك وتكفي التطويلَ، فتعيَّن أن ينزل بلسانٍ واحد، وكان لسانُ قومه أَوْلى بالتعيين لأنهم أقربُ إليه، ولأنه أبعدُ من التحريف والتبديل ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ من ءاثر سبب الضلال(١) [فيخذُلُه عن الإيمان] ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ مَن ءاثرَ سبب الاهتداء [بالتوفيق له] ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فلا يُغالَبُ على مشيئته ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾ فلا يَخذُل إلا أهلَ الخِذلان.

٥- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التسع ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾ بأن أَخرجْ قومَك ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ بوقائِعه التي وقعت على الأمم قبلَهم، قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ، أو بأيام الإنعام حيث ظَلَّلَ عليهم الغمامَ، وأنزلَ عليهم المَنَّ والسلوى، وفَلَقَ لهم البحرَ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ على البلايا ﴿شَكُورٖ ۝٥﴾ على العطايا.

---

(١) هنا أراد العبدَ بقوله مَنْ ءاثر سبب الضلال ومن ءاثر سبب الاهتداء، ولكن مع اعتقاد أن مشيئة الله سبقت بذلك.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن
رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى
لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ
يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۛ لَا يَعْلَمُهُمْ
إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

٦- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم﴾ اذكروا وقت إنجائكم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ الإشارة إلى العذاب[١].

٧- ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمةَ الله عليكم واذكروا إذ تأذّن ربكم [أي أَعلَمَ] فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما خوّلتُكم[٢] من نعمة الإنجاء وغيرها ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْۖ﴾ نعمةً إلى نعمةٍ ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ما أنعمتُ به عليكم ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ لِمَن كفرَ نعمتي، أما في الدنيا فسَلْبُ النِّعَم، وأما في العقبى فتوالي النِّقَم.

٨- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيلَ ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ والناسُ كلُّهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾ عن شكركم ﴿حَمِيدٌ ۝٨﴾ وإن لم يَحمَدْه الحامدون، وأنتم ضَررْتُم أنفسَكُم حيث حرمتموها الخيرَ الذي لا بُدَّ لكم منه.

٩- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَۛ﴾ مِن كلامِ موسى لقومه ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ المعنى أنهم منَ الكثرة بحيث لا يَعلمُ عددَهم إلا الله ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

---

(١) وقد مَرَّ تفسيرها في سورة البقرة آية رقم (٤٩).
(٢) أي: أعطيتُكم.

﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ
إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩ ﴾﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ
لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن
تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا
بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم
بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾

بالمعجزات ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أخذوا أناملهم بأسنانهم تعجبًا، أو عَضُّوا عليها تغيُّظًا ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ﴾ من الإيمان بالله والتوحيد ﴿مُرِيبٖ ٩﴾ مُوقِع في الرِّيبة.

١٠- ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ لا يَحتمِلُ الشكَّ لظهور الأدلة، وهو جوابُ قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ﴾ إلى الإيمان ﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ إذا ءامنتم ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ إلى وقتٍ قد سمَّاهُ وبيَّنَ مقداره ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي القوم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ لا فضل بيننا وبينكم ولا فضلَ لكم علينا، فَلِمَ تُخصُّون بالنبوة دوننا؟ ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ يعني الأصنامَ ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ بحجة بيّنة، وقد جاءتهم رُسلهم بالبينات، وإنما أرادوا بالسلطان المُبين ءايةً قد اقترحوها تَعنُّتًا ولَجَاجًا[1].

١١- ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ تسليمٌ لقولهم إنهم بشرٌ مثلُهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ بالإيمان والنبوة كما مَنَّ علينا ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ والمعنى أن الإتيانَ بالآية التي قد اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا، وإنما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ أمرٌ

---

(١) اللجاجُ: الاستمرار على المعارضة والتمادي في الأمر ولو تبيَّنَ الخطأ.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ
إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى
وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾

منهم للمؤمنين كافَّةً بالتوكل، وقَصدوا به أنفسَهم قصدًا أوّليًّا، كأنهم قالوا: ومن حَقِّنا أن نتوكلَ على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وإيذائكم، ألا ترى إلى قوله:

١٢- ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وأيُّ عذر لنا في ألّا نتوكلَ عليه ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ وقد فعل بنا ما يُوجِبُ توكُّلَنا عليه، وهو التوفيق لهداية كلٍّ مِنّا سبيلَه الذي يجب عليه سلوكه في الدين ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ حَلَفوا على الصبر على أذاهم وألّا يُمسِكوا عن دعائهم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ فليثبتِ المتوكلون على توكلهم.

١٣- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ من ديارنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ﴾ ليكونَنَّ أحدُ الأمرين: إخراجُكم أو عودُكم، وحَلَفوا على ذلك، والعَوْد بمعنى الصيرورة [فالرسل لم يكونوا في مِلَّتهم قط] ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ [أي إلى رسلهم] ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الذين يظلمون أنفسَهم وإياكم].

١٤- ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ أرضَ الظالمين وديارَهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإهلاكُ والإسكانُ حَقٌّ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ مَوقفي، وهو موقفُ الحساب، والمعنى أن ذلك حَقٌّ للمتقين ﴿وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ عذابي.

١٥- ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ واستنصَروا اللهَ على أعدائهم فنُصِروا وظَفِروا وأفلَحوا ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾ وخَسِرَ كلُّ متكبر بَطِرٍ ﴿عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ مُجانِبٍ للحق، وهم قومُهم.

١٦- ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ من بين يديه ﴿جَهَنَّمُ﴾ وهذا وصف حاله وهو في

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ
مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ
كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨﴾

الدنيا، لأنه مُرصَدٌ لجهنم، فكأنها بين يديه وهو على شَفيرها ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ تقديره: مِن وَرائه جهنمُ يَلقَى فيها ما يلقى ويُسقى ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦﴾ ما يسيل من جلود أهل النار.

١٧- ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يشربه جرعةً جرعةً [لا مرةً واحدةً لمرارته وحرارته] ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يُقاربُ أن يُسيغه فكيف تكون الإساغة ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي أسبابُ الموت من كلّ جهةٍ، وهذا تفظيع لِمَا يصيبه من الآلام، أي لو كان ثَمَّةَ موتٌ لكان كلُّ واحدٍ منها مهلكًا ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ لأنه لو مات لاستراح(١) ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ ومن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ أي في كل وقتٍ يستقبله يَتلقَّى عذابًا أشدَّ مما قبلَه وأغلظَ، وعن الفُضيل: «هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد».

١٨- ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ فيما يُتلى عليكم مَثَلُ الذين كفروا بربهم ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، شبَّهها في حُبوطها - لبنائها على غير أساسٍ وهو الإيمانُ بالله تعالى - برمادٍ طَيَّرته الريحُ العاصف ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يومَ القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ لا يَرَونَ له أثرًا من ثوابٍ كما لا يُقدَرُ من الرماد المُطَيَّر في الريح على شيء ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨﴾ إشارة إلى بُعد ضلالهم عن طريق الحق.

---

(١) هذه كقول تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤﴾ [سورة طه].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ
جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا
كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ
لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ
ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ﴾

١٩- ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تَعلمْ، الخطاب لكلّ أحدٍ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ بالحِكمة والأمر العظيم، ولم يخلقها عبثًا ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ هو قادرٌ على أن يُعدِمَ الناس ويَخلُقَ مكانَهم خلقًا ءاخرَ على شكلهم، أو على خلاف شكلهم.

٢٠- ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ بمتعذِّرٍ.

٢١- ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ويَبرزونَ يومَ القيامة، وإنما جِيءَ به بلفظ الماضي لأنَّ ما أَخبرَ به عزَّ وجلَّ لِصِدْقِه كأنه قد كان وَوُجِدَ، ومعنى بروزِهم لله [أنهم] خرجوا من قبورهم فبرزوا لحسابِ الله وحُكمِه ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ في الرأي، وهم السَّفِلةُ والأَتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهم السادةُ والرؤساء الذين استغوَوْهم وصَدُّوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تابعين ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ فهل تقدرون على دفع شيء مما نحن فيه ﴿قَالُوا۟﴾ لهم مُجيبين معتذرين ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ﴾ لو هدانا الله إلى الإيمان في الدنيا لهديناكم إليه ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ مستويان علينا الجَزَعُ والصبر ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ مَنْجًى ومَهْرَبٍ جَزِعنا أم صَبَرنا، ويجوز أن يكون هذا من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعًا.

٢٢- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ حُكِمَ بالجنة والنار لأَهلِيهما وفُرِغَ من الحساب ودخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو البعثُ والجزاءُ على الأعمال فوفَّى لكم بما وَعدكم ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ بأَنْ لا بعثَ ولا حسابَ ولا جزاء ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾

وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ من تَسلُّطٍ واقتدار ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ لكني دعوتُكم إلى الضلالة بوَسوَستي وتزييني ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ فأسرعتم إجابتي ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ لأنَّ مَن تَجرَّدَ للعداوة [لا يُستغرب منه] إذا دعا إلى أمرٍ قبيحٍ مع أنَّ الرحمٰن قد قال لكم: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الأعراف] ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ حيث اتَّبعتموني بلا حجةٍ ولا برهان ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ لا يُنجي بعضُنا بعضًا من عذاب الله ولا يُغيثُه، والإصراخ: الإغاثة ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي كفرتُ اليومَ بإشراكِكم إيايَ مع الله من قبلِ هذا اليوم، أي في الدنيا كقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴿١٤﴾﴾ [سورة فاطر] ومعنى كُفرِهِ بإشراكهم إياه تبرُّؤه منه واستنكارُه له، كقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴿٤﴾﴾ [سورة الممتحنة]، ومعنى إشراكِهم الشيطانَ بالله طاعتهم له فيما كان يُزينه لهم من عبادة الأوثان، وهذا ءاخِرُ قولِ الشيطان، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ قولُ الله عزَّ وجلَّ.

٢٣- ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أدخلَتهم الملائكةُ الجنةَ بإذن الله وأمره ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ هو تسليمُ بعضِهم على بعضٍ في الجنة، أو تسليم الملائكة عليهم.

٢٤- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ ضَربَ كلمةً طيبةً مَثَلًا، يعني جعَلها مَثَلًا ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي هي كشجرة

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ
ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ
ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي
ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

طيبةٍ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ضاربٌ بعُروقِه فيها ﴿وَفَرْعُهَا﴾ وأعلاها ورأسُها ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ والكلمةُ الطيبة: كلمةُ التوحيد، أَصلُها تصديقٌ بالجَنان، وفرعُها إقرارٌ باللسان، وأُكُلُها عملُ الأركان، وكما أنَّ الشجرةَ شجرةٌ وإن لم تكن حاملًا، فالمؤمنُ مؤمنٌ وإن لم يكن عاملًا.

٢٥- ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ تُعطي ثَمرَها كلَّ وقتٍ وقَّتَه اللهُ لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ بتيسير خالقِها وتكوينه ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لأنَّ في ضرب الأمثال زيادةَ إفهامٍ وتذكيرٍ وتصويرٍ للمعاني.

٢٦- ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمةُ الكفر ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلُّ شجرةٍ لا يَطيبُ ثمرها ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ استؤصلت جُثَّتُها ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي استقرارٍ، شُبِّهَ بها القولُ الذي لا يُعضَدُ بحجة فهو داحض[1] غير ثابت.

٢٧- ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ يُديمُهم عليه وهو قولُ لا إلـٰه إلا الله محمدٌ رسول الله ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حتى إذا فُتنوا في دينهم لم يَزِلُّوا، كما ثبَّت الذين فَتنَهم أصحابُ الأُخدود ﴿وَفِي ٱلْءَاخِرَةِۖ﴾ في القَبرِ بتلقين الجواب وتمكين الصواب ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ ﴿٢٧﴾﴾ فلا يُثبتهم على القول الثابت في مواقف الفِتَن، وتَزِلُّ أقدامُهم أولَ شيء، وهم في الآخرة أَضلُّ وأزلُّ ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ فلا اعتراضَ عليه في تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين.

---

(١) أي: زالِقٌ بمعنى باطل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا
وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى
ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ
أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾

٢٨- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ شُكْرَ نعمةِ الله ﴿كُفْرًا﴾ لأنَّ شكرَها الذي وجبَ عليهم وَضَعوا مكانَه كفرًا، فكأنهم غيَّروا الشكر إلى الكفر وبدَّلوه تبديلًا، وهم أهلُ مكةَ، أكرمَهم بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام فكفروا نعمةَ الله بَدَلَ ما لَزِمَهم من الشكر ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الذين تابعوهم على الكفر ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ دارَ الهلاك.

٢٩- ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يَدخلُونَها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ وبئسَ المَقرُّ جهنمُ.

٣٠- ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالًا في العبادة ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [ليُضلوا بذلك عن سبيل طاعة الله غيرهم، كما ضَلُّوا بأنفسهم] ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ في الدنيا، والمراد به الخِذلان والتَّخلية ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ مرجعَكم إليها.

٣١- ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خَصَّهم بالإضافة إليه تشريفًا ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ قل لهم: ليُقيموا الصلاةَ ولينفقوا ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ مُسِرِّين ومُعلِنين، أي إنفاقَ سِرٍّ وإنفاقَ علانيةٍ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ لا انتفاعَ فيه بمبايعةٍ ولا مُخالَّةٍ[1]، وإنما يُنتفعُ فيه بالإنفاق لوجه الله.

٣٢- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب مطرًا ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي أخرج به رزقًا هو

---

(١) المُخالَّةُ: المُصادَقة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ
ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن
تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ
ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾

ثـــمـــراتٌ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾.

٣٣- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ دائمَينَ أي يدأَبانِ(١) في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات وإصلاحهما ما يُصلِحان من الأرض والأبدان والنبات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ يتعاقبان خِلْفَةً(٢) لمعاشكم وسُباتكم(٣).

٣٤- ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ وءاتاكم من كلِّ شيء سألتموه وما لم تسألوه فحذفت الجملةُ الثانية لأن الباقيَ يدل على المحذوف [فلم نسأله شمسًا ولا قمرًا ولا كثيرًا من نِعَمِه التي ابتدأنا بها] ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تُطيقوا عدَّها وبلوغ ءاخِرها، هذا إذا أرادوا أن يَعدُّوها على الإجمال، وأما التفصيل فلا يعلمه إلا الله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [الكافر] ﴿لَظَلُومٌ﴾ [كثير الظلم لنفسه في معصيته] ﴿كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ شديدُ الكفران [لربه في نعمته].

٣٥- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ واذكر إذ قال إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي البلدَ الحرامَ ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمن ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ وَبَعِّدني، أي وثبتني وأَدِمني على اجتناب عبادتها ﴿وَبَنِيَّ﴾ أرادَ بَنيهِ من صُلبه ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ من أن نعبدَ الأصنام.

---

(١) يَدأبان: يَستمرّان.
(٢) أي: يَخلُف كل منهما الآخر.
(٣) أي: راحتكم.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

٣٦- ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ جُعلنَ مُضِلَّات على طريق التسبيب، لأنَّ الناس ضَلُّوا بسببهنَّ فكأنهنَّ أَضللنَهم ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ على مِلَّتي وكان حنيفًا مسلمًا مِثلي ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ﴾ أي هو بعضي لفَرطِ اختصاصه بي ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ فيما دونَ الشرك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ أو ومن عصاني عصيانَ شركٍ فإنك غفور رحيم إن تابَ وءامَن.

٣٧- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ بعضَ أولادي وهم إسماعيلُ ومن وُلِدَ منه ﴿بِوَادٍ﴾ هو وادي مكةَ ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ لا يكون فيه شيءٌ من زرعٍ قَطُّ ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ هو بيتُ الله، سمّيَ به لأنَّ الله تعالى حَرَّمَ التعرُّضَ له والتهاونَ به، وجعل ما حوله حَرَمًا لِمَكانِهِ(١)، أو لأنه لم يزل مُمَنَّعًا يهابُه كلُّ جبّارٍ، أو لأنه محتَرَمٌ عظيمُ الحُرمة لا يَحِلُّ انتهاكها ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ما أسكنتُهم بهذا الوادي البَلْقَع(٢) إلا ليقيموا الصلاة عندَ بيتك المحرَّم ويَعْمُروه بذِكركَ وعبادتك ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أَفئدةً من أَفئدةِ الناس ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ تُسرعُ إليهم من البلاد الشاسعة وتطيرُ نحوَهم شوقًا ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مع سُكناهم واديًا ما فيه شيء منها بأن تُجلَبَ إليهم من البلاد الشاسعة ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ النعمةَ في أن يُرزَقوا أنواعَ الثمرات في وادٍ ليس فيه شجر ولا ماء.

---

(١) أي: لمكانته، ما يليه من المسافة المحدودة والمكانِ المحدود الذي بيَّنَه إبراهيم عليه السلام جُعل حرامًا لمكانة البيت الحرام المشرف عند الله تعالى، فالإضافة في كلمة بيت الله إضافة تشريف.

(٢) البلقعُ: الأرضُ القَفْر التي لا شجر بها ولا ثمر.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي
ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي
وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ
إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾

٣٨- ﴿رَبَّنَآ﴾ النداءُ المُكرَّرُ دليلُ التضرع واللُّجُوء إلى الله ﴿إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ تَعلمُ السرَّ كما تعلم العَلَنَ ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [هذا] من كلام الله عزَّ وجلَّ تصديقًا لإبراهيم عليه السلام، أو مِن كلام إبراهيم عليه السلام.

٣٩- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ وَهَبَ لي وأنا كبير ﴿إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ روي أن إسماعيل وُلد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، ووُلد له إسحاقُ وهو ابن مائةٍ وثنتي عشرة سنةً ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ مُجيب الدعاء، وكان قد دعا ربه وسأله الولد فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [سورة الصافات] فشكر الله على ما أكرمه من إجابته.

٤٠- ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ وبعضَ ذريتي، وإنما بَعَّضَ لأنه عَلِمَ بإعلام الله أنه يكون في ذريته كُفارٌ ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾ استجِبْ دعائي، أو عبادتي.

٤١- ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ ءادمَ وحــواءَ ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ أي يَثبت.

٤٢- ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ تسليةٌ للمظلوم وتهديدٌ للظالم، والمراد الإيذان بأنه تعالى مُعاقبُهم على قليله وكثيره ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ﴾ أي عقوبتَهم ﴿لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ أبصارُهم لا تَقِرُّ في أماكنها من هَول ما ترى.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ
الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ
تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا
مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾

٤٣- ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مُسرعين إلى الداعي ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا يرجع إليهم نظرُهم فينظروا إلى أنفسهم ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ صِفْرٌ[1] من الخير، لا تعي شيئًا من الخوف.

٤٤- ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي يومَ القيامة، و﴿يَوْمَ﴾ مفعولٌ ثانٍ لأَنذِر لا ظرفٌ؛ إذ الإنذار لا يكون في ذلك اليوم ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي الكفارُ: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ أي رُدَّنا إلى الدنيا وأَمهِلنا إلى أَمَدٍ وحَدٍّ من الزمان قريبٍ نتداركْ ما فرَّطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك، فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ حلفتم في الدنيا أنكم إذا مِتّم لا تُزالون عن تلك الحالة ولا تَنتقلون إلى دارٍ أخرى، يعني كفرتُم بالبعث.

٤٥- ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بالأخبار أو المشاهدة، تبيَّن لكم حالُهم و﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي أهلكناهم وانتقمنا منهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ أي صفاتِ ما فَعلوا وما فُعِلَ بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم.

٤٦- ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ مكرَهم العظيم الذي استفرغوا فيه جَهدَهم، وهو ما فعلوه من تأييد الكفر ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ ومكتوب

---

(١) الصِّفْرُ بالكسر: الخالي، يقال: بيت صِفْرٌ من المتاع، ورجلٌ صِفْرُ اليدين.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

عند الله مكرُهم فهو مُجازيهم عليه بمكرٍ هو أعظمُ منه[1]، وهو عذابهم الذي يأتيهم من حيث لا يشعرون ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ وإن وقعَ مكرُهم لزوال أَمرِ النبي ﷺ فعُبّر عن النبي عليه السلام بالجبال لعِظَم شأنه، والمعنى: ومحالٌ أن تزول الجبالُ بمكرهم، على أنَّ الجبالَ مَثَلٌ لآيات الله وشرائعه لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتًا وتمكنًا.

٤٧- ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ مُخْلِفًا رُسلَهُ وَعدَه [بالنصر] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُماكَر ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ لأوليائه من أعدائه.

٤٨- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قيل: تُبدَّلُ أوصافها وتُسَيَّرُ عن الأرض جبالها وتُسوَّى فلا ترى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا[2]، وعن ابن عباس: هي تلك الأرض وإنما تُغيَّرُ - [أي صفاتُها] - وتُبدَّلُ السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونِها أبوابا ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ وخرجوا من قبورهم ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ هو كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ[3] ﴿١٦﴾﴾ [سورة غافر] لأن المُلكَ إذا كان لواحدٍ غَلَّاب لا يُغالَبُ فلا مُستغاثَ لأحدٍ إلى غيره.

---

(١) مَكرُ الله ليس بالمعنى الذي يُطلق فيه المكر على العبد، المَكر بالنسبة للعبد نقصٌ، أما مكرُ الله بالماكرين فليس نقصًا بل دليل على كمال قدرته، معناه يعاقبهم ويجازيهم على مكرهم من حيث لا يشعرون.

(٢) العِوَجُ: الانخفاضُ، والأَمْتُ: الارتفاع.

(٣) أي: يُؤمَرُ منادٍ ينادي فيقول: لمن الملك اليوم، فيجيبه أهل المحشر مؤمنهم وكافرهم: لله الواحد القهار.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ﴾

٤٩- ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومَ القيامة ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرِنَ بعضُهم مع بعض ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ يُقَرَّنون في الأصفاد، والأصفادُ: القيودُ أو الأغلال.

٥٠- ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قُمُصُهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ هو ما يَتَحَلَّبُ[1] من شجرٍ يُسمَّى الأَبهلَ، فيطبخ فَيُهْنَأُ[2] به الإبلُ الجَرْبَى، فيُحرِقُ الجَرَبَ بحِدَّته وحَرِّه، ومن شأنه أن يُسْرِعَ فيه اشتعالُ النار، وهو أسود اللون مُنتِنُ الريح، فيُطلى به جلودُ أهل النار حتى يعودَ طِلاؤه لهم كالسرابيل، ليجتمعَ عليهم لَذْعُ القَطِرانِ وحُرقتُه، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونَتْنُ الريح، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارَين، وكلُّ ما وعده الله أو أوعد به في الآخرة فبينَه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يُقادَرُ قَدْرُهُ، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمُسَمَّياتُ ثَمَّةَ، نعوذ بالله من سَخَطه وعذابه ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ تعلوها باشتعالها، وخصَّ الوجه لأنه أَعزُّ موضع في ظاهر البدن كالقلب في باطنه.

٥١- ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يفعلُ بالمجرمين ما يفعل ليجزيَ كلَّ نفسٍ مُجرمةٍ ما كسبت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ يحاسبُ جميعَ العباد في أسرعِ من لَمْحِ البصر.

٥٢- ﴿هَٰذَا﴾ أي ما وَصَفَه ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ كفايةٌ في التذكير والمَوعظة ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ بهذا البلاغ أي ليُنصحوا وليُنذَروا ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ

---

(١) أي: يتقاطَر.
(٢) أي: يُطلَى.

﴿وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾

﴿وَٰحِدٞ﴾ لأنهم إذا خافوا ما أُنذروا به دعتهم المَخافة إلى النظر حتى يَتوصَّلوا إلى التوحيد، لأنَّ الخشيةَ أُمُّ الخيرِ كلِّه ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ ذوو العقول.

سورة الحجر
وهي تسع وتسعون ءاية مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١- ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾ ﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والمعنى: تلك ءايات الكتاب الكامل الجامع للكمال في البيان.

٢- ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ وَوِدادَتُهم تكون عند النزع، أو يومَ القيامة إذا عاينوا حالَهم وحالَ المسلمين، أو إذا رأوا المسلمين[1] يخرجون من النار فيتمنَّى الكافرُ لو كان مسلمًا.

٣- ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ [أمرٌ فيه إهانةٌ للكفار وتهديد ووعيد]، أي اقطع طمعَكَ من ارعِوائهم[2] ودَعْهُم عن النهي عما هم عليه والصَّدِّ عنه بالتذكرة والنصيحة وخَلِّهم، [والآية في قوم علمَ الله أنهم لا يؤمنون فآيسَ رسولَه عن إيمانهم] ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بدنياهم ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾ ويَشغَلْهم أمَلُهم وأمانِيُّهم عن الإيمان ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ سوءَ

---

(١) أي: ممن كتبَ اللهُ لهم التعذيبَ من أهل الكبائر.
(٢) الارعواء: الندم على الشيء، والانصراف عنه، والترك له.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا
ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾

صنيعهم، وفيه تنبيه على أنَّ إيثارَ التلذذِ والتنعُّم وما يؤدي إليه طولُ الأمل ليس من أخلاق المؤمنين.

٤- ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾﴾ وهو أَجَلُها الذي كُتِبَ في اللوح المحفوظ وبُيِّنَ [لإهلاكها].

٥- ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ [ما يتقدم هلاكُ أُمة قبل أجَلها الذي جعله الله أجَلًا لهلاكها] ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ عنه.

٦- ﴿وَقَالُواْ﴾ أي الكفارُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ أي القرءانُ ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾﴾ يعنون محمدًا عليه الصلاة والسلام، وكان هذا النداءُ منهم على وجه الاستهزاء، والمعنى: إنك لتقول قولَ المجانين حيث تدَّعي أنَّ الله نَزَّلَ عليك الذكرَ.

٧- ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾ هلّا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك.

٨- ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ إلا تنزيلًا مُلتبسًا بالحكمة ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ ولو نزَّلنا الملائكةَ ما كانوا مُنْظرين إذًا وما أُخِّرَ عذابُهم.

٩- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ القرءانَ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ هو رَدٌّ لإنكارهم واستهزائهم في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ فأكَّد أنه هو الذي نَزَّله محفوظًا من الشياطين، وهو حافظه في كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل.

١٠- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ ولقد أرسلنا من قبلك رسلًا في الفِرَق الأوَّلين، والشيعةُ: الفِرقةُ إذا اتفقوا على مذهب وطريقة.

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ
يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا
وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

١١- ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ يُعَزِّي[1] نبيَّه عليه الصلاة والسلام.

١٢- ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ كما سَلَكْنا الكفرَ أو الاستهزاءَ في شِيَعِ الأوَّلين نَسلُكُه في قلوبِ المجرمين من أُمتك.

١٣- ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ بالله أو بالذكر ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ مَضَت طريقتُهم التي سَنَّها اللهُ في إهلاكهم حين كذَّبوا رُسُلَه، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم.

١٤- ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾ يَصْعَدون.

١٥- ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ حُيِّرَتْ، أو حُبِسَت منَ الإبصار، والمعنى أن هؤلاء المشركين بلغ مِن غُلُوِّهم في العناد أن لو فُتح لهم بابٌ من أبواب السماء ويُسِّرَ لهم مِعراجٌ[2] يصعدون فيه إليها ورأَوا من العِيان ما رأَوا لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقةَ له ولقالوا: ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ قد سَحَرَنا محمدٌ بذلك، أو الضمير للملائكة، أي لو أريناهم الملائكةَ يصعدون في السماء عيانًا لقالوا ذلك.

١٦- ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ خلقنا فيها ﴿بُرُوجٗا﴾ نُجومًا، أو منازلَ للنجوم ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي السماء ﴿لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾.

١٧- ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ ملعونٍ، أو مَرْمِيٍّ بالنجوم.

---

(١) يُعَزِّيه: يُصَبِّره.
(٢) المِعراج: ءالةُ الصُّعود.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

١٨- ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي المَسموعَ ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ [فتبِعَهُ ولَحِقَهُ] نَجْمُ [رَجْمٍ] يَنْقَضُّ(١) [عليه فيقتلُه أو يُخبِلُه] ﴿مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ ظاهرٌ للمبصِرين.

١٩- ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها [ليحصل بها الانتفاع لمن حَلَّها] ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ في الأرض جبالًا ثوابتَ ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ وُزِنَ بميزانِ الحكمة وقُدِّرَ بمقدار تقتضيه [الحِكمةُ] لا تَصلُح فيه زيادة ولا نقصان.

٢٠- ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مَعَٰيِشَ﴾ ما يُعاشُ به من المَطاعم ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وجعلنا لكم فيها معايش ولِمَن لستم له برازقين، وأراد بهم العيالَ والمماليك والخَدَمَ الذين يظنون أنهم يرزقونَهم ويُخطئون، فإن اللهَ هو الرزَّاقُ يَرزقُهم وإياهم، ويَدخلُ فيه الأنعامُ والدوابُّ ونحوُ ذلك.

٢١- ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ ذِكرُ الخزائن تمثيلٌ، والمعنى: وما من شيء يَنتفعُ به العبادُ إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نُعطيه إلا بمقدار معلوم.

٢٢- ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ حواملَ بالسحاب، لأنها تحمِلُ السحابَ في جوفها كأنها لاقحةٌ بها ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ فجعلناه لكم سُقيًا ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ نَفَى عنهم ما أَثبتَه لنفسه كأنه قال: نحنُ الخازنون للماء، على معنى نحن القادرونَ على خلقِه في

(١) أي: يَهوي من عُلْوٍ.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا
ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ
مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

السماء وإنزاله منها، وما أنتم عليه بقادرينَ دلالةٌ عظيمة على قُدرتهِ وعجزِهم.

٢٣- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ نُحيي بالإيجادِ ونُميت بالإفناء ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الباقونَ بعد هلاك الخَلقِ كلِّهم، وقيل للباقي وارثٌ استعارةً من وارثِ الميت، لأنه يبقَى بعد فنائه.

٢٤- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ مَن تقدَّم في صَفِّ الجماعة ومَن تأخَّر.

٢٥- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ هو وحدَه يقدرُ على حشرِهم ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ باهرُ الحِكمة واسعُ العلم.

٢٦- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي ءادمَ ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ طِينٍ يابس غيرِ مطبوخ ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ أي خَلَقَه من صَلصَال كائنٍ من حَمَأٍ، أي طينٍ أسودَ متغيرٍ [لطول المكث] ﴿مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ مُصَوَّرٍ، وفي الأول كان ترابًا فعُجِنَ بالماء فصار طينًا، فَمَكَث فصار حَمَأً، فخَلَصَ فصارَ سُلالةً[1]، فَصُوِّرَ [فصار مسنونًا] ويَبِسَ فصار صَلصَالًا، فلا تناقضَ.

٢٧- ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ أبا الجِنّ كآدمَ للناس، [وهو] إبليسُ ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ ءادمَ ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ من نار الحَرِّ الشديد النافذِ في المَسَامِّ.

---

(١) السُّلالَةُ الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [سورة المؤمنون] هي الخُلاصة لأنها تُسَلُّ من بين الكدر، وقيل إنما سُمي التراب الذي خلق ءادمُ منه سلالةً لأنه سُلَّ من كل تُربة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

٢٨- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر وقتَ قولِهِ: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾.

٢٩- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أتممتُ خِلْقَتَه وهيَّأتُها لنفخ الروح فيها ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وجعلتُ فيه الروحَ وأَحييتُه، وليس ثَمَّةَ نفخٌ وإنما هو تمثيلٌ، والإضافةُ للتخصيص [أي روحًا من الأرواح خاصة مُفَضَّلة مُشَرَّفة عندي، إذ الروح خَلْقٌ من خلائقه كسائر الخلائق] ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ يعني اسجدوا له.

٣٠- ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ فالملائكةُ جمعٌ عامٌّ مُحتَمِلٌ للتخصيص، فقَطَعَ بابَ التخصيص بقوله: ﴿كُلُّهُمْ﴾، وذِكرُ الكلِّ احتَمَلَ تأويلَ التفرُّقِ فقطَعَه بقوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾.

٣١- ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الاستثناءُ منقطعٌ ولم يكن هو من الملائكة(١) وكان بينهم مأمورًا معهم بالسجود فَغُلِّبَ اسمُ الملائكة ثم استُثنيَ بعد التغليب ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ امتنعَ أن يكون معهم.

٣٢- ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أيُّ غرض لك في إبائك السجودَ؟ [وهو استفهام يُراد به التوبيخ].

٣٣- ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ أي لا يَصِحُّ مِنّي أن أسجدَ ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.

٣٤- ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ مطرودٌ من رحمة الله.

---

(١) هو ليس منهم لكن كان معهم، فالأمر شمله فأبى.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ
عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾

٣٥- ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ ضَرَبَ يومَ الدين حدًّا للعنة، والمراد به: إنك مذموم مَدعوٌّ عليك باللعنة في السماوات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تُعَذَّبَ، فإذا جاء ذلك اليومُ عُذِّبْتَ بما يُنْسَى اللعنُ معه.

٣٦- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ فأخِّرني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

٣٧- ٣٨- ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، و﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ و﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ في معنى واحد، ولكن خُولِفَ بين العبارات سلوكًا بالكلام طريقةَ البلاغة، وقيل: إنما سألَ الإنظار إلى اليوم الذي فيه يُبعثونَ لئَلا يموتَ، لأنه لا يموتُ يومَ البعثِ أَحدٌ فلم يُجَب إلى ذلك، وأُنظِرَ إلى ءاخر أيام التكليف.

٣٩- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ المعنى: أُقسِمُ بإغوائك إيّاي لأُزيّنَنَّ لهم المعاصي ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في الدنيا التي هي دارُ الغُرور ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

٤٠- ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ استثنى المُخلَصين لأنه عَلِمَ أن كيدَه لا يعملُ فيهم ولا يقبلونَه منه.

٤١- ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ معنى ﴿عَلَيَّ﴾: إليَّ [أي هذا أمرٌ مصيرُهُ إليَّ، ووصفَه بالاستقامة أي هو حقٌّ، وصيرورتهم إلى هذين القسمين ليست لك. والعرب تقول: طريقُك في هذا الأمر على فلان أي: إليه يصير النظرُ في أمرك].

٤٢- ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [إلا مَن قَبِلَ تزيينَك وإغواءَك].

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ
ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا
عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ
أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

٤٣- ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ الضمير للغاوين.

٤٤- ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ نصيبٌ معلوم مُفْرَزٌ.

[ولمَّا ذكر مصير الغاوين أتبعه ما أَعَدّه للمخلَصين فقال]:

٤٥- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ المراد بالمتَّقين الذين اتقوا الشرك.

٤٦- ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ يُقال لهم: ادخلوها ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ سالمين، أو مُسَلَّمًا عليكم؛ تُسَلِّم عليكم الملائكة ﴿ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ من الخروج منها والآفات فيها.

٤٧- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ هو الحِقدُ الكامن في القلب، أي إن كان لأحدهم غِلٌّ في الدنيا على ءاخَرَ نَزَعَ اللهُ ذلك في الجنة من قلوبهم وطيَّب نفوسَهم، وعن عليّ رضي الله عنه: أرجو أن أكون أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ منهم، وقيل: معناه: طهَّرَ الله قلوبَهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ونزع منها كل غِلٍّ وألقى فيها التوادَّ والتحابَّ ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ تدور بهم الأسرةُ حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين يرى بعضُهم بعضًا.

٤٨- ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿نَصَبٌ﴾ تعب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ فتمام النعمة بالخلود.

ولمَّا أَتمَّ ذِكرَ الوعد والوعيد أتبعه:

٤٩- ٥٠- ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ تقريرًا لِما ذَكَرَ وتمكينًا له في النفوس.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا
تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا
بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا
الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا
آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾

٥١- ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ وأَخبِرْ أُمتَك ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ أضيافِهِ وهو جبريل عليه السلام مع أَحَدَ عشرَ مَلكًا، والضيف يجيء واحدًا وجمعًا.

٥٢- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ نُسَلِّمُ عليك سلامًا ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ خائفون[1]، لامتناعِهم من الأكل.

٥٣- ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ لا تَخَفْ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ إنك مُبَشَّرٌ ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ هو إسحاقُ لقوله في سورة هود: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴿٧١﴾﴾ [سورة هود].

٥٤- ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي أَبشَّرتموني مع مَسِّ الكِبَر بأن يولَدَ لي ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ فبأيِّ أُعجوبة تُبشِّرون.

٥٥- ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين الذي لا لَبْسَ فيه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ منَ الآيسين من ذلك.

٥٦- ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ إلا المخطئون طريقَ الصواب، أي لم [أذكر] ذلك قنوطًا من رحمته ولكن استبعادًا له في العادة التي أجراها.

٥٧- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ فما شأنكم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

٥٨- ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي قوم لوط.

٥٩- ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ يريدُ أهلَه المؤمنين ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾

---

(١) سَبَقَ الكلام على ذلك في تفسير سورة هود، الآية (٧٠).

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم: فما حالُ ءالِ لوطٍ؟ فقالوا: إنا لَمُنَجّوهم.

٦٠- ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ الباقينَ في العذاب، وإنما أَسند الملائكةُ فعلَ التقدير إلى أنفسهم ولم يقولوا: قدَّرَ اللهُ [لأنهم هم المأمورون بإهلاكهم]، كما يقول خاصَّةُ المَلِك: أمَرْنا بكذا، والآمِرُ هو المَلِك.

٦١- ٦٢- ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لا أعرفكم، أي ليس عليكم زِيُّ السفر ولا أنتم من أهل الحَضَر، فأخاف أن تطرُقوني بشَرٍّ.

٦٣- ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ما جئناك بما تُنكِرُنا لأجله بل جئناك بما فيه سرورُك وتَشَفِّيكَ[١] من عَدوِّك، وهو العذاب الذي كنت تتوعَّدُهم بنزوله فيمتَرون فيه، أي يشكّون ويكذبونك.

٦٤- ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ باليقين من عَذَابهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ في الإخبار بنزوله بهم.

٦٥- ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ في ءاخرِ الليل ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ وسِرْ خلفَهم لتكون مُطَّلعًا عليهم وعلى أحوالهم ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾ لئَلا يَرَوا ما ينزلُ بقومِهم من العذاب فيرِقُّوا لهم ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ حيث أَمركم اللهُ بالمُضيّ إليه وهو الشامُ أو مِصرُ.

---

(١) التَشَفِّي: بمعنى شفاء الصدر بنيل المراد، وهو هنا بمعنى الانتقام من عَدوِّك.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ
عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾

٦٦- ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ وأوحينا إليه مقضيًّا مبتوتًا، وفُسِّرَ ذلك الأمرُ بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ يُستأصلون عن ءاخِرِهم حتى لا يبقى منهم أحد ﴿مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ وقتَ دُخولِهم في الصبح.

٦٧- ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ سَدُومَ التي ضُربَ بقاضيها المَثَلُ في الجَوْرِ[١] ﴿يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ بالملائكة طمعًا منهم في رُكوب الفاحشة.

٦٨- ﴿قَالَ﴾ لوط: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾﴾ بفضيحةِ ضَيفي، لأن مَن أُسيءَ إلى ضيفه فقد أُسيءَ إليه.

٦٩- ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ ولا تُذِلُّوني بإذلال ضيفي.

٧٠- ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ عن أن تُجيرَ منهم أحدًا أو تدفعَ عنهم، فإنهم كانوا يَتعرضون لكلِّ أحد، وكان عليه السلام يقوم بالنهي عن المنكر والحَجز بينهم وبين المتعرَّض له فأَوعَدوه وقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [سورة الشعراء]، أو عن ضِيافة الغرباء، [أي: أَوَلَم ننهك عن ضيافة الغرباء].

٧١- ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ فانكِحوهن - وكان نكاحُ المؤمنات من الكفار جائزًا - ولا تتعرضوا لهم ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ إن كنتم تريدون قضاءَ الشهوة فيما أَحلَّ اللهُ دون ما حَرَّمَ، فقالت الملائكة للوط عليه السلام:

٧٢- ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ في غَوَايَتِهم التي أذهبتْ عقولَهم وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه، وبين الصواب الذي تُشير به عليهم من ترك البنينَ إلى البناتِ ﴿يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ يتحيَّرون فكيف يقبلون قولَك

---

(١) كان يقال: أَجْوَرُ مِن قاضي سَدُوم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

ويُصغون إلى نصيحتك، أو الخطاب لرسول الله ﷺ وهو قسمٌ بحياته، وما أقسم الله تعالى بحياة أحد [مِن خَلْقِه قَطُّ غيره] تعظيمًا له، [وعلى المعنى السابق يكون الخطاب للوط عليه السلام ويكون القسَم بحياته وهو من خطاب الملائكة له، أي قالت الملائكة له ذلك].

٧٣- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صيحةُ جبريلَ عليه السلام ﴿مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ داخلين في الشروق وهو بُزوغُ الشمس.

٧٤- ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ رفعَها جبريلُ عليه السلام إلى السماء ثم قلَبَها، والضمير لقرى قوم لوط ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [وهو طين طُبخَ كما يُطبخُ الآجُرُّ حتى صار في صلابة الحجارة].

٧٥- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ للمُتفرِّسين المتأملين كأنهم يعرفون باطنَ الشيء بسِمَةٍ ظاهرة.

٧٦- ﴿وَإِنَّهَا﴾ وإنَّ هذه القرى، يعني اٰثارها ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ ثابتٍ يَسلُكُه الناس لم يندرس[1] بعدُ، وهم يُبصرون تلك الآثارَ، وهو تنبيه لقريش.

٧٧- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ لأنهم المنتفعونَ بذلك.

٧٨- ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ وإنَّ الأمرَ والشأن: كان أصحاب الأَيكة، أي الغَيضة[2] ﴿لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ لكافرين، وهم قوم شعيب عليه السلام.

---

(١) أي: لم يَنْمَح.

(٢) الغيضة: مجتمع الشجر في مَغيض ماء يجتمع فيه الماء فينبت فيه الشجر، وقيل: الأيكة الشجر الملتفُّ.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا
فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ
مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا
بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾

٧٩- ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ فأهلكناهم لمَّا كذبوا شعيبًا ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني قُرى قوم لوطٍ والأيكةِ ﴿لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾ لَبِطَريق واضح، والإمام: اسمُ ما يؤتَمُّ به[1] فسُمّي به الطريق.

٨٠- ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾ هم ثمودُ، والحِجْرُ: واديهم، وهو بين المدينة والشام، ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠﴾ يعني بتكذيبهم صالحًا، لأنَّ كلَّ رسول كان يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعًا، فمَن كذَّب واحدًا منهم فكأنما كذَّبهم جميعًا.

٨١- ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١﴾ أعرَضوا عنها ولم يؤمنوا بها.

٨٢- ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا﴾ يَنقُبون في الجبال بيوتًا، أو يَبنون من الحجارة ﴿ءَامِنِينَ ٨٢﴾ لوَثاقَةِ البيوتِ واستحكامِها من أن تنهدمَ، ومن نَقْبِ اللصوص والأعداء.

٨٣- ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ العذابُ ﴿مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ في اليوم الرابع وقتَ الصبح.

٨٤- ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾ من بناء البيوت الأنيقة واقتناء الأموال النفيسة.

٨٥- ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ إلا خَلْقًا مُلتبسًا بالحق لا باطلًا وعَبَثًا ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ القيامةَ لتوقُّعِها كلَّ ساعة ﴿لَأٓتِيَةٞۖ﴾ وإنَّ الله ينتقم لك فيها من أعدائك، ويجازيك وإياهم على حسناتِك وسيئاتِهم، ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ فأَعرِضْ عنهم إعراضًا

---

(١) أي: يُقتَدَى به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ
عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ
إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾

جميلًا بحِلم وإغضاء، قيل: هو منسوخ بآية السيف، وإن أريد به المخالقةُ[1] فلا يكون منسوخًا.

٨٦- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الذي خلقَك وخلقَهم ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم، وهو يحكم بينكم.

٨٧- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ سبعَ ءايات وهي الفاتحة، أو سبعَ سور وهي الطوال ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ هي منَ التثنية، وهي التكريرُ، لأن الفاتحة مما يَتكررُ في الصلاة، وأما السُّوَر فَلِمَا وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ هذا ليس بعطف الشيء على نفسه لأنه إذا أُريد بالسَّبع الفاتحة أو الطوال فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرءان، ثم قال لرسوله:

٨٨- ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمَحْ ببصرك طُموحَ راغبٍ فيه مُتَمَنٍّ له ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافًا من الكفار كاليهود والنصارى والمجوس، يعني قد أُوتيت النعمةَ العظمى وهي القرءانُ العظيم، فعليك أن تستغنيَ به ولا تمدَّنَّ عينيكَ إلى متاع الدنيا ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لا تَتَمَنَّ أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوَّى بمكانهم الإسلامُ والمسلمون ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ وتواضَعْ لِمَن معك من فقراء المؤمنين، وطِبْ نفسًا عن إيمان الأغنياء.

٨٩- ﴿وَقُلْ﴾ لهم: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ أُنذركم ببيانٍ وبرهانٍ أنَّ عذابَ الله نازلٌ بكم.

---

(١) المخالقةُ: المعاملة بِحُسن الخُلُق.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

٩٠- ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أي أنزلنا عليك مثلَ ما أنزلنا ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [القرءانَ إلى حق وباطل بزعمهم] وهم أهل الكتاب.

٩١- ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أجزاءً، حيث قالوا بعِنادهم بعضُه حقٌّ موافق للتوراة والإنجيل وبعضُه باطل مخالف لهما.

٩٢- ٩٣- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أقسَمَ بذاتِهِ وربوبيته ليسألنَّ يومَ القيام واحدًا واحدًا من هؤلاء المقتسمين عمَّا قالوه في رسول الله ﷺ.

٩٤- ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجهَرْ بما تُؤمر به من الشرائع وأَظهِرْهُ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ هو أمرُ استهانة بهم.

٩٥- ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ الجمهورُ على أنها نزلت في خمسةِ نَفَرٍ كانوا يبالغون في إيذاء رسولِ الله ﷺ والاستهزاء به، فأَهلَكهم اللهُ وهم: الوليدُ بن المغيرة مَرَّ بِنبَّالٍ(١) فتعلَّقَ بثوبه سَهمٌ فأصابَ عِرْقًا في عَقِبِهِ فقطعَهُ فمات، والعاصِ بنُ وائلٍ دخلَ في أَخْمَصِهِ شوكةٌ فانتفخت رِجلُه فمات، والأَسودُ بنُ المطلب عَمِيَ، والأَسودُ بنُ عبدِ يغوث جَعَلَ ينطحُ رأسَه بالشجرة ويضربُ وجهَه بالشوك حتى مات، والحارثُ بنُ قيس امتَخَطَ قيحًا ومات.

٩٦- ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ عاقبةَ أمرِهم يومَ القيامة.

---

(١) النَّبَّالُ: صانعُ السِّهام.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

٩٧- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ فيك، أو في القرءان، أو في الله.

٩٨- ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ فافزَعْ فيما نابَكَ إلى الله - والفَزَعُ إلى الله هو الذكرُ الدائم وكثرةُ السجود - يَكفِكَ ويَكشِفْ عنك الغمَّ.

٩٩- ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ ودُمْ على عبادة ربك ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ أي الموتُ، يعني ما دُمتَ حيًّا فاشتغِلْ بالعبادة، وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَزِعَ إلى الصلاة(١).

---

(١) حَزَبَه أَمْرٌ: أي أهَمَّه ونَزَلَ به، فَزِعَ إلى الصلاة: أي لَجَأَ إليها واستعانَ بها على دفع الأمر الحادِث.

سورة النحل
مكية وهي مائة وثمان وعشرون ءاية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ
أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كانوا يستعجلون ما وُعِدوا من قيام الساعة ونزولِ العذابِ بهم يومَ بدر استهزاءً وتكذيبًا بالوعد فقيل لهم:

١- ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي هو بمنزلة الآتي الواقعِ وإن كان منتظرًا لقُربِ وقوعه ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾ تَبرَّأَ جلَّ وعزَّ عن أن يكون له شريكٌ وعن إشراكهم.

٢- ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ بالوحي أو بالقرءان [فإنه] يُحيي القلوبَ الميتة بالجهل ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ [بأَمْرِه] ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ [يختاره للرسالة] ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ [بأن أَنذِروا] ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أَعلِموا الناسَ قولي لا إلـٰه إلا أنا ﴿فَٱتَّقُونِ ٢﴾ [أي أن الله يُنزل على أنبيائه ويوحي إليهم ويأمرهم أن خَوِّفوا عبادي عذابي وغضبي على شركهم بي].

ثم دلَّ على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذَكَر مما لا يَقدِرُ عليه غيرُه مِن خَلقِ السماوات والأرض، وهو قوله:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا
هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾

٣- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ وخَلْقِ الإنسانِ وما يكون منه وهو قوله:

٤- ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ فإذا هو مِنطيقٌ مجادلٌ عن نفسه، مُكافحٌ لخُصومه بعدما كان نطفة لا حِسَّ له ولا حركةَ.

٥- ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ هي الأزواج الثمانية[1]، وأكثر ما يقع على الإبل، أي خلقَ الإنسانَ والأنعامَ، ثم قال: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾، أي ما خلقها إلا لكم يا جنسَ الإنسان ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ هو اسم ما يُدْفأُ به من لباس معمول من صوف أو وَبَر أو شَعَر ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ هي نَسْلُها ودَرُّها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ [خُصَّ الأكل بالذِّكر] لأن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم.

٦- ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [زينة] ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تَرُدُّونَها من مَراعِيها إلى مُراحِها[2] بالعَشِيّ ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ تُرسِلونَها بالغَداة إلى مسارحها[3]، مَنَّ الله تعالى بالتجمُّل بها كما مَنَّ بالانتفاع بها، لأنه من أَغراضِ أصحاب المواشي، لأَن الرُّعيانَ إذا رَوَّحوها بالعَشيّ وسَرَّحوها بالغَداة تزيَّنت بإراحتها وتسريحها الأَفنيةُ، وفرحت أَربابُها وأكسبتهم الجاهَ والحُرْمَةَ عند الناس، وإنما قُدِّمتِ الإراحةُ على التسريح لأن الجمال في الإراحة أظهرُ إذا أَقبلت مَلأَى البطونِ حافلةَ الضُّروع.

---

(١) هي الذكور والإناث من الضأن والمَعز والإبل والبقر.
(٢) هو المكان الذي تأوي إليه الماشية.
(٣) هو المكان الذي تَسرحُ إليه الماشية بالغَداة للرَّعي.

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ
رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ
ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم
مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ
وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾

٧- ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ أحمالكم ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه لو لم تُخلَقِ الإبلُ إلا بجَهدٍ ومَشقَّة فضلًا أن تحمِلوا أثقالكم على ظهوركم ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾ حيث رَحِمَكم بخَلق هذه الحوامل، وتيسير هذه المصالح.

٨- ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ وخلَقَ هذه للركوب والزينة ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ [ما لم يرَهُ البشر ولم يسمعوا به]، ومَن هذا وصفُه يتعالى عن أن يُشْرَكَ به غيرُهُ.

٩- ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ معناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحقِّ عليه، يفعلُ ذلك تفضُّلًا ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾ ومن السبيل [سبيلٌ] مائل عن الاستقامة [وقد بيّناه كما بيَّنَّا الطريقَ المستقيم] ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩﴾ أَرادَ هدايةَ اللطفِ بالتوفيق والإنعام بعدَ الهُدَى العامّ.

١٠- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾ [أي مطرًا منه تَشربون] ﴿وَمِنۡهُ شَجَرٞ﴾ [ومنه يَنبت] الشجرُ الذي ترعاه المواشي ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠﴾ [ترعَون مواشيَكم، وهذا أيضًا من ءاثار قدرته وأنواع نعمته].

١١- ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ ولم يقل: كلَّ الثمرات لأن كلَّها لا تكون إلا في الجنة، وإنما أُنبتَ في الأرض بعضٌ مِن كُلِّها للتذكرة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ فيستدلّون بها عليه وعلى قدرته وحِكمته، والآيةُ: الدِّلالةُ الواضحة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟
مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

١٢- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [يتعاقبان عليكم، هذا لتصرُّفكم في معاشكم، وهذا لِسَكَنكم فيه] ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [لمعرفة أوقات أزمنتكم وشهوركم وسِنِيكم وصلاح معايشكم] ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [لكم تجري في فَلَكها لتهتدوا بها في ظلمات البَرِّ والبحر] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ وذكَرَ العقلَ لأن الآثارَ العُلوية أظهرُ دلالةً على القدرة الباهرة، وأبينُ شهادةً للكبرياء والعَظَمة.

١٣- ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما خلقَ فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ يتعظون.

١٤- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمك، ووصفَهُ بالطراوة لأن الفسادَ يُسرعُ إليه فيؤكلُ سريعًا طريًّا خيفةَ الفساد ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ هي اللؤلؤ والمَرجان ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ﴾ جَوارِيَ تجري جَرْيًا وتشُقُّ الماءَ شقًّا، والمَخْرُ: شَقُّ الماء ﴿فِيهِ﴾ في البحر ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لتعتبروا ولتبتغوا، وابتغاءُ الفضلِ: التجارةُ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ اللهَ على ما أنعمَ عليكم به.

١٥- ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جبالًا ثوابتَ ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لئلّا] تميلَ بكم وتضطربَ ﴿وَأَنْهَـٰرًا﴾ وجعلَ فيها أنهارًا ﴿وَسُبُلًا﴾ طُرُقًا ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ إلى مقاصِدِكم، أو إلى توحيد ربكم.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ
نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا
تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ
وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾

١٦- ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ هي معالمُ الطُّرُق وكلُّ ما يَستدلُّ به السابلةُ[١] من جبل وغير ذلك ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ المرادُ بالنجم الجنسُ، أو هو الثُّرَيَّا والفَرْقَدانِ وبنات نَعْشٍ والجَدْيُ.

١٧- ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ أي اللهُ تعالى ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ أي الأصنامِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ فتعرفونَ فسادَ ما أنتم عليه.

١٨- ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ لا تضبطوا عددَها ولا تبلغْهُ طاقتكم فضلًا أن تُطيقوا القيامَ بِحَقِّها من أداء الشكر، وإنما أتبَعَ ذلك ما عدَّدَ من نِعَمِه تنبيهًا على أنَّ ما وراءها لا ينحصر ولا يُعَدُّ[٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ يتجاوز عن تقصيركم في أداءِ شُكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم.

١٩- ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾ مِن أقوالكم وأفعالكم، وهو وعيدٌ.

٢٠- ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [من الأصنام وغيرها] ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [لا يقدرون على خلق شيء] ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠﴾ [وهم مخلوقون لله].

٢١- ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ هُمْ أموات ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾ نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقينَ، وأحياءً لا يموتون، وعالِمينَ بوقتِ البعث، وأثبتَ لهم صفاتِ الخلق بأنهم مخلوقون

---

(١) السابلةُ: أبناء السبيل المختلفون في الطرقات.
(٢) أي: عند المُنعَم عليه.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ
ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ
رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ
ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

أمواتٌ جاهلون بالغيب، ومعنى ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أنهم لو كانوا ءالهةً على الحقيقة لكانوا أحياءً غيرَ أموات، أي غيرُ جائز عليهم الموتُ، وأَمْرُهم بالعكس من ذلك، وفيه تهكُّم بالمشركين.

٢٢- ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي ثبتَ بما مرَّ أنَّ الإلٰهيةَ لا تكون لغير الله ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ للوَحدانية ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ عنها وعن الإقرار بها.

٢٣- ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي سِرَّهُم وعلانِيَتَهم فيجازيهم، وهو وعيدٌ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ عن التوحيد، يعني المشركين.

٢٤- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ لهؤلاء الكفار ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أيُّ شيء أنزل ربُّكم؟ قيل: هو قول المقتسِمين الذين اقتسَموا مداخلَ مكة يُنفِّرونَ عن رسول الله ﷺ إذا سألَهم وفودُ الحاجّ عمَّا أُنزلَ على رسولِ الله ﷺ قالوا: أَساطيرُ الأوَّلين، أي أحاديثُ الأوَّلينَ وأباطيلُهم.

٢٥- ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ قالوا ذلك إضلالًا للناس، فحملوا أوزارَ ضلالِهم(١) كاملةً وبعضَ أَوزار مَن ضَلَّ بضلالهم، وهو وِزرُ الإضلال، لأن المُضِلَّ والضالَّ شريكان ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يُضِلُّون مَن لا يعلم أنهم ضُلَّال ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [بئس ما يحملونه من الأوزار].

---

(١) في هذه الآية حجة على أن الكفار لا ينقص من ذنوبهم يوم القيامة شيء.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

٢٦- ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ مِن جهة القواعد وهي الأَساطينُ[1]، وهذا تمثيلٌ، يعني أنهم سَوَّوْا منصوباتٍ[2] ليَمكُروا بها رُسُلَ الله، فجعلَ اللهُ هلاكَهم في تلك المنصوبات كحال قوم بَنَوا بُنيانًا وعَمَدُوه بالأساطين، فأُتِيَ البنيانُ من الأساطين بأن ضُعْضِعَت[3] فسقطَ عليهم السقفُ وهَلَكوا، والجمهورُ على أن المراد به نُمرودُ بنُ كَنعانَ حين بنَى الصَّرْحَ[4] ببابل طولُه خمسةُ ءالاف ذراع، فأَهَبَّ اللهُ الريحَ فَخَرَّ عليه وعلى قومه، فهَلَكوا، فأَتاهُ اللهُ أي أَمرُه بالاستئصال ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ من حيث لا يَحتَسِبون ولا يتوقَّعون.

٢٧- ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يُذِلُّهم بعذاب الخِزي سوى ما عُذِّبوا به في الدنيا ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ على الإضافة إلى نفسه حكايةً لإضافتهم[5] ليُوَبِّخَهم بها على طريق الاستهزاء بهم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ﴾ تُعادون وتخاصِمون المؤمنينَ في شأنهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الأنبياءُ والعلماء من أُممهم الذين كانوا يَدعونَهم إلى الإيمان ويعِظونَهم فلا يلتفتون إليهم ويُشاقُّونَهم، يقولون ذلك شَمَاتةً بهم، أو هم الملائكة ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ الفضيحةَ ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ العذابَ ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) جمعُ أُسطُوانة، وهي العَمُود.
(٢) معناه: رتَّبوا حِيَلًا.
(٣) أي: هُدِمَت.
(٤) الصَّرْحُ: القَصر.
(٥) معناه: أين الذين زعمتموهم شركاءَ لي.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾

٢٨- ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ بالكفر بالله ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ الصُّلحَ والاستسلامَ، أي أَخْبَتوا(١) وجاؤوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشِّقاق(٢) ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ﴾ وجَحَدوا ما وُجِدَ منهم من الكفران والعدوان، فَرَدَّ عليهم أُولو العلم، وقالوا: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أيضًا من الشَّماتة، وكذلك:

٢٩- ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ﴾ [لا خروج لكم عنها، ولا خلاص منها] ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [على أنبياء الله وعلى أوليائه] جهنمُ.

٣٠- ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشركَ، [بعدما أَخبرَ عن المشركين أخبرَ عن المؤمنين أنهم إذا سُئلوا] ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾ [أي أنزل خيرًا، لأن القرءان خيرٌ وهدى ونفعٌ وشفاءٌ لما في الصدور] ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ ءامنوا وعملوا الصالحات ﴿حَسَنَةٌ ۚ﴾ ثوابٌ وأمن وغنيمة ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ أي لهم في الآخرة ما هو خيرٌ منها ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ دار الآخرة.

٣١- ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [إقامةٍ، إخبارٌ بدوام مُقامهم فيها] ﴿يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ [من تحت أشجارها] ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ﴾ [مما تشتهي أنفسهم وتلذُّ أعينُهم] ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [وكما

---

(١) أَخْبَتوا أي تَخشَّعوا، أَظهروا الخشوع.
(٢) الشِّقاق: الخِلاف.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ
يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ
ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ
ءَابَآؤُنَا﴾

يجزي الله هؤلاء الذين أحسنوا في هذه الدنيا بما وَصَفَ لكم أنه جزاهم به في الدنيا والآخرة، كذلك يجزي الله الذين اتَّقَوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه].

٣٢- ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرينَ من ظُلم أنفسِهم بالكفر ﴿يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ قيل: إذا أشرفَ العبدُ المؤمن على الموت جاءه مَلَكٌ، فقال: السلام عليك يا وليَّ الله[1] ويُبشرهُ بالجنة، ويقال لهم في الآخرة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ بعَمَلكم، [وقيل: كُلُّ هذا الخطاب يكون في الآخرة قبل دخول الجنة، وهو قول خَزَنة الجنة لهم].

٣٣- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما يَنتظرُ هؤلاء الكفار ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ لقبضِ أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ العذابُ المُستأصِلُ، أو القيامة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثلَ ذلك الفِعل من الشرك والتكذيب ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتدميرهم ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ حيث فعلوا ما استحَقُّوا به التدمير.

٣٤- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ جزاءُ سيئاتِ أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وأحاطَ بهم جزاءُ استهزائهم.

٣٥- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ هذا الكلامُ صَدَرَ منهم استهزاءً، ولو قالوه اعتقادًا لكانَ

---

(١) المؤمنون كلهم أولياء الله بمعنى أن الله تعالى تَوَلّاهم برحمته ويدخلهم الجنة بفضله ولو بعد عذاب لبعض عصاته.

﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم
مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّۖ﴾

صوابًا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ﴾ يعني البَحِيرةَ[١] والسائبة[٢] ونحوَهما ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ كذبوا الرسُلَ، وحَرَّموا الحلالَ، وقالوا مثلَ قولِهم استهزاء ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ إلا أن يُبَلِّغوا الحقَّ ويُطلِعوا على بُطلان الشرك وقبحه.

٣٦- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بأَنْ وَحِّدوه ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ الشيطان، يعني طاعتَه ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ لاختيارهم الهدى [بتوفيق الله إياهم لذلك] ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ لَزِمَت لاختياره إياها [بخِذلان الله له وعدم هدايته للإيمان، فالله سبحانه وتعالى عَلِمَ بعلمه الأزلي مَن يختار الضلالة على الهدى وشاء لهم ذلك وعلمَ مَن يختار الهدى والإيمان وشاء لهم ذلك فحصل من كل منهم ما علمَ أنه يختاره، فاختيارهم ليس عِلَّةً لمشيئة الله بل تَبَعًا لمشيئة الله سبحانه وتعالى] ﴿فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ حيثُ أهلكَهم اللهُ وأخلَى ديارَهم عنهم.

ثم ذكرَ عنادَ قريشٍ وحِرصَ رسولِ الله ﷺ على إيمانهم، وأعلَمَه أنهم مِن قِسْمِ مَن حقَّت عليه الضَّلالة فقال:

٣٧- ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ [أعلَمَ اللهُ

---

(١) البَحِيرة عند الجاهلية هي الناقة إذا نُتِجت خمسةَ أبطن في ءاخرها ذَكَر، شقّوا أُذنَها وخَلَّوا سبيلَها، لا تركب ولا تحلب ولا تطرد عن ماء ولا مرعى.

(٢) كان الرجل في الجاهلية يقول: إذا قدِمتُ من سفري أو تعافيت من مرضي فناقتي سائبة وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا
عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ٣٩ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ٤٠ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾

تعالى نبيه أنَّ من شاءَ له الضلالةَ - وهو المَعنيُّ بِمَن حقَّت عليه الضلالة - لا يُجدي فيه الحرصُ على هدايته] ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾ يمنعونهم من جَريان حُكمِ الله عليهم، ويَدفعونَ عنهم عذابَه الذي أعدَّ لهم.

٣٨- ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ﴾ هو إثباتٌ لِمَا بعدَ النفي، أي بَلَى يبعثُهم ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ بيَّنَ أن الوفاء بهذا الوعدِ حَقٌّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٨﴾ أن وَعْدَه حقٌّ، أو أنهم يُبعثون.

٣٩- ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ يبعثهم لِيُبيّنَ لهم، وهو يشملُ المؤمنين والكافرين ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ هو الحَقُّ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾ في قولِهم: لا يَبعثُ الله مَن يموت.

٤٠- ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ إذا أردنا وجودَ شيء فهو يَحدث بلا توقف، وهذه[١] عبارةٌ عن سرعة الإيجاد تُبيّنُ أن مُرادًا لا يمتنعُ عليه، ولا قولَ ثَمَّ[٢]، والمعنى أن إيجاد كل مقدور على الله بهذه السهولة فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من بعض المقدورات.

٤١- ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ في حقِّه ولوجهه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ هم رسولُ الله وأصحابُه ظلمَهم أهلُ مكة ففرُّوا بدينهم إلى الله، منهم مَن

---

(١) كلمة كن ليس معناه ينطق الله بالكاف والنون، إنما معناه سرعة الإيجاد.
(٢) أي: ليس هناك النطق بِكُنْ.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

هاجرَ إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمع بين الهجرتين، ومنهم مَنْ هاجر إلى المدينة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ مَباءَةً حسنة، [أي لَنُسكِنَنَّهم في الدنيا دارًا حسنة] وهي المدينةُ حيث ءاواهم أهلُها ونصروهم ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ الضمير للكفار، أي لو علموا ذلك لَرَغِبوا في الدين.

٤٢- ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا﴾ هم الذين صبروا، أي على مفارقة الوطن، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ يُفَوِّضون الأمرَ إلى ربهم ويرضَون بما أصابهم في دين الله.

ولمَّا قالت قريش: الله أعظمُ من أن يكون رسولُه بشرًا نزل:

٤٣- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ على أَلسِنَةِ الملائكة ﴿فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أهلَ الكتاب ليُعلِموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشرًا [فهم - وإن لم يؤمنوا - معترفون بذلك] ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [ذلك فإنهم يعلمونه].

٤٤- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [أي أُرسلوا] بالمعجزات والكُتُب ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ القرءانَ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في الذكر مما أُمِروا به ونُهوا عنه، ووُعِدُوا به وأُوعِدوا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ في تنبيهاته فيَتَنَبَّهوا.

٤٥- ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المَكَراتِ السيئات، وهم أهلُ مكة وما مَكروا به رسولَ الله ﷺ ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما فَعلَ بمَن تقدَّمهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي بَغتةً.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ
وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

٤٦- ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ مُتقلّبين في مَسايرهم ومتاجرهم ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [بفائتي العذاب].

٤٧- ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ مُتَخَوِّفين، وهو أن يُهلك قومًا قبلَهم فيتخوَّفُوا، فيأخذَهم العذابُ وهم مُتخوفون متوقِّعون ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ حيث يَحلُم عنكم ولا يعاجلكم مع استحقاقكم.

٤٨- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ﴾ الأَيمانِ ﴿وَالشَّمَائِلِ﴾ جمعُ شِمال ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ حال من الظلال ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ صاغِرون، والمعنى: أَوَلم يَروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظِلالٌ مُتفيّئةٌ عن أيمانها وشمائلها، أي ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادةً لله تعالى غيرَ ممتنعة عليه فيما سخَّرها له من التفيُّؤِ، والأجرام في نفسها أيضًا صاغرة منقادةٌ لأَفعال الله فيها غيرُ ممتنعة.

٤٩- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ المراد بما في السماوات ملائكتُهنّ ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ [من كل ما يَدِبُّ على الأرض] ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ملائكةُ الأرض من الحَفَظَةِ وغيرِهم ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [عن عبادة ربهم].

٥٠- ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يخافونه أن يرسِلَ عليهم عذابًا من فوقهم، [أو] يخافونَ ربهم غالبًا لهم قاهرًا، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الأنعام]، [فتكون الفوقيةُ فوقيةَ قهر وغَلَبة لا فوقية جهة ومكان فهو تبارك وتعالى خالق الأماكن والجهات فيستحيل أن يَتَحَيَّزَ في جهة ومكان] ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فيه دليلٌ على أن الملائكةَ مُكلَّفون مُدارُونَ على الأمر والنهي.

﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا
مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ
يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا
رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

٥١- ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [فاتَّقوا وخافوا عقابي إن عصيتموني وعبدتم غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكًا].

٥٢- ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ الطاعة ﴿وَاصِبًاۚ﴾ واجبًا ثابتًا، [أي طاعةُ الله واجبة أبدًا] لأن كل نعمة منه ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [أي لا ينبغي أن تتقوا غيره].

٥٣- ﴿وَمَا بِكُم﴾ وأيُّ شيء اتصل بكم ﴿مِّن نِّعۡمَةٖ﴾، عافية، وغنًى، وخِصْبٍ ﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ فهو من الله ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ المرضُ، والفقر، والجَدْبُ ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ فما تتضرَّعون إلا إليه، والجُؤارُ: رفعُ الصوت بالدعاء والاستغاثة.

٥٤- ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ المراد بالفريق الكَفَرةُ [والمعنى التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك].

٥٥- ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ مِن نعمة الكشفِ عنهم، كأنهم جَعَلوا غرضَهم في الشرك كفرانَ النعمة، ثم أَوعدَهم فقال: ﴿فَتَمَتَّعُواْۖ﴾ خطاب تهديد ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [عاقبة أمركم].

٥٦- ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾ أي لأشياءَ غير موصوفة بالعلم ولا تشعُرُ أَجَعَلوا لها نصيبًا في أنعامهم وزروعهم أم لا، وكانوا يجعلون لهم ذلك تقرُّبًا إليهم ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ وعيد ﴿عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ من أنها ءالهةٌ، وأنها أَهلٌ للتقرُّب إليها.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ
مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي
ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾

٥٧- ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ كانت خُزاعَةُ وكِنانَةُ تقول: الملائكة بناتُ الله ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ لذاته من نِسبةِ الولد إليه ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور.

٥٨- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ ظَلَّ نهارَه مغتمًّا مُسْوَدَّ الوجه من الكآبة والحياء من الناس ﴿وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾﴾ مملوءٌ حَنَقًا(١) على المرأة.

٥٩- ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ﴾ يَستخفي منهم من أجل سوء المُبَشَّرِ به، ومن أجل تعييرهم، ويُحدّث نفسه وينظر ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أيمسك ما بُشّرَ على هَوَانٍ وذُلٍّ ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾ أم يَئِدُهُ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ حيث يجعلونَ الولدَ الذي هذا مَحَلُّه عندهم لله، ويجعلون لأَنفسهم مَن هو على عكس هذا الوصف.

٦٠- ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ صِفَةُ السوء، وهي الحاجةُ إلى الأولاد الذكور وكراهةُ الإناث، ووَأْدُهُنَّ خَشيةَ الإملاق(٢) ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ وهو الغِنَى عن العالَمين والنزاهةُ عن صفات المخلوقين ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالبُ في تنفيذ ما أراد ﴿ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ في إمهال العباد.

٦١- ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾ على الأرض ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ قَطُّ، ولأَهلَكَها كلَّها بشؤم ظلم الظالمين

---

(١) أي: غيظًا.
(٢) الإملاقُ: الفقر.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۖ لَا
جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ﴾ أي أَجَلِ كلِّ أحد ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

٦٢- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ ما يكرهونَه لأنفسهم من البنات ومن شركاء في رئاستهم، ويجعلونَ له أَرذَلَ أموالِهم، ولأَصنامهم أكرَمَها ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ أي ويقولونَ الكذبَ [وهو] ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۖ﴾ عند الله، وهي الجنةُ إن كان البعثُ حقًّا، كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة فصلت] ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ مُقَدَّمونَ إلى النار مُعَجَّلون إليها.

٦٣- ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أَرسلنا رُسُلًا إلى مَن تقدَّمك من الأمم ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ منَ الكفر والتكذيب بالرسل ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ قرينُهم في الدنيا تولَّى إضلالَهم بالغُرور ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ في القيامة.

٦٤- ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرءانَ ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ للناس ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ﴾ هو البعثُ، لأنه كان فيهم مَن يؤمِنُ به ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [هم الذين ينتفعون به، وينالون الهدى والرحمة].

٦٥- ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ سماعَ إنصافٍ وتدبُّر، لأن مَن لم يَسمعْ بقلبه فكأنه لا يسمع.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا
لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾

٦٦- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ كأنه قيل: كيفَ العِبرةُ؟ فقال: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ يخلقُ اللهُ اللبنَ وسيطًا بين الفَرْثِ[1] - والدم يكتنفانِه، وبينه وبينهما بَرزخٌ لا يبغي أحدُهما عليه بلونٍ ولا طعم ولا رائحة، بل هو خالص من ذلك كلِّه، قيل: إذا أكلتِ البهيمةُ العَلَفَ فاستقر في كَرِشِها طَبَخَتْه، فكان أسفَلُه فَرثًا وأوسطُه لَبَنًا وأعلاه دمًا، والكَبِدُ مُسَلَّطةٌ على هذه الأصناف الثلاثة تقسِمُها فتُجري الدمَ في العروق، واللبنَ في الضروع ويبقى الفرثُ في الكَرش، ثم ينحدرُ، وفي ذلك عبرةٌ لمن اعتبر ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ سَهْلَ المرور في الحلق.

٦٧- ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ ونُسقيكم من ثَمَرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ السَّكَرُ: الخمرُ ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ هو الخلُّ والرُّبُّ والتمر والزبيب [ونحو ذلك]، [والآيةُ إن كانت سابقةً على تحريم الخمر فدالَّةٌ على كراهتها، وإلا فجامِعةٌ] بين العِتاب والمِنَّة [أي العتابِ على اتخاذ ما يَحرُمُ والمِنَّةِ على اتخاذ ما يَحِلُّ، وقيل: السَّكَرُ: ما لا يُسْكِرُ من الأَنبِذة، والرزقُ الحَسَنُ: التمرُ والزبيب] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾ [دالَّةً على قدرته تعالى] ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يستعملون عقولهم في التدبُّرِ فيها].

٦٨- ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [وألـهـمـهـا] ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ يَرفَعونَ من سُقوفِ البيت، أو ما يبنونَ للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي يَتَعَسَّلُ فيها، لأنها

---

(١) الفَرْثُ: هو ثُفْلُ الكَرِش، وهو ما يبقى في المعدة مما لم يتغذَّ منه الجسد، فإذا خرج صار من الفضلات.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

لا تبني بيوتَها في كلّ جبلٍ وكلّ شجرٍ وكلِّ ما يُعْرَشُ.

٦٩- ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ثم كُلي كُلَّ ثَمرة تشتهينها فإذا أكلتِها ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ فادخلي الطُّرقَ التي ألهمَكِ في عَمَلِ العسل، أو إذا أكلتِ الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكي إلى بيوتك راجعةً سُبُلَ ربك لا تَضِلّين فيها ﴿ذُلُلًاۚ﴾ الله تعالى ذلَّلها وسهَّلها ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ يريد العسلَ لأنه مما يُشرَبُ، تُلقيه مِن فِيها ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ منه أَبيضُ وأَصفرُ وأحمر ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ﴾ لأنه من جملة الأدوية النافعة، وقلَّ معجونٌ من المعاجين لم يذكر الأطباءُ فيه العسلَ. وليس الغَرَضُ أنه شفاءٌ لكلِّ مريض، كما أنَّ كلَّ دواءٍ كذلك. وشكا رجلٌ استطلاق بطن أخيه فقال عليه الصلاة والسلام: «**اسقه عسلًا**» فجاءه وقال: زاده شرًّا، فقال عليه السلام: «**صَدَقَ اللهُ وكذَب بطنُ أخيك**[1]، **اسقِهِ عسلًا**» فسقاه فصحَّ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ في عجيب أمرها.

٧٠- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ﴾ بقبضِ أَرواحِكم من أبدانكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ إلى أَخسّه وأحقَره، وهو خمسٌ وسبعونَ سنة، أو ثمانون، أو تسعون ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ﴾ لينسَى ما يعلَمُ، أو لئلا يعلمَ زيادةَ علم على علمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بحكم التحويل إلى الأرذل من الأكمل ﴿قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ على تبديل ما يشاء كما يشاء من الأشياء.

---

(١) كذَب هنا بمعنى أخطأ، أي لم يَزِدْه شَرًّا، بل لم يحصل الشفاء التامُّ منه بعدُ ولكنه سيحصلُ، ودليل صِدقِ ذلك أنه شُفِيَ بعد أن سقاه عسلًا مرة أُخرى.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ
أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ
لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ
ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾

٧١- ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ جعلَكم متفاوتينَ في الرزق، فرزقكم أفضلَ مما رزقَ مماليككم وهم بشرٌ مثلُكم ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ في الرزق، يعني المُلَّاكَ ﴿بِرَآدِّي﴾ بمُعطي ﴿رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ فكان ينبغي أن تردُّوا فَضْلَ ما رُزقتُموه عليهم حتى تتساوَوا في المَلبَس والمَطعم ﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ فما الذين فُضِلوا برادِّي رزقِهم على ما ملكت أيمانهم فيستووا مع عبيدهم في الرزق، وهو مَثَلٌ ضربَه اللهُ للذين جعلوا له شركاء فقال لهم: أنتم لا تُسَوُّون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمتُ به عليكم ولا تجعلونَهم فيه شركاءَ، ولا ترضَون ذلك لأنفسكم، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاءَ؟ ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾ فجعل ذلك [وهو جعلهم له تعالى شركاءَ] من جملة جحود النعمة.

٧٢- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ من جِنسِكم ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ جمعُ حافِدٍ، واختلف فيه، فقيل: هم أولادُ الأولاد، [وقيل غير ذلك] ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ أي بعضِها لأنَّ كلَّ الطيبات في الجنة، وطيباتُ الدنيا أُنموذَجٌ منها ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ هو ما يعتقدونه من مَنفعة الأَصنام وشفاعتها ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ الإسلام ﴿هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾.

٧٣- ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا﴾ أي الصنمَ، وهو جمادٌ لا يملك أن يرزُق شيئًا ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾ ولا يمكنهم أن يَمْلِكوه ولا يتأتَّى ذلك منهم.

٧٤- ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ فلا تجعلوا لله مِثْلًا فإنه لا مِثْلَ له، أي

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾﴾

فلا تجعلوا له شركاءَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ أنه لا مِثْلَ له من الخلق ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ذلك.

ثم ضربَ المَثَلَ فقال:

٧٥- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ﴾ أي مَثَلُكم في إشراككم بالله الأوثانَ مَثَلُ مَن سَوَّى بين عبدٍ مملوكٍ عاجزٍ عن التصرف وبينَ حُرٍّ مالكٍ قد رَزَقَه اللهُ مالًا فهو يتصرف فيه ويُنفق منه كيف شاء، وقُيِّدَ بالمملوك ليُمَيَّزَ مِنَ الحُرّ، إذ هما مِن عباد الله ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ لا يستوي القبيلان ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ [الحمد الكامل لله وَحدَه، فهو الخالق المُنعِم] ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ بأنَّ الحمدَ والعبادة لله.

ثم زاد في البيان فقال:

٧٦- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ الأَبكمُ: الذي وُلِدَ أَخرسَ فلا يَفْهَم ولا يُفْهِم ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ ثِقْلٌ وعِيالٌ على مَن يَلي أَمرَه ويَعولُه ﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾ حيثما يُرسِله ويُصَرِّفهُ في مَطلب حاجة، أو كفاية مُهِمّ لم ينفعْ ولم يأتِ بنُجْحٍ[1] ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ ومَن هو سليمُ الحواسِّ نَفَّاعٌ ذو كفاياتٍ مع رشدٍ وديانةٍ، فهو يأمر الناس بالعدل والخير ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾﴾ على سيرةٍ صالحةٍ ودينٍ

---

(١) النُّجحُ: الظَّفَرُ والفَوز.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ
ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ
ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قويم، وهذا مَثَلٌ ثانٍ ضربه لنفسه ولِمَا يُفيضُ على عباده من ءاثار رحمته ونعمته، وللأصنام التي هي أمواتٌ لا تضرُّ ولا تنفع.

٧٧- ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يختصُّ به عِلمُ ما غاب فيهما عن العباد وخفي عليهم علمُه ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ في قُرب كونها وسرعة قيامها ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ كَرَجْع طَرْفٍ، وإنما ضَرَبَ به المثلَ لأنه لا يُعرفُ زمانٌ أقلُّ منه ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وليس هذا [للشَّكِّ]، ولكنَّ المعنى: كونوا في كونها على هذا الاعتبار، وقيل: [المعنى] بل هو أقرب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ فهو يقدر على أن يُقيم الساعةَ ويبعثَ الخَلقَ لأنه بعضُ المقدورات، ثم دلَّ على قدرته بما بعده فقال:

٧٨- ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ غيرَ عالِمين شيئًا من حقِّ المُنعِم الذي خلقَكم في البطون ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ وما رَكَّب فيكم هذه الأشياءَ إلا ءالاتٍ لإزالة الجهل الذي وُلدتم عليه، واجتلاب العلم والعملِ به مِن شُكرِ المُنعِم وعبادتِه والقيامِ بحقوقه.

٧٩- ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مُذَلَّلاتٍ للطيران بما خلقَ لها من الأجنحة والأسباب المُؤاتية[1] لذلك ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ هو الهواء المتباعد من الأرض في سَمْتِ العُلوِّ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في قَبضِهنَّ وبَسطهنَّ ووقوفهنَّ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بقدرته ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ بأنَّ الخلقَ لا غنى به عن الخالق.

---

(١) أي: المُوافِقة.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ
ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ
حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا
وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ
عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾

٨٠- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ يُسكَنُ إليه ويُنقَطعُ إليه من بيتٍ أو إِلْفٍ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ هي قِبَابُ الأَدَمِ(١) ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ تَرَوْنَها خفيفةَ المَحمِلِ في الضَّربِ والنَّقض والنَّقل ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ الظَّعنُ: الارتحال ﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ قرارِكم في منازلكم ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا﴾ أَصوافِ الضَّأن ﴿وَأَوۡبَارِهَا﴾ وأَوبارِ الإبل ﴿وَأَشۡعَارِهَآ﴾ وأَشعارِ المَعْزِ ﴿أَثَٰثٗا﴾ متاعَ البيت ﴿وَمَتَٰعًا﴾ وشيئًا يُنتفع به ﴿إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾﴾ مُدَّةٍ من الزمان.

٨١- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾ كالأشجار والسُّقوف ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ جمعُ كِنٍّ، وهو ما سَترَكَ من كهفٍ أو غارٍ ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ﴾ هي القُمصانُ والثياب من الصوف والكَتَّان والقطن ﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ وهي تقي البردَ أيضًا إلا أنه اكتُفيَ بأحد الضدين، ولأنَّ الوقايةَ منَ الحرِّ أهمُّ عندهم لكون البرد يسيرًا محتَمَلًا ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ ودروعًا من الحديد تَرُدُّ عنكم سلاحَ عدوِّكم في قتالكم ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ تنظرون في نعمته الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له.

٨٢- ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أعرَضوا عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ فلا تَبعةَ عليك في ذلك، لأنَّ الذي عليك هو التبليغُ الظاهر وقد فعلتَ.

---

(١) قِباب الأَدَم: القِبابُ المتخذة من الأَدَمِ جمع أَديم، وهو الجلد.

﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ
شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ
رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ
لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

٨٣- ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ التي عَدَّدناها بأقوالهم، فإنهم يقولون: إنها من الله ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بأفعالهم حيث عبدوا غيرَ المُنعِم ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ الجاحدون غير المعترفين.

٨٤- ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ﴾ نَحشرُ ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ نبيًّا يشهد لهم وعليهم بالتصديق والتكذيب والإيمان والكفر ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الاعتذار، والمعنى: لا حُجَّةَ لهم، فدلَّ بترك الإذن على أن لا حجَّةَ لهم ولا عُذرَ ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي لا يقال لهم: أَرضُوا ربَّكم، لأن الآخرةَ ليست بدارِ عمل.

٨٥- ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كَفَروا ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ [الذي أُعِدَّ لهم في الآخرة] ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ العذابُ بعد الدخول [إلى جهنم] ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ يُمهَلُون [للإيمان] قبلَه.

٨٦- ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾ أوثانَهم التي عبدوها ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ أي ءالهتُنا التي جعلناها شركاءَ ﴿ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾ أي نعبدُ ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أجابوهم بالتكذيب لأنها كانت جَمادًا لا تعرفُ مَن عَبَدَها.

٨٧- ﴿وَأَلۡقَوۡاْ﴾ يعني الذين ظلموا ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ الاستسلامَ لأَمرِ الله وحُكمِه بعدَ الإباءِ والاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ وبطَلَ عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ من أنَّ لله شركاءَ وأنهم يَنصُرونَهم ويشفعون لهم حين كذَّبوهم وتبرَّأوا منهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ
يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ
هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞إِنَّ
ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ
يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

٨٨- ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وحَملوا غيرَهم على الكفر ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ عذابًا بكفرهم وعذابًا بصَدِّهم عن سبيل الله ﴿بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ بكونهم مُفسدينَ الناسَ بالصَّدّ.

٨٩ - ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ يعني نبيَّهم، لأنه كان يَبعثُ أنبياءَ الأُمم فيهم منهم ﴿وَجِئۡنَا بِكَ﴾ يا محمدُ ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ على أُمتِكَ ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا﴾ بيانًا بليغًا ﴿لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ من أمور الدين، أَمَّا في الأحكام المنصوصة فظاهرٌ، وكذا فيما ثبتَ بالسُّنة، أو بالإجماع، أو بقول الصحابي، أو بالقياس، لأنَّ مرجعَ الكلِّ إلى الكتاب حيث أُمرنا فيه باتِّباع رسوله عليه الصلاة والسلام وطاعتِهِ ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ ودِلالةً إلى الحَقِّ ورحمةً لهم وبِشارةً لهم بالجنة.

٩٠- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بالتسوية في الحقوق فيما بينكم وتَرْكِ الظلم وإيصالِ كل ذي حَقٍّ إلى حَقِّهِ ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ إلى مَن أساءَ إليكم ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وإعطاءِ ذي القرابة، وهو صِلةُ الرَّحِم ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ عن الذنوب المُفرِطَةِ في القُبح ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [ما أنكره الشرع بالنهي عنه] ﴿وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ طلبِ التطاول بالظلم والكِبْرِ ﴿يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ تتَّعظون بمواعظِ الله، وهذه الآية سببُ إسلام عثمانَ بنِ مظعونٍ، قال: ما كنت أسلمتُ(١) إلا حياءً منه عليه السلام لكثرةِ ما

---

(١) أسلمتُ معناه هنا ظاهرًا.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ﴾

كان يعرِضُ عليَّ الإسلامَ ولم يستقرَّ الإيمانُ في قلبي، حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقرَّ الإيمانُ في قلبي، وهي أجمعُ ءاية في القرءان للخير والشر، ولهذا يقرؤها كلُّ خطيبٍ على المنبر في ءاخر كلِّ خُطبةٍ لتكون عِظةً جامعةً لكلّ مأمورٍ ومَنهيّ.

٩١- ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ هي البيعةُ لرسول الله ﷺ على الإسلام [لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الفتح]] ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ أيمانَ البيعة ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها باسم الله ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾ شاهدًا ورقيبًا، لأنَّ الكفيلَ مُراعٍ لحال المكفول به مُهَيمِنٌ عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ من البرِّ والحِنْثِ فيجازيكم به.

٩٢- ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ في نقض الأيمان ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ كالمرأة التي أَنْحتْ[1] على غَزلِها بعد أن أَحكمَتْه وأبرَمَتْه فجعلَتْه ﴿أَنكَـٰثًا﴾ جمعُ نِكْثٍ، وهو ما يُنكث فَتْلُهُ ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ أي ولا تنقضوا أيمانَكم مُتَّخِذيها ﴿دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي مفسدةً وخيانةً ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ بسبب أن تكون أُمةٌ، يعني جماعةَ قريش ﴿هِىَ أَرْبَىٰ﴾ أَزيدَ عددًا وأَوفرَ مالًا ﴿مِنْ أُمَّةٍ ۚ﴾ من جماعة المؤمنين ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ﴾ إنما يختبركم بكونِهم أَربَى [ليتبيَّن[2]] أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وَكَّدتُم من أَيمان البيعةِ لرسول الله ﷺ أم تغترُّون بكثرة قريش

---

(١) أَنحت على غزلها أي أقبلت عليه.

(٢) الله تعالى عالم بما يكون منهم، وإنما يُبينُ ذلك للبشر.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً
وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟
أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾

وثروتهم وقِلَّة المؤمنين وفقرهم ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب، وفيه تحذير من مخالفة ملَّة الإسلام.

٩٣- ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حَنيفةً مسلمة ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ مَن عَلِمَ منه اختيار الضلالة [وشاء له الضلالة فخَذَلَه ولم يوفِّقْه للإيمان] ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ مَن عَلِمَ منه اختيار الهداية [وشاء له ذلك فوفقه للإيمان] ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ يومَ القيامة فتُجزَون به.

٩٤- ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ كرَّرَ النهيَ عن اتخاذ الأيمان دَخَلًا بينهم تأكيدًا عليهم وإظهارًا لِعظَمِه ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتزِلَّ أقدامُكم عن محجَّة الإسلام بعد ثبوتها عليها ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ في الدنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ بصدودكم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وخروجكم عن الدين ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ في الآخرة.

٩٥- ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟﴾ ولا تستبدِلوا ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ وبيعةِ رسول الله ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عَرَضًا من الدنيا يسيرًا، [كان قومٌ] ممَّن أسلمَ بمكة زَيَّنَ لهم الشيطانُ لجَزَعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافِهم المسلمينَ، ولِمَا كانوا يَعِدُونهم إن رجعوا من المواعيد أَنْ يَنقُضوا ما بايعوا عليه رسولَ الله ﷺ فثبَّتهم الله ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ إنَّ ما عند الله من ثواب الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [إن كنتم من أهل العلم والتمييز].

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

٩٦- ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من أعراض الدنيا ﴿يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من خزائن رحمته ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفَدُ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾ على أذى المشركين ومَشاقِّ الإسلام ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [بجزاء أحسنَ من أعمالهم].

٩٧- ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شَرَطَ الإيمانَ لأنَّ أعمالَ الكفار غيرُ مُعْتَدٍّ بها، وهو يدل على أنَّ العملَ ليس من الإيمان ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا لقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ وَعَدَهُ اللهُ ثوابَ الدنيا والآخرة، وذلك أنَّ المؤمن مع العمل الصالح موسِرًا كان أو مُعسرًا يعيش عَيْشًا طيبًا، إن كان موسرًا فظاهرٌ، وإن كان معسرًا فمَعَهُ ما يُطَيِّبُ عيشَه وهو القناعةُ والرضا بقِسمة الله تعالى، وأما الفاجر فأَمره بالعكس، إن كان معسرًا فظاهر، وإن كان موسرًا فالحِرْصُ لا يَدَعُه أن يتهنَّأَ بعيشه.

٩٨- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فإذا أردتَ قراءةَ القرءان ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني إبليسَ ﴿ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ المطرودِ الملعون.

٩٩- ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ﴾ لإبليسَ ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ تَسلُّطٌ وولاية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ فالمؤمن المتوكّل لا يَقبلُ منه وساوسَه.

١٠٠- ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يتخذونَه وليًّا ويتبَعُون وساوسَه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [أي بربهم مشركون].

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾

١٠١- ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ تبديلُ الآية مكانَ الآية هو النسخُ، والله تعالى يَنسخُ الشرائعَ بالشرائعِ لحِكمة [يَعلمُها بعلمه الأزلي الأبدي، فالله سبحانه وتعالى لا يتجدد له علم]، وهو معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ كانوا يقولون: إنَّ محمدًا يَسْخَرُ بأَصحابه يأمرُهم اليومَ بأمرٍ وينهاهم عنه غدًا فيأتيهم بما هو أَهونُ، ولقد افترَوا فقد كان يُنسخُ الأشقُّ بالأهون، والأهونُ بالأشَقِّ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ الحِكمةَ في ذلك.

١٠٢- ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ جبريلُ عليه السلام، أضيف إلى القُدُس وهو الطُّهْرُ، والمُقَدَّسُ: المطهَّرُ من المآثم ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ من عنده وأمره ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ نزَّله ملتبسًا بالحكمة ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ليبلُوَهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه: هو الحقُّ من ربنا والحكمةُ لأنه حكيم لا يفعل إلا ما هو حِكمةٌ وصواب، حكَمَ لهم بثباتِ القَدَم وصحةِ اليقين وطُمأنينة القلوب ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ تثبيتًا لهم وإرشادًا وبشارة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم.

١٠٣- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ أرادوا به غلامًا كان لحويطب قد أسلمَ وحسُنَ إسلامه، اسمه عائِشٌ أو يَعيشُ، وكان صاحبَ كُتُب[١]، أو هو جَبْرٌ غلامٌ رومي لعامر بنِ الحضرمي، أو عَبْدَانِ: جَبْرٌ ويَسَارٌ، كانا يَقرءانِ التوراةَ والإنجيل، فكان رسول الله ﷺ يَسمَعُ ما يَقرءانِ، أو سلمانُ الفارسيُّ ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ

---

(١) أي: له عِلمٌ بالكُتب القديمة.

﴿أَعۡجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ١٠٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ
وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ
وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾

أَعۡجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ لسان الرجل الذي يُميلون قولَهم عن الاستقامة إليه لسانٌ أعجمي غيرُ بَيِّنٍ، وهذا القرءان لسانٌ عربي مُبين، ذو بيانٍ وفصاحةٍ، ردًّا لقولهم، وإبطالًا لطعنهم.

١٠٤- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي القرءانِ ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ ما داموا مختارين للكفر ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ في الآخرة على كفرهم.

١٠٥- ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ﴾ على الله ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ إنما يليق افتراء الكذب بمَن لا يؤمن، لأنه لا يترقَّبُ عقابًا عليه، وهو ردّ لقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الذين لا يؤمنون ﴿هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ على الحقيقة الكاملون في الكذب، لأنَّ تكذيبَ ءاياتِ الله أعظمُ الكذب، أو أولئك هم الكاذبون في قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾.

١٠٦- ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ مَن كفر بالله فعليهم غضبٌ ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ ساكن به ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ طاب به نفسًا واعتقده ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ المعنى: إنما يفتري الكذبَ مَن كفرَ بالله مِن بعد إيمانه واستثنى منهم المُكرَهَ فلم يَدخُل تحت حكم الافتراء. [أفهمت الآية الكريمة أن المُكرَه - بالقتل ونحوه - على التلفظ بالكفر لا يُحكم بكفره إلّا إذا انشرح صدره بما تَلَفَّظَ به وأنَّ هذا الشرط خاص بالمُكرَه وليس عامًّا. فلا يشترط في غير المُكرَه انشراحُ صدره ولا اطمئنانُ قلبه ليُحكمَ عليه بما تلفَّظَ به].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

روي أنَّ ناسًا من أهل مكة فُتِنوا، فارتدّوا، وكان فيهم مَن أُكره فأَجرَى كلمةَ الكفر على لسانه وهو معتقدٌ للإيمان منهم عَمّارٌ، وأما أبواه ياسِرٌ وسُمَيَّةُ فقد قُتلا، وهما أَولُ قتيلَين في الإسلام، فقيل لرسول الله ﷺ: إنَّ عمّارًا كفرَ، فقالَ: «**كَلَّا إنَّ عمّارًا مُلِئَ إيمانًا من قَرْنِهِ**[1] **إلى قَدَمِه واختلطَ الإيمانُ بلَحمه ودمه**»، فأَتَى عمّارٌ رسولَ الله ﷺ وهو يبكي، فجعلَ رسولُ الله ﷺ يمسحُ عينيه وقال: «**ما لك إنْ عادُوا لك فَعُدْ لهم بما قلت**»[2]، وما فَعلَ أَبو عَمّارٍ أَفضلُ لأنَّ في الصبر على القتل إعزازًا للإسلام.

١٠٧- ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الوعيد، وهو لُحوق الغضب والعذاب العظيم ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ﴾ ءاثروا ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي بسبب إيثارهم الدنيا على الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ ما داموا مختارين للكفر.

١٠٨- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ﴾ فلا يتدبَّرون ولا يُصغون إلى المواعظ ولا يُبصرون طريقَ الرشاد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ الكاملون في الغفلة، لأنَّ الغفلة عن تدبُّر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها.

١٠٩- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [إذ ضيَّعوا أعمارَهم وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المُخلَّد].

---

(١) أي: مِن حَدِّ رأسه.

(٢) معناه إن أكرهوك مرة ثانية فيجوز لك أن تُعِيْد.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ
رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً
يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ
بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

١١٠- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ من مكة، أي أَنه لهم لا عليهم، يعني أنه وليُّهم وناصِرُهم لا عَدوُّهم وخاذلُهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ بالعذاب والإكراه على الكفر ﴿ثُمَّ جَٰهَدُوا۟﴾ المشركينَ بعد الهجرة ﴿وَصَبَرُوٓا۟﴾ على الجهاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ من بعد هذه الأفعال وهي الهجرةُ والجهاد والصبر ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ لا يعذبهم على ما قالوا في حالة الإكراه.

١١١- ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ يوم يأتي كلُّ إنسانٍ يجادل عن ذاته، لا يُهِمُّه شأنُ غيره، كلٌّ يقول: نفسي نفسي، ومعنى المجادلةِ عنها الاعتذارُ عنها ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ تُعطى جزاءَ عملِها وافيًا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ في ذلك.

١١٢- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ جَعَلَ القريةَ التي هذه حالُها مثلًا لكلِّ قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمةُ فكفروا وتولَّوا[1]، فأنزل الله بهم نِقمتَه، فيجوز أن يرادَ قريةٌ مُقدَّرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأوَّلين قريةٌ كانت هذه حالَها فضربَها اللهُ مثلًا لمكة إنذارًا من مثل عاقبتها ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ من القتل والسَّبي ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ لا يزعجُها خوف، لأن الطُّمأنينة مع الأمن، والانزعاجَ والقلق مع الخوف ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ واسعًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من كل بلدٍ ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [أي كفر أهلُها بنِعَمِ الله] ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ فأذاقهم ما غَشِيَهم من الجوع والخوف [بصَنيعهم].

---

(١) أي: أعرَضوا عن الحق.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا
رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا
عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا
حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾

١١٣- ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي محمدٌ ﷺ [وهو من أجلِّ النِّعَم، لأنهم قد عرفوا مولدَه ومنشأه وهديَهُ وأمانتَه، فيكون أقربَ لهم إلى تصديقه والاهتداء به، فلم يَعرفوا حقَّ هذه النعمة] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ في حال التباسهم بالظلم، قالوا: إنه القتلُ بالسيف يوم بدر.

روي أنَّ رسول الله ﷺ وجَّه إلى أهل مكة في سِني القحط بطعامٍ ففُرّق فيهم، فقال الله لهم بعد أن أذاقهم الجوع:

١١٤- ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ على يدي محمدٍ ﷺ ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ بدلًا عما كنتم تأكلونه حرامًا خبيثًا من الأموال المأخوذة بالغارات والغصوب وخبائث الكسوب ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ تطيعون.

ثم عدَّد عليهم محرَّمات الله ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم فقال:

١١٥- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ أي المُحَرَّمُ هذه دون البَحيرةِ وأخواتها، وباقي الآية قد مَرَّ تفسيره [في سورة البقرة آية ١٧٣].

١١٦- ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ ولا تقولوا الكذبَ لِمَا تصفُه ألسنتكم من البهائم بالحِلِّ والحُرمة من غير استنادِ ذلك الوصف إلى الوحي ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ
هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ
رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

لا تُحَرِّموا ولا تُحَلِّلوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواهكم، لا لأجل حجة وبيّنة، ولكن قول ساذَجٌ[1] ودعوى بلا برهان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [لا يفوزون أبدًا، نَفَى عنهم الفلاح ثم بَيَّنه بقولِهِ]:

١١٧- ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة، وعذابها عظيم.

١١٨- ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ في سورة الأنعام، يعني ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [سورة الأنعام] الآيةَ ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بالتحريم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ فحرَّمنا عليهم عقوبةً على معاصيهم.

١١٩- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ عملوا السوء جاهلين غيرَ مُتدبِّرين للعاقبة لغَلَبة الشهوةِ عليهم، ومرادُهم لَذَّةُ الهوَى لا عصيانُ المولى ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ من بعدِ التوبةِ ﴿لَغَفُورٌ﴾ بتكفير ما كَثَّروا قبلُ من الجرائم ﴿رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ بتوثيق ما وَثَّقوا بعدُ منَ العزائم.

١٢٠- ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ إنه كان وحدَهُ أُمّةً من الأمم لكماله في جميع صفات الخير، أو ﴿كَانَ أُمَّةً﴾: [أي مأمومًا] يَؤمُّهُ الناس ليأخذوا منه الخير. ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ هو القائم بما أَمرهُ الله ﴿حَنِيفًا﴾ مائلًا عن الأديان إلى ملّة الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ نفى عنه الشركَ

---

(١) بمعنى أنه لا وزنَ له.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي
ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

تكذيبًا لكفار قريشٍ لزعمِهم أنهم على مِلَّة أبيهم إبراهيم.

١٢١- ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [جمع نعمة، بإخلاص العبادة له] ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ اختصَّه واصطفاه للنبوة ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ إلى ملَّة الإسلام.

١٢٢- ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نُبوَّةً وأموالًا وأولادًا ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ لَمِن أهلِ الجنة.

١٢٣- ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ تعظيمُ منزلة نبينا عليه الصلاة والسلام وإجلالُ مَحَلِّه والإيذانُ بأنَّ أشرفَ ما أُوتيَ خليلُ الله من الكرامة اتِّباعُ رسولِنا مِلَّتَه.

١٢٤- ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ فُرض عليهم تعظيمُه وتركُ الاصطياد فيه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ رُوي أنَّ موسى عليه السلام أَمرَهم أن يجعلوا في الأسبوع يومًا للعبادة، وأن يكون يومَ الجمعة، فأَبَوا عليه وقالوا: نريدُ اليومَ الذي فَرَغَ الله فيه مِن خَلق السماوات والأرض وهو السبتُ إلا شِرذمةً[1] منهم قد رضُوا بالجمعة، فهذا اختلافهم في السبت لأن بعضَهم اختاروه وبعضَهم اختاروا عليه الجمعة، فأذِنَ اللهُ لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد [فيه]، فأطاعَ أمرَ الله الراضونَ بالجمعة فكانوا لا يصيدون، وأعقابُهم لم يصبروا عن الصيد فمَسَخَهم اللهُ دون أولئك، وهو يحكمُ بينهم يومَ القيامة، فيجازي كلَّ واحدٍ من الفريقين بما هو أهلُه.

---

(١) أي: طائفةً قليلةً.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم
بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا
تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

١٢٥- ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالمقالة الصحيحة المُحْكَمة ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وهي التي لا يخفَى عليهم أنك تناصِحُهم بها، وتقصدُ ما ينفعهم فيها ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسنُ طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ فمَن كان فيه خيرٌ كفاه الوعظُ القليل، ومَن لا خيرَ فيه عَجَزَت عنه الحِيَلُ.

١٢٦- ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ سُمّي الفعلُ الأولُ عقوبةً - والعقوبةُ هي الثانية - لازدواج الكلام كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الشورى] فالثانية ليست بسيئةٍ، والمعنى: إن صُنِعَ بكم صَنيعُ سوءٍ من قتلٍ أو نحوه فقابلوه بمثلِه ولا تزيدوا عليه ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ لَصَبركم خير لكم.

ثم قال لرسول الله ﷺ:

١٢٧- ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أنتَ، فَعَزَمَ عليه بالصبر ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ بتوفيقه وتثبيته ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكفار إن لم يؤمنوا وعلى المؤمنين وما فَعَلَ بهم الكفارُ، فإنهم وصلوا إلى مطلوبهم ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ ولا يَضيقنَّ صدرُك مِن مكرهم فإنه لا ينفُذُ عليك.

١٢٨- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ هو وليُّ الذين اجتنبوا السيّئات، ووليُّ العاملين بالطاعات. ومَعِيَّتُه: نُصرتُه في المأمور، وعِصْمَتُه في المحظور.

سورة الإسراء
مكية، وهي مائة وعشر ءايات بصري وإحدى عشرة ءاية كوفي وشامي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ۞ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١- ﴿سُبْحَٰنَ﴾ تنزيهَ اللهِ عن السوء ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ محمدٍ ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ قيَّدَهُ بالليل - والإسراء لا يكون إلا بالليل - للتأكيد، أو ليدُلَّ بلفظ التنكير على تقليل مدة الإسراء وأنه أَسرَى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرةَ أربعينَ ليلةً ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قيل: أُسريَ به من دار أُمِّ هانئٍ بنتِ أبي طالب، والمراد بالمسجد الحرام الحَرَمُ لإحاطته بالمسجد والتباسِه به. وقيل: هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**بينا أنا في المسجد الحرام في الحِجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبُراق وقد عُرج بي إلى السماء في تلك الليلة**» وكان العروج به من بيت المقدس، وقد أخبر قريشًا عن عِيرهم[١] وعَدَدِ جِمالها وأحوالها، وأخبرهم أيضًا بما رأى في السماء من العجائب، وأَنه لَقِيَ الأنبياءَ عليهم السلام، وبلَغَ البيتَ المعمورَ وسِدرةَ المنتهى، وكان الإسراءُ قبل الهجرة بسنة وكان في اليقظة ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ هو بيت المقدِس لأنه لم يكن حينئذ

---

(١) أي: قوافِلهم.

﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ
وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ
إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ
وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾

وراءَه مسجدٌ ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ يريد بركاتِ الدين والدنيا، لأنه متعبَّدُ الأنبياء عليهم السلام، ومهبِطُ الوحي، وهو محفوفٌ بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ أي محمدًا عليه الصلاة والسلام ﴿مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ الدالَّةِ على وَحدانية الله وصِدق نبوته برؤيته السماواتِ وما فيها من الآيات ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [وصف الله تعالى نفسه بأنّه يسمع ويرى كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة طه] هذا طريق السمع، والعقل يدل على ذلك، فإن انتفاء السمع والبصر يدل على نقيضهما من الصمم والعمى والله تبارك وتعالى مُقَدَّسٌ عن الاتصاف بالنقائص].

٢- ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ﴾ أي الكتابَ وهو التوراةُ ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ أي لا تتخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ ربًّا تَكِلونَ إليه أُمورَكم.

٣- ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي قلنا لهم: لا تتخذوا مِن دوني وكيلًا يا ذُرية مَن حَمَلنا مع نوح ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن نوحًا عليه السلام ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ في السَّرّاء والضَّرّاء، والشكرُ: مقابلةُ النعمةِ بالثناء على المُنعِم، فاجعلوه أُسوَتكم كما جعلَه ءاباؤكم أُسوَتهم.

٤- ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأوحينا إليهم وَحيًا مَقضيًّا، أي مقطوعًا مبتوتًا بأنهم يُفسدون في الأرض لا محالةَ. والكتابُ: التوراة ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ أُولاهما قتلُ زكرياءَ عليه السلام وحَبسُ أَرْمِيَاءَ عليه السلام حين أنذرهم سَخَطَ اللهِ، والأُخرى قتلُ يحيى بنِ زكرياء عليه السلام وقصدُ قتلِ عيسى عليه السلام ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ ولتستكبرُنَّ

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ
وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ
أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ
لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ
تَتۡبِيرًا ٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾

عن طاعةِ الله، والمراد به البغيُ والظلم وغَلَبَةُ المفسدين على المصلحين.

٥- ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ وَعدُ عِقابِ أُولاهما ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ سلَّطنا عليكم ﴿عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ أَشداءَ في القتال، يعني سَنْحارِيْبَ وجنودَه، أو بُختنصَّر أو جالوتَ، قتلوا علماءَهم، وأحرقوا التوراةَ، وخرَّبوا المسجدَ، وسَبَوا منهم سبعين ألفًا ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ تردَّدوا للغارة فيها ﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥﴾ وكان وعدُ العقابِ وعدًا لا بُدَّ أن يُفعل.

٦- ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ﴾ الدَّوْلةَ والغَلَبةَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الذين بُعثوا عليكم حين تُبتُم ورجعتم عن الفساد والعُلُوّ، أَعَدْنا لكم الدولةَ بمُلك طالوتَ وقتلِ داودَ جالوتَ ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦﴾ مما كنتم، جمع نَفْرٍ، وهو مَنْ يَنفِرُ مع الرجل من قومه.

٧- ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ يعني أن الإحسانَ والإساءةَ كلاهما مختصٌّ بأنفسكم لا يتعدى النفعُ والضَّررُ إلى غيركم. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وَعدُ المَرَّةِ الآخِرة [مِن إفسادكم] بعثناهم [عليكم] ﴿لِيَسُـُٔواْ﴾ هؤلاء ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾ ليجعلوها باديةً ءاثارُ المَساءَة والكآبة فيها [أي ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهَكم بالسَّبْي والقتل] ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾ بيتَ المَقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧﴾ لِيُهلِكوا كلَّ شيء غلبوهُ واستولَوا عليه.

٨- ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ بعدَ المَرَّةِ الثانيةِ إن تُبتم توبةً أُخرى

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ
وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾

وانزجَرْتُم عن المعاصي ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ مرةً ثالثةً ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبَتِكم، وقد عادوا، فأعادَ اللهُ عليهم النِّقمةَ بتسليط الأكاسرة، وضربِ الإتاوة[1] عليهم ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ مَحْبِسًا، يقال للسجن: مَحْصَرٌ وحَصير.

٩- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التي هي أقومُ الحالات وأَسَدُّها، وهي توحيدُ الله والإيمانُ برسُله والعَمَلُ بطاعته ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ بأنَّ لهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ أي الجنةَ.

١٠- ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ﴾ وبأنَّ الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا﴾ أَعدَدْنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ يعني النارَ، والآية تَرُدُّ القولَ بالمنزلة بين المنزلتين، حيث ذكرَ المؤمنينَ وجزاءَهم، والكافرينَ وجزاءَهم ولم يذكرِ الفَسَقَةَ.

١١- ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ ويدعو اللهَ عندَ غضبِهِ بالشرِّ على نفسِه وأَهلِه وماله وولده كما يدعو لهم بالخير ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ يَتسرَّعُ إلى طلبِ كلِّ ما يقعُ في قلبه ويخطرُ بباله، لا يتأنّى فيه تأنِّيَ المُتبصِّر.

١٢- ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [دالَّتين على قدرة الله] ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ [جعلنا الليل ممحوَّ الضوء مطموسَهُ مظلمًا لتسكنوا فيه] ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [مُبصرًا فيها بالضوء] ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾

---

(١) الإتاوة: الخَراج.

﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ
فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ
حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ
أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾﴾

لتتوصَّلوا ببياض النهار إلى التصرف في معايشكم ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ﴾ [بانفصال الليل من النهار] ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ حسابَ الآجال ومواسمَ الأعمال، ولو كانا مِثلَين لَمَا عُرف الليل من النهار ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ﴾ مما تفتقرونَ إليه في دينكم ودنياكم ﴿فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴿١٢﴾﴾ بَيّناهُ بيانًا غير ملتبِس فأَزحنا عِللكم وما تركنا لكم حجَّةً علينا.

١٣- ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ عَمَلَه ﴿فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ يعني أن عَمَلَه لازمٌ له لزومَ القِلادة، أو الغُلِّ للعُنق لا يُفَكُّ عنه ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ غيرَ مَطْويّ ليُمكِنَه قراءتُه ونقول له:

١٤- ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ كتابَ أعمالك، وكلٌّ يُبعثُ قارئًا ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ﴾ كفى نفسُكَ ﴿حَسِيبٗا ﴿١٤﴾﴾ [حافظًا عليك عَملَك].

١٥- ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ أي فَلَها ثوابُ الاهتداء، وعليها وَبالُ الضلال ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾ أي كلُّ نفس حاملةٍ وزرًا فإنما تحمل وِزرَها لا وزرَ نفسٍ أخرى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾﴾ وما صحَّ منا أن نُعذّب قومًا عذاب استئصالٍ في الدنيا إلا بعد أن نرسل إليهم[1] رسولًا يُلزمهم الحُجة.

---

(١) هذا على مذهب الماتريدية، أما الأشاعرة فيحملون هذا على عذاب الآخرة، فعندهم من لم تبلغه الدعوة لا يعذب في الآخرة، وإن عبدَ غيرَ الله وفَعلَ ما فعل، أما الماتريدية فيقولون: الذي لا يؤمن بالخالق ويموت على ذلك لا يعذر، ولو كان لم تبلغه الدعوة لأن العقل يكفي في معرفة الله فمن لم يعرف الله فبتقصيره، هو لم يتفكر في مخلوقات الله حتى يعرف الخالق فلا عذر له، لكن الراجح عندنا في هذا مذهبُ الأشاعرة،=

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ
عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾

١٦- ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أهلَ قريةٍ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ مُتنعِّميها وجبابرتَها بالطاعة ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ أي خرجوا عن الأمر ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ فوجَبَ عليها الوعيد ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ فأهلكناها إهلاكًا.

١٧- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ﴾ يعني عادًا وثمودَ وغيرَهما ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا﴾ وإن أخفَوها في الصُّدور ﴿بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ وإن أَرخَوا عليها السُّتورَ.

١٨- ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ لا ما يَشاءُ ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي من كانت العاجلةُ هَمَّه ولم يُرد غيرَها كالكفرة تَفضَّلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد، فقيَّد المعجَّلَ بمشيئته والمعجَّلَ له بإرادته، وهكذا الحالُ ترى كثيرًا من هؤلاء يَتمنَّون ما يتمنَّون ولا يُعطَونَ إلا بعضًا منه، وكثيرًا منهم يَتمنَّون ذلك البعض وقد حُرِمُوه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأما المؤمن التقي فقد اختار غنى الآخرة، فإن أوتي حظًّا من الدنيا فبها وإلا فربما كان الفقر خيرًا له ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يدخلُها ﴿مَذْمُومًا﴾ ممقوتًا ﴿مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ مطرودًا من رحمة الله.

= لأن الاهتداء بالعقل إلى معرفة وجود الله لا يتيسر إلا لقليل من الناس، ومراد الماتريدية أن العاقل يقول: أنا كنت بعد أن لم أكن، وما كان بعد أن لم يكن لا بد له من مكوِّن، فأنا لا بد لي من مكوِّن، وهذا المكوِّن يكون قديمًا أزليًّا لا يكون حادثًا، وذلك المكون لا يشبهني ولا يشبه غيري مِن هذا العالم، فإن لم يكن سمع باسم الله يكون اعتقد أن للعالَم خالقًا أوجده من العَدَم.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا
نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا
مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ
أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾

١٩- ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ حقَّها من السعي وكِفَاءَها من الأعمال الصالحة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مُصدِّق لله في وعده ووعيده ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ مقبولًا عند الله مُثابًا عليه، عن بعض السلف: مَن لم يكن معه ثلاث لم ينفعْهُ عملُه: إيمان ثابت ونِيَّة صادقةٌ وعمل مُصيبٌ، وتلا الآيةَ.

٢٠- ﴿كُلًّا﴾ كلَّ واحدٍ من الفريقين ﴿نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ مَن أرادَ العاجلةَ ومن أراد الآخرة ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ رِزقِه، أي نزيدُهم من عطائنا، فنَرزقُ المطيعَ والعاصيَ جميعًا على وجه التفضُّل ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ ممنوعًا عن عباده وإن عَصَوا.

٢١- ﴿ٱنظُرْ﴾ بعين الاعتبار ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في المال والجاه والسَّعَة والكمال ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [من درجات الدنيا ومن تفضيل الدنيا، أي التفاوت في الآخرة أكبر لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودركاتها].

٢٢- ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطابُ للنبي ﷺ، والمراد به أُمتُه ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ فتصيرَ جامعًا على نفسك الذمَّ والخِذلان.

٢٣- ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأَمرَ أمرًا مقطوعًا به ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ بألّا تعبدوا [إلا إيّاه] ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وبأن تُحسنوا بالوالدين إحسانًا ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [خَصَّ حالةَ الكِبَر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بِرّه لِتَغيُّر الحال عليهما بالضعف والكِبَر،

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾

فأُلزِمَ في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما أُلزمه من قبلُ لأنهما صارا يحتاجان أن يليَ منهما ما كان يحتاج في صغره أن يَلِيَا منه، فنُهي عن أن يُظهرَ لهما شيئًا من التكرُّه والتضجُّر بقوله:] ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أفٌّ: صوتٌ يدل على تضجُّر ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تَزجُرْهما عما يتعاطيانه مما لا يُعجبك، والنهيُ والنَّهْرُ أَخوان ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ جميلًا لَيِّنًا كما يقتضيه حُسن الأدب.

٢٤- ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ واخفِضْ لهما جناحَكَ الذليلَ ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ مِن فَرطِ رحمتك لهما وعطفك عليهما لكِبَرِهما وافتقارِهما اليومَ إلى مَن كان أَفقرَ خلقِ الله إليهما بالأمسِ ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ ولا تكتفِ برحمتك عليهما التي لا بقاءَ لها، وادعُ اللهَ بأن يرحمَهما رحمتَه الباقيةَ، واجعل ذلك جزاءً لرحمتهما عليك في صِغَرك وتربيتِهما لك، والمراد بالخطاب غيرُه عليه السلام.

٢٥- ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ بما في ضمائركم من قصدِ البِرِّ إلى الوالدين، ومِنَ النشاط والكرامة في خدمتهما ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ قاصدينَ الصَّلاحَ والبِرَّ، ثم فَرَطَتْ منكم في حال الغضب وعند حَرَجِ الصَّدر(١) هَنَةٌ تؤدي إلى أذاهما ثم أَبْتُم إلى الله واستغفرتُم منها ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ الأوَّابُ: الذي إذا أذنبَ بادرَ إلى التوبة، فجاز أن يكون هذا عامًّا لكلّ مَن فَرَطَت منه جنايةٌ ثم تاب منها، ويندرِجُ تحته الجاني على أبويه التائبُ من جنايته لوروده على إِثْرِه.

٢٦- ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ منك ﴿حَقَّهُۥ﴾ أي النفقةَ إذا كانوا محارمَ

---

(١) حَرَجُ الصَّدْرِ: ضِيقُه.

﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾

فقراءَ ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وءاتِ هؤلاء حقَّهم من الزكاة ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ ولا تُسرِفْ إسرافًا، التبذير: تفريقُ المال في غير الحِلِّ والمَحَلِّ، فعن مجاهد: لو أنفقَ مُدًّا في باطل كان تبذيرًا، وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السَّرَفِ، فقال: لا سَرَفَ في الخير.

٢٧- ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أمثالَهم في الشَّرَارَةِ، وهي غاية المَذمَّة، لأنه لا شَرَّ من الشيطان[1] ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [فلا] ينبغي أن يُطاع، فإنه لا يدعو إلا إلى مِثلِ فِعله.

٢٨- ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ وإن أَعرضتَ عن ذي القربى والمسكين وابنِ السبيل حياءً من الرَّدِّ ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي وإن أعرضتَ عنهم لِفَقْدِ رزقٍ من ربّك ترجو أن يُفتح لك [به فتعطيهم منه] فسمَّى الرزق رحمة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾، فرُدَّهم ردًّا جميلًا، وقيل معناه: فقل لهم رَزَقَنا الله وإياكم من فضله.

٢٩- ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [أي: ولا تمنع العَطِيَّةَ بِمَرَّةٍ مَنْعَ البخيل، والغَلُّ كنايةٌ عن المنع] ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [ولا تُجاوِزِ الحدَّ في الأعطاء إلى تضييع الواجب] وهذا تمثيل لمنع الشَّحيح وإعطاء المُسرِف[2][3]، أَمْرٌ بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف

---

(١) أي: لا أكثرَ منه شَرًّا، بل هو شَرٌّ من كل أحد، والشَّرَارَة المصدر من الشَّرِّ.
(٢) السَّرَفُ في الأصل مُجاوَزَةُ القصد.
(٣) لا يُرادُ بذلك النهي عن التوسع في الجود والكرم في الخير بل ذلك ممدوح مُرَغَّبٌ فيه، فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يدَّخِرُ شيئًا لِغَدٍ، وكان يجوع حتى يَشُدَّ الحجرَ=

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

والتقتير[١] ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ فتصيرَ مَلومًا عند الله - لأنَّ المُسرفَ غيرُ مَرضِيّ عنده - وعند الناس - يقول الفقير: أَعطَى فلانًا وحرمني، ويقول الغني: ما يُحسنُ تدبيرَ أَمرِ المعيشة - وعند نفسِكَ إذا احتجتَ فندِمتَ على ما فعلت ﴿مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ منقَطَعًا بك لا شيءَ عندك.

٣٠- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [أي: هو الذي يوسِّعُ الرزق على من يشاء من عباده] ﴿وَيَقْدِرُ﴾ [ويُضَيِّقُه على من يشاء منهم وَفْقَ عِلمِه وحِكمتِهِ سبحانه وتعالى] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾ [مُطَّلِعًا على خفاياهم لا يغيب عن عِلمه شيء من أمورهم] ﴿بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [بأحوالهم وأعمالهم].

٣١- ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ قَتلُهم أولادَهم: وَأْدُهم بناتِهم ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ فقرٍ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ نهاهم عن ذلك وضَمِنَ أرزاقهم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ إثمًا عظيمًا.

٣٢- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ هو نهيٌ عن دواعي الزنا كالمَسّ والقُبلة ونحوِهما ولو أُريدَ النهيُ عن نفس الزنا لقال: ولا تزنوا، [وقيل معناه: لا تقربوا الزنى بالعزم والإتيان بالمقَدّمات فضلًا عن أن تباشروه] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ معصيةً مجاوزةً حدَّ الشرع [ظاهرة القبح] ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ وبئسَ طريقًا طريقُه.

= على بطنه وكان فضلاء الصحابة ينفقون جميع ما يملكون فلم ينههم الرسول عن ذلك، وكانوا يفعلون ذلك لصحة يقينهم.

(١) التقتيرُ: التضييقُ في النفقة.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

٣٣- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بارتكاب ما يُبيحُ الدمَ ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ غيرَ مرتكب ما يُبيحُ الدمَ ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ تسلُّطًا على القاتل في الاقتصاص منه ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ الضميرُ للولي، أي فلا يَقتُلْ غيرَ القاتل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ حَسْبُه أنَّ اللهَ قد نصره بأن أوجبَ له القِصاصَ فلا يستزِدْ على ذلك.

٣٤- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالخَصلة والطريقة التي هي أحسن، وهي حِفظُه عليه وتثميره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [أي: كمالَ قوته وعقله] أي: ثمانيَ عشرةَ سنةً، [وقيل: هو إذا احتلم أو بلغ بالسنّ وهو بلوغ خمس عشرة سنة مع عدم السَّفَه] ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ بأوامرِ الله تعالى ونواهيه ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ مطلوبًا يُطلبُ من المُعاهَد ألّا يُضيّعَه ويفيَ به.

٣٥- ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ هو كلُّ ميزانٍ صغيرٍ أو كبيرٍ من موازين الدراهم وغيرها ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ المعتدل [السَّوِيّ] ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ في الدنيا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ عاقبةً.

٣٦- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ولا تتَّبع ما لا تعلم [من قول أو فعل، نهى أن نقول ما لا نعلم، وأن نعملَ بما لا نعلم] ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [العبد مسؤول عما يَكسِبه بسمعه وبصره وقلبه من الأمور فيحاسَب عليها ويجازَى بها].

يقال للإنسان: لِمَ سمعتَ ما لا يحلُّ لك سماعه؟ ولِمَ نظرت إلى ما لَمْ يحلَّ لك النظرُ إليه؟ ولِمَ عَزَمت على ما لم يَحِلَّ لك العزم عليه.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ
سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ
لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

٣٧- ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ﴾ أي ذا مَـرَح ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ لن تجعلَ فيها خَرْقًا بدَوْسِك لها وشِدَّة وطئتِكَ ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ بتطاولك، وهو تهكُّم بالمُختال.

٣٨- ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ [إشارة إلى جملةِ ما تقدَّمَ ذِكره مما أَمرَ به ونهى عنه] ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ أي ما كان من المذكور سَيِّئًا كان عند الله مكروهًا [مسخوطًا].

٣٩- ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدَّم من قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى هذه الغاية ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ﴾ مما يَحكُم العقلُ بصحته وتصلُحُ النفسُ بأُسوته[1] ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ مطرودًا من الرحمة.

ثم خاطَبَ الذين قالوا: الملائكة بناتُ الله بقوله:

٤٠- ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ الهمزة للإنكار، يعني أَفخصَّكم ربُّكم [بالذكور من] الأولاد ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ﴾ [وأنتم لا ترضَونهن لأنفسكم، بل تئدُونهن وتقتلونهن] ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ حيث أَضفتم إليه الأولادَ، وهي من خواصِّ الأجسامِ، ثم فضَّلتم عليه أنفسَكم حيث تجعلونَ له ما تكرهون.

٤١- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [بيَّنا، أو كرَّرنا] هذا المعنى في مواضعَ من التنزيل ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ليتَّعظوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ [أي التصريف والتذكير] ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ عن الحق [وتباعدًا وغفلة عن النظر لأنهم

---

(١) الأسوةُ: بضم الهمزة وكسرها القُدوةُ، والمعنى أن النفس تصلحُ بالاقتداء به.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ
عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا
تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ
بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ
فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾

كانوا يقولون فيه إنه سحر وكهانة].

٤٢- ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾ مع الله ﴿ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾﴾ يعني لَطلبوا إلى مَن له المُلكُ والربوبية سبيلًا بالمغالبة كما يفعلُ الملوك بعضُهم مع بعض.

٤٣- ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾﴾ المراد البراءةُ من ذلك والنزاهة والبُعد مما وصفوه به.

٤٤- ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ يقول: سبحان الله وبحمده ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ لاختلاف اللغات أو لِتعَسُّر الإدراك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ عن جهل العباد ﴿غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ لذنوب المؤمنين.

٤٥- ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾﴾ ذا سترٍ، أو حجابًا لا يُرى فهو مستورٌ.

٤٦- ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ جمع كنان، وهو الذي يستر الشيء ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [لئلا] يفقهوه [أي لم يُرِد أو لم يشأ أن يفقهوه] ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ ثِقلًا يمنع عن الاستماع ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ﴾ [وإذا قرأت عليهم ما فيه ذكر التوحيد وذم الشرك] ﴿وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ﴾ رجعوا على أعقابهم ﴿نُفُورٗا ﴿٤٦﴾﴾ يُحِبُّون أن تُذكرَ ءالهتُهم لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا.

٤٧- ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ نحن أعلم بالطريقة التي يستمعون

﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ
كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا
لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ
فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ
قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ﴾

القرءان بها، أي يستمعون هازئين لا جادِّين ﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾ وقتَ استماعهم ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ وبما يتناجَون به ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ سُحِرَ فجُنَّ.

٤٨- ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ مثَّلوك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾ فَضَلّوا في جميع ذلك ضلالَ مَن يطلبُ في التِّيهِ طريقًا يسلُكه فلا يقدِرُ عليه، فهو مُتحيرٌ في أمره لا يدري ما يصنعُ.

٤٩- ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي مُنكرو البعث ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾﴾ مُجدَّدًا.

٥٠- ٥١- ﴿۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ ﴿٥١﴾﴾ أي السماواتُ والأرض فإنها تَكبُر عندكم عن قَبول الحياة ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ﴾: يعيدُكم ﴿ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ والمعنى أنكم تستبعدون أن يُجدِّدَ اللهُ خلقَكم ويردَّه إلى حال الحياة بعد ما كنتم عظامًا يابسةً، مع أنَّ العظام بعضُ أجزاءِ الحَيّ، بل هي عَمُود خلقِه الذي يُبنَى عليه سائره، فليس بِبِدْعٍ أن يَرُدَّها اللهُ بقدرته إلى الحالة الأولى، ولكن لو كنتم أبعدَ شيءٍ من الحياة، وهو أن تكونوا حجارةً أو حديدًا لكان قادرًا على أن يَرُدَّكم إلى حال الحياة ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ﴾ فسيُحَرِّكونَها نحوَك تعجبًا واستهزاءً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾ أي البعثُ استبعادًا له ونفيًا ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾﴾ أي هو قريبٌ.

٥٢- ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ﴾ إلى المحاسبة وهو يومُ القيامة ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ

﴿بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٥٢ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ
يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ۝٥٣ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن
يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ۝٥٤ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ
فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ۝٥٥﴾

﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾ تُجيبون حامدين، عن سعيد بن جبير: يَنفُضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٥٢﴾ زمانًا قليلًا في الدنيا، أو في القبر.

٥٣- ﴿وَقُل لِّعِبَادِي﴾ وقل للمؤمنين ﴿يَقُولُواْ﴾ للمشركين الكلمة ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ وألينُ ولا يخاشِنُوهم، وهي أن يقولوا: يَهديكمُ الله ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يُلقي [بين المؤمنين والمشركين] الفسادَ ويُغري بعضَهم على بعض ليُوقع بينهم المُشاقَّةَ. والنَّزغ: إيقاعُ الشرِّ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ۝٥٣﴾ ظاهرَ العداوة.

٥٤- ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ بالهداية والتوفيق ﴿أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ بالخِذلان ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ۝٥٤﴾ حافظًا لأعمالهم ومَوكولًا إليك أمرهم، وإنما أرسلناك بشيرًا ونذيرًا، فدارِهم ومُرْ أَصحابَك بالمداراة[1].

٥٥- ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وبأحوالهم وبكلِّ ما يستأهِلُ كلُّ واحدٍ منهم ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ فيه إشارة إلى تفضيلِ رسولِ الله ﷺ، وقولُه: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ۝٥٥﴾ دلالةٌ على وجه تفضيله، وأنه خاتَمُ الأنبياء، وأنَّ أُمتَه خيرُ الأمم، لأنَّ ذلك مكتوب في زبور داودَ، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [سورة الأنبياء] وهم محمدٌ وأمته.

---

(١) المُداراةُ: المُلاطَفَةُ والمُلايَنة.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾

٥٦- ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنها ءالهتُكم ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله وهم الملائكةُ، أو عيسى وعزيرٌ، أو نَفرٌ منَ الجن عبدَهم ناسٌ من العرب ثم أسلم الجنُّ ولم يشعروا ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ أي فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضُّرَّ من مرضٍ أو فَقرٍ أو عذابٍ.

٥٧- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يدعونَهم ءالهةً ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يعني أنَّ ءالهتَهم أولئك يبتغون الوسيلةَ وهي القربةُ إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ يحرصون أيُّهم يكون أقربَ إلى الله، وذلك بالطاعة وازدياد الخير ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ كغيرهم من عبادِ الله فكيفَ يزعُمون أنهم ءالهةٌ؟! ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ حقيقًا بأن يَحذَرَهُ كل أحد.

٥٨- ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل: الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة [والمراد بالإهلاك الإماتة كقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة النساء] أي مات، فعلى هذا يكون معنى ﴿مُهْلِكُوهَا﴾: مُميتوها كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴿١٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران] وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الرحمـٰن]، ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ أي بالقتل والبلاء، وعلى هذا التفسير كل قرية في الأرض سيصيبها هذا أو بعضه] ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ مكتوبًا.

٥٩- ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ استُعير

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾

المنع لترك إرسال الآيات، [معناه: لم نُرِد إرسالَ الآيات لأجل أنها لو أُرسلت لَكذَّبوا بها تكذيب الأولين، الله تعالى ليس له مانع يمنع نفوذ مشيئته]، والمراد الآياتُ التي اقترحَتْها قريشٌ مِن قَلْبِ الصَّفا ذهبًا، ومن إحياء الموتى وغير ذلك، وسُنَّة الله في الأمم أنَّ مَن اقترح منهم ءايةً فأُجيب إليها ثم لم يؤمِنْ أن يعاجَلَ بعذاب الاستئصال، والمعنى: وما [تركنا] إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أَن كذَّبَ بها الذين هم أمثالُهم من المطبوع على قلوبهم كعادٍ وثمود، وأنها لو أُرسلت لكذبوا بها تكذيبَ أولئك وعُذِّبوا العذابَ المستأصِلَ، وقد حكمنا أن نؤخّرَ أَمرَ مَن بُعثتَ إليهم إلى يوم القيامة، ثم ذَكَرَ من تلك الآيات التي اقترحَها الأوَّلون ثم كذَّبوا بها لمَّا أُرسِلَتْ فأُهلكوا واحدةً وهي ناقةُ صالح عليه السلام، لأن ءاثار هلاكِهم قريبةٌ من حدودهم يُبصرها صادِرُهم وواردُهم فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ باقتراحهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ ءايةً بينةً ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ فكفروا بها ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ المقترحَةِ [أي] لا نُرسلها ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ من نزول العذاب العاجل كالطَّليعة(١) والمقدِّمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم.

٦٠- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ﴾ واذكر إذ أوحينا إليك أنَّ ربَّك أحاط بقريش علمًا وقدرةً، فكلُّهم في قَبضته(٢)، فلا تُبال بهم وامضِ لأَمرك وبلِّغْ ما أُرسلت به ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [هي رؤيا عين لا رؤيا منام، وهي ما أُرِيَهُ النبي ﷺ ليلة الإسراء، والدليل على أنها رؤيا عينٍ أَنَّ رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما

---

(١) الطَّلِيعَة: القوم يُبعثون أمامَ الجيش يتعرَّفون طِلْعَ العدوّ بكسر الطاء أي خَبَرَه.

(٢) معناه كلُّهم في تَصَرُّفه وتحت مَشيئتِهِ، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن الأعضاء والجوارح.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥ﴾

كان أحد لينكرها]، أو بَشَّرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم، ولعلَّ الله تعالى أراه مصارعهم في منامه فقد كان يقول حين ورد ماءَ بدر وهو يومِئُ إلى الأرض: «هذا مصرع فلان» فتسامعت قريش بما أُري في منامه من مصارعهم فكانوا يضحكون ويسخرون ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ ما جعلنا الشجرةَ الملعونة في القرءان إلا فتنةً للناس، فإنهم حين سمعوا بقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الدخان] جعلوها سُخرية وقالوا: إن محمدًا يزعم أنَّ الجحيم تُحرِقُ الحجارة ثم يقول: تَنبتُ فيها الشجرة، وما قَدَروا اللهَ حقَّ قدره إذ قالوا ذلك، فإنه لا يمتنع أن يجعلَ اللهُ الشجرة من جنسٍ لا تأكله النار، فوَبَرُ السَّمَندل - وهو دُوَيْبَّةٌ ببلاد التُّرك - يُتَّخذُ منه مناديلُ إذا اتسخت طُرحت في النار، فذهبَ الوسخُ وبقي المِنديل سالمًا لا تعمل فيه النار، وتَرى النَّعامةَ تبتلع الجمرَ فلا يضرُّها، فجاز أن يَخلق في النار شجرة لا تحرقها ثم قال: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي بمخاوف الدنيا والآخرة ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويفُ ﴿إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ فكيف يخافُ قومٌ هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات.

٦١- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ [واذكر إذ قلنا للملائكة] ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ أي [لا أسجدُ لِمَن] أصلُهُ طين.

٦٢- ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا﴾ المعنى أخبرني عن هذا ﴿ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي فَضَّلته، لِمَ كرَّمته عليَّ و﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الأعراف] فحذف ذلك اختصارًا لدلالة ما تقدم عليه، ثم ابتدأ فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ لأستأصِلَنَّهم

﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً
مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ
فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ
عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

بإغوائهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ وهم المخلَصون، وإنما عَلِمَ الملعون ذلك بالإعلام، أو لأنه رأى أنه خَلْقٌ شَهْوَانيٌّ.

٦٣- ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ امض لِشأنك الذي اخترتَه خِذلانًا وتخلية، ثم عَقَّبه بذكر ما جَرَّه سوءُ اختياره فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ جزاؤهم وجزاؤك ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ [الموفور: المكمَّل].

٦٤- ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ استخِفَّ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ بالوَسوسة ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ اجمَعْ وصِحْ بهم مِنَ الجَلَبَةِ وهي الصياحُ ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ بكُلِّ راكب وماش مِن أهل العَيْثِ[1] ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ كُلُّ معصية في مالٍ ووَلدٍ فإبليسُ شريكُهم فيها كالربا والمكاسبِ المحرمة، والإنفاق في الفسوق، ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، والتسمية بعبد العزى وعبد شمسٍ ﴿وَعِدْهُمْ ۚ﴾ المواعيدَ الكاذبةَ من شفاعة الآلهة [التي زعموها] والكرامة على الله بالأنساب الشريفة وإيثار العاجل على الآجل ونحو ذلك ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ هو تزيينُ الخطأ بما يوهِمُ أنه صوابٌ.

٦٥- ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الصالحينَ ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ﴾ يَدٌ بتبديل الإيمانِ ولكن بِتَسْويلِ العِصيان ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ لهم يتوكلون به في الاستعاذةِ منك، والكُلُّ [من هذه الألفاظ الخارجة على صيغة الأمر: ﴿ٱذْهَبْ﴾ - ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ - ﴿وَأَجْلِبْ﴾ - ﴿وَشَارِكْهُمْ﴾ - ﴿وَعِدْهُمْ ۚ﴾] أمرُ تهديدٍ فيعاقَبُ به، أو إهانةٍ أي لا يُخِلُّ ذلك بمُلكي.

---

(١) العَيْثُ: الفساد.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ
رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ
ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟
لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾

٦٦- ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى﴾ يُجري ويُسَيِّرُ ﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ الربحَ في التجارة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ [حيث هيَّأَ لكم ما تحتاجون إليه وسهَّل عليكم ما تعسَّرَ من أسبابه].

٦٧- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي خوفُ الغرق ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ذَهَبَ عن أوهامكم كلُّ مَن تَدعونَهُ في حوادِثكم إلا إياهُ وَحْدَه(١)، فإنكم لا تذكرون سواهُ ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإخلاصِ بعدَ الخلاص ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافرُ ﴿كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ للنِّعَم.

٦٨- ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، تقديرُهُ: أَنجَوْتُم فأمنتم فحَمَلَكم ذلك على الإعراض ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أي يَقْلِبَهُ وأنتم عليه، والحاصلُ أن الجوانبَ كلَّها في قُدرته سواءٌ وله في كل جانب بَرًّا كان أو بحرًا سببٌ من أسباب الهلاك، ليس جانبُ البحر وحدَه مختصًّا به، بل إن كان الغرق في جانبِ البحر ففي جانب البَرِّ الخسفُ، وهو تَغييبٌ تحت التراب، والغرقُ تغييبٌ تحت الماء، فعلى العاقل أن يستويَ خوفُه من الله في جميع الجوانب وحيثُ كان ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ هي الريحُ التي تَحْصُبُ، أي ترمي بالحَصْباءِ(٢)، يعني أو إن لم يُصبْكُم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يُرسلها عليكم فيها الحصباء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ يَصرفُ ذلك عنكم.

٦٩- ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ أم أَمِنتم أن

(١) كانوا يذكرون الاسم من غير معرفته، لأن كلمة الله تذكر على ألسنة المؤمنين من العرب الأُوَل ومن جاء بعدَهم.
(٢) الحصباء: صغار الحصى.

﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾

يُقَوِّيَ دواعِيَكم ويُوفِّرَ حوائجَكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحرَ الذي نجَّاكم منه، فأعرضتم، فينتقمَ منكم بأن يرسل عليكم ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ وهي الريحُ التي لها قَصِيفٌ وهو الصوتُ الشديد ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بكفرانكم النعمةَ وهو إعراضكُم حين نجَّاكم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ مُطالِبًا يُطالبنا بما فعلنا [بكم].

٧٠- ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بالعقل، والنطق، والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المَعاش والمَعاد، وتناول الطعام بالأيدي ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ على الدوابِّ ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ على السفن ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ باللذيذات ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [أي جعلنا لهم مزايا على غيرهم من الخلق، بأن جعلهم في أحسن تقويم، وجعل الأنبياء فيهم وهم أفضل خلق الله على الإطلاق، ثم بعد الأنبياء في الفضل خواصُّ الملائكة كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحَمَلةِ العرش، ثم بعدَهم أولياءُ البشر فهم أفضل من عوامِّ الملائكة، ثم يليهم عوامُّ الملائكة].

٧١- ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ مختلطين بإمامهم، أي بِمَن ائتَمُّوا به من نبي، أو كتاب، أو دين، فيقال: يا أتباعَ فلانٍ، يا أهل دين كذا، أو كتابِ كذا ﴿فَمَنْ أُوتِىَ﴾ من هؤلاء المَدعُوِّين ﴿كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ ولا يُنقصون من ثوابهم أدنى شيءٍ، [والفَتِيل: الخيط الذي يكون في شِقّ نَواة التمرة]، ولم يذكر الكفارَ وإيتاءَ كتبهم بشمالهم اكتفاءً بقوله:

٧٢- ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾

كذلك ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ من الأعمى، أي أَضلُّ طريقًا، والأعمى مستعار مِمَّن لا يُدرِكُ المُبصَرات لفساد حاسَّته لِمَنْ لا يهتدي إلى طريق النجاة، أما في الدنيا فلفَقْدِ النظر، وأما في الآخرة فلأَنه لا ينفعُه الاهتداءُ إليه.

ولمَّا قالت قريشٌ: اجعَلْ ءاية رحمةٍ ءايةَ عذابٍ وءايةَ عذاب ءايةَ رحمة حتى نؤمن بك نزل:

٧٣- ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [لَيخدعونك، وذلك في ظَنِّهم، لا أنهم قاربوا ذلك إذ هو معصوم عليه السلام أن يقاربوا فتنته عما أوحي إليه] ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من أَوامِرنا ونواهينا وَوَعدنا ووعيدنا ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ [وكان رجاؤهم أن تتقوَّل] علينا ما لم نَقُلْ، يعني ما اقترَحوه من تبديلِ الوعدِ وعيدًا والوعيدِ وعدًا ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ أي ولو اتَّبَعْتَ مُرادَهم لاتَّخذوك خليلًا، ولكنت لهم وليًّا وخرجتَ من ولايتي.

٧٤- ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ ولولا تثبيتنا وعصمتنا ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ لَقاربت أن تميلَ إلى مكرهم ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ ركونًا قليلًا، [فمقاربَةُ الركون لم يقع منه ﷺ فضلًا عن الركون، والمانع من ذلك هو وجود تثبيت الله تعالى له].

٧٥- ﴿إِذًا﴾ لو قاربتَ تَرْكَنُ إليهم أدنى رَكنةٍ ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ لأذقناك عذابَ الآخرة وعذابَ القبر، [وقيل: عذاب الدنيا] مضاعَفَين لعظيم ذنبك بشرفِ منزلتك ونبوَّتك [والرسول عليه الصلاة والسلام معصوم ولكنه تخويف لأُمَّته لئلا يَركنَ أَحدٌ من

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا
لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ
لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ
ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾

المؤمنين إلى أحد من المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه] ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ مُعينًا لك يَمنع عذابنا عنك.

٧٦- ﴿وَإِن كَادُوا۟﴾ أهل مكة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ لَيُزعجونك بعداوتهم ومَكرهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من أرضِ مكةَ ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ لا يَبقَون ﴿خِلَٰفَكَ﴾ بعدَكَ، أي بعدَ إخراجك ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ زمانًا قليلًا، فإن الله مُهلكُهم، وكان كما قال، فقد أُهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل.

٧٧- ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ﴾ يعني أن كلَّ قوم أخرجوا رسولَهم من بين ظهرانَيهم، فسُنَّةُ الله أن يُهلكَهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ تبديلًا.

٧٨- ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لزوالها، وعلى هذا الآيةُ جامعةٌ للصلوات الخمس، أو لغروبها، وعلى هذا يَخرجُ الظهرُ والعصر ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ هو الظلمة، وهو وقت صلاة العشاء ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾ صلاةَ الفجر، سُمّيت قرءانًا وهو القراءةُ لكونها رُكنًا كما سُمّيت رُكوعًا وسُجودًا، أو سُمّيت قرءانًا لطول قراءتها ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ يشهدُه ملائكةُ الليل والنهارِ، ينزلُ هؤلاء ويصعَدُ هؤلاء، فهو في ءاخرِ ديوان الليل وأَوَّل ديوان النهار.

٧٩- ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ وعليك بعضَ الليل ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ والتهجُّدُ: تركُ الهجود للصلاة [أي القيام من النوم للصلاة] ﴿بِهِۦ﴾ بالقرءان ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ عبادةً زائدة لك على الصلوات الخمس ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ يوم القيامة فيُقيمَك مُقامًا محمودًا.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا
نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ
شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا
بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ
سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾

٨٠- ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ أَدخِلني القبرَ إدخالًا مَرضِيًّا على طهارة من الزَّلّات ﴿وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ أخرجني منه عند البعث إخراجًا مَرْضيًّا مُلَقًّى بالكرامة ءامنًا من المَلامة ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾﴾ حُجَّة تنصُرني على من خالفني.

٨١- ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ الإسلامُ ﴿وَزَهَقَ﴾ وذهب وهلك ﴿ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ الشرك ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾﴾ كان مُضمَحِلًّا في كل أوان.

٨٢- ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾ من أمراضِ القلوب ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وتفريجٌ للكروب، وتطهير للعيوب، وتكفير للذنوب ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾﴾ ضلالًا لتكذيبهم به وكفرهم.

٨٣- ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ بالصحة والسَّعة ﴿أَعۡرَضَ﴾ عن ذكر الله، أو أنعمنا بالقرءان أعرضَ ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تأكيد للإعراض، لأن الإعراض عن الشيء أن يولِّيَهُ عُرضَ وجهه، والنأيُ بالجانب أن يَلْوِيَ عنه عِطْفَهُ ويوليَه ظهرَه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقر أو المرض، أو نازلةٌ من النوازل ﴿كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾﴾ شديدَ اليأس مِنْ رَوْحِ الله[1].

٨٤- ﴿قُلۡ كُلّٞ﴾ أي كلُّ أَحَدٍ ﴿يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ على مَذهبه وطريقته التي تشاكِلُ حالَهُ في الهُدى والضلالة ﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾ أَسَدُّ مذهبًا وطريقةً.

٨٥- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ الجمهورُ على أنه

---

(١) من رَوْحِ اللهِ بفتح الراء: أي من رحمته بعباده.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ
بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ
ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ
ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾

الروحُ الذي في الحيوان، سألوه عن حقيقته، فأَخبرَ أنه مِن أمر الله، أي مما استأثَرَ بعِلمه. وقد عجزتِ الأوائلُ عن إدراك ماهيته بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه، والحكمة في ذلك تعجيزُ العقل عن إدراك معرفة مخلوق مُجاور له ليدُلَّ على أنه عن إدراك خالقه أعجزُ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾ [بالنسبة إلى علمه تعالى و] الخطاب عام.

ثم نبَّه على نعمة الوحي وعَزَّاهُ بالصبر على أذى الجِدال في السؤال بقوله:

٨٦- ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ إن شئنا ذهبنا بالقرءان ومَحَوْناه من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثرًا ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ ثم لا تجدُ لك بعد الذهاب به مَن يتوكَّلُ علينا باسترداده وإعادته محفوظًا مسطورًا.

٨٧- ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾﴾ إلا أن يرحمك ربُّك فيردَّه عليك، وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرءان محفوظًا بعد المِنَّة العظيمة في تنزيله.

٨٨- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾ مُعينًا، أي لو تظاهروا[١] على أن يأتوا بمثل هذا القرءان في بلاغته وحُسن نظمه لعجزوا عن الإتيان بمثله.

---

(١) أي: اجتمعوا وتعاونوا.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن
نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ
ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا
كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

٨٩- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ رَدَّدْنا وكَرَّرنا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ مِن كُلِّ معنًى هو كالمَثَل في غرابته وحُسنه ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ جُحودًا.

ولمَّا تبيَّنَ إعجازُ القرءان وانضمَّت إليه المعجزاتُ الأُخَرُ ولزمتهم الحُجة وغُلبوا، اقترحوا الآيات فِعْلَ المَبهوت[1] المحجوج المتحيِّر:

٩٠- ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي مكة ﴿يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ عينًا غزيرة من شأنها أن تَنبُعَ بالماء لا تُقطع.

٩١- ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا﴾ وَسْطَها ﴿تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾.

٩٢- ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قِطَعًا، يعنون قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴿٩﴾﴾ [سورة سبأ] ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ كفيلًا بما تقول شاهدًا بصحته.

٩٣- ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ ذَهَب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تصعَدَ إليها ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لأجل رُقِيِّك ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ﴾ من السماء فيه تصديقُك ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ [تعجيب] من اقتراحاتهم عليه ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ أنا رسول كسائر الرسل بشرٌ مثلُهم، وكان الرسلُ لا يأتون قومَهم إلا بما يُظهره الله عليهم من الآيات،

---

(١) المبهوت: المُتحيِّر.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ
كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا
رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ
ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ
وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾

فليس أَمرُ الآيات إليَّ إنما هو إلى الله، فما بالكم تتخيَّرونَها عليَّ.

٩٤- ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أهلَ مكة ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ النبيُّ والقرءان ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ التقدير: وما منعهم الإيمانَ بالقرءان وبنبوة محمد ﷺ إلا قولُهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ إلا شُبْهةٌ تمكّنت في صدورهم، وهي إنكارُهم أن يُرسِلَ اللهُ البشرَ، ثم ردَّ الله عليهم بقوله:

٩٥- ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ على أقدامِهم كما يمشي الإنسُ ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلَموا ما يجبُ عِلمه ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنين في الأرض قارّين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ يُعَلِّمُهم الخيرَ ويَهديهمُ المَراشِد، فأما الإنس فإنما يُرسَلُ المَلَكُ إلى مُختار منهم للنبوة، فيقومُ ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم.

٩٦- ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على أني بَلَّغت ما أُرسلت به إليكم، وأنكم كذَّبتم وعاندتم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ المُنذِرين والمُنذَرين ﴿خَبِيرًۢا﴾ عالمًا بأحوالهم ﴿بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ بأفعالهم فهو مُجازيهم، وهذه تسلية لرسول الله عليه الصلاة والسلام ووعيد للكفرة.

٩٧- ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ مَن وفَّقه الله لقَبول ما كان من الهُدَى فهو المُهتدِي عند الله ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ ومَن يَخْذُلْهُ ولم يَعصِمْهُ حتى قَبِلَ وساوسَ الشيطان ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي أنصارًا ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يُسحبون عليها ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ كما كانوا في الدنيا لا يَستبصرون ولا يَنطقون بالحق ويتصامُّونَ عن

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟
أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا
كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ
قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾

استماعه، فهم في الآخرة كذلك لا يُبصرون ما يُقِرُّ أَعينَهم ولا يسمعون ما يَلَذُّ مسامعَهم ولا ينطقون بما يُقبَلُ منهم ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ [سَكَنَ لَهَبُها، بأن أكلت جلودَهم ولحومهم من غير نقصان في ءالامِهم ولا تخفيفٍ عنهم من عذابهم، وقيل معناه: كلما أرادت أن تخبو] ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ توقُّدًا [بأن نُبَدِّلَ جلودَهم ولحومَهم فتعود ملتهبةً مُستعِرة].

٩٨- ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ ذلك العذاب بسبب أنهم كذَّبوا بالإعادة بعد الإفناء، فجعل الله جزاءهم أن سلَّط النار على [جلودهم] تأكلها ثم يُعيدها لا يزالون على ذلك.

٩٩- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [مع عظمها] ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ من الإنس ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو الموت أو القيامة ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ جُحودًا مع وضوح الدليل.

١٠٠- ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ رحمةُ رَبِّهِ: رزقُه وسائر نِعَمِه على خلقِه ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ﴾ أي لَبَخِلتُم خشيةَ أن يُفنيَهُ الإنفاقُ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ بخيلًا.

١٠١- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ هي العصا واليدُ والجرادُ والقُمَّلُ والضفادع والدم والحَجَر والبحر والطُّور الذي نَتَقَهُ[1] على بني

---

(١) أي: رَفَعَهُ مِن أصله.

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ
عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ
مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

إسرائيل ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فقلنا له: سَلْ بني إسرائيل، أي سَلْهُم مِنْ فرعونَ وقل له: أَرسِلْ معي بني إسرائيل ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ أي فقلنا له: سَلْهُم حين جاءهم ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ سُحِرْتَ فَخُولِطَ عَقْلُكَ.

١٠٢- ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعونُ ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما ﴿بَصَآئِرَ﴾ بيِّناتٍ مكشوفات إلا أنك مُعاندٌ، أي إني لست بمسحور كما وصفتَني بل أنا عالمٌ بصحة الأمر وأنَّ هذه الآيات مُنزلُها ربُّ السماوات والأرض، ثم قارَعَ ظنَّهُ بظنِّه بقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ كأنه قال: إن ظننتني مسحورًا، فأنا أظنُّك مثبورًا مصروفًا عن الخير، وظَنّي أصحُّ من ظَنّك لأن له أمارةً ظاهرةً وهي إنكارُك ما عرفتَ صحتَه ومكابرتُك لآيات الله بعد وضوحها، وأما ظَنُّك فكذب بَحْتٌ.

١٠٣- ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ يُخرجَهم أي موسى وقومَه ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مصر أو ينفيَهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ فَحَاقَ به مَكرُه بأن استفزّه اللهُ بإغراقه مع قِبْطِه.

١٠٤- ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد فرعونَ ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد فرعونُ أن يستفزَّكم[1] منها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي القيامةُ ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ جَمعًا مختلطينَ إياكم وإياهم، ثم نَحْكُمُ بينَكم

---

(١) أي: يُخرِجَكم.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ
عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ
لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾

ونَمِيْزُ بين سُعدائِكم وأشقيائكم، واللفيفُ: الجماعات من قبائلَ شتى.

١٠٥- ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ وما أنزلنا القرءانَ إلا بالحِكمةِ، وما نزلَ إلا مُلتبِسًا بالحق والحِكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالجنة ﴿وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ من النار.

١٠٦- ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ فصَّلناه أو فَرَقنا فيه الحق من الباطل ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ على تُؤَدَةٍ وتَثبُّت ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ على حسب الحوادث.

١٠٧- ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ اختاروا لأنفسكم النَّعيم المُقيم أو العذابَ الأليم، ثم عَلَّلَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي التوراةَ من قبلِ القرءان ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرءانُ ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ جمع الذَّقَن، وهو مَجمع اللَّحيين، وأراد بها الوجوه.

١٠٨- ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ أي أعرِضْ عنهم، فإنهم إن لم يؤمنوا به ولم يُصَدِّقوا بالقرءان فإنَّ خيرًا منهم - وهم العلماءُ الذين قرأوا الكتبَ - قد ءامنوا به وصَدَّقوه، فإذا تُلِيَ عليهم خَرُّوا سُجَّدًا وسَبَّحُوا اللهَ تعظيمًا لأمره ولإنجازه ما وَعَدَ في الكتب المُنْزَلة وبَشَّرَ به مِن بَعثة محمدٍ ﷺ وإنزال الفُرقان عليه، وهو المراد بالوعد المذكور.

١٠٩- ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ ومعنى الخُرور للذّقَن السُّقوطُ على الوجه، وإنما خُصَّ الذَّقَن لأنَّ أقربَ الأشياء من وجهه إلى الأرض عند السجود الذقنُ، وكرَّرَ ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ لاختلافِ الحالين، وهما

﴿وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾﴾

خرورُهم في حال كونهم ساجدين، وخرورُهم في حال كونهم باكين ﴿وَيَزِيدُهُمۡ﴾ القرءان ﴿خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ لينَ قلبٍ ورطوبةَ عين.

١١٠- ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ لمَّا سَمِعَه أبو جهل يقول: يا اللهُ يا رحمٰنُ، قال: إنه نهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلهًا ءاخر فنزلت ﴿أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ﴾ أيَّ هذين الاسمينِ ذكرتُم وسمَّيتُم ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي أيًّا ما تدعوا فهو حَسَن ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾ بقراءة صلاتك، وكان رسول الله ﷺ يرفَعُ صوتَه بقراءته، فإذا سمعَها المشركون لَغَوْا وسَبُّوا، فأُمرَ بأن يخفِضَ من صوته، والمعنى: ولا تجهر حتى تُسمع المشركين ﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ حتى لا تُسمعَ مَن خلفَك ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الجهر والمُخافتة ﴿سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾﴾ وسطًا.

١١١- ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ كما زَعَمَتِ اليهودُ(١) والنصارى ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ كما زعم المشركون ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾ لم يَذِلَّ فيحتاجَ إلى ناصر ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾﴾ وعظِّمْهُ وصِفْهُ بأنه أكبرُ [وأعظمُ شأنًا] من أن يكون له ولد أو شريك.

---

(١) فرقة من اليهود عبدت عزيرًا وقالت: عزيرٌ ابن الله.

تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث وأوله تفسير سورة الكهف

الفهرس العام

- مقدمة المحقق ٣
- ترجمة الإمام النسفي ٦
- مقدمة المؤلف ١١
- فاتحة الكتاب مكية وقيل مدنية والأصحُّ أنها مكّية ومدنية ١٣
- سورة البقرة مدنية وهي مائتان وست أو سبع وثمانون ءاية ١٩
- سورة ءال عمران نزلت بالمدينة وهي مائتا ءاية ١٧٤
- سورة النساء نزلت بالمدينة ءاياتُها مائةٌ وسِتٌّ وسَبعونَ ءايةً ٢٥٣
- سورة المائدة مدنية وهي مائة وعشرون آية ٣٣٠
- سورة الأنعام مكية وهى مائة وخمس وستون ءاية كوفي أربع وستون بصرى ٣٨٤
- سورة الأعراف مكية وهي مائتان وخمس ءايات بصري [عند البصريين] مائتان وست ءايات كوفي ومدني [عند الكوفيين والمدنيين] ٤٣٤
- سورة الأنفال مدنية وهي خمس أو ست أو سبع وسبعون ءاية ٤٩٨
- سورة التوبة مدنية وهي مائة وتسع وعشرون ءاية كوفي ومائة وثلاثون غيره ٥٢٥
- سورة يونس مائة وتسع ءايات مكية وكذا ما بعدها إلى سورة النور ٥٧٣
- سورة هود عليه السلام مكية وهي مائة وثلاث وعشرون ءاية ٦٠٥
- سورة يوسف عليه السلام مكية وهي مائة وإحدى عشرة ءاية شامي، واثنتا عشرة مكي ٦٤٠
- سورة الرعد مكية، وهي ثلاث وأربعون ءاية كوفي، وخمس وأربعون ءاية شامي ٦٧٩
- سورة إبراهيم عليه السلام مكية، وهي اثنتان وخمسون ءاية ٦٩٦
- سورة الحجر وهي تسع وتسعون ءاية مكية ٧١٣
- سورة النحل مكية وهي مائة وثمان وعشرون ءاية ٧٢٩
- سورة الإسراء مكية، وهي مائة وعشر ءايات بصري وإحدى عشرة ءاية كوفي وشامي ٧٦٤
- الفهرس العام ٧٩٦